

محمود عيسى الحليم

التيق والتمسك

في سبيل التمسك

بقلم





محمود عبد الحليم

عضو الهيئة التأسيسية

الإخوان المسلمون

أحداثٌ صيغتُ التاريخ

رؤية من الداخل

لجنة الأون

١٩٢٨ - ١٩٤٨

دار الدعوة

للطبع والنشر والتوزيع

١ شارع مشا - محم بك (الاسكندرية)

الطبعة الخامسة
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

♦ إلى روح الرحلين العظيمين .. اللذين وضع أدلهما
 الأساس للدعوة الإسلامية في هذا العصر ونبته في الأعماق
 وأسفل جذرة الإيمان .
 ثم جاء الثاني فرفع القواعد وسط الرياح الهوج والأعاصير
 العاتية .. وراح كلاهما يشهد هذه الجذرة أن تطغى .
 ♦ إلى الرجال الذين استجابوا لندائهما واتبعوهما وعززوهما
 ونصروهما .. فمنهم من قضى نحده ومنهم من ينتظر وما بدلوا
 تبديلا

♦ إلى شباب هذا الجيل الذي حجت عنه الحقائق لينشأ غريبا
 عنه أهلهم ودينه وقيمه .. لعلهم يرجع إلى أصلاته ودينه وقيمه
 بعد غيبة قاربت ثلاثين عاما

محمد عيسى

بسم الله الرحمن الرحيم

تَقْدِيمٌ بِقَلَمِ : الداعية الأستاذة رطلقي مشهور

إن هذه الشجرة الطيبة التي غرسها الإمام الشهيد حسن البنا منذ أكثر من خمسين عاما ورواها بدمه هو والشهداء من قبله ومن بعده تعمقت جذورها وامتدت فروعها واستعصت على أعداء الله أن يقتلعوها رغم محاولاتهم الشرسة المتتالية ، إنها في الحقيقة دعوة الله ، والله غالب على أمره ولن يطفئ نور الله بشر .

واستقراء من سنة الله في الدعوات ، توقع الإمام الشهيد ما ستعرض له هذه الجماعة من الابتلاءات والمحن ومن إلصاق التهم الباطلة بها من أعداء الله لصد الناس عن سبيل الله . فكتب للإخوان يصارحهم بهذه الحقيقة :

أحب أن أصارحكم أن دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس ويوم يعرفونها ويدركون مراميها وأهدافها ستلقى منهم خصومة شديدة وعداوة قاسية ، وستجدون أمامكم

كثيراً من المشقات ، وسيعترضكم كثير من العقبات ، وفي هذا الوقت تكونون قد بدأتم تسلكون سبيل أصحاب الدعوات . فما الآن فلا زلتم مجهولين ولا زلتم تمهدون للدعوة وتستعدون لما تتطلبه من كفاح وجهاد . سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة في طريقكم ، وستجدون من أهل التدين ومن العلماء الرسميين من يستغرب فهمكم للإسلام ، ويكره عليكم جهادكم في سبيله ، وسيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذوو الجاه والسلطان ، وستقف في وجهكم كل الحكومات على السواء ، وستحاول كل حكومة أن تحمد من نشاطكم وأن تضع العراقيل في طريقكم .

وسيتنزع الغاصبون (١) بكل طريق لناهضتكم وإطفاء نور دعوتكم ، وسيستعينون في ذلك بالحكومات الضعيفة والأخلاق الضعيفة والأيدي الممتدة إليهم بالسؤال وإليكم بالإساءة والعدوان . وسيثير الجميع حول دعوتكم غبار الشبهات وظلم الاتهامات وسيحاولون أن يلصقوا بها كل نقيصة وأن يظهروها للناس في أبشع صورة معتمدين على قوتهم وسلطانهم ، ومعتمدين بأموالهم ونفوذهم . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

وستدخلون بذلك ولا شك في دور التجربة والامتحان : فتسجنون ، وتقتلون ، وتشرذون ، وتصادر مصالحكم ، وتعطل أعمالكم ، وتفتش بيوتكم ، وقد يطول بكم مدى

(١) المستعمرون

هذا الامتحان : «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون» ولكن الله وعدكم بعد ذلك كله نصرة المجاهدين ومثوبة العاملين المحسنين : «يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم ، فأصبحوا ظاهرين» فهل أنتم مصرون على أن تكونوا أنصار الله ؟ (١)

وحدث ماتوقعه الإمام ، ودخل الإخوان دور الامتحان والابتلاء ، ولقوا كل ألوان التعذيب والتنكيل ، وطال بهم مدى هذا الامتحان فصبروا وما جزعوا وضربوا الأمثال في الوفاء بالعهد وصدق اللقاء ... وحفظ الله هذه الدعوة وقبض لها الإمام حسن الهضيبي رحمه الله في تلك الفترة وكان رمزا للثبات والصمود وعدم التفريط في أمانات الدعوة وصلابة الحق أمام بطش وجبروت أهل الباطل حتى لقي الله وقد قرت عيناه : أن هذه الجماعة لن يحلها قرار حل ولن تحت شجرتها .

وان كانت هذه الظروف القاسية والصراع المرير والواجبات التي تتراحم والمسئوليات الملقاة على عاتق هذه الجماعة في طورها العالمي الجديد يجعل تسجيل تاريخ الجماعة لا يجد الوقت والجهد المناسب في الوقت الذي ينقرض فيه الجيل الذي حمل عبء الدعوة في مراحلها الأولى ، ولكن رغم ذلك فهناك جهد يبذل في هذا الجانب والحمد لله .

والأخ الفاضل الأستاذ محمود عبد الحليم ، من الرواد الأوائل الذين سبقوا إلى هذه الجماعة وعاشوا وجاهدوا في ظلها وعاصروا أحداثها منذ الثلاثينات ، وقد سباه الله بذاكرة جيدة وحافظة قوية ، فعز عليه أن يرى

(١) عن رسالة «بين أمس واليوم» للإمام الشهيد حسن البنا

أعداء الله والمغرضين والأقلام المأجورة يزورون تاريخ الجماعة ويزيرون الحقائق ويشوهون الصورة ، وشعر أن السن تتقدم به — وأحس بواجب تسجيل هذه المذكرات ؛ لتكون مادة تعين الباحثين على مهمة التأريخ الصادق لهذه الجماعة ، ومصدراً يرجع إليه كل إنسان شريف ينشد الحقيقة في مظانها الصحيحة .. فجزاه الله خير الجزاء على ما بذل من جهد .

هذا وكما قال الأخ محمود في المقدمة ، عما أبداه من رأى وتحليل لبعض القضايا التي كانت تعرض في مذكراته ، كان تعبيراً عن رؤيته الشخصية ووجهة نظره الفردية «ليس من حق أن أقرر أن تحليلي هو التحليل الأوحد» ، أو أن رأيي هو الرأي الأصوب فلكل إنسان أسلوب في التحليل ورأى فيما يعالج من قضايا، وهذا وإن كان أمراً بديهيًا ولكن ذكره له في التقديم تذكير مشكور .

وإذا كان تسجيل تاريخ أى حركة هو جزء من الحركة وأمر لازم ومفيد ، فأحب أن ألفت نظر الأخ القارئ أن مثل هذه المذكرات التي تروى بعض جوانب حركة الإخوان المسلمين تعطى دروساً تربوية للأجيال الناشئة لا مجرد سرد لأحداث وما أكثر العبر والدروس في تاريخ الحركات الإسلامية وما أحوج الأجيال الناشئة إليها حتى لا يبدأوا من فراغ .

وأسأل الله أن ينفع بهذه المذكرات وأن يجازي الأخ الأستاذ محمود عبد التحليم خيراً ، وأن يؤيد هذه الجماعة الظاهرة على الحق وكل عامل للإسلام حتى يأتي نصر الله ويمكن لدينه في الأرض .. إنه تعالى أكرم مسئول ..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

مصطفى مشهور

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة الله وسلامه على رسوله الكريم ؛ محمد الذي أرسله إلى الناس كافة منتقداً ومصلحاً ومبشراً ونذيراً ، وأنزل عليه الكتاب الذي وصفه فقال :

«وأنزلنا عليك الكتاب تبيناً لكل شيء» وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين»
 «وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك
 عن بعض ما أنزل الله إليك ، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم
 ببعض ذنوبهم ، وإن كثيراً من الناس لفاسقون . الحكم الجاهلية يهون ؟
 ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟»
 وبعد

فإن دعوة الإخوان المسلمين هي صدى الدعوة الأولى وليست بالدعوة المستعجلة ، فهي طود
 من أطوار الدعوة الإسلامية ظهرت في هذا القرن بظهور حسن البنا سنة ١٩٢٨ .. وتناهب في
 أيامنا هذه لظهور جديد .

والذي بين دفتي هذا الكتاب ليس تاريخاً لهذه الدعوة ، وإنما هي جوانب منها عاصرتها وشاركت
 في أحداثها وكنت جزءاً منها ... ولا أدعى أن هذه الجوانب هي كل جوانبها . ولا يستطيع أحد
 أن يدعى لنفسه مثل ذلك ، في دعوة بلغت من اتساع الرقعة حداً يقصر عن الإحاطة بمدها نظر ناظر
 واحد - مهما قوى بصره - وتشعبت تشعباً جعل متابعتها في كل اتجاه أمراً مستحيلاً ، فحسب كل
 ناظر أن يصف ما وقع في مجال نظره ، وحسب كل ذي موقع فيها أن يتحدث عما مكنه موقعه من
 الإحاطة به .. وبعد أن يصف الجميع ما رأوا ، وبعد أن يتحدث جميع ذوي المواقع فيها عما أحاطوا ،
 يأتي دور المؤرخين الذين يجمعون كل ما رأى الرامون وتحدث المتحدثون ليخرجوا من مجموعته
 بتاريخ هذا الطور من أطوار هذه الدعوة .

والذي يتمرس بدراسة هذا الطور من الدعوة الإسلامية سيجد نفسه أمام سلسلة متداخلة الحلقات
 من الأحداث . وأقصد بالتداخل أنها ليست أحداثاً مترادفة يتلو بعضها بعضاً ، فكلما انتهى حدث

بدأ آخر ، بل إن أكثر من حدث قد يقع في وقت واحد ، ذلك بأن هذه الدعوة تعمل في أكثر من ميدان ، وتحارب في أكثر من جبهة .. ومن هنا رأيت أن أقرر للقارئ - بادي ذي بدء - حقيقة يجب أن أقررها هي أنني حين أكتب هذه الصفحات لن أكون مؤرخاً يجمع شتات الأحداث ، ويهرى وراءها حيث كانت حتى لا يفلت منه شيء ، وإنما أنا أكتب عن أحداث وقعت بين يدي وشاركت فيها .. وقد أكون مخالفت هذه القاعدة في نقطتين اثنتين : أولاً ما كتبه عن قيام الدعوة في الإسماعيلية ، وقد راعيت فيه الاختصار التام ، وقد سمعته من الأستاذ الإمام نفسه ، والآخرى بطولات الإخوان في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ، وقد أثبت في بابها أنني نقلت أكثر ما كتبه عنها من كتاب الأخ الكريم الأستاذ كامل الشريف الذي كان من كبار قادتها .

* * *

وتحليل الأحداث ، وإبداء الرأي في القضايا ، أمر لا مفر منه لإنسان عاصر هذه الأحداث وباشر هذه القضايا . ولكن ليس من حق أن أقرر أن تحليل هو التحليل الأوحد ، وأن رأيي هو الرأي الأصوب ، فلكل إنسان أسلوب في التحليل ، ورأي فيما يعالج من قضايا .. وحسبي أنني بسطت المواضيع ، وألقيت الأضواء على الظروف والملابسات ، وكشفت التناقض عن كثير مما غشيه الغموض .. وهذه هي المعلومات الكافية لتغذية القوة الحاسبة في العقل البشري لتخرج لك الحكم الصحيح والرأي السديد .

* * *

وليس المقصود من تسطير ما سطرت ، ومن سرد ما أوردت ، ومن الإشارة فيما أوجزت ومن الإفاضة فيما أسبغت .. هو إمتاع القارئ بقصة طولها خمسون عاماً ، يملأ بها فراغ وقته ، ويزيد بمعلوماتها مخزون علمه ، وإنما المقصود من ذلك أن أبرز له صورة محددة المعالم للفكرة الإسلامية ، وأوضح له كيف حمل الفرد المسلم أعباء هذه الفكرة ، وكيف أخذ بها نفسه ، وكيف خاطب بها مجتمعه . وأبين له كيف تلقت المجتمعات هذه الفكرة : فجتمع الأكثرية المغلوبة على أمرها من الفقراء والضعفاء ، تلقوها بترحاب . وجمتمع الأغنياء والمترفين والحكام تلقوها برفض وصراف . وجمتمع ذوي المصالح من المستغلين والمستعمرين تلقوها بحذر ومكر وتأمر - وأجلى له الأسلوب الذي واجه به حامل هذه الفكرة هذه المجتمعات ، والصراعات التي نشأت بحلال هذه المواجهات ، وكيف اشتدت ، وكيف احتدمت ، وكيف تفاننت ، وإلى أية نهاية انتهت .

* * *

وقراء هذه المذكرات من أبنائنا من هذا الجيل الجديد ، سيجدون أنفسهم حين يقرأونها أمام أحداث وشخصيات لا عهد لهم بأكثرها .. فهل يصبر لهم ذلك عن قراءتها أم يكون ذلك حافزاً لهم

على الإقبال عليها واستيعابها ؟ .. فإذا صرف لهم ذلك عن قراءتها فيكون ذلك دليلاً على أن المؤامرة العالمية ضد الدعوة الإسلامية قد تم لها النجاح ، واكتملت لها أسباب الفوز ، فإن الحلقة الأخيرة في سلسلة هذه المؤامرة هي إسدال ستار كثيف على هذه الأحداث وعلى هذه الشخصيات ، وبمحاولة صوغها من صفحة التاريخ ، وإذا لم يكن بد من إبراز بعضها لليكن إبرازه في صورة مقلوبة أو مشوهة على الأقل .. ذلك أن مدبري المؤامرة العالمية حريصون كل الحرص على أن لا يعرف هذا الجيل والأجيال التي تليه أن هذه الأحداث هي التي صنعت التاريخ الذي يعيشونه .

* * *

ومن نافلة القول أن نقول : إن شعباً يجهل حقيقة ما فيه محال أن يتطلع إلى مستقبل مشرق . والمعلومات التاريخية لا تؤخذ عن الطريق الرسمي ، لأن حرص الحكام على استبقاء أزمة السلطة في أيديهم وفي أيدي شيعتهم من بعدهم ، يدفعهم عادة إلى صياغة التاريخ بأسلوب الذي يحقق أمانهم ويظهرهم في أحسن المظاهر ، ويظهر منا فيسبهم في أدنى درك من الخسة والذلالة .. وهم لا يقتصرون في الصياغة على تزوير الأحداث التي تجري في أيامهم لحسب ، بل تمتد أيديهم إلى الأحداث التي سبقتهم فيعملون فيها المسخ والتزوير . ولو أدرك علمهم في أحداث المستقبل لزوروا حسابهم .. ولكنهم مع تصور علمهم بأحداث المستقبل يثقون في أنهم سيطرون عليها بما زوروا من أحداث أيامهم وأحداث سابقهم ؛ فعقول الجيل التي صيرت بالمعلومات المزورة ، ولشتت عليها وملئت بها فن بنى مستقبلها إلا على ضوء ما ملئت به من زيف وتزوير ..

ومن هنا كان الخطر الداهم والكارثة المروعة .. ويمكن الخطر والترويع في ذلك أن هذا الجيل حين يتجه بمستقبل بلاده إلى الهاوية - إكالا للخط الذي رسم له في ماضيه وحاضره - يتجه وأما أنه متجه إلى الأمن والسلامة ؛ فهو لا يلتفت إلى محذر ، ولا يستمع إلى ناصح .. وأمثال هؤلاء أنبأنا القرآن عنهم وحذر من خطورة انحدارهم إلى الهاوية وهم غافلون فقال هل أنبئكم بالأخسرين أمعالا ؟ الذين عمل سعيم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وإذا كان الله عز وجل قد تكفل لكلمة الحق أن لا تطفأ شعلتها وأن لا يخبو صوزها ، فهذا شأنه سبحانه وهذه مشيئته .. أما أن يكشف مصروبو الميول المصائب عن أعينهم ليروا هذه الكلمة فهذا شأن آخر تركه سبحانه لعباده إن شاعوا رفعوها فرأوا ، وإن شاعوا أبقوا عليها وتشبثوا بها فظفروا في صلاهم سادرين ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفره والله رتب دلي هذا التحذير الثواب

والعقاب وحده يوماً للحساب «إنا أعتدنا للظالمين نارا» أحاط بهم سرادقها» كما تحيط المصابة -
التي يتشبثون بها - بأعينهم فتحصروها عن رؤية الحق وهم بذلك راضون وعن الحق فاكبون . .

* * *

وما ينبغي أن يعلمه القارئ أن هذه الدعوة .. على مكانتها بين دعوات العالم ، ومع صراعتها
مع الظلم والظفان في الداخل والخارج طيلة خمسين عاماً - فإنها لم تمن بجانب التسجيل عناية كافية .
وقد لا يحس بخلوها من هذه الناحية الهامة إلا من عرض نفسه - مثل - لتسجيل أحداثها ..

وقد يعزى ذلك إلى أن هذه الدعوة قد تملكيت من أول يوم أفئدة من آمنوا بها وعاهدوا على
العمل لها ، بحيث لم تدع لأحد منهم فرصة يخلو فيها إلى نفسه ، أو يخلد فيها إلى راحته ، فهو دائم
الحركة ، يواصل الليل بالنهار ، متنقلاً بين المجتمعات ، غارقاً في محادثات ومناقشات ، عاكفاً
على إعداد خطط ومناهج .. حتى إذا أوى إلى فراشه منهكاً لا تكتحل عيناه بنوم حتى تجتر عيقلته
ما عانى طول يومه من حقوق الدعوة عليه .. ويصحو من نومه حين يصحو على ما أوى إلى فراشه
عليه من التفكير في الدعوة وحقوق اليوم الجديد ، فهو في سباق مع الزمن ، لا يفرغ لحظة من ليل
أو نهار .. فأنى هؤلاء أن يسجلوا ؟!

ثم كانت أحداث جسام ، وظلمات طال ليلها ، ولهر وكبت وتعذيب وإعنات .. طال الالمد
على الكلمة المسجونة في أغوار الذاكرة أكثر من عشرين عاماً ، حتى بات استخراجها منها أمراً
عسيراً . واختلطت الكلمات في سجنها بعضها ببعض بلعل الزمن حتى لم يعد صاحب الذاكرة
يعرف أيها السابق وأيها اللاحق ، وتداخلت التواريخ ، وأصبح صاحب الذاكرة على خطر
عظيم .

* * *

هذه سقائى مرة واجبتها في أول يوم أمسكت فيه بالقلم لأسجل أحداثاً لهذه الدعوة عاصرتها
وشهدها وساهمت في الكثير منها .. وجدت مخزون ذاكرتي على ما صورت . وحاولت الرجوع
في شأن هذه الأحداث إلى مرجع فوجدت الساحة خاوية الوفاض .. أغفل الإخوان في غمرة فنائهم
في دعوتهم أن يولوا ناحية التسجيل أدنى اهتمام .. ثم أنت يد الإثم والعنوان من عردة الأحكام على
الوثائق والمحركات والصحف والمجلات في كل مكان خاص وعام ، فلم يبق شيء يرجع إليه أو
يعتمد عليه .. حتى المكتبات العامة جردوها من كل ما يمت إلى هذه الدعوة بصلة .

وبالرغم من طول الأمد ، وتراودف الأرزاء ، وانقطاع الصلوات ، فإن الأحداث التي
عاصرتها لم تند عن خاطري لأنها كانت للذة من كبدي ، ولطمة من ذات نفسي ، وجزءاً من

أصابع ودي ؛ تكيف أساها ؟ .. ولكن الذي أماني هو الترتيب الزمني لبعض هذه الأحداث وهو أمر جوهري لا فني منه لمن أراد تسجيل أحداثاً .

ولم أجد أماني إلا مراجعة الصحف اليومية التي صدرت في خلال أربعمائة عام مضت .. والله مكنت على مراجعة هذه الصحف ودخاً طويلاً من الزمن ، فوجدت فيها طلبتي في الترتيب الزمني لما في خاطري من أحداث .. ولقد ألفت من مراجعتي هذه الصحف ثالنتين ، أولاهما ترتيب الأحداث كما قدمت ، والأخرى لخصوص بعض المذكرات والخطابات ..

وما يدل على أن جانب التسجيل لم يزل حظه في دعوة الإخوان المسلمين ظهور كتاب في هذه الأيام يضم مذكرات الدعوة والدعاة للأسناد الإمام حسن البنا رحمه الله ، فقد جاءت هذه المذكرات برهاناً قاطعاً على إقبال هذه الناحية الهامة ، فلم يسجل في هذه المذكرات غير مشار مامر بصاحبها من أحداث . ولم يكن - رضي الله عنه - عاجزاً عن تسجيلها وتحليلها ولكن فككت فاءت الأقدار .

وهذا الفراغ في ميدان التسجيل الذي رأيت دعوة الإسلام في هذا القرن تعانيه هو الذي دفني إلى النهوض بهذا الواجب ملا جزء من هذا الفراغ ، وأداء لخلق هذه الدعوة غل . وإطداراً إلى الله في حق هذا الجيل والأجيال القادمة .

* * * *

ولقد تعرضت في هذه المذكرات لمعالجة نقاط ذات حساسية بالغة ، وبما تحافى الكثيرون المعرض لها ، وحاولوا تفاديها . ولكنني آثرت التعرض لها مدفوعاً إلى ذلك بقوايح منها : أن هذه النقاط - منها بلغت درجة حساسيتها - هي جزء من تاريخ هذه الدعوة ، وكان لها آثار عميقة في هذا التاريخ . وما كان ينبغي لعارض أحداث تاريخ أن يغفل جزءاً منه استحياء من ذكره أو طمساً لمعاله ، أو إهالة للتراب عليه حتى لا يراه الناس .. والتاريخ - كما يقولون - لا يرحم . فإذا تعامى عنه أصحابه وأغفلوه فسيتولى نفره غيرهم .. وحينئذ لا يلام النافرون إذا هم لغروه مشوهاً أو مهزلاً .

ومن هذه الدواعي أنني كنت أكثر الناس ملاسة هذه النقاط ، وأشداهم اتصالاً بها ، وأقربهم رؤية لحقائقها ، فكان لزاماً علي أن أعرض لها لاكشف النقاب عن كثير مما غاب عن الرائين من بعد من قسائتها ، وأن أسلط الشام ما عني من ظروفها وبواعثها ، وأن ألقى حتى التاريخ في تمحيصها وتحليلها .

ودافع ثالث هو أن ألفت النظر - نظر أصحاب الدعوات وأتباعها من الأجيال القادمة والأجيال القادمة - إلى أن إطلاق العنان للأوطاف - مهما زلت هذه العواطف ومهما حسن قصدتها - قد يجرى على الدعوات ومجتمعاتها . وأن السبيل الأقوم دائماً فيما يتصل بالمجتمعات هو الاقتصاد في العواطف والسيطرة عليها والحد من انطلاقتها .

كما ألفت نظر القارئ على شئون الدعوات الشريفة إلى أن تعلق نفوسهم بأبهة المناصب فيها ، ومحاولة الاستئثار بمواقع السلطة والنفوذ بها ، قد يكون عاملاً مدمراً لها . وأن هذه الدعوات لا يصلح لها إلا من يهبها قلبه كله ووجدانه كله . أما الذين يتذبذبون بين لداء دعوتهم ولداء مصالحهم الشخصية أو العائلية ، فمرعان ما تشدهم الجاذبية الأرضية بمغرياتهما فيهونون إلى القرار ودائل عليهم نبأ الذي آتاه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أفلج إلى الأرض واتبع هواه .

ولما كانت الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ، لم تأت لتخاطب طائفة معينة ، ولا لتتعامل فئة محدودة ، ولا لتعالج قضايا زمن خاص أو مكان محدد ، فقد كان عليها أن يكون كتابها منشور لا يخفى صغيرة ولا كبيرة دون أن يبرزها بين يدي العالم كله . فلا حجب ولا أسرار ، ولا خصوصيات يحتفظ بها وراء أستار . ولقد تعرض القرآن الكريم نفسه لأحداث هي من أخص خصوصيات محمد صلى الله عليه وسلم وأسرته ، قد يتحاشى الكثيرون إذا وقع لهم مثلها أن يسمحوا بذكرها بل يحاولون إخفاءها حتى لا يطلع عليها الناس . ولكن القرآن تناولها في آياته التي تتل ليل نهار ، وعلى ملا الدنيا كلها ، وعلى مر الزمن في كل مكان . تناولها بمجرد الإيمان والإشارة العابرة ، بل تناولها باليسر والإسهاب وبالتحليل والتفصيل والتعقيب ، وخرج منها بقواعد عامة تنتفع بها المجتمعات . وما نبأ حادثة الإفك ببعيد .

* * * *

وقد يكون من حق القارئ أن أعتذر إليه فيما قد يلاحظه في الصفحات الأولى من هذه المذكرات من أسلوب هو أقرب إلى الهدوء منه إلى الإنارة ... ذلك أنني .. كما قدمت - لست أخير موضوعات مجرد الإمتاع ، وإنما أنا ملتزم بالتمشى مع هذه الدعوة في أطوارها . فإذا كانت الدعوة في مهدها لا تزال تخطو حافية وئيدة - كدأب كل كائن وليد - فما كان لي أن أنتحل لهذا الوليد ما ليس من طبيعته وما هو فوق طاقته .

وعلى القارئ أن يوطن نفسه على أن الذى بين يديه فى هذه المدثرات تاريخ حياة لا قصه من نسج الخيال. ولكل طور من أطوار الحياة سمات وخصائص ، فلا يتمثل ما ينشد من أحداث مشيرة ، فإن الوليد الذى تنسرب لولاه الكليل ، وتسدل من حوله الستائر ، لن يلبث حين يشب أن ينبثق عنه فارس مغوار يأتى بالعجب العجائب ، ويأخذ بالقلوب والألباب .

* * * *

وهناك قضية جدية أن يفهمها القارئ موضع التمييز والمناقشة ، هى أن يجمع كاتب المذكرات فى ثنائى تسجيله لأحداث الدعوة ومواقفها إلى تناول بعض جوانب حياته ومعالم شخصيته. فهل فى هذا ما يعد خروجاً عن الموضوع ، وانتقالاً بالقارئ من ميدان حياة نفسه وفكره لاستطلاع ميدان آخر لا يعنيه أمره ؟

أما أنا فأعتقد أن هذا الأسلوب هو الأسلوب الأمثل فى كتابة المذكرات بل وفى تأليف الكتب عامة ، فإن القارئ حين يقرأ كتاباً لا يعرف عن مؤلفه إلا اسمه ، يكون كالغريب الذى يرتاد مدينة واسعة الأرجاء ، مترامية الأطراف ، لا عهد له بها ، دون دليل معه من أهلها . فقد يضرب فى شوارعها وحاراتها وأزقتها على غير هدى ، وقد يرى من معالمها ما تقع عليه عيناه ، وقد يأوى فى النهاية إلى مأوى فيها .. لكنه فى ذلك كله لا يشعر بألفة ولا بالتناس ، ولا يخرج بصورة واضحة عنها - أو يكون الذى يتخطط طريقه فى الظلام بغير مصباح يكشف له معالمه ، ويدخل الاطمئنان إلى نفسه ، فهو يخطو ما يخطو متوجساً خائفاً .

لتقديم المؤلف نفسه إلى قارئه ، وكشفه له عن بعض جوانب نفسه ، وإلقاء الضوء بين يديه عن شروحه من معالم حياته .. يدخل الأنا إلى نفس القارئ ، ويبحث روح الألفة بينه وبينه ، ليسير فى قراءة الكتاب وقد عقد مع المؤلف صداقة أتاح لها أن يكونا متلازمين فى رحلة طويلاً طول الكتاب .. وكلما قرأ عن مؤلف أو حدث أو فكرة قرأها وهو يرى جلورها التى تلبث منها وبدورها التى انفلتت عنها . فلا تكون القراءة فى هذه الحالة قراءة سطحية لا يصل أثرها إلى أعماق النفس .

ثم إن حياة الدعوات ليست إلا حياة رجالها ودعائها . والفصل بين حياتهم وحياتها أمر غير مستطاع لا سيما إذا كانت الدعوة قد شكلت حياتهم ، وسيطرت على كل تصرفاتهم حتى لنواحيها لصاروا وإياها كما قال الشاعر :

وما زلت إليها وإيما لم تزل
ولا فرق بل ذاتي لذاتي أحيت
وموق بها وجداً حياة هنيئة
وإن لم أمت في الحب عشت بنصة
لكيف إذن تفصل بين حياة الدعوة وحياة دعائها ؟ .. وإذا تجردت حياة الدعوة من حياة
دعائها صارت مجرد فكرة بجهاها الدراسة العلمية الفلسفية ، وانقطعت صلتها بواقع الحياة .

* * * *

وتلحق هذه المذكرات بطبيعة موضوعها في ثلاثة أجزاء . يعالج الجزء الأول منها الدعوة في
مهد المرشد الأول ، ويعالج الجزء الثالث منها الدعوة في عهد المرشد الثاني . ويعالج الجزء الثاني
الدعوة فيما بين المهلين

ولما شرعت في تبويب الجزء الأول لاحظت أن أطوار الدعوة فيه مرتبطة بالأمكنة التي شغلها
المركز العام في خلال تلك الحلقة من الزمن ، ففتوت كل باب منها بعنوان من عناوين المركز
العام لجاءت بذلك أربعة أبواب .

ولد وطأت المذكرات بمدخل قنمت فيه نفسي إلى القارئ ، وأومات إلى تأثير نشأت في
اتجاهي الذي انتهى بـ إلى دعوة الإخوان المسلمين ، والطريق الذي سلكته إليها .

* * * *

عل أني وقد طرقت باب التسجيل في دعوة الإخوان المسلمين ، لا أدمي أنني أمت بكل شيء .
وحق القليل الذي أمت به لا أدمي أنني أوليت فيه على الغاية .. ولكنه جهد القليل .. وحسبي أن
تحسنت الطريق وارادته لمن يرغب في سلوكه من يهدى .

* * * *

واقه تعالى أسأل أن يجعل هذا المجهود لوجهه ، وأن يتقبله فيما يتقبل من العمل الصالح ، وأن
يرحمه ويبلغ به ، إنه أكرم مسئول وأعظم مأمول ، وإله نعم المولى ونعم النصير .

محمود محمد عبد الحليم

٥ من شهر ربيع الأول ١٣٩٨

١٧ من فبراير ١٩٧٨

الاسكندرية في

المدخل

إلى متى تمضي بنا الأيام والسنون وعامل التسويق هو العامل المتصرف في حياتنا وأعمالنا ؟
فنفكر ثم نعزم ثم نقوم عامل ما فنزجل . وتمضي الأيام سراعاً - وليتها تمضي مليئة بالعمل
- ثم نتذكر فنفكر ونعزم ثم يكون التأجيل ... وماهو العمر حتى يتسع لعشرات من هذه
الدورات التي لا تكاد تنتهي حتى نبدأ ؟ ..!

وقد لا يكون موضوع التفكير والعزم مشيراً وهاماً لأن أصحابه لم ينتهوا إلى النهاية المثيرة
التي تستحق الإعجاب وتثير الاشتياق ؛ إلا أن الحكم بمجرد النهاية قد يكون حكماً قاصراً
وظالماً ، فقد يكون استعراض سلسلة الأحداث بما يغير رأى الذين لا ينتظرون إلا إلى النهايات
وحدها ثم إن اعتبار الهزيمة نهاية أمر فيه نظر ، فانهزام الأشخاص في حياة الدعوات لا يعدو
أن يكون أمراً عارضاً وإن هو إلا طور من أطوارها ؛ كالبذرة التي يعتبر دفنها واعتفائها
تحت التراب زمناً حتى تظاها أقدام الغافلين طوراً من أطوار حياتها لا تستقيم حياتها إلا به
وهذه ظاهرة فيما أعتقد وأعلم تلازم كل الدعوات على اختلاف أهدافها وأفكارها .. وقد اعتبرها
الإسلام سنة لم يستثن نفسه منها ؛ فتاريخ الدعوة الإسلامية منذ بزغ نوره تتنابه هذه السنة ...
فصباحه بين التبليغ والخفوت حتى يظن أنه أنطفأ .

وإذا كان لكل شيء عدو من جنسه ، فالدعوة التي تقوم على فكرة اقتصادية تنبئ لها
فكرة اقتصادية أخرى همها الانتصار عليها غير مبالية بما سواها من دعوات تقوم على أفكار أخرى
والدعوة القائمة على فكرة اجتماعية تنبئ لها فكرة اجتماعية أخرى همها دحرها واحتلال مكانها ،
وهكذا تتبثق كل فكرة الفكرة التي من جنسها حتى تقضى عليها وتحل محلها ... فالدعوة الإسلامية
بشمولها نواحي الحياة جميعاً من عقيدة إلى اقتصاد إلى اجتماع إلى سياسة إلى لغة إلى عادات
قد جرت عليها طبيعة الشمول هذه الأعداء من كل جانب ومن كل اتجاه... وبذلك كانت محاولات القضاء
عليها ومحوها من الوجود أمراً لا مفر منه لولا استنادها إلى عنصر خلقت منه كل الدعوات وهو
ركونها إلى ركن شديد من تكفل الله جلّت قدرته لها بالنصر ، ولقد سبقت كلمتنا لعبادتنا
المرسلين إنهم هم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون » (١٧١ - ١٧٣ المسافات)

ولقد برزت على طول الزمن أفكار ودعوات تألفت حيناً ثم خففت ثم انحلت من الوجود
وحل محلها أفكار أخرى مناقضة لها نصدت لها وظلت تطاردها حتى قضت عليها إلى الأبد ، حتى

صارت مجرد ومضة برقت في التاريخ ومضت مضى البرق الذي لا رجعة له، ثم تصدت هذه أيضاً فكرة أخرى فعلت بها ما فعلت هي بسابقتها وهكذا حتى صار الجميع مجرد حديث يرويه التاريخ ولا أثر له في الوجود ... أما الدعوة الإسلامية بأفكارها وأهدافها ووسائلها فإنها لم تكن بمثابة ومضة البرق التي نضى لتبهّر ثم تختفي إلى غير رجعة ، بل إنها كانت بمثابة أشمس التي أشرقت فأخرجت العالم من ظلام الليل إلى وضوح النهار ، ثم اعتورتها سحب منها الخفيف ومنها الكثيف فكانت تحجب من ضوءها بقدر كثافتها حتى خيل إلى بعض المغرورين أنهم استطاعوا أن يستأصلوا شأفة الشمس مضامين من حولهم بكثافة السحب ... ثم لم تلبث هذه السحب الكثيفة أن انجابت فبرزت الشمس ساطعة كما كانت وذهبت السحب إلى غير رجعة « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعل أطلق إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين . واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إليه لا يرجعون . فأخذوه وجنوده فبنذاهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون . وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين » (٣٨ القصص) « ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين » (من ٥١-٥٦ الزخرف)

وهكذا نقرأ التاريخ فتبدو لك شمس الدعوة الإسلامية ساطعة ثم يخبو ضوءها حيناً - مهما طال ذلك الحين - وراء سحب من المؤامرات التي تملكها من داخلها أو من خارجها ، ثم لا تلبث هذه السحب - مهما ادهم ظلامها - أن تنجلي لتبرز لك شمس الدعوة الإسلامية متألقة كما كانت . ولعل هذا مصداق قول صاحب هذه الدعوة إذ يقول « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » (٣٢ التوبة) وقوله « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (٩ الحجر) .

والدوافع وراء المؤامرات التي تدبر للدعوة الإسلامية تنحصر عادة وتنبع دائماً من حسب السيطرة الذي يستولى على نفوس بعض الحكام سواء أكانوا من المنتسبين إلى الإسلام بحكم مولدهم أم كانوا من غير المسلمين ، يجد هؤلاء في الدعوة الإسلامية العقبة الكبرى أمام تحقيق مطامعهم في السيطرة لأن الإسلام بطبيعته ما جاء إلا لتحرير الإنسان والقضاء على الاستبداد والاستعباد لغير الله.

ولتوضيح ذلك يجعل بنا ونحن في مستهل الحديث عن طور من أطوار الدعوة الإسلامية أن نحاول تصوير هذه الدعوة نصوياً مجملاً ، مبرزين الخطوط العريضة المسكونة هيكلها فنجدها ثلاثة هي : أولاً : العقيدة ثانياً : العبادة ثالثاً : المعاملة

أولاً : العقيدة :

هي حجر الأساس وهي الركيزه العظمى التي لا قيام للدعوة الإسلامية إلا عليها ، كما لا قيام لأية دعوة إلا عليها ... ولكل دعوة سواء أكانت ديناً سائياً أو وضعياً عقيدة. وعلى قدر سلامة العقيدة ينتج العمل المبني عليها... ونقصد بسلامة العقيدة ، وافتقارها للفطرة للعقل والمنطق، ومجانبتها للأوهام والتعقيد ، وتجاوبها مع الفطرة السليمة .

وعقيدة الاسلام لله وحده ، هي ما نزل وما دعا إليه كل نبي ورسول سبق نبينا الكريم ، فهي نفس عقيدة المسيح عيسى وعقيدة موسى وعقيدة إبراهيم « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوقى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (٨٤ آل عمران) إلا أن أطاع الدنيا وتسلطها على نفوس من آلت إليهم أمور الإفتاء في شئون الدين بعد الأنبياء فعلت فعلها فجعلت من هؤلاء الورثة أداة طيعة في أيدي المستبدين من الحكام فحرفوا في كتبهم وأخفوا منها وزادوا عليها حتى يستقر الأمر هؤلاء الطغاة من الحكام « وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالחסنات والسيئات لعلمهم يرجعون . فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » (١٦٨-١٦٩ الأعراف)

وكيف يستطيع حاكم مستبد أن يحكم قوماً وفي أعماق كل رجل منهم وامرأة وطفل مناد يهتف بهم في كل وقت من ليل أو نهار أن لا يخضعوا إلا لله وأن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق وأن لا خوف إلا من الله وأن لا فضل إلا من عند الله « قل أغير الله أبغى رباً وهو كل شيء » (١٦٤ الأنعام) . « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير » (الأنعام ١٧) . « قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم » (الأنعام ١٤) . « أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه » (الزمر ٣٦) . « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فأنقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء وأنعموا رضوان الله والله ذو فضل عظيم .

إنما ذلك الشيطان يخوف أوليائه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين» (آل عمران ١٧٣-١٧٥)

والعداء بين الطغاة من الحكام وبين العقيدة الإسلامية مستحكم من لديم ، فهذا الحاكم المستبد الذي أحس خطورة هذه العقيدة على استبداده فاستدعى « إبراهيم » عليه السلام وهو في غرور سلطته وأدار معه حواراً على النحو الذي ورد في الآية الكريمة « ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين » (البقرة ٢٥٨) وينهزم الحاكم المستبد حين يدخل مع العقيدة الإسلامية في الحوار فيطيش صوابه ولا يجد في جعبته إلا البطش والإرهاب فيأمر بإحراق صاحب هذه العقيدة لعلها تحترق باحترائه وتبيد ويستريح منها ولا يجد أمام استبداده عائقاً يقف في وجهه « وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله وانقوه ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله آثاناً وتخلقون إفكاً ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون » (الأنبياء ١٧) « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون . وقال إنما اتخذتم من دون الله آثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم الأقامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين » (الأنبياء ٢٤ ، ٢٥) .

والجلادون في كل عهد من عهود الاستبداد هم يد الطاغية التي يبتش بها ورجله التي يمشي بها وعينه التي ينظر بها وأذنه التي يسمع بها ، ولولاها لما قامت لمستبد قائمة ، ولا دلتها صفعات التاريخ بين الحين والحين بأفكار الطغيان . ولذا تجد القرآن لا يوجه الإنذار للطاغية وحده بل يخاطب معه حاشيته وزبائنه فيقول : « ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون » (الزخرف ٢٩) . « ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » (عافر ٤٦) . « إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار » (البقرة ١٦٦ - ١٦٧) . « وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأفصلونا السبيل . ربنا آتتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا » (الأحزاب ٦٧-٦٨) . « قال ادخلوا في أمم قد خرجت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أمتها حتى إذا ادركوا فيها جميعاً قالت أخرجهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » (الأعراف ٣٨) .

والقارئ للقرآن حين يقرأ قصة موسى وفرعون ويرى القرآن يقلبها بين صفحاته وفي ثنايا سورة على كل وجه من وجوهها ليرز من معاني الظلم والاستبداد ومن ألوان الزهو والكبر والفور من فرعون وحاشيته ومن أفانين الاضطهاد والتعذيب وأصناف التنكيل والإبادة الموجهة إلى العقيدة الإسلامية التي كان يحملها في ذلك الوقت قلة من بني إسرائيل ... هذا القارئ سيبين له لماذا يكن الملوك المستبدون والحكام الطغاة الكراهية لهذا الكتاب ولماذا يحكيون ضده المؤامرات فهو يوجج ثورة عارمة ضد كل مستبد ظالم « طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » (القصص ١-٦) .

ورسالة موسى رسالة واضحة صريحة ، لا تخرج عن كونها دعوة لإنقاذ شعب اضطهده حاكم مستبد لا لشيء إلا لأنه مستمسك بعقيدته التي تنهارض وطفيان هذا الحاكم « فأنا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بني إسرائيل » (الشعراء ١٦-١٧) . ويحس فرعون من موسى قوة وصلابة فيحاول استمالته فيقول له « ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرِكَ سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين » (الشعراء ١٨-١٩) ... وقد يلين الرجل إذا ذكر بهذا الفضل الذي لا يجحد في كل موقف إلا في موقف واحد هو موقف يتعلق بالعقيدة التي لا مساومة عليها فيرد عليه موسى فيقول « فعلتها إذن وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم فوہب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين » (الشعراء ٢٠-٢١) ثم يقرر موسى مبدأ خطيراً بأن استعباد الناس جريمة يذهب مع فظاعتها كل فضل أتاه المستبد فيقول « وتلك نعمة تمنها على أن عبت بني إسرائيل » (الشعراء ٢٢) .

ويأخذ الطاغية في أسلوب يحاول به إخفاء صورة طفانيه فيفعل ما فعل طاغية إبراهيم إذ يدخل معه في حوار « قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا نستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تمقلون » (الشعراء ٢٣-٢٨) وهنا يفهم الطاغية كما أفهم أخ له من قبل فيفقد صوابه حين رأى نفسه أمام حجاج لا قبل له بمكابرتها فيكثر عن أنيابه « قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين » (الشعراء ٢٩)

ولسنا بصدد السير مع قصة موسى وفرعون بكل الوجوه التي قلبها القرآن ، فإن ذلك مجال جد فسيح ، وإنما قصدنا إلى إبراد وجه من هذه الوجوه لنذكر منه مدى خطورة هذه العقيدة على طموح المستبدين وآمال الطغاة الظالمين ، وكيف أن هذا الكتاب بما جاء به من عقيدة هو تحد قائم لا يثنى وسيف مصلت لا ينظم حده في وجه الطفيان والاستبداد .

ثانيا : العبادة :

لا شك في أن العبادة وليدة العقيدة ، وكل عبادة ليست وليدة عقيدة إنما هي نوع من النفاق لأن العبادة هي أقوى مظاهر الاعتراف بالفضل ، ومظاهر الاعتراف بالفضل كثيرة متنوعة ، ولكن قمة هذه الأنواع الاعتراف بالعبودية لصاحب الفضل . ويبحث الإسلام الناس على الاعتراف بالفضل للمخلوقين بجميع مظاهر الاعتراف إلا بمظهر العبودية الذي حرمه على الناس إلا لله وحده وجعل الاعتراف بمظهر العبودية لغير الله شركا لا يغفره الله « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً » (النساء ٤٨) .

والمقصود من العبادة أولاً أن يرى الله تعالى من عباده مدى امتثالهم لأمره . والامتثال هو نوع من الطاعة إلا أنه أعلى درجاتها ؛ فإذا كانت الطاعة هي تنفيذ الأمر فيما يسيغه العقل ويسلم به المنطق فإن الامتثال هو الصدوع بالأمر لمجرد أنه أمر ، وكل مبرراته الثقة الكاملة في الذي أصدره . فإذا أمرنا الله تعالى بخمس صلوات في اليوم واليلة في مواقيت محددة وكل منها ركعات محددة فإن هذا التوقيت وهذا التحديد إذا عرضا على العقل والمنطق لم يجدا لهما تعليلاً ولا تبريراً ؛ فالزأملك بأداء هذه الصلوات بهذا التوقيت وهذا التحديد هو امتثال لأمر الله لأنك تؤديها لمجرد أنه أمر من الله عز وجل الذي آمنت به من قبل عن طريق العقل والمنطق .. وفي الامتثال معنى العبودية الكاملة التي أرادها الله حيث يقول « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (الذاريات: ٥٦) .

والمقصود الآخر من العبادة هو أن تكون وسيلة للتعرف على الله والتقرب إليه وامتداد العون منه بعباده سبحانه هو وحده القادر الوهاب الفعال لما يريد .. وإذا كانت الحياة الدنيا بشروورها وغرورها ، سلطة على قلب الإنسان . وإذا كان الإنسان بطبيعته لا يقوى على مدافعة هذه الشرور وهذا الغرور وقد قال الله تعالى في شأن الإنسان « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً » (النساء ٢٨) فما كان أحوجه إلى ركن شديد يأوى إليه وإلى سند منيع يفرع إليه ؛ فكان من فضل الله على عباده أن أتاح لهم فرصاً للفرع إليه والامتداد منه ؛ فشرع لهم العبادة

صلة بينهم وبينه وبأباً يهرعون إليه كلما حزنهم أمر أو قست عليهم نواكب الحياة «ففرأوا إلى الله إني لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله لهماً آخر إني لكم منه نذير مبين » (الذاريات ٥٠ - ٥١) . «يعبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون » (المنكوت ٥٦) ... ولذا فإن المؤمن لا يتطرق اليأس إلى قلبه مهما ادهمت عليه الخطوب وأظلمت في وجهه سبل الحياة... وكيف يجد اليأس سبيلاً إلى قلبه وهو يسمع واهب الحياة ومدبر الأمر وصاحب الملك كله يناديه فيقول «ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » (الأعراف ١٥٦) . ويقول «يأيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » (يونس ٥٧ - ٥٨) . ويقول «وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين » (الأنبياء ٨٧-٨٨) .

والعبادة تلعب الدور الأكبر في تكوين الأمة ؛ لأنها تكون الفرد وتصلق روحه وتنصق قلبه ونزكي نفسه وتفصل بما فيها من مناجاة الله صدره . فهو بها دائم التذكر لربه دائم الخوف من عذابه ، دائم الشوق إلى جنته ، يرى الجنة دائماً عن يمينه والنار عن شماله ؛ ومثل هذا لا يصدر منه إلا لفواصل الأحمال ... وما الأمة إلا مجموعة من الأفراد «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ونؤمنون بالله» (آل عمران ١١٠) .

والفرد المسلم في هذه الحالة لا يندفع إلى قول أو عمل إلا من صميم قلبه لا من آمال تتعلق بمتاع الدنيا ، وكلما شدته الدنيا إلى متاعها ، وجرت به إلى مغرياتها ، وحاولت تلويثه بهرجهه ، وكادت تغمسه في فتنتها ؛ سمع المؤذن ينادي إلى الصلاة فكان الأذان نبيهاً له من غفلته فيترك ما هو فيه من شأن ويحجب النداء فيتوضأ ويقف بين يدي ربه فيذكر الله بلسانه فينبه لسانه قلبه ثم يستعرض في صلاته عظمة ربه وجلال فضله وشدة عذابه واسعه مغفرته ومدى رقابة الله عليه ومدى احتياجه إلى عونه فيخرج من الصلاة حاقاً آخر كأنما اغتسل من قدر ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول «أرئيت لو أن بباب أحدكم نهراً يفتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يترك ذلك من دونه شيئاً ؟ قالوا لا قال ذلك مثل الصلوات الخمس» وكما يقول الله تعالى في الزكاة «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم ونزكهم بها» (التوبة ١٠٢) . وكما يقول في الصيام «يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » (البقرة ١٨٣) . ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحج «من حج فلم يفسق ولم يفرث رجع كيوم ولدته أمه»

والأمة التي يتجه زعمائها وحكامها في تربيتها إلى غير هذا الطريق إنما هي أمة فاشقة ؛ لأن القوانين - مهما تضمنت من عقوبة - لا تردع الفرد متى استطاع التهرب من طائلها فإن حراس القانون لا يستطيعون مراقبة كل فرد في كل وقت وفي كل مكان . فإذا لم يكن للفرد رقابة على نفسه من نفسه فهيئات أن تجدي القوانين ... وهذه الرقابة النفسية إنما هي الأثر المباشر للمقيدة والعبادة . فالمقيدة تزرعها في النفس والعبادة تنمدها فترونها وتنميها وإلى ذلك يشير قوله تعالى « وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » (يونس ٦١).

والتهرب من القانون وحراسه أمر سهل وميسور ، أما التهرب من الله عز وجل فأمر غير مستطاع ولذا فإن القرآن قد جعل الإيمان باليوم الآخر شرطاً لا يقوم الإيمان إلا به ، ففي فاتحة الكتاب التي يرددها المسلم كل يوم سبع عشرة مرة في صلاته يقول « الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم مالك يوم الدين » ويوم الدين هو يوم الحساب .. وفي أول سورة البقرة جعل أول وصف للمتقين الإيمان بالغيب وهو الحساب والجنة والنار « ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب » وأشار القرآن الكريم إلى أن انقراط العقد وحسوط العمل إنما سببه ومرده عدم الإيمان بلقاء الله حيث يقول « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » (يونس ٨-٧).

والأمة الإسلامية التي تربت على هذه الأسس أثمرت فيها هذه التربية ثمراً سظلل روعته مضرب المثل في التاريخ ؛ وحسبنا أن نذكر مثالين وأنموذجين : فهذا «ماعز» وقد زل فأتى خطيئة لم يره أحد حين أتاها ولم يعلم بها أحد ويعرف لظاعة عقوبتها ويعرف أنه أصبح بمنجى من هذه العقوبة لكنه مع ذلك نراه يذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول له يا رسول الله : لقد زنت . فيحاول رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصرفه عن هذا الاعتراف فيقول له : لعلك قبلت فيقول : لا لقد زنت حتى يتول له : لعلك فاعذت فيقول : لا لقد زنت ويصر على قوله ويطلب تنفيذ الحد عليه ليأمر رسول الله به ليرجم بالحجارة حتى يموت . فيصل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرى من عمر تخافاً عن الصلاة عليه بدعوى أنه زان ؛ فيغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول : لقد تاب والله توبة لو وزعت على أهل الأرض لوسختهم .

وفي مولعة القادسية لما دخل المسلمون إيران كسرى وزالت بذلك دولة الفرس وأرسلت الغنائم إلى المدينة ووزعت الغنائم كما شرع الله ولم يعد أحد يشك في أن كل ما غنم قد سلم إلى بيت المال ؛ تقدم جندي من جنود المولعة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وسلمه آمن ما كان يملكه كسرى ؛ سيفه ومنطقته وزبرجده. فنظر إليها عمر وقال قولته المشهورة «إن يوماً أدوا هذا ولم يستأثروا به لدو أمانة».

ثالثاً : المعاملة :

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدين المعاملة». وما من دين أنزله الله وما من نبي أرسله إلا وهو يدعو إلى حسن المعاملة بين الناس بعضهم مع بعض . ولكن الدعوة إلى حسن المعاملة كانت في كل ما سبق الدعوة المحمدية دعوة مجملة أو مركزة في ناحية واحدة ؛ فدعوة هود كانت مركزة في النهي عن التطاول في البليان وفي الاقتصاد في البطش والجبروت .. ودعوة صالح كانت مركزة في النهي عن الرفاهة وفي الدعوة إلى العدالة في التسام مع الرى ... ودعوة لوط كانت مركزة في النهي عن إتيان الفاحشة... ودعوة شعيب كانت مركزة في النهي عن الغش في الكيل والميزان ... وهكذا حتى بلغت الإنسانية رشدها بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالرسالة الخاتمة وبالكتاب الكامل الشامل فوضع لكل نوع من أنواع التعامل بين الناس حدوداً مفصلة وقوانين محددة ؛ فوضع أسس تكوين الأسرة كما حدد حقوق الفرد نحو مجتمعه وحقوق مجتمعه عليه ، فعلاقة البيع والشراء والعلاقات التجارية والزراعية وحقوق المال وحقوق العمل كما نص على عقوبات للجنايات ... وحسبك أن تعلم أن أطول آية في كتاب الله إنما نزلت في معالجة موضوع الديون وكيفية كتابة وثائقها وهي الآية ٢٨٢ من سورة البقرة .

فالإسلام نظام كامل شامل لإدارة الدنيا في جميع شئوننا ونواحيها ، ولا يصلح أن يقتبس منه جزء يرفع به نظام آخر فكل جزء منه مرتبط ببقية الأجزاء فإذا أن يؤخذ بالنظام الإسلامي كله وإما أن يترك كله ؛ فإذا لم تركز قوانينه في المال والجنايات والأسرة على أساسين من العقيدة والعبادة كانت هذه القوانين جسماً بلا روح ... وهذا ما تعانيه بعض الدول الإسلامية التي ظهر فيها زعماء لم يفقهوا هذا المعنى فراحوا يدعون إلى الأخذ بالشرعية الإسلامية في المال والجنايات في حين أن شعوبهم فائدة الأصل الأصيل من العقيدة والعبادة فانتهوا إلى مجموعة من المظاهر التي تنتسب إلى الإسلام تخفي تحتها نفوساً لا تمت بصلة إلى الإسلام وصدق الذي قال :

نرفع دينانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا مانرقيم

ورحم الله أستاذنا الإمام فقد كان يقول : إن القاضى الذى صقلت نفسه التربية الإسلامية يستطيع بهذا القانون الوضعى أن يخرج لنا أحكاماً تتفق مع روح الشريعة الإسلامية .. أما القاضى الذى ليس له نصيب من التربية الإسلامية فإنه حتى إذا حكم بالقانون الإسلامى فإن أحكامه تكون مجافية للعدالة وروح الإسلام ...

نعم لابد من أن تكون الشريعة هى قانون البلاد ، ولكن لابد من أن ترافق ذلك تربية إسلامية على أساس من العقيدة والعادة تكون الفرد المسلم الذى سيكون بمثابة الروح لهذه القوانين ، والذى يصيب بشخصيته المجتمع الذى يعيش فيه أو يتصل به ، والذى يكون الأداة الفعالة للإبداع فى كل عمل يزاوله ، والذى سيعفى الدولة مما تتورط فيه الحكومات من إنشاء رقابة من فوقها رقابة من فوقها رقابات حتى تضمن من أفرادها أداء ما وُكِّلَ إليهم من أعمال .

إن محاولة الإصلاح عن طريق القوانين دون التربية الإسلامية لأفراد الأمة هونوع من البناء على الرمال ... فإذا وافقت التربية الإسلامية الحكم بالشريعة كانت أحكام الشريعة فى هذه الحالة أشبه بالبذور تنزل على أرض أخذت حقها من الإعداد والرى فأُنبَت نباتاً حسناً وجاءت بأطيب الثمر ... أما إذا نزلت هذه البذور - وهى فى أجود حالاتها - على أرض وعرة أو أرض سبخة لم تمتد إليها يد الإصلاح فإن جودة البذور لن تغنى عنها شيئاً وستموت على هذه الأرض ولست أقصد من هذا أن تنتظر الأمة الإسلامية فى عصرنا هذا ممثلة فى دولها حتى تتم تربية شعوبها ثم تبدأ بعد ذلك فى الأخذ بأحكام الشريعة الإسلامية .

وإنما الذى أقصده هو أن تتخلص هذه الدول من تصور خاطئ سيطر على تفكير قادتها ، وهو أن النظام الإسلامى منحصر فى الأخذ بالقوانين الإسلامية ضاربة عرض الحائط بما سوى ذلك من أصول التربية الإسلامية القائمة على الأساسين الركيزتين من العقيدة والعبادة ... فهذه الدول تريد الأخذ بالقوانين الإسلامية فى الوقت الذى تنشر وسائل الإعلام فيها ليلاً ونهاراً وفى كل شارع وفى كل بيت الدعوة إلى الفساد والتهتك والانحلال الخلقى .. تريد الأخذ بقوانين الشريعة وهى تاركة لنسائها الحبل على الغارب لإغراء الشباب المجرد من أسلحة المناعة الخلقية .. تريد الأخذ بقوانين الشريعة وكبار موظفيها وصغارهم لا وازع لهم من ضمير ولا رادع لهم من خلق والقوانين الإسلامية وحدها لا تخلق الضمير ولا تنشئ الخلق .

إذا كانت هذه الدول جادة فى الأخذ بقوانين الشريعة فلتأخذ بها فى الوقت الذى تأخذ فيه بأساليب التربية الإسلامية لشعوبها حتى تكون قوانين الشريعة مدعومة بهذه الأساليب التى

يظهر أثرها في وسائل الإعلام وفي صفوف المدارس وفي مكاتب الموظفين وفي مسلك الرجال والنساء . أما الأخذ بقوانين الشريعة وكل أجهزة الدولة سائرة في سخط معاكس لهذه القوانين فهو الذي نرفضه لأنه لن يعود على الأمة بفائدة ولا يكون إلا تشويها لسمعة الشريعة الإسلامية .

ولعمري ما أيسر الحكم بالشريعة الإسلامية فإن ذلك لن يكلف الحاكم شيئاً إلا أمراً بذلك يصدره . أما تربية الشعب وإعداده ليكون شعباً مسلماً تعيش في قلب كل فرد منه رقابة الله فإن ذلك هو الأمر العظيم الذي لا يقدر عليه كل أحد ولا يقدر عليه إلا كل عظيم من الناس ؛ لا يقدر عليه إلا القدوة الحسنة. وتحول الفرد إلى أن يكون قدوة حسنة يقتضيه الكثير من التخصيصات فهذه هي الوظيفة الكبرى للأنبياء . ولا يقدر على ذلك من بعدهم إلا ورثة الأنبياء على أن لا يكونوا من الأدعياء .

الذشاة :

رأيت أن أبدأ بهذه العجالة التي ترسم الخطوط العريضة للفكرة الإسلامية ، والتي يتبين منها مدى خطورة هذه الفكرة على ذوى المطامع من الجبارين والمستبدين والمستعمرين ؛ ولذا فإن الذي شرعها - عز جاره وجل شأنه - شرع معها الجهاد لحمايتها والدود عنها وجعل هذا الجهاد ذروة سنامها كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

هذه الفكرة بهذا التخطيط والشمول لم يكن لها - منذ خمسين عاماً - وجود في أذهان المسلمين في أنحاء الأرض ، وإنما كان الوجود منها في الأذهان نثقاً وأجزاء .. وكان هذا نتيجة مخطط محكمة اختطها الاستعمار الذي كان إذ ذاك مسيطراً على جميع البلاد الإسلامية ، وقد تمكن بهذه المخطط من مسخ الفكرة الإسلامية في أذهان الناس ؛ فأصبحت العقيدة مجرد أنفاظ تلوكها الألسن في حلقات الذكر فائدة معانيتها ؛ فمضى تحدى الظلم الذي هو أبرز معاني العقيدة حل محله الدعوة إلى العزلة وتحريم التصدي للمهاجرين مهما طفوا وظلموا بل وتحريم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكانوا إذا رأوا أحداً يتصدى لذلك يقولون له : دع خلق الله في ملك الله ، « لا يقع في ملكه إلا ما يريد » « يأبى الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون » (المائدة ١٠٥) .

مع أن الانحراف بهذه الآية الكريمة عن معناها إلى عكسه هو الذي حل أبا بكر رضى الله عنه وهو على المنبر أن يفسرها ويقول للناس «إنكم تحملون هذه الآية على الدعوة إلى العزلة وترك

الناس تفعل ما تشاء إلا إن معناها هو أن الله تعالى يأمر المؤمنين بأن لا يسيروا في ركب أهل الضلال مهما كثروا وقويت شوكتهم بل على المؤمنين أن يخالفوهم ويتمسكوا بكتاب الله ... وناهيك بالتمسك بكتاب الله وما فيه من حث على الجهاد ومقاومة للظلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وكان الناس يؤدون العبادة بنفس هذا المعنى الميت ؛ فهي طقوس يؤدي وحركات وألفاظ يرثها جيل عن جيل ليس لها هدف ولا مغزى ... حتى الدروس في المساجد لم تكن أكثر من حلقات للتسلية والامتناع ... وبهذه الصورة لم يكن المستعمر وأذناؤه من الحكام يعارضون في بناء المساجد وفي إتيان الصلاة وإلقاء الدروس بها لأنها لم تكن مصدراً لإقلاق لهم بل كانت وسيلة من وسائل إشاعة روح التخاذل والإطهء والخضوع في الناس على حد ما كانوا يقولون : ليس في الإمكان أبدع مما كان .

وكان الذين يفهمون الإسلام فهماً صحيحاً قلة من الناس . ومن فضل الله على أن أهل وأسرق كانوا من هذه القلة . لأنهم لم يتوه عن طريق رسمي في مدارس الحكومة وإنما تلقوه من أصوله في أمهات الكتب التي كانت تزرع بها مكتبته التي ورثوها كابراً عن كابر وكان كل جيل يزيد فيها .

ولا شك في أن أعظم عامل يؤثر في حياة الفرد هو البيئة التي أحاطت به في نشأته لأنها كفيلاً أن تحدد له اتجاهه في الحياة لأنها تسكب في قرارة نفسه وتخلط مع مهجة قلبه وتحفر في ثنايا عقله قيماً ومفاهيمها ... وهكذا نشأت في بيئة تجمع بين الدين والعلم والأدب والوطنية ؛ فلقد كانت أسرنا برشيد متميزة بكل هذه المعاني وكان لها مدرسة تخرج فيها جيل من الناشئين على يدي عيين لي كاد أمة كاملة للسمو البشري بمختلف ألوانه ؛ فلقد كانا يعيشان لأنفسهما بل للمجتمع الذي نشأ فيه ، فكانا قادة كل حركة تقاوم الظلم والاستبداد والاستعمار . عاشا معاشاً يبذلان ولا يأخذان ، وينفعان ولا ينتفعان .. لم يكونا من حملة الشهادات الدراسية لكنها كانا طودى علم وأدب

من آثار البيئة :

معذرة للقارئ . لقد أكون شغلت جانباً من وقته بحديث قد لا يعنيه ولكن من حق أصحاب الفضل أن يذكروا ... وأعود إلى السياق فأقول ؛ في هذه البيئة نشأت فوجدت بين يدي كتباً كانت غذاء لعقلي ومهذباً لطبعي . ورأيت بين يدي مثلاً حياً لكثير من أروع ما قرأت ؛ فلقد

كان انصالي بمعنى هذين أكثر من انصالي بأبي وأبي ... وكنت الابن الوحيد في تلك الآونة
للأسرة كلها لعل كل على بش كل ماعنده، وعلى تنشئ على الصورة التي هي في قرارة نفسه ..
وقد هيا لي هذا الاتصال أن أقرأ وأتا بعد في سن مبكرة في دراسي الثانوية كتباً ذات شأن
كشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ووفيات الأعيان لابن خلكان ورسالة التوحيد لمحمد عبده
والعقد الفريد لابن عبد ربه والبيان والتبيين للعاجظ والكامل لأبي العباس المبرد كما قرأت ديوان
أمرئ القيس وديوان المتنبي وديوان البارودي والمعلقات السبع وغيرها من أمهات كتب الدين
واللغة والأدب .

ويتجدر في هذه المناسبة أن ألفت النظر إلى الأدب العربي شعره ونثره وإلى ما ينطوى عليه
هذا الأدب من توجيهات إلى السمو بالنفس عن الدنايا وإلى تبصير الإنسان بما يجعله إنساناً موفور
الكرامة . مرفوع الرأس محبباً إلى الناس فهو يوضح له المواقع التي عليه أن يتجنبها وتلك
التي يسلكها ويعلمه كيف يعامل الناس وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول «إن
من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة» ويخيل لي أن الحكمة الهادية لا يكاد يجدها المرء بعد كتاب
الله وحديث رسوله إلا في كتب الأدب نثراً وشعراً حتى إنه ل يبدو لي أن الأديب حين يكتب
وأن الشاعر حين يقول الشعر تتولاه حالة يكون مهياً فيها لنوع من الإلهام فتراه يضمن كلامه
أو شعره حكماً سامية وتوجيهات رائعة ينتفع بها قارئها وقد لا ينتفع هو بها ... ولعل في هذا
إشارة إلى قول الله تعالى «والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم ترأنهم في كل واد يهيمون . وأنهم
يقولون مالا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من
بعد ما ظلموا» .. (٢٢٤ - ٢٢٧ الشعراء)

وحين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم معلقة زهير بن أبي سلمى الشاعر الجاهلي التي منها :

ومن لا يصانع في أمور كثيرة	يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن هاب أسباب المنايا يئله	وإن يرق أسباب السماء يسلم
ومهما يكن عند أمرئ من خلقة	وإن خالها تخفى على الناس تعلم

قال عليه الصلاة والسلام «هذا من كلام النبوة»

وإنك لو اجد في أشعار الشعراء من التوجيهات والحكم مالا تجده في غيرها وما يوجهك
أحسن توجيه فحين تسمع قول الشاعر :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا نرد إلى قليل تقنع
نعرف كيف تسوس نفسك وتحملها على مالا يملك وتخرج بذلك من إसार العرف الذى يدعى
أن النفس طبع على طابع لا يمكن التخلص منها وحين تسمع هذين البيتين :

بلاء ليس يعسده بسلاء عداوة خير ذى حسب ودين
يبهيك منه عرضاً لم يصنعه ويرى منك فى عرض حصين
تعرف كيف تعامل من لا أخلاق لهم من الناس فلا تحتك بهم ولا تعاملهم معاملة الند للند.....
و حين تقرأ :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هواناً بها كانت على الناس أهونا
فهت أن احترام الناس لك مرهون باحترامك لنفسك
وذكر عن علي كرم الله وجهه أنه لما بلغه وفاة طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه قال :
رحم الله أبا محمد فقد كان كما قال الشاعر :

فتى كان يدلّه الفئ من صديقه إذا ما هو استغنى ويبرعه الفقر
وأشد النابغة الجعدي النبى صلى الله عليه وسلم شعره حتى وصل إلى قوله :
ولا خير فى حلم إذا لم تكن له بواذر تحمى صفوه أن يسكدوا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له حلیم إذا ما أورد الأمر أصدرنا

والشعر المأثور عن شعراء الجاهلية وشعراء الإسلام فى صورة المختلفة وأغراضه المتباينة
يزخر بدور من التوجيهات والحكم لا يمكن تعليل وروودها على ألسنة قائلها إلا بأن وضع الإنسان
نفسه فى المجال الموسيقى للشعر يجعله فى تواقم مع تلقى نوع من الإلهام .

وقد أردت بهذه الإلماحة إلى فضل الأدب والشعر فى توجيه الناس إلى المحامد وصرفهم
عن الخائب أن ألقت نظر الجيل الناشئ إلى أن ينظروا إليهما نظرهم إلى منهل يعينهم على تكوين
شخصيتهم المسلمة .

ولولا خصال سنها الشعر مآدرى بغاة العلا من أين ترقى المكارم
ورضى الله عن الفاروق عمر الذى كان يقول : الشعر ديوان العرب .

التعلق بالقرآن :

إن النفس العربية ، في البيئة العربية ، وفي جو الأدب الرفيع الذي يدفع إلى السمو ؛ يجد المرء نفسه جائئاً أمام كتاب الله العزيز ، ناهلاً من صافي سلسيله ، مستروياً من عذب مائة ... وهكذا وجدته منذ الصغر وأنا في سن السابعة أجلس بين يدي كتاب الله ، أتلو منه وحدي والله وحده يعلم هل كنت في أول عهدي به كثير الخطأ في تلاوته أم قليله .. لأنني لم أكن أتلو أمام غيري ... وقد جربت في إحدى الإجازات الصيفية وأنا في تلك السن المبكرة أن التحق بأحد الكتائب في رشيد فلم ترقني طريقتهم التي تعتمد على الاستظهار والحفظ دون التلاوة ، فانقطعت عنه واكتفيت بالتلاوة المنزلية ؛ فكنت أقرأ المصحف بالترتيب ، ولم أكن - كما قدمت - أؤمن أنني أقرأ قراءة صحيحة إلا أنني تنهت بعد فترة من الزمن - نحو خمس سنين - حين كنت في أوائل الدراسة الثانوية فوجدته ماهرأ في تلاوته ، واستطعت في خلال دراستي الثانوية أن أجمع إلى المهارة في التلاوة الخلق في التجويد دون أن يكون ذلك عن دراسة منظمة لفن التجويد ؛ فاللسان العربي قادر بطبيعته مع القليل من التوجيه والملاحظة على النطق الصحيح وإخراج الحروف من مخارجها الصحيحة ... وقد نكون مداومتي على التلاوة دون انقطاع مما سهل لي هذا الأمر .

أول فراق لرشيد :

لم يكن برشيد في ذلك الوقت مدارس ثانوية ، فكان على أن أرحل إلى الاسكندرية ، وكما كان ذلك شاقاً على نفسي وعلى نفس والدي .. إلا أنني أفدت الكثير من هذا الفصل الذي فطمني عن عهد الطفولة وأحيا في نفسي عوامل الرجولة والاعتماد على النفس ، وأوجدني في بيئة ضمنت مزايها إلى مزايا البيئة التي نشأت فيها ... نعم كنت طالباً «داخلياً» تعد المدرسة لي الطعام والمنام ووسائل النظافة لكن هذا ليس كل شيء في الحياة ... لقد تعرفت على أقوام من شتى البلاد ومخالقتهم وعاشرتهم وأصفت إلى أصدقائي التقليديين من أهل بلدي أصدقاء آخرين من بلاد أخرى وكان أصدقهم بنفسى الطالب محمد جمال الدين نوح الذي كان والده زميل والدي وكانوا مقيمين في الاسكندرية إلا أنه كان طالباً «داخلياً» .

ومن أجل مزايا نظام «الداخلية» تنظيم حياة الطالب ، فلاستيقاظ من النوم في الصباح في موعد محدد ، والإنظار الجماعي في موعد محدد والغداء والعشاء كذلك والوجبات التي تقدم على

مدار الأسبوع أنواع عديدة ، ثم المذاكرة في مكان محدد وموعد محدد وتحت إشراف أستاذ موهب
ويعين ، ثم النوم في موعد محدد .

كانت فترة دراستي الثانوية في الاسكندرية فترة إنضاج فكري وروحي لي : فلقد دخلت هذه
المرحلة في سن الثانية عشرة وأنا مزود بشحنات من نور القرآن ، وبثقافة سياسية وأدبية —
والد أفردت لأول مرة دون من كنت أستمع منهم وأتلقى عنهم — فوجدتني مهياً لدور ليادي في
هذه المدرسة . فبغير إرادة مني وجدتني قدوة يقتدى بي زملائي في المدرسة ؛ فصلاي التي كانت
تلازمي بجانب فراشي جعلت كل من تهفو نفسه إلى الاستقامة والخير يتجه إلى ؛ ثم في مسجد
المدرسة — وكان مسجداً عظيماً . وجدني أوجه زملائي .

ومما يدل على أن التدين لا يرتبط بدراسة معينة أن هذه المدرسة كانت نبع بمدرسي اللغة العربية
والدين من المتخرجين في الأزهر ودار العلوم ، ومع ذلك فلم يكن يصل معنا في هذا المسجد
من المدرسين إلا مدرس واحد هو الأستاذ عفيفي مدرس المواد الاجتماعية ، وهو الذي كان
يقومنا ، كما أن ناظر المدرسة حين رأى إقبال الطلبة على الصلاة في المسجد انتدب الأستاذ عفيفي
ليؤمهم .

ولا أنسى هنا أن أشيد بذكر رجل كان له فضل على كبير في تنمية ثقافتنا الإسلامية ،
ذلك هو الشيخ محمد علي أمين ، الفرائض النوبي المختص آنذاك بمفصل المدرسة ، فقد كان هذا الرجل
عالماً عابداً ذا خلق ودين . وكان يقتنى أقيم الكتب ، فقد قرأت من كتبه غير قليل من زاد
المعاد لابن القيم والفتاوى الكبرى لابن تيمية وشرح مسلم للنووي والمجموع في فقه الشافعي
للتووي أيضاً وغير ذلك مما غاب عن خاطري الآن يعد هذه المدة الطويلة ... وهو الذي دلتني على
تفسير القرطبي وقت أن بدأت دار الكتب المصرية في طبعه .. كان هذا الرجل مهذباً كريم
المعشر عالي النفس مثلاً حياً للإسلام ، وكنت أحترمه كما أحترم أقرب أساتذتي إلى نفسي ؛ ولم
يكن يدخر وسعاً في معاونتي على الإلمام بمختلف القضايا التي تتصل بالإسلام ... وكان عضواً
في جمعية أنصار السنة المحمدية بالاسكندرية ؛ وهذه الجمعية مزايلا لا تنكر ؛ أهمها أنها دلت
المنتسبين إليها على كنوز من الكتب الإسلامية عفى عليها زمن التخلف الذي شمل العالم الإسلامي
بضعة قرون ، ومن بينها كتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وكتب السنة عموماً ؛ فقد كانت من
معالم تفهيم المسلمين في القرون الأخيرة هجرهم كتب السنة والاكتفاء بتأليف المتأخرين ، وكان
كل متأخر يعلق على كلام سابقه حتى نسبت السنة في غمار هذه التعليقات والمجادلات اللفظية .

ومن حق هذا الرجل على أن أنوه بفضلله ، وأن أدعو الله له أن يحسن جزاءه لأن له عندي يداً لا أنساها ؛ فإنه أحسن حين لقيني في غمار عمله ضمن من يلقي من الطلبة أنني أهل لتوجيهه ، وكنت بعد في سن مبكرة حوالى الثانية عشرة ، ومثل لم يكن ليستطيع في مثل هذه السن أن يقرأ في أمهات كتب الفقه والسنة ، فكيف كشف هذا الرجل بنافذ بصيرته استعدادي للقراءة في مثل هذه الكتب ؟ لقد كان رجلاً متقد الذهن نافذ البصيرة ، كنت تقرأ في قسماات وجهة ، وفي بريق عينيه ، وفي شحوب وجنتيه ، وفي وضاعة جبينه ، مع وسامة وهدوء ؛ كنت تقرأ في ذلك سمة قوام الليل صوام النهار .

ومع أنه كان عضواً بارزاً في جماعة أنصار السنة المحمدية كما قدمت ، غير أنى - وقد عاشته خمس سنوات - كانت كلها مدرسة ومناقشة لم أسمع منه كلمة واحدة عن آيات الصفات والاستواء ؛ مع أن أعضاء هذه الجماعة - وقد احتككت بهم فيما بعد في القاهرة وكانت لي معهم تجارب ومواقع - لم يكن لهم حديث مع الناس حتى العوام منهم إلا عن هذه الآيات التي فرقت آراؤهم في تفسيرها المسلمين وغرست بذور العداء فيما بينهم ... ولا عجب مع ذلك في تجنب عضو بارز كالشيخ محمد على أمين الخوص مع الناس في مثل هذه المواضيع فإن المنشغل بمهام الأمور لا يجد وقتاً لفسافها وصدق البارودي إذ يقول :

ودع من الأمر أدناه لأبعده في لجة البحر مايفنى عن الوشل

لقد ازدادت على يد هذا الرجل علماً وفقهاً وتعرفت على رجال في تاريخ الدعوة الإسلامية والفقه الإسلامى لا ينبغي لمسلم يتصدى للدعوة الإسلامية أن يجهلهم كابن تيمية وابن القيم ومحمد ابن عل الشوكاني وهو إمام يبنى من أهل القرن الثانى عشر الهجرى أحيا بمؤلفاته ما اندثر من السنة ولعل أشهر كتبه «نيل الأوطار» .

وقد لا يكون خروجاً عما نحن بصدهه الآن أن نتوقف لحظة عند ابن تيمية .. لهذا الرجل وهو إمام الأئمة ليس له من الآثار ، في عالم الكتب والتأليف ما يصلح أن يسمى مؤلفاً ؛ فآثاره رسائل صغيرة أكبرها ما يسمى «بالتاوى الكبرى» ولا يخرج عن كونه مجموعة من الفتاوى صدرت عنه في مناسبات متفرقة بعضها أحد تلاميذه ... ذلك أن هذا الإمام لم يكن همه موجهها إلى تأليف الكتب وتصنيفها لأنه كان منشغلاً بما لم يكن أحد يقدر عليه غيره وهو حل لواء الدعوة الإسلامية ، فهو الذى هدى الله على يديه التتار حين تحدث مع زعمائهم فكان إسلام التتار من المواقف الحاسمة في تاريخ الدعوة الإسلامية بل وفي تاريخ العالم ... لم يكن وقته يتسع للتأليف

والتصنيف ولكنه استطاع أن يؤلف رجالاً منهم ابن القيم الذى ملأ الدنيا كتباً ومؤلفات تعد من أعظم ذخائر المكتبة الإسلامية .

ولما كان ابن تيمية هو حامل لواء الدعوة الإسلامية فى عصره ، كان كثير الاتباع كما كان كثير الأعداء ، وأعداء الدعاة عادة هم من الحكام أو من اللاديين بالحكام ، وقد غلت مراجل الحقد فى صدور هؤلاء اللاديين من أدياء العلم على ابن تيمية لا لتفاف الناس حوله ، فوشوا به عند السلطان الذى أودعه السجن حتى مات فيه ، وانتهت حياته بما تنهى به عادة حياة حملة لواء هذه الدعوة فى كل زمان .

بلورت دراساى الخاصة فى منزلنا ثم دراساى على يدى الشيخ محمد على أمين فى المدرسة بلورت الفكرة الإسلامية فى رأسى بحيث تحددت صورتها تماماً ، واختمرت هذه الفكرة ، ولم يكن بد بعد ذلك من أن أوضحها لزملائى ؛ وأتيحت لى الفرص واستجاب كثيرون وكثر المصلون وشعر الجميع سواء فى ذلك زملاى الطلبة وأساتذى ورجال إدارة المدرسة بأننى الذى يمثل الدعوة الإسلامية ؛ فكانت المدرسة إذا رغبت فى الاحتفال بمناسبة تمت إلى الإسلام بصله دعتنى للاشتراك مع الإدارة فى تنظيم الحفل ، وكنت أؤم المصلين فى المسجد فى غياب الأستاذ عفيفى .. وكان المشرف على الداخلية - بعد أن هداه الله إلى الصلاة - يرسل لى كل صباح من يأخذ مصلاى لىؤدى عليها صلاة الصبح .

فى أجازات الصيف

كان طبعياً أن تكون أجازة الصيف فى رشيد فرصة سانحة لعرض الفكرة الإسلامية بالصورة التى اكتملت فى خاطرى على أصدقائى وزملائى ... وكان مما هيا لى أحسن الفرص أننا - أنا ومجموعة من أترابى - قد تعودنا على أداء أكبر عدد من أوقات الصلاة فى مسجد «المحل» ثم ننتقل بعد صلاة العصر إلى الرمال فى خارج رشيد للتريض معاً ... وكان زملاؤنا الطلبة الذين يكبروننا سناً قد أنشأوا نادياً سموه «نادى الطلبة» لم يكن نشاطه يتعدى الاجتماع فيه للمرح واللهو ولم يكن هذا أسلوبنا ... فلما استجاب لى كثير من الأصدقاء والزملاء فكرنا فى إنشاء جمعية لنشر هذه الفكرة ، واستقرت الآراء على تسميتها : «جمعية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» وقد اتخذت مقرها مؤلفاً فى منزلنا حيث كانت مدرسة أعمامى تعمل بهاراً ، ونستغل نحن المكان لنشاط الجمعية ليلاً ... وقد عكفنا على وضع القانون الأساسى لهذه الجمعية ... ومع أننا كنا

صفاراً لأنني لا زلت أذكر أن المواد التي تضمنها هذا القانون قد شملت كل الأهداف الإسلامية ، وأحاطت بما تحتويه من معالجة للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وأشرنا إلى وجوب إيجاد صلات بين المسلمين في أنحاء الأرض باعتبارهم أمة واحدة ... وكان هذا في ذاته أمراً عجباً لأن المسلمين في ذلك الوقت لم يكونوا يفهمون الإسلام على هذه الصورة .

ثم انتقلت الجمعية إلى دار فسيحة في وسط المدينة تبرع بها والد عضوين معنا وكان لهذه الدار فناء فسيح . وكانت الدار تزخر طيلة اليوم والليلة بعدد كبير من الطلبة وغير الطلبة من الشباب العامل في مختلف الحرف ، وقد تعرف هؤلاء على الجمعية نتيجة ما كانت تقيم من حفلات تلقى فيها المحاضرات والخطب والقصائد كلها في شرح الفكرة الإسلامية وفي إيقاظ الهمم لإحياء مجد الإسلام .

وفي صيف سنة تالية كثر عدد الأعضاء وأقبلت عناصر جديدة كانت تستنكف من قبل أن تشترك معنا فلما رأوا نجاح جمعيتنا رأيناهم يأتوننا هرولة .

جمعية الشبان المسلمين برشيد

ضاعت الدار التي كنا نشغلها بالوافدين الجدد الذين تركوا نواديهم وقدموا إلينا ، وما كان لنا أن نرد قادماً أو نرفض وافداً ؛ وسراخواننا بهذه الوفود الجديدة ؛ ولكنني كنت منقبض الصدر لأنني أعلم أن هؤلاء الوافدين لم يدفعهم إلينا إيمانهم بفكرتنا بل كان الدافع لهم أنهم رأوا لنا نجاحاً أرادوا أن يستغلوه في الظهور والبروز ... ولم يكن يد من فتح الأبواب لهم ، فلما استقر بهم المقام اقترحوا أن تتخذ الجمعية اسماً آخر غير اسمها ، وصوروا للأعضاء الآخرين من إخواني وزملائي أن اتخذ اسم مشهور. يبرز الجمعية في المجتمع ويعمل صوتها ويرفع مكانتها واقترحوا أن يكون الاسم الجديد هو جمعية الشبان المسلمين برشيد ، واستقر الرأي على ذلك .

وكان لي خبرة بجمعية الشبان المسلمين بالاسكندرية في ذلك الوقت حيث كان لي زميل بالمدرسة مشتركاً فيها وعضواً في فريق كشافتها وفهمت منه أن هذه الجمعية تهتم بالتواهي الرياضية ولا تولى الناحية الدينية اهتماماً يذكر فلما جلسنا لوضع القانون الأساسي لهذه الجمعية اشترطت على اللجنة المنوط بها هذا الأمر - وكنت عضواً فيها - أن ينص على أن هذه الجمعية برشيد لاعلاقة بينها وبين جمعيات الشبان المسلمين في القاهرة والاسكندرية وتمسكت بهذا الشرط حتى أجازته اللجنة .

وانتخبت الجمعية لأول مرة مقراً مستقلاً بأجر شهرى وفى أبرز مكان فى المدينة واتسمت وذاع صيتها حتى أن النحاس باشا - وكان فى ذلك الوقت زعيم البلاد غير منازع - كان مدعواً فى حفل كبير أقامته له لجنة حزب الوفد برشيد، فلم يقيم بعد انتهاء الحفل بزيارة لأى مكان أو لاية شخصية إلا هذه الجمعية ؛ والطريف أنه حين قدمنا له دفتر الزيارات ليكتب لنا كلمة فيه سألنا قائلاً : هل جمعيتكم هذه فرع من جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة فنحننا ذلك وأطلعنا على قانون الجمعية ومافيه من نص على ذلك فابتسم وقال : لو كانت جمعيتكم فرعاً من جمعية القاهرة ما قبلت أن أكتب اسمك شيئاً. ومع أن الجمعية قد استكملت مظاهر الأبهة وتقاطر الناس على الاشتراك فيها فكثرت أموالها إلا أنى كنت أرى عوامل الفشل تدب فى أعضائها وتنخر فى عظامها فقد كثر المتسللون إليها من ذوى الأغراض وطلاب المناصب وعشاق المظاهر وصار من الصعب مقاومتهم حيث صاروا أغلبية فحولوا الجمعية عن أغراضها ولم تعد أكثر من ناد يؤمه الفارغون والمتسكعون فقررت البعد عنها وأعلنت ذلك للجميع .

افتقاد الضالة المنشودة

أعلنت انفصالى عن الجمعية التى أنشأتها ؛ وحملت معى فكرتى الإسلامية التى تمكنت من نفسى تمكناً جعلنى أزن بها كل ما يعرض على ، وأقيس بها ما يقدم لى . ولم أخرج من هذه الجمعية وحدى بل خرجت بالمجموعة التى كنت بشتها ماعندى من أحاسيس وأفكار ، ولم تكن هذه المجموعة من علية القوم ولا من أكبر مثقفهم لكنها كانت مجموعة مؤمنة بما يؤمن به وتضطرم نفسها بما تضطرم به نفسى ، وهى المجموعة التى التفت حولى من أول يوم .

كانت وطأة الاستعمار على البلاد على أشدها ، وكان فى البلاد أحزاب يدعى كل منها أنه صاحب الفكرة المثل لمقاومة الاستعمار فكان حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين والحزب الوطنى وحزب الاتحاد ... وبدراسة هذه الأحزاب بين لى أن الوفد أكثرها جدّاً وبذلاً ونصحية ، واتصالاً بال جماهير ومعاداة للملكية فركنت إليه ...

وظهرت فى ذلك الوقت جمعية مصر الفتاة التى أنشأها الأستاذ أحمد حسين الحامى ، وكانت تصلنا فى المدرسة مجلتها «الصرخة» تفيض بالحماسة الدافقة ؛ وكنت أميل إليها باعتبارها فكرة ناهضة إلا أنى لم اتخذها لى مبدأ وفكرة لأن نفسى كانت تشمئز من الانتهاء إلى التراب ، واتخاذ مصر إلهاً نقدم له القرابين ؛ إذ كان مبدأها «مصر فوق الجميع» وهو ادعاء على غير أساس وتميز عنصري يستطيع كل جنس أدعاه وما أنزل الله به من سلطان .

وكان «لمصر الفتاة» في تلك الحقبة إنجاز يستحق التسجيل إذ كان لباس الرأس في تلك الأيام هو الطربوش المصنوع من الصوف أو الجوخ الأحمر ، ولم يكن أحد يجروى على كشف رأسه أو تغطيتها بشيء آخر غير الطربوش ، وكان هذا الطربوش يصنع في مخارج البلاد . لنأدى الأستاذ أحمد حسين بتمصير لباس الرأس وتكونت لجنة بمشروع سمته «مشروع القرش» يجمع من المواطنين قروشاً لبناء مصنع في القاهرة لصنع الطرابيش ونبيع المشروع فعلاً وأنشئ المصنع ولبس المصريون من انتاجه واستغنوا عن استيراده .

كنت أميل إلى الوفد باعتباره الحزب الذي يقف للملك بالمرصاد ؛ إلا أنني كنت أحس بأن في الفكرة الإسلامية الغناء عن هذه الأحزاب ؛ ولكن الميدان في مصر غلو من جماعة تبرز هذه المعاني السياسية في الفكرة الإسلامية ... وهذا هو الذي كان يحملني على الالتساب إلى الوفد آملاً في أن أجد في يوم من الأيام الجماعة الإسلامية التي تملأ هذا الفراغ .

إلى الجامعة في القاهرة

أول لقاء عابر لي مع الأستاذ حسن البنا

بعد حصولي على شهادة الثانوية العامة نزلت إلى القاهرة للالتحاق بالجامعة التي كانت تسمى في ذلك الوقت بالجامعة المصرية لأنها الجامعة الوحيدة في البلاد ...

وكان أصدق صديقي لي خلال دراستي الثانوية - كما قدمت - زميل محمد جمال الدين نوح ، وكان والده زميل والدي وصديقه ... وقد توطدت الصداقة بيني وبين جمال إلى حد أننا لم نكن نطبق الافتراق وكانت المدرسة قد رشحتني وجمالاً أن نكون من العشرة الأوائل في شهادة الثانوية العامة معتمدة في ذلك على مقدرتنا العقلية إلا أن طبيعتنا في عدم الصبر على الاستظهار لم تمنح لنا فرصة أن نكون من العشرة الأوائل كما أملوا فينا ولكننا حصلنا على مجموع لا بأس به

لأول مرة في حياتي سافرت وزميل جمالاً إلى القاهرة للتحقق بإحدى الكليات .. وحين وصلنا إلى القاهرة قال لي جمال إن والده أوصاه أول ما يصل إلى القاهرة أن يزور صديقاً له وكان في يوم من الأيام تلميذاً له اسمه «الأستاذ حسن البنا» وقال لي إن والده أعطاه عنوانه وهو رقم ٥ حارة الروم بالفورية وانطلقنا نبحث عن هذا العنوان في أحشاء حي عريق في القدم حتى وصلنا إليه فرأينا بيتاً على الطراز العتيق يشبه الربع وسألنا فيه عن الأستاذ حسن البنا فصعدنا عدة درجات

من سلم جانبي ودخلنا غرفة كبيرة ثبتت على جدرانها رفوف خشبية مملوءة بالكتب والمجلدات ، ورأينا مكتباً تحيط به الرفوف من كل جانب يجلس إليه شاب أبيض الوجه مستديره ذو لحية سوداء يرتدى بدلة وعلى رأسه طربوش ؛ فكان هذا منظرأ عجيباً حيث لم يكن مألوفاً في ذلك الوقت أن يكون أحد معقياً لحيته إلا ويرتدى جبة وعبامة ... فلما رأنا ترك مكتبه وتلقانا بترحيب حار ، وقال إن الأستاذ محمد مخلوف نوح أستاذى ... وتحدث معنا فيما جئنا إلى القاهرة من أجله وشجعنا على مواصلة الدراسة وألح علينا أن نزل في ضيافته فشكرناه ؛ فطلب إلينا أن نتصل به في كل ما يلزمنا وانصرفنا ؛ ولكن صورة هذا الرجل وحديثه وأسلوبه وأدبه وجلوسه ومط هذه الأكوام من الكتب واللافتة التي رأيناها تعلو باب هذا البيت المكتوب عليها «الإخوان المسلمون» تشغل أفكارنا .

والتحقنا معاً بكلية العلوم فكاننا في صدر المقبولين بها وعيننا بين البقاء بها والانتقال إلى كلية الطب لكبر مجموعتنا فرأى جمال البقاء في كلية العلوم ورأيت أننا أحول أوراقى إلى كلية الزراعة وكان لهذا التحويل قصة قد ارجع إليها عند الحديث عن الشيخ طنطاوى جوهرى إن شاء الله .

كيف تعرفت على الإخوان المسلمين

كنا آنذاك في السنة الدراسية ١٩٣٥-١٩٣٦ وكانت هذه السنة سنة نشاط سياسى كبير ، إذ أعقبت بضع سنوات تولى الحكم خلالها إسماعيل صدق وفعل - كما أفهمنا زعماء الوفد - بالبلاد الأفاعيل ، وكان من هذه الأفاعيل أنه ألغى دستور سنة ١٩٢٣ ووضع دستوراً بدلاً منه سماه دستور سنة ١٩٣٢ كنا ندرسه في التربية الوطنية في السنة الثالثة الثانوية وإن كنت الآن قد نسيت محتوياته إلا أننى أذكر أنه في مجموعه كان يهدف إلى الحد من سلطة الشعب - وكانت الدولة المستعمرة - بريطانيا - توازر هذا الاتجاه ... وكنت في مساء كل يوم أذهب إلى مقر حزب الوفد وكان يسمى «النادى السعدى» وكان يفد إليه خليط من الطلبة وصغار الموظفين والعمال والتجار كما كان أقطاب الحزب يحضرون ... وقد رأى هؤلاء نشاطى في إقناع الوافدين من الطلبة بفكرة الوفد فأعدوا لى مكتباً بالنادى ... وفي تلك السنة أنشأ الوفد كئاتب القمصان الزرقاء فكنت أحد أفراد أول نواة لها وكانت هذه النواة كلها من طلبة الجامعة والأزهر وكان يقودها طالب بكلية الطب اسمه محمد بلال .

أما اليوم الدراسى في الكلية فكانت تتخلله فترات لا بأس بها من الفراغ كنت استغلها في

إدارة نقاش سيمى مع الطلبة في فناء الكلية ، وكان النقاش في بعض الأحيان يمتد ويطول ويزداد عدد الطلبة الملتفين حولي ومنهم من ياتف للاشتراك في المناقشة ومنهم من يلتف لجرد السماع والملاحظة ، وتنتهى أكثر هذه المناقشات عادة بكسب أنصار للوفد.

وفي أثناء إحدى هذه المناقشات تقدم إلى طالب وأسر في أذن أنه يريد أن يتحدث إلى حديثاً خاصاً بعد انتهاء المناقشة ... وانتهت المناقشة في وقت مناسب ؛ وانتحيت وهذا الطالب جانباً فقال لي : أنا زميل لك بالسنة الأولى ومن الفيوم واسمى «اسماعيل الخيري» وأنا خالي الدهن عن أية أفكار أو مبادئ ، وقد استمعت إليك كثيراً وأعجبني أسلوبك في المناقشة وأحس فيه الصدق والإخلاص ، وقد رأيت أن اسلمك نفسي لتوجهني إلى المبدأ الذي تختاره لي ... وأنا أراك تدافع عن الوفد فهل تختار لي أن أكون وفدياً ؟...

فقلت لا ... فتعجب الشاب من هذا الرد الذي لم يكن يتوقعه ... قال : كيف نكون وفدياً ولا تختار لي أن أكون كذلك ؟... قلت إنك شاب عديم الخبرة بالمبادئ والأفكار ، وقد استشرتني والمستشار مؤتمن . ولا أرى لنفسي أن استغلك منتزاً فرصة خلو ذهنك لأحشوه بما أريد .

قال : إذن لماذا ترى ؟...

قلت : الذي أراه أن نذهب بنفسك إلى منتديات الأحزاب وتستمع بنفسك إلى قادتها وتناقشهم وتقضى في كل ناد عدة ليال ، وتجيء كل صباح تقص على ما رأيت وما سمعت حتى إذا أتممت الجولة على كل النوادي تجلس معاً لتقرر بنفسك الاتجاه الذي تسلكه ... قال إذن أرشدني إلى أماكن هذه النوادي فأرشدته وكانت هذه النوادي هي : الوفد-الأحرار الدستوريون-السعديون - مصر الفتاة - الحزب الوطني .

ويحذر بي بهذه المناسبة أن أذكر أنني منذ ألفت بالقاهرة - وكان مقر دراستي وسكني بالجيزة - كنت حريصاً على أداء صلاة الجمعة دائماً في مسجد الرفاعي بالقلمة لأن خطيب هذا المسجد الشيخ محمود علي أخذ كان خطيباً مفوها وكانت خطبه ذات اتصال بالحياة ، وكان رواد هذا المسجد الفسيح من أعلى طبقات القاهرة ثقافة ... وكنت ألاحظ دائماً بعد الصلاة وفي مستهل الدرس الذي يلقيه الشيخ بعد الصلاة أنه كان يلفت نظر الحاضرين إلى شاب بين يديه مجلات يوزعها ويحثهم على اقتنائها فكنت أحد الذين يشترونها ... وقد تركت هذه المجلة في نفسي - وكان اسمها «الإخوان المسلمون» - أثراً عميقاً عندما وقع نظري على واجهتي غلافها ؛ فعل وجهها وملء

الصفحة رسمت الكرة الأرضية مركزاً على علم كتب عليه «إنما المؤمنون إخوة» . وتمسك بالعلم قبضة يد قوية كتب تحتها «الإخوان المسلمون» - أما ظهرها فيملاه «أكلشييه» بعنوان «عقيدتنا» تحته سبعة بنود يتكون كل بند من جزئين أولهما مبدوء بكلمة «أعتقد» والآخر مبدوء بكلمة «أتعهد» ... وقد نخصت هذه البنود السبعة الفكرة الإسلامية كما تصورتها بجميع أبعادها . إلا أن «التعهدات» قد نقلت هذه الفكرة المجردة إلى معترك الحياة في جميع ميادينها ... وحرصاً مني على انتفاع القارئ بهذه البنود رأيت أن أثبتها بنصها لأنها خير ما يصلح أن يكون دستوراً ينظم حياة الفرد المسلم والأسرة المسلمة والأمة المسلمة في أوجز العبارات وأدقها وأجمعها للمعانى .

عقيدتنا

١ - أعتقد أن الأمر كله لله - وإن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم رسله إلى الناس كافة ، وأن الجزاء حق وأن القرآن كتاب الله . وأن الإسلام قانون شامل لنظام الدنيا والآخرة .

وأتعهد بأن أرتب على نفسي حزباً من القرآن الكريم . وأن أتمسك بالسنة المطهرة ، وأن أدرس السيرة النبوية وناريخ الصحابة الكرام .

٢ - أعتقد أن الاستقامة والفضيلة والعلم من أركان الإسلام . وأتعهد بأن أكون مستقيماً أؤدي العبادات وأبتعد عن المنكرات ، فاضلاً أتخل بالآخلاق الحسنة ، واتخل عن الأخلاق السيئة ، وأتحرى العادات الإسلامية ما استطعت ، وأؤثر المحبة والود على التحاكم والتقاضى ، فلا أُلجأ إلى القضاء إلا مضطراً ، وأعز بشائر الإسلام ولغته ، وأعمل على بث العلوم والمعارف النافعة في طبقات الأمة .

٣ - أعتقد أن المسلم مطالب بالعمل والتكسب ، وأن في ماله الذي يكسبه حقاً مفروضاً للسائل والمحروم .

وأتعهد بأن أعمل لكسب عيشي ، والتصد لمستقبل ، وأؤدي زكاة مالي ، وأخصص جزءاً من إيرادي لأعمال البر والخير ، وأشجع كل مشروع اقتصادي إسلامي نافع ، وأقدم منتجات بلادى وبني ديني ووطنى ، ولا أتعامل بالربا في شأن من شئوني ، ولا أتورط في الكاليات فوق طاقتي .

٤ - أعتقد أن المسلم مسئول عن أسرته وأن من واجبه أن يحافظ على صحته وعقائده وأخلاقها وأتعهد بأن أعمل لذلك جهدي ، وأن أثبت تعاليم الإسلام في أسرتي ، ولا أدخل أبنائي

أمة مدرسة لا تحفظ عقائدهم وأخلاقهم ، وأقاطع كل الصحف والنشرات والكتب والهيئات والفرق والأندية التي تناوىء تعاليم الإسلام .

٥ - أعتقد أن من واجب المسلم إحياء مجد الإسلام بانهاض شعوبه وإعادة تشريعه وأن راية الإسلام يجب أن تسود البشر ، وأن من مهمة كل مسلم تربية العالم على قواعد الإسلام .

٦ - أتعهد بأن أجاهد في سبيل أداء هذه الرسالة ما حييت ، وأضحى في سبيلها بكل ما أملك . أعتقد أن المسلمين جميعاً أمة واحدة تربطها العقيدة الإسلامية ، وأن الإسلام يأمر أبناءه بالاحسان إلى الناس جميعاً .

وأتعهد بأن أبذل جهدى في نوثيق رابطة الإخاء بين جميع المسلمين ، وإزالة الجفاء والاختلاف بين طوائفهم وفرقهم .

٧ - أعتقد أن السر في تأخر المسلمين ابتعادهم عن دينهم ، وأن أساس الإصلاح العودة إلى تعاليم الإسلام وأحكامه ، وأن ذلك ممكن لو عمل له المسلمون .

* * *

فكانت هذه أول مرة أصادف قوماً يعتقدون ما أعتقد بتفاصيله ودقائقه ، فكان تجاوباً مجيباً ، ولكن تجربتي السابقة في جمعيات ورشيد التي أشرت إليها قبلاً ، أفقدتني الثقة في الذين يدعون العمل للإسلام .

كان إسماعيل يقابلني في الكلية كل صباح ، ويقص على ماسع وما رأى في ليلته الماضية وأناقله ويناقشني ، ويخرج في كل مرة برأى معين ونقيم لكل ما رأى وكل ماسع .. حتى طاف بجميع الأحزاب والهيئات ولم أره شعر برضاً عن أى منها .. فوجهته إلى جمعيات إسلامية كانت موجودة ومشهورة منها جمعية مكارم الأخلاق والجمعية الشرعية وجمعية أنصار السنة ؛ فطاف بها جميعاً ولم يخرج منها بشئ يرضى شغفه ويملا فراغ نفسه ، وأحسست منه ضجراً مما قد يسلم إلى اليأس . وندكرت المجلة التي أشرت إليها آنفاً فقرأت عنوان الدار التي تصدرها وقلت له : لم يبق في جمعيتي إلا جمعية واحدة قرأت عن مبادئها فأعجبني وملأت نفسي لـسكن عندي سوء ظن بالناس الذين يعملون بالجمعيات الإسلامية نتيجة تجربة لي سابقة فسأعطيت عنوان هذه الجمعية لتذهب إليها لا لتناقش مبادئها وأفكارها بل لتراقب لي العاملين بها لا سيما رئيسها .. ولقد كنت تقضى في كل حزب أو هيئة ثلاث ليال أو أربع لكنني أريد أن تقضى في هذه الجمعية فترة طويلة لا تقل عن الشهر لأن مراقبة العاملين تستغرق وقتاً طويلاً ..

ذهب إسماعيل إلى هذه الجمعية في العنوان الذي كتبته له وهو ١٣ شارع الناصرية بالسيدة زينب وكان كل صباح يقص على مارأي وما سمع ومالفت نظره ، وكان يمشي بالجمعية كل ليلة حتى تغلق أبوابها . أخبرني عن رئيسها ووصفه لي فتذكرت الرجل الذي زرتة وصديقي جمال في حارة الروم ووجدت أوصافه حين وصفه إسماعيل تنطبق عليه تماماً .

بعد انقضاء الشهر شعرت بأنني أصبحت مقتنعاً بالعاملين في هذه الجمعية كما شعرت بأن إسماعيل يبادلي نفس الشعور ، وقد قرر بمحض اختياره أنه يركن مطمئناً إلى هذه الجمعية. وقد زكيت اختياره وقلت له : إذن فاذهب الليلة إليهم وحرر طلب التحاق بها ، وواظب على اجتماعاتها فقال لي : أنا وحدي ؟.. قلت : نعم أنت وحدك . قال ولم لا تكون أنت قبل وأنت أحق مني وأنفع ؟. قلت : إن لي ارتباطات مع هؤلاء القوم ، والحركة السياسية الآن على أشدها ، ولا أستطيع أن أنسلخ والحالة هذه فيقال إنني جئت . فذهب إسماعيل والتحق .

كنا نحن - الطلبة الوفدين- نعد العدة للقيام بمظاهرات ضد القصر والحكومة القائمة - وزارة أحمد نسيم - ومن ورائها الإنجليز . فكنّا نجتمع الطلبة في النادي السعدي ونشجعهم بأفكارنا وبالخطب التي كان يلقيها النحاس باشا وبعض كبار أعضاء الوفد .. وكان السكرتير العام للوفد مكرم عبيد يحضر إلى الجامعة ويخطب فيها ويحمله الطلبة على أكتافهم هاتفين - وصحف الوفد في نفس الوقت تشمل الحراس بمقالات ماثية ... كل ذلك هي الظروف لقيام مظاهرة ضخمة ضمت عدة آلاف من طلبة الجامعة وسميت هذه المظاهرة فيما بعد بمظاهرة كوبرى عباس .

مظاهرة كوبرى عباس ١٩٣٦

لا شك في أن مظاهرة كوبرى عباس هذه كانت الخط الفاصل في حياتي ، كما أنها أيضاً كانت حركة تاريخية جعلت الطابة والأهالي على بينة من أن الإنجليز أعداء الأداء ، فقد خرج طلبة الجامعة المصرية من كلياتهم بالجيزة في مظاهرة سلمية لا تمتد يدها إلى تخريب أو عنف ، وإنما كانت تتهافت هتافات موحدة بسقوط وزير بريطاني اسمه صمويل هور لأنه هو الذي أوحى بإلغاء دستور سنة ١٩٢٣ ، ويطالبون في هتافهم بأرجاع هذا الدستور ، كما يهتفون بسقوط حكومة نسيم .

وقد سارت المظاهرة في سلام من حرم الجامعة مخترفة شارع المدارس ثم ميدان الجيزة ثم اتجهت إلى الشارع المؤدى إلى كوبرى عباس الذي يصل القاهرة بالجيزة ، ودخلت الجموع

كوبري عباس حتى إذا صارت في منتصفه إذ بالكوبري يفتح فجأة فيقسم المظاهرة قسمين ،
لسم كان قد عبر الجزء المفتوح وأصبح في الجزء المؤدى إلى الروضة وقسم حال فتح الكوبري
بينه وبين مواصلة السير للحاق بزملائه فكان عليه أن يرجع أدراجه إلى الجبهة .

حاول هذا الجزء الرجوع فإذا به يجد نفسه محاصراً بقوات تطلق العيارات النارية ، وحاول
الجزء الآخر مغادرة الكوبري إلى الروضة فإذا به يجد نفسه محاصراً بقوات عند نهاية الكوبري
تطلق العيارات النارية . والذي دبر هذه المؤامرة الغادرة ضباط إنجليز على رأسهم حكمدار
القاهرة الإنجليزي « رسل باشا » رأيتهم بأعيننا يصدرون الأوامر إلى جنودنا المغلوبين على أمرهم
بضربنا بالرصاص .

كان الرصاص يملأ الأرض والجو ويطلق في كل اتجاه وامتلات الأرض بالمصابين ، ولم
يكن أمام الطلبة العزل المساكين إلا أن يجروا في كل اتجاه باحثين عن مهرب من هذا المطر الممطر
من الرصاص كأنما هي حرب بين بادين غدرت إحداها بالأخرى بينما كنا على مائدة الصلح ،
فإحداها عزلاء حتى من عصا في يدها والأخرى كانت تخفى تحت ثيابها أفكك السلاح... غدر لا مثيل له

استطعت بعد الخوض بين جثث الزملاء الماتة على الأرض أن أغادر الكوبري وأنزل تحت
حيث الأحراش والطين ، ومع ذلك لم نسلم من الطلقات فقد تابعونا بالرصاص أيضاً .. ووقفت
لحظة مع بعض الزملاء ودوى الرصاص يصم آذاننا ، وهنا تمثلت أمامي صورة لي وقد أصبت
وتفرجت في دماغي وقابلت ربى .. فإذا أقول له حين يسألني في سبيل ماذا قتلت ؟ سأقول له في
سبيل دستور ١٩٢٣ ... هل دستور ١٩٢٣ هو الدستور الذي أنزله الله ليحكم هذا العالم ؟ هل هو
الدستور الذي قال الله تعالى في شأنه «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» .

هنا ، وتحت كوبري عباس ، وتحت وابل الرصاص ... وشبح الموت يطاردنا في كل
مكان ... في تلك اللحظة قررت إن كتبت لي الحياة لأصححن اتجاهي . ولتكون حياتي كلها لله
وحده ، ولا أشتغل لنفسي الخط الذي أراد الله للناس أن يسلكوه إليه ، وأن تكون جهودي جميعاً
في سبيل إقامة الدولة الإسلامية التي لا يرضى الله بغيرها بديلاً «قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي
لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين»

قتل من زملائنا الطلبة في هذه المظاهرة طالبان هما «عبد المجيد مرسى» و«عبد الحكيم الجراحي»
رحمهما الله رحمة واسعة وكان الأول من طلبة كلية الزراعة والأخر من طلبة كلية الآداب ...

أما نحن الذين نزلنا تحت الكوبرى فقد واصلنا السير تحت نخوصه في الطين والأحراش حتى خرجنا مقابل مبنى الجامعة .

في الطريق إلى المركز العام

كان أول شيء فعلته أن طلبت إلى إسماعيل الخبيري أن يصحبني معه إلى دار المركز العام للإخوان المسلمين ، ولكنه اقترح على أن نخصص هذا اليوم لزيارة طالب من أهل الفيوم ومن الإخوان المسلمين ويقم في شارع المنيل القريب من الجيزة وسألته عن اسمه فقال إن اسمه عبد الحكيم عدوي عابدين وهو طالب في كلية الآداب وهو أقدم منا عهداً بالقاهرة فهو في السنة الثانية .

فلما التقيت بهذا الطالب في مسكنه وجدني أمام أديب شاعر متصوف ، وما كاد يحس من تذوقاً لهذه الألوان نفسها حتى أقبل على كأنما عثر غلى ضالته فأخذ ينشدني من شعره ويقص على من أتياه شيخه الشيخ سلامه الراضى شيخ الطريقة التي ينتسب إليها ، وهي طريقة صوفية تربي أتباعها بأسلوب فريد ، فهم يجتمعون ليلاً في مكان خال بعيد عن الحركة والضوضاء ، ويتخذ كل منهم مكاناً منفرداً بعيداً عن زملائه ، وتطقاً الأنوار ، ويفمض كل منهم عينيه ، ويتابع بمخيلته حياته منذ ولد حتى يموت ثم يدفن ثم يحاسب في قبره ويسأل عن ذنوبه ويوقع عليه عقاب هذه الذنوب ، ثم يرى مكانه في النار ثم يتعرض لفتن القبر ثم يبحث ثم يرى الموقف العظيم وفي أثناء هذا الاستغراق تنبعث الآهات وتعلو الاستغاثات حيث يصل الاستغراق إلى حد غياب المريد عن وعيه .

وقد كانت هذه أول مرة - مع سابق اختلاطى بكثير من المتصوفين - أسمع فيها عن هذه الطريقة وعن أسلوبها في التربية ، وهو أسلوب ولا شك فريد وعنيف ، وقد يمحس الفرد ويزكى النفس ويسمو بها في ليلة واحدة وفي جلسة واحدة مالا يفعله في أشهر أسلوب الوعظ الكلامي الذي هو المتبع في الازرع والتربية .

وقد أنشدني عبد الحكيم قصيدة له تربو على مائة بيت نظم فيها هذا الأسلوب التربوي بجميع أطواره ، وجعل الحديث فيها على لسان أحد المريدين فهو يفمض عينيه في الظلام ويتابع حياته بأطوارها ويصف ما كان منه وما كان له في كل طور حتى يصل إلى الحقيقة وهي الموت والحشر والحساب .

كما أنشدني عبد الحكيم قصائد له أخرى في مختلف الأغراض لكن أكثرها كان يدور حول هذه المعاني الصوفية العميقة الغور التي لا يحسن التعبير عنها إلا من لابسها وبدوها .

الى دار المركز العام

قلت لإسماعيل في اليوم التالي سأذهب معك إلى دار الإخوان ولكن لا تعرفني برئيسهم ولا بأحد منهم كما لا تعرف أحداً منهم بي لاني أحب أن أراقبهم دون أن يعرفوا .. ونفذ إسماعيل ..
فقد دخلنا داراً عتيقة في شارع الناصرية بالسيدة زينب ، والدار مكونة من أربع غرف وصالة صغيرة ، وكانت الدار هي الدور الأرضي من أحد المنازل المتهاككة .. وكانت ميزتها الوحيدة أن أمامها فناء فسيحاً غير مسقوف يصلح لإقامة الحفلات وإلقاء المحاضرات .

كان الرئيس هو الأستاذ حسن البنا الذي قابلته من قبل مع صديق جال ، ولم تكن اللاتعة الموضوعية على باب حجرة مكتبه بهذه الدار مكتوباً عليها كما هو متعارف كلمة «الرئيس» بل كان المكتوب عليها كلمة «المرشد العام» .. وكان الموجودون بالدار مجموعة من الشباب أكثرهم من طلبة الجامعة وقليل منهم من صغار الموظفين .. ولست روح المحبة والود تسود كل من في الدار حتى العلاقة بينهم وبين المرشد العام كانت علاقة محبة وود ... نعم إنهم يحترمونه ويوقرونه ولكن توقيراً نابعاً من حب ، أما هو فيتعامل معهم كأنه واحد منهم ... ثم إنك لا تسمع حديثاً داخل هذه الدار إلا عن الإسلام وما يتصل به وما يدور حوله ، وليس معنى ذلك أنهم يتناقشون في أمور الدين وأحكام العبادات كما يتبادر إلى الذهن ، وإنما يدور حديثهم حول قضايا الساعة ، الاجتماعي منها والاقتصادي والسياسي وقيسونها بمبادئ الإسلام . وتحس حين تراههم وتسمعهم وتراقب حركاتهم وسكناتهم أنهم يبيعون أنفسهم ليسدوا فراغاً في هذه الأمة طالما ظل شاغراً نتيجة للجهل ولتدابير المستعمرين ولقهر الظالمين .. فترى الشاب منهم مشتتلاً بالفكرة الإسلامية باعتبارها الفكرة الوحيدة لإنقاذ العالم مما يعانيه في مختلف نواحي الحياة .

لذا إذا كان موعد الصلاة قام أحدهم فأذن على باب الدار أذاناً شجاعاً ، وهرع الجميع إلى مسجد الدار ، ورأيت باب حجرة المرشد العام قد فتح ودلف المرشد ليوم الجميع لا يتخلف منهم أحد . وتشعر حين تتنظم معهم في الصف أنك لست في صلاة وحسب بل تشعر مرة أنك في ميدان القتال وتشعر أخرى أنك تدرس على المستوى العالمي طبائع النفوس وأنواعها وعلاج كل نوع منها ... وتخرج من الصلاة وقد تجددت قلباً ونفساً وعقلاً وبدناً .

أما عدد رواد الدار فكان قليلاً بحيث لا تعد في ليلة من ليالي الأسبوع أكثر من عشرين فرداً

لكن طابع الجدة كان يبدو في وجوههم جميعاً كأن الواحد منهم يحمل مسؤولية أمة كاملة ، مع أن أكثرهم لم يكن مسؤولاً حتى عن نفسه ، لأنهم كانوا طلبة أو من هم في مستوى الطلبة . وقد أقتنع هذا الطابع الذي كان أبرز شيء فيهم وفي رئيسهم بأن هذه الهيئة هي ببقى وأمنيتي .

نظام الدار

كانت هناك أربعة أيام في الأسبوع ينتظم فيها الإخوان لسبع دروس : ثلاثة منها تلقى في مسجد الدار ، والرابع محاضرة عامة تصف لها الكرامى و «الدكك» في فناء الدار ويدعى إليها الجمهور فدرس في التصوف يلقيه رجل كبير السن يدعى «حامد بك عبد الرحمن» كان مفتشاً للرى وأحيل إلى المعاش ، وكان درسه في شرح حكم بن عطاء الله السكندرى ، وقد أفدت من هذا الدرس حيث صادفت الحكم التي كان يشرحها حامد بك عندما حضرت له صراعاً نفسياً كان يهزنى هزاً فكأنما كان يخاطبني بتلك الحكم .

ودرس في تفسير القرآن الكريم يلقيه حكيم الإسلام الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى . وكان يفسر القرآن بالعلوم الحديثة ، وهو لون لم يكن مألوفاً في ذلك الوقت ، وكان الرجل بارعاً في التفسير وفي الإقناع حيث كان على قدم راسخة في التفسير وفي العلوم الكونية معاً .

والدرس الثالث درس التكوين . وهو درس لا تستطيع أن تسميه درس تفسير ولا درس تصوف ولا درس تاريخ ولا درس أخلاق ولا درس سياسة ولا درس أدب وإنما هو جامع لذلك كله ويجمع إلى ذلك آفاقاً أخرى ليس من السهل الإحاطة بها لأن كل هذه العلوم والفنون كانت تقدم إلى السامعين مزوجة بذوب النفس وعصارة القلب ومهجة الفؤاد ، وهو ما يجعل مزيج هذه العلوم والفنون قادراً على صهر النفوس وصياغتها من جديد .

وكان يلقى هذا الدرس المرشد العام ، ومع أن الدرسين السابقين لم يكن يواظب عليهما إلا سبعة اشخاص أو ثمانية كنت أحدهم فإن درس التكوين لم يكن يتخلف عن حضوره أحد من الإخوان . لأنه طراز لا عهد لأحد بمثله .

أما المحاضرة العامة فبالرغم من المجهود الذى كان يبذله الإخوان في الإعداد لها وفي دعوة الناس من الشوارع المجاورة لحضورها فإن معظم المقاعد تظل خالية مع أن الذى كان يلقيها في أكثر الأحيان هو المرشد العام ، ولا يتخلل إلا لعذر فإذا تخلل قام شقيقه «عبد الرحمن الساعاتى» بإلقائها .

وعبد الرحمن الساعقي خطيب مطبوع مفوه خمس حين نسمعه أنك أمام عقبة بن نافع مخطياً
صهوة جواده يخاطب المحيط الأطلسي بمد أن فتح الشمال الأفريق حتى وصل إلى شاطئه ويقول :
«لو علمت أن وراءك أرضاً خلصت لك إليها غازياً في سبيل الله»، كانت خطيب عبد الرحمن الساعقي
خطيباً تحرك القلوب وتذكر بالأجناد ونسبل العبرات ... وإذ ذكرت عبد الرحمن الساعقي وخطيبه
الرواية فتحضر في شخصية شاعر عربي عظيم هو «محمود غنيم» الذي يعتبر بلبل الإسلام الصداق
والذي كانت قصائده التي نشرت في مجلة الرسالة في المناسبات الإسلامية أنشودة يتفنن بها الأدباء
ويقتبس منها الخطباء ويحفظها النابهون من الشباب ، وكان «عبد الرحمن الساعقي» كثيراً ما يحل
خطبه بأبيات من قصيدة عامرة لمحمود غنيم ، رأيت أن أنقلها هنا لروعتها ولتعبيرها أدق تعبير عن
فكرة الإخوان المسلمين ، وقد نشرت بمجلة الرسالة في العدد الخاص بالهجرة في سنة ١٩٣٦ :

إني تذكرت والذكرى مؤرقة -	مجداً تليداً بأيدينا أضغنا -
أني اتجهت إلى الإسلام في بلد	تجده كالطير مقصوفاً جناحه
وريح العروبة كان الكون مسرحها	فأصبحت تتوارى في زواياه
كم صرفتنا يد كنا نصر فيها	وبات يملكنا شعب ملكنا -
كم بالعراق وكم بالهند ذو شجن	شكا فرددت الأهرام شكواه
هي الحقيقة عين الله تكلوها	فكلما حاولوا تشويهها شأوا
هل تطلبون من المختار معجزة	يكفيه شعب من الأحداث أحياء
من وحد العرب حتى كان واثقهم	إذا رأى ولد المونور أعياه
وكيف كانوا يدا في الحرب واحدة	من خاضها باع دنياء بأعراه
وكيف ساس وعصاة الإبل ملكة	ما صاصها ليصر من قبل أو شاه
وكيف كان لهم علم وفلسفة	وكيف كانت لهم سفن وأمواء
سنوا المساواة لأعرب ولا عجم	ما لا مرى شرف إلا بتقواه
وقررت مبدأ الشورى حكومتهم	فليس للفرد فيها ما تمناه
ورحب الناس بالإسلام حين رأوا	أن السلام وأن العدل مغزاه
يامن رأى عمسراً تكسوه بردته	والزيت آدم له والكوخ مأواه
يهتز كسرى على كرسيه فرقاً	من بأسه وملوك الأرض تخشاه

من هم أعضاء المركز العام ؟

قدمت أن أعضاء المركز العام الذين لا يكادون يعدون الأربعين كانوا بين طلبة وصفار موظفين . ولكن من هم هؤلاء الطلبة وهؤلاء الموظفون وكيف وصلوا إلى هذا المركز العام المغمور وسط أحشاء القاهرة والذي لا يكاد يعرفه جيرانه المتصفون به ؟؟؟ .

لقد استنتجت الإجابة على هذا السؤال لأننى كنت حريصاً على تحليل كل ما أراه فى هذا المركز العام لاسيما مايتصل بالأشخاص ... المركز العام ، فى حى السيدة زينب ... وتستطيع أن تقول إن ثلاثة أرباع هؤلاء الموظفين والطلبة هم من حى السيدة زينب ، وأكثر هؤلاء من شارع واحد هو شارع زين العابدين الذى كان يسكن فيه فى ذلك الوقت الشيخ طنطاوى جوهرى ، والشيخ طنطاوى من أوائل من تعرف على الأستاذ المرشد العام ونجله جمال كان أحد هؤلاء الطلبة وكان طالباً بكلية الهندسة ، وجمال الفندى وكان طالباً بكلية العلوم ومختار إسماعيل وكان مدرساً للرياضة البدنية ، كما كان من سكان الحى الطلبة جمال عامر بكلية العلوم وطاهر عبدالمحسن ومحمود أبو السعود ورشاد سلام بكلية التجارة ومحمد سليمان وإبراهيم أبو النجا بكلية الطب ومحمد عبد الحميد أحمد وعبد المحسن الحسينى وأحمد عبد العزيز جلال بكلية الآداب وحسن السيد عثمان ومحمد فهمى أبو غدير بكلية الحقوق . وكان من الموظفين الأستاذ محمد حلمى نور الدين وكان كاتباً فى مصلحة الرى والأستاذ أسعد الحكيم وهو شقيق زوجة الأستاذ عبد الرحمن الساعق وكانا موظفين معاً فى السكة الحديد والأستاذ حسين بدر فى السكة الحديد أيضاً والأستاذ أسعد راجح وكان سكرتيراً لمدير إنجليزى والأستاذ محمد حمص وكل هؤلاء من سكان الحى .

وكان من طلبة الأزهر الشيخ أحمد حسن الباقورى وكان فى التخصص وآل شريت وهى أسرة كريمة من أسرة ريفية ريفاً بأسىوط كان والدهم أستاذ أبالأزهر وكان من أسبق الناس إلى الدعوة ومبايعة المرشد العام وكان أبناؤه جميعاً وأبناء عمومتهم من أخلص الإخوان منهم الشيخ أحمد شريت والشيخ محمود شريت والشيخ حامد شريت وكلهم تخرجوا فى الأزهر أو دار العلوم وابن عمهم الأستاذ فتحى شريت الذى كان موظفاً بالسكة الحديد على ما أذكر .. ومن الأزهر الشيخ عبد البارى عمر خطاب وكان طالباً بالمعهد والشيخ عبد اللطيف الشمعاعى وكان طالباً بكلية أصول الدين والشيخ أحمد الشرقاوى وكان طالباً بمعهد القراءات وقد أفدت منه الكثير فى قراءة القرآن وكل هؤلاء كانوا من حى السيدة زينب أو مما يجاوره .

فإذا أحصيت بعد ذلك الأعضاء من غير الحى أو القريين منه لم نجدهم يعدون العشرة منهم
اسماعيل خيرى وأنا وعبد الحكيم عابدين وثلة آخرون .

الزعايدة

أشرت من قبل إلى أن أمارات الجدة كانت مرتسمة على وجوه رواد الدار ؛ وكانت دروس
التكوين التى يلقها المرشد العام نذكى في نفوسهم شعلة الجدة ، فكان مجرد التحدث فيما سوى
الدعوة يعد شيئاً غريباً ، فإذا وصل الأمر إلى الضحك وإن كان بريئاً فقد يعد جريمة ..
وكانت مجموعة من سكان شارع زين العابدين تميل إلى شئ من الضحك أو التمرجح المحدود البريء ،
فكانت مجموعتنا الأخرى نعتبر ذلك استهتاراً لا يليق برجال الدعوة ونوجه إليه اللوم والتقريع ...
وظل الأمر على ذلك حتى وجدنا أنفسنا نحن رواد الدار قسمين ؛ قسم يبالغ في الجدة وقسم لا يتخلف
عن أداء حق الدعوة ولكنه يميل إلى الدعابة هم فريق من سكان زين العابدين ، وأطلق الأخ
محمد عبد الحميد أحد وكان طالباً من الحكماء لفظ «الزعايدة» على هذه المجموعة واتسع بعد ذلك
مدلول هذا اللفظ حتى صرنا نطلقه على المهرجين أينما كانوا .

شخصيات أخرى

ومن الشخصيات الأخرى التى كانت تتردد على الدار وكانت ناقت النظر الشيخ محمد زكى
ابراهيم وكان مدرساً أديباً خطيباً شاعراً متصوفاً ، وكان ممن يفهمون الإسلام فهماً صحيحاً وكان
يشتمل حاسماً للفكرة الإسلامية ومن يحسنون فهم الجو الاجتماعي والسياسي في مصر وفي العالم
الإسلامي ، ولا أدري لم لم يبرز اسم هذا الرجل بين شعراء مصر مع أنه كان شاعراً مطبوعاً ؛ ولعل
السبب في ذلك أن النزعة الصوفية غابت عاينه ... فقد لاحظت أن الرجل كان ملازماً للأستاذ
المرشد طيلة المدة التى كانت فيها الدعوة مغمورة لا يعرفها إلا الأقليون ، لهذا برزت الدعوة
وأما الكثيرون أخذ هذا الرجل في الابتعاد حتى اختفى اختفاء تاماً ... ثم قرأت أخيراً في
أيماننا هذه أنه ألف جماعة سماها «العشيرة المحمدية» ولا أعتقد إلا أن هذه العشيرة تقوم على
الفكرة الإسلامية الصحيحة التى كان هذا الرجل من أوائل معتنقيها والعاملين لها والمجاهدين عليها .
وقد أدركت لأول عهدي بهذه الدار شخصيتين كانتا متفرغتين للعمل بالدار هما الأستاذ
حمدي الجريسي وكان معروفاً أنه سكرنير المرشد العام والأستاذ محمد طاهر العرب وكان انصالة
بالأستاذ المرشد شخصياً يكلفه بأعمال الدعوة خارج الدار ؛ وقد لاحظت أنهما انقطعاً عن الدار
انقطاعاً فجائياً وتاماً مما أثار دهشتنا .

ثم «محمود هبة الله» الطالب الأزهرى الذى انقطع عن الدراسة واشتغل بالزراعة في باده «جنينوى» مركز إيتاى البارود فكان يقضى أكثر أيامه في المركز العام يلهب المشاعر بحماسة البالغ وعصاه الغليظة وجسمه الفارع وصوته الجهورى وهو نجيل «الشيخ الجنبسى» من كبار علماء الأزهر الذين آمنوا بالدعوة وبايعوا عليها لأول عهدها بالقاهرة ... وقد عاش محمود هذا ما عاش لدعوته فلما مرض واشتد عليه المرض وأحس باقتراب أجله أبى إلا أن يموت بين أخوانه فطلب من أهله نقله إلى منبهور حيث كنت أسكن ، وظل بين أيدينا حتى لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يردد شعار دعوته ويسأل الله أن يعثه عليها رحمه الله رحمة واسعة وغفر الله لنا وله وأوسع له في رضوانه والحقنا به في مستقر رحمته .

وبعد أن انقطع عن الدار الأستاذان حمدى الجريسي وطاهر العرقى، أحضر الأستاذ المرشد رجلا مسلماً صالحاً هو الأستاذ أحمد الحسينى وكان يبدو عليه ضعف البصر حيث تغطى عينيه نظارة سمكية العيونات ، وكنت أحب أن أجالس هذا الرجل ، لأننى اعتقدت أن الأستاذ المرشد لا يأتى إلى الدار يمثل هذا الرجل المسن إلا إذا كان لهذا الرجل تاريخ ... وكان الرجل يأنس لمحدث معى ... وقد تبين لى أن هذا الرجل من الأدباء الذين أفنوا أعمارهم وكادوا يفقدون بصرهم بين مراجع اللغة ومجلدات الأدب ودواوين الشعراء حيث كانوا يدرسون الأدب لذاته لا ليتكسبوا من ورائه ، وبعد أن تضلعوا من مناهل الأدب ، وجدوا أنفسهم على قارعة الطريق لا يكادون يجدون قوت يومهم ... فتلقفتهم أيدي بغاة الشهرة من السراة ؛ يستغلونهم أسوأ استغلال ، حيث يجمع لهم الأدباء ما حصلوه من درر الأدب فيأخذ السراة ويصدرون به كتباً تحمل أسماءهم زوراً وبهتاناً ملقين طولا الأدياء بدرهمات لانكاد تقيم أودهم كما يلغون بفتات مواعدهم إلى القطط والكلاب التى يقتنونها ، وصدق الله العظيم « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم» (آل عمران) .

وقد تكشف لى هذا الأمر عندما ظهر كتاب فى الأدب لكاتب شهير من «بكوات» الكتاب فاشتريته ، فلما رآه معى الأستاذ أحمد الحسينى قصص على قصة هذا الكتاب وكيف كان هو ومجموعة من أمثاله من الأدباء المغمورين يستحضرهم هذا «البك» ويعد لهم مكاناً فى «بدروم» قصره ليجمعوا له مواد هذا الكتاب ، وعين لى الأستاذ أحمد الأبواب من هذا الكتاب التى كانت ثمرة جهده ...

ومع أن هذا الرجل كان موظفاً بالدار فإنه كان من المؤمنين بالدعوة أعمق الإيمان ؛

ويخيل إلى أن الأستاذ المرشد كان شديد الرفق به فلا يكلفه إلا بما لا يشق عليه ولعل مهمته كانت قراءة الوفيات المنشورة في الصحف ليؤدي الأستاذ المرشد العزاء لأ

ومن هذه الشخصيات أيضاً الأستاذ أحمد السراوى وهو شخصية ذات ماضٍ في الحركات الوطنية كنت تجلس إليه فيأخذ حديثه بلبك فإذا رأيت تصرفاته مع الأستاذ المرشد دهشت وأخذ منك العجب كل مأخذ ... ويبدو أنه كان ذا معرفة بالأستاذ المرشد من قديم.. وكان إذا جلس إلى الأستاذ المرشد تحس أنه موضع عطفه ... وكان الأستاذ يتحدثنا عن غريب أطواره ... وكانت آخر تجربة للأستاذ المرشد معه - وكنا عليها شهوداً - يوم جاء إلى الأستاذ يكاد يبكي لسوء الحال ، فاستأجر له الأستاذ محلاً واشترى له مطبعة وورقاً ، وحرر بضمن ذلك كله كتيبات بضمانة الأستاذ المرشد ، واختار له كتاباً يعيد طبعه على ورق مصقول أبيض هو كتاب «أحياء علوم الدين» ... وأخرج السراوى عدة أجزاء منه وأقبل الناس على شرائه إقبالاً منقطع النظير بالسعر الذى حدده هو طبعاً ؛ ومعنى هذا أنه حقق ربحاً .. إلا أننا فوجئنا بتوقف صدور الكتاب واختفاء السراوى مما اضطر الأستاذ المرشد إلى تسديد ثمن كل هذه الأشياء من جيبه الخاص.

وهذه التجربة وإن عادت على الأستاذ المرشد بخسارة مادية إلا أنها لم تكن فجعية له ولا مفاجأة فإنه كان يتوقع من الأستاذ السراوى مثل هذا التصرف ؛ وكان من طبيعة الأستاذ المرشد أن علمه بحقيقة شخص لا يمنعه من محاولة استغلال بعض مزاياه للدعوة ؛ فالأستاذ من أول يوم قام فيه بالدعوة كان يعلم أن المطبعة من أهم وألزم وسائل الدعوات ، وكان يتمنى أن تتاح له فرصة يستطيع فيها اقتناء مطبعة ، فلما لم تتح له هذه الفرصة حيث لم يكن في الإخوان في ذلك الوقت من يستطيع التفرغ لهذا العمل ، انتهز فرصة افتقار السراوى إلى عمل يكتسب منه ، ففعل ما فعل وكان هدفه من ذلك أن يشعر أن هذا المشروع ممكن التحقيق فاختار لذلك المحل قريباً من المركز العام وجعل ربح المشروع كله لجيب السراوى مكتفياً بالاطمئنان على أنه مشروع ناجح ، وبطبع كتاب ينتفع به كثير من الناس وهو يعده أكبر موسوعة إسلامية ... وقد تحقق للأستاذ المرشد ما أراد من هذه التجربة فلما حدث من الأستاذ السراوى ما كان يتوقعه منه لم يفرط الأستاذ في أدوات الطباعة إلا بالقدر الذى عجز عن سداد ثمنه فاستبقى منها أكبر قدر يمكن استبقاؤه حيث أبقى على الحروف التى سدت ثغرة كبيرة حين انتقلت الدعوة إلى دار العبث ما سنشير إليه إن شاء الله في حينه ... ولم نبرح فكرة المطبعة خاطر الأستاذ المرشد لحظة من ليل أو نهار على أنها أولى الوسائل المكلفة لبناء الدعوة حتى حققها أخيراً فيما بعد على صورة أكبر

من هذه وكان ينوى تطويرها لتكون أعظم مطبعة في الشرق لأن الذين يملكون الكلمة المطبوعة يملكون توجيه العقول والأفكار ، ولكن الظروف السياسية طفت موجتها فجرفت المشروع فيما جرفت .

المهام المنوطة بالمرشد العام

كان مجهود المرشد العام موزعاً على عدة نواح أهمها : مهنته التي يكتسب منها عيشه ، وإدارة شؤونه الخاصة من رعاية منزل وأسرة وأولاد ثم الدعوة ..

أما مهنته ؛ حيث كان مدرساً بمدرسة عباس الابتدائية بالسبتية ، فكان لها وقت محدد - كطبيعة العمل - لم يكن ينتقص منه لحظة بل كان يؤديه كله بأمانة .. ولم يؤثر عنه أنه تأخر يوماً عن معاد أو أهمل في أداء عمل أو قصر عن المثل الأعلى للمدرس . بل إنه كان يرى في عمله لذة ويحس فيه سعادة لأنه كان يعتقد أنه إنما خلقه الله ليكون مربياً ، وقد أهله لذلك تأهيلاً كاملاً ؛ فكان يرى في المدرسة حقل تجارب لنظريات التربية القديمة والحديثة ولنظريات تربية وصل إليها بفكره الخاص ؛ حيث تضم المدرسة التلاميذ والمعلمين والفراشين وهم من مختلف البيئات والمشارب والعقليات والظروف والأعمار .

وكان مما حدثني به فيما يتصل بذلك أنه كان عليه في فترة من الفترات أن يراقب التلاميذ في أثناء «الفسحة» وكان الأستاذ «نقلا بك» - أول مراقب مسيحي عين في هذا المنصب في وزارة المعارف - قد حضر إلى المدرسة في ذلك اليوم ... وكان رجال الوزارة يحرسون على التعرف بالأستاذ المرشد حين يحضرون إلى المدرسة ... وكان الأستاذ المرشد يعلم أن التعليمات المبنية على نظريات التربية الحديثة تمنع الضرب في المدارس لكنه أمسك بمسطرة باعتبارها عصاً في يده . وبعد إبرازها أمام المراقب حتى يسأله في ذلك ؛ وكان أن سأله فعلاً فشرح له شرحاً أثبت له خطأ هذه التعليمات وأن تربية التلاميذ في هذا السن لابد أن يكون الضرب غير المبرح من وسائلها على أن يكون بقيود معينة حيث هناك من الطباع ما لا يقوم بغير العصا .

وحسبك دليلاً على نجاح سياسته في هذه المدرسة أن تعلم أنه كان موضع حب جميع التلاميذ والمدرسين والناظر والفراشين واحترامهم ، وأنهم جميعاً أحبوا دعوته لهم لشخصه ، وكان الجميع يتمنون أن يكونوا في خدمته ليوفروا له الوقت للقيام بأعباء الدعوة، لكنه كان حريصاً على أن يقوم هو بنفسه بعمله المدرسي كاملاً وأن لا يكلف أحداً بحمل أى عبء عنه .

ولقد كنا نحتاج إليه في أمر هام يخص الدعوة في وقت يكون هو فيه في المدرسة فتتصل بالمدرسة تليفونياً أو نذهب إلى المدرسة لمقابلته ، وفي كلتا الحالتين - إذا كان طلبنا إياه قد صادف وجوده في حصة من الحصص - كان يقول لمن ذهب ليبلغه بوجودنا لمقابلته أو يبلغه أننا نطلبه على التليفون : قل لهم إنه في الحصة ولا يستطيع مغادرة الفصل حتى تنتهى الحصة فنضطر إلى الانتظار حتى تنتهى لتقابلته أو نتحدث إليه في التليفون في فترة الاستراحة بين الحصص .

وأما شئونه الخاصة فكان يراها حق الرعاية ، فلم نسمع بشقاق عائلي في أسرته ، كما أن أولاده كانوا يحظون منه بما يحظى به الأبناء من والد مثالي . نعم كان الوقت الذي يقضيه في بيته ضئيلاً إلا أن زوجته كانت معاوناً له على الدعوة وسنعرض لهذه النقطة بعد ذلك إن شاء الله .

أما الدعوة فكانت هي محور حياته ، بل هي حياته كلها ، لم يكن يشغله عنها شاغل في ليل ولا نهار . كانت ملء عقله وقلبه بحيث لا مكان فيهما لشيء آخر .. لم أقدر النبوة حتى قدرها إلا لما رأيت هذا الرجل ، وجلست إليه ، ولزامته وعاشرته .. حينئذ بدأت أحس بقدر النبي ومكانته ، فرجل كحسن البناء هو دون الأنبياء ، ومع ذلك فإن الدعوة شغاته بل صهرته حتى أخرجت منه صورة مجسمة لها ؛ فإذا تكلم بالكلمة والدعوة والدعوة ، وإذا سكوت كان سكوته أسلوباً آخر للدعوة ، وإذا تحرك فلها ، وإذا سكن فلها ، وإذا أحب فلها ، وإذا أبغض فلها ، وإذا ضحك فلها ، وإذا بكى فلها ... فكيف بالنبي الذي صنعه الله على عينه ؟ !.. لذا كان مقام النبوة جديراً بقول الله عز وجل «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة» ... وهؤلاء من أمثال حسن البناء هم ورثة الأنبياء لا أولئك الذين وإن تمسوا بعلوم القرآن والسنة فإنهم لم ينفعوا بها انفعالا أنساهم ما سواها ولن ينفعوا بالفكرة الإسلامية إلا من اختلطت بدمه فصارت أساس تفكيره ، وميزان حياته وانحصرت في أفقها كل آماله ، وصار كل مر من أجهال حلولاً في حلقة .

إن أصحاب الدعوات لا ينبغي أن نسوي بهم العابرة ؛ فالعبرية لاشك إحدى صفاتهم ، لكنهم صنف من الناس أوتوا بصيرة نافذة ، وقلوباً حية واسعة ، والسنة تنطق بالحكمة البالغة ، فهم يرون ما يعجز الناس عن رؤيته ... ومع ذلك فهم قادرون على إقناع الناس بما يرونه مما لا يراه الناس .. والناس يقتنعون بكمال خلقهم قبل أن يقتنعوا بقوة حجبتهم ، وطلاقة

ألسنتهم .. تجاس إليهم وأنت غير مكترث إلا بنفسك بل قد تكون لاهياً هازلاً ، فتحس بعد قليل أن تياراً دافئاً أخذ ينساب في داخلك فيشيع الدفء في جنباتك ، ثم لا يلبث هذا الدفء أن تشتد حرارته حتى إن حرارته لتذيب جهود نفسك وتشعل في أعماق قلبك آمالاً كانت غابية تحت أطباق من الثلوج ... وترى عقلك الذي كان زمامه بيد الله قد استدار دورة ألقى فيها بسالف أفكارك في زوايا النسيان وانفتح لأنكار جديدة تستجيب لصدى ما تحرك في قلبك من جهود نفسك ... و تقوم من مجلسك شخصاً آخر غير الذي كنت ، ويتغير مجرى حياتك بهذه الجلسة فتقوم وهموم المجتمع الذي أنت فيه هي شغلك الشاغل وهمك القاعد المقيم بعد أن كنت لا تكثرث إلا بنفسك ...

ذلك بأن هؤلاء الناس طراز خلقهم الله وفي قلوبهم مراحل تغل لا يهدأ غليانها ، فهي تشيع الحرارة حيث كانت ، وتذيب الجمود ، وتبعث الحياة فيما حوطا وفيمن حوطا .. ومهما سكبت على هذه المراحل من ثلوج الدنيا فإنها تذوب والمراحل لا يهدأ لها أوار ... هي قوة دافعة خلقت لتدفع ولا تندفع . ولتؤثر ولا تتأثر ... قلوبهم مستودع للحياة تسكبه على من حوطا من الموق فيحيون ، ويحس كل واحد منهم بلذة الحياة بعد الموت .. هؤلاء الناس يعطون دائماً ولا يأخذون ويمنحون ولا يستمنحون ..

هذا في أصحاب الدعوات أيما ما كانت الدعوات ؛ أما إذا كانت الدعوة في ذاتها تحمل كل معاني الحق والصدق ، فإن شخصية الداعية تكتسب من صدق دعوته قوة على قوة ، ولا يستطيع أحد في هذه الحالة أن يقاوم صاحب هذه الدعوة بالحجة والبرهان ، ولا يجد أمامه من وسائل المقاومة إلا الجحود والكذب والنكران ثم وسائل العنف والعسف والجهل والاضطهاد .

هكذا كان حسن البنا ؛ صاحب دعوة و هبه الله قوة أصحاب الدعوات ، وزاده قوة أن دعوته في ذاتها حق لا مرية فيه « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » ولذا كان إيمان حسن البنا بدعوته إيماناً تزول الجبال ولا يتزلزل ... كنت إذا رأيته لم نر إلا دعوته ، وإذا تحدثت إليه لم تسمع إلا دعوته .. حتى فكاهته ، وما كان أبجل فكاهته ، وما كان أسرع بديته ... حتى الفكاهة ؛ لم تكن إلا في صميم دعوته تخرج من سماعها وقد أضفت جديداً إلى عقلك وقلبك وإيمانك .

نعم إن آمال هؤلاء الأئمة من الدعاة تبدأ حيث تنتهي آمال جيلهم ... لقد تعرفنا على حسن البنا في أواسط الثلاثينيات ، فسمعنا منه كلاماً عن المستقبل المأمول طالما قوبل من أكثر

اناس حينذاك بالاستخفاف والاستهزاء والسخرية ... وإنى لألتبس هؤلاء الناس العذر ؛ فقد
 . هم حسن البنا في وقت خيم فيه الظلام الحالك فلا يستطيع أنفذ الناس بصيرة أن يرى أبعد من
 أنفه ، كانت مصر لا أقول تنن تحت كلاكل الاحتلال البريطاني بل إنها كانت مستكيننة لهذا
 الاحتلال وادعة مسترخية ... كان الحكماء يسبحون بحمد الاحتلال ... وكان الشعب يسبح بحمد
 هؤلاء الحكماء ، وكان المثل السائد على ألسنة الناس هو الذي يقول : ليس في الإمكان أبدع مما كان
 وكنت تسمع من المثقفين ومن شباب الأحزاب إذا أنت حاولت انتقاد الحكماء قوطم : لا تعاند
 من إذا قال فعل ... لم تكن مهمة الأحزاب تتعدى التطاحن فيما بينهم على المناصب ، فكانوا في
 ذلك أشبه بسواد الشعب الفقير حين يتهافون على ماتلقيه معسكرات الإنجليز من بقايا الطعام ،
 فيعتبر من يحطى بقسط من هذه «الزبالة» نفسه فائزاً قد نال قصب السبق : كذلك كان الذي يحطى
 من الحكماء بكلمة رضا من رجال السفارة الإنجليزية يعتبر نفسه قد حقق أميته وبلغ الجبال
 طولاً ويقبل عليه زملاؤه بالتهاني يقبضونه على هذا الفوز العظيم . ولم تكن السراى أحسن من
 هذه الأحزاب .

أما الأزهر ، وهو المصدر الوحيد الذى يتلقى الناس منه تعاليم دينهم فإنه كان أداة طيعة
 في يد المستعمر عن طريق الحكماء ... نشر في الناس صورة باهتة مشوهة للإسلام فكان معنى
 الإسلام في نظر الناس بفضل الأزهر لا يتعدى طقوساً تؤدي داخل المساجد أو في البيوت ، وكادت
 الاستكانة أن تكون مرادفة للإسلام في نظر الناس .

ويمكن إجمال وصف الوقت الذى ظهر فيه حسن البنا بأنه ظهر والأمة ميتة تماماً لا حراك بها .
 فإذا خرجت عن دائرة مصر لترى ماحولها من دول عربية وإسلامية ، وجدت كل شعب من
 هذه الشعوب يغط في نوم عميق والاستعمار آخذ بخنائهم جميعاً ، وقد فقد الجميع كل شيء حتى
 الإحساس بالظلم ؛ كما أن شعب كل دولة من هذه الدول يجهل كل شيء عن شعوب الدول العربية
 والإسلامية الأخرى ؛ بل كان المصرى على سبيل المثال يعرف الكثير عن البلاد الغربية ويزورها
 ولا يعرف شيئاً عن بلاد شقيقة متاخمة لبلاده ولا يخطر بباله أن يزورها وكذلك كان شعور سكان
 البلاد العربية والإسلامية الأخرى نحو مصر ونحو بعضها بعضاً .

ولذا فإنها كانت مفاجأة مذهلة أن سمع الذين استقروا في أجدائهم - وارضوها مساكن
 لهم - صوتاً كالرعد يناديهم أن قوموا من أجدائكم ، ومزقوا أكفانكم ، وانفضوا التراب عن
 أجسامكم ، فإن أماكنكم التى أرادها الله لكم هى فوق السحاب لانت تحت التراب ؛ ألستم ذوبة

الذين قال الله فيهم «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ؟!.. سيروا ورائى لنحطم الأغلال ، ونبدد سحب الظلام ، لننشر النور في الآفاق ... قوموا لننسف بروح الأخوة التي سجلها الله لكم في كتابه ما اصطنع المستعمر من حواجز وهمية بينكم وإخوانكم المسلمين في بقاع الأرض فالمسلمون أمة واحدة » إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (٩٢ الأنبياء) .

أكثر الذين اخترق آذانهم هذا النداء استقبلوه استقباهم حلم كاذب لا يستحق إلا الامتناع والإعراض . وحلة آخرون على أنه هذيان مخبول من حقه عليهم أن يدعوا الله له بالشفاء ؛ ولم يقع في موقعه إلا من قلة هي التي كان عندها علم من الكتاب، وهذه القلة الواعية دائماً هي فريق من المطحونين المستضعفين .

لفتة إلى وراء:

المرشد قبل القاهرة

يجمل بنا قبل الاسترسال في سرد ما نحن بصده من حقايق متصلة في تاريخ هذه الدعوة تلك الحلقات التي كنت أحد عناصرها أو كنت أحد مشاهديها ؛ أن تلقى نظرة نطل بها على أيام هذه الدعوة لم يشأ القدر أن أشارك فيها أو أن أشهدا بنفسى ؛ فإن تعرفى على الدعوة وعلى الشخصية مرشدها كما قدمت إنما كان بالقاهرة .. ولكن الدعوة - كما حدثنا الأستاذ المرشد - لم يكن مهدا القاهرة وإنما شاء الله أن يكون مولدها الذي برزت فيه إلى الوجود هو الإسماعيلية .

حدثنا الأستاذ رحمه الله أنه وأسرته من أهالي قرية «شمشيرة» مركز فوة ، وقد تزح والده وهو صغير إلى بلدة المحمودية حيث افتتح الوالد محلا لتصايح الساعات ومن هنا لقب الوالد بالساعات ، وقد لصق هذا اللقب بعبد الرحمن شقيق الأستاذ المرشد الذي يليه في السن فعرف بعبد الرحمن الساعات . وتعلم «الأستاذ» في المدارس الأولية ولما أتم حفظ القرآن الكريم التحق بمدرسة المعلمين الأولية بدمشقر ولما حصل على الدبلوم عين مدرسا في مدرسة خربتا الأولية مركز كوم حمادة .

وقد رأى أن يواصل دراسته فدرس دراسة خاصة للالتحاق بدار العلوم ، وقد اضطره ذلك إلى الانتقال إلى القاهرة حيث كان مطالبا بالعمل لكسب عيشه فالتحق بعدة أعمال منها أنه اشتغل عاملا في محل للبقالة ، ولقى في ذلك ملقى حتى أنه لم يكن يجد وقتا يستذكر فيه دروسه ، ولما حان موعد الامتحان المؤهل للالتحاق بدار العلوم نفسها وجد أن مطالب

الحياة الضرورية لم تدع له وقتاً نزهة مذكّره فيه أن يدخل الامتحان ؛ فشكا إلى الله الذي يعلم أنه لم يقصر لحظة واحدة ... يقول رحمه الله : ونمت ليلة الامتحان فإذا بي أرى فيما يرى النائم رجلاً يواسيني ويقول لي : التفت إلى فالتفت إليه فإذا بيده كتاب المادة التي سأمتحن فيها في الصباح فيفتح الكتاب عند صفحة معينة ويشير إلى أن أقرأ حتى إذا قرأت الصفحة فتح الكتاب عند صفحة أخرى فأقرأها وهكذا حتى أنهى الكتاب فأغلقه وتركني ، فلما أصبحت وجدتني حافظاً كل ماقرأت - وكانت هذه طبيعتي أن أحفظ ما أقرأه - ودخلت الامتحان فإذا الأسئلة كلها هي نفس ماقرأته في الرؤيا .. وهكذا مرت ليالى الامتحان وأيامه على هذا النحو وظهرت النتيجة فكنت الأول . والحمد لله .

يقول رحمه الله : والتحقت بدار العلوم وكنت أهوى الأدب العربي ما كان منه مقرأً دراسته ومالم يكن مقرأً وكنت أكتب ما يعجبني من قصائد في كرايس أعدتها لذلك حتى تكامل عندي من ذلك عدة كرايس ، وكان امتحان الأدب العربي هو الامتحان الرئيسي في الدار وكان الامتحان فيه تحريراً وشفوياً ؛ فلما مثلت بين يدي لجنة الامتحان الشفوي في امتحان الدبلوم النهائي لدار العلوم سألتني رئيس اللجنة عما أحفظ من الشعر فقدمت إليه الكرايس فقال لي : ماهذه الكرايس ؟ . قلت : إن ما فيها هو ما أحفظه فتعجب الرجل وقال : هل أنت على استعداد أن أسمع منك أية قصيدة اختارها من هذه الكرايس ؟ فأجبته بالإنجاب .. فطلق يطلب لي أن أقرأ فأقرأ حتى أطمأن إلى أنني أحفظ ما فيها جميعاً . ثم قال لي : إني سألك السؤال الأخير : ما أحسن بيت أعجبك في الشعر العربي ؟ قلت : أحسن بيت أعجبني هو قول طرفة بن العبد في معلقته :

إذا القوم قالوا من فتي خات أنى عنت فلم أقعد ولم أنبلد

قال : قم يا بني ، هذا سؤال يسأل للناهين من الطلبة في كل عام هنا وفي الأزهر فلم يجب أحد بمثل ما أجبت به إلا الشيخ محمد عبده ... إني أنبأ لك يا بني بمستقبل عظيم ..

من جهود الطالب حسن البنا

الحملة الصليبية الجديدة أو الغارة التبشيرية

سبق لي أن ذكرت أن الفترة التي قام في خلالها حسن البنا بدعوته كانت فترة حالكة في تاريخ هذه الأمة ، وأشير هنا إلى أن هذه الحلكة لم تبدأ مع بدء ظهوره على المسرح وإنما كانت

الحلقة مطابقة على الأمة من قبل ذلك ؛ وقد باع استتار الانجائز بمقدارات هذه الأمة أن تجاهلوا
أنها أمة مسامة ذات مجد وتاريخ ففتحوا للحمالات التبشيرية أبواب البلاد ، بعد أن مهدوا لها
بنشر الجهل والذقر والمرص ، وبعد أن اطمأنوا إلى أن مقاليد الحكم في البلاد أصبحت في يد
الفئة التي تدين لهم بالولاء والتي هي في حقيقة أمرها غريبة عن هذه البلاد فهي كما قال الشاعر :

بلاد قد نرى العربى فيها --- غريب الوجه --- والسيد واللسان

انتشر المبشرون في انحاء البلاد في الوجهين البحرى والقبلى ، في المدن والقرى تحت
سمع المسئولين من الحكام وبصرهم ، بل إن هؤلاء الحكام في المدن والقرى كانوا يحكم تعليمات
رؤسائهم يسهلون للمبشرين وسائل دخول المدن والقرى كما يسهلون لهم وسائل الانصهار بالاهالى
وإجراء ما يشاءون من إجراءات بل وإقامة ما يشاءون من منشآت بل واختطاف من يشاءون من
أطفال ونساء ؛ في الوقت الذى يضربون فيه بيد من حديد كل من تسول له نفسه أن يعترض
سبيل هؤلاء الغزاة ولو بكلمة مدبرين ذلك اعتداء على الحكومة ... صار هذا الشعب نهياً مباحاً
لهؤلاء المبشرين .

ولم تكن وسيلتهم إلى التبشير بالمسيحية عرضاً لعقيدتهم وشرحاً لها أمام الناس كما هو
المتبادر إلى الذهن من لفظ التبشير ، وإنما وسائلهم هي استغلال فقر الناس وحاجتهم وجهالهم
فيأخذون هذا الطراز من الناس ويأخذون نساءهم وأولادهم وينفقون عليهم ببذخ على أن يظلوا
معهم داخل كنائسهم ويقولوا مثلاً يقولون ... أما الشباب من أبناء الأغنياء فكانوا يفرّونهم
بالنساء ... كانت وسائلهم أحسن الوسائل وأحظها ... وقد استمر عملهم هذا في جميع أنحاء
البلاد أكثر من ستة ومع ذلك لم يخرجوا بمحصول يزيد على عشرات الأفراد من هؤلاء الجهلة
الفقراء المدقعين ..

لم تكن هذه الحملات العانية للتبشير إذن ذات أثر يذكر في نتائجها من ناحية تكفير المسلمين
لكنها كانت صورة بشعة متوحشة للاستعمار البریطانى أمام شعب أعزل مغلوب على أمره ،
نصافرت على قهره حكومته مع الانجليز ... كان الناس ييكون من شدة الغيظ لأنهم يرون
بأعينهم من ينتهك حرمة عقيدتهم - وهى أعز ما يعتزون به - وهم لا يستطيعون أن يداوموا عن
أنفسهم لأن حكاهم جعلوا الدفاع عن النفس في هذه الحالة جريمة يعاقب مرتكبها .

كنا في ذلك الوقت في رشيد - ولم تكن رشيد هدفاً للبشرين لأنهم درسوا طبيعة البلاد
قبل أن يحضروا من أمريكا وفرنسا وبلجيكا وغيرها من بلاد أوروبا فعلموا أن هناك مدناً مغلفة

لا أمل لهم فيها حيث ها طبيعة خاصة وناريخ لا ينسى ومنها رشيد ، فلم يحاولوا دخولها ..
لكننا كنا نسمع عما يفعلون بالمحمودية وقرأها من خطف الأطفال وإغراء الفقراء بالمال وإغراء
الشباب بالعبث وبالنساء ... وكان أهل المحمودية يحضرون إلى رشيد فيرون ما يحدث عندهم
فيكون وييكون ..

أما الصعيد فكان مرتعاً خصباً لهم ، حيث الفقر هناك والجهل والمرض أضعاف ما هو عليه
في الوجه البحري ، وحيث كان الصعيد في ذلك الوقت يعتبر من المجهل التي تحتاج إلى من
يرتادها ويكشف عن معاناة أهلها المعزولين عن الحياة ... لقد فعلوا فيه الأفاعيل .. وكانت
أسيوط نقطة ارتكازهم وكان لهم فيها مستشفى يخطفون الأطفال والنساء من القرى وينقلونهم
إليه ، ولا يستطيع أهل المخطوف أن يروه أو يعلموا عنه شيئاً ، كما لا يجدون من يشكون إليه .

كاد الناس يفقدون إيمانهم بالله أمام هذه القوى العارمة المتصافرة ثم لا يجدون من يعترض
طريقهم ؛ حتى الصحف لم تكن تشير إلى ذلك مع أنها كانت صحافة حرة لكن نفوذ الإنجليز
وقانون المطبوعات الذي وضعه الإنجليز ، يعطى حكام مصر المتواطئين معهم السلطة في مصادرة
أية صحيفة أو وقفها أو سحب الترخيص بها إذا هي تعرضت للمؤامرة المدبرة على إذلال الشعب
وتكفيره برضاه أو رغم أنفه ؛ كما أن الأموال الطائلة المعتمدة لحملات التبشير من خزائن
أمريكا وإنجلترا وفرنسا ودول أوروبا كانت تنفق على هذه الصحف بسخاء ..

يقول حسن البنا - الطالب بدار العلوم في ذلك الوقت - كاد صدري يحترق من زفريات
الآلم كما كادت تحترق صدور الناس من حولي ، لكنني فكرت فلم أجدها لهذا الألم معنى إذا لم يتحول
إلى عمل ، ولكن كيف نحوله إلى عمل والحراب مشرعة في وجوهنا من رجال الحكم الذين كان
يجب أن يكونوا هم ملاذ الناس ، والذين صرنا وإياهم كما قال الشاعر :

وقد كان منا إليك الشكا
فأصبحت أنت الذي تشتكي

فكر حسن البنا فرأى أمامه في الأزهر شخصيات يرجى نفعها لما يلتمس فيها من غيرة على
الدين واستعداد للعمل إذا وجدوا إليه سبيلاً كالشيخ يوسف الدجوى . فاتصل بهذه الشخصيات
فوجد فيها تحرفاً إلى العمل لكن الطريق أمامهم مسدود ... ثم لاحظت في مخيلته صورة شخصية
أخرى لها كيان علمي وأدبي خاص تفردت به دون غيرها ... ولها من ظروفها ما قد يعين على
إيجاد بصيص من نور في هذه الخلقة القائمة ... تلك هي شخصية «أحمد تيمور باشا» ذلك العالم
الجليل سائل المجد والصديق الشخصي للملك فؤاد .

استصحب حسن البنا معه عدداً من استجاب له من هيئته كبار العلماء وشيوخه وطلبه ، فاستقبلوا في منزله ... فاستقبلهم الرجل أحسن استقبال وكان يعرفهم جميعاً هذا هذا الشاب الصغير .. وتقدم هذا الشاب الصغير فتحدث عن الموضوع . حديث الثكل عن فلذة كبدها - ووصف الحلال التي تظل البلاد وكيف يعيث المبشرون في البلاد فساداً تحت سمع الحكومة وبصرها بل وفي هاتين وانفجر في البكاء حتى أبكى الباشا فأبكى الحاضرين ... وتداول المهتمون عسى أن يجدوا مخرجاً ... وجاءت سيرة الملك فؤاد فقال تيمور باشا إنه صديقي وأثق في غيرة على الإسلام وتعددت الاجتماعات ونوقشت أفكار ومقترحات وانتهت إلى قرار بأن أول إجراء لابد منه أن نصدر مجلة تنص على هذه المؤامرة ونفضح اعتدائها وتستنهض الهمم لمقاومتها .. وبمجهود تيمور باشا وتدخل الملك فؤاد صدرت مجلة الفتح وأسندت رئاسة تحريرها إلى الكاتب الإسلامي العظيم الأستاذ محب الدين الخطيب ..

وقد حضرت في خاطري الآن قصة كان قد حدثنا بها الأستاذ المرشد ؛ وهي تتصل بأساليب المبشرين في إغراء أبناء الأغنياء من المسلمين بالنساء مما أشرنا إليه قبلًا ... ومعدودة إلى القارئ إذ فاتني ذكرها في موضعها .

وقد حدثنا الأستاذ بهذه القصة في معرض حديثه عن كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام أبي حامد الغزالي . وكان الأستاذ المرشد يرى أن هذا الكتاب هو أعظم موسوعة إسلامية ، وكانت إحدى أمانيه أن تتيح له الظروف شرح هذا الكتاب . وقد شرع فعلا في ذلك فأعد درساً أسبوعياً في منزله لمجموعة من الإخوان في شرح هذا الكتاب وكان حريصاً على كتابة كل درس يلقيه في كراسة - مما لم يفعله في أي درس آخر - ولكن الظروف لم تسعف فقد هبت الأنواء من كل جانب على سفينة الدعوة فعصفت أول ما عصفت بهذه الدروس التي لم ندم إلا بضعة أسابيع وثمة الأمر من قبل ومن بعد .

قال الأستاذ : في أوج الحملة التبشيرية - وكنا إذ ذاك بالمحمودية - كان أحد الشبان سواذكر لنا اسمه ولكنني نسيت - من أبناء أثرياء المحمودية قد أغرى باحدى فتيات المبشرين حتى ملكت عليه فواده ... ولما كان الشاب مستقبلاً متديناً فقد أبدى رغبته للمبشرين في الزواج منها ، فاشترطوا عليه قبل إتمام الزواج بها أن يتنصروا أن يعمل خادماً في الكنيسة .. ففعل ودخل الكنيسة يقضى فيها نهاره وليله ولا يخرج منها أملاً في أن ينال رضاهم فيحققوا له رغبته الجارفة .

وفي إحدى الليالي ، بينما هو نائم في الكنيسة رأى فيما يرى النائم أنه في الجنة - وفيها ملائكة رأت ولا أذن سمعت ولا حطر على قلب بشر . - ثم رأى رجالا ثلاثة عليهم هبة ووقار قادمين نحوه ... وتقدم أحدهم وسلم وعرف بنفسه فكان موسى عليه السلام ثم تقدم الآخر فكان عيسى عليه السلام ... ثم أشارا إلى ثالثهم وقال : أتعرف من هذا ؟ قال : لا لالا .. إنه محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين قال : فأخذني رعدة ... فقالا : إنما جئنا لنعتب عليك فيما فعلت ... وقال عيسى عليه السلام : كيف ترجع على عقبك وتنصرف مع أنني أنا أؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ؟ ...

قال الشاب : فاستحييت من النبي صلى الله عليه وسلم وتصببت عرقاً لما فعلت بدافع الشهوة والهوس وحاولت الاعتذار والتوبة فلم أستطع أن أنطق فقد ألجم لساني ... فسكن النبي صلى الله عليه وسلم من روعى وقال لى : إذا أردت أن تصحح إيمانك فاصعد إلى أعلى الجنة - وحدد لى شجرة معينة - فستجد أبا حامد الغزالي جالساً في ظلها فتلقى عنه كتابه «إحياء علوم الدين» .

قال الشاب : فصعدت حتى رأيت أبا حامد فابتدئنى بقوله : مرحباً بمن بعث به إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثم أخذ يفتح كتابه «الإحياء» ويشرح لى وكلمة اشرح لى باباً انكشف عن قلبى غمة حتى استيقظت من النوم وقد غسل قلبى ولم يعد للفتاة التى أحببت! شئ فى نفسى ، وخرجت من الكنيسة واكتفيت كتّاب الإحياء .

قال الأستاذ : وعكف الشاب على الكتاب فصار شغله الشغل حتى كاد يحفظه وكنا نرجع إليه فى فهم ما يصعب علينا فهمه منه .

وبعد إيراد هذه القصة المعارضة أرجع إلى سياق الحديث فأقول :

أخذت مجلة «الفتح» نفصح مؤامرات الإنجليز ، فاضطر الإنجليز إلى الانحناء أمام العاصفة وبدأت الحملة الصليبية لأول مرة نواجه مقاومة . وكانت النتيجة العاجلة لفشل المؤامرة أن اضطر الإنجليز لسحب أذنانهم حكام مصر من المعركة فلم يبق فى أرض المعركة إلا الصليبيون والشعب وجها لوجه .

وتكونت لجنة فى القاهرة برئاسة الشيخ محمد مصطفى المراغى الذى كان من قبل شيخاً للأزهر لمقاومة التبشير وتكونت لها فروع فى المدن والقرى ، ونصبت هذه اللجان لمن يسمون

أنفسهم بالمبشرين ، ومان من مرة نقام مناظرة بين الطرفين علناً إلا انهزم المبشرون بالحجة والبرهان ، بعد أن زال عنصر الترغيب والإغراء ، وعنصر القهر والإرهاب .

ولم تستطع الحملة الصليبية المسعورة بعد ذلك أن تثبت في اما كنها إلا أياماً معدودة ، فكل يوم تجلو عن البلاد فرقة منهم حتى ظهرت منهم البلاد في أشهر معدودات .

إنشاء جمعية الشبان المسلمين :

كانت هذه الحملة الصليبية من أشد ما أصاب مصر من ويلات الاحتلال البريطاني؛ إذ كان القصد منها تحويل مصر إلى معسكرين متناقضين كما فعلوا بالسودان ؛ فشمال السودان مسلمون وجنوبه مسيحيون . وقد أوضع مسيحيو الجنوب كراهية مسلمي الشمال ... كذلك أرادوا أن يفعوا بمصر فقد ركزوا على الصعيد فأنشأوا فيه المركز الرئيسي لهم ، وكانوا يتقانون إليه من يحتطفونه من أطفال الوجه البحري ونسائه.. وشاء الله مع ذلك أن يخرج من هذا الشر المستطير ، خير ؛ فلولاً هذه الحملة المسعورة ما استطاع حسن البنا أن يجمع على العمل للإسلام هؤلاء الرجال الذين لم تكن تجمعهم جامعة ولا تضمهم رابطة وجزى الله الشدائد كل خير .

وكان من ثمرات ذلك إنشاء جمعية تسمى جمعية الشبان المسلمين وأسدت رياستها إلى رجل مسلم غيور هو الدكتور عبد الحميد سعيد . وكان الطالب حسن البنا من أوائل من اشترك في عضويتها .

وقد وجدت الرياضة في هذه الجمعية باعتبارها وسيلة لجذب الشباب ، وإن كان تطور الزمن قد غلب الرياضة على جميع أغراضها حتى كادت تفقد المعنى الديني الذي أنشئت من أجله .

كتاب « الغارة على العالم الإسلامي »

كان اختيار الأستاذ محب الدين الخطيب لتحرير مجلة «الفتح» اختياراً موفقاً ؛ فقد كان من القلائل الذين يفهمون الفكرة الإسلامية فهماً كاملاً دقيقاً ، وكان من العلماء بالتاريخ الإسلامي القديم والحديث ، كما كان محيطاً بتواريخ الأمم على اختلافها ، ولم يكن مصري المولد فالمعلوم أنه كان من أهل الشام . وشارك في الحركات الإصلاحية الإسلامية في نواحي العالم الإسلامي ويبدو أنه نزح إلى مصر هرباً من بطش الفرنسيين الذين كانوا لا يطيقون أن يروا كاتباً إسلامياً حراً فقد نفوا زميلاً له هو الأمير شكيب أرسلان .. وقد عمل مع الشيخ محمد عبده

ومع الشيخ رشيد رضا... وكانت له مكتبة عظيمة في شارع درب الجماميز وبها المطبعة التي تطبع
لها الفتح وقد نقل مكتبته بعد ذلك إلى جزيرة الروضة .. وأنا طبعاً لم أحضر مجلة الفتح في أول
ظهورها لكنني حين نزلت من أجل الدراسة إلى القاهرة كنت حريصاً على اقتنائها وكنت
أجد في قراءتها منعة عظيمة لأنها هي وحدها التي كانت الصوت المعبّر عن الفكرة الإسلامية في ذلك
المهد، وهي وحدها التي كانت تلتقي على صفحاتها أعلام المجاهدين من أنحاء العالم الإسلامي وكان
شعارها المكتوب بجانب اسمها على الغلاف هو هذه العبارة «أنت على ثغرة من ثغور الإسلام فلا
يؤتينا من قبلك» .

وكان من أعظم ما أخرجه الأستاذ محب الدين مما سوى مجلة الفتح كتاب « الفارة على العالم
الإسلامي » هذا الكتاب يحذر بكل مسلم يريد أن يفهم الحقائق في هذا العالم أن يقرأه . إذ استطاع
هذا الكتاب أن يوضح المؤامرة العالمية التي حاكها الدول المسيحية للقضاء على الإسلام حيث كان..
ولم يجعله الكتاب في فصح المؤامرة على مجرد التشهير بها والتنويه بخطورتها ورص عبارات
التحذير منها ، وإنما اعتمد في ذلك على نشر نصوص اتفاقيات سرية تم عقدها بين هذه الدول في
صورة جمعية عالمية للتبشير ألفتها هذه الدول ، وقد استطاع الأستاذ محب الدين الحصول على
نصوص هذه الاتفاقيات بطريقته الخاصة . وإذا قرأت نصوص هذه الاتفاقيات وما رصدته هذه
الدول لتنفيذها من مئات الملايين من الجنيتات وقرأت الوسائل التي رسموها لتقويض دعائم الإسلام
في نفوس معتنقيه لعجبت لبعد نظر هؤلاء القوم ولبراعتهم في التنظيم والتخطيط .

وقد لقي هذا الكتاب حين صدر مقاومة عظيمة واتبعت في مقاومته نفس الأساليب المتنوية التي
عطلوها للقضاء على الفكرة الإسلامية ، وربما كان من هذه الأساليب شراء كل ما يصدر من
الكتاب من نسخ وإعدامها فيحولوا بذلك بين المساميين وبين اطلاعهم على محتوياته .. وهذا أسلوب
من أساليب الاستثمار في محاربة الكلمة المطبوعة .

ليقضى الله أمرا كان مفعولا

تخرج حسن البنا في دار العلوم ، وكان أول دفعته بمجموع يصل إلى النهايات ، وكان
المتبحر أن يوفد أول الدفعة في بعثة دراسية إلى الخارج ولكن شاء الله أن يحول دون ذلك ، ليقضى
الله أمراً كان مفعولا ، وتؤسس دعوة الإخوان المسلمين في سنة ١٩٢٨ بعد أن تم تعيينه مدرساً
بمدرسة الإسماعيلية الابتدائية .

في الاسماعيلية

كانت الإسماعيلية في ذلك الوقت مدينة أجنبية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان ، بل إن وصفها بهذا الوصف لا يفي بكل معانيها ، فهي قطعة من أوروبا ، فعلى أهلها أجناب من جميع الجنسيات ، والماوظفون المحترمون بها أجناب ، وحاكمها « الحكمدار » أجنبي ، والجيش المرباط فيها إنجليزى ... وهؤلاء الأجناب الذين يسكنونها يعيشون عيشة أكثر رفاهية وأرغد عيشا وأقوى جاهاً من تلك التي يعيشها أهلهم وذووهم في فرنسا وإنجلترا وغيرها من بلاد أوروبا ... لأنهم في بلادهم قد لا يجدون من يخدمهم من أبناء جلدتهم إلا القليلين الذين يتقاضون أجراً باهظاً قد يعجزون عن أدائه ومع ذلك فإن هؤلاء لا يرضون لأنفسهم - حين يخدمونهم - إلا معاملة النذل ، لا يقبلون منهم غطرسة ولا مهانة ولا كبرياء ... أما في الإسماعيلية فالمصريون لا يكتسبون قوتهم إلا من خدمة هؤلاء الأجناب الذين يعتبرونهم أصحاب البلاد الأصليين أما هم فخدم طارتون لا يتقاضون أجراً على خدمتهم إلا التافه القليل .. أشربت قلوبهم ذلك فالرجل منهم لا يشعر أنه أهين إذا ما شتمه سيده الأجنبي أو صفعه أو ركله برجله لأن هذا كان هو الشئ الطبيعي المألوف .

كان سكان هذه المدينة ثلاث فئات : جيش الاحتلال البريطاني وشركة قناة السويس وهي خليط من الأجناب ولكن أكثرهم من الفرنسيين والإنجليز والأمريكيين ... والفئة الثالثة هي خدام هاتين الفئتين وهم المصريون ... ولما كانت الطبيعة البشرية ندفع بالآدمي إلى تقليد الأعلى فقد كان هؤلاء الخدم وهم الأهالي وقد فقدوا مقومات التشبه بسادتهم في عيشة الرفاهية والبلخ لأنهم فقراء فلم يبق أمامهم إلا التشبه بهم في شرب الخمر والإباحية على طريقتهم الخاصة .

لم يكن أهل الإسماعيلية جميعاً عمالاً لدى الأجناب بل كان منهم مقاولون ، وما أفخم صدى هذه الكلمة في الأسراع ، ولكن ماذا كان عمل هؤلاء المقاولين ؟ كان عملهم توريد الخدم (العمال) من المصريين إلى هؤلاء الأجناب ، فكانت تجارة رقيق مقنعة وكان من عملهم نهب خيرات البلاد من مختلف قراها وأسواقها من الأغذية وحرمان الشعب منها وتوريدها للمستعمرين .. وكان من عملها شراء الزبالة التي يلقى بها جيش الاحتلال من بقايا الطعام ولتات الموائد وهو ما كان يسميه هذا الجيش (Rubbish) ويبيعه المقاول الكبير إلى مقاولين صغار وهؤلاء بدورهم ينقلونه إلى مختلف بلاد القطر حيث يتهاوت أهالي البلاد المحرومون على شرائه ليقننوا به .

لم يكن للحكومة المصرية وجود في الإسماعيلية ، ولا للقوانين المصرية وجود .. وإنما كان الجيش البريطاني سداً لحكومة مستقلة ذات سيادة هي شركة قناة السويس .

نزل الشاب الصغير حسن البنا هذه المدينة الصاخبة وهو في سن العشرين ، فرأى المدينة على الحالة التي وصفتها ، ووجد أنها تتكون من سادة هم الأجانب وخدم هم المصريون ، وهاله ما رأى من صلف السادة ومهانة المصريين .. وأحس أن الله تعالى قد اختار له هذا البلد لتكون المعجزة الإسلامية واضحة بارزة ... درس الشاب المنطقة المصرية من المدينة فوجد أن المساجد بها على ندرتها لا يقومها إلا الشيوخ الفانون وذوو العاهات ، أما آلاف الشباب فلا مقرر لهم بعد الخروج من عملهم إلا المقاهي .. ولما كانت الدعوة في حاجة إلى الشباب فلا بد إذن من الاتجاه إلى المقاهي .

أراد أن يلفت إليه الأنظار ، فدخل إحدى المقاهي المكتظة ، وعلى حين فجأة تناول جدوة (بصة) من إحدى الزاجيل « الشيش » وألقى بها وهي ملتهبة من أعلى فنزلت على إحدى المناضد وسط الجالسين وتناثرت ، فارتاع الحاضرون وغادروا أماكنهم مذعورين وتلفتوا يبحثون عن مصدرها فرأوا شابا وسيما واقفا على كرسي يقول لهم « إذا كانت هذه الجدوة الصغيرة قد بعثت فيكم الذعر إلى هذا الحد فكيف تفعلون إذا أحاطت النار بكم من كل جانب ومن فوقكم ومن تحت أرجلكم وحاصرتكم فلا تستطيعون ردها ... وأنتم اليوم استطعتم الهرب من الجدوة الصغيرة فإذا أنتم فاعلمون في نار جهنم ولا مهرب منها » ...

وهكذا استمر في موعظته يضرب بها على أسماع مرهفة وقلوب متفتحة وأحاسيس في أشد حالات اليقظة على أثر المفاجأة ، فكان لها أعمق الأثر في نفوس الحاضرين . واتجهوا إليه يسألونه عن نفسه وعن عمله وعن مقره ، وبدأوا يلتفون حوله ويفرمون بالاستماع إليه ، وقد حجبهم فيه أنه شاب ، وأنه متطوع لا يتقاضى على موعظته أجراً ولا يبقى منها لنفسه نفعا وتوالت كلماته في المقاهي تنتقل الحديث عنه من مقهى إلى أخرى حتى كثر الملتفون حوله فبدأوا في تنظيم اجتماعاتهم به ، ولما ضاقت بهم المقاهي قرروا تكوين جمعية واتفقوا على تسميتها « الإخوان المسلمون » ثم رأوا أن يقوموا ببناء مسجد ودار يجتمعون فيها وبنوا المسجد والدار فكانت هي أول دار للإخوان المسلمين .

من آثار الدعوة في الإسماعيلية

بنيت دار الإخوان في الإسماعيلية وبنى مسجدهم وساهم في بنائها الأهالي كما ساهمت شركة قناة السويس باعتبارها عملا دينيا تفهمه الشركة كما كان يفهمه سائر الناس في ذلك الوقت على أنه دروשה .

شركة جباسات البلاح

وسرت روح الإيمان الجديد من عمال الإسماعيلية إلى زملاء لهم بعيدين في الصحراء حيث شركة جباسات البلاح وهي شركة أجنبية أيضاً تضم مئات من العمال . وتعلم هؤلاء العمال فيما تعلموا « الصلاة » ورأوا أن عملهم بالشركة يضيغ عليهم بعض الصلوات لعدم وجود مكان بالشركة يصلح لأدائها ... فتقدم هؤلاء العمال إلى الشركة يطلبون بناء مسجد فيها لتأدية الصلاة فاستجابت الشركة لهم إذ هو مما لا يضيرها فلما تم إنشاء المسجد أوعز إليهم الأستاذ أن يطلبوا من الشركة تعيين إمام للمسجد ليصل بهم .. ولما كانت الشركة لا عهد لها بشروط الإمامة فقد فوضتهم في اختيار من يصلح لذلك .

كان الشيخ محمد فرغلي طالباً أزهرياً ، نهل من معين الدعوة وارنوى ، وكان قد وضع نفسه في خدمة الدعوة بوجهه الأستاذ حيث يشاء . فاختاره الأستاذ لهذه المهمة مهمة الإمامة وخطبة الجمعة بمسجد الشركة .

ويسر وجود الإمام داخل الشركة للاخوان العمال أن يدعوا زملاءهم للصلاة لتضاعف بذلك عدد المستجيبين للدعوة من عمال الشركة .

جنرال لا إمام

أحس الأجانب المسئولون في هذه الشركة بعد فترة من وجود هذا الإمام أن عمال الشركة قد تغيروا تغيراً ملحوظاً ، فهم وإن زادوا إخلاصاً في عملهم حتى ظهر ذلك في إنتاجهم إلا أنهم صاروا يعتزون بكرامتهم ولا يقبلون إهانة من أى مسئول بالشركة مهما علت مرتبته ومهما كان وراء ذلك من ربح مادي لهم .

إن هذا التطور شئ جديد .. ولم يطرأ على الشركة جديد إلا هذا الإمام الذى عين للمسجد .. إن هذا الامام ينشر أفكاراً صحيحة ونبية ومثالية لكنها ستحد من سلطتنا على هؤلاء العمال إذن لابد من إبعاد هذا الإمام .

ذهب أحد كبار المسئولين بالشركة واسمه المسيو فرانسوا في اليوم التالى إلى المسجد بنفسه ونادى الإمام وقال له : إن الشركة قد قررت الاستغناء عنك وستمنحك مكافأة سخية جداً على أن تغادر المسجد الآن ولا تعود إليه .

فقال له الشيخ محمد فرغلي :- ولكننى لا أستطيع مغادرة المسجد لأنك لست الذى جئت به إلى

هذا المكان . فقال : ومن إذن الذي جاء بك ؟ قال : الأستاذ حسن البنا .. فبحث مدير الشركة في طلب الأستاذ حسن البنا . فلما حضر قال له : يا أستاذ حسن أنت لم ترسل إلينا إماماً للمسجد وإنما أرسلت لنا جنرا لا .

فسأله الأستاذ المرشد قائلا : أحب أن أسألك باعتبارك المسئول الأول في هذه الشركة ... هل لاحظت منذ جاء هذا الإمام إلى المسجد على الحال تقصيراً في أداء عبادهم؟ قال : لا . قال : هل لاحظت عليهم سوء أدب مع زملائهم أو مع رؤسائهم ؟ قال : لا . قال الأستاذ : إذن لا مانع عندي من سحب الإمام .

زواج المرشد العام

كان من بين من استجاب للدعوة من أهل الإسماعيلية أسرة كريمة من أمهرها تدعى أسرة الصولي ، وهم تجار من متوسطي الحال ... وكانت هذه الأسرة من الأسر المتدينة بطبيعتها ومن يربون أولادهم على الدين .. وكانت والددة الأستاذ تزور هذه الأسرة ، فسمعت في إحدى لياتي زيارتها صوتاً جميلاً يتلو القرآن فسألت عن مصدر ذلك الصوت فقيل لها إنها ابنتها فلانة تصل للها رجعت الأم إلى منزلها أخبرت نجلها بما كان في زيارتها وأومأت إلى أن مثل هذه الفتاة الصالحة جديرة أن تكون زوجة له ، وكان ما أشارت به ، فقد تزوجها فكانت أم أبنائه وهي التي رافقته في السراء والضراء وكانت غير عون له في دعونه حتى لقي ربه شهيداً مظلوماً

انتشار الدعوة في المنطقة

كان انتشار الدعوة بعد تأسيسها في الإسماعيلية أمراً طبيعياً وقد ظل الأستاذ المرشد في الإسماعيلية نحو خمس سنين انتشرت في خلالها الدعوة في منطقة القناة في الإسماعيلية وبور سعيد والسويس وفي منطقة البحر الصغير من الدقهلية وفي بعض بلاد الشرقية — وكانت نعتقد مؤتمرات هذه المناطق في أوقات دورية .

الباب الأول في شتائج الناصية

- العمل الطلابي المنظم
- الدعوة على مفترق طريقين

مقدمة

إذا كان لصاحب دعوة ينبغي من وراء دعوته أن يتوطد مركزه ، ويعمل مقامه ، ويكون في عز من التفاف الناس حوله ، وإتجارهم بأمره ، ومسارعتهم إلى ما يرضيه ، وتنافسهم في التقرب إليه ، وبذهم كل نفيس في سبيله ، فإن ذلك كاه قد نوفر لحسن البنا في الإسماعيلية وما حوّلها .. ونستطيع أن نقول واثقين إن حسن البنا قد صار أعظم شخصية في هذه المنطقة .

فإذا يريد إنسان بعد ذلك ؟ إن مثل هذا الداعية - وقد تحقق له أعظم ما يخطر بخيال إنسان ليطيب له المقام حيث العز والجاه والسلطة والشهرة دون منافس ولا منازع .

ولكن حسن البنا لم يكن هدفه الحصول لنفسه على هذه المتع الشخصية التي هي منتهى آمال كثير من الدعاة ، وإنما كان هدفه أبعد من هذا بكثير ... إنه كان يرى أنه يدعو إلى دعوة عالمية ، فلا بد أن ينتقل بها إلى حيث يبلغ صوته أوسع دائرة ممكنة من هذا العالم ... نعم إنه سيرك مكاناً يشار إليه فيه بالبنان ، ويتحدث عنه فيه بالإجلال الرجال والنساء والصبيان ، وإذا نادى هرع إليه ألوف من الناس ، وإذا قال ردد قوله ألوف آخرون .. سيرك ذلك إلى مكان لا يعرفه فيه أحد ، ولن يحظى بتوقير ولا احترام ، وإذا نادى بأعلى صوته لم يستجب لندائه فرد واحد .. سيرك ذلك إلى مكان يكون فيه من غمار الناس ومجهولهم .. كان يعلم هذا وأكثر منه ولكن طبيعة دعوته تفرض عليه أن ينتقل ..

ومن أطرف ما حدثنا به الأستاذ المرشد ما يتصل بهذه المناسبة قوله : إنه بعد انتقال الدعوة إلى القاهرة بثلاث سنين وانتقال مركزها العام إلى ١٣ شارع النصرية بالسيدة زينب .. حضر أحد إخوان الإسماعيلية إلى القاهرة لزيارتي ، ولم يكن هذا الأخ قد زار القاهرة من قبل .. وكان يعتقد أن المركز العام للإخوان المسلمين بالقاهرة له من الشهرة ما للمركز العام السابق في الإسماعيلية وأن الأستاذ حسن البنا من أشهر شخصيات القاهرة ..

فلما نزل من القطار في محطة القاهرة سألت أول من قابلهم من أهل القاهرة عن المركز العام للإخوان المسلمين ، فلما سمعه هؤلاء يسألهم عن شيء مجهول - وكأنه يسأل عن أحد معالم القاهرة

اعتقدوا أنه شخص ساذج وقالوا له - ساحرين - اتجه من هذا الطريق (وأشاروا إلى ناحية ما) ثم سألت هناك... وظن الأخ أنهم جادون في كلامهم واتجه حيث أشاروا ثم سألت فأجيب بنفس الطريقة .. وهكذا ظل يضرب في شوارع القاهرة على غير هدى حتى قابلته صدفة وقد جاوز دار المركز العام بمسافة ... يقول الأستاذ فقص على الأخ ما حدث معتقداً أن هؤلاء الناس دلوه على الطريق وأثنى عليهم .. غير أنه لما قفل راجعاً مع الأستاذ المرشد المسافة التي جاوز بها دار المركز العام قال للأستاذ المرشد : إن كل من سألتهم عن الطريق صدقوني إلا صاحب هذا المحل (وأشار إلى محل على بعد أمتار لاتعدو الخمسين من المركز العام) فقد سألته فقال لي : امش إلى نهاية هذا الشارع (شارع الناصرية) فستجد ميدان السيدة زينب فاسأل هناك عن المركز العام .

ضحك الأستاذ المرشد ، وفهم أن الدعوة حتى بعد انتقالها إلى القاهرة بثلاث سنوات لازالت إحدى التكرات حتى ان الملتصقة دكاكينهم يدار مركزها العام لا يعرفونه .

محال إذن أن من يكون هدفه أن يعيش في جو من الشهرة والاتباع ، والشيعية والأشباع ، أن يغادر مكاناً يتوفر له فيه كل ذلك ، لينتقل إلى مكان يكون فيه نكرة مبهولة ، وكية مهملة ولكن المصلح يستجيب لدعوته مهما كلفته هذه الاستجابة .

انتقل في عماء الخوص الذي يكتسب عيشه منه إلى مدرسة عباس الابتدائية بالسبتية بمصر ، واتخذ لأسرته مسكناً في حارة الروم بالقورية ، وجعل مقره هذا مقراً للمركز العام بالقاهرة .. أما نعرفي على الدعوة فلم يكن إلا بعد أن اتخذوا للمركز العام مكاناً في شارع الناصرية ، وبعد هذا الموقع بالنسبة لموقعهم السابق كالخروج من تحت الأرض إلى ظهرها ، وإن كانت الدار كما قلت من قبل داراً قديمة متداعية .

تركيز الجهود على الطلاب

تكوين لجنة الطلبة

تحدثت عن الطلبة الذين التقيت بهم في المركز العام حين ترددت عليه أيام محاولتي استكناه أمر هذه الدعوة وأمر العاميين فيها . وقد لفت نظري اهتمام الأستاذ حسن البنا بالطلبة اهتماماً شديداً فإذا تخلف طالب من المنتمين إلى الإخوان لأي سبب من مرض أو غضب أو غير ذلك عطل كل أعماله وخفف إلى زيارته في مسكنه مع مجموعة من زملائه الطلبة ويتقضى عنده الساعات الطوال ؛ وهو الرجل الذي يضمن بالدقائق أن يقضبها في استقبال زائر مهما علا مقامه ؛ والرجل

الذى كتب على مكتبه هذه العبارة «الوقت هو الحياة» لأنه كان يخطئ المثل الذى يقول «الوقت من ذهب» ويقول : إن الذهب إذا ضاع أمكن استرداده ولكن الوقت إذا ضاع لم يمكن استرداده . وكان على مكتبه أيضاً لافتة تقول «الواجبات أكثر من الأوقات».

كان يرى أن الطالب هو أحق إنسان أن يعتنى به وأن يحرص عليه وأن يبث إليه مافى العقل والقلب . كان حريصاً على أن تكون أمور الطلبة من اختصاصه هو دون غيره ، ويغفل إلى أن انتقله إلى القاهرة كان أهم دوافعه أن يكون فى الموقع الذى يمكنه من الاتصال بالجامعة التى كانت فى ذلك الوقت وحيدة لا أخت لها فى بلد آخر من بلاد القطر .. ومن مظاهر حرصه على الاتصال بالطلبة والعناية بأمرهم ماحدثنى به فى ذلك الوقت الأخ الكريم محمد فهمى أبو غدير قال لى : إن الأستاذ المرشد حريص كل الحرص على الاتصال بطلبة الجامعة بكل الوسائل الممكنة ، وكان يعتبر إقناع طالب واحد فى كلية من الكليات أنفع للدعوة من دخول بلد بأسرها فيها ، وكان يتلمس وسائل هذا الاتصال فعلم أن كاية الحقوق قررت على طلبة السنة الأولى بها دراسة مائة حديث نبوى اختارتها .. فهرع الأستاذ إلى هذه الأحاديث المقررة فشرحها شرحاً رائعاً ونشرها فى مجلة الإخوان وقام الاخوان الطلبة بعرض هذا العدد من المجلة على طلبة الكلية فأقبلوا عليها وتمهلتوا على اقتنائها. وبهذه الوسيلة اكتسبت الدعوة عدداً جديداً من طلبة كلية الحقوق. وبعد فترة قصيرة من التحاقى بالدعوة رأى الأستاذ المرشد أن يكون للطلبة مجلس إدارة سماه «لجنة الطلبة» تمثل كل كلية فيها بطالب فكان يمثل كلية الآداب محمد عبد الحميد أحمد وكلية الحقوق حسن السيد عثمان وكلية الطب ابراهيم أبو النجا وكلية العلوم جمال عامر وكلية التجارة طاهر عبد المحسن وكنت أمثل كاية الزراعة واختار الأستاذ المرشد حسن السيد عثمان رئيساً للجنة واختارنى سكرتيراً لها .

كان تكوين اللجنة عملاً كبيراً فى أثره وإن كان فى مظهره شيئاً ذافها ، فاجئته مكونة من ستة شبان صغار فى حجرة صغيرة من شقة متواضعة فى شارع غير مرموق لا نثير شيئاً من الاهتمام ، ولا تبعث فى النفوس آمالاً ترقب ... ولكن الأستاذ حسن البنا بحاسته التى حباه الله بها ، التى يرى بها من المستقبل مالا يراه غيره ، كان يعرف ما سيكون لهذه اللجنة من آثار بعيدة المدى ، فكان يعقد عايتها آمالاً عريضة اثبتت الأيام أنه كان على حق فى اعتقادها .

وإذا كنا نريد أن نعرض لآثار هذه اللجنة فسنقول الكثير ، وسيطول القول ، وسنرى آخر الأمر أن جميع تطورات الدعوة وكل ما قامت به من أعمال وما حدثت من آمال وما أحققت فيه من ذلك ، وأن بروز الدعوة على المسرح المصرى وانتشارها فى المجالين العربى والإسلامى ، ومواجهتها للاستعمار الغربى والغزو المكرى الروسى منذ سنة ١٩٣٦ حتى الآن ؛ كل ذلك هو آثار من هذه اللجنة .

الفصل الأول

العمل الطلابي لمنظم

على أثر تكوين لجنة الطلبة بدأ عمل منظم في الوسط الطلابي كانت مظاهره ما يأتي :

أولاً : توزيع مجلة الإخوان

لم تكن مجلة الإخوان المسلمين مجلة خبرية ولا مجلة ثقافية عامة حتى يقتنيها المتشوقون إلى معرفة الأخبار أو الذين ينشدون الثقافة للمتعة والتسلية ، وإنما كانت لساناً معبراً عن دعوة الإخوان المسلمين ، وكان الأستاذ المرشد يكتب بقلمه أكثر ما ينشر فيها ، وكان يحاول في كتابته أن يقتنع من يقرأها بالدعوة ؛ فكانت هناك سلاسل من المقالات بعنوانين «دعوتنا» ، «إلى أي شيء ندعو الناس» «هل نحن قوم عمليون ؟...» وأمثال ذلك مما يوضح بأساليب متنوعة طبيعة الدعوة وأهدافها ، ووسائلها وآثارها ، وكانت بقية المقالات تدور حول المعنى نفسه .

كما لم يكن لهذه المجلة رأس مال للإئفاق منه عليها ، ولما كان محرروها لا يتقاضون على التحرير فيها أجراً فإن نكاحها كانت قاصرة على أجر طباعتها وثن ورثها ، وكان الأساذ المرشد يتكفل شخصياً بالجزء الأكبر من ذلك ... رجة هذه حالتها وهذه ظروفها ما كان مصدرها ليفكروا في حمل عبء آخر من أعبائها بأن يتعاقدوا مع شركة توزيع لتوزيعها ؛ وكيف يقدمون على مثل ذلك وهم عاجزون من ناحية عن تقديم ما يتطلبه التوزيع من أجر ، ومن ناحية أخرى لا يستطيعون طبع الحد الأدنى من النسخ حتى يصلح للتوزيع فهم يطبعون منها نسخاً بقدر ما يملكون من مال . وهذا القدر لا يفي بعشر ما يتطلبه التوزيع العام في مختلف الأنحاء .

لهذا كان يطبع من هذه المجلة بقدر عدد الإخوان الذين كانوا يقتنونها من أعضاء شعب منطقة القنال وما حوفا وترسل إليهم عن طريق مندوبين من هذه الشعب يحضرون إلى القاهرة لتسلمها أو ترسل إلى هذه الشعب عن طريق مندوبين يحملونها إليهم وقد ترسل عن طريق البريد وكانت الكمية التي تستبقى في القاهرة يوزعها الموجودون بالمركز العام على أنفسهم ، وما تبقى بعد ذلك بقية لا تجد من يقتنيها .

ونظرت «لجنة الطلبة» في موضوع المجلة فوجدت أن توزيع المجلة هو وسيلة من أهم وأجدي وسائل نشر الدعوة ووجدت أن الطلبة قد يكونون أكثر الطوائف فهما لما يكتب فيها وأحوجهم إلى قراءتها وأنفعهم للدعوة إذا اقتنعوا بأفكارها ، فقررت اللجنة أن يلتزم مندوب كل كلية بعدد من النسخ كل أسبوع يوزعه في كليته .. وبدأت التجربة بعدد قليل وأخذ العدد في الازدياد وكان الأستاذ المرشد يتابع هذا التوزيع باهتمام لأنه مقياس لمدى نجاح الدعوة في كل كلية من الكليات.. وكان بعضنا - نحن أعضاء اللجنة - في أول الأمر يسدد ثمن أكثر ما يلتزم به من نسخ من جيبه الخاص ولكن نجاح التجربة أغنى عن ذلك فيما بعد .

ثانيا : نشر الدعوة داخل الكليات

كانت الكليات خلواً من الدعوة الإسلامية في الوقت الذي كانت تعج فيه بالأحزاب السياسية والأفكار المنحرفة وكانت رؤية الطلبة زميلاً لهم يصل كافية للتشجيع عليه ، فيه بالرجعية ولذا كان الطالب الذي تربى في بيته على المحافظة على الصلاة يجد مشقة في أداء الصلاة في كليته ، وكان يستخفي بالصلاة خشية أن يراه زملاؤه فيرشقونه بالألفاظ مؤلمة .. وقد يحمل هذا الكلام على محمل المبالغة أو التخيل ... ولذا فسوف أشرح مواقف توضيح لأقاربي أن هذا الوصف خلواً من أى معنى من معاني المبالغة .

التحققت بكلية الزراعة وكانت الكلية في تلك السنة ١٩٣٥-١٩٣٦ لا يزال مدرسة عليا ، وكانت لا تزال هناك وجبة غداء فاخرة تقدم للطلبة وكانت فترة الغداء هذه تطول أكثر من ساعة وتمتد فترة الدراسة بعدها إلى ما بعد العصر ؛ فكان أداء صلاة الظهر أمراً لا مفر منه في فترة الغداء ... ولما كنت طالباً جديداً وكنت حديث عهد بالكلية فقد تولتني الحيرة أين أودى صلاة الظهر ، فلم أجد أمامي من أتوسم فيه معرفة ذلك إلا الفراشين فدلتني أحدهم على المكان وكان هذا المكان قبة مبنية على الأرض ، ولكي أدخل تحت هذه القبة كان على أن أهبط سبع درجات سلم حيث أدخل مكاناً مظلماً يشغل ثلاثة أرباع مساحته الضئيلة قبر عليه ستار من قاش مهلهل وحول القبر قطع بالية من حصير قدر لا يتسع لصلاة إثنين مناً ..

انقبضت نفسي حين دخلت هذا المكان وتمجبت كيف تؤدي الصلاة في مثل هذا المكان ، ولكوني طالباً صغيراً حديث عهد بالكلية اضطرت لأداء الصلاة في فترة من الزمن ، حتى إذا استقرت في خاطري معالم هذه الكلية بدأت أبحث عن طريقة للتخلص من أداء الصلاة في هذا

الجب البقيش . ولقد لاحظت أنه لحماية هذا المهيض إلى هذا الجب أقامت الكلية سوراً قصيراً من الحديد حوله ولكنه على وجه الأرض طوله نحو ثلاثة أمتار وعرضه نحو ذلك أو يزيد ؛ فتمنيت لو أننا صلينا في هذا المكان ... ولاحظت أن هناك طالباً مواظباً على أداء صلاة الظهر فأحببته وتعرفت عليه وكان اسمه «محمود مكي» بالسنة الثالثة - وتبين لي بعد ذلك أنه مندوب «مصر الفتاة» بالكلية - فعرضت عليه أن نصلي فوق الأرض في المساحة التي يحصرها السور فهمس في أذني بأن هذا غير ممكن وإن أحداً لن يجرؤ على الصلاة فوق الأرض ، وأذا نصلي تحت القبة حتى لا يرانا زملائنا فيسخرؤا منا ويتكفؤا علينا .

أثارني هذا الاستخفاء وأجج في صدري مرجلاً من الغضب فنقلت الحصير البالي من تحت القبة إلى المساحة التي يحصرها السور من سطح الأرض ، ثم وقفت في هذا المكان وأذنت أذان الظهر بأعلى صوتي فكان أذاني هذا إحدى العجائب إذ تقاطر الطلبة والفراشون وموظفو الكلية من مختلف الجهات إلى حيث أؤذن ليروا بأعينهم ما لم يصدقوا فيه أسماعهم .. فكانوا يمتقدون أن اجتماعهم في مواجهة وكأ كؤهم على كاف لإخجال ما أقوم به فأكف عن إكمالها ، ولكنني قبل أن أقدم على ما أقدمت عليه كنت متدبراً حدوث ماحدث بل حدوث ما هو أكبر وأنهي الأذان ، وأقمت الصلاة وصليت والجموع في مكانها لا تتحرك وأبصار الجميع شاعصة إلى ... وفي اليوم التالي فعلت ما فعلت بالأمس . والباطل لا تقوى صولته إلا إذا تخاذل أهل الحق عن حقهم أما إذا اعتزوا بحقهم . ووقفوا شائخين أمام سيل الباطل فإن الباطل ينحسر سيلة ويرتد خاسئاً وهو حسير ... فبعد أيام قلائل وجد محمود مكي والطلبة الذين كانوا يستخفون بصلاتهم وجدوا في أنفسهم الجراءة أن يصلؤا معي على وجه الأرض وظل العدد يكثر يوماً بعد يوم حتى ضاقت هذه المساحة بالمصلين .

كان هذا العمل أثره في فتح الطريق أمام الدعوة الإسلامية وهي دعوة الإخوان المسلمين ، فلقد كان أمام الطلبة المؤمنين باب مغلق تهيب كل منهم أن يحاول معالجته فكان هذا العمل بمثابة اقتحام الباب «وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآناكم ما لم يؤت أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجالان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . وعل الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » .

كان هذا هو العمل الذي لابد منه حتى تجدد الدعوة الإسلامية الجديدة لنفسها طريقاً وسط هذا المزيج المزدحم بالافكار والدعوات التي توطنت واستقرت في نفوس هذا الشباب المأمول والذي عمل المستعمر وذيوله من قديم على الاستحواذ على عقله وفكره وعواطفه ومشاعره بعد أن ربوا على أيديهم وفي أحضانهم جيلاً بثوا فيه أفكارهم ثم أقوا إليه بمقاليده الأمور .

لقد كان دخول الدعوة الإسلامية كليات الجامعة أذبه برجل فقير ولد له ولد فجاء قوم من الأغنياء فاعتصبوا ولده وطردهوا هذا الرجل الفقير وشردوه كل مشرد ، وربوا هذا الطفل في قصورهم فنشأ لا يعرف إلا لغتهم ولا يتفدى إلا بغنائمهم ولا يتزيف إلا بزيمهم ... فلما اهتدى والده بعد لأي إلى مكانه في القصر ، اقتحم إليه فقبل اقتحامه بعاصفة من الدهشة والاستنكار حتى من ولده الذي لم يكن يعرفه .. لما كان من الوالد - وهو صاحب حق - إلا أن ثبت في مكانه ، وتمادى في إصراره - ولصاحب الحق صولة - حتى بدأ قلب الولد ينبض بالرابطة الإلهية الأصيلة وألقى بنفسه بين ذراعي والده .

حرم الجامعة :

كانت مصر في ذلك الوقت لا تزال قرية عهد بالتعليم الجامعي ، ولم تكن الجامعة حتى ذلك الوقت الذي أتحدث عنه إلا مبنيين اثنين في آخر شارع المدارس بالجيزة أحدهما لكلية الآداب والآخر لكلية الحقوق ، وبين المبنيين مبنى ثالث تعلوه قبة ضخمة هو إدارة الجامعة . ووسط ذلك كله أرض فسيحة مغطاة بالنجيل الأخضر تسمى «حرم الجامعة» . وكان حرم الجامعة هذا هو معتزك أصحاب الدعوات ، حيث كان طلبة كايي الآداب والحقوق في ذلك الوقت يعدون أنفسهم بحكم ثقافتهم الأدبية والقانونية قادة الطلبة حيثما كانوا ، وهم الذين تفوضهم الأحزاب في تمثيلها في الأوساط الطلابية ، وكانت خزانة الأحزاب مفتوحة للطلبة المشايخ من هابن الكليتين .

كان حرم الجامعة حتى ذلك الوقت حلبة نزال مستمر بين الأحزاب المصرية ، الوفد والإحرار الدستوريين والسعديين والحزب الوطني ثم جد عليهم مثل « مصر الفتاة » ... ثم استقر رأياً في « لجنة الطلبة » على الزول بالدعوة إلى حرم الجامعة ؛ وكنت الوحيد من خارج الكليتين العتيدين الذي أصبح له مكان بينهم في هذا الحرم .. وكانت المناقشات بيننا وبين مثل مختلف الأحزاب تستمر حتى أصبح لنا صوت مسرور في هذا الحرم .

ثالثا : نشر الدعوة في الاقاليم

سبق لى أن أشرت إلى أن الدعوة لم تكن معروفة إلا في إقليم القتال وما يتاخه من بعض بلاد الدقهلية والشرقية وبلاد معينة لأنها موطن أشخاص معينين من السابقين في الدعوة كالحمودية وكفر الدوار وشبراخيت وشبين القناطر ؛ ومع ذلك لم تكن الدعوة في هذه المناطق معروفة على صورتها الكاملة بل تعرف منها جوانب محددة على القدر الذي كانت تسمح به ظروف الدعوة وظروف المدعوين .

ووجد الأستاذ المرشد ثمرة جهود سنة كاملة بين يديه من شباب الجامعة بل من أنصج شبابها قد يصل عدداً إلى المائة يفهمون الدعوة على أوسع دائرة من الفهم ومن أقدر الناس على توضيحها لغيرهم ، فكان لابد من الإفادة من هذه المجموعة التي يندر وجود مثلها في هيئة من الهيئات .

أعد الأستاذ المرشد في أواخر العام الدراسي مذكرة من نحو عشرين صفحة شرح فيها طرق الاتصال بالطبقات المختلفة من الناس والأساليب المثل للخطابة كل طبقة ، وضمنها مجموعة من الآيات والأحاديث التي يستعين بها الداعية ، وطبع هذه المذكرة على «البالوظة» وقسم الطلبة مجموعات يضم بعضها طالبين وبعضها ثلاثة وبعضها أربعة ووزع هذه المذكرات على المجموعات وقسم القطر المصري على هذه المجموعات فكان نصيب مجموعتنا وتكون من طالبين : رشاد سلام من كلية التجارة وأنا - مدينة الإسكندرية .

ولما بدأت الإجازة الصيفية انتشرت هذه المجموعات في أنحاء القطر .. وإلى هذه البعثات يرجع الفضل في نقل الدعوة إلى كل مكان في مصر ، وفي الانتقال بالدعوة من طور إلى طور جديد ؛ من طور كانت فيه جمعية موضعية نقاون بالجمعيات الإسلامية الأخرى التي كانت موجودة بالقاهرة مثل جمعية مكارم الأخلاق وجمعية البر والاحسان وجمعية الشفقة الإسلامية وجمعية دفن الموق وأمثالها إلى طور آخر زاحت فيه دعوات دينية كانت منتشرة في كثير من بلدان القطر مثل الجمعية الشرعية وجمعية أنصار السنة كما بدأت نزاحم الأفكار السياسية مسيطرة في كثير من البلدان مما تعود الناس إطلاق اسم الأحزاب عليها .

وكانت المفاجأة المثيرة في هذه البعثات أن الناس لأول مرة رأوا دعاة إلى الدين من شباب لم يكن يمت إلى الدين بصلة رسمية .. إذ كان طلاب الجامعة وكانوا إذ ذاك عدداً قليلاً - يهتمون في عقيدتهم وينظر إليهم على أنهم أصبحوا غرباء عن بلادهم حتى في العادات والتقاليد .. فكان

غريباً أن يروا من هذا الشباب من يفتي المسجد ومن يتكلم في الناس كلاماً حلوّاً جميلاً مطعماً
بآيات كريمة من القرآن وبأحاديث شريفة من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ويكسو
هذا الكلام الجميل روعة وجلالاً وبأثيراً صدوره من قلوب مؤمنة به طاهرة ذقية لا تسألهم
عليه أجراً.

تمخضت هذه البعثات عن تكوين شعب في جميع عواصم المديریات (المحافظات) وفي بعض
حوضر المراكز .. نعم كان أكثر هذه الشعب يتكون من عدد قليل من الفقراء ومتوسطى الحال
إلا أنهم كانوا مؤمنين بالدعوة فقد استجابوا إليها دون طمع في منصب أو جاه أو مال ودون
خوف من بطش فاصحاب الدعوة أنفسهم مجردون من ذلك كله حتى إن زعيم الدعوة ليس إلا مدرساً
في مدرسة ابتدائية .

رابعاً : عام المعارك

بدأ هذا العام - وهو العام الثاني منذ التحقت بالدعوة - وقد أصبح لدعوة الإخوان كيان
ملموس ، فقد أحس الطلبة في بلادهم - وأكثرهم من خارج القاهرة - بدعاة من زملائهم انتشروا
في خلال الصيف ففروا الريف ودخلوا بالدعوة إلى أحشاء البلاد .. وجاء هؤلاء الطلبة في العام
الدراسي الجديد إلى كلياتهم لاسمين الكيان الإخواني ، فلاعجب إذا هم نظروا إلى زملائهم من
الإخوان من طلبة الكلية نظرة توحى بالاهتمام .

وكان لابد لهذا الكيان الملموس - وقد وجد - أن يعمل ، وأن يكون لعمله صدى ، وأن
يكون لهذا الصدى دوى يلفت الأنظار ويشغل الرأي العام

(١) معركة المساجد

من البدهي أن تكون الخطوة الأولى لدعوة إسلامية أن توجد المسجد الذي هو رمز الإسلام
وقاعدته التي تنبعث منها أشعته فتضي ما حولها - ولا ننكر أنه كان في بعض الكليات مصايبات
لإداء الصلاة لكنها كانت في أماكن حقيرة أنشأها عادة السعاة والفراشون ، وكان الطلبة الذين
يريدون نادية الصلاة يستنكفون أن يؤدوها في هذه الأماكن لحقارتها وقذارتها من ناحية ،
ولعدم وجود أماكن للوضوء بجانبها من ناحية أخرى ... ومن هنا نشأ ما نطلق عليه معركة المساجد
وقد نشأت هذه المعارك في أكثر الكليات في خلال هذا العام لكن أشد هذه المعارك إثارة ما كان
في كليتي الزراعة والآداب لما كان لهما من معان كبيرة ودلالات .

في كلية الزراعة :

أشرت آنفاً إلى المحاولات التي بذلناها في كلية الزراعة في السنة الماضية في سبيل الإعلان بالصلاة والظهور بها من تحت الأرض إلى سطحها ، وما كان لتلك المحاولات - التي عدت جريئة من آثار بعيدة المدى في نفوس الطلبة والمدرسين وإدارة الكلية . ولم نكن - نحن الإخوان - نتصور أن هذه الآثار قد وصلت إلى حد هيات فيه النفوس تهيئة عظيمة .

رأينا - نحن إخوان الكلية-أن نطالب إدارة الكلية بفرش هذه المساحة الضئيلة التي نصل فيها بجانب القبة بحصير جديد ... وأول إنسان اتجه إليه نظري ، وعول عليه أملئ لمساعدتنا في هذا الأمر هو وكيل الكلية وكان معروفاً بالصالح والتقوى ، وبأنه من دراويش مسجد الحسين فذهبت إليه وحدثته في الموضوع وأنا واثق في الإجابة ، ولكنني سمعت منه كلاماً صدمني وهدم آمالي حيث قال أولاً : لا داعي لهذا ، وهذه القطع من الحصير موجودة في المصلى من قديم ولم يشك منها أحد غيركم ، فلما طلبت منه أن يحضر للصلاة معنا عليها غضب وقال : إن إدارة الكلية لا شأن لها بمثل هذه الأمور !!

نقلت ما دار بيني وبين الرجل إلى إخواني بالكلية فأسفوا لخيبة أملهم في الرجل المصلى الذي لا يدع السبحة من يده والذي لا يدع يوماً دون أن يصل العشاء بمسجد الحسين ثم يطوف بالمقام .. ولكن خيبة أمالهم لم تقعد بهم عن مواصلة الجهد واترحوا أن نتقدم بهذا الطلب إلى العميد - وكان الوكيل قد حذرنا من ذلك خوفاً من أن يسلبنا ما اكتسبناه من حق الصلاة فوق سطح الأرض باعتبار العميد رجلاً بعيداً عن هذه الاتجاهات ... ولكن ذلك لم يمنعنا أن نجازف ونقدمنا إلى العميد وكان الأستاذ محمود توفيق الحفناوي (بك)

استمع العميد إلى مطلبنا . وأطرق قليلاً ثم بعث في طلب وكيل الكلية فحضر . فقال له : إن هؤلاء الطلبة يطالبون طلباً متواضعاً . وأنا أتابع موضوع المصل وتطوراتها التي حدثت في العام الماضي . وأنا معجب بجهود هؤلاء الطلبة المتدينين . وأنا لا أقبل أن تكون مصلى الكلية هذا المكان الخجير . ثم قال للوكيل : أتعرف المكان الذي كان يقام فيه سرادق الغداء في العام الماضي ؟ قال : أريد أن يقام مكانه مسجد وتلمق بالمسجد حديقة خاصة به ...

ذهل الوكيل مما سمع من العميد ثم زاده ذهولاً قول العميد له : أحب أن تتفرغ أنت شخصياً لإنجاز هذا العمل فتقيم المسجد وتفرشه بأفخر فرش وتشرف على زرع الحديقة بالأزهار الجميلة المناسبة ثم تعين له إماماً يتفرغ للإمامة وشئون المسجد ..

ثم قال العميد : إن هذا المشروع سيتكلف كثيراً ، ومن الممكن أن نقيمه على حساب الكلية باعتباره منشأة من منشآتها ، ولكني أحب أن يشعر الجميع بالمعاني السامية التي تدور حول إقامة مسجد بالكلية ولا يكون ذلك إلا إذا ساهم فيه الجميع طوعية ، وسأفتح الاكتتاب بعشرة جنيهات منى .. وأمر الوكيل بإعلان الاكتتابات وكتابة اسم كل مكتب والمبلغ الذي اكتتب به على سبورة توضع على حامل في مدخل مبنى الكلية ... وانهالت الاكتتابات من الأساتذة والمدرسين والطلبة ، وأشاعت هذه الطريقة فعلاً روحاً جديدة في الكلية طلبة وأساتذة .. وجميع مبلغ كبير غطى المطلوب وزاد.

وقد أفدنا من هذه التجربة ما يأتي :

- ١ - أن الجهود النابع من قلوب مخلصه لابد أن ينمر « والعمل الصالح يرفعه »
 - ٢ - أن الذين ينحرفون بالمعاني الإسلامية الكبيرة إلى مظاهر الدروشة وما يصاحبها عادة من الضعف والخنوع والاستكانة ، ليسوا هم الذين يصلحون أن يعينوا على النهوض بالجميع الإسلامي بل هم المثبطون .
 - ٣ - أن هناك رجالاً من أولى العزائم في حاجة إلى ما يكشف عن عزائمهم من عمل جري مخلص يرى الناس من هذه العزائم والهمم جلائل الأعمال التي يعجز عنها أكثر الناس .
- وبنى المسجد وبنيت بجانبه دورة مياه خاصة به وألحقت بها حديقة غناء وصار يؤذن فيه وتقام الصلاة ويمتلى بالمصلين وقد يضيق بهم على سعته .. وكان ذلك فاتحة عهد جديد لدعوة الإخوان المسلمين بالكلية وانتصاراً ساحقاً للفكرة الإسلامية .

في كلية الآداب :

كان أداء الصلاة في كلية الآداب أمراً شاقاً لعدم وجود مكان محدد معد لهذا الغرض وفي إبان معركة المسجد بكلية الزراعة استيقظت فكرة إقامة مسجد بكلية الآداب ... ولكن الوضع في هذه الكلية يختلف عنه في كلية الزراعة ، فالكلية عبارة عن مبنى واحد ، فليس بداخله مساحات من الأرض يمكن استغلالها في بناء مسجد . وليس بالكلية مرافق تسهل هذه العملية .. ولذا فإن مجال الاختيار في هذه الكلية كان محصوراً في تخصيص حجرة من حجرات الكلية لتكون قرية من دورة مياه .

وتقدم الإخوان بالكلية إلى المسئولين بها يطلبون تخصيص حجرة لتكون مسجداً ، وكما هو

معتاد رد المستولون يعتذرون بعدم وجود مكان لذلك ، ورفع الإخوان مظلمتهم إلى عميد الخلية وكان الدكتور منصور فهمي (باشا) ولم يكن معروفاً عن الرجل اهتماماً بالدين ... وطلب العميد المتظلمين وسأهم عن الحجرة التي يريدونها ، فميتوا له عدة حجرات فقال الرجل : ينبغي أن تخصص للصلاة أكبر حجرة في الكلية وأفخم حجرة بها .. وقال : أليس مكتب الأساتذة الانجليز يشغل أفخم حجرة في الكلية ويلحق بها أفخم دورة مياة ؟ قالوا بلى : قال : سأوقع الآن أمراً بإعلاء هذه الحجرة وتخصيصها ودورة المياة الملحقة بها للوضوء والصلاة . وعلى إدارة الكلية إعداد حجرة أخرى لتكون مكتبا للأساتذة الانجليز . وبلغت الدهشة بالإخوان كل مبلغ لأن الإنجليز في تلك الأيام كانوا سادة البلاد وأصحاب الكلمة والنفوذ وإن هذا الرجل بتصرفه هذا بضع نفسه في فوهة مدفع قد يعصف بمستقبله فأراد الإخوان أن يفتحوا للعميد بابا للراجع عن هذا القرار إلى قرار أدنى خطورة منه .

ضحك الرجل وشكر الإخوان على كريم شعورهم نحوه وإيثارهم مصلحته وقال لهم : لعلم ظننتم أن هذا القرار كان مني وليد حماس بعثته في نفسى حرارة الموقف وشدة التأثير .. لا والله يا أولادى ... لقد كان هذا القرار في نفسى منذ سنوات ولكنى كنت محتاجاً إلى من يدفعني إلى إصداره فكان مجيئكم هو هذا الدافع ...

أنا أعرف مدى سلطة الإنجليز في بلادنا ومدى الإرهاب الذى جعل حول كل انجليزى هالة يراها المصرى فينكمش منها كان هذا المصرى عظيماً ... ولكن سرّاً طويته بين أحناء ضلوعى من قديم وأسأضى به لأول مرة بين أيديكم الآن : لما كنت مبعوثاً في فرنسا واصلت دراسى بها حتى أخذت في إعداد رسالتى للحصول على الدكتوراه ، وأعددتها فعلاً ، ولما عرضتها على الأساتذة الذين سناقشونها ويدهم منحى الدرجة ويدهم منعها أجمعوا على أنهم لن يمنحوا الدرجة - مع إقرارهم بأن الرسالة جديرة - إلا إذا أضفت إليها عبارات أهاجم فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وأمام طيش الشباب . وخوفى من الرجوع إلى مصر بغير الدكتوراه فاعتبر خائباً ... أذعنت .. ومنذ ذلك الوقت وأنا نادم وأتربق فرصة تتيح لى عملاً أكفر به عن هذه الخطيئة ... وقد أتحتم لى يا أبنائى هذه الفرصة فشكراً لكم ودعوى أعمل هذا العمل لعل ضميرى يسترىح ..

وصدر القرار فكان مفاجأة مذهلة للجميع لا سيما للإنجليز الذين - لشدة ذهولهم - لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً إلا التنفيذ - وبذلك تحولت أعظم حجرة بالكلية وأعظم دورة مياة إلى مسجد بمحققاته .

(ب) معركة مع المخابرات البريطانية

مع أنه كانت في بلادنا حكومة مصرية إلا أنها لم تكن تعرف حقيقة ما يدور على أرض بلادها من حركات في حين كان الإنجليز يرقبون هذه الحركات ويرصدونها . كان الإخوان في الكليات حتى ذلك الوقت في طور التكوين لا يزالون يعرضون فكرتهم الإسلامية عن طريق الإقناع الفردي ، وعن هذا الطريق الفردي صار للدعوة أنصار من طلبة الجامعة كثيرون ... لم تفهم الحكومة المصرية حتى ذلك المهد فكرة الإخوان ولا أهدافهم ولكن الإنجليز تنبهوا لخطورة هذه الدعوة حين رأوا فجأة استجابة لها في أوساط طلبة الجامعة ... وأقول فجأة لأنهم لم يكونوا يعرفون عن دعوة الإخوان شيئاً قبل أن تصل الجامعة ، ونين لي أن الأستاذ المرشد كان حريصاً من أول يوم قام فيه بالدعوة على أن يموه على الإنجليز ، ويتفادى أى إجراء يستلقت نظرهم .

ولما ننبه الإنجليز اتخذوا إجراء عجيماً ... أرسلوا إلى القاهرة رجلاً إنجليزياً أستاذاً في التاريخ لزيارة كلية التجارة ، فالتف حوله الطلبة والأساتذة فعرفهم بنفسه فقال إنه إنجليزى مسلم بعد أن اعتنق الإسلام عن اقتناع سمى نفسه « خالدًا » وأنه أستاذ في التاريخ وأنه جاء إلى القاهرة باعتبارها العاصمة الإسلامية الكبرى ليسعد باللقاء والحديث مع رجال الجامعة من الأساتذة والطلاب حديث الأخ لإخوته .. سرى بين الطلبة نبأ هذا الأستاذ الإنجليزى المسلم فتقاطروا عليه كل يريد أن يوجه له سؤالاً ... فتن الطلبة به بل والأساتذة . وسرت روح الافتتان إلى كليات أخرى فصارت تتوافد منها مجموعات بعد مجموعات للالتقاء به في كلية التجارة .

ولا أدري لم اختار كلية التجارة بالذات ليظهر فيها دون الكليات الأخرى؟ ولكن لعل اختيارها كان لكونها تقع في حى المنيرة في وسط المدينة ، ولأن الدراسة فيها تسمح للطلبة بالتجمع في حين كليات أخرى كالمطب مثلاً وإن كانت في وسط المدينة إلا أن الطلبة فيها مشتتون بين المعامل وعنابر المرضى .

واستجابة لطلب المفتتين به من الطلبة والأساتذة نظمت الكلية له محاضرات يلقيها - وأنا شخصياً لم تتح لي فرصة لحضور محاضراته ولا للالتقاء به - ولكن إخوان كلية التجارة كانوا ينقلون إلينا كل شئ عنه يوماً بيوم ، لأننا فهمنا الهدف من إيفاده في هذا الوقت بالذات ، وفهمنا اللعبة الإنجليزية التى طبعاً لم تخطر على بال أحد من الطلبة ولا من الأساتذة ...

كانت محاضراته تدور حول كيفية اقتناعه بالدين الإسلامى ثم كان يتطرق من ذلك إلى

شرح الفكرة الإسلامية وأن العقيدة الإسلامية هي العقيدة الوحيدة التي تتمشى مع العقل وتخضع للمنطق، وفي أثناء شرحه للفكرة الإسلامية كان يمنح بها إلى النواحي العبادية والتصوفية ، ومن طرف آخر يقصرها على هاتين الناحيتين فيبالغ بها فيها ويباعد بها عن الشئون الدنيوية والتشريعية وكان أسلوبه هذا يلقى هوى في نفوس الكثيرين من خلاة الدهن عن حقيقة الفكرة الإسلامية .

والإخوان المسلمون في فهمهم للفكرة الإسلامية يعرفون أية مواضع منها توغر صدور الإنجليز باعتبارهم قادة المستعمرين في ذلك العهد . ويعرفون أيضاً الخطط التي وضعها الإنجليز لمحاولة التخلص من هذه المواضع ، ويعرفون أن هذه المواضع هي ما يتصل من الفكرة الإسلامية بالتشريعات التي تنظم الحياة وتكون الدولة الإسلامية المثالية ... فالإنجليز يرنضون من الفكرة الإسلامية - إن كان لابد منها - الجزء الذي يتصل بالعبادة ويحاولون أن يمسخوا هذه العبادة بما يلقون عليها من ظلال الرهبانية مما يسمونه تصوفاً بحيث يتوقع المسلم على نفسه فلا يبالي بم' دور حوله في الحياة ، ويستوى عنده أن تكون بلاده حرة أو مستعمرة ، لأنه حسب هذا الفهم المشوه للفكرة الإسلامية ، يعتقد أنه أدى كل ما أوجبه عليه .

الإنجليز بالذات - من دون المستعمرين- لم يحاولوا مهاجمة المسلمين بالحديد والنار كما فعل الفرنسيون والإيطاليون وغيرهم ، بل إنهم مكثوا لاستعمارهم في البلاد الإسلامية بوسيلتين اثنتين معاً : الأولى الاستيلاء بوسائل الإغراء المختلفة - من مال ومناصب - على مراكز التوجيه الإسلامية والأخرى : إبراز الفكرة الإسلامية للشعب مبتورة مموخة .

فعلوا ذلك في مصر ، فبعد أن ضمنوا أن المتريع على عرش البلاد صنعة لهم - حتى إن الخديوي توفيق طلب حمايتهم واستجابوا له - ضمنوا بذلك أن الدين سيتداولون الحكم في البلاد هم الفئة الغريبة عن الشعب بعواطفها وآمالها وبلغتها .. ثم وجدوا أن مركز التوجيه الإسلامي في البلاد هو الأزهر فعملوا - عن طريق صنائعهم الحكام - على أن تكون مناصبه الرفيعة لمن تسهويهم المناصب ولمن يبيعون دينهم بعرض الدنيا ، وعن طريق هؤلاء سرت الفكرة المبتورة عن الإسلام في مختلف أوساط الشعب الطيب القلب فاتخذ ، وبهذا الأسلوب الهين اللين نام الشعب وغط في نومه ولم يعد يبالي بما يجري حوله في بلده ولا في أي بلد إسلامي ... فالمجازر تجري في سوريا وفي ليبيا وفي المغرب بأقسامه ، ويقرأ عنها في الصحف ، ولا يشعر بأي معنى من معاني التعاطف مع هؤلاء المسلمين الذين يظلمون ويقتلون ، ولا بأي معنى من معاني الغضب حيال من يقترون هذه الجرائم ... نتجح الإنجليز فيما لم ينجح فيه الطليان والفرنسيون حيث استطاعوا بطريقتهم الهادئة

الملتوية إخماد الجذوة الإسلامية في نفوس المصريين فأصبحوا لا يحسون ولا يشعرون .

وفعلوا مثل ذلك في الهند ، وقد اختلفت الوسائل في مظاهرها ولكن الهدف هو الهدف ... اختاروا شاباً مسلماً آنسوا منه رقة في الدين وتطلعاً إلى المنصب والشهرة والمال ، فأغدقوا عليه وكان اسمه «غلام أحمد» وأوعزوا إليه أن يدعى أنه نبي من عند الله أرسله الله بعد محمد وبشريعة محمد إلا أن الجهاد قد نسخ منها ... وباعتبار الهند في ذلك الوقت شعباً موغلاً في الأمية والجهل والفقر والخرافة انخدع بعض الناس بهذا الدعى ، كما اشترى الإنجليز له بالمال أتباعاً من أمثاله يروجون له ، وينشرون دعوته ، فضلاً عن رجال الإدارة والحكم من الإنجليز وأذابهم الذين كانوا جميعاً في خدمته ... وقد ألف كتاباً ساء «البيان» على ما أذكر وقد اطلعت عليه عند عمى رحمه الله ، ادعى أنه الكتاب الذي أوحاه الله إليه بعد القرآن ... ومن الطريف أنه قد بلغت به الوقاحة والاستخفاف يقول الناس في الهند أنه يقول في هذا الكتاب إن الله قد بعثه بنسخ الجهاد لا سيما ضد الإنجليز ... ولما كان هذا الدعى الوقح من بلدة في الهند تسمى «قاديان» فقد سمي دينه «بالقاديانية» أو «بالأحمدية» نسبة إلى اسمه ... وأكثر الإنجليز ممن يدعون أنهم مسلمون هم من أتباع هذا الكذاب .

وفعل الإنجليز مثل ذلك في إيران ثم نقلوه إلى الشام وفلسطين أيام كانت تحت انتدابهم .. فقد ساندوا رجلاً إيرانياً اسمه «بهاء» فادعى أنه «باب الإله» فهو درجة بين النبوة والالوهية وأن الله بعثه بدين يجمع بين الأديان السموية الثلاثة الإسلام واليهودية والمسيحية، وأنه أيضاً جاء بالسلام فلا جهاد ، حتى العبادة جاء بها مخففة فالمسلم البهائي يصل ركعتين مرة طول حياته ، والمسيحي يصل صلاته في الكنيسة مرة واحدة أيضاً وكذلك اليهودى

وقد ألقت الحكومة الإيرانية القبض على «بهاء» هذا وحاکته وأعدمته وطاردت فلول أتباعه الذين هربوا من البلاد ... فن الذى ملقاهم بالأحضان وأوسع لهم؟ تلقاهم الإنجليز فأحسنوا وفادتهم ومكنوا لهم في فلسطين ووضعوهم في المناصب الحساسة والمناصب الرئيسية .. وقد قرأت في ذلك الوقت إحصائية لموظفى حكومة الانتداب في فلسطين وأديانهم فكان البهائيون يمثلون أكبر نسبة ... وهؤلاء الموظفون البهائيون في حكومة الانتداب بفلسطين هم الذين مهدوا اقيام الصهيونية ومكنوها من أرض فلسطين ومن رقاب أهلها .

ولا داعى لتحديث عن الأساليب الإنجليزية الملتوية الأخرى التى أسسوها بالتحالف مع أقطاب اليهود لتفتيت القوميات ، وتقويض العقائد ، وتفكيك أواصر المجتمع كالمساوية وإخواتها مما قد نعرض له في فصل قادم إن شاء الله

وقد فعل الإنجليز كل هذه الأفاعيل بالمسلمين في مختلف بقاع الأرض ، وكان حرصهم على نجح خططهم في مصر أشد من حرصهم على نجاحها في أى مكان آخر لأنهم يعرفون أن مصر هى مركز الإشعاع للعالم الإسلامى كله ... وقد نجحوا في مصر كما قدمنا ، وأطمأنوا لذلك تمام الاطمئنان ، وطال اطمئنانهم حتى إن الأمور صارت تجري في مصر على ما يتمنون بالقصور الدائري دون تدخل منهم أو جهد يبذلونه ... وحتى إنهم أخذوا يحولون جهودهم في التخريب إلى بلاد أخرى ... غير أنهم أحسوا فجأة بديب حياة عاد يدب في جسم الأمة في مصر من جديد فهبت أجهزة المراقبة عندهم تتلاوم لم لم يحسوا بهذا البعث إلا بعد أن وصل إلى الجامعة المصرية ؛ فأخذوا في وضع نكتيك سريع لأخذ الطريق على هذا البعث فأرسلوا هذا الأستاذ الإنجليزي المسلم «خالداً»

واستطاع «خالداً» بأسلوبه البارع الأخاذ أن يستولى على مشاعر الكثرة الغالبة من الطلبة والأساتذة، وأن يصور لهم الفكرة الإسلامية كما أرادت حكومته التي أرسلته... وكان لابد لإخوان كلية التجارة من إفساد التكتيك المحكم لهذا الرجل ، وكان في كلية التجارة مجموعة من أنصج الإخوان مثل محمود أبو السعود وطاهر عبد المحسن ورشاد سلام، وكان محمود أبو السعود يتقن الحديث بالإنجليزية كأهلها .. وكان تكتيكهم الذي رسموه أن يواظبوا على حضور محاضرات الرجل ، وأن ينشوا في أماكن مختلفة بين الحاضرين ، وأن يوجهوا إليه أسئلة متدرجة أعدها يتناولون توجيهها ، وهى أسئلة تلزمه أن يتعرض للنواحي التي يعتمد إغفالها وتفادياها من الفكرة الإسلامية وهى ما يتصل بموضوع الإسلام والدولة ، والإسلام والتشريع ، والإسلام والجهاد ، والإسلام والقومية ، والإسلام والوطنية .

وأطروه بالأسئلة بطريقة مرتبة ومهذبة ، وكان الرجل يجيب عليها بلهجة يتمكن بها من تفادى الاجابات المحددة ؛ فإذا سئل مثلاً عن الإسلام والدولة والإسلام والتشريع قال إن الإسلام كغيره من الأديان يشرع لمتبعيه أسلوباً في الحياة ، ولو اتبع أصحاب كل دين أسلوب دينهم لسعدوا في الحياة ولصارت لهم دولة قوية ذات شأن ... وهكذا ظل الإخوان يلقون إليه بالأسئلة وهو يتفادى حتى ضيقوا عليه الحصار تضيقاً خانقاً ووضعوه أمام سؤال لا إجابة عليه إلا بلا أو بنعم ؛ قالوا له أنت الآن رجل مسلم فهب أن حرباً نشبت بين المسلمين وبين بريطانيا فمع أى الفريقين تحارب ؟ ... وحاول الرجل التهرب من الإجابة لكن الإخوان حاصروه ؛ لاسيما

وقد لقي السؤال هوى في نفوس جميع الحاضرين من الطلبة والأساتذة ، فأبدوا الإخوان في سؤالهم وطلبوا الإجابة عليه

وأحس الرجل أن الحصار قد أحكم حوله ... وأراد الله فضح أمره فنطق - مكرها - باللفظ الذي قوض الصرح الذي بناه منذ أوفد في مهمته حيث قال : انحاز إلى بريطانيا . فانفض الجميع الحاشد مرة واحدة مشيعينه بالاحتقار واللعنات .

وهكذا فسدت الخطة التي وضعها الإنجليز لأخذ الطريق على الإخوان المسلمين وهم لا يزالون في أول الطريق .

(ج) مع المعركة في فلسطين

باعتباري كنت منشغلا بالدعوة الإسلامية منذ الصغر كنت ذا إمام بشيء غير قليل عن كل بلد إسلامي ، ومن هذه البلاد فلسطين . لكن معلوماتي عن فلسطين لم تكن تتعدى الشكل العام للأطوار التي مرت ببلاد الشام منذ وضعت الحرب الكبرى الأولى أوزارها في سنة ١٩١٨ وما انتهت إليه الوضع من تواطؤ الاستعمار الغربي على سحب ما كانوا قطعوه للعرب من وعود ، وعلى تقسيم بلاد الشام بين الإنجليز والفرنسيين ، وكانت فلسطين من نصيب الإنجليز حيث انتدبتهم عصبة الأمم لإدارتها ، وكنت على علم بأن بلفور وزير خارجية إنجلترا في سنة ١٩١٧ قد أعطى لليهود وعداً بمنحهم وطناً قومياً في فلسطين .

لكنني منذ حملتي قدماي إلى المركز العام للإخوان المسلمين في شارع الناصرية لاحظت من المرشد العام ومن هذه الأقلية القليلة من الإخوان بهذا المركز توجيه اهتمام خاص إلى قضية فلسطين ؛ وقرأت في مجلّتهم الكثير عن فلسطين . كما وجدت بالمركز العام مجلات واردة إليه من فلسطين ومن سورية بها من أخبار فلسطين ما كان يعدّ جديداً على ؛ فهمت مما قرأت أن الإنجليز يقومون بحملة مدبرة للقضاء على الكيان الإسلامي في فلسطين وتمكين اليهود من الاستيلاء عليها ... ثم رأيت مفتي فلسطين السيد أمين الحسيني معه مساعده الشيخ صبري عابدين وحوله مجموعة من قادة فلسطين رأيتمهم يحضرون إلى المركز العام في الناصرية ذلك المكان المتواضع ويتبادلون الكلمات الملتبّة مع المرشد العام ومع الإخوان الطلبة الذين كانوا أقدم من صفة بالإخوان ... وسمعت المفتي يشرح مؤامرات الإنجليز التي تلجىء الرجل المسلم الساذج إلى بيع أرضه لليهودي تمهيداً منهم لتمكين اليهود واستيلائهم على مقاليد الأمور بفلسطين بحكم ملكيتهم لأرضها .

وقد استنتجت من زيارتهم لهذا المركز العام المتواضع المجهول وسط أحشاء القاهرة أنهم لا نصير لهم في القاهرة إلا هذه العصبة التي تأوى إلى هذا المركز العام .. وقد تبين لي فيما بعد أن استنتاجي كان صحيحاً حين دس الإخوان صحفياً كان عضواً بالإخوان إلى رئيس الوزراء يسأله عما سيفعله إزاء تصرفات الإنجليز الظالمة في فلسطين فرد عليه رئيس الوزراء بقوله : «إنني رئيس وزراء مصر ولست رئيس وزراء فلسطين » . على أن هذا الرد حين نشر بالصحف وقرأه الناس لم يحظ بأى اهتمام من الشعب ولم يقابل بأى اعتراض أو استنكار أو امتعاض باعتبار أن فلسطين وما يتصل بها لا يعنهم في قائل ولا كثير فهؤلاء فلسطينيون أما هم فصريون .

وفهمت فيما فهمت أن السيد أمين الحسيني كون هيتين لتنظيم العمل ضد المستعمر الإنجليزي واليهود الصهيونيين تسمى إحدى الهيئتين بالهيئة العربية العليا وتسمى الأخرى بالمجلس الإسلامي الأعلى وكان هو رئيس الهيئتين. والسيد أمين كان رجلاً ذكياً ورعاً شجاعاً على علم ودراية بالدين وبالساسة وكان موضع ثقة الجميع ، وقد استطاعت هاتان الهيئتان أن تشن حرباً شعواء ضد اليهود وحكام الإنجليز وقد استشهد فيها الكثيرون مثبتين بذلك أنهم شعب مسلم كريم ... وقد قرأت في مجلة سورية كانت نصل إلى المركز العام في تلك الأيام أن بعض ساسة البلاد العربية سألوا المفتي عما بلغهم من أن بعض العرب في فلسطين يبيعون أرضهم لليهود فرد عليهم بقوله : ليس من طبيعة العربي أن يفعل ما نذكرون كما أنه ليس من طبيعة البلبل أن يكون أخرس ولكن المستعمر قابله الله هو صاحب الجناية لا العربي ورحم الله الشاعر الذي قال :

بلا بل الله لم تخـرس ولا ولدت خرساً ولكن بوم الثوم رباها

فهمت بعد ذلك أيضاً أن الإخوان المسلمين أخذوا على عاتقهم النهوض بمهمة محددة هي أن يقوموا بجمع تبرعات لمجاهدي فلسطين ؛ فكان الأستاذ المرشد في كل يوم جمعة يوزعنا على عدة مساجد في القاهرة ، يرسل إلى كل مسجد اثنين على الأقل أحدهما يخطب بعد الصلاة ويشرح للناس ما يقتضيه الإنجليز من مظالم في فلسطين ويوضح للناس أن فلسطين هي البلد الذي به بيت المقدس ثالث الحرمين وأولى القبلتين وأن الإنجليز يريدون أن يسلّموا هذا الحرم المقدس إلى اليهود . ويقوم الأخ الآخر بتلقى التبرعات في صندوق معه .

وقد نجحت هذه الطريقة فعلاً في تحقيق النتائج الآتية :

- ١ - في إحاطة الناس علماً بأن هناك بلداً مسلماً بجوارنا سمى فلسطين يراد بيعه لليهود .
- ٢ - في إيقاظ الروح الإسلامية في الشعب المصري الذي تصافرت قوى الاستعمار وأذنا به من الحكام ومحتري الدين على تضليله وتخديره حتى نام وأغرق في النوم .

- ٣ - في إيجاد وعى لدى هذا الشعب بأن الإنجليز أعداء لنا وللإسلام ..
٤ - في إقامة الدليل المادى الملموس على أن الحكومة المصرية مهما كان لونها أو حزبها إنما هي غداة ذليل للمستعمر الفاسد .

ه - في جمع مبالغ من المال من تبرعات الناس
أ - أما من ناحية النتيجة الأولى فلقد كان الناس في مصر يجهلون في ذلك الوقت أن هناك بلداً اسمه فلسطين ، وأن هذا البلد بجوارنا وهو أقرب إلى القاهرة من أسوان .. وبطبيعة الحال فإن من يجهل مجرد وجود بلد بهذا الاسم وأنها بلد مسلم فإنه يكون على ذهنه عما يجري بداخله من مؤامرات ... كما سبق أن أشرت إلى أن المصريين كانوا في ذلك الوقت يعيشون في عزلة ولا يعرفون أحداً ممن حولهم ولا يعنيهم أن يعرفوا .

وكان الإخوان أول من طرق أسماع المصريين بهذا الاسم ، وأول من لفت نظرهم إليه ، وأول من شغلهم بمتابعة مؤامرات اليهود ومكائد الإنجليز في هذا البلد المسلم وأول من أثار قضية كان المصريون بخلة البال عنها تماماً وظل الإخوان يرفعون راية هذه القضية حتى شاء الله أن يكون الشاغل الأكبر بل الوحيد لمصر وللعرب وللمسلمين وللعالم كله .

ب - وأما إيقاظ الروح الإسلامية في مسلمى الشعب المصرى المصلل فإن هذا الموضوع كان معضلة أمام دعوة الإخوان ، والإخوان وقد فهموا دعوتهم ، وجدوا أن بينهم وبين توضيح معالم دعوتهم - وهى المعانى الإسلامية العليا - هذا الشعب عقبات كأداء مما حشا به المستعمر وأذنا به عقوله من التضييل والأوهام ، وما تناولوا به عواطفه ومشاعره من تخدير حتى لم تعد تستجيب لداعية ملهم ولا لخطيب مقوه ، ولا تستقيم مع منطق أو برهان .. فكان لابد لكى يصل الإخوان إلى هذه العقول المصللة والمشاعر المخدرة من قارعة تحل قريباً من دارهم توقظ هؤلاء الموق بزلاها وتبعثهم من أكفانهم بصواعقها ... فكانت قضية فلسطين هى القارعة وهى الزلزال وهى الصاعقة .

لقد اختصر نهوض الإخوان في ذلك الوقت بقضية فلسطين الزمن اختصاراً ، وأغنى عن الكثير من الخطب والمحاضرات والمقالات والمؤلفات ؛ فلو أن مائة محاضر ومائة خطيب مصقع بذلوا أقصى ما يستطيعون في الإبانة عما تضمنته الفكرة الإسلامية من معانى التعاون والإخاء التى تربط بين المسلمين في كل مكان ؛ لما أثمرت جهودهم عشر معشار ما كانت ثمره كلمة نائرة من شاب من الإخوان يوجهها إلى جمهور المصلين بعد صلاة الجمعة يشرح فيها ما يرتكبه

اليهود والإنجليز من فظائع ضد إخوانهم المسلمين في فلسطين ، ويطلب منهم القوات لإبعاد بيت المقدس قبل أن ينتزعه الإنجليز من المسلمين ويسلموه لليهود ليحولوه إلى معبد يهودى .

وسأضرب مثلين يوضحان مدى تأثير مثل هذه الكلمات المستمدة من صميم الواقع والتي تعتمد في طمعتها وسداها على قضية فلسطين ، وقد اخترت هذين المثالين لأننى لمست التأثير فيها بنفسى : كلفت في يوم من أيام الجمعة بالقيام بهذا الدور في مسجد الرفاعى بالقاهرة ، وكان مسجد الرفاعى في ذلك الوقت - وكما ذكرت من قبل - أفخم مسجد في القاهرة ويقوم في صلاة الجمعة طبقة من أعلى أهل القاهرة ثقافة لأنه فضلا عن فخامته فإن خطيبه الشيخ محمود على أحمد كان خطيباً مفوهاً على مستوى يندر وجود مثله .

وبعد صلاة الجمعة وقفت وخطبت الناس بالأسلوب المشار إليه آنفاً ، وكنت حريصاً أن أرفع المصحف بيدي طيلة مخاطبتي للجمهور وأقول لهم إن إخوانكم في فلسطين إنما يقتلون في سبيل هذا الكتاب وإن اليهود والجنود الإنجليز يقتحمون البيوت ويمزقون هذا الكتاب ويدوسونه بأحذيتهم فإذا كان بعد ذلك ؟... وهذا كان من صدى هذه الكلمات في نفوس الحاضرين وعقولهم ؟.....

كان التصرف الذى نصره خطيب المسجد - تنفيذاً لتعليمات الحكومة المصرية وحفاظاً على وظيفته أن تنزع منه مع أنه كان من قبل صديقاً للاخوان - أن طلب من المصلين - وكان مطاعاً فيهم ونافذ الأمر عليهم - أن يمتنعوا من الكلام. فلم يتقدم أحد.. واكتفوا بهذا الموقف السلبي حياء من الرجل الذى لم يتعودوا أن يعصوا له أمراً ... فلما رأى الرجل تقاعسهم أمر خدام المسجد - وكانوا كثرة أشداء - أن يمتنعوا بالقوة فتقدموا نحوى ؛ وهنا نسى الجمهور تقديرهم لخطيب المسجد وبحركة غير إرادية وقفوا في وجه الخدم وهددوهم إذا مسوا بأذى أن يقدفوا بهم خارج المسجد ، فراجع الخدم ... فلم يجد خطيب المسجد وسيلة إلا أن يقف فوق كرسى الدرس - وأه' واقف على أرض المسجد - ويخطب صدى ليغض الناس من حولى ولكن أحداً من الجمهور لم يلتفت إليه وظلوا جميعاً ملتفين حولى متأثرين بكلامى تأثراً ظهر أثره في ملء الصناديق الأربعة التى كان يحملها زملاؤى في نواحي المسجد ، وفي النهاية أقبلوا على يكادون يكون من التأثير يدعون الله لنا أن يعيننا على هذا الجهاد .

والمثل الآخر صورة ماثلة للمثل السابق غير أنه يختلف عنه في مستوى المسجد ومستوى المصلين فيه ؛ فبينما كان مسجد الرفاعى يضم عليه القوم وأعلام ثقافة ، كان مسجد قنطرة الدكة

بميدان الأوبرا يضم المستوى الشعبى من المصايين ، وحدث فيه نفس الذى حدث فى المسجد السابق إلا أنه فى هذا المسجد بعد أن وجد خطيب المسجد أن الخدم عجزوا عن الوصول إلى تقدم هو بنفسه نحوى وطوق صدرى بذراعيه ، وكنت واقفاً المصحف بيمنى ، فاجتمع المصلون عليه وانتزعونى منه وألقوا بالرجل خارج المسجد وهو يقول للناس : لا تخربوا بيتى إنه يشتم الإنجليز .

وهذا الذى حدث لى فى هذين المسجدين حدث مثله لزملائى فى مساجدهم بل إن منهم من كان رجال الشرطة يدخلون المسجد استجابة لطلب الإمام ويلقون القبض على الأخ الخطيب ويحرقونه جراً فى الشارع حتى يصلوا به إلى قسم البوليس .

ولكن الذى أحببت أن أبينه للقارئ هو أن جوء الإخوان إلى شرح قضية فلسطين لجمهور المسلمين فى المساجد كان أقصر الطرق للوصول بهم إلى فهم الفكرة الإسلامية فهما صحيحاً بما فيها جانب القوة والحرية والجهاد والسياسة وهو ما كانوا يعجزون عن فهمه بالأساليب المجردة من المحاضرات والمقالات ومآلها .

ج - وأما إيجاد الوعى لدى الشعب المضلل بأن الإنجليز أعداء لنا وللإسلام ؛ فقد يبدو لجيل هذه الأيام غريباً أن يكون جيش أجنبي يحتل أرض قوم ولا يشعر هؤلاء القوم بمقت هذا المستعمر والحقده عليه ، ولكن الإنجليز استطاعوا أن يخدعوا الشعب المصرى عن طريق صنائعهم من الحكام فأوهوه أن كل خير إنما يأتى عن طريق الإنجليز ، وشغلوا الشعب بمعارك جانبية حزبية ، فلم يعدوا يشعرون بوطأة الاحتلال فكان على الإخوان أن يقتحموا هذه الأسوار العالية وما كان لهم أن يفعلوا ذلك لولا تدرعهم بقضية فلسطين وما يجرى على أرضها من مؤامرات ومظالم ومذابح ضد العرب والمسلمين .

د - وأما إقامة الدليل على أن الحكومات المصرية على اختلاف نزعاتها وأحزابها إن هى إلا خدام ذليل للمستعمر ؛ فإن الشعب حتى ذلك الوقت لم يكن يرى من حكومة اضطهاداً إلا موجهاً إلى أنصار حزب معارض لها ، أما حينما قام الإخوان بأعباء الدعوة إلى تأييد العرب فى فلسطين فى محنتهم التى دبرها الانجليز فقد رأى الشعب بعينه أن حكومات مصر على اختلاف أحزابها تقاوم الإخوان وتحاول منعهم عن الدعاية ضد الإنجليز وعن فضح إجرامهم : بل إن الشعب سمع بأذنيه أئمة المساجد وخطباءها الرسميين بإيعاز من حكومتهم يحاولون منع الإخوان ويقولون للناس بصريح العبارة فى معرض تبريرهم هذا المنع : إنهم - أى الإخوان - يهاجون الإنجليز ، وإذا لم أمنعهم فسيعرضنى ذلك لقطع عيشى .. ففهم الناس لأول مرة أن هؤلاء

السادة الحكام الذين كانوا يعتبرونهم مثلاً علياً في الوطنية لبسوا في حقيقة أمرهم إلا خدماً وأذناً للمستعمر . فاعتماد الإخوان في حديثهم إلى الناس على قضية فلسطين كان بمثابة جرعة منبهة لهذا الشعب المسكين أحمد يستفيق على أثرها من غشيتها وأخذ يرى الأوضاع على حقيقتها .

هـ - لم يبق من النتائج إلا جمع المال وهو لم يكن مقصوداً لذاته بل كان وسيلة للتعبير عن المشاركة الوجدانية كما يقولون ؛ بمعنى أننا كنا نريد أن نعرف مدى تأثير حديثنا مع الناس فكانت هذه القروش التي يقدمها السامعون هي نصيرهم عن تأثرهم بما نقول . ومساهمة ومزية منهم في استعدادهم لتحمل أعباء المعركة التي يخوضها إخوانهم ضد اليهود والإنجليز .. وهذا المال الذي كنا نجتمع له لفلسطين قصة ستأق في سياق أحداث الدعوة سندكرها في موضعها إن شاء الله .

وإذا كان الشيء بالشئ يذكر ، فلا يفوتني أن أنوه هنا بحملة من حملات الدعاية لفضية فلسطين كانت هذه المرة خارج القاهرة وكانت في مسجد السيد أحمد البدوي في طنطا ، وكان الداعية فيها الأخ عبد الحكيم عابدين وكان إذ ذاك طالباً بكلية الآداب ومعه مجموعة من الإخوان .. وقد اختارت هذه الحملة بالذات لأنها هي وحدها دون غيرها من مئات الحملات قد شاء الله لها أن تسجل بقلم الكاتب الإسلامي الرفيع الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ؛ فقد كان أحد المصلين بالمسجد في ذلك اليوم ، وقد هاجت الحملة في نفسه كوامن الأسمى على ما آلت إليه حال المسلمين من تدهور وانحطاط فسجل هذه الكوامن كما سجل الأمانى التي بعثتها هذه الحملة في نفسه : سجل كل ذلك في مقال رائع على صفحات مجلة الرسالة التي كانت توزع في ذلك الوقت على نطاق لا يقل عن نطاق توزيع جريدة الأهرام . وكان تسعة أعشار قرائها إنما يقتنونها من أجل مقال الرافعي الذي كان دائماً يتصدرها ... وقد جمعت مقالات الرافعي هذه بعد وفاته في كتاب «وحي القلم» في ثلاثة أجزاء .

والمقالة التي سجل فيها الرافعي هذه الحملة سماها «قصة الأيدي المتوضئة» ومن حق القارئ على أن أمتعه بنقل فقرات من هذه المقالة التاريخية المثيرة والبالغة الروعة :

«قال الراوى» : وصعد الخطيب المنبر وفي يده سيفه الخشبى يتوكأ عليه (كانت وزارة الأوقاف تلزم كل خطيب مسجد أن يمسك بسيف من الخشب وهو يخطب الجمعة) فما استقر في الذروة حتى خيل إلى أن الرجل قد دخل في سر هذه الخشبة ، فهو يبدو كالمريض تقيمه عصاه ، وكأهزم يمسكه ما يتوكأ عليه ؛ ونظرت فإذا هو كذب صريح على الإسلام والمسلمين ، كهيئة سيمه الخشبى في كذنها على السيوف ومعدنها وأعمالها .

وإن الله ما أدرى كيف يستحل عالم من علماء الدين الإسلامى فى هذا العصر أن يخاطب المسلمين خطبة جمعتهم وفى يده هذا السيف علامة الذل والضعف والتراجع والانقلاب والإدبار والهزل والسخرية والفضيحة والإضحاك ، ومضى كان الإسلام يأمر بنحر السيوف من الخشب ونحتها وتسويتها وإرهاق حدها الذى لا يقطع شيئاً ، ثم وضعها فى أيدي العلماء يعتلون بها ذؤابة كل منبر لتتعلق بها العيون ، وتشهد فيها الرمز والعلامة ، وتستوحى منها المعنوية الدينية التى يجب أن نتجسم لترى ؟ ..

أنى سيف من الخشب معنوية غير معنى الهزل والسخافة وبلاهة القتل وذلة الحياة ومسوخ التاريخ الفاتح المختصر ، والرمز لخضوع الكلمة وصيانية الإرادة ؟ ..

قال : وكان تمام الجزء بهذا السيف الخشبي الذى صنعتته وزارة أوقاف المسلمين ، أنه فى طول صمصامة عمرو بن معدى كرب الزبيدي فارس الجاهلية والإسلام (كان طول الصمصامة سبعة أشبار وافية وعرضه شبراً) فكان إلى صدر الخطيب ، ولولا أنه فى يده لظهر مقبضه فى صدر الرجل كأنه وسام من الخشب .

قال : وكان الخطيب إذا تكلف وتصنع وظهر منه أنه حى وثار ثأره ، أرتج وغفل عن يده ، فتضطرب فيها قبضة السيف فتلكزه فى صدره كأنما تذكره أن فى يده خشبة لا تصلح لهذه الحماسة (القاعدة الشرعية أن البلد الذى يفتح بالسيف يخاطب فيه الخطيب بالسيف . ولما ضعف المسلمون أنف السيف منهم وأطاعهم الخشب) .

قال : وخطب العالم على الناس ، وكان سينه الخشبي يخاطب خطبة أخرى : فأما الأولى فهي محفوظة معروفة ولا تنتهى حتى ينتهى أثرها ، إذ هى كالقراءة لإقامة الصلاة ، وكانت فى عهدنا الأول كالدرس لإقامة شأن من شئون الاجتماع والسياسة ؛ فبينما وبين حقيقتها الإسلامية مثل ما بين هذا السيف من الخشب وبين حقيقته الأولى ؛ وأما الخطبة الثانية فقد عقلتها أنا عن تلك الخشبة وكتبتها ، وهذه هى عبارتها :

ويحكم أيها المسلمون ... لو كنت بقية من خشب سفينة نوح التى أنقذ فيها الجنس البشرى ، لما كان لكم أن تضعوني هذا الموضع ؛ وما جعلكم الله حيث أنتم إلا بعد أن جعلتموني حيث أذا ، نكاد شرارة تذهب بى وبكم معاً ، لأن فى وفيكم المادة الخشبية والمادة المتخشبة .

ويحكم .. لو أنه كان لخطيبكم شئ من الكلام النارى المضطرب ، لما بقيت الخشبة فى يده خشبة وكيف يمتلئ الرجل إيماناً بإيمانه ، وكيف يصعد المنبر ليقول كلمة الدين من الحق الغالب ،

وكلمة الحياة من الحق الواجب وهو كما ترونه قد انتهى من الذل إلى أن فقد السيف روحه في يده :
أيها المسلمون .. لن تغلحوا وهذا خطيبكم المتكلم فيكم ، إلا إذا أفلحتم وأنا سيفكم المدافع عنكم ،
أيها المسلمون .. غيروه وغيروني .

قال راوي الخبر : ولما قضيت الصلاة ما ج الناس ، إذ انبعث فيهم جماعة من الشبان يصيحون
بهم ويستوقفونهم ليخطبهم ، ثم قام أحدهم فخطب ، فذكر فلسطين وما نزل بها ، وتغير أحوال
أهلها ونكبتهم وجهادهم واحتلال أمرهم ، ثم استنجد واستعان ، ودعا المؤسر والمخفف إلى البذل
والتبرع وإقراض الله تعالى ، وتقدم أصحابه بصناديق محتومة فطافوا بها على الناس يجمعون فيها
القليل والأقل من دراهم هي في هذه الحال دراهم أصحابها وضمايرهم .

قال : وكان إلى جانبي رجل قروي من هؤلاء الفلاحين الذين تعرف الخبر في وجوههم
والصبر في أجسامهم والقناعة في نفوسهم والفضل في سجاياهم ، إذ امتزجت بهم روح الطبيعة
الخصبة فتخرج من أرضهم زروعاً ومن أنفسهم زروعاً أخرى ، فقال لرجل كان معه : إن
هذا الخطيب خطيب المسجد قد غشنا هؤلاء الشبان قد فضحوه ، فما ينبغي أن نكون خطبة
المسلمين إلا في أخص أحوال المسلمين .

قال : ونهني هذا الرجل الساذج إلى معنى دقيق في حكمة هذه المنابر الإسلامية ، فما يريد
الإسلام إلا أن تكون كمحطات الإذاعة : يلتقط كل منبر أخبار الجهات الأخرى ويذيعها في
صيغة الخطاب إلى الروح والعقل والقلب ، فتكون خطبة الجمعة الكلمة الأسبوعية في سياسة الأسبوع
أو مسألة الأسبوع ، وبهذا لا يجي الكلام على المنابر إلا حياً بحياة الوقت ، فيصبح الخطيب ينتظره
الناس في كل جمعة انتظار الشيء الجديد ، ومن ثم يستطيع المنبر أن يكون بينه وبين الحياة عمل .
قال : وخيل إلى بعد هذا المعنى أن كل خطيب في هذه المساجد ناقص إلى النصف لأن السياسة
تكرهه أن يخلع إسلاميته الواسعة قبل صعوده المنبر ، وأن لا يصعد إلا في إسلاميته الضيقة المحدودة
بحدود الوعظ الذي هو مع ذلك نصف وعظ ... فالخطبة في الحقيقة نصف خطبة أو كأنها أثير
خطبة معها أثير سيف ...

قال : وأخرج القروي كيسه فعزل منه دراهم وقال : هذه لطعام أنبلغ به ولأوتى إلى البلد
ثم أفرغ الباقي في صناديق الجماعة ، واقتديت أنا به فلم أخرج من المسجد حتى وضعت في صناديقهم
كل ما معي ، ولقد حسبت أنه لو بقي لي درهم واحد لمضى يسبني ما دام معي إلى أن يخرج عني .
قال الراوي : ثم دخلت إلى ضريح صاحب المسجد أزوره وأقرأ فيه ما نيسر من القرآن ،

فإذا هنالك رجال من علماء المسلمين اثنان أو ثلاثة ثم توافى إليهم آخرون فتموا سبعة ... وكان من السبعة رجل ترك لحيته عافية على طبيعتها ، فامتدت وعظمت حتى نشرت حولها جواً روحانيا من الطيبة تشعر النفس الرقيقة بتياريه على بعد .

قال : وأنصت الشيوخ جميعاً إلى خطب الشبان ، وكانت أصوات هؤلاء جافية صلبة حتى كأنها صغيب معركة لا فن خطابة ، وعلى قدر ضعف المعنى في كلامهم قوى الصوت ، فهم يصرخون كما يصرخ المستغيث في صيحات هاربة بين السماء والأرض .

فقال أحد الشيوخ الفضلاء : لا حول ولا قوة إلا بالله ... جاء في الخبر « تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم » ووالله ما تعس المسلمون إلا منذ تعبدوا طُذِنَ حرصاً وشحاً « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ولو تعارفت أموال المسلمين في الحوادث لما أنكرتهم الحوادث .

فقال آخر : وفي الحديث « إن الله يحب إغائة الألفان » ولكن ما بال هؤلاء الشبان لا يوردون في خطبهم أحاديث مع أنها هي كلمات القلوب ؟ فلو أنهم شرحوا للعامة هذا الحديث لأسرع العامة إلى ما يحبه الله .

قال الثالث : ولكن جاءنا الأثر في وصف هذه الأمة « إنها في أول الزمان يتعلم صفارها من كبارها فإذا كان آخر الزمان تعلم كبارهم من صفارهم » فنحن في آخر الزمان ، وقد سلط الصفار على الكبار يريدون أن ينقلوهم عن طباعهم إلى صبيانية جديدة .

قال الراوى : فقلت لصديق كان معي : قل لهذا الشيخ : ليس معنى الأثر ما فهمت ، بل تأويله أن آخر الزمان سيكون لهذه الأمة زمن جهاد واقتحام ، وعزيمة ومغالبة على استقلال الحياة فلا يصلح لوقاية الأمة إلا شبابها المتعلم القوى الجريء كما نرى في أيامنا هذه ، فينزلون من الكبار تلك المنزلة ، إذ تكون الحاجة متممة لقوة العلم . وفي الحديث « أمي كالطر لا يدري أوله خير أم آخره » .

قال الراوى : ولم يكده الصديق يحفظ عنى هذا الكلام ويهم بتبليغه ، حتى وقعت الصيحة في المكان ، فجاء أحد الخطباء ووقف يفعل ما يفعله الرعد ، لا يكرر إلا زمجرة واحدة ، وكان الشيوخ الأجلاء قد سمعوا ما قيل ، فأطرقوا يسمعون مرة رابعة وخامسة ، وفرغ الشاب من هديره فتحول إليهم وجلس بين أيديهم متأدباً متخشعاً ووضع الصندوق المختوم .

فقال أحد الشيوخ : من أنت يابني ؟ قال : أنا من جماعة الإخوان المسلمين . قال الشيخ :

لم يخف علينا مكانك ، وقد بذلتم ما استطعتم فبارك الله فيك وفي أصحابك .
وسكت الشاب ، وسكت الشيوخ ، وسكت الصندوق أيضاً ...

ثم تحركت النفس بوحى الحالة ، فمد أولهم يده إلى جيبه ثم دسها فيه ، ثم عبث فيه قليلاً ثم ...
ثم أخرج الساعة ينظر فيها .

وانتقلت العدوى إلى الباقين ، فأخرج أحدهم منديله يتمخط فيه ، وظهرت في يد الثالث مسبحة طويلة ، وأخرج الرابع سواكاً فربّه على أسنانه ، وجر الخامس كراسة كانت في قبائه ، ومد صاحب اللحية العريضة أصابعه إلى خيته يخلها ، أما السابع فثبتت يده في جيبه ولم تخرج ، كأن فيها شيئاً يستحق إذا هو أظهره أو يخشى إذا هو أظهره من تخجيل الجماعة .
وسكت الشاب ، وسكت الشيوخ ، وسكت الصندوق أيضاً ...

قال الراوى : ونظرت فإذا وجوههم قد لبست للشاب هيئة المدرس الذى يقرر لتميذه قاعدة قررها من قبل ألف مرة لألف تلميذ ، فحجل الشاب وحمل صندوقه ومضى .

أقول أنا : فلما انتهى الراوى من « قصة الأيدي المتوضعة » قلت له : لعلك أيها الراوى استيقظت من الحلم قبل أن يملأ الشيوخ الأجلاء الصندوق ، وما ختم عقلك هذه الرواية بهذا الفصل إلا بما كددت فيه ذهنك من فلسفة تحول السيف إلى خشبة ، ولو قد امتد بك النوم لسمعت أحدهم يقول لسائرهم : بمن ينهض إخواننا المجاهدون وبمن يصلون ؟ لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاهل سخي أحب إلى الله من عالم بخيل » ثم يملأون الصندوق ...

الفصل الثاني

الدعوة على مفترق طريقين

« هل نهاجو ؟ »

كان حسن البنا - كذاب أصحاب الدعوات - حريصاً على أن يرتاد بدعوته أخصب أرض تنمو فيها وترعرع . وكان يرى - كما كنا جميعاً نرى - أن مصر تزخر بالكثير من مظاهر الانحراف عن الدين مما تألم له نفس الرجل المؤمن ، وكان يقد إلينا في مصر بين الفينة والفينة أفراد من بلاد عربية وبلاد إسلامية نرى في علمهم وسلوكهم المثل العليا التي نرتجىها فاعتبرنا هؤلاء الأفراد صورة مصغرة لبلادهم ومجتمعاتهم التي جاءوا إلينا منها ، فتالت نفوسنا إلى تلك البلاد ووددنا لو انتقلنا إليها بدعوتنا حيث نجد فيها الملاذ الطيب والملاجئ المتبع والركن الشديد والخصوبة المأمولة ، وتحدثنا في ذلك معاً وتحدثنا فيه مع الأستاذ المرشد فوجدنا لحدیثنا في هذا الموضوع صدی طیباً كأنما صادف هوی فی نفسه .

وأخذت هذه الفكرة يعظم أمرها في نفوسنا وفي نفس الأستاذ المرشد حتى إنه جاء في يوم من الأيام وكاشفنا بأنه أصبح مقتنعاً بالفكرة وبأن انتقلنا بالدعوة إلى بلد آخر أقرب إلى الإسلام يوفر علينا كثيراً من المشاق وكثيراً من الوقت ولكنه يريد أن يعرف مدى استعدادنا للهجرة يوم تنقرر الهجرة ، وما هي إلا لحظات حتى رأى منا ما يطمئن نفسه ، فسر وانشرح صدره .

ترجمة القرآن الكريم ومعركتها

اقترح ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأخرى ، اقترح نشأ في أروقة الجامع الأزهر ، باعتبار ذلك الوسيلة المثل لنشر الإسلام في بقاع الأرض ، حيث اعتقد الأزهر أن وجود القرآن الكريم باللغة العربية هو العائق الأكبر أمام من لا يعرفون العربية ، فاذا أزلنا هذا العائق بإيجاد القرآن مترجماً إلى مختلف اللغات صار انتشار الإسلام سهلاً ميسوراً .

والدافع إلى هذا الاقتراح كما يبدو دافع نبيل ، يستهوى نفس كل غيور على الإسلام ، فإذا علم أن الأزهر بشقله العلمي والإسلامي يقف من وراء هذا المقترح فإن أحداً لا يتخلف عن تأييده ويتحمس لهذا التأييد ... ولهذا سرت فكرة الترجمة هذه في مختلف البلاد ومختلف الأوساط .

وقد استلحق هذا الموضوع عن الأزهري في "أبرج في القدر" ، وكذا شعره - بحسب قوله -
 تصحفت - أن الحكومة تؤيد هذا الاقتراح ، ويكتب مقدمته إلى الشعب من طريق الأزهري حتى يتمكن
 صيغة تنحية إلى التفويض ، ولا أدري التوافق من دعوت الحكومة إلى تأييد هذا الاقتراح

ومع أن الأزهري هو الذي قدم الموضوع إلى الشعب والحكومة من قبل الشعب من وراءه ،
 ومع أن علماء الأزهري في ذلك الوقت كانوا يتوجهون بإرادة الحكومة ، فيرجعون من وراء الأزهري
 تصدى لفكرة غير عابئة بالأزهري ولا بالحكومة ، وتثبت في حريته ، وهو من سلسلة صافية من
 المقالات السارية بقصد فيها فكرة الترجمة وبما فيها مهاجمة لثوابد قديمة وبزيت أوكبر من هذا
 العالم الجريئ شيخ محمد سديد نائب المحكمة الشرعية بدمشق ، وهو أديب موهوب
 الترجمة ولزوجة المقالات التي كانت تكتب لتأييده ، ولتتلى بكتبت هذا الترجمة لمهاجمة خصمه
 طه «الأهرام» صدر صفحته الأولى فكان الناس يتدفقون على قراءة هذه المقالات يريدون أن يصلوا
 إلى الحقيقة في أمر خطير يمس الناس جميعاً في أمر ما يعتبرونه وهو الخلق الكريم .

ونزحت إلى القاهرة وموضوع ترجمة القرآن مجتهد عن أشده ، فلما وصلت إلى الإخوان
 وجدت الأستاذ المرشد يماحه فكرة ترجمة وحجته في ذلك أن ترجمته مستحيلة لأن التركيب
 القرآني العربي في ذاته معجز لغوي حين يتحول لهما فهو يذهب منه بقدر حافته في فهم وتصوير
 وقد يفهم منه عرب آخر ما لم يفهمه الأول وقد أوسع تصوراً - وبفهم من الآية في عصر من
 العصور ما لم يفهم منها في عصر سابق والآية هي الآية واللفظ هو اللفظ ، ولقد قدم عن ترجمة
 القرآن إقدام على مستحيل ومسح لقرآن وبرول به عن مكانته لما بعد اعتدائه على الإسلام في أقدم
 مقدساته ... وكان للإخوان - على الله في ذلك الوقت - أثر ميسر في مهاجمة هذه الفكرة
 لأنهم كانوا الهيئة الوحيدة التي تنهاه عن

وأذكر أنني بعد اقتناعي بهذا الرأي كنت مدة محنة الإخوان وحجت فيه فكرة الترجمة
 من ناحية أخرى وهي ما يرجوه الأزهري من وراءها فقلت ما يحسنه إن الأزهري إذا كان يرجو من
 وراء ترجمة القرآن أن ينشر الإسلام في بلاد لا يتكلم أهلها العربية بول هذا وهم ، وهذا كسر
 دستور الدعوة إلى الإسلام هو قول أنه تعالى «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وحذوهم
 بالتي هي أحسن» فإن الحكمة تقتضي أول ما تقتضي أن يكون له في موضع احترام الله ...
 ولما كانت الأمم الإسلامية لا زالت موضع حقد الأمم الأخرى لأب أنها تحسب مأخوذة حادثة
 مستعمرة ، فإن الخطوة الأولى ليست هي ترجمة القرآن وإنما هي أن يحسن له من شأن
 الصنف والابيار حتى تتواكأ مكانة محترماً بين الأمم وحيداً من سواحه الدعوة إلى الإصلاح وحسنه
 تلقى قبولاً .

الحج

قلت أن الأستاذ المرشد قد كاشفتنا بأن فكرة الهجرة بالدعوة إلى بلد آخر من البلاد الإسلامية يكون أقرب إلى الإسلام من مصر قد سيطرت على تفكيره وملأت نفسه ، ولكنه لن يقدم على هذه الخطوة حتى يحدد أى هذه البلاد الإسلامية أشد قرباً من الإسلام ، وغير وسيلة لتحديد هذا البلد هو الحج ، فإن الحج يجمع جميع الطبقات من جميع بلاد العالم الإسلامى .. فإذا احتلنا بهذه الطبقات من جميع هذه البلاد استطعنا أن نقيم كل بلد من البلاد الإسلامية تقريباً صحيحاً .

وقد صحب الأستاذ المرشد في هذا الحج مائة من الإخوان من مختلف البلاد المصرية وله وحده زهم جميعاً فكل منهم يرتدى جلباباً أبيض وطاقيّة بيضاء .

وسافر وفد الحجيج ولقوبنا ترفرف عليهم حيثما كانوا وأديت فريضة الحج بالوقوف بعرفة وبعد أيام لثلاث جاءنا البريد بطرد كبير فتحته فإذا هو مجموعة كبيرة من العدد الأخير من جريدة « أم القرى » وهى الجريدة الوحيدة التى تصدر فى السعودية فى ذلك الوقت وكانت جريدة شبه رسمية ، فتسجنا من وصول هذه الجريدة إلينا لأول مرة فقد كانت تصلنا من بلاد إسلامية أخرى مجلات ومصحف ولكن هذه الجريدة لم تصلنا إلا هذه المرة ولكنها إذ تصل تصلنا منها هذه الكمية الضخمة، ونصفنا الجريدة وكانت قليلة الصفحات فوجدنا يشغل مكان الصدارة فيه خطاب للأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين ألقاه فى مؤتمر عظماء المسلمين فى الحج ، وقد لاحظنا أن الخطاب على طوله فهو يشغل أكثر صفحات الجريدة - ليس إلا مجموعات من آيات القرآن الكريم لا يفصل كل مجموعة منها عن الأخرى إلا سطر أو سطران من كلام الأستاذ المرشد

الرجوع من الحج بمفاجآت ومفاهيم جديدة

كنا نغول الكثير على رجوع الأستاذ المرشد من الحج ، فإن مستقبلنا ومستقبل الدعوة كان متوقفاً على نتائج هذه الرحلة ، وقد أعدنا لاستقباله كل ما نستطيع إعداده ، وعلى سبيل المثال كلّفنا الأستاذ عبد الرحمن الساعاتى بوضع نشيد لتقبله به فأنشأ نشيداً جميلاً لا يحضر فى الآن إلا مظمه الذى يقول :

مرحباً يوم تقوم المرشد عمت الأفراح أوجاء الندى وقدمنا اليوم كجما تهتدى
وكنا نتمرن جميعاً على إنشاده معاً ، كما أننا حشدنا أكبر عدد من الإخوان بالقاهرة وغيرها حتى امتلأ فناء الدار لأول مرة مع أضواء ساطعة فى أنحائه . وقد حضر الأستاذ المرشد إلى دار المركز العام قبل أن يذهب إلى منزله فلم يره أهله وأبنائه إلا بعد انتهاء الحفل .

وَأَصْلَحَ الدِّينَ فِي عِلْمِهِ وَتَقَدَّرَ عَلَيْهِ أَثْبَاتُ عِلْمِهِ بِمَا
وَنَاهِيكَ بِمَا تَضَمَّنَ هَذَا الْبَيْتُ مِنْ مَعَانٍ تَتَدَفَّقُ دَعَاؤِي كَالْحَيَّةِ رَاغِبَةً فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَكَانَ يَدْعُو
لَهَا بِحَقِّ نَوْسَاءَ الْبَلُوخِ إِنْ أَتَتْهُ فِي مَصْرٍ وَوُفَّاءَ الْأَجْزَاءِ ، فَقَدْ صَرَّحَ وَابْنُ حَزْبٍ الْوَلَدُ بِمِصْطَفَى
الْحَامِلِينَ بِهِ وَكَأَنَّ وَابْنَهُمَا الْوَلَدَ بِمَا أَنَّهُ مَعْجُونٌ بِحَرَكَةِ قَلْبِهِ تَوَلَّى يَدُورُ يُحْفِظُ بِهِ وَتُطْلَعُ خَيْرُ كَرَّةٍ
أَلْفُ ثَلَاثِينَ هَذِهِ فِي ثَابِتِ قُلُوبِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَلَيْسَ الْقَبْضَةُ بِأَمْرٍ الْإِسْلَامِيِّ بِلِسَانِهِ ، وَحَقِّ الْقَلَمِ
الْمَرْكُوبَةِ دَلِيلٌ بِمَا كَانَتْ تَعْلَمُ أَنَّ كَانَتْ تَكْتُمُ بِالْجَوْرِ وَالْعَرِيقَةِ بِمَعْنَى مَا هِيَ
الْمَرْكُوبَةُ وَتُحْفِلُ تَنْحَرُ كَيْدًا وَالْقَلَمُ عَظِيمَةٌ ، مَا هِيَ بِمَا لَمْ تَكُنْ بِأَمْرٍ دَلِيلٌ بِمَا كَانَتْ تَعْلَمُ

[illegible]

أولاً : ذكر الأستاذ المرشد أن همه كله كان منصبا على الالتقاء بوفود المسلمين من مختلف الطبقات من كل بلد إسلامي في العالم ، والتحدث معهم ، ودراسة أحوالهم ، ومناقشة مشاكلهم ، والتعرف على مستواهم الحضاري والثقافي والديني ، وبعرفة مدى تسلط المستعمر على بلادهم ، ومستوى لهمم للإسلام وعلاقته بالحياة . قال : وقد اتصلت بالحكويين والحكام في كل بلد من البلاد الإسلامية وخرجت من ذلك بالنتائج تام بأن فكرة الهجرة بالدعوة أصبحت غير ذات موضوع وأن العدول عنها أمر واجب ، فصر على تعافيا من عيوب هي أحسن بيئة للدعوة الإسلامية .

ثانياً : أن دراسة أحوال المسلمين في البلاد الإسلامية في أنحاء العالم صاعقت العبء الملقى على عواتقنا فقد كنا نعتقد أن هذه البلاد ستكون عوناً لنا على إصلاح مصر ، فتبين لنا أنها هي في

ذاتها عب" يقتضى منا بذل أضعاف ما نبذله في مصر لمجرد بعث الحياة فيها ، فالهون شاسع بين مستوى هذه البلاد ومستوى مصر سواء في الدنيا أو في الدين .

ثالثا : أن فكرة ترجمة القرآن فكرة ساذجة وخاطئة بل وجريمة قد لا تعدلها جريمة ترتكب في حق الإسلام ، وساق في إثبات ذلك مثالا واقعياً فقال : لعلكم تعجبتم حين وصلكم نحو مائة نسخة من جريدة أم القرى وفي صدرها كلمة لي ... إن هذا الموضوع قصة هي غاية في الأهمية ، وتجربة في الدعوة الإسلامية لم تكن تخطر ببال ولا ببال أحد ، تجربة فمرت آيات في كتاب الله لم تكن نفهمها على وجهها الصحيح ، وقال : إني سافرت إلى الحج ولم أكن أنظر إلى فكرة ترجمة القرآن بنفس الخطورة التي أصبحت الآن أنظر إليها .

قال : اعتاد الملك عبد العزيز آل سعود أن يدعو كل عام كبار المسلمين الذين يفدون لأداء فريضة الحج إلى مؤتمر بمكة المكرمة تكريماً لهم وليتدارسوا أحوال المسلمين في العالم ، وكان في وفود الحجاج من كل بلد إسلامي في العالم وزراء وأمراء وزعماء سواء في ذلك البلاد العربية وغير العربية فكان من مصر مثلاً الدكتور محمد حسين هيكل ومن سورية ولبنان والعراق واليمن وإمارات الخليج وشمال أفريقية حكام وزعماء وكان من بلاد أفريقية الوسطى والجنوبية ومن جميع البلاد الإسلامية في آسيا ومن جاليات المسلمين في أمريكا الجنوبية وأوروبا ؛ كل هؤلاء وجهت إليهم الحكومة السعودية دعوات لحضور هذا المؤتمر ؛ وطبعاً لم توجه إلينا دعوة باعتبارنا من عامة الحجاج .

قال : علمت بموعد هذا المؤتمر وبمكانه الذي سينعقد فيه ، فأعددت نفسي والإخوان المائة في هيئة موحدة هي الجلباب الأبيض والطاقيّة البيضاء ... وفي الموعد المحدد فوجيء عليه القوم المجتمعون بمائة رجل في هذه الهيئة يخطون خطوة واحدة يتوسط الصف الأول منهم رجل منهم هو المرشد العام... فكان هذا حدثاً مثيراً للالتفات... ودخل هؤلاء فالتفتوا أمانتهم في نهاية الجالسين ؛ وبدأ المؤتمر بكلمة ترحيب من مندوب الملك .

ثم قام مندوب من كل بلد إسلامي فتكلم بلغة بلاده ؛ فألقيت عشرات الخطب بعشرات اللغات ومنها العربية التي ألقى بها الدكتور هيكل وأمثاله ممثلو الدول العربية ... يقول الأستاذ المرشد : وقد لاحظت أن الحاضرين يبدو على وجوههم السأم وغلب على أكثرهم الغوم ... وقد ناقشت هذه الظاهرة مع نفسي وأدرتها في خاطري فوجدت أن السأم والنوم أمر تمليه الطبيعة البشرية فإدام السامع لا يفهم ما يقال - وهو لا يستطيع أن يغادر المؤتمر - فمن حقه أن يسأم وأن يستسلم للنوم

قال فصبرت حتى انقضت الساعات الطوال التي استغرقها المندوبون في إلقاء خطاباتهم واستغرقها الحاضرون في النوم ؛ حينئذ أعلن مندوب الملك انتهاء المؤتمر ، وأصبح مسموحاً لمن شاء من الحاضرين أن يتقدم بملاحظاته إن كان له ملاحظات ... قال الأستاذ : فطلبت الكلمة واعتليت المنصة وارتجملت كلمة كانت أطول كلمة ألقيت ، وكانت الكلمة الوحيدة التي أيقظت الحاضرين ، وفوطعت بالإعجاب ، واهتزت لها المشاعر ، وبعثت في المؤتمر جواً من الحيوية الدافقة ، وما كدت أنهى كلمتي حتى أقيمت على جميع الوفود تعانقني ، وتشد على يدي ، وتعاهدني وتطلب التعرف على وعلى من معي ، وتفتح قلوبها للفكرة التي تضمنتها كلمتي .

يقول الأستاذ المرشد : لقد أحسست وأنا جالس في المؤتمر بأن المستعمر أفلح في القضاء على أسباب التفاهم بين البلاد الإسلامية بعضها وبعض بالقضاء على اللغة العربية فيها وإحلال لغة غيرها محلها ؛ فأندونيسيا تتكلم بلغة أندونيسية والهند بلغة هندوسية والصين بلغة صينية ونيجيرويا بلغة نيجيرية وغانا وغينيا وهكذا ... وفكرت فأسفني خاطري بأن الشيء الوحيد الذي لا يزال باقياً بلغته العربية ويقراه الجميع بالفاظه العربية لأن العبادة لا تكون إلا بالفاظه التي أنزل بها هو القرآن . فالكل على اختلاف بلاده ولغاته وطبقاته يفهمه : فعزمت على أن تكون كلمتي كلها آيات من القرآن أرتبها ترتيباً يوضح كل ما في نفسي من معاني الإسلام وأهدافه ووسائله ، وكيف يعالج النفس البشرية ويضع حلولاً للمشاكل الحيوية ، ولأحظت من أول آية بدأت بها كلمتي أنني ضربت على الوتر الحساس في قلب كل جالس في المؤتمر ، وأحسست أن كل كلمة من آية أنلوها تقع من قلوب الحاضرين موقعها ، وتنفعل في نفوسهم فعلها ؛ حتى ذاب الثلج الذي جدد المشاعر طيلة الساعات السابقة ، وبدأ الدفء حتى غلت مراحل القلوب والتهبت المشاعر وكان لابد في نهاية الكلمة من تجمع هذه القلوب والتفافها .

ويمكن تلخيص نتائج هذه الكلمة وآثارها في الآتي :-

١ - أثبتت بما لا يتطرق إليه شك أن وجود القرآن باللغة العربية هو الرابطة الأبدية الوحيد بين المسلمين إلى الإسلام حينما كانوا وهماء اختلقت ألسنتهم وثقافتهم ، وأنه في صورته هذه التي نزل بها من السماء هو بمثابة الروح في جسد هذه الأمة الإسلامية ، وأنه هو كلمة السر التي متى سمعها المسلم أنس بقائلها، وأحس أن بجانبه أحماً يحبه ويقتديه مهما اختلفا بعد ذلك في كل شيء .

٢ - تبين ثبوتاً قاطعاً أن فكرة ترجمة القرآن ، إما أن تكون فكرة قوم من المسلمين

بلغوا من السذاجة حداً يؤسف له ، وإما أن تكون وليدة تفكير استعماري تبشيري خطير للقضاء على آخر رباط يربط الجسد الإسلامي الممزق ، أو هو قطع الشريان الوحيد الباقي في هذا الجسد ، ولذا كان على المسلمين أن يقفوا لهذه الفكرة المدمرة بالمرصاد .. وتبين كما قال الأستاذ المرشد أن قول الله تعالى عن كتابه العزيز : «إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون» معناه أن هذا القرآن لا يكون قرآنًا إلا إذا كان عربياً وما كنا نعقل حقاً ولا كان أحد يدور بخلفه قبل هذا المؤتمر أن عروبة اللغة هي جزء من القرآن لا يتجزأ وأن العروبة اللغوية اللازمة له هي السر الخفي الذي تتحطم على صخرته مؤامرات الأعداء ومكائد الخاقدين على هذا الدين ... وعلى حد قول الأستاذ في كلمته التي ألقاها في تلك الليلة في دار المركز العام إذ قال : إن كان لابد من ترجمة فلتترجم الأم إلى القرآن ، لا أن تترجم القرآن إلى الأم .

٣ - أحس الحاضرون لأول مرة بحرارة التيار الإسلامي يسرى في مشاعرهم ، ورأوا لأول مرة أن العالم الإسلامي قد تمخض عن داعية من نوع جديد لم يألوا له مثيلاً من قبل ؛ فهو قادر على إثارة المعاني الإسلامية في النفوس ، وقادر على جذب القلوب بالجاذبية الإلهية التي هي القرآن، وقادر على جمع المتنافر منها تحت راية الإسلام، وقادر على بث روح الأخوة التي نصهر النفوس في بوتقة الإسلام ، فهرع الجميع ياتفون حول هذا الداعية الجديد ، ومن هنا سارعت «أم القرى» إلى نشر الخطاب بنصه لشغل معظم صفحاتها ، ولم تنشر غيره بل ولم تشر إلى غيره . وبدأ آل سعود يتعرفون على الداعية الجديد .

٤ - بقدر ما كان هذه المظاهر الإسلامية الرائعة من أثر طيب في نفوس جميع الوفود فيبدو أنها لم تقع من نفس ولد مصر نفس الموقع ، فقد شعر هذا الوفد بالمهانة حين رأى جميع الوفود انفضت عنه ولم نعهز اهتماماً وهم الوزراء وكبار الساسة وأصحاب البلاد وسادة العباد ، والتفوا حول هذا الرجل النكرة الذي لم يسموا عنه ولم يعرفوا اسمه إلا في هذا المؤتمر ... ووقف نتحدث في باب قادم إن شاء الله عن أحداث وقعت في مصر نتيجة هذا الشعور الأثيم .

الباب الثاني في ميدان الخبز الخضر

- ① إبراز الاخوان باعتبارهم فئة متميزة ،
من الفئات الاساسية في المجتمع المصرى
- ② الأخذ بأساليب عملية في التكوين والتربية
ونشر الدعوة .
- ③ مهاجمة الانجليز واليهود والانطلاق
بقضية فلسطين
- ④ الفتنة الاولى

كان من أثر البعثات الطلابية في أنحاء البلاد أن انتشرت الدعوة واتسع نطاق الرقعة التي استجابت لها ، وتضاعف عدد أعضائها أضعافاً كثيرة ، كل هذا فضلاً عما سبق الإشارة إليه من انتشار الدعوة في كليات الجامعة والمدارس والمعاهد والأزهر ، ولم تعد الدار بشارع الناصرية صالحة لاستيعاب هذا العدد الكبير من الناس ، وما يستتبعه من اجتماعات ومحاضرات ومؤتمرات وأوجه نشاط ؛ وكان لابد من البحث عن مقر للمركز العام يتسع لذلك ؛ وسرعان ما وفق الله إلى مكان يفى بهذه المطالب ويمتاز بالميزات الآتية :

١ - كثرة عدد حجراته واتساع مساحاتها فقد كان به سبع حجرات ، واحدة منها كانت مساحتها تبلغ مجموع مساحات جميع حجرات المركز العام السابق .

٢ - كان له «فراندة» تتسع لمئات الكراسي وتصلح لعقد المؤتمرات فضلاً عن الاجتماعات والمحاضرات .

٣ - كان موقعه أحسن موقع حيث يقع في ميدان العتبة الخضراء ، وكان إذ ذاك أعظم ميدان في القاهرة وهو ملتقى المواصلات ومعترك التجارة ومهوى أفئدة أهل القاهرة والوالدين إليها من مختلف البلاد .

ويقع هذا المقر في العمارة التي بها لوكاندة البرلمان التي كانت هي الأخرى معلماً من معالم القاهرة . وقد اقتضى هذا الانتقال أن ينتقل الأستاذ المرشد من مسكنه إلى مسكن قريب من المركز الجديد لأنه كان حريصاً على قرب مسكنه من المركز العام فاتخذ مسكناً في شارع محمد علي .

وكان الإخوان إلى ما قبل الانتقال إلى هذا المقر الجديد من الضآلة في العدد ، ومن الاختفاء في المكان بحيث لم يكن يحسب لهم حساب ، ولا يكاد يحس بوجودهم أحد ، وكانوا ذائبين في المجتمع ، وكانت صلتهم بالقاهرة التي يعيشون فيها شبه مقطوعة فهي مقصورة على شعهم القليلة في منطقة القنال وما حوّلها ؛ وقد حاول الأستاذ المرشد سدى إشعار القاهرة بوجود الإخوان بمحاضرات يعلن عنها بدعوات وبنشورات حتى وصل به الأمر إلى أنه انتهز فرصة إقبال شهر ربيع الأول في تلك السنة فأعلن عن محاضرات يلقيها كل ليلة بالمركز العام في الناصرية وطبع آلاف الإعلانات عن هذه السلسلة من المحاضرات ؛ وكذا نذهب جميعاً كل ليلة إلى مسجد السيدة زينب نؤدى صلاة العشاء ثم نخرج من المسجد ونصطف صفوفاً يتقدمنا الأستاذ المرشد ينشد نشيداً

من أناشيد المولد النبوى ونحن نردده من بعده فى صوت جهورى جماعى يلفت النظر ، وكانت الفاصلة التى نرددها هى هذا البيت :

صلى الإله على النور الذى ظهر... لنا بشهر ربيع الأول اشتهر...

وكان الناس يجتمعون فعلا علينا ، ويسرون معنا فى الطريق ونحن نشد بنفمة محبوبة وكان أفراد منا يوزعون الإعلانات على الناس والمحلات على الجانبين فى أثناء سير الموكب حتى إذا وصلنا إلى دار المركز العام لم يدخل معنا فيه إلا عدد قليل لا يسم ولا يفنى من جوع ..

كان الانتقال إلى المقر الجديد طفرة بالنسبة لوضع الإخوان وإمكاناتهم ، وتستطيع أن تقدر ضالة هذه الإمكانيات إذا علمت أن الإخوان حتى ذلك الوقت لم يكونوا إلا مجموعة من الطلبة مهما ذكرنا عن تضاعفهم عدداً فإنهم لا مورد لهم وبجانبهم عدد من صفار الموظفين هم أنفسهم الذين كانوا موجودين بالمركز العام لأول مرة زرتهم ... والمقر الجديد يحتاج إلى نفقات كثيرة فإيجاره أضعاف إيجار القديم ونفقات تأثيثه وأجر المياه والنور فيه وأجر الكراسى التى تلزم للحفلات والمحاضرات ... وهذه النفقات لا قبل لهذه المجموعة القليلة الفقيرة بها ... ولكن الأستاذ المرشد كان لا يعير النواحي المادية اهتماماً ؛ فهو يقدم كل ما يملك ويعتقد بعد ذلك أن الله لن يخذله ؛ وكان الله سبحانه دائماً يحقق أمله وصدق الله إذ يقول فى الحديث القدسى «أنا عند حسن ظن عبدى بى» .

وقد دفع الأستاذ المرشد بكل ما معه ، ولم يدخر أحد شيئاً يستطيعه إلا قدمه ، ولم يتخلف إخوان الإسماعيلية وإخوان القنال عما تعودوه دائماً ، فقد كانوا سنداً وردماً للأستاذ المرشد فى كل موقف شديد ، وأتم الله فضله وتم الانتقال ، وأث المكان ، وأخذ الإقبال يزداد على المكان الجديد الذى وجدوا فيه سعة .

وكان الأستاذ المرشد يرى من وراء هذه النقلة فى المكان التهيؤ لنقل الدعوة إلى طور جديد له السمات الثلاث الآتية باعتبارها أهدافاً يجب تحقيقها :

١ - إبراز الإخوان المسلمين باعتبارهم فئة متميزة من الفئات الأساسية فى المجتمع المصرى .

٢ - الأخذ بأساليب عملية قوية فى التكوين والتربية .

٣ - فضح مؤامرات الإنجليز والحكومة والانطلاق بقضية فلسطين

الفصل الأول

إبراز الإخوان باعتبارهم فئة متميزة

من الفئات الأساسية في المجتمع المصري

اتخذ الأستاذ المرشد لتحقيق هذا الغرض الأساليب الآتية :-

الأسلوب الأول

الشارة والمجلة

ماكد يستقر بنا المقام في الدار الجديدة حتى دعانا الأستاذ المرشد إلى اجتماع وعرض علينا فكرته في وجوب أن تكون لنا شارة مميزة ، ومجلة معبرة ، ووافقنا جميعاً على الفكرة .

الشارة : اقترح كل مناهضة معينة للشارة وانتهينا إلى أن يكون لنا نوعان من الشارات ؛ نوع يعلق على الصدر في جانبه الأيسر ونوع يلبس في إصبع اليد ، وقال لنا الأستاذ فكروا في هيئة لكل من هذين النوعين من الشارات على أن يكون تفكيركم محصوراً في صيغة قرآنية ...

وقد أخذ الأستاذ بفكرتي في هيئة شارة الصدر ؛ وهي أن تكون قطعة معدنية مستديرة في مساحة القرش محدبة السطح ، يطل سطحها بالمينا الزرقاء ، ويرسم عليها - وسماً بارزاً - سيفان متقاطعان يحدان على تقاطعهما مصحفاً بلون أحمر ويكتب تحت تقاطع السيفين كلمة «وأعدوا» وقد نال هذا الاقتراح استحسان الأستاذ والإخوان ؛ وتعلق هذه الشارة بدبوس ملحوم في ظهرها .

وأما شارة الإصبع فكان مقترح هيئة الأستاذ المرشد ؛ فرأى أن تكون دبلة من الفضة ذات عشرة أضلاع ، ينقش على ضلعين منها بالمينا السوداء كلمتا «الإخوان المسلمون» .
أسباب اختيار هذا الوضع لشارة الإصبع :

يبدوا أن فكرة هذه الشارة بهذا الوضع كانت فكرة راودت الأستاذ المرشد من قديم ، حتى إنه حين عرض علينا موضوع أن تكون لنا شارة خاصة كان يريد أن تكون شارتنا هي هذه

الشارة وحدها دون غيرها ، ذلك أن فكرتها كانت مختمرة في ذهنه وأن دلالاتها كانت من الروعة بحيث يقتنع بها كل من سمعها أو لاحظها وتتلخص هذه الدلالات أو المعاني أو الخصائص فيما يأتي :-

أولاً : أنها باعتبارها تلبس في الإصبع فإنها تكون ملازمة لصاحبها في كل وقت وفي كل مكان في الليل والنهار وفي اليقظة والنوم وحين يلبس ملابسه وبعد أن يغفلها .

ثانياً : أنها مصنوعة من الفضة ، والتختم بخاتم من الفضة من السنة التي فعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحث عليها .

ثالثاً : أن كونها ذات عشرة أضلاع تذكر لابسا بآيات كريمة من القرآن تصفى على هذا الرقم لونه من القدسية في حياة الناس في الدنيا والآخرة وهالك بعض هذه الآيات :

أ - الوصايا العشر في قوله تعالى :

قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم (١) أن لا تشركوا به شيئاً (٢) وبالوالدين إحساناً (٣) ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم (٤) ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن (٥) ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . (٦) ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده (٧) وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكاف نفساً إلا وسعها (٨) وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى (٩) وبعهد الله أوفوا . ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . (١٠) وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون (الآيات ١٥١، ١٥٢، ١٥٣ من سورة الأنعام)

ب - الدرجات العشر في قوله تعالى :

(١) إن المسلمين والمسلمات (٢) والمؤمنين والمؤمنات (٣) والقانتين والقانتات (٤) والصادقين والصادقات (٥) والصابرين والصابرات (٦) والخالصين والخالصات (٧) والمتصدقين والمتصدقات (٨) والصائمين والصائمات (٩) والخالطين فروجهم والخالطات (١٠) والذاكرين الله كثيراً والذاكرات . أعد الله لهم مغفرة وأجرأ عظيماً . (الآية ٣٥ من سورة الأحزاب .

ح - في صفات المؤمنين في قوله تعالى :

(١) التائبون (٢) العابدون (٣) الحامدون (٤) السائحون (٥) الرامعون (٦) الساجدون (٧) الآمرون بالمعروف (٨) والناهون عن المنكر (٩) والحافظون لحدود الله (١٠) وبشر المؤمنين .
(الآية ١١٢ من سورة التوبة)

د - مقومات البر في قوله تعالى :

ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر (١) من آمن بالله (٢) واليوم الآخر (٣) والملائكة (٤) والكتاب (٥) والنبين (٦) وآتق المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والساثلين وفي الرقاب (٧) وأقام الصلاة (٨) وآتق الزكاة (٩) والموفون بعهدهم إذا عاهدوا (١٠) والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس . أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون (الآية ١٧٧ البقرة)

هـ - الأوامر العشر في قوله تعالى :

(١) واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً (٢) وبالوالدين إحساناً (٣) وبذى القربى (٤) واليتامى (٥) والمساكين (٦) والجار ذى القربى (٧) والجار الجنب (٨) والصاحب بالجنب (٩) وابن السبيل (١٠) وماملكت أيمانكم . إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً (٣٩ النساء) .

و - صفات المتذكرين في قوله تعالى :

إنما يتذكر (١) أولو الألباب (٢) الذين يوفون بعهدهم الله (٣) ولا ينقضون الميثاق (٤) والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل (٥) ويخشون ربهم (٦) ويخافون سوء الحساب (٧) والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم (٨) وأقاموا الصلاة (٩) وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية (١٠) ويدرون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار (١٩ - ٢٢ الرعد) .

ونفذت الشارحان ، وانتشرنا انتشاراً عظيماً في القاهرة والأقاليم . وصارت هاتان الشارحتان مميزتين للإخوان وسط المجتمع .. وكان هذا المظهر بمثابة نزول بالدعوة إلى الميدان ، وهجوم صامت على الأفكار الأخرى ، هذا فضلاً عما كان له من أثر في تعريف الإخوان بعضهم ببعض حيثما التقوا .. وكثيراً ما كانت الشارة لافتة نظر الكثيرين فتقدموا يستفسرون من معانيها فكان هذا الاستفسار فاتحة لشرح الدعوة لهم . كما أنها بدأت تشعر المجتمع والحكومة بأن هناك

فئة جديدة ذات فكرة محددة تنصل بالدين قد وجدت بين ظهرانيهم . وعلى العموم فإن هذه
الشارة كما كانت مميزة للإخوان في المجتمع فإنها كانت سبباً في نشر الدعوة ونوذجها
ودفعها إلى الأمام سواء في القاهرة أو في الأقاليم .

المجلة :

جلسنا مع الأستاذ المرشد كذلك وتناولنا موضوع المجلة المعبرة ، وقد يسأل سائل فيقول :
ألم تكن للإخوان مجلة تسمى مجلة الإخوان المسلمين ؟ فنقول بلى كانت لنا مجلة «الإخوان
المسلمون» ولكن هذه المجلة قد اصطفت بصيغة خاصة فهي تقتصر على شرح علمي ومتطقي للدعوة
قلما تخرج عن ذلك فتتمس الأحداث الجارية في البلاد إلا من بعيد ، وكانت أشبه بمجلة خاصة
يقرأها الإخوان ليلموا بأخبار إخوانهم في مختلف الجهات وليقرأوا تفسير آية أو حديث ،
ويقرأوا مقالة للأستاذ المرشد توضح جانباً من جوانب الدعوة ، ولذا فإنها لم تكن تخرج عن نطاق
الإخوان ... وليس معنى ذلك أنها لم تكن ذات غناء بل إنها كانت جانباً ضرورياً للدعوة في
طورها الذي كانت تصدر فيه ؛ فقد كان الإخوان في ذلك الوقت في حاجة إلى استيضاح نواحي
فكرتهم ، والتيقن من صحتها ، والتمييز بينها وبين غيرها من النزعات التي انتسبت إلى الإسلام
وإلى أنها ذات كفاءة عملية في المجتمع .

ولذا فإن هذه المجلة كانت وعاء كما قدمنا لمقالات متسلسلة كان يكتبها الأستاذ المرشد فيها
تحت عنوان «إلى أي شيء ندعو الناس» وتحت عنوان «دعوتنا» وتحت عنوان «هل نحن قوم عمليون» كانت
هذه المقالات تثبيتاً للفكرة الإسلامية في نفوس الإخوان ، ووسيلة ناجحة لإقناع كثير من الناس بالدعوة .
وقد جمعت هذه المقالات في رسائل كل رسالة بعنوان من هذه العناوين وصارت في جميع أطوار
الدعوة وحتى اليوم إحدى وسائل توضيح معالم الدعوة والإقناع بها .

ومع ذلك فقد اعتور هذه المجلة عقبات أهمها قلة المال فقد كانت ضئيلة الانتشار ، ومعنى ذلك
أنها كانت لقلة ما يطبع منها باهظة التكاليف ، كما أنها كانت خالية من الإعلانات ، وقد أدى
ذلك إلى انقطاعها لاسيما بعد أن فقد الإخوان مطبعتهم ، وقد سبق أن أشرت إلى ذلك فيما كتبت
عن الأستاذ أحمد السراوي .

جلسنا نفكر في اسم لمجلة نصدورها ، بعد أن شرح الأستاذ المرشد الوضع الذي ستكون
عليه هذه المجلة ، وأنها ستكون مختلفة تماماً عن سابقتها ، حيث تكون معبرة عن الطور الجديد
الذي انتقلت إليه الدعوة ، واقترح كل منا عدة أسماء ولكن الأستاذ تمسك أيضاً بأن يكون الاسم

من القرآن ... واقترحنا عدة أسماء وردت في القرآن ثم استقر الرأي على اسم اقترحه الأستاذ هو «النذير» .

وينبغي أن أذكر بهذه المناسبة أن انتقلنا إلى الدار الجديدة هذه ، دفع إلينا بمجموعات كبيرة من الشباب كان منهم شاب اسمه «صالح عشاوي» كان أكبر منا قليلا لأنه كان قد تخرج فعلا في كلية التجارة وكان له إيراد لا يحتاج معه إلى الالتحاق بوظيفة، وقد وقع عليه اختيار الأستاذ المرشد ليكون رئيساً لتحرير هذه المجلة : ولا أدري هل اختاره الأستاذ لهذا العمل مجرد أنه شخص متفرغ، أم لأنه توسم فيه مع ميزة التفرغ أنه كاتب يجيد الكتابة ، مع أنه لم يكن قد مضى على التحاقه بالدعوة إلا فترة قصيرة . وعلى كل ، فقد تكشف لنا حين صدرت المجلة أنه كاتب عظيم وأنه كان أهلا لهذه المهمة .

صدرت مجلة النذير في ثوب جديد، وفي أسلوب جديد ؛ أسلوب ثوري ناقد ، لا يترك حدثاً في مصر ولا في بلد عربي أو إسلامي إلا علق عليه من وجهة النظر الإسلامية تعامقاً قوياً . وبقدرة ما كانت مجلة «الإخوان المسلمون» يحررها الأستاذ المرشد كلها تقريباً بنفسه ، فإنه ترك تحرير هذه المجلة لصالح متفرغاً هو لما كان يتمنى أن يتفرغ له مما لا يستطيعه غيره .. واجتذبت «النذير» بأسلوبها القوي الثوري الكتاب الشباب الثائرين فكانت في مجموعها شعلة ملتهبة ، وكان لفلسطين من مقالاتها نصيب الأسد ؛ وقد فضحت مقالاتها ألاعيب الاستعمار في فلسطين وتخاذل الحكومة المصرية عن مد يد العون إلى أهل فلسطين ...

وقد انتشرت هذه المجلة انتشاراً كبيراً فكان يوزع منها أكثر من عشرة أضعاف ما كان يوزع من المجلة السابقة . وكانت من الوسائل في نشر الدعوة في قطاعات كبيرة من الشباب الذي يميل بطبيعته إلى الثورة وكان مما سهل لهذه المجلة الطريق أن حروف الطباعة كانت ملك الإخوان وموجودة بالدار ذلك أن الأستاذ المرشد كان حريصاً - بعد أن وقع من الأستاذ السراوي ما وقع في شأن المطبعة - أن يستبقى شيئاً منها فاستطاع أن يبقى على الحروف .

الأسلوب الثاني

الاتصال بالتجمعات في مصر

ولم يكن بمصر في ذلك الوقت تجمعات ذات صبغة غير سياسية إلا «نقابة معلمي التعليم الإلزامي» حيث لم تكن قد تكونت نقابات مهنية ولا عمالية بعد ؛ فكانت هذه النقابة أكبر تجمع

غير سياسي في البلاد ، ويمتاز هذا التجمع بأنه تجمع مثقف ، وله فروع في كل أنحاء القطر ، وكان أعضاؤه منتشرين في العواصم والحوضر والمدن والقرى مهما تأت وصفرت .. ولم تكن هذه النقابة تجدد في مصر من يوليها عطفاً ولا اهتماماً .

كان الأستاذ المرشد يعرف كل ذلك عن هذه النقابة ، وكان يحس نحوهم بعاطفة لأنه كان منهم في يوم من الأيام ولأن هذه الفئة كانت فئة مطحونة طحناً من شدة ما كانت ترزح تحته من ظلم . فهذا المعلم - وكان المعلمون في ذلك الوقت لا يعرفون إلا التفاني في العمل والإخلاص في أدائه - هذا المعلم كانت الحكومة تنظر إليه نظرة ازدراء فتمنحه أدنى مرتب لموظف في الدولة ، وتحرم عليه الترقى مهما طال سنواته في العمل وقد انتهز الأستاذ سعة هذه الدار الجديدة ، وأوسع لهم فيها مكاناً يعقدون فيه مؤتمراتهم ونعاون الإخوان معهم في رفع مطالبهم إلى الحكام . وهذه المجموعة الكبيرة من المعلمين - مع ما كانت ترى به من ضيق الأنف وضحالة الثقافة ، أبرزت لنا في مؤتمراتها بهذه الدار من الأدباء والخطباء والشعراء من يضاهون الصفوة الممتازة من مشاهير هذه الفنون في مصر ؛ كم ألقوا من قصائد عصماء ، وخطب رنانة ؛ ولا زالت تطن في أذني حتى اليوم عبارة جاءت على لسان أحد خطبائهم إذ يقول : قولوا لدولة رئيس الوزراء «ألم نربك لنا وليداً ولبتت فينا من عمرك سنين ؟» .. فكان من أروع ما سمعت من اقتباس .

أما الدعوة فقد اكتسبت الكثير من إفساح المجال في دارها لمؤتمرات هذه النقابة العتيدة وتعاونها معهم ؛ فلقد شعر هؤلاء الناس بأن هذه الدعوة دعوتهم ، وأنها أجدر الدعوات بالانتماء إليها لأنها هي وحدها التي فتحت صدرها لهم ولأنها هي دعوة القرآن ؛ فبعد أن كانت مؤتمراتهم عندنا يقتصر الحديث فيها على مطالبهم وشئونهم الخاصة ، رأينا هذه المؤتمرات نتناول شئون الدعوة كما يتناولها الإخوان أنفسهم ولا زال عالماً بخاطري شطرة من بيت من قصيدة عامرة ألقاها أحد شعرائهم في أحد هذه المؤتمرات وتناول دعوة الإخوان المسلمين ، وكيف أنها ملكت عليه مشاعره ، وصارت كل شيء في حياته فيقول : ياليت لي من بردها نكثني .

وعن طريق هذه النقابة دخلت الدعوة كل مكان حتى النجوع والكفور ، فكان أعضاؤها هم حملة الراية حيثما كانوا ... وقد صاغت الدعوة منهم رجلاً حلوا الأعباء . وخاضوا الغمرات ، وكانوا غرة في جبين الدعوة الإسلامية وما وهنوا وما استكانوا .

وكانت هذه الخطوة من الأستاذ المرشد من أعظم الخطوات المباركة التي أقدم عليها ، ودلت حقاً على أن خبرته بالمجتمع الذي يعيش فيه أعمق وأبعد مدى من خبرة قادة مصر في ذلك العهد .

الأسلوب الثالث

عقد المؤتمرات الإخوانية

كانت المؤتمرات الإخوانية حتى ذلك العهد مؤتمرات موضوعية ؛ كانت حفلات للتعارف أكثر منها مؤتمرات ذات قرارات إيجابية ، ولم يكن هذا تقصيراً من المؤتمرين ، وإنما كان جهد المقل حيث لم تكن الدعوة قد تجاوزت منطقة التثناة وماحولها ... أما والدعوة قد اتسع نطاقها حتى لم تعد تخلو مديرية (محافظة) من عدة شعب بها وبحواضرها كما أصبح للدعوة كيان بالقاهرة ، وصار لها معاقل في الجامعة والأزهر وفي المعاهد والمدارس بل وصار لها صدى في بلاد عربية أخرى . فقد آن الأوان لعقد مؤتمرات هؤلاء المستجيبين ولتلك الشعب المتناثرة في أنحاء البلاد حتى تحس هذه الشعب برباط يربطها معاً وحتى تتاح الفرصة لوجودها معاً في مكان واحد فتعارف وتتفاعل وتوجه وتنتج .

ورأى الأستاذ المرشد أن يعقد مؤتمرين أحدهما للإخوان في الوجه البحرى والآخر للإخوان بالوجه القبلى وكانت نظريته في ذلك أن يكون هذان المؤتمران مقدمة لمؤتمر عام للإخوان في القطر كله يعقد في القاهرة فيكون أسلوب التدوج هذا تمهيداً صالحاً للمؤتمر العام حتى يكون عقده محوطاً بأسباب النجاح . ورأى الأستاذ أن يعقد المؤتمر الأول في المنصورة والآخر في أسيوط .

١ - مؤتمر المنصورة :

وقد اختيرت المنصورة لتوسطها الوجه البحرى . ومع أن هذا المؤتمر كان مؤتمراً فرعياً إلا أن القرارات التي اتخذت فيه كانت قرارات خطيرة بل إنها كانت أول قرارات ذات شأن يتخذها الإخوان منذ قيام دعوتهم إذ هي قرارات عملية ... ولعل الأستاذ المرشد رأى أن يخص هذه المؤتمرات الفرعية بهذه القرارات العملية دون المؤتمر العام المزمع عقده باعتبار المؤتمرات الفرعية مهما عظم أمرها فإن الروح العائلية تكون دائماً مسيطرة عليها ، أما المؤتمر العام فهو مؤتمر مفتوح قد يفشاه من غير الإخوان من يزيدون عن حضوره من الإخوان عدداً ولذا تكون قرارات المؤتمرات قرارات عامة تتصل بشئون الدولة وتعالج مشاكلها .

كان حديث الأستاذ المرشد في هذا المؤتمر منصباً على موضوع واحد محدد هو وجوب تميز الإخوان وكان حديث الأستاذ في هذا الموضوع مفاجأة لكثير من الحاضرين ؛ لأن الدعوة كانت حتى ذلك الوقت لا تبالى أن يكون العضو فيها مصطبغاً بصبغات أخرى سواء أكانت

هذه الصبغات الأخرى اجتماعية أم دينية أم اقتصادية أم سياسية ... أما في هذا المؤتمر فقد بدأت نفمة أخرى تضرب على وتر شديد مثير أخذ يهز السامعين هزاً عنيفاً ...

فهم الحاضرون من حديث الأستاذ الذي خاطب فيه العقول والقلوب أن دعوة الإخوان دعوة جامعة شاملة ينبغي لمن ينتسب إليها أن يرى فيها غناء عن غيرها ، وفهموا أن معنى ذلك هو أن يخير كل ذي مبدأ مع مبدأ الإخوان نفسه بين المبدأين ليختار أحدهما ويدع الآخر .

وتطرق الأستاذ في حديثه عن التميز إلى نقطة هامة أخرى فقال إن تميز الإخوان يقتضيهم تكاليف قد لا يطالبون بها إذا لم يكونوا إخواناً ، فهذه الدعوة الجامعة الشاملة شاق طريقها ، ثقيل حملها لأنها الدعوة التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال ، فينبغي أن يعد العاملون بها والعاملون أمانتها أنفسهم إعداداً خاصاً بحيث يملكون زمام أنفسهم .

قد رشحوك لأمر لو فطنت لـه فارباً بنفسك أن ترعى مع الهمل
فلتقاوم أنفسنا فيما تعارف عليه الناس من عادات تمكنت منهم حتى ملكت أعنتهم مع أنها أمور إذا لم تضرب فإنها لا تنفع وضرب لذلك مثلاً بالتدخين وطلب إلى الإخوان المدخنين أن يمتنعوا عن التدخين وعن الكيوف بأنواعها وقال : خير عادة أن لا تكون أسير عادة .

وأذكر أنه كان من بين حاضري هذا المؤتمر الأخ الكريم الأستاذ محمد الهادي عطيه وكان محامياً شريعاً كبيراً وأستاذاً للشرعة في كلية المقاصد الخيرية ببغروت وكان إذ ذاك في سن يناهز الستين فرأيناه ينتصب وألقاً حين سمع كلام الأستاذ المرشد ويخرج من جيبه علبة سجائر ويفتحها ويلقي بما فيها على الأرض ويدوسه بقدمه ويعلن أنه طلق التدخين منذ هذه اللحظة . وقد أخبرني بعد خروجنا من المؤتمر أنه ظل يدخن أربعين عاماً وكان يدخن في ذلك الوقت في اليوم الواحد أربعين سيجارة ... وقد كنت أنا حريصاً على متابعة هذا الأخ الكريم لأعرف عواقب هذا الامتناع المفاجئ دون ندرج فأخبرني في لقائي به بعد عدة أشهر بأن شيئاً مما يشاع من انهيار أو صداع أو شيء من ذلك لم يصبه ... ومعنى هذا أن العزيمة الماضية وثقة المرء في نفسه وفي سلامة الطريق الذي يسلكه كل ذلك يكسبه مناعة ضد العوارض التي تصيب ضعفاء العزيمة الذين يدفعون إلى طريق سلوكوا فيه راغبين محرجين . سلوكوا فيه ونفوسهم لا زالت تتلفت إلى وراء بشوق ولهفة .

كان لهذا المؤتمر آثار بعيدة المدى سواء في الناحية الشخصية حيث رأى الإخوان لأول مرة أن الدعوة تتدخل في شئونهم الخاصة وفي عاداتهم وأمزجتهم . أو في الناحية العامة في علاقات الإخوان بالمجتمع الذي يعيشون فيه ويتكيفون حسب مصالحهم معه - لقد استغرق كل أخ من

الإخوان وقتاً طويلاً في مناقشة مقررات هذا المؤتمر مع نفسه حتى ركن إلى جانب من الجانبين .
كما كان لهذا المؤتمر آثار خارج المحيط الإخواني سنمضى لها في مكان آخر إن شاء الله .

٢ — مؤتمر أسبوط :

لم أحضر هذا المؤتمر ولكن الإخوان الذين حضروه أخبروني بأنه كان صورة من مؤتمر المنصورة واتخذت فيه نفس القرارات .

صلاة العيد في الإسماعيلية : معدرة في هذا الاستطراد فكما أنه استطراد منى في الكتابة الآن فإنه كان استطراداً في رحلتنا من القاهرة لحضور مؤتمر المنصورة فقد اقترح الأستاذ المرشد أن نمر في طريقنا على الإسماعيلية ، وقد صادف هذا الاقتراح هوى في نفوس الجميع لأن للإسماعيلية مكانة خاصة في نفوس الإخوان باعتبارها الحبيب الأول ومهوى الفؤاد

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
وقد نزلنا الإسماعيلية ، وكانت هذه أول مرة في حياتي ، ولم يكن أمامنا فرصة للتجول فيها لرؤية معالمها والإلمام بصورة كاملة عنها ، حيث كان المقرر أن نبيت بها تلك الليلة - وكانت ليلة عيد الفطر - ثم نصبح لنصل فيها صلاة العيد ثم نستأنف سفرنا إلى المؤتمر . وقد قضينا بقية يوم وصولنا بدار المركز العام بها بين احتفاء إخوان الإسماعيلية بنا وبين كلمات الإعجاب التي كنا نرجيها إليهم . وكان من أجمل ما قيل في هذا اللقاء كلمة الأخ محمد عبد الحميد أحمد - حيث قال :
إن قيام الدعوة في الإسماعيلية وهي معقل الاستعمار في مصر يذكرنا بأن موسى الذي قضى على فرعون قد تربى في بيته .

وبعد صلاة الفجر ، خرجنا متوجهين لصلاة العيد ، وقد عودهم الأستاذ المرشد على أدائها في خارج المدينة في مكان فسيح أشبه بالصحراء ، ولم أر في حياتي صلاة عيد قبل هذه في روعة هذه الصلاة ، إن المسلمين على بكرة أبيهم اتجهوا إلى هذا المكان فكل يسلك الشوارع التي تؤدي به إلى مكان الصلاة والكل يكبر تكبير العيد منذ يخرج من منزله حتى يصل إلى المكان فكل ، والتكبير بصوت جهوري فكننت ترى جميع شوارع المدينة تسيل بجموع المسلمين تصيح بالتكبير بصورة لا يملك الإنسان أمامها نفسه فترى الدموع تنهمر من العيون لروعة المنظر وروعة ما تسمعه .. وبعد أداء الصلاة لم يغادر أحد مكانه وقام الأستاذ المرشد فخطب الناس خطبة زلزلت القلوب وأبكت العيون ثم قام الناس جميعاً يتصافحون ويتعانقون والكل متجه إلى الأستاذ المرشد ليصافحه .

والحق إن صلاة العيد إذا أديت على حقيقتها بهذا الأسلوب ، فإنها تكون أعظم مظاهرة

إسلامية تهيئ ميت المشاعر ، وتبث الحياة في نفوس الخاملين .. إنها بحث سنوى للأمة الإسلامية .

٣ - المؤتمر الخامس :

أطلق على هذا المؤتمر اسم «المؤتمر الخامس» على اعتبار أنه سبق بأربعة مؤتمرات عامة بمعنى أنها كانت تمثل في كل منها شعب الإخوان التي كانت موجودة في أوقات انعقادها ، ولكن هذه الشعب كانت كما سبق أن ذكرت - قليلة العدد وفي ركن محدد من أركان البلاد ، ولذا فإنها وإن كانت عامة لجميعها كل الشعب إلا أنها كانت موضعية في حقيقتها، ولعل هذا كان السبب في أن المجتمع المصري لم يشعر بها ... أما هذا المؤتمر فهو في حقيقة الأمر يعد المؤتمر العام الأول لأنه أول مؤتمر اشتمل على خصائص المؤتمرات العامة ...

وقد صادف عقد هذا المؤتمر مناسبة مرور عشر سنوات على تأسيس دعوة الإخوان المسلمين فقد عقد في عام ١٣٥٧ هجرية الموافق ١٩٣٨ ميلادية ... وقد رأى الأستاذ المرشد أن يعقده في سراي آل لطف الله بالقاهرة مع أن هذا المكان باهظ التكاليف لكن الأستاذ اختاره لأنه كان في ذلك الوقت المكان المرموق الذي تنتجه إليه الأنظار - وهو المكان الذي عقد فيه المؤتمر البرلماني العالمي لمشكلة فلسطين، وكان الأستاذ المرشد يعتبر هذا المؤتمر أول فرصة يواجه فيها المجتمع المصري والدولى بدعوته، فأعد خطاباً جامعاً شافياً ، وضح فيه غاية الإخوان وخصائص دعوتهم ، ووسائلهم وخطوات مناهجهم ، وموقفهم من الهيئات المختلفة . ونظراً لأهمية هذا الخطاب التاريخي والذي طبع في رسالة خاصة والذي كان له ما بعده لأنه حدد المواقف بكل وضوح وصراحة فسئو جز للقاء صورة مصغرة منه إذا لم يتح له أن يقرأ الخطاب بأكمله :

١ - بدأ الحديث يذكر الرجال الذين كانوا أول من فاتهم بفكرته ووجد الاستجابة منهم فذكر أحمد تيمور باشا كما ذكر من أصدقائه الأستاذ أحمد السكري والأستاذ الشيخ حامد عسكري والأستاذ الشيخ أحمد عبد الحميد .

٢ - شرح نظرة الإخوان إلى الإسلام باعتباره الفكرة التي تضم كل المعاني الإصلاحية .

٣ - قرر أن دعوة الإخوان دعوة سلفية سنية صوفية سياسية رياضية علمية ثقافية اقتصادية اجتماعية .

٤ - أشار إلى أن من خصائص دعوة الإخوان ما يأتي :

أ - البعد عن مواطن الخلاف ب - البعد عن هيمنة الكبراء والأعيان

ج - البعد عن الهيئات والأحزاب د - التدرج في الخطوات

هـ - إيثار النواحي العملية على النواحي المظهرية

و - توأما مع روح الشباب ز - سرعة الانتشار في المدن والقرى .

٥ - أشار إلى ستة من شباب الجامعة منذ سنوات ، وهبوا الله نفوسهم وجهودهم ، فأيدهم الله فإذا بالجامعة كلها من أنصار الإخوان المسلمين ، كما أشار بمثل ذلك إلى الأزهر .

٦ - تحدث عن تساؤل المستأثرين ، هل في عزم الإخوان أن يستخدموا القوة وأن يقوموا بثورة عامة ؟ فقال : إن وطناً كصر جرب حظه في الثورات فلم يجن من ورائها إلا ما تعلمون - أما الإخوان فإنهم سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدي غيرها ، وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عسدة الإيمان والوحدة . وهم حين يستخدمون هذه القوة سيكونون شرفاء صرحاء وسيندرون أولاً ، وينتظرون بعد ذلك ثم يقدمون في كرامة وعزة ، ويتحملون كل نتائج موقفهم هذا بكل رضا وارتياح . وأما الثورة فلا يفكر الإخوان المسلمون فيها ، ولا يعتمدون عليها ، ولا يؤمنون بتفعلها ونتائجها . وإن كانوا يصارحون كل حكومة في مصر بأن الحال إذا دامت على هذا المنوال ، ولم يفكر أولو الأمر في إصلاح عاجل سريع لهذه المشاكل ، فسيؤدي ذلك حتماً إلى ثورة ليست من عمل الإخوان المسلمين ولا من دعوتهم ، ولكن من ضغط الظروف ، ومقتضيات الأحوال، وإهمال المرافق. وليست هذه المشاكل التي تتقدممر الزمن وستفعل أمرها بمضى الأيام إلا نذيراً من هذه النذر ، فليسرع المتقذون بالأعمال .

٧ - وتكلم عن الإخوان المسلمين والحكم فقال : فالإخوان المسلمون لا يطلبون الحكم لأنفسهم فإن وجدوا من الأمة من يستعد لحمل هذا العبء وأداء هذه الأمانة ، والحكم بمنهاج إسلامي قرآني ، فهم جنوده وأنصاره وأعوانه ، وإن لم يجدوا فالحكم من منهاجهم ، وسيعملون لاستخلاصه من أيدي كل حكومة لا تنفذ أوامر الله .

٨ - وتكلم عن الإخوان المسلمين والوطنية فقال : ومن هنا كان المسلم أعمق الناس وطنية ، وأعظمهم نفعا لمواطنيه ، لأن ذلك مفروض عليه من رب العالمين ، وكان الإخوان المسلمون أشد الناس حرصاً على خير وطنهم ، وتفانياً في خدمة قومهم

وهم يتمنون لهذه البلاد العزيزة كل عزة ومجد وكل تقدم ورق وكل فلاح وبجاح .

٩ - وقال عن القومية العربية : الإخوان المسلمون يعتبرون العروبة كما عرفها النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه ابن كثير عن معاذ بن جبل رضى الله عنه «ألا إن العربية اللسان . ألا إن العربية اللسان» ، ومن هنا كانت وحدة العرب أمراً لا بد منه لإعادة مجد الإسلام وإقامة دولته ، وإعزاز سلطانه ، ومن هنا كان على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها وهذا هو موقف الإخوان من الوحدة العربية .

١٠ - وقال عن الوحدة الإسلامية : الإخوان المسلمون يقدسون هذه الوحدة ، ويتمنون بهذه الجامعة ، ويعملون لجمع كلمة المسلمين وإعزاز أخوة الإسلام ، ينادون بأن وطنهم هو كل شبر أرض فيه مسلم يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله .

١١ - وقال عن الوحدة العالمية : ولئى أن أقول بعد هذا إن الإخوان يريدون الخير للعالم كله فهم ينادون بالوحدة العالمية ، لأن هذا هو مرمى الإسلام وهدفه ومعنى قول الله تبارك وتعالى «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» .

١٢ - ثم تناول موقف الإخوان من الأحزاب السياسية في مصر فقرر أن العلاج الحاسم الناجح أن تزول هذه الأحزاب مشكورة فقد أدت مهمتها ، وانتهت الظروف التى أوجدتها ، ولكل زمان دولة ورجال كما يقولون .

١٣ - واختتم كلامه بالحديث عن موقف الإخوان من دول الاستعمار ، فبدأ بالإنجلترا ثم بفرنسا ثم بإيطاليا وتكلم عن فلسطين وحيث مفتتها ورجاله ، وحذر الوفود الإسلامية في مؤتمر المائدة المستديرة بلندن من مكر إنجلترا وخداعها وأشار إلى إجرام الطليان في طرابلس وفرنسا في المغرب العربى ، ووجه كلامه إلى الإخوان بهذا الصدد فقال أيها الإخوان : هذا كلام يذى القلوب ويفتت الأكباد . وحسبى هذه الفواجع في هذا البيان فتلك سلسلة لا آخر لها وأنتم تعرفون هذا ولكن عليكم أن تبينوه للناس ، وأن تعلموهم أن الإسلام لا يرضى من أبنائه بأقل من الحرية والاستقلال فضلا عن السيادة وإعلان الجهاد ولو كلفهم ذلك الدم والمال ، فاموت خير من هذه الحياة ، حياة العبودية والرق والاستغلال . وأنتم إن فعلتم ذلك ، وصدقتم الله العزيمه فلا بد من النصر إن شاء الله «كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله لقوى عزيز» .

الأسلوب الرابع الاحتكاك بالأحزاب والهيئات

لم يكن الاحتكاك بالأحزاب والهيئات من الأساليب التي يسعى الإخوان إلى انتهاجها ابتغاء التمييز الذي يهدفون إليه ، ولكن هذا الاحتكاك دخل في أساليب التمييز رغم أنهم .. لأن كل ما حرص عليه الإخوان فيما قرروه في مؤتمراتهم إنما كان مجرد حفظ كياناتهم والاستجابة الكاملة لفكرتهم ، ولم يقصدوا فيما قصدوا مهاجمة غيرهم أو تجريح سواهم .. ولكن الذي حدث هو أن عدداً من الإخوان في مختلف البلاد - اقتناعاً بمقررات مؤتمرات المنصورة وأسيوط والمؤتمر العام الخامس بالقاهرة - أخذوا يتحازون إلى دعوتهم بكل قلوبهم وعقولهم وبكل ما يملكون ، وتبين فيما بعد أن هذا الانحياز قد اعتبر من جانب بعض الأحزاب والهيئات اعتداء عليها وانتقاصاً من أرضها ، مع أن دعوة الإخوان لم ترغم هؤلاء الذين انحازوا إليها على هذا الانحياز كما أنها لم تفرهم بأي نوع من أنواع الإغراء ، ذلك أنها لا تملك القليل ولا الكثير من وسائل الإغرام ولا وسائل الإغراء ، وإنما هو الإيمان والاعتناق .

والجهات التي آذنتها المقررات الإيجابية لمؤتمرات الإخوان جهات ثلاث : الأحزاب السياسية التقليدية والأحزاب السياسية الناشئة والهيئات الدينية .

أما الأحزاب التقليدية وهي في ذلك الوقت الوفد والحرار الدستوريون والسعديون ، فهذه أحزاب أوجدتها ظروف معينة وانتهت هذه الظروف وكان يجب أن تنتهي هذه الأحزاب بانتهائها ولكنها تشبثت بالبقاء دون أن يكون لها برامج محددة أو أساليب إصلاحية معينة ، ولم يكن لها جميعاً إلهاف واحد تسعى إليه هو الوصول إلى كراسي الحكم لا يبالون عن أي طريق يصلون ، وفي غضون هذا التهاك على الحكم ضيعت مصالح البلاد ، وديست كرامتها ، وتمكن المستعمر من رقاب أهلها ، وفقد الشعب الرؤية الصحيحة بعد أن استطاعت هذه الأحزاب قلب المفاهيم لكلمات تتصل بالروح الوطنية ، فاختلفت من قاموس هذه الأحزاب كلمة المستعمر وحل محلها الخليف ، واختلفت كلمة الثورة وحل محلها المناوضة ، وزفوا إلى الشعب معاهدة الإذلال والاحتلال في ثوب معاهدة الشرف والاستقلال . هذه الأحزاب بعيدة كل البعد عن دعوة الإخوان المسلمين ولا يكاد يكون بيننا وبينهم وجه شبه في حين أن بيننا وبينهم كل أوجه الخلاف ، فنحن في واد وهم في واد آخر .

أما الأحزاب الناشئة أو الفتية

فهى جماعة مصر الفتاة... ويأتى الحزب الوطنى يتأرجح بين هذا النوع الفتى وبين النوع التقليدى فهو وإن كان أقدم الأحزاب تكويناً إلا أنه لا يزال يحتفظ بمبادئ محددة ورثها عن مؤسسه الأول مصطفى كامل لكن موجة الانحراف بالوطنية طغت عليه وسلبته فاعليته ولذا قلنا إنه يتأرجح بين النوع الفتى وبين النوع التقليدى ، والذي يهمنى فى هذا القسم هو جماعة مصر الفتاة وقد قدمت فى صدر هذه المذكرات نبذة عن هذه الجماعة وعن مؤسسها الأستاذ أحمد حسين .

وإذا كان الاحتكاك بيننا وبين الأحزاب التقليدية أمراً طبيعياً ، لأن الفروق بين فكرة الإخوان وبين شعارات هذه الأحزاب فروق شاسعة هى أقرب إلى أن تكون كالفروق بين الحق والباطل، فإن القارئ بذلك فى غنى عن شرح أسباب الخلاف ونواحي التناقض... أما مصر الفتاة باعتبارها هيئة تنزهت عن كثير من عيوب الأحزاب التقليدية ، فإن الاحتكاك بها يدعو القارئ إلى شئ من التأمل ، ويقتضى منا التبسط فى شرح نواحي الاختلاف بين فكرة الإخوان المسلمين وفكرة مصر الفتاة، حيث يجمع بين الهيئتين من أوجه الشبه من الإخلاص والطهر ما يجعل الاحتكاك بينهما أمراً بعيد الاحتمال .

قدمت من قبل أنى منذ أول يوم لى بكلية الزراعة تعرفت فى المكان المعد للصلاة بالكلية على طالب يسبقنى بستين فى الكلية اسمه محمود مكى وتوطدت الصداقة بينى وبينه ثم تبين لى بعد ذلك أنه هو رئيس طلبة مصر الفتاة بالكلية وبمرور الأيام تعرفت على زملائه بالكلية وتوطدت صلة الصداقة بينى وبينهم ، ذلك أنهم على شاكلتنا شباب طاهر مستقيم يرنو إلى الإصلاح..... وكانت مثل هذه الصلات تربط الإخوان فى جميع الكليات بزملائهم من أعضاء مصر الفتاة .

ودعوة الإخوان وإن كانت قد تأسست قبل مصر الفتاة بضع سنين إلا أن مصر الفتاة سبقتنا إلى الجامعة فجذبت إليها مجموعات من الشباب الفاضل الذى كان متلهفاً على فكرة جديدة يشعر فيها بحج جديد غير الجوف المألوف من هذه الأحزاب التى جرح كل منها الآخر فأصبحت كلها مخرجة فى نظر الشباب . فلما أراد الله لدعوته أن تدق أبواب الجامعة ، كان علينا - نحن دعائنا - أن نعلنها للجميع . فكنت - كما يفعل إخوانى فى كلياتهم - انتهر الفرصة التى يكون الطلبة فيها يستجمعون فى حدائق الكلية وأقف مع بعض الزملاء أتحدث عن فكرتنا فياتلف حولنا زملاء آخرون وتتسع دائرة الملتفين فأشرح لهم أهدافنا ووسائلنا فيتوجهون إلى بالأسئلة لاستيضاح ما يرغبون استيضاحه ، ويتناول الحديث برنامجنا فى الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى والسياسى

وعلاقات الدعوة ومواقفها من جميع الأفكار والمبادئ والهيئات والطوائف والدول .. وهذه المناقشات لابد أن ينتهى المشترك فيها إلى موقف من ثلاثة مواقف ، أفراداً اقتنعوا عقلاً وعاطفة وهؤلاء يعلنون انصواءهم تحت لواء الدعوة ، وأفراد التمتعوا عقلاً ولم يقتنعوا عاطفة وهؤلاء يظلون في موقف المراقب الذى يريد مزيداً من الانعاج، وأفراد جاءوا لمجرد المجادلة والمكابرة وهؤلاء لا شأن لنا بهم ، وبالطائفتين الأوليين ترى الدعوة ويكثر أنصارها .

والمجاملات في الصداقة أمر مطلوب إلا في الأفكار والمبادئ والعقائد ، فلم تكن صداقاتنا مع زملائنا من أعضاء مصر الفتاة تحملنا على مجاملتهم على حساب دعوتنا ... ولكن قيامنا بتقديم فكرتنا إلى زملائنا الطلبة في الكليات كانت تفصب هؤلاء الأصدقاء لأنها بطبيعتها تحد من انتشار فكرتهم ولم يتعودوا من قبل على مثل ذلك . فقد تعودوا على أن تكون لهم الغلبة دائماً فهم يكسبون من أنصار غيرهم ولا يكتسب أحد من أنصارهم ، فإذا رأوا أن هذه القاعدة التى ألفوها قد تغيرت فلنهم يفضبون .

وكان لابد لنا في ثنايا عرضنا لدعوتنا أن نتعرض للأفكار العنصرية التى كانت في ذلك الوقت تسيطر على أفكار الشباب في مصر وفي أوروبا حيث كانت ألمانيا تدعو بشعار يقول «ألمانيا فوق الجميع» وانجلترا تزعم بأن الإنجليز جنس متميز عن أجناس العالم فهم «الجنس الذى يجرى في عروقه الدم الأزرق» وتركيا كانت تحكمها «جمعية تركيا الفتاة» وكان تعرضنا لهذه الأفكار والشعارات يدفع السامعين من الطلبة إلى السؤال عن شعار «مصر الفتاة» وشعار «مصر فوق الجميع» وإذا كان تعرضنا للشعارات الأوربية المشار إليها بالمهاجمة على اعتبار أنها تميز عنصري لا يقره الإسلام ، كان السامعون يفهمون من تلقاء أنفسهم الرد على سؤاها دون أن نجبهم إجابة مباشرة

ولقد آتت الجهود التى بذلناها في عرض فكرتنا على زملائنا الطلبة في الكليات أكملها ، فأقبلوا على الدعوة مهرولين، ومن هؤلاء الذى أقبلوا من كان خالى الذهن من سائر الأفكار، ومنهم من كان معتقاً فكراً معيناً فلما حضر المناقشات ووضعت فيها الأفكار المختلفة موضع البحث ألم بأخطاء كانت خافية عليه وانتار الفكر الأصوب لأنه كان باحثاً عن الحقيقة لامتد صبالشى معين.

وتصادف أن كان من الفريق الأخير طالبان من كلية الزراعة كانا عضوين في مجلس الجهاد الأعلى لمصر الفتاة هما جلال عنبر وزكى صالح ، ولما كان هذا المجلس هو الهيئة العليا لإدارة الحزب، فكان لانتقال عضوين منه الى دعوة الإخوان المسلمين رجة عنيفة في أوساط مصر الفتاة ، اضطر الحزب معها إلى موالة اجتماعاته لبحث الأمر ، وكلف المجلس الأعلى أحد أعضائه وكان

طالباً مرموقاً في كلية الحقوق اسمه حمادة الناحل بالاتصال بهذين المصوتين وإقناعهما بالرجوع ،
واتصل بهما فعلاً ودارت بينه وبينهما مناقشات ثم استدعاهما المجلس الأعلى مجتمعاً للمناقشة .

ولقد كنت في مناقشات مع شباب مصر الفتاة بالذات رفيقاً غاية الرفق ، لأني كنت أرى
فيهم مثلاً عظيمة غير أنهم في حاجة إلى قليل من التوجيه ، ولذا فقد كنت - حين أخبرني الإخوان
الكريم أن المجلس الأعلى قد حدد لها جلسة لمناقشتها - قلت لها إننا لا نرى مانعاً من أن تكونا
معهم ومعنا فنحن نرى أنفسنا مكملين لما في مصر الفتاة من نقص ... ولكن .. لما كانت مصر
الفتاة في ذلك الوقت في أزهى أيامها ، وفي عنفوان قوتها ، عز عليها أن تقبل بهذا الوضع وقالوا
لها : من لم يكن لنا وحدنا كان علينا .

ومنذ هذه الحادثة بدأت مصر الفتاة ترى في الإخوان المسلمين لأول مرة - على حداثة عهدهم
بالجامعة - منافساً قوياً ومزاحماً خطيراً لا تسهل مهاجمته ، إذ ليس له عورات يهاجم منها ...
ويجدر بي هنا أن أكرر أن تنافسنا مع مصر الفتاة كان تنافساً من نوع كريم ، تنافساً بين
نبلاء ، فصر الفتاة كانت في تنافسها معنا أكرم من أن تلجأ إلى أساليب الكذب والافتراء التي
تستبيحها الأحزاب التقليدية ، لأن أعضاء مصر الفتاة كان أكثرهم من صفوة الشباب وخلاصة
الامة ... ومن الطريف أن أورد هنا بيتين من قصيدة نشرت في ذلك الوقت في مجلة النذير للأخ
الكريم جلال عنبر - وكان شاعراً عذب الشعر - نلخص فيها ما انتهى إليه موقفه فقال :

إن هذا الفتى الذي كان يدعو ————— مصر فوق الجميع طول الزمان

طلق اليوم مبدأ «المجـــــــهد للنـــــــيل» فناء في مبدأ الإخوان

نبل ، وتحرك من جهة إلى جهة على أساس مبادئ وأهداف بعضها أنبل من بعض ، ليس فيها أهواء
ولا جرى وراء منافع مادية .

كانت مهاجمتهم للإخوان مهاجمة بالعمل الإيجابي ، الذي تراه لهم أنه العمل الذي سيتفوقون
به على الإخوان في ميدان الأعمال ، والعمل الذي سيشد الأنظار إليهم ، وسيفتح الشباب بأنهم أحق
أن يلتفت حولهم ، ويظهر الإخوان بمظهر المتقاعدين المتخاذلين

تحطيم الحمارات

في صباح يوم من الأيام قرأنا في الصحف أن جماعات من مصر الفتاة هاجمت عدداً من
الحانات في القاهرة وحطمت واجهاتها وبعض محتوياتها ، وقد تم القبض على عدد من الجناة ويجري
التحقيق معهم .

وفهمت في الحال أننا المقصودون بهذا العمل ، وأيد ذلك حين انتظمنا في الدراسة في ذلك اليوم أن انطلق طلبة مصر الفتاة يفخرون بهذا العمل الإيجابي ، ويتبنون به على الجميع ويتوجهون بهذا التيه إلى الإخوان ، بل ويفصحون عن ذلك صراحة في حديثهم مع الطالبة الآخرين ...

ولما كان هذا الإجراء وهذا التحدى موجهاً إلى الإخوان بعامة وإلى إخوان كلية الزراعة بخاصة ، فقد رأيتني في موقف يقتضي أن لا أؤف مكتوف اليدين أمام التحدى لاسيما أن طلبة الكلية أحسوا بهذا التحدى وأخذوا ينتظرون منا رداً عليه، ورأيت أن الرد الشفوي في هذا الصدد لا يجدي لسببين : أحدهما : أن من غير المستطاع جمع الطلبة جميعاً في مكان واحد ليستمعوا، والآخر : لأن الرد الشفوي تصاحبه عادة حالات انفعالية تجعل من العسير على المتكلم جمع أطراف الموضوع والإحاطة به من جميع نواحيه ... وكانت مجلة النذير في هذه الأيام قد انتشرت وذاع صيتها في أوساط طلبة الكلية فرأيت أن يكون ردى مقالاً على صفحات النذير ليكون إنشاعاً لإخواننا وزملائنا بالكلية ولجميع الكليات ولتختلف الطوائف في القاهرة وفي أنحاء البلاد .

وكان المقال على ما أذكر بعنوان «تحطيم الخمارات» وملخص ما جاء بالمقال هو أن الدعوة الإسلامية باعتبارها دعوة الخلود فإنها لا تعتمد في خطواتها على الارتجال أو الظفوة ، وإنما تعتمد على أساليب رصينة تتمشى مع العقل وتخضع للنواميس الكونية ... فرسول الله صلى الله عليه وسلم دعا أول ما دعا إلى الوحدانية ونهى عن عبادة الأصنام ، ومع ذلك ظل في مكة ثلاثة عشر عاماً يصلى هو ومن معه من المسلمين في الكعبة والأصنام منصوبة فوقها يعبدوها المشركون ، لم يفكر هو ومن معه من المسلمين في تحطيم واحد منها ، ثم هاجر إلى المدينة مكرهاً ، وظل بها عدداً من السنين يدعو الناس إلى الإسلام حتى التف حوله الناس ، واشتد أزره ، وقوى ساعده ، ورأى في نفسه وفي أتباعه الكفاءة لملاقاة المشركين بمكة ، فاتجه إليها فاتحاً بعد ثمان سنوات من الهجرة ، وانتصر واستسلمت مكة بمن فيها دون قتال، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرم وأمر بتحطيم الأصنام فأنزلت من فوق الكعبة وحطمت واحداً واحداً وهو يقول «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» تحت سمع حماها وبصرهم دون أن يحركوا ساكناً أو يرفعوا بذلك رأساً ، ودخل الجميع الإسلام دون حرب ولا دماء ... ولم تعد الأصنام إلى الأبد .

لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كبر عليه أن تعبد الأصنام وهو يصلى في الكعبة وحاول تحطيمها في أول دعوته ، ماذا عسى أن يكون قد حدث له ولدعوته ؟ ... إنه كان سيقتل هو ومن معه وتقتل معه دعوته وهى في مهدها . ولما كان هناك في التاريخ دعوة للإسلام ...

ثم أشرت إلى أن هذا الإجراء من تحطيم للحانات وما أشبهه ليس مما يحجز الإخوان ، فإن عدداً قليلاً من قطاع الطرق يستطيعون أن يقوموا به .. ثم ما النتيجة من هذا العمل ؟ هل حرمت الخمر في مصر ؟ هل أغلقت الحانات ؟ ... كل ما كان من نتائج هي أن الخمر استمرت كما هي مباحة ، ولم تغلق الحانات ، أما الحانات التي حطمت فقد عوضتها الحكومة من جيوبنا نحن المصريين بأصناف قيمة ما تحطم من واجهاتها ومحتوياتها فجددت تجديداً زاد من عدد روادها .. ثم أتى عدد من الشباب الطاهر البرئ الذي لم يحسن توجيهه في السجون .. هذا عمل كالطبل الأجوف صوت ضخم يلفت الأنظار ثم تلتفت فلا ترى وراءه شيئاً .

ووزعت «النذير» في هذا الأسبوع توزيعاً واسعاً فالكل متلهف على معرفة موقفنا من التحدي فيقدر ما روجت مصر الفتاة لعملها هذا ووسعت من دائرة الفخر به انتشرت «النذير» .. كان لهذا المقال أثر كبير في أوساط الشباب ، وكان صدمة لمصر الفتاة ، ألجم دعايتها ، وأفهم المتفاجئين من رجالها بل جعلهم يتوارون خجلاً ... وبدأ الإخوان في الكليات يرفعون رموسهم ويتواون مكانهم ، ويواصلون مكاسبهم من المتسبين لمصر الفتاة وغيرها .

وكان الذي فاجأ الناس أن قرأوا خطاباً موجهاً من المرشد العام إلى وزير العدل يطالبه فيه بالإفراج عن المقبوض عليهم في هذا الحادث لنيل مقصدهم ، ويحثه فيه على إصدار القوانين التي تظهر البلاد من المنكرات التي تثير النفوس المؤمنة وتخرج الصدور .

نحن والأحزاب التقليدية

لم تكن الأحزاب التقليدية حتى ذلك الوقت تقيم للإخوان وزناً ، لأنها أولاً كانت تعتقد أن السلطة أو الحكم إنما هو دولة بينهم ، يتبادلونه واحداً بعد الآخر ، وأن كائناً من كان مهماً قال ومهما فعل ، ما دام لم ينافهم السلطة والحكم فإنه لا يعنهم أمره . وثانياً لأن رجال هذه الأحزاب لم يكونوا يفهمون الإسلام على أنه دين ودولة ... إلا أن حدثين حدثا في تلك الأثناء أرغما هذه الأحزاب على أن تستفيق من غرور السلطة ، وتهبط من علياء بروجها العاجية ، بعد أن أحسوا ببوادر زلزال على الأرض هز بروجهم العاجية هزاً .

أولها : الصبغة الجديدة : فإن كبار رجال هذه الأحزاب في الريف بدأوا يرون ظاهرة جديدة ، تلك أن أشخاصاً . وإن كانوا قلة - ممن كانوا يصطبغون بصبغتهم الحزبية ، بدأوا يرونهم يطرحون هذه الصبغة بحجة أنهم إخوان مسلمون . وكان المعبود حتى ذلك الوقت أن الذي يطرح صبغة حزب من الأحزاب لا يطرحها إلا ليصطبغ بصبغة حزب آخر يتوسم فيه زيادة انتفاع يعود عليه ... أما أطراح الحزبية عامة بدعوى أن الشخص من الإخوان المسلمين فإنها بدعة جديدة تستحق النظر !!

ثانيها : أول مظاهرة إسلامية بالجامعة : بدأت هذه الأحزاب تشعر بشئ من الضيق حين رأت هذه «الجمعية» أخذت تزحف نحو العاصمة «القاهرة» وتتشعب فيها أى تكون لها شعباً ، مع أن القاهرة كانت تعتبر لهذه الأحزاب حرماً آمناً .. كيف لا وهى مقر الحكام ، ومتربى الحكم ، ومقر دور الأحزاب التى كانت كعبة القاصدين من أنحاء البلاد .

يضاف إلى ذلك أن هذه الأحزاب فوجئت فى يوم من أوائل أيام تلك السنة (١٩٣٨) بمظاهرة تخرج من الجامعة المصرية تضم أكثر من أربعة آلاف طالب ، تجوب شوارع الجيزة ، وتخترق شوارع القاهرة ، وتقطع شارع النيل حتى تصل إلى مقر الأمير محمد على ولي العهد ، والمظاهرة تهتف مطالبة بالحكم بالشريعة الإسلامية ... نعم إنها كانت بمناسبة الاحتجاج على الكتابين اللذين قررا على طلبة قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب وفيها تهجم وسباب للنبي صلى الله عليه وسلم مما قد تبسط الكلام عنه فيما بعد إن شاء الله ... إلا أنها كانت مظاهرة إسلامية تدعو إلى الحكم بكتاب الله وبالشريعة الإسلامية .. نعمة جديدة ... ويطل عليها الأمير محمد على ويأدوها التحيات والعواطف ويعد بالعمل على إجابة مطالبها ... مثل هذه المظاهرة لم يكن يستطيع تسييرها ولا تدبيرها إلا حزب واحد فقط بعد إعداد كبير بل وبذل مادى سخى ذلك هو حزب الوفد .

كما أن حزب الوفد—بعد أن حلت فرق «القمصان الزرقاء» التى كان قد أنشأها—رأى هذه «الجمعية» فرقاً من القمصان الكاكي وإن كانت تسمى كشافة أو جواله إلا أنها فرق لا تختلف عن فرقته التى حلت إلا فى لون القمصان وهذه الفرق فى نمو مستمر .

إن هذه «الجمعية» تستحق أن يحسب لها حساب ، وتستحق أن ينظر إليها بعين الرية ، وتستحق أن تعد العدة لمقاومتها ، ووقفها عند حد ، أو إزالتها من الوجود .

لم يشهم عن هذا العزم أن الأستاذ المرشد كان يقول فى محاضرات الثلاثاء : إننا لسنا طلاب حكم وإنما نحن نطالب بالحكم بالشريعة الإسلامية ، من حكم بها من الحكام فإننا مستعدون أن نغسل على قدميه ... كما لم يشهم أننا كنا فى الأقاليم نזור ممثلهم ، ونصل حبال الود معهم ، ونعاون معهم على النهوض بأحوال البلاد من مواساة الفقراء والمساكين .

بدأوا خطتهم فى مهاجمة الدعوة بنشر آراء فاسدة عنى عليها الزمن واندثرت فيما اندثر من أباطيل فإذا بنا نقرأ فى جريدة البلاغ وكانت جريدة حزب الوفد المسائية وكانت واسعة الانتشار مقالة عن كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعل عبد الرازق تشيد فيه بمهاجمة صاحب الكتاب لفكرة أن الإسلام دين ودولة ... وقد لفت نظر الأستاذ المرشد إلى هذا المقال وعرضت عليه أن أكتب رداً عليه فأذن لى وكتبت الرد وطلبت إلى الجريدة نشره فى نفس المكان كما يقضى بذلك قانون المطبوعات واضطرت الجريدة لنشره .

محاوالتهم الايقاع بين الاخوان والحكومة

أبذت صحفهم تحاول إبراز جولة الإخوان على أنها نظام عسكري ، والقانون يحرم على الهيئات الشعبية أن يكون لها نظام عسكري ، فيجب أن تلقى كما ألغيت فرق القمصان الزرقاء وفرق القمصان الخضراء ... وتقدم أحد محرري جريدة المصري - التي كانت في أوائل أيامها وكانت لسان حال حزب الوفد - إلى الأستاذ المرشد بأسئلة وجهها إليه في هذا الشأن وطلب منه الإجابة عليها .. وقد اعتقدوا أنهم بذلك قد أخرجوه وأنه سيتهرب من الإجابة .. فإذا به يجيب إجابة تخطت جرائها وثبات الظنون

وظهرت «المصري» في اليوم التالي بعنوان بالخط العريض يملأ أعلى الصفحة الوسطى يقول : «المرشد العام للإخوان المسلمين يقول : نعم أنا أدعو إلى تسليح الجيش المصري وإلى تسليح الشعب» (في خلال تلك الأيام كان مجرد الحديث عن التسليح يعد جريمة لأن الجيش المصري نفسه كان محدد العدد وكان تحت رحمة لجنة عسكرية انجليزية) وفي تفاصيل الإجابات يقول : إن فرق الإخوان ليست فرقاً عسكرية وإنما هي فرق جولة مسجلة في جمعية الكشافة الأهلية ، وليس معنى ذلك أنني راض عن هذا الوضع الذي ألزمتنا به قوانين البلاد بل إنني أرى من الواجب أن يكون جيشنا جيشاً قوياً ، وأن يسلم أعظم تسليح ، وأن تنشر الروح العسكرية في الشعب وأن يسلم هذا الشعب حتى يستطيع أن يحرر بلاده من الاستعمار .

فرحت الأحزاب بهذه التصريحات الخطيرة التي خيل إليهم أنهم استطاعوا أن يجروا الأستاذ المرشد إلى الإدلاء بها حتى يحقق معه ويحال إلى المحاكمة وتلقى جمعيته باعتبارها خارجة على القانون. وطلب الأستاذ المرشد للمثول أمام رئيس نيابة في القاهرة كان معروفاً عنه أنه يحب الإنجليز وقد أخبرني الأستاذ المرشد بذلك حين تسلم إعلان النيابة وقال لي : إنني كنت أهدف من حديثي في جريدة المصري إلى أن أطلب التحقيق معي ، ويبدو أنهم اختاروا هذا الرجل بالذات لما يعرفون عن ميوله الإنجليزية .

ومثل الأستاذ المرشد أمام الأستاذ رفقي رئيس النيابة وفتح محضر التحقيق وظل رئيس النيابة يسأل والأستاذ يجيب ويفيض في الإجابة ويتعب الرجل فأجل التحقيق إلى اليوم الثاني واستغرق التحقيق عدة أيام وماذا أكثر من مائة صفحة ، وقد انتهز الأستاذ المرشد فرصة التحقيق وأخذ يشرح دعوة الإخوان كما أبدى رأيه في مختلف مرافق الدولة ، وكيفية إصلاحها ، فهو مهاجم الوضع ويشفع هجومه بالوسائل التي يمكن أن يصلح بها . وكان المحقق حريصاً على أن يحصل

من الاستاذ المرشد على اعراف بما جاء على لسانه بجريدة المصرى فيما يختص بالناحية العسكرية والتسليح فاعترف الأستاذ بكل كلمة نشرت وزاد على ذلك أنه يحمل الحكومة تبعة التقصير في حق الجيش وفي حق الشعب لأنها لا تعمل على نشر الروح العسكرية والتسليح ذلك، لأن الإسلام يدعو إلى القوة والحرية .

وانتهى التحقيق وكانت الأحزاب تنتظر انتهاء بفارغ الصبر، ليروا الأستاذ المرشد مكبلاً بالأغلال مقدماً إلى المحاكمة ، وكنا نحن الإخوان لا نقل عنهم اشتياقاً إلى هذا الموقف ... وقد طلب الأستاذ المرشد من المحقق عند انتهاء التحقيق أن يأذن له بنسخة من أوراق التحقيق بحجة احتياجه إليها للدفاع عن نفسه أمام المحكمة فرفض المحقق .. وكان الدافع الحقيقى لطلب الأستاذ نسخة من التحقيق هو أنه كان يرى أن هذا التحقيق هو إحدى الوثائق الرائعة لنشر الدعوة والإقناع بها ، وأذكر أننا حاولنا بعد ذلك الحصول على هذه النسخة بطريقة غير رسمية .

وكانت المفاجأة لنا وللأحزاب أن صدر قرار بحفظ التحقيق ، وهو ما لم يكن متوقفاً ، وكان أسفنا لذلك لا يقل عن أسف الأحزاب . وكل يغنى على ليله - وطبعاً لم يكن الموعد بالحفظ هو الحكومة ، وإنما كان الإنجليز لأنهم رأوا في إثارة ماجاء بالتحقيق تنبيها للشعب وإيقاظاً لآماله .

مؤامرة لاغتيال المرشد العام

سأورد هذه المؤامرة كما حدثت وقائعها بين يدي وتحت سمعى وبصرى ، ولكننى لا أستطيع أن أجزم حتى اليوم هل كان تدبيرها والدافع إليها فردياً وشخصياً أم أن ذلك كان بإيعاز من الحزب نفسه ...

كنت ومجموعة كبيرة من طلبة الإخوان ندرس في الجيزة ونسكن فيها ، وكانت الجيزة في ذلك الوقت - كغيرها من البلدان المصرية - مدينة ليست بالشاسعة الأرجاء ، وليست مكتظة بالسكان . وهى باعتبارها عاصمة إقليم زراعى ويفى فهمى مدينة ريفية، ولكن ينساب إليها التيار الحضرى باعتبارها صاحبة من ضواحي القاهرة ... ومع أن الإخوان لم يكونوا بعد قد أنشأوا لهم شعبة يجتمعون فيها إلا أنها كانت نقطة ارتكاز للدعوة لا يستهان بها ؛ حيث كانت مساكن الإخوان الطلبة فيها شعباً بعدد هذه المساكن، وكان إخوان القاهرة يعرفون هذه المساكن ويفدون إليها للزيارة ولناقشة موضوعات هم الدعوة .

وكان لحزب الوفد شخصية قوية في الجيزة ممثلة في محام شرعى شهير يدعى ع.ب. وهو من

أهالي الجيزة وله منزل فخيم بها أشبه بالقصر يطل على الشارع العمومي المؤدى إلى الهرم ، وكان من ذوي الإملاك وعضواً بمجلس النواب وعضواً بالهيئة الوفدية ومن أكبر أعيان الجيزة . وكانت مناصب الشيخ وأهله ، وما كان يحيط به نفسه من مظاهر الثراء ؛ وفي مقدمتها كثرة العاملين في خدمته ، والمروجين له ؛ جعلته في نظر الناس شيئاً آخر غير عمله الرسمي . ولم يكن الإخوان باعتبارهم أصحاب دعوة - يرون في إنسان الخير الذي لا شرمعه كما لا يرون في إنسان الشر الذي لا خير معه ، ولذا فإنهم كانوا يتقدمون بدعوتهم إلى كل إنسان ؛ فإذا كان هذا الإنسان شيخاً وأزهرياً ومعمماً كان أجدر أن يتقدموا إليه لاسيما وأهل الجيزة الأصلليون الذين يعيشون فيها كباراً عن كبار قليلون ، والقليل من هؤلاء مثقفون ، والدعوة تنوحي الظفر بمثقفين حيث يكونون عادة أعمق فهماً ، وأوسع أفقاً ، وأقدر على إقناع غيرهم بما اقتنعوا به .

والدعوة موجودة بالجيزة منذ التحقنا بالكليات واتخذنا الجيزة سكناً لنا ، ومضى على ذلك سنتان وهذه هي السنة الثالثة ، ولكن لم يخطر ببالنا أن نتصل بهذا الشيخ وهو نائب المدينة وأبرز شخصياتها ، كما لم يخطر ببال الشيخ ونحن على قيد خطوات منه أن يتصل بنا ... ولكن شيئاً جد في الأمر جعل الشيخ يبحث عنا ، ويتقرب إلينا ، ويفسح لنا من وقته الثمين وداره الفارحة ... إن هذا الشيء الذي جد إنما هو المؤتمرات الإخوانية وما أسفرت عنه مما أحنأنا إليه ، وتصريحات الأستاذ المرشد في جريدة المصري وما أحاط بها من ظروف ، وقد كان من أثر هذه المؤتمرات والتصريحات أن دعمت مركز الإخوان وفتحت للدعوة أبواباً كانت مغلقة انسابت منها إلى أوساط جديدة لم تكن نعرف عنها شيئاً .

التقى بي عدد من زملائي الطلبة القاطنين بالجيزة وقالوا لي : إن الشيخ ع.ب. دعاهم إلى مكتبه في منزله وعرض عليهم تكوين شعبة للإخوان بالجيزة ... وحين طرق سمي هذا النبأ سرحت بخاطري في أجواء متناقضة عشتها ؛ منها جو «الولد» وجو «الإخوان» وجو «مؤتمر المنصورة» وجو هذا الشعب الطيب الفقير الغافل ، وجو «الذئاب والشياطين» التي تلبس مسوح الهررة والملائكة متحلية أمام هذا الشعب الطيب بما يصفيه عليها المنصب والثراء من حل تأخذ بالآبصار .

كيف يكون هذا ؟ الولد يصب في الأقاليم جام غضبه على القلة القليلة من الإخوان الذين كانوا أعضاء في الوفد ثم أعلنوا تجردهم لدعوة الإخوان ، والولد الذي يتأمر عن طريق جريدته «المصري» ليوقع بين الإخوان والحكومة إيقاعاً لا يؤدي إلا إلى نسف الدعوة نفسها لولا لطف الله وحياطته لدعوته ..

كيف يستقيم هذا مع تقدم الشيخ نائب الجيزة وعضو الهيئة الوفدية إلى الإخوان فجأة
يقترح عليهم تكوين شعبة للإخوان بالجيزة ، ويقول له الإخوان : إذن نبحث عن مكان
للشعبة فيقول : لا داعي للبحث ، تنشأ هنا في منزلي ؟!!!... لقد أحسست أن وراء الأمر
شيئاً مريباً ... ولكنى لم أهد للإخوان شيئاً مما دار في خاطري ، وعزمت على لقاء الرجل والاستماع
إليه ، وملاحظة ما يدور حوله ... وقابلت الرجل ووجدت منه استعداداً كبيراً بل تهاوتاً على
إنشاء الشعبة ، واحتضانها ، والتكفل بكل ما يلزم من نفقات ... وأحضر لافتة كتب عليها
اسم الشعبة ، وعلقها على الدور الأرضي من منزله ، وجعل الاجتماعات في مكتبه ، وقد واطبت
على هذه الاجتماعات فترة من الزمن ألمت فيها بالكثير مما كنت حريصاً على الإمام به ، مما ضاعف
ماني نفسى من شكوك .

وكلفت مجموعة من الإخوان المتربين بالتعرف على اتجاهات المجتمعات بالنسبة للإخوان ؛
وهي مجموعة متخصصة لها القدرة على التكيف بمجو الهيئة المطلوب معرفة اتجاهها تكييفاً يشعر
المستولين بهذه الهيئة أنهم أخلص العاملين لها ؛ وبذلك يفشون الجلسات المضروب حولها
نطاق السرية ، ويظهرون بذلك على أدق أسرارها .

وقد أكد لي هؤلاء ما كان يتردد في نفسى من شكوك ؛ وأخبروني أن الشيخ ورجاله
سيقيمون للأستاذ المرشد حفلاً كبيراً بمناسبة لا أذكرها الآن - لعلها كانت المولد أو الهجرة
أو الإسراء ، وأنهم سيحاولون في خلال هذا الحفل إحداث شغب وفي غرة هذا الشغب يفتالون
الأستاذ المرشد .

وفعلا طلب الشيخ أن يقام حفل كبير لهذه المناسبة وأصر على دعوة الأستاذ المرشد إليه
متكفلاً هو بكل نفقات الحفل ، وما كان الإخوان ليرفضوا عرضاً كهذا ، وحدد الموعد ،
ووجهت الدعوات لحضور أهل الجيزة ، ووجهت الدعوة إلى الأستاذ المرشد .

وأرست قواعد سرادق فخم كبير ، ولم يبق على ليلة الحفل إلا ليلة واحدة ، ولم أكن
قد قابلت الأستاذ المرشد في خلال الأسبوع السابق لانشغالي بالجيزة ، وبما يعده الناس الطيبون
من أمور في الخفاء والله يكتب ما يبيتون ... ذهبت إلى المركز العام في تلك الليلة وقابلت الأستاذ
المرشد على انفراد وطلبت إليه أن لا يحضر هذا الحفل ، وألححت عليه في ذلك ، فتعجب وسألني
عن السبب ، فقلت له : لا داعي لمعرفة السبب ولكنى أرجو منك بحق الدعوة عليك أن لا تحضر
هذا الحفل ؛ فأصر على حضوره ما لم يعرف السبب فقلت له : إن القوم وضعوا خطة لاغتيالك

ولصصت عليه القصة ... فضحك وقال لى يا محمود أخاف الموت ؟.. كيف نخاف الموت ونحن نعلم الناس أن لا يخافوا الموت ؟ والله لأحضرن إن شاء الله هذا الحفل .. وأظنى بكيت حينئذ وتركته .

تركته وسارعت بالاجتماع مع مجموعة من الإخوان المسئولين من الجيزة والقاهرة ، وأخبرتهم بما كان بينى وبين الأستاذ وقلت لهم لابد إذن من وضع خطة محكمة ، فنحن نعرف الأشخاص الذين وكل إليهم تنفيذ المؤامرة ونعرف مهمة كل منهم ... ووضعت الخطة وهى تلخص فى قيام جواله الإخوان بإحكام الرقابة على تنظيم الحفل .

وبدأ الحفل ، وانتظر المدبرون أن يحدث شئ مما يتوهم ولكن شيئاً لم يحدث ، ورأوا بأعينهم وجاهلهم الذين أعدوهم للقيام بأدوارهم ثابتين على مقاعدهم كأنما سمروا عليها ، وكأنما خيطت شفاههم أو سدت أفواههم ، ولا يستطيعون حتى أن يتلفتوا يمينا ولا شمالا فأحسوا بفشلهم ، وشعروا بأن الإخوان قد كشفوا مخططهم فلم يستطع الشيخ بعد هذا الفشل إلا أن يحاول الفص من قدر الأستاذ المرشد بأن قدم قبله عدداً كبيراً من زملائه وأصدقائه ممن يعتقد أنهم من قوة البيان والقدرة الخطابية بحيث لا يكون للأستاذ المرشد بعدهم قيمة ، ثم إنه عمل على أن يشغل الوقت بهذا العدد الكبير من الخطباء بحيث يستنزفون يقظة الحاضرين ؛ فلا يجد الأستاذ إذا قام بعدهم استعداداً لسماعه ، أو انتباهاً لكلامه ، بل إنه اعتقد أنهم لتأخر الوقت الذى يحين فيه دوره سيكون أكثر الحاضرين قد سئموا الاستماع وسيخرجون ويتركونه .

ونفذت هذه الخطة الجديدة بمهارة ، وكثر الخطباء وتعددوا ، وأطالوا قاصدين وأملوا وأسأموا ، وأخذ الكرى بمجامع الأجفان ، وترنح الجالسون نائمين على مقاعدهم ، حتى إذا ما تحقق للشيخ ما أراد وقد قارب الليل على الانتصاف قدم الأستاذ المرشد ؛ فوقف وحمد الله وأثنى عليه ثم نزع ببنتين أو ثلاثة أبيات من الشعر القديم وما كاد ينتهى من البيت الثالث حتى رقصت مشاعر الحاضرين ولا أكاد أذكر من هذه الأبيات الآن إلا شطرة من بيت تقول «لأنت اليوم أحسن منك أمس» ، لعبت هذه الأبيات حين ألقاها بقلوب النائمين فاستيقظت طرباً ، وكأنما استيقظوا على حلم جميل .

وظل الأستاذ يهدر من قلب مغمم متأجج ، يقذف بشآبيب من نور تشق طريقها إلى ظلمات النفوس فتبدها ، وكأنما يتلقى من عل أنوار السماء ، ويلقى بها على الناس فيحس الناس أنهم ارتفعوا من فوق الأرض حتى حلقوا فى السماء ؛ ونار كذلك ساعة وأكثر من ساعة ، وتكبير

الناس قد بلغ عنان السماء ، حتى إذا ختم كلمته . قام الناس مقبلين عليه ، ولقد رأيت شاباً في ربيع العمر من أهل الجزيرة يقول له : أنت حسن البنا أقسم بالله إنك لست حسن البنا ، إنما أنت ملك .

وهكذا انتهت الليلة «ينصر الله . ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً »

وبدا الشيخ منذ ذلك اليوم يتراجع في حماسه المصطنع للإخوان ، ويتملص وينسحب حتى رجع إلى حقيقته ورفعت اللاتعة التي كان يعلم الله ماذا يقصد من ورائها ، واكتسبت الدعوة عن طريق هذا الرجل ، ورغم أنفه ، خلقاً كثيرين ، ما كانوا ليتصلوا بالدعوة لولا ما كان من أمره . وإن الله- كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم- لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر «والله من ورائهم محيط» .

نحن والهيات الدينية

يمكن حصر الهيات الدينية في مصر في ثلاث فئات : الصوفية والسنية والخيرية . وحديثنا بما يتصل بالموضوع الذي نعالجه سيكون مقصوراً على الفئتين الأوليين دون الثالثة لأن هذه بطبيعتها لا تقوم على أساس تصور معين للفكرة الإسلامية ، ثم إن أعمالها التي قامت من أجلها كانت مستوعبة ضمن أعمال شعب الإخوان في كل مكان .

كانت أولى خصائص دعوة الإخوان منذ أول يوم وستظل كذلك بإذن الله «البعد عن مواطن الخلاف» وغير توضيح لهذه الخصيصة ما ضمنه الأستاذ المرشد خطابه الجامع في المؤتمر الخامس حيث قال :

«فأما البعد عن مواطن الخلاف الفقهي ؛ فلأن الإخوان يعتقدون أن الخلاف في الفرعيات أمر ضروري ، لا بد منه ، إذ أن أصول الإسلام آيات وأحاديث وأعمال تختلف في فهمها وتصورها العقول والأفهام. لهذا كان الخلاف واقعاً بين الصحابة أنفسهم ، وما زال كذلك وسيظل إلى يوم القيامة ؛ وما أحكم الإمام مالك رضي الله عنه حين قال لأبي جعفر المنصور وقد أراد أن يحمل الناس على الموطأ : إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في الأمصار ،

وعند كل قوم علم ، فإذا حملهم على رأى واحد تكون فتنة (. وليس العيب في الخلاف ولكن العيب في التعصب للرأى ، والحجر على عقول الناس وآدائهم - هذه النظرة إلى الأمور الخلافية جمعت القلوب المتفرقة على الفكرة الواحدة ، وحسب الناس أن يجتمعوا (على ما يصير به المسلم مسلماً) . كما قال زيد رضى الله عنه . وكانت هذه النظرة ضرورية لجماعة يريدون أن ينشروا فكرتهم في بلد لم تبدأ بعد فيه ثائرة الخلاف على أمور لا معنى للجدل ولا للخلاف فيها » .

ومقتضى هذه النظرة أن ندعو المسلمين إلى مالا خلاف عليه ونُدع جانباً ما فيه خلاف ، ولكن هذه النظرة وإن لقيت الاستجابة والترحيب من أكثر الناس إلا أنها قوبلت باعتراض ومقاومة من أقوام من الفتنين المشار إليهما آنفاً .

أولاً : الصوفية

الأصل في الصوفية أخذ النفس بأسلوب يطهرها من أدوائها ويزكها ويصقلها فيرق بها في مدارج الكمال الإنساني حتى يكون المسلم أداة نافعة لنفسه ولذويه والمجتمع ؛ وعلى هذه الأسس الرفيعة نشأت فكرة الصوفية وهى فكرة يقرها الإسلام ويعمل لنشرها ويبحث عليها ؛ لأنها بهذا الأسلوب أساس لكل إصلاح ، ودعامة لكل نهضة ، وضمان لكل نجاح .

ولا بأس أن يتصدى لتربية النفوس بهذا الأسلوب رجال أوتوا مقدرة على التربية والتوجيه ، ومن هنا نشأت مدارس أو باللفظ الاصطلاحي نشأت طرق صوفية لكل طريقة شيخ ومريدون أو تلاميذ :

وكلهم من رسول الله ملتزم غرقاً من البحر أو رشفاً من الدميم

ونحن-الإخوان المسلمين - نعتبر أسلوب التربية الروحية أساس دعوتنا لأن تكوين الفرد المسلم متوقف على الأخذ بأكبر نصيب من هذا الأسلوب مع مداومة الأخذ به ، واللجوء إليه ، والاستعداد من فيضه .

ولكن ليس معنى ذلك أن ينقطع المسلم لهذا الأسلوب ، وينزل عن المجتمع لايالى ماينال هذا المجتمع من خير ومايصيبه من مصائب .. وليس معنى ذلك أن يتخذ هذا الأسلوب وسيلة للارتزاق وجمع المال ، والتسلط على الناس ، وكسب الصيت والشهرة .

وما يؤسف له أن بعض مشايخ الطرق قد انحرفوا باتباعهم عن الطريق السوى واتخذوا طرقهم وسائل لألوان من هذه الأغراض المادية المشوهة لسمة الصوفية والدين نفسه ، ومنهم من أراد أن ينزل بمريديه عن المجتمع .

وهذان النوعان من الإنحراف - مع أنهما طرفاً نقيض هما اللذان اعتبر صاطريتنا في الدعوة وراحا يعلنان الحرب علينا مادمننا لا نفرهما ولا نرضى سبيلهما سبيلاً ؛ أما دعاة العزلة فقد أحسوا بأن تيار العمل الإسلامي الإيجابي قد استدرج عدداً كبيراً من أنصارهم الذين كانوا يعتقدون أن العزلة هي السبيل الأقوم لتحقيق ثواب الله ورضاه ؛ فلما عرضت عليهم الفكرة الإسلامية بشموها وإحاطتها بكل شيء عرفوا أنهم لم يكونوا على شيء في انتهاجهم سبيل العزلة ، فخرجوا من عزلتهم ، وساروا مع الركب حتى صاروا في المقدمة .

وأما الآخرون من المشايخ الذين اتخذوا الصوفية مرتزقاً ، ووسيلة إلى الكسب المادى ، وسبيلاً إلى استغلال جهل المسلمين وسذاجتهم فهؤلاء مفسدون في الأرض وكان لنا معهم دور ؛ حيث كان انتشار الدعوة في مكان بمثابة إعلان حرب على هؤلاء ، فالدعوة بطبيعتها تثقف معتقها وتوسع مداركه وتعطيه مقياساً يقيس به الأمور فيعرف به الخير والشر ويعرف به الحق والباطل. ويعتبر هؤلاء المشايخ تفتيح أذهان الناس وننوير عقولهم إعلان حرب عليهم ... وهؤلاء المشايخ يجدون الطريق أمامهم مهدياً في الأرياف والأقاليم حيث السذاجة وطيبة القلب وحسن الظن والأمية والجهل ؛ وسأعرض بين يدي القارئ مثالا واقعياً وكانت وقائعها معي شخصياً بين القاهرة ورشيد :

تعرف على هذا الشيخ ، ولا أدري كيف تعرف على ، فقد كنت في ذلك الوقت في القاهرة أغشى كل مكان واتصل بكل المجتمعات حتى المقاهى البلدية في أحشاء القاهرة لأعرض الدعوة على كل مجتمع بالأسلوب الذي يناسبه وكان الكثيرون من مختلف الأوساط يستجيبون للدعوة وكان ملتقاي معهم دور شعب الإخوان ودار المركز العام ، ولكن هذا الشيخ استجاب لي واختار أن يكون ملتقاي معه في البيت الذي أسكنه في الجزيرة ؛ فكان يزورني ويبيت عندي .

كان هذا «الشيخ» شاباً ، لا يكبرني إلا بسنوات قلائل ، وكان وسيماً يلبس ملابس المشايخ من القماش الأبيض الناصع من قبة رأسه إلى إخص قدمه ، وكان يدعى الشيخ (م.ف) من صان الحجر وكان متوقفاً الذهن ، مشتعل الذكاء وإن كان حظه من التعليم ضئيلاً ، وكان سريع الخطر المعياً ألوفاً كثيرة المعارف والأصدقاء ... وقد لاحظت أن أصدقاءه من طبقة الأغنياء المتعلمين ، وقد عرفني بعدد منهم في القاهرة والجزيرة .

وقد أثار عجبى أن أصدقاء هؤلاء أو قل مريديه يسكنون الشقق الفخمة والفلل الفارهة وعندهم الرياش والخدم ويعيشون في بذخ ، ويتمنى كل واحد منهم أن يكون الشيخ ضيفه الدائم ويلحون عليه أماى إلحاح الملتصق من بركانه ، ومع ذلك فقد كان يأبى الاستجابة لهم ، ويؤثرني

عليهم ، وهو يعلم أن سكنى ومعيشتى دون ذلك ، وأنه لن يجد الراحة عندى كما يجدها عندهم .

وكان مما سرى منه أنه كان حين يعرفنى بأحد هؤلاء ، يعرفه بى باعتبارى من الإخوان المسلمين ويفاخر بذلك ويثنى ويأخذ فى شرح الدعوة لهم ... كما كان يعجبى منه أنه لم يكن يربطنى بنفسه فى غدواته وروحاته . باعتباره ضيفاً عندى - بل كان يقوم من الصباح فلا أراه إلا بالليل ، اللهم إلا الساعات القلائل التى كان يصحبى فيها لتعريفى بأصدقائه هؤلاء الأثرياء .

وليس معنى أنه كان يلوذ بى أنه كان دائم الوجود عندى ، وإنما كان يلوذ بى فى فترات تردده على القاهرة فقد تردد عليها فى خلال تلك السنة نحو ثلاث مرات ، يمكث فى كل مرة نحو أسبوع ، وكان حين يعزم على السفر يقول إنه مسافر لحضور مولد سيدى كذا فى بلدة كذا .

وجاءت إجازة الصيف ، وسافرت إلى رشيد لقضاء فترة بها ، وبعد وصولى إليها بأيام وبينما أنا فى منزلنا جافى شاب لا أعرفه وقال إنه موفد من قبل الشيخ (م.ف). وقد أرسلنى إليك لأخبرك أنه حضر اليوم إلى رشيد وهو موجود الآن بقهوة كذا ويرجو أن يراك هناك . فقلت للشاب اذهب وأحضره معك إلى هنا ، فذهب ثم جاء يقول إن الشيخ يشكرك ويرجو أن يراك فى المقهى ... وذهبت إلى المقهى والتقيت به مرحباً وعاتبته على عدم إجابته دعوى إياه للمنزل فشكر .. ولاحظت أن أصحاب المقهى وروادها من العمال يحتفون بالشيخ .. ثم كانت المفاجأة

قال لى : أنعرف لماذا جئت بالذات إلى رشيد ؟.. قلت : لزيارة أخيك .. قال هذا أحد الواجبات لكن الذى جاء بى فى هذا الوقت بالذات وفجأة أننى رأيت فى المنام ؛ وقص على رؤيا ملخصها أن «سيدى على المحلى» المدفون فى أكبر مسجد فى رشيد - جاء فى المنام وعانبه على أنه لم يحىء له مولداً وحدد له يوم كذا موعداً للمولد - وهذا اليوم المحدد يوافق اليوم التالى لحضور الشيخ وانتهى من قصته وطلب إلى أن أعينه على هذه المهمة حتى يفى بوعده لولى...وهنا بدأ الخلاف - لأول مرة - بينى وبينه ، ونصحتنه بأن يعدل عن هذا العزم ، فرأيت منه إصراراً ، فرجوته بحق ما بينى وبينه من صداقة أن يعدل فرفض بإصرار ؛ فأخذت أشرح له أن هذا يتعارض مع اتجاهى ، وأن البلاد كثيرة ولا داعى لاختيار رشيد لأن فى هذا الإصرار تحدياً لى وهو مالا أنتظره منه ، فلم يخفف ذلك كله من إصراره .

فقلت له : إن معنى هذا أنك لن تجد منى المعونة التى تطلبها فقال : إنك إذا لم تعنى فأهل الخير غيرك كثير . فقلت له : إنك بإقامتك هذا المولد ستمتحن حرمة المسجد ، وستجعل منه ساحة للفجور حيث يجتمع حولك السفلة من الرجال والنساء والأطفال ممن لا يعرفون للمسجد حرمة

ولا يجتمعون إلا على اللهو واللعب والفسق والفجور ، وأنت في غنى عن أن تكون سبباً في ذلك فاتق الله واعدل عن عزمك .

لم يزد ذلك كله إلا تمسكاً برأيه وإصراراً على عزمه ، ويبدو أنه رأى في رواد هذا المقهى من الأميين والبسطاء عينة مشجعة

وافترقنا وتركته في المقهى ونحن على خلاف شديد بل على تناقض مؤلم . واستعدت الماضي ففهمت الغز الذي طالما حيرني حين كان يؤثرني بالمبيت عندي وافضاً لإجابة رجاء مريديه الأثرىء في المبيت عندهم ، وفهمت لماذا كان يشيد في وبدعوة الإخوان أمامهم ؛ لقد كان هذا طعماً ألقاه إلى ليصطادني به في الوقت المناسب ، ومقدمة لما يحدثني الآن بشأنه ... وأسفت أشد الأسف أن يجعل هذا «الشيخ» هدفه من تعرفه في أن يجعلني سلماً يتسلق عليه ليصل إلى رشيد ؛ المدينة الهادئة الوادعة التي لم يطررها «شيخ» من قبل ليستغلها باسم الدين ويقم لأحد من أوليائها مولداً ... ومعنى أن يقم شيخ في بلد من البلاد مولداً أنه أضاف إلى موارده السنوية مورداً جديداً مما سيجيبه من أهالي هذا البلد باسم المولد من فقرائها وأغنيائها وما سيقدمه السذج رجالا ونساء إلى الشيخ من قرايين لعلاج ما استعصى من مشاكلهم وأمراضهم !!

جمعت إخوان شعبة رشيد ، وشرحت لهم علاقتي بهذا الرجل ، وما كان بيني وبينه ، وما فاجأني به من عزمه على إقامة مولد برشيد، وبينت لهم خطورة السكوت على ذلك .. والإخوان حيث كانوا يفهمون فكرتهم وعلى ضوء هذه الفكرة يبدون رأيهم فيما يعرض لهم من أمور وتستجدهم جيماً دون اتصال فيما بينهم رأياً واحداً واتجاهاً واحداً ... واتفقنا على الوقوف في وجهه آخذين في اعتبارنا ذكاء هذا الشاب وقوة دهائه .

وبدأ الشيخ فأعد لنفسه مجلساً بالمسجد بجانب مقصورة الولي المدفون وسط المسجد . وعلق فوق مجلسه أنواراً ساطعة جعلت الليل نهاراً ، واتصل ببعض من جاءوا يتعرفون عليه من أهل البلد ممن بهرهم المنظر وطلب من كل منهم طلباً سارعوا إلى تلبيةه فبعضهم أرسل مئات الأرغفة ، وبعضهم أرسل إليه الشاي وبعضهم أرسل السكر وبعضهم أرسل إليه نقوداً .. ومد الرجل الموائد ، ونوافذ عليه حشالة الناس ممن لم يفشوا المساجد من قبل ... وأخذ الشيخ يشنع على الإخوان فيخرج من جيبه إحدى بطاقات الدعاية للدعوة كان قد حصل مني عليها من قبل وكان يعتز بها ولكنه الآن يعرضها ويقول للناس : انظروا : إنهم يقولون إن لهم مبادئ .. إذن هم حزب وليسوا دعوة دينية ... والتف حول الشيخ في هذه الليلة - وهي الأولى من سبع

ليال أعلن عنها - محبو السهر في المقاهى التى لا يجدون فيها من الفوضى والتهرج ما يجدونه هنا مما يبعث النشوة في نفوسهم ... وتوافد الشباب المتسكع ، والنساء الساقطات على المسجد يأكلون ويشربون ويمشون ؛ وهو مع ذلك كله ، ووسط ذلك كله يقيم حلقة الذكر وهو جالس وسطها يغذى المترنحين فيها بين الفينة والفينة بكلمة أو وصيحة .

ووضع الإخوان خطة حكيمة كان من نتائجها أن انفض الناس من حول الشيخ فوجد نفسه وحيداً مما أياسه من هذا البلد فغادره إلى غير رجعة ووق الله رشيد أن تكون فريسة لدجالين يتخذون الدين وسيلة لإضلال الناس وابتزاز أموالهم .

ثانياً : السنية

وهذه الفئة كانت تمثلها هيئة واحدة تسمى «الجمعية الشرعية» ثم انشقت عنها جماعة أخرى سميت نفسها «جماعة أنصار السنة المحمدية» . وتركز الجمعيتان على تنقية العقيدة الإسلامية مما علق بها من شوائب وعلى مقاومة البدع وإحياء السنن ، وتختلفان فيما بينهما في نظرة كل منهما إلى كيفية تنقية العقيدة مما قد نرجى الإشارة إليه إلى وقت آخر... ولهاتين الجمعيتين أنصار كثيرون في القاهرة وفي الأقاليم وفي طوائف المثقفين وفي طلبه الجامعة ممن لقنوا هذه الأفكار في بلادهم قبل التحاقهم بالجامعة . والأفكار التي قامت من أجلها هاتان الجمعيتان أفكار طيبة لاشك فيها ، ولكن تصورهما في أدمنة من يحملونها إلى الناس ثم يصور المنقولة إليهم لها بعد ذلك أنشأ ما أدى إلى التطرف والتحريف في كثير من الأحيان « وما آفة الأخبار إلا رواها » ..

وسأضع بين يدي القارئ مثالين يوضحان هذا المعنى الذى أومأت إليه وكنت في المثالين أحد الشاهدين :

الجمعية الشرعية : في عام ١٩٣٩ كنت أسكن في ضاحية يجانب الجامعة تسمى « بين السرايات » وكنت أصلي الجمعة دائماً في القاهرة لكنني اضطررت مرة إلى الصلاة في هذه الضاحية فدخلت مسجداً قريباً من سكني فإذا به أحد مساجد الجمعية الشرعية ، وصعد المنبر شيخ معمم ذو حية طويلة ومخطب الناس ... فإذا كان موضوع الخطبة في تلك الأيام التي كانت فيها فلسطين شعلة من النيران وكان الإنجليز يقتحمون بيوت المسلمين ويحطمون كل ما فيها ويمزقون ما بها من مصاحف ويطأونها بأحذيتهم ، يأخذون المجاهدين ويسمونهم ألوان العذاب ويطردون المسلمين والمسلمات من بيوتهم ليسلموها لليهود

كان موضوع الخطبة : قراءة سورة الكهف في المساجد يوم الجمعة ... وأفرغ الخطيب جهده في تقرير أمر عجيب ، هو أن قراءة سورة الكهف في المساجد يوم الجمعة كفر ، ولم يكتف سيادته بذلك بل قال : لا أقول إنها كفر بالنعمة بل كفر بالله ورسوله بحيث لا يقبل الله من فاعلها صرفاً ولا نصراً وقد أحسست أن موجة استياء قد عمت المصلين حتى إن بعضهم بدأ يفكر في جذب الخطيب من فوق المنبر وكادت تحدث في المسجد فتنة .

جمعية أنصار السنة : في خلال هذه السنة أو في السنة التي قبلها كنت في الإجازة الصيفية وكنت في موطن رشيد ، وكان عندي صديق كان طالباً في إحدى كليات الأزهر وكان صيفاً عندي لأنه من بلدة أخرى .. وقد رأى أن فريض بعد صلاة العصر على كورنيش النيل ، وبينما نحن نسير في هذا الطريق والجو هادئ ومنتع رأى صديقي رجلاً قادماً يبدو أنه قطع الطريق الذي بدأنا فيه ثم قفل راجعاً فقال لي إن هذا الرجل القادم صديق له ، والتقينا به فإذا به شاب في ربيع العمر معمم وذو لحية عريضة فتعانقا وصانحته .. وأخذ صديقي يعتب عليه في انقطاعه الطويل عنه ، فاعتذر قائلاً : إنني كنت نزيل المستشفى مدة تزيد على الشهر ولم أغادرها إلا منذ أيام ، فسأله صديقي عن سبب دخوله المستشفى فقال : السبب هو جهل هذا الشعب وسوء أدبه ووقاحته فسأله صديقي وما علاقة هذا بدخولك المستشفى ؟ .. قال : أوفدتني الجمعية في الاسكندرية لألقي درساً في مسجد (حدده) بالرمل ، فجعلت موضوع الدرس «الصلاة في النعلين» فقلت للناس إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي في نعليه فقال لي أحد الحاضرين : لم تكن الشوارع في مكة والمدينة بها من النجاسات مثل ما في شوارعنا ثم إنهم كانوا يصلون على الحصى ... قال فقلت لهم : هذه سنة وعلينا أن نفتدى بالرسول وأن نصلي في نعالنا لذلكها ثلاث مرات ثم ندخل المسجد بها ونصلي فيها. فقامت اعتراضات كثيرة من أنحاء المسجد فوقفت وأمسكت بنعلي وقلت لهم : أليس هذان نعلي ؟.. قالوا : بلى قلت : انظروا وأخذت أدلك بهما وجهي وأقول : لكي تبتنعوا . فرأيهم قد قاموا وهجموا على نعالهم وظلوا يضربونني بها حتى فقدت رشدي ولم أدر إلا وأنا بالمستشفى ومعظم أجزاء رأسي ووجهي وذراعي وظهري وصدري عليها الأربطة .

فأخذ صديقي يواسيه حتى طيب خاطره ثم سأله عما جاء به إلى رشيد فقال إن الجمعية أودتته لإلقاء درس بمسجد المحلى ... فأحسست كأن الله عز وجل أتاح لي فرصة اللقاء مع هذا الداعية الأحق لأعفى أهل بلدي رشيد من غوائل حقه . وانصلت بإخواني في الشعبة فحاولوا بين الرجل وبين الاتصال بالجماهير حتى رجع إلى جمعيته عازماً على أن لا يعود إلى رشيد مرة أخرى .

أما في الجامعة فقد كان زملائنا الطلبة من أعضاء هاتين الجمعيتين ينتقدوننا قائلين :
كان عليكم قبل أن تدعوا إلى ماتدعون إليه أن تدعوا أولاً إلى تصحيح العقيدة ومحاربة البدع ..
وقد كان لنا مع زملائنا هؤلاء مناقشات مستفيضة وجلسات طويلة انتهت آخر الأمر باستجابتهم
للدعوة واتساعهم بأسلوبها وفكرتها ، فصاروا من أقوى الإخوان إيماناً وأثبتهم على العهد وأجرأهم
في الحق وأصبرهم على مكارهه .

ولم يكن ردنا على إخواننا هؤلاء في خلال هذه الفترة من حياة الدعوة رداً موضوعياً
بحيث نناقش فيه تفاصيل العقيدة وتوصيف البدعة بل كنا نقول لهم : انظروا إلى العالم الإسلامي
بجميع أجزائه هل ترون فيه بلداً واحداً حراً طليقاً أم أنه جميعاً مستعبد رازح تحت أثقال من
الاستعمار ؟ إن مثلنا ومثلكم كمثل أسرة ورثت بيتاً شتت فيه النيران ؛ فهل يتجادل الورثة في
كيفية اقتسام البيت وترتيب أثاثه أم يلقون بحقوقهم في الاقتسام جانباً ويتفرغون متعدين أولاً
لمكافحة النيران ؟ ...

وقبل أن نختم الحديث عما كان من علاقات بيننا وبين الهيئات الدينية فنحن هذه الهيئات
أن نقرر أن الخلاف بيننا وبينها لم يكن خلافاً عميق الجذور كذلك الذي كان بيننا وبين سواهم
من القطاعات وإنما كان خلافاً أخوياً كانت الغيرة على الإسلام الباعث من ورائه ، وإذا كان
من صور منفرة فإنها لم تكن إلا من أفراد معينين أو من مجموعات محددة لا ينبغي اتخاذها أساساً
في الحكم على هذه الهيئات العتيدة التي يرجع إليها فضل كبير في إثراء الدعوة بأكرم مجموعة
من رجالها وأنصارها .

الأسلوب الخامس

الاتصال بزعماء المسلمين في مصر والخارج

بدأت الجهات التي نعمل باسم الإسلام الرسمي منها وغير الرسمي تحس بوجود الإخوان .
وأخذ المجاهدون القدامى يتنسمون في الإخوان روح النصحية المؤمنة التي طالما افتقدوها ؛ فأخذوا
يأوون إلى كتف الدعوة بطرق مختلفة ليس بينها الطريقة العلنية الظاهرة .

التقى بالاستاذ المرشد في تلك الحقبة من المجاهدين القدامى عزيز المصري ومحمود لبيب وعبد
الرحمن عزام وصالح حرب ومحب الدين الخطيب ... وأذكر يوم زار عبد الرحمن عزام الأستاذ
المرشد بهذه الدار أنني كنت فرحاً ؛ لأنني كنت أعلم الكثير عن هذا الرجل أيام سياحتي في

مركز أبي المطاير حيث مكثت نحو شهر أنتقل بين كبار وجالاته وشيوخه الذين كان لهم تاريخ مازال مجهولاً في حرب الظليان الإجرامية - بمعاونة الإنجليز - للشعب الليبي المجاهد ، ولقد حدثوني عن جهود هذا الشاب عبد الرحمن عزام وإيمانه وبسالته وتصحيته

ولما كنت أعلم عن اتصاله بالسوسية ، وحرصاً مني على تجلية فكرة الإخوان له ، كتبت في مجلة النذير مقالا عن السوسية - والسوسية دعوة قام بها السيد أحمد الشريف السنوسي في ليبيا وكانت تقوم على التصوف والجهاد ، وكان لها أتباع كثيرون هم الذين قاوموا الاستعمار الإيطالي المؤيد بالتنفيذ البريطاني وكان منهم عمر المختار ، وصار منهم عبد الرحمن عزام حين أعلنت إيطاليا الحرب على المجاهدين السوسيين فترك عبد الرحمن عزام دراسته في كلية الطب في مصر وتطوع مع المجاهدين السوسيين وأبلى أعظم بلاء - وقد تحدثت في هذا المقال عن تسلسل قيادات الدعوة الإسلامية في العصر الحديث ومنها جمال الدين الأفغاني ثم الإخوان المسلمون ؛ وواظنت بين هذه الأطوار للدعوة الإسلامية ؛ وأثبت أن دعوة الإخوان قد استوعبت الدعوتين وزادت عليهما بنظام أشمل ، وقيادة أشد إحكاماً وأبعد نظراً .

وعزيز المصري كان من قواد الجيش المصري الذين لم يطق الإنجليز وجودهم فيه ، وكان هذا الرجل من المؤمنين بالفكرة الإسلامية وبالدولة الإسلامية العالمية ، وقد عمل مع الترك أيام الخلافة العثمانية باعتبارها رمزاً للدولة الإسلامية وله في ذلك المجال تاريخ مجيد ... وعلى شاكلة عزيز المصري كان صالح حرب فقد كان هو أيضاً غصه في حلق الإنجليز .. وقد توفي في تلك السنة الدكتور عبد الحميد سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين فرشح الأستاذ المرشد اللواء صالح حرب خلفاً له .

ومحب الدين الخطيب كاتب إسلامي أشرت إليه في صدر هذه المذكرات ، وكان بلا شك أعظم كاتب صحفي إسلامي في مصر ، وكان من أوسع الناس علماً وخبرة بالتاريخ الإسلامي والحركات الإسلامية القديم منها والحديث .

أما محمود لبب فكان زميلاً لعزيز المصري وصالح حرب ، وله جولات في تركيا مركز الخلافة ، وله إحاطة بتاريخ الحركات العسكرية السري منها والعلى ، وكان يمتاز بأنه رجل عمل ، عميق الإيمان ، عميق الأفكار ، هادئ الطبع وإن كان يطوى ضلوعه على بركان ثائر لا يهدأ له أوار ... وقد قطع حياته العسكرية عند رتبة الصاغ (الرائد) وكسر سحياته بعد ذلك للعمل الصامت للدعوة الإسلامية ... وله في دعوة الإخوان آثار بعيدة المدى سنتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله .

أما شمال أفريقيا وهو المغرب العربي وإن كانت الظروف السياسية لم تتح لمقابلات بين المجاهدين فيه وبين الإخوان فإن الإخوان كانوا حريصين على مراسلة هؤلاء المجاهدين للتعرف على حقائق الأحوال عندهم فكانت هناك مراسلات بيننا وبين عبد الحميد بن باديس في الجزائر الذي كان يتزعم حركة لمقاومة خطة «فرنسة» الجزائريين للقضاء على عروبتهم وإسلامهم ، فكان جمعية جعلت مهمتها إنشاء مدارس إسلامية .. وكانت السلطات الفرنسية تلاحق هذه المدارس بالقوانين الجائرة التي تضييق الخناق عليها وتضع العقبات في طريق إنشائها وفي طريق الملتحقين بها والمتخرجين فيها

وكانت هناك مراسلات بيننا وبين المجاهدين في مراکش مثل علال الفاسي وحزبه الذين كانوا يقاومون الاستعمار الفرنسي ويقاومون «الظهير البربري» وهو قانون أصدره الفرنسيون بذور به بذور الشقاق بين عنصرى الأمة المغربية التي تتكون من العنصر البربري وهم سكان البلاد الأصليين ، والعنصر العربي وهم السكان الفاتحون ... ولما كانت طبيعة الإسلام تقضى على التمرات القبلية والدعوات العرقية فقد انصهر العنصران في بوتقة الإسلام وخرج من الإنصهار شعب لا يعرف انتهاء إلا إلى الإسلام فجاء الغزاة الفرنسيون ليوقظوا ما أماته الإسلام من التعالي بالآباء والأجداد ... وقد استمات هؤلاء المجاهدون من كلا المنصرين في مقاومة هذه الفتنة وكان صدى هذه المقاومة لا يحس به في مصر إلا الإخوان المسلمون ولا يظهر أثره إلا على صفحات مجلاتنا .

ولا داعي هنا للذكر مفق فلسطين وزعمائها ومجاهديها لهذه قضية تبتها الدعوة عند إنشائها يوم كان ساسة مصر وزعماءها يعلنون أنهم ليسوا مسئولين عن هذه القضية ولا يعنهم أمرها .

ولقد كان المجاهدون في خارج مصر يشعرون أن قد صار لهم بوجود الإخوان مؤئل ومكان وصدر مفتوح ذراعه دائماً يتلقاهم في شوق وحب ، فكانت رسائلهم تنال على المركز العام .. ولا أنسى يوم سمحت سلطات الاستعمار للأمير شكيب أرسلان - وكان منفياً من بلاده سورية بأمر الفرنسيين إلى سويسرا ، وسمح له بالرجوع إلى سورية فرأى أن يمر على مصر - ولم يكن مسموحاً له بالإقامة فيها - فأبرق إلى الإخوان بموعده مروره ، فلتقاء الأستاذ المرشد والإخوان وتعانق الجميع كأنما كانوا أصدقاء منذ نعومة الأظفار مع أن أحداً منهم لم ير الآخر من قبل «ولكن الشكوك أقارب» .

والأمير شكيب أرسلان ليس أميراً بالمعنى المتعارف عليه من الانتساب إلى بيت مالك ؛ وإنما أمره قلمه ؛ فهو كاتب لا يشق له غبار وقد لقب بأمير البيان . وهو بلا شك أقوى قلم كتب عن الإسلام والدعوة الإسلامية .. لم أقرأ مما كتب عن القرآن والدعوة الإسلامية أقوى ولا أنفذ إلى لب المعاني مما كتب الأمير شكيب في مقدمة كتابه «حاضر العالم الإسلامي» .

وإذا كتب مؤرخ عن الدعوة الإسلامية في العصر الحديث فلا بد أنه سيكتب عن كتاب «حاضر العالم الإسلامي» لأنه أوسع وأوضح وأجمع ما كتب عن هذا الموضوع. والأصل في هذا الكتاب رحلة قام بها مستشرق أمريكي يدعى «ستودارد» طاف فيها بأنحاء العالم الإسلامي وكتب عما شاهده رسالة أو كتيباً صغيراً سماه «حاضر العالم الإسلامي» فجاء الأمير شكيب وعلق على ماجاء بهذه الرسالة فجاء التعليق أكثر من عشرين ضعفاً للرسالة وكان التعليق أعظم من الكتاب حتى إن الكتاب كله كان معروفاً ومنسوباً إلى الأمير شكيب ... والكتاب مرجع لا ينبغي لمن يشرح نفسه أن يكون داعية للإسلام أن يغفل قراءته . وقد كنت استعرت من الأستاذ المرشد وقراءته - وهو يقع في أربعة أجزاء - وخصته في كراسة فقدت فيما فقد .

مقابلة المرشد محمد محمود باشا :

محمد محمود باشا من الشخصيات التي غطت حقها لأن استمساكها بالمال وتعلقها بأهداف النبل وترفعها عن الدنيا ، جعلها حصداً سهلاً لجحافل تجار السياسة ، وموطئاً ليناً لمواكب النفاق ومزورى التاريخ وعباد الحكم ... كان رجلاً من عظماء مصر الذين ساهوا في جميع أطوار الجهاد الوطني ، وفي مقدمة المجاهدين ، ولكنه كان ذا دين وخلق ، فأبى أن يتاجر بجهاده كما تاجر زملاء له .

ورث المجد عن آباءه ، وكان على أعلى درجة من الثقافة الغربية ، ولكنه مع ذلك كان حريصاً على آداب الإسلام وتقاليده القوية... فمع توليه رئاسة الوزارة أكثر من مرة لم يؤثر عنه أنه أعطى الدنية في وطنه ، كما لم يؤثر عنه أنه جعل زوجته أو بناته عرضة لأعين الناس ولأنه لم ينظر إليهم ؛ بل عاش ما عاش - رحمه الله - وعاشت زوجته وبناته من بعده ما عشن لم تهشهن عين مصرى ولا أجنبي .

ولم أكن أعلم عن هذا الرجل إلا ما نوهت عنه مما فيه الكفاية أن يجعل صاحبه موضع التقدير والتبجيل والاحترام - كما لم يكن غيرى من الناس يعلم عنه أكثر من ذلك - حتى كنت في إحدى رحلاتي لنشر الدعوة في إقليم البحيرة في أواخر الثلاثينيات وقضيت فترة منها في مركز أبي المطاير ، واتصلت هناك بشيوخ القبائل ورجال المنطقة فكشفوا لي في ثنايا أحاديثهم عن صفحة مجيدة مطمورة من تاريخ هذا الرجل ، عمل أعداؤه على حجبها عن الشعب ، ولم يحاول هو الكشف عنها مع أنه كان قادراً على ذلك فقد تولى رئاسة الوزارة أكثر من مرة - كما قدمت - مكتفياً بما عند الله .

قال لي هؤلاء الشيوخ :

لما أعلنت إيطاليا الحرب على المسلمين في ليبيا ، شدد الإنجليز قبضتهم على مصر حتى تقطع الصلة بينها وبين ليبيا فلا يتسرب إلى ليبيا من مصر شيء من المساعدة المادية أو الأدبية في خلال تلك الملحمة غير المتكافئة حتى يتم لإيطاليا اقتراص ليبيا والقضاء التام على المجاهدين فيها .. وكان للإنجليز في كل محافظة في مصر موظفون من الإنجليز يشغلون المناصب الحساسة فيها حتى يكونوا عيوناً على الموظفين المصريين الكبار والصغار . وكان محافظ البحيرة في ذلك الوقت هو محمد محمود باشا ؛ فرأى الرجل أن وقوف المصريين موقفاً سلبياً من إخوانهم في ليبيا لا يليق ولا يقره عرف ولا دين ؛ فاتصل سراً بشيوخ مركز أبي المطاير على أن يعدوا قوافل من الطعام والسلاح والذخيرة ليرسلوها إلى المجاهدين في ليبيا من طرق غير مطروقة ، وكلما أعدوا قافلة أخبروه قبل إطلاقها في الطريق حتى يرسل إليهم من يلقي القبض عليهم ويودعهم الحجز في المحافظة إلى أن تصل القافلة بسلام ... فإذا ضبط الإنجليز قافلة من هذه القوافل لم يكن هؤلاء الشيوخ مسئولين عنها لأنهم كانوا في الحجز قبل ميعاد ضبطها .

وفي سنة ١٩٣٨ كان هذا الرجل رئيساً للوزراء . وكان معنا في ذلك الوقت أخ كريم - أنسيت اسمه - كان موظفاً كبيراً في وزارة الزراعة وكان صديقاً حميماً لمحمد محمود باشا ... ولشدة إعجاب هذا الأخ بشخصية الأستاذ المرشد أكثر من الحديث عنه لصديقه رئيس الوزراء حتى أغراه بأن يقابله ولكنه اشترط أن تكون المقابلة برياسة الوزارة وأن لا تزيد على ربع ساعة لكثرة شواغله وارتباطاته وتمت المقابلة وتناقش الرجل مع الأستاذ المرشد في مواضيع شتى حتى انتهت ربع ساعة فقام الأستاذ مستأذناً فرفض الإذن له حتى انتهى الربع الثاني والثالث وهكذا إلى ساعتين كاملتين ... وقام رئيس الوزراء فودعه بنفسه ... فلما قابله صديقه قال له محمد محمود باشا :

« والله لولا العرف والتقاليد لعينت هذا الرجل وزيراً للخارجية ، وأنا موقن أنه سيجعل لمصر في ظرف أشهر معدودة مكانة مرموقة بين دول العالم » .

وناهيك بالعرف والتقاليد في تلك الأيام ... إنها كانت أقوى من القوانين ؛ فلم تكن المناصب الوزارية يتبادلها إلا أشخاص معينون لا يقلون عن سن معينة ، ومن أمر معينة .. وكان الأستاذ في ذلك الوقت شاباً في حوالى الثلاثين ومدرساً في مدرسة ابتدائية .

لقاء المرشد العام بالملك فاروق :

كان الملك فاروق في ذلك الوقت في مستهل أيامه فقد تولى العرش في عام ١٩٣٨ ، وكان

الناس يتوسمون الخير في الملك الشاب ... وكان الأستاذ المرشد يرى أن أقصر طريق لتحقيق أهداف الدعوة ، والأخذ بالأسلوب الإسلامي في إصلاح البلاد إنما يكون بالاتصال بهذا الملك الشاب وإقناعه بالدعوة ... ومعنى هذا الإقناع أن يوقن بأن انتباه هذه الدعوة سيصلح البلاد ويحفظ له عرشه .

وفي سبيل إبراز هذه الفكرة إلى حيز الواقع اتصل المرشد برجل محاميد كان يألس في رجاجة عقله وفي صدق وطنيته ونزاهته ، وكان في نفس الوقت من أقرب الشخصيات إلى الملك حيث كان أستاذه من قبل ؛ ذلك هو «علي ماهر» ... وكان على ماهر من القلائل الذين يفهمون فكرة الإخوان ويقدرونها كما يقدرون الأستاذ المرشد كل التقدير ، وكان يعرف غير قليل عن قوة الصف الإخواني وتماسكه ، وكان يرى ما كان يراه الأستاذ المرشد من أن أقرب الطرق وأسلمها لإصلاح هذا البلد هو في إقناع الملك بدعوة الإخوان وانتباهه لفكرتهم واستناده إلى صفهم .

وكان الإخوان قد أقاموا في صيف ذلك العام معسكراً ضخماً في «الدخيلة» بجانب الإسكندرية وكان الإخوان من مختلف البلاد يفدون إلى هذا المعسكر ليقبضوا فيه أياً ما ثم يرجعون إلى بلادهم ليفد غيرهم ... وكان الأستاذ المرشد شبه مقيم بهذا المعسكر الذي كان مقرراً أن يستمر شهراً ...

وقد زرت المعسكر في أواخر الشهر الذي كان محدداً له ضمن مجموعة من إخوان رشيد ، وكنت عازماً على قضاء سحابة النهار ثم منادرتة مساء لكن الأستاذ المرشد أصر على بقائنا ثلاثة أيام فنزلنا على أمره ، ولم أكن أعرف سبب إصراره ولكن تبين لي بعد ذلك أنه كان لأمر هام .

كنت أعرف رأي الأستاذ المرشد فيما يتصل بالملك ، ولكني لم أكن أعرف أن استبقائنا كان ذا علاقة بهذا الشأن حتى جاء اليوم الثالث من فترة بقائنا - وكان يوم جمعة - فإذا بالأستاذ يطلب منا جميعاً أن نرتدي زى الجلالة . ورأينا قد ارتدى الزى قبلنا ، ثم أخبرنا أن الملك سيؤدى اليوم صلاة الجمعة في مسجد سيدى جابر وبأننا سنكون في استقباله أمام المسجد وبأننا سنصلي الجمعة معه ؛ وفهمنا بعد ذلك أن هذا الأمر قد اتفق عليه من قبل ، ورتبت خطواته بين على ماهر والأستاذ المرشد .

وقد وضح هذا وضوحاً تاماً ، حين ذهبنا إلى المسجد واصطففنا أمامه وكنا أكثر من مائة جوال يتقدمنا الأستاذ المرشد بملايس الجلالة ، وحضر الركب الملوكي يتقدمه الملك وبجانبه على ماهر - وكان في ذلك الوقت رئيساً للديوان الملوكي فيما أذكر - فحينئذ هاتفين له وللإسلام ؛

فأخذ على ماهر بيد الأستاذ المرشد وقدمه للملك فسلم عليه الأستاذ مصافحاً باحترام دون تقبيل يده كما كان العرف في ذلك الوقت - ودون انحناء .

رجعنا بعد صلاة الجمعة إلى معسكرنا ، وكان الأستاذ يشعر بالرضا النفسي لأنه أحس أنه خطا الخطوة الأولى التي كان على الداعية المصلح أن يبدأ بها ، ثم لا عليه بعد ذلك إن هي لقيت استجابة أم لقيت إعراضاً .. المهم أنه أعذر إلى الله وإلى الناس وإلى التاريخ ... حتى لا يأتي في يوم من الأيام من يقول : لو أن هذا الداعية عرض دعوته على ولي الأمر قبل أن يسلك بها هذه المسالك .

وكنا نعتقد في ذلك الوقت بسذاجتنا وحسن ظننا أن الله تعالى قد اختصر لنا الطريق ، واختار لنا غير ذات الشوكة ، وأن هذا الشاب الذي يبدو وادعاً في مظهره ، وبجانبه الرجل العاقل على ماهر لابد أنه سيتجه اتجاهاً إسلامياً فيسعد ويسعد الناس ... ولم تكن نعلم ما سيجاء القدر لنا كدعوة ولهذا الشاب كملك طائش مغامر ... وكأفقه قد غاب عنا أن حاشية هذا الشاب . وإن كان فيها على ماهر فإن فيها ألف شيطان :

الفصل الثاني

الأخذ بأساليب عملية في التكوين التربوي ونشر الدعوة

كان أسلوب التربية في دار الناصرية يتمثل في درس كان يلقيه الأستاذ المرشد ليلة في الأسبوع في مسجد الدار الصغير ، يحضر هذا الدرس من شاء من الإخوان فقد يحضر مرة عدد قليل وقد يكثر حاضروه في مرة أخرى ، وكان هذا الدرس يستغرق نحو الساعة ... ثم تحول هذا الدرس فترة من الزمن إلى درس في تلاوة القرآن ، ولا أنسى أنني أفدت من هذا الدرس في التلاوة كلمة كنت أقرأها خطأ ولم أصححها إلا بعد أن سمعت الأستاذ يقرأها أمامي في درس من دروس التلاوة وكان يقرأ سورة يونس هي كلمة «يهدي» فقد كنت أقرأها بغير تشديد الدال وذلك في قوله تعالى «أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي» .

وكان أكثر وقت الأستاذ المرشد يقضيه في إقناع شخص أو شخصين بالدعوة ، وكذلك كنا نفعل ، وتستطيع أن تقول إن هذه الفترة كانت طور الدعوة الفردية ، حيث لم يكن ممكناً أن تقوم تنظيمات على غير أشخاص ؛ فما دام العنصر الضروري غير موجود وهو الأشخاص المؤمنون بالفكرة الإسلامية المستعدون للعمل لها ، والبذل في سبيلها ، فلا تنظيم ولا تكتيك ... والواجب الذي تفرضه المرحلة هو بذل الجهد لتوفير العنصر الأساسي .

وقبيل الانتقال إلى الدار الجديدة كانت الدعوة قد أثمرت وآتت أكلها سواء في ذلك القاهرة والأقاليم - وقد أشرت إلى ذلك في سياق البعثات الطلابية التي أوفدها الأستاذ المرشد إلى الأقاليم في نهاية العام الدراسي ١٩٣٦ - فلما تم الانتقال إلى الدار الجديدة حيث الموقع والسعة تدفق الشباب على الدار ؛ فلما وجدت المادة الخام كان على الصانع الماهر أن ينتفع بها أتم الانتفاع ، وأن يصهرها في بوتقته ، ويستخلص منها المعدن النقي بعد أن يقشع عنه ما كان يخالطه من شوائب ، وكان عليه أن يصوغ من هذا المعدن ما ينفع الناس .

فلما توفرت المادة الخام بدأ الصانع صياغتها بالأساليب التالية :

الأسلوب الأول

نظام الكتائب

نظام الكتائب نظام فريد مبتكر ، ولعل الأستاذ المرشد قد اشتقه من اجتماعات دار الأرقم بن أبي الأرقم حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع المؤمنين به في ذلك الوقت المبكر - وكانوا قلة - فيبهم ما عنده ، ويفضى إليهم بذات نفسه ويأخذهم بأسلوب من التربية الروحية العالية حتى يخرج من تلك الدار المتواضعة من كانوا أعلام الهدى ومن حملوا شعلة النور الإسلامي فأضاءوا بها جنبات الدنيا

وهذا النظام بين مختلف أنظمة التكوين يعد نظام التكوين المركز وأسلوب التربية العميقة المباشر لأنه وحده هو النظام الذي يجد فيه الموجه والموجه نفسه متجردين متفرغين كل منهما للآخر وجهاً لوجه لا تشغل أيأمنهما عن نفسه ولا عن صاحبه شاغله فيكون القلب والعقل معاً في أسمى حالات التهيؤ للتلقى والإلقاء والتعبير الحديث للاستقبال والإرسال .

وكان في نية الأستاذ المرشد أن يتدرج في إنشاء الكتائب حتى يسلك فيها كل إخوان المركز العام على أن يقوم هو بنفسه فيه بدور التوجيه والتربية ، فبدأ أول خطوة فيه بأن جمع من الرعيل الأول أربعين أخاً كانوا هم الكتيبة الأولى ثم ما لبث أن جمع أربعين آخرين فكانوا الكتيبة الثانية وكان النظام يقتضى أن تتم كل كتيبة أربعين أسبوعاً .

ويتلخص نظام الكتيبة في الآتي :

- ١ - تبيت الكتيبة ليلة في الأسبوع في المركز العام ويبيت معهم الأستاذ المرشد .
- ٢ - يصلون مع الأستاذ المرشد المغرب والعشاء .
- ٣ - يتناولون طعام العشاء معاً طعاماً رمزياً .
- ٤ - يتذكرون معاً ويتسامرون .
- ٥ - بعد صلاة العشاء بوقت قصير ، وفي لحظة محددة ينامون على الأرض في حجرة واحدة واسعة ، ويتخذ كل منهم حذاءه وسادة له وينام الأستاذ المرشد معهم على نفس الهيئة .
- ٦ - يستيقظون قبل الفجر بساعتين ويتوضؤون ويتجهجدون بعض ركعات فرادى .
- ٧ - تطفأ الأنوار ويجلسون منصتين إلى تلاوة نحو جزء من القرآن الكريم يتلوه قارئ الكتيبة وكان الدكتور محمد أحمد سليمان .
- ٨ - يضاء النور ويستمعون إلى درس من الأستاذ المرشد في التكوين النفسى والروحي والعلمى للداعية مع عرض لتاريخ الدعوات والدعاة ، وبيان مواطن الضعف في كل منها وفي

كل منهم ، وما يقابل ذلك في الدعوة الإسلامية وكيف يتجنب الداعية مواطن الضعف التي عصفت بسابقه .

٩ - فترة قبيل الفجر للاستغفار .

١٠ - أذان الفجر ثم صلاة الفجر خلف الأستاذ المرشد .

١١ - توزيع الورد القرآني على أعضاء الكتبة وقيام الأستاذ المرشد بتفسيره تمهيداً لحفظه . والورد القرآني هو ورقة يجمع فيها الأستاذ المرشد الآيات القرآنية ذات الهدف الواحد ، فورد للإيمان وورد للوفاء وورد للأمل وورد للجهاد وورد للتفكير وهكذا ، وسأحاول عرض بعض أمثلة من هذه الأورادة في نهاية الكتابة عن هذا الأسلوب من أساليب التربية إن شاء الله .

١٢ - فإذا طلعت الشمس قرأ الجميع معاً في صوت خافت «الوظيفة» وهي أدعية من القرآن الكريم ومن السنة النبوية كان يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم إذا أصبح وإذا أمسى .

١٣ - إفطار بسيط ثم يتجه كل منهم إلى عمله .

ويلحق بنظام الكتبة أيضاً ما يلي :

(أ) شعار هذا النظام هو «كل وأنت شيعان ونم وأنت مستيقظ» ومعنى هذا الشعار الطاعة التامة ، والالتزام الكامل بالنظام المقرر فقد يكون إلزام نفسك بالآكل وأنت شيعان أثقل على نفسك من إلزامك بالامتناع عن الآكل وأنت جائع وكذلك نومك وأنت مستيقظ أصعب من استيقاظك وأنت نائم .

(ب) ومن شعار هذا النظام الامتناع عن تناول المكيفات من شاي وقهوة فضلاً عن الدخان .

(ج) كان يوزع على كل فرد من أعضاء الكتبة في أول كل شهر كشف يسمى استمارة المحاسبة ، وهو يضم عشرين سؤالاً يجيب عليها الفرد كل ليلة حين يأوى إلى فراشه «بنعم أو «بلا» كتابة أمام كل سؤال وفي خانة اليوم حيث يضم الكشف ثلاثين خانة لشهر كامل - وفي نهاية الشهر يجمع عدد «لا» وعدد «نعم» فإذا رجحت «نعم» حمد الله وطلب منه التوفيق إلى الزيادة منها وإذا رجحت «لا» أسف وتندم واستغفر الله وجدد التوبة وحاول مراقبة نفسه فيما حددته له الاستمارة من مواطن الضعف في نفسه وفي تصرفاته .

(د) كان يوزع على أفراد الكتبة رسالة تسمى «المنهج العلمي» وهي تضم أسماء مجموعة مختارة من الكتب في كل فن من فنون العلوم الإسلامية والتاريخية والتربوية ، ويطلب من عضو الكتبة أن يقرأ ما يستطيع من هذه الكتب لتزوده بذخيرة من المعلومات تنير له الطريق في دعوته ، ثم تسمعه أهلاً لقادة الدعوة في مختلف الأماكن والظروف .

ولا شك في أن نظام الكتائب هذا هو النظام الأمثل للتربية لأنه يجمع كل وسائل التربية الحديثة التي تحدثت عنها الكتب العلمية المتخصصة ، والتي تدرس على أنها ترف علمي يخلق بدارسه في آفاق الخيال ؛ جميعها هذا النظام وأخرجها إلى حيز الوجود ، وطبقها تطبيقاً دقيقاً رائعاً ، وصقل بها نفوساً ، وثقف بها عقولاً ، وسما بأرواح أصحابها سمواً ملائكياً ، مع مزج هذه النفوس معاً في بوتقة واحدة هي بوتقة الفكرة الإسلامية مزجاً صاغ منها صفاً متراصاً متماسكاً .

ومن تمام روعة هذا النظام أنه لم يكن يقتصر تأثيره على الليلة التي كانت محددة للمبيت ؛ وإنما كان أثره ممتداً طيلة الأسبوع ، فكشف المحاسبة أو استهارة المحاسبة كان لا بد من ملء خاناتها كل ليلة ، والورد القرآني كان يحفظ ويكرر صباح كل يوم والوظيفة كانت تقرأ كل يوم في الصباح وفي المساء .

وإذا علمنا أن ليالي الكتائب لم تكن كلها تقضى بدار المركز العام بل كان الكثير منها يقضى خارجه ، فقد قضينا بعض هذه الليالي في مدرسة خاصة في شبرا - لا أذكر اسمها الآن - وكنا نصلي الفجر في مسجد الخازندار القريب من المدرسة . وأذكر بهذه المناسبة أن الناس تعودوا أن يقرأ الإمام في فجر الجمعة آيات من سورة السجدة تبدأ بقوله تعالى « وقالوا إذا ضللتنا في الأرض أإننا لفي خلق جديد » وكان الأستاذ المرشد قد تعود أن يقرأ بنا في صلاة فجر الجمعة سورة السجدة كلها من أولها لأن السنة هي ذلك ، فلما بدأ يصلي بنا الفجر في هذا المسجد وأخذ في قراءة السورة من أولها - وكان يصلي معنا كثيرون من أهل الحى ممن اعتادوا الصلاة في المسجد - تعالت أصوات المأمومين يقولون « وقالوا إذا ضللتنا » ظناً منهم أن الإمام نسي أن اليوم يوم الجمعة فقرأ بسورة أخرى .

كما قضينا بعض هذه الليالي خارج القاهرة ، وقد قضينا إحدى هذه الليالي في ضاحية بجانب المعادى اسمها « البساتين » وفي صباح تلك الليلة باشرنا أنواعاً من الرياضة منها ركوب الخيل .

وكان من روعة هذا النظام أننا كنا نرى قائدنا وإمامنا لا يتميز عنا بشيء في مأكلو لا مشرب ولا ملبس ولا منام بل كان هو أكثرنا تضحية حيث كنا في ذلك الوقت عزاباً وكان هو يترك بيته وزوجته وأولاده ، الأمر الذي زادنا حباً له وإجلالاً .

وأثر هذا النظام وروعه لا يكاد يحس بعمقها في النفوس ، ولا بامتزاجها بالقلب إلا من كابده وعاناه . وحسبك أن تتصور إنساناً خرج من بيته مهاجراً إلى مكان ما ، وفي هذا المكان تجرد من مظاهر الدنيا فاتخذ الأرض فراشه ، وحذاءه وسادته ، ثم في وقت السحر قام من نومه وتوضأ وناجى ربه في سجوده ثم استمع في هدأة الظلام إلى جزء من القرآن يتلوه متجرد مثله

ثم أصفى بعد ذلك إلى حديث من قائد متجرد بيته ما في نفسه ، ويهدى إليه خلاصة تجربته ، ويذكره بفضل ربه ، ويتركه بعد ذلك يستغفر ربه ويتوب إلى خالقه حتى يؤذن الفجر .

وبعد صلاة الفجر ، في هذا الجو الروحي ، وضمن هذه الجماعة الواعية المتجردة تزاوَل رياضة بدنية عادية داخل الدور إن كان المبيت في الدور - أو رياضة قوية كالسباق وركوب الخيل والمصارعة إن كان المبيت في ضاحية خارج الدور .

ثم لا يزال عضو الكتبية في كل يوم من أيام الأسبوع يعد نفسه للإجابة على أسئلة استمارة . المحاسبة التي لا بد أن يقف بين يديها كل ليلة قبل أن يأوى إلى فراشه ، وهذه الأسئلة لا تدع كلمة تكلمها ولا حركة تحركها ، ولا عملاً صدر منه ، ولا خاطراً هجس في نفسه . إلا حاسبته عليه وطلبت منه الإجابة في شأنه ... ولا يزال كذلك طيلة الأسبوع . حتى يحين موعد الليلة التالية للمبيت بالكتبية .

إن هذا الأسلوب قد خرج ملائكة تمشي على الأرض ، وخرج مجاهدين لا يخافون في الله لومة لائم ، وخرج علماء بهذا الدين على نور وبينته منه ، ودعاة يهتدى بهم الناس ؛ وهم مع ذلك أساتذة كل في فنه ومهنته .

وفي خلال إقامتنا بهذه الدار - دار العتبة - كون الأستاذ المرشد الكتبيين الأولى والثانية ولم تتم أى من الكتبتين المناهج المعدة لها لأسباب سنذكرها إن شاء الله في فصل قادم .

١ - ورد المعرفة

١ - وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون - البقرة ١٨٦ .

٢ - وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون - الأنعام ٣ .
٣ - وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم . قل أغير الله اتخذولياً فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ، قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين . قل إنى أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ رحمه وذلك الفوز المبين . وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسك بخير فهو على كل شئ قدير . وهو القاهر فوق عباديه وهو الحكيم الخبير - الأنعام ١٣ : ١٨ .

٤ - الله خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل . له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون . قل أغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون . ولقد أوحى

إليك وإلى الذين من قلبك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين . وما لئدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون - الزمر (٦٢ : ٦٧) .

٥ - وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم . وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون - الزخرف (٨٤ و٨٥) .

٦ - فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين . وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم - الجاثية (٣٦ و٣٧) .

٧ - ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين - الذاريات (٥٠ - ٥١) .

٨ - هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم - الحشر (٢٢ : ٢٤) .

٩ - يا أيها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى - الفجر (٢٧ : ٣٠) .

١٠ - قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد - الإخلاص .

٢ - ورد الوفاء

١ - يا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون - البقرة (٤٠) .

٢ - ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون - البقرة (١٧١) .

٣ - ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فاعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقىونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب - التوبة (٧٨) .

٤ - أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كن هو أعشى إنما يتذكر أولو الألباب .
الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون
ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم
سراً وعلانية ويدرون با حسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح
من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم
فتنعم عقبى الدار - الرعد (١٩ : ٢٤).

٥ - وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم
كفيلًا إن الله يعلم ما تفعلون - النحل (٩١) .

٦ - وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولًا - الإسراء (٣٤) .

٧ - من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر
وما بدلوا تبديلاً - الأحزاب (٢٣).

٨ - إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على
نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا - الفتح (١٠).

٩ - لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة
عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً - الفتح (١٩) .

١٠ - يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا
تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص - الصف (٤) .

٣ - ورد التفكير

١٠ - إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر
بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة
وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون - البقرة (١٦٤) .

٢ - إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين
يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت
هذا باطلا سبحانه فمنا عذاب النار - آل عمران (١٩٠ و ١٩١) .

٣ - إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ذلّم الله
فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم .

وهو الذى جعل لكم النجوم تهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون .
وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى
أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ ، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ، ومن
النخل منطلعها قنوان دائية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتها وغير متشابه ، أنظروا
إلى ثمرة إذا أثمر وينعه إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون - الأنعام (٩٥: ٩٩) .

٤ - إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى
الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله
رب العالمين - الأعراف (٥٤) .

٥ - هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب
ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون . إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق
الله السموات والأرض لآيات لقوم يتقون - يونس (٥ - ٦) .

٦ - الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر
كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد
الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار
إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع
ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك
لآيات لقوم يعقلون - الرعد (٢ : ٤) .

٧ - وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى
الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسي أن تمتد بهم
وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون - النحل (١٤ - ١٦) .

٨ - ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا
النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر
فتبارك الله أحسن الخالقين - المؤمنون (١٢ - ١٤) .

٩ - ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد
بيض وحر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك
إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور - فاطر (٢٧ - ٢٨) .

١٠ - الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما لتعلموا أن الله

على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً - الطلاق (١٧).

٤ - ورد المراقبة

١ - وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين . وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقتضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ، ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين . - الأنعام (٦٢: ٢٩) .

٢ - وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين - يونس (٦١) .

٣ - سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله - الرعد (٩-١٠)

٤ - إن ربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين - النمل (٣٧ ، ٧٥) .

٥ - يابني أنها إن تلك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير . يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور - لقمان (١٦-١٧) .

٦ - وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون . وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين - فصلت (٢٢-٢٣) .

٧ - أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون . أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون - الزخرف (٧٩ - ٨٠)

٨ - ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد . إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد - الق (١٦-١٧)

٩ - أم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم

ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم - المجادلة (٧).

١٠ - وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير (الملك ١٣ - ١٤) .

٥ - ورد الاخلاص

١ - صيغة الله ومن أحسن من الله صيغة ونحن له عابدون ، قل أتتبعون الله في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون - البقرة (١٣٨ - ١٣٩) .

٢ - يأيتها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا الله عليكم سلطاناً مبيناً . إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً . إلا الذين تابوا وأصلحو واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً ، ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليم - النساء (١٤٤ : ١٤٧)

٣ - إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين . وحاجه قومه قال أتتبعون في الله وقد هدانا ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون - الأنعام (٧٩ - ٨٢)

٤ - قل إني هادي ربي إلى صراط مستقيم - ديناً فيما ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون - الأنعام (١٦١ - ١٦٤) .

٥ - قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما ألهمكم إليه واحد فن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً - الكهف (١١٠) .

٦ - إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا الله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار . لو أرادوا الله أن يتخذ ولداً لا صطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار - الزمر (٢-٤)

٧ - قل إني أمرت أن أعبد مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل إذ أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين . لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون (الزمر ١١-١٦) .

٨ - هو الذي يريك آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب . فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (المؤمنون ١٣-١٤)

٩ - الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين . هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين (غافر ٦٤ - ٦٥) .

١٠ - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ذلك دين القيمة (البينة ٥) .

٦ - ورد الإيمان

١ - يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين . الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم . إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين . (آل عمران ١٧١-١٧٥) .

٢ - ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمننا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد . فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوطانهم وأوذوا في سبيل وقاتلوا أو قتلوا لا كفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب (آل عمران ١٩٣ - ١٩٥)

٣ - إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقيقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم (الأنفال ٢-٤) .

٤ - إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا

ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصم وكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير (الأنفال ٧٢) .

٥ - إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين (التوبة ١١١ - ١١٢) .

٦ - قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون (المؤمنون ١٠ - ١١) .

٧ - ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين (العنكبوت ١ - ٣)

٨ - لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً . ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فهم من قضى نحبهم ومن ينتظر وما بدلوا تبديلاً . (الأحزاب ٢١ - ٢٣) .

٩ - قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون (الحجرات ١٤ - ١٥) .

١٠ - فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير . يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ورسوله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم (التغابن ٨ - ٩) .

الاسلوب الثانى

نظام الجـوالـة

عند الحديث عن الدعوة في دار شارع الناصرية فاتى أن أذكر أنه كان مما اشتملت عليه حجر المركز العام حجرة صغيرة لفرقة الرحلات وكان يرأس فريق الرحلات الطالب محمد أحمد سليمان بكلية الطب والذي أذكره أننا جميعاً كنا أعضاء في هذا الفريق ، وكنا نلبس الملابس الخاصة به في المناسبات وكانت هذه الملابس تشبه ملابس ركوب الخيل فهى قيص كاكي وبنتلون كاكي طويل بمنفاخ .. ويخيل إلى أن الأستاذ المرشد رسم في ذهنه صورة لوسائل إبراز حقيقة الدعوة الإسلامية ، فوجد أن هذه الصورة لا تكتمل إلا بوجود مظهر للقوة البدنية ولم يستطع التعبير عن هذا المظهر في ذلك الوقت كما لم تسعفه الوسائل إلا بتخصيص حجرة من حجرات المركز العام وإن كانت أصغرهما لهذا النشاط ووضع على بابها لافتة باسم هذا النشاط وإن ظلت هذه الحجرة مغلقة دائماً أو ما يقارب الدوام .

كما أنه أراد في دار شارع الناصرية أن يعبر عن معنى الجهاد في الفكرة الإسلامية فكلف نجاراً - بإرشاد من أحد العسكريين - بصناعة أنموذج لبندقية ، وكان هذا الأخ العسكرى يدرّبنا في فناء الدار على استعمال البندقية في مختلف الظروف والأوضاع بهذا النموذج الخشبي .

فلما تم الانتقال إلى الدار الجديدة في العتبة ، ووجدت السعة ، ووجد الشباب المتطلع إلى الحركة والنشاط رأى الأستاذ الفرص مواتية لإبراز الصورة التى في ذهنه إبرازاً أوضح فطور فريق الرحلات إلى فريق الجواله .

والصورة التى رسمها الأستاذ في ذهنه منذ قام بدعونه في الإسماعلية عن هذا الجانب من نشاط الدعوة لم تكن هي فريق الرحلات أو فريق الجواله ، وإنما كانت فريقاً عسكرياً يحقق فكرة الجهاد في الإسلام ؛ إلا أن الرجل وقد آتاه الله الحكمة «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً» لم يكن يؤمن بالطرفة ، بل كان يؤمن بالتطور وبأنه قانون الحياة ، ولا بد للدعوات أن تخضع لقوانين الحياة ، إذا هي أرادت أن تشق طريقها ، ولم يكن الرجل يتجاهل ماحوله ، ولا يتعمى عما بين يديه ، فتدرج بالصورة التى في خاطره تدرج الأم بمولودها .

وكان هذا الرجل - بشاقب فكره ، ومرهف حسه ، وبخاصية أودعه الله إياها - يتحدث إلى الناس عن أمور يراها هو واقعة لا محالة ، وهى في خواطرننا شيء من هواجس النفس ، وأوهام الخيال ؛ فإنه كان يعد من حياطات الحذر من أخطار يتوقعها ولانكاد نصدق وهو يحذرننا

منها ... ثم لاتقع هذه الأخطار إلا بعد سنوات ... وعندما نواجهنا نرى أسباب الحيلة التي اتخذها منذ سنوات - دون مبرر في نظرنا إذ ذاك - هي وحدها التي تحصننا إزاء هذه الأخطار .

كان الأستاذ يتحرق شوقاً إلى إبراز النشاط العسكري لتجلية فكرة الجهاد ، ولكنه رأى الدعوة لازالت في مهدها ، ولم تتجاوز في طورها الجديد مرحلة الحبو ، ورأى الحكومات المصرية ومن ورائها الإنجليز لابد أنهم متربصون - في يوم ما- بالدعوة الدوائر لأنها عدوهم الأساسي ؛ إذن فلابد من أن تتحاشى الدعوة في هذا الطور كل ما يعتبرونه في عرفهم خروجاً على القانون . وكنا إذ ذاك في الثالث الأخير من الثلاثينيات وكان تكوين مظاهرات عسكرية لا يعد خروجاً على القانون فحسب بل يعد إحياء الكبائر ، ... لهذا لجأ في إبراز الطور الجديد في خاطره إلى مظهر ألبسه لباس القانون .

لم يكن في مصر إذ ذاك صورة فيها رائحة العسكرية مسموح بها إلا جمعية الكشافة الأهلية ، وكان صغار السن من المنتسبين اليها يسمون «كشافة» وكان الكبار يسمون «جواله» وصار الإخوان المسلمون فرقة جواله منتسبة إلى جمعية الكشافة الأهلية .

وتبنى الإخوان قانون الكشافة وهو يتمشى مع الفضائل الاجتماعية التي يدعو اليها الإسلام . وأذكر أننا لم نعدل فيه إلا لفظاً واحداً من إحدى مواد التي تقول : وأن أطيع رؤسائ طاعة عياء . عدلناها إلى طاعة تامة لأن الإسلام لا يعترف بالطاعة العمياء - وشرحنا قانون الكشافة بآيات القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وربما كان فريق الإخوان المسلمين هو الفريق الوحيد من المنتسبين إلى جمعية الكشافة الأهلية الذي استعمل هذا القانون استعمالاً كاملاً وطبقه أحسن تطبيق .

مشكلة الملابس

بانتساب جواله الإخوان إلى جمعية الكشافة الأهلية صاروا ملزمين بملابسهم المميزة الموحدة وهي تتكون من قميص كاكى وبنطلون كاكى قصير ... ولما كان الإخوان قد تعودوا أداء الصلاة في أوقاتها مهما كانت الظروف فإنهم كانوا يؤدون الصلاة وهم في هذه الهيئة حين يحين وقت الصلاة ... فانطلقت أفواه واسعة تسلفهم بألسنة حداد ، وكانت هذه الأفواه لطافتين ؛ طائفة دفعها الغيرة على الإخوان ومبلغ علمهم أن هذه الهيئة تتنافى مع الصلاة ، والطائفة الأخرى من أولئك الحاقدين للملتصين للبراء العيب ؛ فما كادوا يرون الإخوان يصلون في هذه الهيئة حتى ذهبوا يملأون الدنيا ثشيعاً ، وكانت الجمعيات الإسلامية التي أشرنا إليها في الفصل السابق من الطائفة الأولى .

وظل الإخوان صابرين تحت هذا الوابل من النقد اللاذع أكثر من عام حتى وجد الأستاذ

المرشد حل هذا الإشكال في كتاب البخارى تحت عنوان على ما أذكر «ماتجوز الصلاة فيه» وكان المرشد يقول إن الإمام البخارى في كتابه الصحيح لم يكن مجرد محدث فحسب بل كان فقيهاً مجتهداً صاحب مذهب والعناوين التي جعلها لأبواب صحيحه هي آراؤه ومذهبه وتحت هذا العنوان حديث معناه : أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسأله عن الملابس التي تؤدي بها الصلاة فقال له : «صل في ثوبين ، صل في ثوب وسروال صل في ثوب واحد ، صل في كذا ... حتى قال له صل في ثوبان» والثبان هو ما يلبسه المصارعون .

ويكاد يكون هناك ما يشبه التلازم بين الكتاب والجولة فعوض الكتاب يكون في أغلب الأحيان جوالاً لأن الأستاذ المرشد كان هو رئيس النظامين ؛ وإذا استثنينا الكتبتين الأوليين اللتين تحدثت عنهما فإن أسلوب الجولة كان في أكثر الأحوال هو الخطوة الأولى للشباب الذين انضموا تحت لواء الدعوة لأنه نظام عسكري المظهر فيه معنى الفتوة التي تستهوى الشباب ، وكما من الشباب تم إصلاحه وظهرت مواهبه عن طريق نظام الجولة وكان من قبل شباباً لاهياً عابثاً .

وقد لا أكون مغالياً إذا قلت إن نظام الجولة بما فيه من مبادئ سامية وأهداف رفيعة تحت على الأخوة والإيثار والشجاعة والمروءة والتضحية لم يكن له وجود قبل إنشاء جولة الإخوان المسلمين ، فلقد كنت على اتصال بهذا النظام منذ كنت طالباً بالدراسة الثانوية وكنت أتتبع أخباره في مختلف البلاد المصرية وكان هذا سبباً في أنني رفضت أن أنصوي تحت لوائه لأنني لم أر فريقاً من المنتسبين إليه كان جاداً في انتحال مبادئه والاهتداء بتوجيهاته : حتى إنني أسأت الظن بالنظام نفسه واتهمته بأنه في ذاته نظام غير جاد ... فلما انتسب الإخوان إلى هذا النظام شعرت كأنما كان هذا النظام جسداً لا روح فيه فكان الإخوان هم روحه ردت إليه فبعثت فيه حرارة الحياة .

ولقد كان نظام الجولة في الإخوان المسلمين وسيلة لإصلاح الشباب بطريقتين :

الطريقة الأولى أن الشباب الذين انتظموا في سلوكه صاغهم كما قلت صياغة جديدة بعثت من أعماق نفوسهم ما كان كامناً فيها من طاقات خارقة ، ومواهب باهرة ، وصاروا مثلاً علياً في الاستقامة والإيثار والتضحية . والطريقة الثانية بما كانت تبعثه جموعها الحاشدة ، وطوايرها المنظمة ، وخطواتها المتسقة ، وطبولها المثيرة ، وهتافاتها المزلزلة ، وعسكريتها غير المحترقة ؛ من روح تشهر هذا الشعب بأن للحق قوة تحميه فتطمئن قلوب تحب الحق ولكنها كانت خائفة ، وتهتز فرقاً لقلب كانت سادرة في الباطل فكانت تجاهر بباطلها اعتماداً على أن الطريق أمامها سهل مفتوح ، فلما رأت بعينها قوة الحق انكشبت بباطلها مستخفية مرتجفة .

وقد يحمل بي - في صدد حديثنا عن الجلالة أن أنقل للقارى من قصيدة لعمى الأستاذ محمود عبد الحليم الكبير رحمه الله وكان شاعر وشيخاً بشارب شعبة الإخوان بها يصف فيها هذه الفرق المتيدة ، التي أخذت بلبه ، وأشعلت جذوة الأمل في نفسه فقال :

قفوا نحى الشباب الناهضين قفوا
كبروا لرجال كالسيوف ترى
ساروا بقلب يروع الأسد جراته
تقلدوا الجد والإقدام واطرحوا
واستبطنوا محض حب الخير واستبقوا
أهلاً بفتيان صدق شب جمعهم
لهم ليوث . على النفس اعتمادهم
طابوا نفوساً كما طابت شمائلهم
راضوا نفوساً بخفض العيش منبتهم
شمارهم أن نصعدوا للدهر أهبتكم
فإن تصونوا قوى الأبدان نامية
إن الحياة كبداء فإن لبست
وليس أعجز من قد أنيح له المـ
وجوهر الروح أسمى في الحقيقة من
الله فيها فقد شئت عنايته
والشعب إن زاد للعلياء تعطشه
جيش أعبد لمصر كي تفل به
يخوض غمرة هول الدهر مقتحمها
إن صوب الدهر سهماً قام معترضا
من كل عصب إذا شاتته مكرمة
يهتز للبر إذ يدعى لرحمة
فادعوه « بكثاف » مجازفة
تلك الفضائل ماترعون حرمتها
ستشكرون مصر والتاريخ نهضتكم

الرائعين لمصر ذكرهم شرفا
نظم السيوف وتجواب الفلا ترفا
وصدق عزم إلى العلياء منصرفا
ثوب النعم وعافسوا اللهو والسخفا
واستظهروا حكمة في نصرة الضعفا
على المروءة والإخلاص وانثفا
لا يضمرون لـ... ينتابهم أسفا
وللفضيلة أضحي جهم كلفا
واستبدلوا بمجانى حفصه شظفا
فيما تكدر من حالاته وصففا
حفظتمو الروح والأوطان والخلفا
برد الشباب تبدت روضة أنففا
حبا معاني ولاق حنفيه دنفا
أن يرتضى المرء مختاراً له التلفا
باللؤلؤ الرطب أن سوى له الصدفا
ففي قوى النشء منه للغيل شفا
جيش الرذيلة والأرزاء إن زحففا
ويمتطى غارب البيداء معتففا
في وجهه ناصباً أبطاله هدففا
مضى سراعاً وإن شام الخنا صدفا
مساعفاً أو رأى مستنجداً هتفا
حتى رأوه لعادى الضر قد كشففا
أرضيتم الله والأوطان والسلففا
ما مجيد الدهر من تاريخها صففا

وأيام كانت الهيئات السياسية تنشى فرقاً عسكرية من شباهها ، كانت جواله الإخوان المسلمين موضع سخرية من هذه الهيئات ذات القمصان الملونة فالقمصان الزرقاء والوفد والقمصان الخضراء لمصر الفتاة وكانت مصر الفتاة تتيه علينا بفرقها ذات القمصان الخضراء وترميننا بالضعف لركوننا في فرقنا إلى نظام رسمى ، وكنا نشكو إلى الأستاذ المرشد هملتهم علينا في هذا الصدد ونتمنى لو أن الأستاذ قبل رجاءنا وحلصنا من نظام الجواله لنكون فرقاً ذات قمصان بلون نختاره ؛ فكان الأستاذ يطمئن نفوسنا ويقول لا تعبأوا بالقواهم واصبروا وسترون أن العاقبة لنا ... ودارت الأيام وجاءت حكومة أصدرت قانوناً يحرم على الهيئات أن تكون لها فرق عسكرية أو شبه عسكرية ذات قمصان ملونة فألغيت هذه الفرق بين يوم وليلة ولم تبق إلا فرق جواله الإخوان لأنها نظام معترف به في الدولة والفرق مسجلة في جمعية الكشافة الأهلية ؛ .. وقد رأينا أن الرجل كان أبعد نظراً منا ومن غيرنا .

وكان لنظامى الكتاب والجواله أنشدة توىء إلى أهداف الدعوة ومعانيها فكان النشيد الأول الذى كنا ننشده بدار الناصرية وردحاً من دار العتبة هو نشيد «يارسول الله » من نظم الشيخ البالورى وهذا نصه :

يارسول الله هل يرضيك أنا	إحوة في الله للإسلام قنا
ننفض اليوم غبار النوم عنا	لأنه اب الموت لا بل نتمنى
أن يرانا الله في ساح الفداء	
إن نفساً نرتضى الإسلام ديناً	ثم ترضى بعمده أن تشكينا
أو ترى الإسلام في أرض مهينا	ثم تهوى العيش نفس لن نكوننا
في عداد المسلمين العظماء	
حبذا الموت يريح البائسين	ويرد الحمد للمتعبدين
فلنمت نحن فداء المسلمين	سادة الدنيا برغم الكاشحين
وليس في الأرض قانون السماء	
آن للدينا بنا أن تطهرا	نحن أسد الله لا أسد الثرى
قد قطعنا العهد ألا نقبرا	أو نرى القرآن دستور الورى
كل شيء ما سوى الدين هباء	
أيقظت جمعية الإخوان فينا	روح آباء كرام فاتحينا
أسعدوا العالم بالإسلام حيناً	فاستجيبنا للمعالي ثائرينا

وتسابقنا إلى حمل اللواء

غسيرنا يرتاح للعيش السذيل وسوانا يهرب الموت النبيل

إن حيننا فعل مجد أثيل أو فنينا نألى ظل ظليل

حسبنا أنا سنقضى شهداء

وحين كنا نشد هذا النشيد في دار الناصرية اقترحت على الإخوان تغيير الشطرة التي تقول «أيقظت جمعية الإخوان فينا» إلى «قد أثارت دعوة الإخوان فينا» باعتبارنا أصحاب دعوة لا أعضاء جمعية .

ولما انتقلنا إلى دار العتبة نشر عبد الحكيم عابدين ديوانه «البواكير» وكان يضم مجموعة من الأناشيد اختار منها الإخوان نشيداً سموه نشيد الكتائب وهذا نصه :

هو الحق يحشد أجناده ويعتد للموقف الفاصل
فصفوا الكتائب أساده ودكوا به دولة الباطل

نرى الهدى قد جفونا الكرى وعفنا الشهى من المطعم
نهضنا إلى الله نلحوا السرى بروعة قرآنه المحكم
ونشهد من دب فوق الثرى وتحت السماء عزة المسلم
دعاة إلى الحق لسنا نرى له فدية دون بذل الدم

هو الحق يحشد أجناده ويعتد للموقف الفاصل
فصفوا الكتائب أساده ودكوا به دولة الباطل

تآخت على الله أرواحنا إخوان يروع بنساء الزم
وباتت لدى الحق آجالنا بتوجيه «مرشدنا» المؤمن
رفاق إذا ما الدجى زارنا غرنا محاربتنا بالحزن
وجند شداد إذا رامنا لباس رأى أسداً لاتهن

هو الحق يحشد أجناده ويعتد للموقف الفاصل
فصفوا الكتائب أساده ودكوا به دولة الباطل

أحَا الكفر إِمَا تَبَعْتَ الهـــــــداه
وإِمَا جَهِلْتَ فَتَحَن الكـــــــاه
إِذْن لَأَذِقْنَاكَ ضَعْف الحِـــــــاه
فإِنَّا نَصـــــــول بِروح الإِله

فأَصْبَحْتَ فِينَا الأخ المِفـــــــدى
نَقَاضَى إِلَى الروع مَن هـــــــددا
وَضَعْف المَمَات وَلَن تَنْجـــــــدا
وَنَقْفُو رَكَاب بَنَى الهـــــــدى

إِلَى النَصْر فِي المَوْقِف الفَاصِل إِلَى النَصْر فِي المَوْقِف الفَاصِل

المعسكرات

ويلحق بنظام الجِوَالَة إقامة المعسكرات ، وكان الإخوان بين الفِئَة والفِئَة يقيمون معسكرات في ضواحي القاهرة ، وكانت معسكراتهم تدريباً على الصبر والاحتمال ، وتعويداً للنفس على تحمل أشق الظروف . وكانوا يقيمون هذه المعسكرات باعتبارهم من فرق الجِوَالَة المسجلة في جمعية الكشفة الأهلية ، وكان من حقهم بهذا الاعتبار أن يستغلوا الأماكن التي أعدها هذه الجمعية لإقامة المعسكرات الكشفية ، فكثيراً ما أقام الإخوان معسكرات كانت في بعض الأحيان تستمر طول الصيف في معسكر الكشفة بحلول . وكان لكل معسكر برنامج يستوعبه أفراد كل دفعة يتضمن أنواعاً من الرياضة البدنية والتدريبات العسكرية والتربية الروحية ومنها حفظ قدر معين من القرآن الكريم مع تفسيره ، ويعقد في نهاية المدة امتحان للدفعة قبل تسريحها .

وفي صيف سنة ١٩٣٨ قرر الإخوان إقامة معسكر عام كبير في الدخيلة في الإسكندرية ، وقرر الأستاذ المرشد أن يكون على رأس القائمين بأمر هذا المعسكر ، وضربت في أرضه الرملية خيام ضخمة . وتوافد الإخوان على هذا المعسكر من مختلف البلاد ؛ فكان بمثابة مركز عام في تلك الفترة ، وكان هذا المعسكر فرصة عظيمة أتاحت لكثير من الإخوان من بلاد مختلفة أن يتعارفوا . كما كانت فرصة لشباب الإخوان أن يجلسوا ويقضوا أياماً وليالي مع كبار الإخوان ، ويتناقشوا معهم . ويتمزجوا بهم .

وقد كنت عازفاً عن المشاركة في هذا المعسكر ؛ وربما كان سبب ذلك هو أنني حين زرته لأول مرة ؛ أحسست أن فيه ما يشبه الترف إذا ما قيس بما عهدناه من قبل في معسكرتنا... ولكنني فهمت أخيراً أن الأستاذ المرشد - الذي كان مقيماً في المعسكر - كأنما قصد إلى هذا ليشرك فيه طبقة من الإخوان لم يتعودوا على معيشة الشطاف التي ألفناها ... وقد تحقق ذلك فقد رأيت كثيرين من هذه الطبقة وهو يحاول أن يمزجهم بغيرهم من سائر الإخوان

بأسلوبه العذب المحبب ، وقد استطاع فعلاً أن يجعل من هذا المسكر أداة لمزجهم ..

ولعل القارئ يذكر أننا نوهنا عن هذا المسكر في الفصل السابق حين تكلمنا عن لقاء الأستاذ المرشد بالملك فاروق .

الاسلوب الثالث

لجنة الأربعة والعشرين

في أوائل صيف عام ١٩٣٨ بعد أدائنا الامتحانات وقبيل ظهور النتيجة .. وكان ثلاثي كلية الآداب محمد عبد الحميد أحمد وعبد المحسن الحسيني وعبد الحكيم عابدين - وهم يسبقوني في الدراسة بعام - الدفعة الأولى وباكورة الذين يتخرجون في الكليات من طلبة الإخوان ... دعا الأستاذ المرشد إلى اجتماع في بيته في شارع محمد علي ؛ وكانت دعوة شخصية موجهة إلى أشخاص معينين تذيء عن أهمية خاصة لهذا الاجتماع . والتقينا في بيت الأستاذ فكان اجتماعاً يضم عدداً قليلاً من ذوي السابقة في الدعوة ، وكانت مجموعتنا من الطلبة الذين كانوا يحملون عبء الدعوة ضمن المدعوين .

ثم تكلم الأستاذ فقال ما ملخصه : إن الدعوة قد اتسع نطاقها ، وثقلت تبعاتها ، ولم يعد يكفي أن يحمل عبئاً رجل واحد . وقال إنه فكر في مجموعة تشاركه حمل هذا العبء وانتهى تفكيره إلى عقد هذا الاجتماع الذي يضم من يتوسم فيهم القدرة على هذه المشاركة .

وقال : إن المشاركة في حل هذا العبء تقتضي من صاحبها أن يجعل حياته ومستقبله وآماله طوع مشيئة هذه الدعوة ، بحيث يقدم مصلحتها على مصلحة نفسه ، ويحصر آماله فيها ، ويشكل حياته ومستقبله بحيث تكون هي الأصل ، وكل ما سواها يضحي به عن رضا نفس ... وضرب مثلاً بنفسه فقال : إنني كنت أستطيع بما أكرمني الله به من خصائص ، وما حباني به من مواهب أن أسلك طريقاً في الحياة يسرع بي إلى أعلى المناصب ، ويوفر لي ولاسرق حياة الاستمتاع والرفاهية ؛ لكنني وجدت هذه الدعوة تقتضي أن أحبها كل وقتي وكل جهدي ، فلم أتردد في تنكب طريق المناصب والرفاهية ، وأعرضت عن ذلك كل الإغراض ، وسلكت الطريق الذي يوفر لدعوتي ماتريد ، وأنا أعلم أن مثل هذا الطريق ليس فيه لي ولاسرق إلا حياة الخشونة والكفاف .

وتكلم الأستاذ المرشد في ذلك وأفاض ، ونقلنا إلى جو من الجد لم ينقلنا إلى مثله من قبل ، وواجهنا في صراحة بأمور خطيرة لم نعهدها منه من قبل ؛ فلقد كان من عادته - مهما ادهمت

الأمر - أن يكون من الرفق بنا بحيث لا يمسنا من مخاطرها إلا أقل القليل في الوقت الذي يواجه المخاطرة هو وحده . ولا أدري لعله حتى ذلك الوقت لم يكن يرى فينا من النضج ما نكون معه أهلاً لمواجهة المخاطر ، وتحمل التبعات .

وانتهى في حديثه إلى أنه يريد تكوين لجنة من أربعة وعشرين عضواً يرشحون أنفسهم من بين الحاضرين يشاركونه حمل أعباء الدعوة على الأسس والشروط التي شرحها ... وقال إنه لا يلزم أحداً من الحاضرين بما لا يستطيعه بل كل فرد يحير في سلوك الطريق الذي يرى أنه الأمثل له في الحياة ، لأن هذا يوم له ما بعده ، وسيقرر كل فرد مصيره بنفسه دون إكراه ودون مجاملة ... ومهما اختلفت بنا طرق الحياة فسنبكون مع ذلك أصدقاء وأحباء .

ومرت فترة ؛ أخذ كل من الحاضرين يراود نفسه ، ويستعرض من آماله ، ويعجم عود نفسه ، ويتخيل ما هو مقبل عليه من تضحيات لن تمسه وحده بل إنها ستشكل حياة أسرته ، ثم أخذ كل واحد يدلي بما استقرت عليه نفسه ، ويعلن ما انتهى إليه من قرار .

ولست في هذا المجال بصدد سرد تفاصيل ما قيل في هذا الاجتماع ، ولا بصدد ذكر من الذي توقف ومن الذي واصل السير ، ولا بصدد تحليل الشخصيات التي ضمها الاجتماع ، فكل هذا لا يعني ولا يعنى القارئ بقدر ما يعني أن أعرض لشرح خاصية من خاصيات هذا الرجل المرشد ، آتاه الله إياها ولم يؤتها إلا لقلة من القادة الذين يبنون الأمم ، ويوجهون التاريخ .

كان الأستاذ المرشد إذا دعا لاجتماع ، حدد له هدفاً وأعلنها ، إلا أنه يكون قد احتفظ لنفسه بأهداف أخرى لهذا الاجتماع ... ولا يكاد ينتهي اجتماع إلا بإصابة جميع الأهداف ؛ المعلن منها وغير المعلن دون أن يشعر أحد من الحاضرين بأن غير الهدف المعلن كان مقصوداً .

ففي هذا الاجتماع الخطير الهدف ، لاحظت وجود مستويات متفاوتة ؛ منها ما يسمت الهدف ويساميه ومنها ما هو دونه بقليل ومنها ما هو بعيد عنه ، وعجبت حين أظهرنا الأستاذ على هدف هذا الاجتماع لم دعا إليه كل هذه المستويات ؟ أما كان الأنسب أن تقتصر الدعوة إليه على المستوى المسامت للهدف ؛ لاسيما وهو أدري الناس بجهد كل أخ وطاقته وآماله ؟

وانتهى الاجتماع مسافراً عن نتائج نجمها فيما يلي :

- ١ - مجموعة أعطت الكلمة ، وعاهدت على المواصلة ، وسارعت إلى البيعة .
- ٢ - مجموعة أعطت الكلمة ، وعاهدت على المواصلة ، مؤجلة البيعة .
- ٣ - مجموعة اعتصمت بالصمت مبيتة نية الفرار .

لقد قصد الأستاذ من جمع هذه المستويات المتباينة إلى أن يستمعوا إلى حديثه هذا المثير الملتهب وهو يعلم أن أفراداً من الحاضرين - هو يعرفهم - لا يعتبرون الحديث إلا ترديداً لما تمثله به نفوسهم وقلوبهم فهم به مستبشرون. ويعلم أن أفراداً آخرين من الحاضرين هم معادن نفيسة لكن الكشف عن نفاسها في حاجة إلى طرق شديدة فجاء بهم إلى هذا الاجتماع لتكون حرارة حديثه مع ما يديه الفريق الأول من شجاعة وفتوة وفدائية بمثابة طرق عنيف لنفوسهم في حال التهايبا .. ويعلم أن أفراداً غير أولئك وهؤلاء ارتبطوا بالدعوة ، حين كانت بعيدة عن التيارات ، في سلام وأمن وأمان ، ربط بعضهم رباط من صداقة أو قرابة أو نسب أو غير ها ، وتعودوا أن يكونوا المتصدرين فيها ، ومع تطور الدعوة وتغير ظروفها لا زالوا متشبثين بهذه الصداوة ولم يعودوا أهلاً لها ؛ فصاروا بذلك عبئاً على الدعوة ، وليس من الذوق - بما لهم من قدم عهد بمناصبهم في الدعوة - إقصاؤهم بطريقة مباشرة ؛ فجاء بهم إلى هذا الاجتماع ليستمعوا إلى الحديث نفسه وإلى مبادرات الآخرين إزاءه فيقتنعوا بأنهم سيظالبون بما لا يستطيعون فيقصون أنفسهم بأنفسهم وتخلص الدعوة من أعباء هي في غنى عن حملها .

ويخيل إلى أن هذا الاجتماع لم يكن هدفه إلا ما ذكرت ؛ فإن لجنة الأربعة والعشرين لم تدع لاجتماع بعد هذا ... وكل الذي حدث بعد الاجتماع التاريخي أن رأينا إخواناً كانوا (راكنين) إلى الدعة قد دب في نفوسهم النشاط ، وبدأوا ينخرطون في سلك العاملين المجددين ، ورأينا مجموعة من ذوي القربايات والنسب والصداقات الشخصية لم يكونوا إلا أنفالا على الدعوة توهن كاهلها وقد انقطعوا عن الدار ؛ فتحررت الدعوة أو انطلقت بعد أن كثرت شكوى الإخوان منهم حيث كان وجودهم عائقاً ومشكلة .

أما مجموعتنا فإنها كانت شغل الأستاذ الشاغل ، وهدفه الاصيل حيث كانت محط آماله ومنتهى رجائه وكان حريصاً على أن يحدد كل فرد منها موقفه ، يعلن عن مدى تحمله ، كأنما كانت هي بيت القصيد في هذا الاجتماع لا سيما وقد تمخضت عن أول بواكيرها فقد تخرج في ذلك العام ثلاثي كلية الآداب ... والطالب طالما كان طالباً فهو الشخصية المطلقة المتحررة من كل قيد المعفاة من كل مسئولية ، فإذا ما تخرج مواجهها مسئوليات الحياة لأول مرة فهو شخصية أخرى ؛ ولذا فإن الأستاذ في حديثه كان في أكثره مولياً وجهه نحونا ، متجهاً ببصره إلينا كأنما كان يحننا بهذا الحديث ، وبعد أن فرغ من حديثه اتجه إلينا بكليته وأخذ يسأل كلا منا على حدة ما الذي استقر رأيه عليه ، ثم توقف طويلاً عند ثلاثي كلية الآداب وبالتحديد عند عبد الحكيم عابدين وعبد المحسن الحسيني ، فإن الأستاذ المرشد كان يعلم من صفاء نفس

محمد عبد الحميد أحدهما يجعله أهلاً لوصف رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنه لو لم يطلع الله ثم يعصه» ولكنه كان يعلم أن الاثنين الآخرين تكتنفهما ظروف معقدة ؛ ولذا فقد أولاهما التنازلاً خاصاً ، ووجه إليهما أسئلة محددة ، وطلب عنها إجابات صريحة .

ولقد كان الزميلان صريحين واضحين كل الوضوح ؛ أما أولهما وهو عبد الحكيم عابدين فقد وضع نفسه رهن إشارة الدعوة ، وقال إنه يعلم أن الطريق أمامه مفتوح في كليته ولكنه قرر إثارة الدعوة بكل وقته وأنه سيكتفى بوظيفة إدارية لا تقتطع من وقته إلا القليل ، وأنه يبايع على ذلك مع استعداده لترك وظيفته إذا اقتضت ظروف الدعوة ذلك مع شدة حاجته إلى مورد هذه الوظيفة .

وأما الآخر فقد كان شجاعاً حسبما علمته الدعوة ، وقال : إننى في حاجة إلى سلوك طريق الدراسة ، وإننى أعتقد أن إكمال الدراسة مع تخصص فيما يتصل بالقرآن من العلوم العربية لن يبعدنى عن ميدان الدعوة ، وأفاض في الإجابة عن وجهة نظره ، محاولاً إقناع الاجتماع برأيه .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن الأستاذ المرشد كان قد بدأ يشعر وقد حققت الدعوة بروزاً في المجتمع المصرى وأن فكرتها قد تبلورت تبلوراً أحس معه أعداؤها بأنها أصبحت ذات شوكة لا ينبغي الغفص من قيمتها ولا التفاضى عن خطورتها فأخذوا يعدون العدة للهجوم عليها من كل كل جانب - شعر الأستاذ بذلك فسارع إلى النداء فيمن يأنس فيهم القدرة على الوقوف معه في الصف الأول أمام العدو في المعركة الوشيكة الوقوع .

لقد كان في موقفه هذا كموقف قائد الجيش الذى رأى جيش الأعداء مقبلاً على مرمى النظر فانتدب للقائهم كبار ضباطه ؛ فإذا ببعضهم يتدبر بحجة أنه يريد الاستزادة من دراسة العلوم العسكرية في كلية أركان الحرب .

ومعذرة إلى القارئ إذا أنا أنهيت الحديث عن هذا الموضوع دون أن أعرض بالذكر لأسماء الذين دعوا إلى هذا الاجتماع ولأسماء الذين استجابوا ولأسماء الذين تخلفوا مكتفياً بأمثلة ، وحسب القارئ أن رأى بعينه كيف تطورت الأمور بالدعوة وكيف تناوحت الأحداث الجسام بعد ذلك وعن تمخضت هذه الأحداث الجسام .

الفصل الثالث

مهاجمة الانجليز واليهود والانطلاق بقضية فلسطين

ظلت قضية فلسطين - مع كل ما بذله الإخوان في سبيل تنبيه الأذهان إليها - شبه مجهولة إلا في حدود المساجد التي غشيها الإخوان بكلماتهم في أيام الجمع ؛ وهي مهما كثرت عدداً فإنها لاتصل إلى عشر مساجد للقاهرة ...

وبانتقال الدعوة إلى الدار الجديدة في العتبة قرر الأستاذ المرشد أن يطلق الإخوان بهذه القضية انطلاقة واسعة تنتهي إلى الهدف الأساسي وهو أن نشعر الناس جميعاً بها ، وأن نجعلها قضية عالمية تقض "مضاجع الإنجليز واليهود .

ولقد اتخذ الإخوان لتحقيق ذلك الوسائل الآتية :-

أولاً : استمر نظام الخطابة في المساجد وجمع التبرعات .
ثانياً : سلب الأستاذ على الحكومة وعلى الإنجليز قلم صالح عثمانوى في مجلة النذير ، ولقد جمع صالح في كتابة مجموعة من المقالات النارية أدت في كثير من الأحيان إلى مصادرة المجلة ، ولقد كنا نهرب أعداداً منها ... ولما كان الأسلوب الهجوى العنيف محبباً إلى نفوس الشباب ، فقد انتشرت المجلة انتشاراً واسعاً في الجامعة وفي المصالح الحكومية وفي الأقاليم بل ولقد طار صيتها إلى الأقطار الشقيقة مثل سوريا والأردن ولبنان والعراق .

ثالثاً : بدأنا في طبع منشورات نهاجم فيها الإنجليز ونشرح مظالمهم في فلسطين ونبين فيها خطر اليهود ، وكنا نوزعها في الكليات والمصالح الحكومية والمحلات التجارية والمقاهى وفي الأقاليم .

رابعاً : دعونا إلى مقاطعة المحلات اليهودية في القاهرة ، وطبعنا كشفاً بأسماء هذه المحلات وعناوينها ، والأسماء الحقيقية لأصحابها وذهلنا هذه الكشف بهذه العبارة :

«إن القرش الذى تدفعه لجل من هذه المحلات إنما تضمه في جيب يهود فلسطين ليشتروا به سلاحاً يقتلون به إخوانك المسلمين في فلسطين» .

وقد وزعنا هذه الكشوف على أوسع نطاق في القاهرة والأقاليم ، فكان لها دوى هائل لأنها أول دعاية مست العصب الحساس لليهود ، وقد بلغ من تأثير هذا الأسلوب في الدعاية أن علقت عليه الصحف الإنجليزية تستعدي الحكومة المصرية على مصدرى هذه المنشورات .

وإتماماً لفصح الخطة الصهيونية أصدرنا رسالة أو كتيباً صغيراً يضم أسماء الصحف اليهودية التى يصدرونها في أنحاء العالم والبلد الذى تصدر فيه كل صحيفة والأسماء التى يتستر خلفها أصحابها الحقيقيون من اليهود ووزعنا هذا الكتيب على أوسع نطاق .

ومع أن الحكومة المصرية مدفوعة من الإنجليز قد جردت حملات قوية لمصادرة هذه المنشورات بالذات إلا أنها لم تتمكن من الوصول إلى شيء منها وكانت تفاجأ برؤيتها في أيدي الناس في الشوارع والمحلات وفي المدارس والمعاهد والجامعة وكان كبار موظفى الدولة والوزراء يذهبون في الصباح إلى مكاتبهم فيجدون هذه المنشورات عليها ... ذلك أننا كنا حريصين على أن لا تدخل هذه المنشورات دار المركز العام وإنما كنا نطبعها في أماكن بعيدة عن الأعين ونودعها في مثل هذه الأماكن .

خامساً : كتاب «النار والدمار في فلسطين»

أحب أن أنه القارئ بهذه المناسبة إلى أن النقود التى كنا نجتمعها لفلسطين من المساجد والمقاهى والبارات لم يكن القصد من جمعها إعانة إخواننا المجاهدين الفلسطينيين بها فهم كانوا من هذه الناحية في غير حاجة إليها لأن أغنياء أهل فلسطين من التجار كانوا من وراء هؤلاء المجاهدين ، وقد حضر السيد أمين الحسيني في بعض زياراته للمركز العام للإخوان ومعه بعض هؤلاء التجار وعرفنا بهم ... وإنما كان جمعنا هذه التبرعات - كما قدمت في فصل سابق - أسلوباً من أساليب التأثير في نفوس الناس بهذه القضية وربطاً لقلوب الناس وعقولهم بها ، واختياراً لمدى تجاوبهم معها .

وأضيف الآن إلى ذلك أن هذه المبالغ لم تكن ترسل إلى المجاهدين بل كانت تصرف في شئون الدعاية لهذه القضية بأمر اللجنة العربية العليا ثم إن اللجنة كانت ترسل إلينا من أموالها الخاصة مبالغ طائلة لتضيفها إلى ما عندنا للاتفاق على هذه المهمة الخطيرة. التى كانت اللجنة تعتبرها أهم وألزم للقضية من الجهاد المسلح الذى يقوم بأعبائه المجاهدون في فلسطين نفسها ... وإلا لما كان

للإخوان وهم لا زالوا في مهدهم أن ينهضوا بمهام الدعاية المجلجلة التي ألفت مصمغ الإمبراطورية البريطانية والتي تحتاج إلى إنفاق واسع النطاق .

استطاعت اللجنة العربية العليا لفلسطين أن تطبع كتاباً سته «النار والدمار في فلسطين» وأمدتنا بعشرات الألوف منه . ويقع هذا الكتيب في نحو ثمانين صفحة تشرح ألوان الفطائع والتعذيب التي ارتكبتها الإنجليز ضد مجاهدي فلسطين .. وكل نوع من هذه القطائع معزز بصور فوتوغرافية وبأساء المجاهدين الذين ارتكب معهم هذا التعذيب ، فكان في الكتاب أكثر من خمسين صورة كل واحدة منها توضح نوعاً من أنواع التعذيب أو جريمة من فطائع الإنجليز ، فصورة توضح هجومهم على أحد بيوت المجاهدين وتبرز صور الجنود الإنجليز وهم يمزقون المصحف الشريف ويدوسونه بأحذيتهم ، وصورة توضح الجنود الإنجليز وهم يعلقون مجاهداً من رجله ورأسه إلى أسفل ويضربونه بالسياط وهو في هذا الوضع ، كما جاءوا بصور لمجاهدين ربطهم الجنود الإنجليز من أعضاء حساسة يتجمل المرء من ذكرها ...

ولقد كانت اللجنة من المهارة ومن حسن الإعداد بحيث استطاعت تسجيل هذه الفصائح على الإنجليز بالكاميرا دون أن يشعروا .. ولقد جمعوا هذه الصور المثيرة التي تحرك الجبان في هذا الكتاب وأرسلوه إلينا .

وقد قنا بتوزيعه في أسرع وقت فلم تمض ثلاثة أيام حتى عم الكتاب القاهرة وأنحاء الأقاليم ، وقامت قيامة الصحف البريطانية والبرلمان البريطاني لمواجهة هذه الكارثة المدمرة .

وداهت المركز العام قوة من رجال البوليس وفتشت الدار وكان باقياً من الكتاب سبعة وخمسون نسخة فتحتفظت عليها ، وسأل رئيس القوة عن صاحب هذه الكتب فتقدم إليه الأستاذ المرشد وقال له : أنا صاحبها . فقلت القوة النسخ إلى سيارة كانت تنتظرها وطلب الضابط من الأستاذ المرشد أن يصحبه إلى النيابة وبدأ وكيل النيابة في التحقيق مع الأستاذ على الوجه الآتي :

س : هل أنت صاحب هذه الكتب ؟

ح : نعم أنا صاحبها .

س : ألا تعلم أن هذه الكتب تهاجم السلطات ونثير الشعب ضد دولة صديقة وحليفة بحكم المعاهدة ؟

ح : أعلم ذلك وقد قصدت مهاجمة هذه السلطات ومهاجمة هذه الدولة الحليفة .

س : ألا تعلم أن القانون يعاقب على هذه الجريمة ؟

ح : أعلم وأنا لا أمانع في إحالي إلى القضاء لأنني معترف بهذه الجريمة ومصر عليها .

وأنهى وكيل النيابة التحقيق ووجهه الأستاذ المرشد وقرر وكيل النيابة حبس الأستاذ المرشد على ذمة هذه القضية حتى تحدد جلسة لنظرها .

ورفع التحقيق إلى النائب العام كما قدمت صورة منه إلى وزارة الداخلية - وأحب أن أنبه هنا إلى حقيقة مؤلمة كانت تعانى منها البلاد في تلك الأيام هي أن وزارة الداخلية كانت غرضاً عن السفارة البريطانية فقد كان وكيل هذه الوزارة بالذات ترشحه في حقيقة الأمر هذه السفارة من المصريين الموالين لها فهو مصرى الجنسية بريطاني النزعة ، وكان لهذا الوكيل - فيما يخص مصالح الإنجليز - سلطة الوزير وفوق سلطة رئيس الوزراء .

وقامت وزارة الداخلية بتقديم صورة التحقيق إلى السفير البريطاني في انتظار كلمة ثناء منه على هذه الخدمة العظيمة .. وقرأ السفير التحقيق حتى وصل إلى نهايته فقطب جبينه وقال لصنيعته : إنك بهذا التحقيق قدمت لحسن البنا أعظم خدمة دون أن تدري .. لقد استطاع هذا الرجل أن يضحك عليكم ... لقد وزع الكتاب وأصبح في أيدي الناس في كل مكان .. وما صدرتموه منه لا يعد شيئاً يذكر بجانب ما تم توزيعه ، إن أمانة هذا الرجل هي أن يقدم إلى القضاء ليتخذ من منصة الدفاع عن نفسه في هذه القضية السياسية وسيلة إلى نشر أفكاره ، وإلى التشهير بنا ولصحتنا وتوصليل ما تضمنه الكتاب إلى أسباع من لم يصل إليه عن طريق الصحف التي ستبارى في نشر ما يقال في القضية كدأب الصحف في القضايا السياسية ... هذا التحقيق يجب أن يحفظ وأن يفرج عن الأستاذ البنا في الحال»

وأفرج عن الأستاذ المرشد فعلاً قبل أن يتم في الحبس أربعاً وعشرين ساعة ، وقد فوجئ الأستاذ بهذا الإفراج لأنه كان يعتقد أن حكام مصر من الفباء بحيث لا يفهمون هدفه .. وقد زالت الحيرة من هذه المفاجأة حين جاءت عيوننا التي كانت ترصد التحركات وأخبرونا بما كان من أمر الداخلية مع السفير البريطاني ..

دوسيه لحسن البنا بالسفارة البريطانية :

وقد أخبرنا عيوننا هؤلاء أنه منذ ذلك اليوم بدأ الإنجليز يهتمون بحسن البنا وأعدوا له دوسيهها جمعوا فيه تاريخ حياته ، وأخذوا يعدون العدة للقضاء عليه وعلى دعوته .

لقد كان هذا الكتاب صاعقة على الإنجليز حقاً ، فقد اقرت الإنجليز في فلسطين لظائع يندى لها جبين الإنسانية خجلاً ، وظنوا أنهم بمكرهم وبملكهم للعالم قد أحاطوا بكل شيء قدرة وعلماً ، فارتكبوا ما ارتكبوا مطمئنين إلى أن جرائمهم هي في طي من الكتمان وأن فلسطين نصيبها أصبحت

في عزلة عن العالم كله ، وكان الله تعالى أشد منهم مكرراً فأمد هؤلاء المجاهدين بالمقدرة التي تمكنوا بها من تسجيل مخازيهم لا بالقلم وحده بل بما هو أدق وأصدق وأعمق تأثيراً في النفوس وهي الصور الشمسية الواضحة الناطقة المعبرة . «ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين»
ومها تكن عند امرئ من خليقة وإن سألها تخفى على الناس تعلم
سادساً :

«مظاهرات لأول مرة في جميع أنحاء القطر»

قبل حلول اليوم السابع عشر من شهر نوفمبر في تلك السنة وهو يوم ذكرى وعد بلفور المشنوم وضع الإخوان خطة بحيث يقوم الإخوان في جميع شعب القطر كله في ذلك اليوم بمظاهرات صاخبة ، يهتفون فيها بهتافات محددة . وقد نجحت هذه الفكرة وقامت هذه المظاهرات . وكان قيامها في يوم واحد وبهتافات واحدة في جميع أنحاء البلاد دليلاً على قوة الدعوة ، وهزاً لمكانة الحكومة ، التي أمرت بإلقاء القبض على مدبري هذه المظاهرات .. كما أن نجاح هذه المظاهرات جعل الإنجليز يشعرون أنهم أصبحوا لأول مرة يواجهون عدواً حقيقياً متغلغلاً في أحشاء الشعب وليس من السهل قهره لأنه يعتصم في جميع تصرفاته بالدين .

ولقد كانت هذه المظاهرات أول تنبيه لأذهان الشعب المصري في القرى والمدن نحو قضية فلسطين بعد أن كان التنبيه مقتصرًا تقريباً على القاهرة ولكن التنبيه في هذه المرة جاء تنبيهاً قوياً مثيراً أغنى عن كثير من وسائل التنبيه السابقة التي اختصت بها العاصمة .

وكما أن هذه المظاهرات كانت كسباً رائعاً لقضية فلسطين ، فإنها عادت على دعوة الإخوان المسلمين بفوائد كبيرة وأظهرت في هذا الشعب المغلوب على أمره مواهب مذهلة ، وتوضيحا لذلك سأضرب للتقارئ مثلاً بما تم في هذا الصدد بإحدى شعب الإخوان :

قام الإخوان بشعبة رشيد بمظاهرة كبرى من الشعب ، وفي اليوم التالي وصلني خطاب بالقاهرة يطلب حضوري إلى رشيد لأمر هام فسافرت فوجدت أن المظاهرة سببت نزاعاً بين فريقين ، أحدهما يمثل الإخوان الصغار سنام الطلبة والعامل الذين قاموا بالمظاهرة واعتقل بعضهم ، والفريق الآخر يمثل الإخوان الكبار سنا ومكانة أدبيه والذين جاءهم الإخوان الصغار سنا وأسندوا إليهم المناصب الرئيسية في الشعبة ليكونوا واجهة لهم أمام الأهالي ، والذين كان بعضهم قد قبل الانضمام إلى الشعبة - عمالة لي شخصياً حيث كانت تربطني بهم صلات .

تقدم إلى هؤلاء الإخوان الكبار وقالوا : أيرضيك أن يقوم الإخوان في الشعبة بمظاهرة يهتفون فيها بهتافات ضد الحكومة وضد الإنجليز ويوقفوننا بذلك في موقف حرج مع رجال البوليس

الذين طلبوا إلينا أن نأمر الإخوان بفرض المظاهرة ، فلما حاولنا ذلك رفضوا واستمروا في المظاهرة حتى قبض على عشرة منهم وهم الآن في سجن المركز ؟

قلت لهم : أنعرفون لماذا قاموا بالمظاهرة ؟ قالوا : لأن المركز العام أرسل منشورا بذلك . قلت : ما داموا قد فعلوا ما فعلوا تنفيذاً لأمر المركز العام فإنهم يستحقون الشكر . قالوا : إذن أنت موافق على عملهم . قلت : نعم .

قالوا : إذن فلتسمح لنا بالاستقالة من الشعبة لأننا لا نستطيع تحمل هذه التبعات وما ينبغي ملاحظته أن هذه كانت أول مظاهرة تقوم في رشيد أو في أقاليم مصر بوجه عام منذ مظاهرات سنة ١٩١٩ .

والذي حدث في شعبة رشيد من ابتعاد أشخاص لمسوا في الدعوة خشونة كانت فوق طاقتهم قد حدث في الشعب الأخرى . وكانت هذه أول هزة للكيان الإخواني أو بمعنى آخر كانت أول تصفية تمخضت عن تخلص هذه الشعب من أشخاص ضعاف - أدوا دورهم - ولم يعد وجودهم بها إلا ثقلاً على كاهلها .

من مواهب هذا الشعب :

من طرائف ما حدث للإخوان العشرة الصغار سنا - الذين كانوا بين طالب وعامل وصانع وصياد - والذين ألقى القبض عليهم في رشيد وأودعوا سجن المركز . وقد تحلى عنهم - كما قدمت إخوانهم الكبار ذوو الحيثة في المدينة والمقربون إلى رجال الإدارة بالمركز ، أنهم أودعوا في زنازين ، كل في زنزانه على انفراد ولم يكن فيهم في ذلك الوقت من تجاوز السادسة عشرة إلا القليل ، وقد أحضر أهلهم لهم طعاماً فنع عنهم ، وعوملوا أسوأ معاملة - وتصادف أن كان في سجن المركز بجانبهم شخص من أهل رشيد يعتبر رئيس عصابة ويعتبر أخطر مجرم في المدينة ، وقد ارتكب عدة جنائيات وسجن أكثر من مرة ، وكان في هذه المرة متهماً في جريمة ...

وصبر الإخوان الصغار - الذين لا نصير لهم - على الإيذاء والجوع حتى حان موعد الصلاة فقام أحدهم وأذن للصلاة داخل زنزانه بأعلى صوته ، فجاء زبانية السجن وطارقوا عليه الباب وهددوه إذا هو لم يوقف الأذان أن يفتحووا عليه الزنزانة ويؤدبوه ...

وهنا سمع صوت من الزنزانة المجاورة يهدد هؤلاء السجناء بقتلهم إذا لم يتركوا الشاب الذي يؤذن يكمل أذانه وإذا لم يحضروا له ولزملائه لوازم الوضوء وإذا لم يفرشوا لهم فرشاً طاهراً يؤدون عليه الصلاة ...

كان هذا الصوت هو صوت الرجل الخطر ، الذى كانت حياته سلسلة من الجرائم المروعة ، كان صوت «محمد أبو العلا» .

وهنا توقف الزبانية عن خطتهم وبدأوا يتفاهمون مع «محمد أبو العلا» عما يريد متعجبين من اهتمامه بشباب يعملون للدين ، ولا يتصور العقل أن يكون المدافع عنهم محمد أبو العلا ملك الإجرام في رشيد ولم يكن أمام الزبانية إلا الاستجابة كارهين لطلبات محمد أبو العلا ، الذى شفع تهديده لهم بقوله : «كل ما تريدون أن توجهوه هؤلاء الشباب من الإهانة وجهوه إلى أنا نيابة عنهم ، أما هؤلاء فأنا أضعمهم داخل عني ، ويجب أن تضعوهم أنتم أيضا داخل عيونكم لأنهم يدافعون عن الدين» .

ويسرت للإخوان وسائل الوضوء والصلاة ، وصاروا يؤذنون لجميع الأوقات ، وسمح بدخول الطعام اليهم ، وفتحت لهم أبواب النزازين ، وقضوا الفترة التى قضوها في هذا الحجز معززين مكرمين ، وصدق الله العظيم إذ يقول «إن الله يدافع عن الذين آمنوا» وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول «إن الله لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر» .

وإذا كان من تعليق على هذه الظاهرة المثيرة للدهشة فإننا نقول : إن عاطفة الانتصار للدين غريزة في أعماق كل نفس مهما تنوعت مسالك أصحاب النفوس في الحياة ، وإن كثيرين ممن وصمهم مجتمعهم بأنهم من عتاة المجرمين ليسوا في حقيقة الأمر مسئولين عن مسلكهم هذا بقدر ما تقع المسئولية في ذلك على مجتمعهم .. وقد أعجبنى مقال نشر في إحدى المجلات الأدبية للأستاذ توفيق الحكيم في أواخر الثلاثينيات يقول فيه : إن العقل البشرى مقسم إلى مناطق ، كل منطقة مستقلة تماماً من أخواتها ، وأن من هذه المناطق منطقة للدين ، وضرب مثلاً برجل سكير تراه وهو يعاقر الخمر يسمع من يظعن في الدين فينبهه له نائراً في وجهه من أجل الدين .

ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أشير إلى أن عدداً لا بأس به من كانوا قطاع طريق قد استجابوا للدعوة وصلح أمرهم وصاروا من المؤمنين الأقوياء .

تابع :

أول مؤتمر عربي من أجل فلسطين

أفضت جهود الإخوان في سبيل هذه القضية مضاجع الإنجليز ، فاشتعل الشعور بالنقمة عليهم لا في الجأمة المصرية فحسب بل أحسوا بهذا الاشتعال في أنحاء البلاد العربية من أقصاها إلى أقصاها وكانت سياسة انجلترا تقوم على أساس فصل مصر عن البلاد العربية ، واستطاعوا فعلاً

تحقيق هذا الهدف من سياستهم حيث أقنعوا المصريين بأنهم فراعنة وليسوا عرباً ، كما أقنعوا البلاد العربية بأنهم هم العرب وأن المصريين ليسوا عرباً وإنما هم فراعنة ... وكنت تشعر فعلاً بأن المصريين مقتنعون بهذه الفكرة الماكرة الخبيثة كما تشعر بأن أهل الشام والعراق والحجاز واليمن والمغرب مقتنعون أيضاً بذلك ، وكانت لنا مناقشات طويلة وحادة في حرم الجامعة مع مثل الأحزاب في هذه النقطة بالذات لأنها نقطة جوهرية في دعوتها .

وكان الذي دفع الإنجليز إلى ترسيخ هذه الفكرة في أدمغة المصريين وأدمغة سكان البلاد العربية الأخرى اعتقادهم بأن نجاح استراتيجيتهم الاستعمارية في الشرق متوقف على عزل مصر عن البلاد العربية الأخرى فصرّوا على اعتبار راساً والبلاد العربية الأخرى بقية الجسد فإذا فصل الرأس عن الجسد فقد الرأس الحياة وفقد الجسم الحياة ، وعاث الإنجليز فساداً دون أن يصادفوا في أي مكان من يعترض طريقهم أو يقف في وجههم .

وخذع المصريون بهذه الفكرة رديحاً طويلاً من الزمن ، وقامت زعامات سياسية كبيرة سائرت الخدعة ولم يخطر لها ببال أن تولى موضوع العروبة أي اهتمام . واطمئنا إلى نجاح هذه الخدعة دبر الإنجليز جريمة بيع فلسطين لليهود وهم في مأمن من أية مقاومة .. وكيف لا يأمنون وقد استطاعوا أن يجعلوا المصري المثقف حين تطلب منه مساعدة لمجاهدي فلسطين يتساءل : : وأين تقع فلسطين هذه أهى في أوروبا ؟ كما استطاعوا أن يجعلوا رئيس وزراء مصر حين يسأله أحد الصحفيين ماذا أعدتم لقضية فلسطين ؟ فيجيب : أنا رئيس وزراء مصر ولست رئيس وزراء فلسطين .. ومعنى هذا أن مصر حكومة وشعباً صاروا معزولين عزلاً تاماً عن الأمة العربية ، وأخطروا ما في هذا العزل أنهم عزلوا قلباً وشعوراً وعاطفة .

لقد استطاع الإخوان المسلمون ، والإخوان المسلمون وحدهم أن يفسدوا على الإنجليز عظيمهم ، وأن ينسفوا الجدار الشاهق السميكة الذي شيده الإنجليز ليفصل مصر عن بقية الأمة العربية . ولكنهم لم يستطيعوا إنجاز هذه المهمة الخطيرة إلا بجهود مضنية متواصلة مكثفة استمرت أكثر من خمس سنوات متوالية . حققوا في نهايتها المعجزة حين وصلوا قلوب شعب مصر بقلوب إخوان عرب لهم في فلسطين ، وحين صارت قضية فلسطين قضية عامة في مصر يتألم قلب المصري لها ، ويكره الإنجليز من أجلها ... وبذلك استطاع الإخوان أن يمدوا بين مصر والأمة العربية أول جسر ربط بينها .

ولقد عبرت مشاعر المصريين نحو فلسطين ممثلة في جهود الإخوان عن طريق هذا الجسر إلى

البلاد العربية فكانت بمثابة جرعة منبهة لهذه البلاد فبدأت تحس بأنها الجسد الذي كان يفتقد رأسه وقد وجد رأسه في مصر .

وقد استغل الإخوان هذا الجسر الذي أقاموه غير استغلال فوجهوا الدعوة لرجال بلاد العربية لعقد مؤتمر لدراسة مشكلة فلسطين في مصر واستجاب الكثير منهم ومثلت أكثر البلاد العربية بنخبة من كبار رجالها في ذلك الوقت ، ولم يبق في ذاكرتي من أسماهم بعد هذه المدة الطويلة إلا الأستاذ فارس الخوري وهو مسيحي من ذوي المستوى الرفيع في التفكير الذي يتوقع عن التعصب ويقدر المعاني الإسلامية العليا التي تنظم العقائد والأجناس والألوان المختلفة في سلم واحد نصيده هو الأمة الإسلامية العتيدة ، وكان هذا الرجل زعيماً سورياً عظيماً ، تولى رئاسة الوزارة في سوريا أكثر من مرة وكان خطيباً مفوهاً ، ومع أنه كان في ذلك الوقت مشغولاً بالرأس شيئاً إلا أنه شاب الروح والقلب تكلم في المؤتمر فأطرب المشاعر وأثار الشجون .

وكان هذا المؤتمر أول مؤتمر عربي يعقد من أجل فلسطين ، وقد عقد في دار المركز العام بالعتبة ، وتعاقد فيه الخطباء من مختلف البلاد ثم تكلم الأستاذ المرشد . وانتهى المؤتمر بقرارات تطالب حكومات الدول العربية بالتدخل من أجل إنقاذ فلسطين من المؤامرة الانجليزية اليهودية وكان لهذا المؤتمر آثار بعيدة المدى لأنه جعل الحكومات العربية تحس لأول مرة أن عليها مسئولية تجاه مشكلة فلسطين .

ثامناً :

المؤتمر البرلماني العالمي

تطابرت أنباء المؤتمر العربي الذي انعقد بدار المركز العام بالعتبة بالقاهرة إلى أنحاء البلاد العربية والإسلامية وإلى أنحاء العالم كله ، وكان أشد الناس اهتماماً بهذا المؤتمر الإنجليز .

وصار يتوافد على دار المركز العام رجال كثيرون من زعماء البلاد العربية والإسلامية ومن ذوي الرأي فيها ، وكان من توافد الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود والأمير أحمد بن يحيى ومعهم بعض إخوتهم ، أوفدوا من قبل والديهم ملك السعودية وإمام اليمن ليتفاهموا مع الحكومة المصرية ومع الإخوان المسلمين فيما يجب عمله لإنقاذ فلسطين

ولما كانت أكثر البلاد العربية في ذلك الوقت رازحة تحت أثقال الاستعمار ، فقد تمخض التفاهم بين زعماء البلاد الإسلامية والإخوان عن وسيلة يتفادون بها اللجوء إلى هذه الحكومات المكبلية ، وتبرز بها البلاد العربية والإسلامية متضامنة ، وكان ذلك بأن توجه الدعوة إلى جميع برلمانات العالم لعقد مؤتمر في القاهرة لمعالجة قضية فلسطين .

وقد وجهت الدعوة وأوفدت كثير من البرلمانات ممثلين لها ، وانعقد المؤتمر بسرأى آل لطف الله بالقاهرة ، وكان هذا أول مؤتمر عالمى من أجل فلسطين ، وتحدث الكثيرون من زعماء العالم ، وشرحت القضية من جميع جوانبها ، وانتهى المؤتمر بقرارات موجهة إلى جميع دول العالم عامة وإلى حكومة إنجلترا خاصة بوجوب تسوية هذه القضية بما يحفظ حقوق أهل فلسطين .

وهنا بدأت إنجلترا تشعر بأن سياستها في فلسطين أصبحت مهددة ، فأوقفت حملات القتل والسجن والتعذيب والتنكيل ، وأبدت استعدادها للتفاهم ، وطلبت عقد مؤتمر من أجل فلسطين في لندن يضم العرب واليهود وممثلي الحكومة البريطانية ، وكان من ممثلي العرب عدا عرب فلسطين الأميران فيصل بن عبد العزيز وأحمد بن يحيى واشترك الإخوان في المؤتمر باعتبارهم سكرتيرين للأميرين ومترجمين لها . وأذكر أن من أوفد معها من الإخوان الأخ محمود أبو السعود وكان طالبا بكلية التجارة ويجيد اللغة الإنجليزية كتابة وتحدثاً ، وسمى هذا المؤتمر بمؤتمر المائدة المستديرة .

وما كان الإخوان لينتظروا من مؤتمر المائدة المستديرة قراراً يحل المشكلة أو يرد الحق إلى نصابه ، وإنما كان هدفهم أن يكون مجرد عقد هذا المؤتمر خطوة جديدة على طريق إسعاد العالم مظلمة أهل فلسطين التي طالما حاول الإنجليز ومن ورائهم يهود العالم أن يلقوا عليها ستاراً كثيفاً يحجبها عن العالم .

الفصل الرابع

الفتنة الأولى

« أولا » أضواء على نواح من شخصية حسن البنا

(١) رأى الشيخ طنطاوى جوهرى :

عهد إلى الأستاذ المرشد في يوم من أيام هذا العام ١٩٣٨ أن أنقل له في كراس أرجوزة جمع فيها ناطقها كل ما يتصل بالتصوف من أهداف ووسائل ودرجات وآداب وأصول ، وأكاد أذكر أنى كنت أنقلها من كتاب لابن عجيبة في شرحها .. وكنت جالساً ظهر ذلك اليوم وحدى في المركز العام ، واتخذت لي مقعداً وقمطراً في شرفة الدار .

وبينما كنت أنقلها في شغف - حيث كان لي سابقة اتصال بالمتصوفة عملاً ، كما كنت أعكف الساعات الطوال في الأيام والليالي على قراءة «إحياء علوم الدين» للفراي ... بينما أنا كذلك إذ دخل على رجل أحبه وأجله ، وكنت مشتاقاً إلى لقائه كما كنت أحس أنه يحبنى ولم أكن رأيت منذ كنا في ١٣ شارع الناصرية ، ذلك هو الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى ، الذى كان يلقب في ذلك الوقت «بحكيم الإسلام» وأظنى تحدثت عنه في أوائل هذه المذكرات حديثاً عابراً .. ولقد علققت نفسى هذا الرجل من أول لقاء ، وقد سمعت عنه الكثير قبل أن أنزح إلى القاهرة فلقد كان الرجل شخصية بارزة في مصر ، فلما التقيت به في القاهرة رأيت فيه الرجل الذى يقول ما يفعل ويفعل ما يقول ، فع أنه كان أستاذاً في دار العلوم ، ولم ألقه إلا بعد إحالته إلى المعاش بأكثر من عشر سنين إلا أنك كنت ترى فيه شاباً في عتفوان شبابه ، فهو متوقد الذهن ، يتحدث معك في كل علم من العلوم الكونية من نبات وحيوان وحشرات وجيولوجيا وكيمياء وطبيعة ورياضة وميكانيكا وفلك وموسيقى كأنما هو متخصص في كل واحد منها ، وتراه عن طريق هذه العلوم يدرك على وجود الخالق ووحدانيته وقدرته وحكمته ورحمته .

هذا فضلا عن العلوم العربية بأنواعها من نحو وصرف وبلاغة وأدب ، ولد ألف كتابا ساه «الجواهر» في تفسير القرآن الكريم في ستة وعشرين جزءاً أتبعها بعد ذلك كما أخبرني بستة أجزاء أخرى ، وقد كنت أطلع في هذا التفسير بدار الكتب ، وهو يفسر الآيات التفسير المعتاد ثم يتبع هذا التفسير بتفسير علمي يقود القارئ إلى الإيمان بالله إن كان غير مؤمن ، ويزيده إيمانا إن كان من المؤمنين.. وما أذكره من دروسه التي كان يلقيها علينا في دار شارع الناصرية وكانت سببا في تشوفي إلى دراسة العلوم الزراعية بعد أن كنت قد التحقت بكلية أخرى حيث كان يفسر لنا قوله تعالى «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت» أنه قال لنا إن علماء النبات بدراساتهم توزيع أوراق الأشجار على فروعها ، وجدوا أن هذا التوزيع في أشجار العالم كله خاصص لنظام معين لا يخرج عنه أبداً هو نظام المتواليات العددية - وهي إحدى قوانين علم الجبر - فكل عائلة من عائلات النبات تتوزع أوراقها على فروع أشجارها بموجب متواليات عددية ذات أس لا تتحد عنه مهما كثرت أشجار هذه العائلة وتعددت أماكنها واختلفت البيئات التي تنمو فيها ... وقد حاولت ملاحظة ذلك بنفسى فوجدته صحيحاً فكيف يلمس هذا النظام الرائع إنسان ثم لا يؤمن بأن هذا الكون إلها واحداً وصدق الله تعالى إذ يقول «لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون» وحيث يقول «إنما يخشى الله من عباده العلماء» .

ولقد كان الشيخ طنطاوى جوهرى في أيامه ذائع الصيت في مصر وفي خارج مصر ، وكثيراً ما كان يقصده العلماء من البلاد الشرقية ومن الغرب ، من أمريكا وإنجلترا وفرنسا ، يتلقون على يديه علوماً معينة .. وأذكر في فترة من أيام شارع الناصرية أنه كان يحرص بعد إلقاء درسه علينا في المركز العام أن يكون في بيته مبكراً - بعد العشاء - لأن مستشارة فرنسية قدمت من فرنسا خصيصاً لتحضر عليه شرح «الرسالة القشيرية» وهي من المراجع الأساسية في علم التصوف ، وتعد من الرسائل الفلسفية المعقدة .

وقد تقدم في إحدى السنوات ببحث في الموسيقى لنيل جائزة نوبل للسلام - وما كانت هذه الجائزة لتمطى لمصرى في ذلك الوقت حتى لو لمس السماء بيده - وقد اطلعت على هذا البحث فوجدته كتبياً في نحو مائة صفحة من القطع المتوسط . ومع أنه بحث في الموسيقى إلا أنك إذا قرأته وجدت كل ما فيه بحوثاً في الكيمياء ولكنه أثبت بالقوانين الكيماوية - بطريقته الخاصة - أن هذا الكون إن هو إلا موسيقى .

ولم يكن هذا الرجل يدرس القرآن وما يتصل به من علوم ، ويدرس التصوف وما يحيط به من فلسفة ، بقصد الدراسة العلمية ليتشدد بها ، ويبرز في المجتمع .. والرجل لم يكن بحاجة إلى

ما يبرزه فتمد كان ذائع الصيت كما قدمت ، رفيع المكانة عند الكافة ، بل كانت دراسته دراسة يتقرب بها إلى خالقه ، وقد استنتجت ذلك من موقفين له :

الموقف الأول : أن هذا الرجل على علو قدره ، وذويوع صيته ، ورفيع مكانته ، وكبر سنه وسعة علمه ، لم يستكبر عن أن ينضوي راضيا تحت لواء الإخوان المسلمين ، وتحت قيادة حسن البنا الذي لم يكن في ذلك الوقت أكثر من شاب مغمور ، مدرس في مدرسة ابتدائية لا يكاد يعرفه أحد

الموقف الآخر : أن هذا الرجل كان يلقى علينا درسه في المركز العام بشارع الناصرية بين المغرب والعشاء ، فكان في كثير من الأحيان يأتينا قبيل المغرب فيكلف أحدنا بشراء رغيف صغير جاف وحب طاطم واحدة ، وحين يؤذن المغرب يأكل الرغيف بحبة الطاطم مع قليل من الملح ويكتفى بذلك إفطاراً من صياحه . ويتبين لنا في أكثر هذه الأيام أنه كان في بلدته «وراق العرب» وهي من ضواحي القاهرة وتبعد عنها أكثر من عشرة كيلو مترات وأنه ذهب إليها في الصباح ماشيا ورجع منها في المساء ماشياً .

استطردت هذا الاستطراد ليعرف القارئ قيمة هذا الرجل ، وسمو قدره ، وعلو كعبه سواء في العلم والعمل حتى يستطيع هذا القارئ أن يقدر حديثه حق قدره ، ويحل ما يصدر عنه المحل الذي يناسب قدره ومنزله وهالك هذا الحديث :

دخل على هذا الرجل العظيم وأنا جالس في شرفة المركز العام بعد الظهر وحدي أنقل أرجوزة التصوف التي أشرت إليها من قبل مسلم وقلت من مكافئ وتلقيتيه بما يتناسب مع مقامه ، وأعددت له مقعداً بجاذبي فابتدري سائلا ماذا تفعل ؟ فأجبت فقال لي : إنها أرجوزة جميلة في التصوف أقرأها على فأخذت أقرأها فقال لي : ما هكذا يقرأ الشعرياني قلت : هل لحت في شيء مما قرأت ؟ قال : لا إنك لم تلحن ولكن ما هكذا يقرأ قلت : إذن فكيف يقرأ ؟ قال : هل كانوا يقرأونه في سوق عكاظ كما تقرأه ؟ قلت : إذن فكيف كانوا يقرأونه ؟ فتناول الكتاب وأخذ يقرأه بنغمة حلوة كأنه يغنيه ثم قال . لا معنى للشعر إذا لم يقرأ بهذه الطريقة ، ولذا فإنهم كانوا ينشدون الشعر لا يقرأونه ، أليس الشعر موسيقى ؟ ..

ثم قال لي عندما وصل في الأرجوزة إلى أبيات تتحدث عن الحجب والكشف : أنصت إلى ياعمود فأنصت إليه فقال : إن الرجل ليأخذ نفسه بأساليب الرياضة النفسية فيرقى من درجة إلى أخرى حتى يدرك اسمي درجات سمو فيصل إلى درجة الكشف حيث ينكشف له الكون ويرى بنور الله ماستره الله عن خلقه من الغيب . فهل هناك منزلة أعلى من هذه المنزلة ؟ ! ..

قلت : لا أعتقد أن هناك منزلة أعلى من تلك .

قال : بل هناك منزلة أعلى من تلك . قلت متمجباً : وما عساها تكون تلك المنزلة ؟ ..

قال : هي منزلة رجال يصطنعهم ربهم ، ويختارهم من بين خلفه ، ويكل إليهم مقارعة الفساد ، ومنازلة الظلم ، وإشعال جذوة الإيمان بالله في القلوب ، وبث روح الأخوة بين المؤمنين ؛ حتى تتكون لدعوة الله قوة ترفع صوت الله في الأرض ، فتقف للظلمة والمفسدين بالمرصاد .. ثم قال الشيخ : واعلم يا بني أن هذه المهمة التي يختار لها الله تعالى هؤلاء الرجال تقتضي أن يحجبهم عن غيبه فهم دائماً محجوبون لكنهم مع هذا الحجب أعلى درجة من أهل الكشف ؛ لأن أهل الكشف لا ينتفع بهم الناس ، أما هؤلاء فينتفع بهم خلق كثيرون بل تنتفع بهم أمم ينقلونهم من حال إلى حال... قال واعلم يا بني أن من هذا النوع من الرجال الرسل فوسى أعلى درجة من الخضر ، وسليمان أعلى درجة من الذي عنده علم الكتاب ، ومنهم كبار الصحابة من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلى ومنهم كبار المصلحين ومنهم حسن البنا .

قلت : أهكذا ترى حسن البنا ؟ ...

قال : نعم . قلت : وكيف عرفته ؟ .

قال : سمعت عنه فذهبت إليه وجلست معه وسألته إلام تدعو ؟

قال : أدعو إلى القرآن .

قلت : دع هذا اللفظ الكريم من حديثنا ؛ فإن هذا اللفظ الكريم مظلوم ظلماً بيناً ؛ لقد انتحله الجميع وانتسبوا إليه ؛ ما من فرقة قامت في الدولة الإسلامية - مهما كانت زائفة عن الإسلام - إلا وادعت أنها تدعو إلى القرآن ... فأجبت بتفاصيل ما تدعو إليه في كل ناحية من نواحي الحياة ... قال فشرح لي تفاصيل دعوته فوجدتها في حدود كتاب الله ...

قال : ثم رأيت في الشاب وآرائه وفهمه لكتاب الله ، وإحاطته بالتاريخ ، وفهمه للمجتمع الذي نعيش فيه ، وذكائه وألمعيته وشخصيته الأخاذة ، ومقدرته على جمع الناس على دعوته ، وصبره على المكاراة ، وتعففه عما في أيدي الناس ، وبذله في سبيل دعوته ، ولين جانيه ، وتواضعه بحيث لا تكاد تميزه من أتباعه ؛ قال فرأيت فيه صفات القائد الذي يفترقه العالم الإسلامي .

أقول : وحرصاً مني على أمانة النقل أقرر أن هناك بقية لهذا الحديث ولكني لا أذكر هل الذي قالها لي هو الأستاذ الشيخ طنطاوي جوهرى أم أن الذي قالها لي هو الأستاذ المرشد بعد أن حدثته بما دار بيني وبين الأستاذ الكبير من حديث ، تلك هي : أنه بعد انتهاء الحوار بينهما على النحو الذي ذكرت وبعد أن أعلن الشيخ اقتناعه قال له الأستاذ المرشد : ياسيدي الأستاذ ؛

إنك أستاذنا وأستاذ الجميع وأنت حكيم الإسلام وأراك أحق بمنصب الإرشاد لهذه الدعوة مني ..
وهذه يدى أبايك ..

فقال الشيخ : لا يا أخى ... أنت صاحب الدعوة وأنت أقدر عليها وأنت أجدر بها ...
وأنا أبايك على ذلك - ومديده فيايه - ولم ينكث - رحمه الله بيته إلى أن لقي ربه ... حتى إنه
لما وقعت الفتنة الأولى وانشق جماعة من الإخوان مما سيأتى بيانه في موضعه إن شاء الله وأسوا
جماعة «شباب محمد» ذهبوا إليه وطلبوا منه أن يكون مرشداً عاماً لهم رفض قائلاً «لا يجوز أن
يكون للمسلمين إلا مرشد عام واحد» .

(٢) قوة روحية جارية :

قد يلاحظ القارئ أننى حين أصف حسن البناء لا أتعرض لميزاته العقلية والذهنية مع أنه
كان فيها الذروة التى لا تسامى خصوصية ذهن وحدة ذكاء وانقاد لقيمة وحافظه تعى فلا يفلت
منها شيء وذاكرة لكل ما رأت أو سمعت حتى أسماء الأشخاص مهما طال عليها الزمن وتباعدت
بها البلاد فقد يزور قرية في أعماق الصعيد ويلتقى بعد سنوات في القاهرة يفرد منها فتراه يتناديه
باسمه ولقبه ويسأله عن أبنائه بأسمائهم - ومع ذلك فانا لا أتعرض لهذه الميزات لأن كثيراً من
الزعماء يتمتعون بأنصبة متفاوتة منها .

ولكن الميزة التى تتقطع دونها الأعناق والى قلما يجود الزمان بزعم يظهر بنصيب منها
هى القوة الروحية الخارقة ولقد كان حسن البناء - رحمه الله - عميق الإيمان بالله ، شديد الثقة
ليه ، يؤمن بالغيب الذى يسمونه الآن «ما وراء الطبيعة» وكان كثيراً ما يردد قول ابن الفارض .

ولأنك من طيبته طروسه بحيث استقلت عقلسه واستبدت
فإن وراء العقل علماً يحل عن مدارك غايات العقول السليمة

وكان يرى في القرآن ما لا يراه غيره ؛ وإن كنا جميعاً نردد عبارات مؤداها أننا نؤمن
بأن القرآن هو كل شيء لكننا في تصرفاتنا في الحياة نتصرف وكأننا لا نؤمن بما نردد .. أما هو
فكان القرآن هو حياته وهو عمله وحركته ، وهو تفكيره وسكونه ، وهو كلامه وسكوته ،
وهو دائرة آماله وهو مرجعه ولا مرجع له غيره .. لقد كنت أحار في تصور قول أم المؤمنين
عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه كان «خلقه القرآن» حتى لقيت حسن
البناء وصاحبه فبدأت الصورة تتضح أمامى .

لم أر إنساناً يحفظ القرآن كما يحفظه هذا الرجل ؛ لم يكن يتحدث مع أى أحد كان في أمر

من الأمور إلا صدع بالآية دون ما إعمال فكر كأنما أنزلت عليه ... ولم أكن أقدر هذه المقدرة حق قدرها إلا بعد أن حفظت القرآن وقرأته غيباً على نفسى وعلى غيرى عشرات المرات ، ومع ذلك كنت إذا حاولت تذكر آية معينة فى موضوع معين أعجز فى أكثر الأحيان عن الإتيان بها ... وفهمت من ذلك أن حفظ القرآن شىء وخاصة الاستشهاد بآيات منه فى مواضع مختلفة شىء آخر .

سألت مرة أى التفاسير تنصحنى أن أقرأ ؟ فقال لى : إن كنت تريد نصيحى فلا داعى لقراءة تفاسير ... إن القرآن واضح .. حسبك أن تعرف معانى الكلمات الغريبة عليك وهى قليلة ثم اقرأ وتدبر معانيه وافتح له قلبك ، وأنت تعرف سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إذا فعلت فإنك سيتضح لك من معانيه ما لا تظفر به من كتب التفسير .

وكان له مصحف من القطع الذى هو فوق المتوسط ، وكنت أرى فيه فى مواضع متعددة ملاحظات كتبها بخطه ؛ لعلها معانى سنحت له وومضت فى قلبه فرأى أن يقيدوها أمام الآيات قبل أن ينساها

لم يكن يدع لحظة فراغ إلا ملأها بالقرآن ؛ حين كنا نصاحبه فى السفر ، سواء أكان السفر بالقطار أم بالتوبيس كان يمضى الطريق مغمضاً عينيه يتلو القرآن حتى نصل إلى الجهة التى نريدها .

حدثنى مرة أنه قرأ فى كتاب - سماه لى وقتها ولكنى أنسيت اسمه الآن - أن رجلاً جاء إلى الإمام أحمد بن حنبل وشكا له أن أخاه تنتابه حالة يفقد فيها وعيه ، ويمزق ملابسه ، ويهاجم من حوله ، ويريد أن يفتك بأقرب الناس إليه ، وقال إنه عرضه على الأطباء حتى يتسوا منه ولا يدبرون ماذا يفعلون ... وكان الإمام أحمد بالمسجد فقال للرجل أحضر أخاك وهو فى هذا الحال فلما أحضره أمره أن يركبه ثم أخذ الإمام يقرأ القرآن حتى سمع الجميع صوتاً منبعثاً من جسم الرجل المريض يستغيث بالإمام ويقول له : حسبك وسأفعل ما تريد . فقال له الإمام : دع هذا الرجل وأخرج من إصبع قدمه قال الصوت سماعاً وطاعة . وخرج من إصبع قدم الرجل وإذا بالمريض يستيقظ كأنما حل من عقال ، وكان لم يكن مصاباً من قبل .

قال لى الأستاذ : وقد شغلتنى هذه القصة وكنت أتأهب - حسب جدول زيارتى - لزيارة إخوان السويس . وركبت القطار وظلمات طيلة الطريق أفكر فى هذه القصة وأتعبج لما فيها وأقول : أهو سر الإمام أحمد أم هو سر القرآن أم أن القصة فيها مبالغة ؟ .. ولم تزل هذه الأفكار

تراودنى حتى وصل القطار محطة السويس ، ونزلت من القطار فوجدت الإخوان متجمعين في انتظارى فعانقتهم -، ولاحظت أن واحداً منهم كان يقف وحده بعيداً ، فقتربت منه فرأيت على وجهه أثر الحزن ؛ فتركت الإخوان وانتحيت به جانباً وسألته عما يحزنه . فقال لى : إن الذى يحزننى أمر خطير ، وإننى قد ضقت ذرعاً بالحياة ، وسدت أمامى الطرق ، وأحاط بي اليأس من كل جانب ... إن زوجتى امرأة صالحة مطيعة ، ولى منها أبناء صغار ، وقد اعترأها منذ عام مرض ينتابها بين الحين والحين ؛ تفقد فيه رشدها ، وتتحول إلى وحش كاسر ؛ إذا استطاعت الوصول إلى أى منا حاولت قتله ، وتحطم كل شئ أمامها ... وقد عرضتها على الأطباء هنا وفى القاهرة حتى ينسوا ... وقد انتابها المرض اليوم ، ولما كنت أعلم بقدمك اليوم أدخلتها حجرة أغلقها عليها وجئت أنظرك لأعرض عليك مصيبتى لعلك تعينى فيها

يقول الأستاذ لى : فابتسمت ، والأخ لا يعلم لم ابتسم ... وتذكرت قول ابراهيم عليه السلام «رب أرنى كيف تحبى الموقى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى . قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ... الآية » قال الأستاذ : قلت له هيا بنا إلى البيت .. واستأذنت من الإخوان . ودخلنا البيت ودخلنا الحجرة المغلقة فرأيت امرأة بها ، فقلت له : ادخل وغطها تماماً بملاء بحيث لا يبين منها شئ . ففعل ثم دخلت الحجرة ووقفت بجانب السرير وأغضت عيني وأخذت أقرأ القرآن ، وظللت أقرأ حتى سمعت صوتاً منبهاً من جسم المرأة ولكنه صوت رجل يقول : كيف تكون يابنا إماماً للناس وتنظر إلى عورات النساء ففتحت عيني فرأيت جزءاً من ساق المرأة قد انكشف نتيجة ماينتابها من حركات عنيفة ... فأمرت زوجها فغطاها ثم واصلت قراءة القرآن حتى سمعت صوت الرجل المنبهاً من جسم المرأة يقول فى نغمة استعطاف : إنك إمام المسلمين وتريد أن تحرقنى وأنا مسلم ... قال الأستاذ فقلت له : إن كنت مسلماً لما آذيت مسلمة .. قال : وماذا تريد منى ؟ قلت دع هذه المرأة وأخرج . قال أمهلنى .. فواصلت القراءة . فقال بعد قليل استحلفك بالله إلا أمسكت عن القراءة حتى لا أحترق وسأخرج ... قلت إن كنت خارجاً فأخرج من إصبع قدمها . فأراد أن يساوم فواصلت القراءة فصرخ مستغيثاً وأخرج من إصبع قدمها فقامت المرأة كأنما حلت من عقاب وكان لم تكن أصيبت من قبل .

وكان مما حدثنا به الأستاذ المرشد فى صدد ماكان من الأستاذ أحمد السراوى معه ؛ أنه فى أوائل أيام نقله إلى القاهرة من الإسماعيلية ونعرفه بالأستاذ السراوى أن طلب إليه الأستاذ السراوى أن يصاحبه فى قضاء مصلحة له فسار معه حتى دخل معه منزلاً فوجد نفسه فى مكان يشبه أن يكون عيادة طبيب ، وجاء الطبيب فباتى وأخذ يحملق فى عيني وأنا أنظر إليه فى تعجب

ولا أدري ماذا يريد مني .. يقول الأستاذ المرشد : وبعد نحو ساعة وقف الطبيب وقال للراوى : صاحبك هذا قوة روحية عارقة ، ليس في الدنيا الآن قوة تستطيع التغلب عليها ولا أن تعادها ؛ لقد حاولت معه بجميع الوسائل ولم أتركه إلا بعد أن أحسست أنني إذا زدت على ذلك لحظة فسأنام أنا ..

قال الأستاذ المرشد وبعد أن خرجنا سألت الراوى عن هذه المفاجأة فقال لي لقد لاحظت أن فيك قوة روحية جارفة ، فحاولت أن أعرف مدى هذه القوة ، فاتفقت مع هذا الرجل - وهو أقوى منوم مغناطيسى في مصر - على مبلغ كبير إذا هو استطاع أن ينومك ، ولم أشأ أن أن تعرف عن عزمي هذا شيئاً حتى آخذك على غرة دون أن تستعد . وقد عسر الرجل المبلغ .

(٣) بصيرة نافذة ورأى مدهم : حول سيد قطب

انتهى سوق الأدب في مصر بل في الشرق العربي كله إلى مجلة «الرسالة» التي كانت تصدر في القاهرة . كان يصدرها أديب كبير هو الأستاذ أحمد حسن الزيات . وقد استطاع هذا الرجل بحكمته أن يجعل مجلته هذه ملتقى أفكار الأدباء وأقلامهم على اختلاف نزعاتهم ، وتباين وجهاتهم . فقد كان يكتب فيها مصطفى صادق الرافعي وهو حامل لواء الأدب الإسلامى ، كما كان يكتب فيها عباس محمود العقاد وكان معروفاً عنه في ذلك الوقت أنه يمثل الجانب الآخر .

وكان لكل من الرجلين مدرسة على شاكلته ومريدون . وكان من تلامذة العقاد في ذلك الوقت شاب أديب درعى اسمه «سيد قطب» ولم يكن سيد قطب مجرد تلميذ للعقاد بل كان أقرب تلاميذه إليه وأصغرهم به وأشدهم تشيعاً لأدبه وأفكاره واتجاهاته ؛ حتى إن مجلة الرسالة بعد أن لقي الرافعي ربه ظلت فاتحة صفحاتها للكتابة عن الرافعي ردحاً من الزمن فكان أشد الكتاب تهجماً على الرافعي وإشادة بالعقاد هو سيد قطب ... وكان هذا التهجم على الرافعي يحز في نفوس الألوف من قراء «الرسالة» الذين كانوا لا يقتنونها كل أسبوع إلا لمقالة الرافعي التي كان الزيات يجعلها دائماً المقالة الافتتاحية لكل عدد ، وأتى من بعدها مقالات العقاد وغيره من أمثال أحمد أمين وطه حسين وأحمد زكي ، وكان الناس يتدارسون مقالة الرافعي حتى إن منهم من كان يحفظها عن ظهر قلب .

على أن «الرسالة» مهما أفسحت من صفحاتها للأضداد ؛ فقد كان لها من الكرامة والرهبة والوقار ما يجد الكاتب فيها نفسه ملتزماً بهذا الوقار مهما كان بطبيعته مسافاً منحلاً ؛ وقد يجد هؤلاء فيها سوى «الرسالة» من الصحف مجالا لنشر آرائهم وإبراز إسفافهم .

وقد قرأت في ذلك الوقت في جريدة «الأهرام» مقالا لسيد قطب يدعو فيه دعوة صريحة إلى العري التام وأن يعيش الناس عرايا كما ولدتهم أمهاتهم - وكانت هذه البدعة قد انتشرت في بعض بلاد أوروبا - وقد أثارني هذا المقال إثارة لم أستطع معها أن أقاوم القلم الذي وجد في العقل والمنطق والخلق والحياء ألف دليل ودليل يدحض هذه الدعوة ، ويثبت أنها دعوة تخريبية بهيمية دخيلة .

حملت المقال الذي كتبته وذهبت إلى الأستاذ المرشد - كدأبي في كل مقال أكتبه في غير مجلتنا - وكنت مزعماً نشره في «الأهرام» مطالباً بإياه بنشره في نفس المكان الذي نشر فيه المقال المردود عليه ... قرأه الأستاذ المرشد ثم أطرق طويلاً - على غير ما عودني - ثم التفت إلى وقال : يا محمود إن المقال متين الأسلوب ، قوى الحجج ، جدير أن ينشر ، وقد سبق أن أجهزت لك ما نشرته في بعض الصحف اليومية .. ولكن في هذه المرة مرت بخاطرى عدة خواطر أحب أن أعرضها عليك فقال :

أولاً : لاشك في أن فكرة المقال فكرة مثيرة تجرح قلب المؤمن .
ثانياً : كاتب هذا المقال شاب متأثر بالبيئة التي تعرفها ونعرفها جميعاً وهي التي تغذيه بمثل هذه الأفكار .

ثالثاً : إن هدف هذا الشاب من كتابة هذا المقال ليس هو مجرد التعبير عما يؤمن به ، وإنما هو محاولة جذب الأنظار إليه على أساس عرفهم من أن الغاية تبرر الوسيلة .
رابعاً : إن قراء «الأهرام» عدد محدود بالنسبة لسكان هذه البلاد . وليس كل قراء «الأهرام» قد قرأوا هذا المقال ، فأكثر قراء الأهرام لا يقرأون فيه إلا الأخبار . وأكثر الذين قرأوا المقال لم يستوعبوا فكرته لأنهم اعتادوا قراءة المقالات غير الرئيسية قراءة عابرة .

خامساً : إذا نشرنا رداً على هذا المقال في الأهرام «كانت لذلك النتائج الآتية :
(أ) سيثير نشر الرد اهتمام الذين لم يقرأوا المقال الأصلي إلى البحث عنه وقراءته ، كما سيدفع الذين قرأوه قراءة عابرة أن يقرأوه مرة أخرى قراءة متأنية ، وستبرز بذلك فكرة المقال في مختلف المجتمعات وتكون موضوع مناقشة واهتمام .. ونكون بذلك قد عملنا - من حيث لا نقصد - على تحقيق مأرب صاحب المقال من جذب الأنظار إليه وجعل اسمه على الألسنة .

(ب) نكون - من غير قصد - قد تسببنا في لفت الأنظار إلى لون من الرذائل ربما علقت

به بعض النفوس الضميمة ولو لم نرد عليه لمرت الدعوة إلى هذه الرذائل في غفلة من الناس غير معارة أى اهتمام ولطمرت في طبقات النسيان .

﴿ح﴾ الرد نوع من التحدى ، والتحدى يخلق في نفس المردود عليه نوعاً من العناد ، وهذا العناد يجعله يتمسك برأيه مهما اقتنع بخطئه ، ونكون بذلك قد قطعنا عليه خط الرجعة ؛ وفي هذا خسارة نحن في غنى عنها .

وهذا الكاتب شاب وترك الفرصة أمامه للرجوع إلى الحق خير من إحراجة ... وما يدريك لعل هذا الشاب يفيق من غفلته ، ويضئ إلى الصواب ، ويكون ممن تنتفع الدعوة بجهوده في يوم من الأيام .

ثم قال : مارأيك في هذه الخواطر ؟ ..

قلت : إنها مقنعة ممام الإقناع ومزقت الرد بين يديه ..
ولا داعي للإشارة إلى ما كان من أمر هذا الشاب ، وما يسره الله إليه من اليسرى حتى صار علماً من أعلام الدعوة ، ثم كان من شهدائها ... وإن كان شيء من نبوة الأستاذ المرشد رحمه الله لم يتحقق في حياته .

ثانياً : ضوء على بعض شخصيات الدعوة

أحمد رفعت :

كان ذلك في عام ١٩٣٧ . شاب لم يجاوز العشرين ، كنت تلمح في قسماط وجهه وسامة الإيمان ، وفي بريق عينيه الذكاء والنضج ، وفي نبرات حديثه تحس الطيبة المنبعثة من قلب سليم ، كما تشعر بحماس جارف وتفان في سبيل فكرته التي يؤمن بها - كان شاباً صغيراً إلا أنه جاد في كل أحواله لا يعرف الهزل ولا يميل إليه ، ولا يعترف به .. تحس في حركاته المنطلقة انطلاق السهم مدى ما يعتمل في نفسه من آلام وآمال . يحسن الحديث ، ويقدر على الإقناع .. إذا رأيته أحببته ، وإذا خالطته ازدادت له حياً ... لم يكن ينقصه مع كل هذه المزايا إلا الخبرة بالحياة والتجارب التي تجعل نظره الذكي نظراً شاملاً ... كان طالباً في مستهل الدراسة بكلية التجارة في القاهرة ، وكان ممن تعرفوا على الدعوة بعد انتقالها إلى دار ميدان العتبة ، إلا أنه كان داعية مشمراً في كليته ، وكان والده موظفاً في القاهرة ويتمون في حى المنيرة صديق أمين :

صنوا أحد رفعت وزميله في الكلية وفي الإخوان وفي السن وفي السنة الدراسية وفي المستوى

الثقافي والعقل ، ولم يكونا يفترقان إلا وقت النوم ، ولم يكن يذكر أحد رفعت إلا ذكر معه صديق أمين فيقال : رفعت وصديق ، ومعنى ذلك أن لرفعت القيادة ... وصديق من سكان المنيرة أيضاً ، والده مقاول ، وهو كصنوه شخصية ذكية محببة على إيمان وعزم .

عزت حسن :

شخصية إخوانية قديمة الصلة بالدعوة لم أسعد بلقائه إلا عفواً ، ولكنى كنت معجباً به لما كنت أقرأ له من مقالات في مجلة «الإخوان المسلمون» التي كانت تصدر قبل اتصالي بالدعوة . كان له قلم سيال ، وأسلوب طلي ، وتحس حين تقرأ له أنك تقرأ لعاشق شغفته الدعوة حباً ، وأنت قلبه صباية . وإذا قرأت له أحسست أنك تقرأ لأديب كبير ، ضليح في اللغة والأدب . ولقد كنت أتصوره - وأنا أقرأ له - أنه من أفذاذ من تخرجوا في كلية الآداب أودار العلوم حتى فوجئت بأنه ليس على الصورة التي تصورتها وإنما هو رجل لم تسعفه الظروف بأن يواصل مراحل التعليم فاقصر على المرحلة الابتدائية ، وانسلخ في سلك الوظائف الصغيرة حتى كان في تلك الأيام معاون سلخانة طوخ ، وكان إذ ذاك في العقد الرابع من السن تقريباً ، وكان مقبلاً في طوخ ، ولا يحضر إلى القاهرة إلا لمأماً ... فإذا حضر استقبله الأستاذ المرشد بالعناق ؛ لأنه كان يحبه ، ويقدر فيه جمال الأسلوب ، وحسن الأداء ، وفيض الروحانية ... وكان الأستاذ المرشد - باعتباره من أعلم الناس بأسرار اللغة وآدابها ، ومن أقدرهم على التعبير عما في نفسه بل وفي نفس غيره سواء باللسان أو بالقلم - كان قديراً على فهم الرجل من كتابته . ولقد كنا نحب هذا الرجل لحب الأستاذ المرشد له .

حسن السيد عثمان :

طالب في كلية الحقوق من أسرة مرموقة في طما بالصعيد ، وكان أكبرنا - نحن الطلبة - سناً وجسماً ، متفان في الدعوة ، وكان عنواناً كريماً لدعوته ، وكان من الأغنياء الأسخياء ، وكنا نعهده في ذلك الوقت عثمان الدعوة وقد اتخذناه - بتوجيه من الأستاذ المرشد - رئيساً للجنة الطلبة ... ومع كل هذه الميزات الطيبة ، فقد كانت تغلب عليه روح التطرف الناشئة عن البراءة المطلقة كبراء الطفولة ؛ فلا يكاد مثلاً يسمع أو يقرأ أن المسلمين الآن لا إمام (خليفة) لهم ، وأن لصلاة الجمعة علاقة بالإمامة ؛ فيمتنع عن أداء صلاة الجمعة حتى يصير للمسلمين إمام - وهو أمل يحتاج في تحقيقه إلى أجيال وأهوال - ومع ذلك فإنه كان يبذل الكثير في سبيل دعوته ، وكان محبباً إلينا جميعاً ، ومحبباً إلى الأستاذ المرشد .. وكان صديقه الذي لا تكاد نراه إلا معه

هو الأخ الكريم محمد فهمي مصطفى أبو غدير ، زميله في الكلية ومن أسرة كريمة في الواسطي
أسويط ، وقد التحق بالدعوة معاً أو لعل فهمي كان أسبق ، وعلى كل فهو يشترك مع صنوه
حسن في كل صفاته الطيبة ، وفي درجة إيمانه بدعوته ، لكنه كان يختلف عنه في أنه كان أوسع
أفقاً في فهم الفكرة الإسلامية وفي معالجة الأمور بمقاييسها ، وهذه المرونة كان فهمي أكثر
إنتاجاً لدعوته وكانت مناقشاته أكثر نجاحاً ، وكان محبباً كثير الأصدقاء ، حتى من غير الأوساط
الإسلامية - وكثير من هؤلاء - بهذه المرونة - صار من الإخوان ، ومن لم يصبر منهم صار من
عبيى الدعوة وأصدقائها .

عيسى عبده :

وكان مدرساً بمدرسة التجارة المتوسطة في القاهرة في ذلك الوقت ، وكان بالطبع أكبر
مننا سناً ، وقد أخبرنا الأستاذ أن عيسى كان من أسرة مسيحية أسلمت جميعها عن القتناع .. وكان
الأستاذ المرشد يحب عيسى ويقربه ويؤثره ، ويقدمه دائماً للحديث إلى الإخوان ، لأنه
كان محاضراً لبقاً ، ومحدثاً طويل النفس ؛ وكان عيسى مندمجاً في منظمات الإخوان فكان أحد
أعضاء الكتائب ؛ إلا أنه لم ينتظم في سلك الجلالة .. وكان كأنما يرى أنه من جيل غير جيل
الطلبة ؛ فلم تكن بينه وبيننا نحن الطلبة صلات وثيقة ترفع فيها المحاملات ؛ مع أنه كان معنا من هو
أكبر منه سناً وهو الأخ الكريم الأستاذ محمد حلمي نور الدين وكان نجله زميلاً لي بالكلية ؛
ومع ذلك كنت إذا رأيته بيننا لم تحس إلا أنه طالب معنا .. وليس معنى ذلك أنه كانت بيننا
وبين الأخ عيسى جفوة ، بل إننا كنا نحبه ونقبل عليه وكان يبادلنا هذا الحب والإقبال .

أحمد حسن الباقوري :

أقدم منا جميعاً صلة بالدعوة ، وقد التحقنا بالدعوة فوجدناه «شاعر الإخوان» وممثل الأزهر .
والطريف أنه كان زعيماً لطلبة الأزهر ومع ذلك لم يلتحق حتى ذلك الوقت من الأزهرين
- الطلبة - بالدعوة غيره وآل شريت وعبد اللطيف الشعشاعي وعبد الباري عمر خطاب - ومع
ذلك كان من أقرب الشخصيات إلى الأستاذ المرشد .

كان يكبرنا بسنوات قليلة إلا أنه لم يكن يحس بعد تخرجه إلا بإحساس الطالب ، ولا اعتقد
أنه يحس بغير ذلك حتى الآن ؛ لأن ميزة إحساس الطالب هي تلك الحيوية الدفاعة في أفكاره
وتصرفاته وآماله .

التحقنا بالدعوة فوجدنا نشيدها من وضعه ، وإذا قرأت النشيد استطعت أن تعرف منه

شخصية الباقورى وأفكاره وما يتمتع فى نفسه - وقد أثبتنا هذا النشيد فى فصل سابق .
 وقد قصت الظروف بأن تكون مجموعة من الإخوان منها الباقورى وأنا على اتصال شبه
 دائم لفترة طويلة تزيد على العام ، وقد استطعت خلالها أن أحس حقاً بأن جوائح هذا الشاب
 إنما تنطوى على قلب شاعر . ولست أقصد بذلك ما تعارف عليه الناس من الاتجاهات اللفظية
 للشعر ، وإنما أقصد بالقلب الشاعر ، القلب المتزع بالمشاعر النبيلة ، والعواطف الجياشة ،
 والأحاسيس المرفقة الدافقة .. ومعنى أن إنساناً تنطوى جوائحه على قلب شاعر ؛ أن كل ما يصدر
 عنه لا تراه إلا مصطبغاً بألوان هذه العواطف والأحاسيس وأنه ينتجه حيث الحب والامتزاج
 النفسى ، والانصهار الروحى ، والآمال المحلقة .

طلنا فترة طويلة فى دار العتبة نقضى اليوم كله منذ الظهيرة حتى منتصف الليل بدار المركز
 العام ، وكثيراً ما كان الأستاذ المرشد يكون معنا ؛ ولم يكن لنا غداء إلا ما يحضره لنا «عبد
 الوهاب فراش المركز العام» من فلافل شارع عبد العزيز حتى صار شعارنا شطرة قالها الباقورى
 بعد أن أخذت منه الفلافل كل مأخذ : «أم الفلافل ملجأ الإخوان» .

ومن الطرائف أن الأستاذ المرشد كان بعد الغداء يقبل ساعة على إحدى مقاعد المركز العام
 وينصحن أن نفعل مثله إلا أننا لم تكن نفعل لقضائنا الوقت فى الحديث معاً ، ثم يستيقظ الأستاذ
 من النوم ونصل معه العصر ؛ فيتذكر أن ستقام الليلة - بعد المغرب - ندوة بالدار أو محاضرة
 أو مناظرة أو مؤتمر فيقول للباقورى : يا شيخ أحد اعمل لنا قصيدة تلقيا الليلة بمناسبة كذا ،
 فيجلس الباقورى فى ناحية وفى خلال الساعة الباقية على ميعاد الحلقة يخرج لنا بقصيدة عصماء قد
 يحتاج غيره لإعداد مثلها إلى أيام وأسابيع .

وبمناسبة هذا الغداء بالمركز العام ، كنت أذهب إلى المركز العام فى مثل هذا الوقت وأكون
 بالصدفة صائماً صيام نفل ؛ فيتفقدنى الأستاذ المرشد على مائدة الطعام فلا يجدنى فيسأل : أين ذهب
 فلان فيقولون له إنه أخبرنا أنه اليوم صائم ، فیدعونى ويقول لى : ما هذلك من هذا الصيام ؛
 فأقول : ثواب الله فيقول لى : إذن فكل معنا وستحصل على ثوابين معاً ؛ ثواب الصيام بالنية ،
 وثواب أعظم منه بإدخال السرور على إخوانك بمشاركةك لهم فى الطعام .

ومع هذه الشعرية الدافقة فى الباقورى فإنه لم يخرج لنفسه ديواناً ، ولم يسمح لنفسه أن
 يلقي قصيدة خارج نطاق الإخوان فى ناد من النوادي ولا فى حفل من الأحتفال ولا فى صحيفة
 ولا فى مجلة ؛ وكثيراً ما كنت أعتب عليه فى ذلك ، وأنا أعتقد لو أنه أراد لنفسه هذا الاتجاه
 لكان من أشهر الشعراء .

بينما ويبدو أن قلبه الشاعر كان يتحكم حتى في إرادته ، وأذكر بهذه المناسبة أنه في إحدى الليالي التي كان يقضيها معنا في الجزيرة في منزل الأخ عبد الفتاح البساطي - وكثيراً ما كنا نترك بيوتنا الأيام والليالي سواء منا من كان يسكن في الجزيرة مثل أو يسكن في القاهرة مثل عبد الحكيم عابدين وعبد المحسن الحسيني وعبد الحميد أحمد والباقوري ، ونقضي تلك الأيام والليالي معاً في بيت البساطي - في إحدى تلك الليالي بينما كان الباقوري يعث بكتب على مكتب عبد الفتاح إذا به يفتح كتاباً منها وينظر فيه ثم ينفجر مكبراً مهللاً وهو يقول : الحمد لله وجدت ما أعياى البحث عنه . فالتفتنا إليه وسألناه ما هذا الذي أعياىك البحث عنه وما هذا الذي وجدته ؟ قال : إننى أقبل يد الأستاذ المرشد وبعد كل مرة أقبل فيها يده ، أسأل نفسى هل هذا عمل يرضاه الإسلام وهل هذا العمل سند من السنة ؟ ومع ما يتلجلج في نفسى من هذا التصرف من شكوك ومع ما وصلت إليه من يأس من العثور على أثر في السنة أستند إليه ، فقد كنت دائماً لا أستطيع أن أقاوم نفسى في تقبيل يد الأستاذ ... والآن وأنا أعث في هذه الكتب وليس في نيتي البحث عن شيء ، تناولت هذا الكتاب وفتحته فتحتاً عشوائياً فإذا بعينى تقع على هذا الحديث - (كان كتاب رياض الصالحين للإمام النووي) وقرأ لنا الحديث وكان راوى الحديث على ما أذكر عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، وفي سياق الرواية يقول «فتقدمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبلت يده ثم ساق الحديث .

ولقد كان لهذا الحديث أجمل الوقع في نفوسنا جميعاً فقد كان يتلجلج في نفوسنا ما كان يتلجلج في نفس الباقوري ، ولا نملك مع ذلك إذا التقينا بالأستاذ إلا أن نقبل يده - على كره منه ومقاومة شديدة - فكان هذا الحديث إرضاء لعقولنا في عمل كان ينطلق من صميم قلوبنا متخطياً حواجز العقل والقياس والمنطق .

ولا أدري حتى اليوم السبب الذي من أجله عزف الباقوري عن مجازاة طبيعته الشعرية ومحاولته إخفاء هذه الطبيعة عن المجتمع ، أهو السبب الذي من أجله نسب إلى الإمام الشافعى قوله :

ولولا الشعر بالعلماء يــــــزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد

أم هو سبب آخر ، ولكن الذى أتصوره أن مصادرة المرء لطبيعة أصيلة فيه ، قد تؤدي - دون أن يريد ودون أن يحس - إلى إبراز عواطفه وانفعالاته في صورة مشوهة لا يستطيع تداركها ولا تهذيبها ولا السيطرة عليها ، مع أنه لو جرى طبيعته مع شيء من القصد والمراقبة لأتت تصرفاته وتعبيراته عما في نفسه سديدة محكمة مثيرة لإعجاب كل قارئ وكل سامع ، ولصار صاحبها من الناس مل' السمع والبصر ...

وقد يعجز الكاتب الأديب عن التعبير عن معنى عميق الفؤور في نفسه إذا ألزم نفسه التعبير
النثرى ، في حين يجد المجال فسيحاً في عالم الشعر في لس هذا المعنى وتصويره ، ذلك أن الشعر يسع
من المواطن ما لا يتسع له النثر .

وإذا كان للشاعرية من المزايا ما يعجب ويهجر ، فإن لها جانباً آخر قد يبعث على الحيرة ويثير
الدهشة ، فلقد كان الباقورى مع ذلك شطحات تلقى به خارج المركز العام فنفتقده بالشهور حتى
نكاد في غمرة العمل المتواصل للدعوة أن ننساه ، لكن الأستاذ المرشد لم يكن ينساه بل كان كأنما
يتفائل عنه حتى إذا احتاج إليه بعث في طلبه فحضر بين يديه وألقى على كاهله من أعباء الدعوة
ما شاء أن يلقى .

عبد الحكيم عابدين :

أوردت هذه الأسماء التي ألقيت شعاعاً من الضوء على كل منها لأن لها اتصالاً بعنوان هذا الفصل
ولكن عبد الحكيم عابدين لا علاقة له ولا اتصال بهذا العنوان وإن كانت فصول قادمة إن شاء
الله شبيهة بهذا العنوان سيكون هو قطب رحاها ، لرأيت أن أختتم به تلك الأسماء في معرض إلقاء
الضوء عليها ، لا سيما وذكر الباقورى يقتضى ذكر عبد الحكيم عابدين لأنها فرسا رهان ، ورصيعا
لبان ، نهلا من منبع واحد ، وصدرها بعد ارتواء ، تجمعها سجية أدبية ، وسليقة عربية ، وقلب
شاعر يفيض بالمواطن الدفاقة والأحاسيس المرفهة .

وقد سبق في أوائل هذه المذكرات أن نوهت بما طبع عليه عبد الحكيم من شاعرية حين تعرفت
عليه في أول لقاء لي معه عن طريق إساعيل الخبيرى . وحين أنشدنى قصيدة طويلة يصف فيها وسائل
الطريقة الصوفية التي كان ينتسب إليها في تربية مريديها وتهذيب نفوسهم ، ولا زال هذه القصيدة
وقع في نفسى حتى اليوم لأنها فريدة في بابها ، فريدة في هدفها ، بعيدة المدى في دلالاتها ، نهى من
الناحية الشعرية لا يكاد يصدق صدور مثلها جزالة ورصانة وتصويراً من شاب لا يجاوز العشرين
فصلاً عن أن هذه الوسيلة في تربية النفس هي ذاتها من السمو بقدر ما هي من العنف بحيث لا
تتوق إليها ولا تتحمل مشقة معاناتها إلا نفس صافية شفافة عركت صاحبها الحياة وفعلت بها
الأفاعيل ، ولا تكون هذه النفس عادة إلا نفس كهل على الأقل إن لم تكن نفس شيخ ... فإذا
كان الذى يضع نفسه تحت طائلة هذه المحاسبة العنيفة للنفس شاباً غص الإهاب فإنه إذن لشاب في
في نضج الشيوخ فيها وصبراً وعقلاً .. ولذا فقد علقت نفسى هذا الشاب. منذ هذا اللقاء الاول
فقد كشفت لي قصيدته هذه عن معدن نفسه ودخانها واعتالاتها واتجاهاتها .. ولعله بادلى نفس

اشعور حين لاحظ وقع هذه القصيدة في نفس ومناقشتي له في بعض أبياتها ومقاطعها . وحين أحس مني تذوقاً للشعر من الناحية الأدبية وتذوقاً لمعاني القصيدة من الناحية الصوفية .

كانت كلية الآداب كما قدمت تقوم على الثلاثي الإخواني محمد عبد الحميد أحمد وعبد المحسن الحسيني وعبد الحكيم عابدين. وليس معنى هذا أنهم وحدهم كانوا الإخوان بها، فقد كان بها إخوان كثيرون ولكن هؤلاء الثلاثة كانوا عماد الدعوة وركيزتها ، وكان الثلاثة في صف دراسي واحد وفي قسم اللغة العربية وفي مقدمة صفهم ، وكان لكل منهم ميزة تخصص لها : أما محمد عبد الحميد فكان حكيماً ينطق بالكلمات القصار أو يكتبها فترى فيها روعة الفكرة وجال الابتكار .. وأما عبد المحسن فكان مجادلاً عن الدعوة قوى الإقناع ، وكان همه منصباً على محاولة ربط الدعوة بالتاريخ الإسلامي ، ولذا فإنه كان كثير الغوص في مراجع التاريخ ...

وأما عبد الحكيم فكان له طريق وحده ، كان يشارك زميليه في القيام بأعباء الدعوة في الكلية إلا أنه كان قليل الحضور إلى المركز العام أيام كان في شارع الناصرية ، ولعله مع إيمانه بالدعوة كان لا يزال مشدوداً إلى طريقته الصوفية... كما أن نضوجه الأدبي ، وسرعة بديهيته ، ونزعة الشعرية الأصلية قد قربته من أساتذته فكان طه حسين يأنس إلى الجلوس معه ، ويناقشه ويحادثه ويطارحه الشعر ... ومعنى ذلك أنه وإن شغل بذلك عن ارتياد المركز العام في ذلك الوقت؛ فإنه كان يسد ثغرة كان لا بد من سدها وهي تقديم الدعوة إلى الأساتذة في الوقت الذي كنا نحن فيه مشغولين بنشرها بين الطلاب .

ومثالا لذلك نوميء إلى المظاهرة التي أشرنا إليها في الفصل الأول من هذا الباب والتي دعا إليها الإخوان في الجامعة احتجاجاً على الكتابين اللذين قررتها كلية الآداب على قسم اللغة الإنجليزية فيها وفيها سب للنبي صلى الله عليه وسلم وإفتراء وقح عليه .. فنقول : إنه كان من آثار هذه المظاهرة أن ألغى الكتابان وأغلقت الجامعة إلى أجل غير مسمى وظلت مغلقة والدكتور طه حسين عميد الكلية معتمصم ببيته وأعلن أنه لن يغادره إلى الجامعة إلا في رفقة الطالب عبد الحكيم عابدين ... وقد ذهب عبد الحكيم إلى الدكتور طه وصحبه إلى الجامعة حيث التقيا بالأستاذ أحمد لطفى السيد مديرها في مكتبه فأخذ لطفى بك يسأل عبد الحكيم عن دعوة الإخوان .. وشرع عبد الحكيم يشرح له الفكرة ووسائلها وأهدافها ولكن بدأ بعد هذه الإفاضة في الشرح كأن الأمر لم يتضح للطفى بك كما ينبغي ولاحظ الدكتور طه ذلك فقال : يا لطفى بك .. هل تريد أن تعرف كل شيء عن الإخوان المسلمين قال : نعم .. قال : سأختصر لك ذلك في كلمتين اثنتين : إنهم يريدون أن يستردوا الأندلس . فكان هذا من طه حسين فيها قد استوعب فيه من أهداف دعوة الإخوان ما لم يستوعبه كثير من المنتمين إليها .

هذا ولقد شامت الظروف^١ أن أعرف عبد الحكيم عن قرب ... وقد عرفني بوالده حين حضر إلى القاهرة لزيارته وكان رجلاً أميناً فارح الطول ، وسيماً تلمح في بريق عينيه ، وفي لسانه وجهه سلامة القلب ، ونقاء السريرة وتحسن في ثنائه حديثه وفي جرس صوته براءة البداوة ، وتستطيع أن ترى قرارة نفسه على طرف لسانه ، لا يحول بينها حائل من مكر أو خداع .. ولم يكن لقائي مع الرجل لقاء عابراً بحيث يتصنع فيه ما شاء من التصنع ، بل كانت رفقة الأيام والليالي ذوات العدد ، فقد كنا معشر هذه المجموعة من الإخوان دار كل منا هي دار جميعنا وجيب كل منا جيب جميعنا .

وقد تركت هذه البداوة بذكائها اللامع ، وعواطفها الفياضة ، وبراءتها الطفولية الطاهرة ، طابعها الوراثي في نفس عبد الحكيم وفي كل ما يأتي من قول وعمل وسكون وحركة وتخيل وتصور ومع أن البداوة جمالاً عبر عنه المتنبي بقوله :

حسن الحضارة مجلوب بتطوية وللبداوة حسن غير مجلوب

فإن واقع الحياة قد يصطدم بها ويتمرد عليها ، فالصراحة - وهي من خصائص البداوة - وإن كانت في ذاتها فضيلة إلا أنها - على إطلاقها - قد لا تستقيم مع طبيعة الحياة ، ولعل ما يشير إلى هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو تكاشفتم ما تدافتم » فطبيعة التعامل مع الناس تقتضي أن لا يفيض المرء بكل ما في نفسه من عواطف بل عليه أن يستبق في قرارة نفسه لسطاً كبيراً من شعوره ولا يبرز منه إلا بقدر ، وفي ذلك يقول الهادي إلى أقوم سبيل صلى الله عليه وسلم « أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما . وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما » .

ومن هذا الجانب النبيل من جوانب البداوة التي طبع عليها أتى عبد الحكيم ، ومن مأمته يؤق الحذر .

ولقد كان الباقوري من تجيش صدورهم بفيوض غامرة من العواطف المتأججة والاحاسيس لكنه كان يحجزها بسد منيع من الخوف ، الخوف من النقد .. حتى إذا أمن هذا الجانب ، ووجد نفسه بيننا في منزلنا بالجيزة - حيث تجتمع المجموعة التي نوهت عنها آنفاً - انطلق على سجيته والتقت سجيته بسجية عبد الحكيم وتبادلا من العواطف ما كان الأخ محمد عبد الحميد أحمد يسميه « بالشاعريات » وكما كان هذه «الشاعريات» في الدعوة آثار طيبة لأنها لم تخرج عن كونها مظهراً من مظاهر الود الذي تطرب له النفس الشفافة المشرقة ، إلا أنه اتخذ بعد ذلك ذريعة لذوى النفوس الحاقدة والقلوب المريضة مما جر على الدعوة كوارث ، ما كان أغنانا عن موهن غارها .

ولا ينبغي أن ننسى - في غمار إلقائنا الضوء على شخصية عبد الحكيم عابدين - أن نذكر ديوانه «البواكير» الذي نشره في خلال تلك الفترة من دار العتبة ، وقد لقيت هذه البواكير من الأوساط الأدبية على اختلاف نظراتها ومستوياتها ترحيباً وتقديراً حيث كان أكثرها ثمراً جنباً في تمام النضج وكمال الازدهار ، كما تلففته الأوساط الإسلامية في شوق باعتباره أول ديوان إسلامي تفتى بكل معاني الدعوة ، ونظم من أهدافها أناشيد رائعة هتف بها الصغير والكبير وردده في اعتزاز القريب والبعيد .

ثالثاً : خيوط الفتنة

أطلقت «الفتنة الأولى» على هذه الفتنة التي أنا بصدد الحديث عنها ، وأنا أعلم أن فتنة قبلها وقعت في الإسماعيلية قبل نزوح الأستاذ المرشد إلى القاهرة ، ولقد سمعت عن هذه الفتنة وقرأت كتبها كان ضمن المطبوعات المهمة بدار المركز العام بشارع الناصرية .. وقد فهمت من قراءتي لهذا الكتيب أنها كانت أسلوباً مألوفاً مكرراً يحدث في كل مجتمعاتنا حين يبعث الحقد بعض ذوي النفوس الضعيفة على الكيد لرجال أحبهم الناس والتفوا حولهم .. ووجد هؤلاء الحاقدون أنفسهم أهون على الناس من أن يعيروهم اهتماماً فلم يجد هؤلاء إلا الكذب والافتراء والاختلاق أملاً في فض هؤلاء المحبين عن محبوبهم ، ورجاء تمزيق صفهم حتى يجدوا في هذا التمزق راحة لنفوسهم ، وإرضاء لنزوات الحقد المشتعل في قلوبهم... وأمثال هؤلاء قلما تتحقق آمالهم بل سرعان ما ينكشف زيفهم ، ويفتضح أمرهم ، وينقلبوا خاسرين دون أن تمس الدعوة بأذى أو ينتقص منها شيء وهذا هو ما حدث فعلاً في الإسماعيلية .

أما هذه الفتنة فهي نوع آخر ، مثلها ومثل سابقتها كمثل بيت معمور بالسكان شبت النار خارجه ومدت ألسنتها نحوه ، فتنه الناس من خارجه ومن داخله يكافحونها حتى أخذوها دون أن ننال من البيت شيئاً، وبعد فترة من الزمن شبت نار من داخله ولم يحس بها السكان إلا بعد أن استشرت وتأججت بما أنت عليه مما جاورها من أثاث، فقام أهل البيت يوقظ بعضهم بعضاً ليتعاونوا على مكافحتها بعد أن كادت نأق على ما بالبيت كله ، فكان على أهل البيت وحدهم عبء مكافحتها لأن أحداً ممن هم خارج الدار لا يعلم شيئاً عما يعاينه أهل البيت... وكان الأدهى والأمر أن عدداً كبيراً من سكان البيت رفضوا التعاون مع المكافحين مستمرين ما يصل إليهم من دفة بعثته النيران فيهم قبل أن تصل إليهم بلهبها ، فصارهم المكافحين همين هم مكافحة النار وهم ركل هؤلاء المستمرين بأقدامهم حتى يتحركوا قبل أن نأكلهم الزيران .

لم تنشأ هذه الفتنة عن فساد في النفوس ، أو ضعف في الأخلاق ، أو استهتار بالدين ، ولا عن تسابق إلى مغامر أو تلهف على عرض من أعراض الدنيا .. وإنما نشأت بين مجموعة بلغت

نفوسها من الصفاء درجة الشفافية ، وسمت أرواحهم حتى حُلقت مع الملائكة ... لا أعتقد أنه كان على وجه الأرض في ذلك الوقت قوم أصفى نفوساً ولا أنقى قلوباً ولا أعلى همماً ، ولا أشد حباً للإسلام ولا أسمح بالنفس والمال في سبيله من هذه المجموعة التي أوقدت نار هذه الفتنة وكانت هي وقودها .

وليس أشد على دعوة من الدعوات أو مجتمع من المجتمعات ، من فتنة تنشأ من داخله .. إنها الخطر المدمر الفتاك ، الذي إذا نجح ينسف المجتمع نفساً ويذره قاعاً صفصفاً .

ولقد هوجمت الدولة الإسلامية ، وتألبت عليها الأمم من كل جانب ، وتناسى المختلفون من الأعداء اختلافاتهم وجمعوا قوتهم ليضربوا الأمة الإسلامية ضربة رجل واحد ، فما نال كل ذلك من صلابة قناتها ولا أوهن من عزمها ولا انتقص من سلطانها ... ولكن الذي فعل بالدولة الإسلامية الأفاعيل ، وأوقف المد الإسلامي الذي عجز الأعداء عن وقفه هو تلك الفتنة التي نشأت بين الحين والحين من داخل الدولة .

وقد تنشأ هذه الفتنة الداخلية عن حسن قصد أو سوء نية إلا أنها تتساوى في نتائجها المدمرة وفي أخطارها التي تصعب الإحاطة بها .

أما فتنتنا هذه التي نحن بصدد الحديث عنها فإنها كانت فتنة داخلية منبعثة من حسن قصد ، وصادرة عن قلوب لا يشك في إخلاصها ... وكان الأستاذ المرشد كثيراً ما يحذرنا من مداخل الشيطان الخفية إلى قلوب الصالحين ، ومن افتنانه في الاحتيال على هذه القلوب فيدفع بها إلى المغالاة في الخير مغالاة تخرج بها من حدود الخير وتلقى بها في بحار الشر ، ويذكرنا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبق»

كانت الدعوة في تلك الحقبة من الزمن في أزهى أيامها ، تشق طريقها في جميع البيئات والأوساط كما تشق السفينة البحر الهادئ والريح رخاء ، كل يوم تخرج بربع من رجال وشباب يقبلون على الدعوة ويبايعون عليها ... وكادت الدار - على سعتها - تضيق بالوافدين ، وأصبح للدعوة صوت مسموع في جميع القضايا سواء على المستوى المصري والمستوى العربي الإسلامي ، وصدرت رسالة «نحو النور» تعالج كل هذه القضايا علاجاً واضحاً عملياً لا لبس فيه ، وكان الدعوة كانت تنبأ لتأخذ مكانها القيادي .

بينما نحن في ذلك إذ مجموعة من أظهر الإخوان قلباً نستوقف هذا الركب السائر لتوجه إليه حديثاً ، فوقف الركب يستمع فإذا بالأخ أحمد رفعت يعرض على كل ما تتخذه الدعوة من

أساليب ، ويدعو الإخوان إلى أساليب أخرى ... ولم ير الإخوان في هذا الاعتراض ما يلفت النظر فلكل أخ الحق في نقد ما يرى أنه يستحق النقد وتنشأ عن هذا النقد مناقشة بين الأطراف تنتهي إلى الطريق الأقوم . وفي هذا كسب كبير للدعوة ونماء وثرأه .

ولكننا حين أخذنا في مناقشة أحد رأيناه جانحاً - على غير عادته - إلى التمسب لرأيه ، والفضاً الاستماع إلى حجج من يناقشه ثم رأينا مجموعة من حوله تتمسب لأحمد وتكاد تهدد من يهأرضه ، وبدأ لنا أحمد ليمن حوله كأنما هو شيخ حوله يريدوه يأمر فيهم وينهى وهم يسارعون في مرضاته ... ومع كل هذا لم نعر الأمر اهتماماً خاصاً وانطلقنا في طريقنا ولكننا رأينا بعض من كان ينطلق معنا من جنود قد توقفوا ليسيروا في ركاب أحمد ... ورأينا أحمد ومجموعته لا يدعون اجتماعاً عاماً أو خاصاً ينمقد في الدار إلا وفرضوا أنفسهم عليه وتحدث فيه أحمد بالأسلوب المهاجم الذي لا يقبل مناقشة ولا معارضة ، فتبطلت بذلك الاجتماعات والدروس حتى محاضرة الثلاثاء .

ورأيت الأستاذ المرشد مهموماً وحاولت مواساته فطلب إلى أن أحاول إقناع أحمد ، لأن الأستاذ كان يعلم أن لى مكانة خاصة في نفس أحمد ، فجلست إلى أحمد وحاولت إقناعه لكننى لاحظت أنه يعاملنى كأنما لم يعرفنى من قبل ، بل أحسست كأن المجموعة التى حوله تحاول التحرش بى ، فأخبرت الأستاذ المرشد بما كان من أمره معى ، فإزداد الأستاذ همأ وحزنأ وطلب إلى لأقول مرة منذ بايعته أن أكون بجانبه في هذه المحنة ، وأن أبدأ بإعداد كلمة ألقيا في اجتماع الكتبية الأولى ، ففعلت وكانت كلمة تدور حول جمع الكلمة ولبدأ ما يدعو إلى الفرقة ، وأن الاجتماع على نصف الحق غير من التفرق على الحق كله وتمثلت في ذلك بقول على كرم الله وجهه « كدر الجماعة خير من صفو الفرد » وكان هذه الكلمة تأثير في مجموعة من إخوان الكتبية حصنتهم من أن ينصرفوا في تيار الفتنة .

والظاهرة العجيبة التى لاحظتها هى أن دعوة أحمد رفعت كانت تلقى من كثير من الإخوان أذاناً صاغية واستجابة سريعة ، ولا أدرى أكان هذا لقوة حجته وبراعة إقناعه ، أم لأن دعوته المتطرفة صادفت فترة كان الإخوان فيها في حالة جلوة روحية نتيجة النظام التربوى العنيف الذى أخذهم الأستاذ المرشد به في تلك الأيام فكانوا يتمنون أن يجذوا من يدعوهم إلى تخطى رقاب الزمن ليحققوا ما احتبس في صدورهم من آمال ، فلما كادوا يسمعون أحمد رفعت حتى وجدوا دعوته صدى لما يتردد في جنبات نفوسهم فأقبلوا عليه .

مطالب أحمد رفعت :

وعقد الأستاذ المرشد جلسة ضمت صفوة الإخوان وتحدث ما شاء الله له أن يتحدث ثم دعا

أحد رفعت ليحدد اعتراضاته على الإخوان ومطالبه التي يريدتها فقام أحمد وحدد اعتراضاته ومطالبه في ثلاثة بنود :

الأول : أنه يرى أن الإخوان تجامل الحكومة وتتبع معها سياسة الف وال دوران ويجب على الإخوان أن يواجهوا الحكومة بالحقيقة التي قررها القرآن في قوله « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »

الثاني : موضوع المرأة وإلزامها حدود الإسلام في عدم التبرج والاحتشام ، يرى أحمد أن الإخوان لم يتخذوا إجراء-ما في شأنه مكتفين بدعوة المرأة إلى ذلك بالنصيحة والكلام دون العمل . ويرى أحمد أن يسلك الإخوان بصدد هذا الأمر الخطير مسلكاً عملياً بأن يوزع الإخوان أنفسهم في شوارع القاهرة ومع كل منهم زجاجة حبر كلما مرت أمامه فتاة أو امرأة متبرجة ألقى عليها من هذا الحبر حتى يلمطح ملابسها فيكون هذا رادعاً لها .

الثالث : موضوع فلسطين : يرى أحمد أن وقوف الإخوان في مساعدة مجاهدي فلسطين عند حد الدعاية لهم وجمع المال لهم هو تقصير في حق هذه القضية وقعود عن الجهاد وتخلي عن المعركة وعلى الإخوان أن يتركوا أعمالهم ويتطوعوا في صفوفهم وإلا كانوا من الخالفين . ونصدي بعض الحاضرين للرد على أحمد في الاعتراضين الأولين فقالوا : إن مواجهة الحكومة يجب أن لا تكون إلا بعد توفر عاملين :

١ - توعية الشعب بالحقائق الإسلامية التي لا زال حتى اليوم يحلى الدهن منها ، ولا زال الشعب يجهل علاقة الإسلام بالحكم وعلاقة الإسلام بالتشريع - ونحن لولا اتصالنا بدعوة الإخوان ما لهننا هذه المعاني .

٢ - اكتساب الدعوة قوة شعبية تستند إليها إذا ما أرادت مواجهة الحكومة ، ولا زالت الدعوة حتى اليوم دعوة وليدة في حاجة إلى تثبيت لدعائهم وبسط لرواقها .

والمواجهة بغير توفر هذين العاملين لن تكون إلا انتحاراً لا نتيجة له ولا جدوى من ورائه . أما موضوع المرأة فكان ردهم عليه هو أننا لو أخذنا باقتراح الأخ أحمد لكانت النتيجة في اليوم الأول للأخذ بهذا الأسلوب أن يلقى القبض على جميع الإخوان ويجرى معهم التحقيق ويودعوا السجون حتى يحاكموا أمام القضاء الذي يقضى بمعاقبتهم بالسجن والغرامة وإذا قصوا العقوبة وعادوا إلى نفس الأسلوب فإن العقوبة تضاعف ، ومادامت التي لطخت ثيابها ستعوض ثمن هذه الثياب مضاعفاً من جيوب الإخوان ثم ترى الذي لطخ ثيابها قد أودع السجن فما الذي يمنحها

من ليس ما كانت تلبسه وإذن فلا جدوى من وراء هذا الأسلوب في ردع المتبرجات وكل الذي تجنيه هو إلقاء شبابنا في السجون وتعطيلهم عن الدراسة وقد يكون في تلك الأحكام قضاء على مستقبلهم .

أما موضوع فلسطين فكان الأستاذ المرشد قد اتصل في شأنه بالسيد أمين الحسيني مفتي فلسطين فرد على الأستاذ المرشد خطاب قرأه علينا في هذا الاجتماع وفيه يقول سماحة المفتي :

«إن المجهود الذي يبذله الإخوان في الدعاية لقضية فلسطين في مصر هو القدر المطلوب والذي نحن في أمس الحاجة إليه ولا يستطيعه غيرهم ، ولنا في حاجة إلى متطوعين » .

والعجيب الذي لا أزال أذكره أن بعض عقلاء الإخوان رأيتهم يقفون في هذا الاجتماع ويتحدثون تأييداً لأحد رفعت بعد أن اقترح هذه الاقتراحات وأذكر منهم الأستاذ عيسى عبده الذي كان موقفه هذا صدمة شديدة للأستاذ المرشد الذي ما كان يتصور منه هذا الموقف .

وانتهى هذا الاجتماع وقد ازداد عدد مؤيدي أحد ، ولعل ذلك قد بعث في نفسه شيئاً من الغرور فبدأ يتحدى الأستاذ المرشد مباشرة ويوجه إليه ألفاظاً نابية ويخاطبه بأسلوب لا يليق به ثم ازدادوا نظراً فصار هو وشيعته يسبون الأستاذ المرشد ويوجهون إليه الشتائم مما أثارنا وأخرجنا عن طورنا وحاولنا مواجهتهم بشيء من العنف ولكن الأستاذ المرشد غضب وحال بيننا وبين ما نريد وأبى علينا أن نناهم ولوبكلمة تولمهم ، ومع ذلك فلم ينجحوا أمام هذا النبيل بل كانوا يضاعفون من سفاهتهم .

ولا يفهم القارئ من قولي إن عدد مؤيديهم قد كثر أن قد صار معهم أكثر الإخوان ، فالكثرة الغالبة من الإخوان في القاهرة كانت كلها في موقف المستاء من تفكير هذه الفئة ومن تصرفاتهم ولكنهم كانوا يرون الأستاذ المرشد يحميمهم من بطش الإخوان بهم فكانوا في حيرة من أمرهم فكان الأخ من هؤلاء الإخوة الكرام إذا جاء كمادته إلى دار المركز العام تلقاه أفراد هذه الفئة فلما التزم بفكرهم وإلا أسموه ما يكره من سبه وسب الأستاذ المرشد ورميمه بألذع التهم ، حتى كره الإخوان أن يحضروا إلى المركز العام حتى خلا المركز العام هذه الفئة لا يشاركون فيه أحد سوى تقريباً حيث كنت حريصاً على الحضور كل ليلة لأكون بجانب الأستاذ كما طلب إلى .

موقف مؤلم ومدمر لا نحسد عليه ؛ فلا نحن بمستطيعين تحديهم تحدياً مباشراً خوفاً من أن يدخلوا معنا في معارك بالأيدي والأرجل كما بدأ منهم أكثر من مرة ، ولا نحن بمستطيعين منهم من شتم الأستاذ وسبه ، ولا نحن بمستطيعين أن نقنع الأستاذ برفع حمايته عنهم أو الإللال من حنوه عليهم وعطفه نحوهم .

توقف كل شيء في المركز العام :

مامنى هذا ؟ المركز العام للإخوان المسلمين تتوقف فيه الحركة توتلاً تاماً فلا جلسات للهيئات الإدارية تعقد ولا اجتماعات للجوالة ولا اجتماعات للكتائب ولا محاضرات للثلاثاء ولا اجتماعات للطلبة ولا العمال ، وينقطع جميع الإخوان عنه ، حتى إخوان الأقاليم إذا حضروا منهم حالت هذه الفتنة بينهم وبين مقابلة الأستاذ المرشد وينصرفون دون مقابلته - وهو موجود بمكتبه بالدار - بعد أن يسموا ما يكرهون من سبهم وسب أستاذهم ويفادرون الدار باكين .

لا بد من وضع نهاية لهذا العبث ولا بد من التفكير في عمل ولا بد من التفكير في حل .

الحل :

لقد وصلت إلى حل ، لكن هذا الحل متوقف نجاحه على قبول الأستاذ المرشد بفكرة انقطاعه تماماً عن المركز العام . وذهبت إلى الأستاذ وقلت له : يا أستاذ إن هذه الدعوة دعوتنا جميعاً وإننى أطلبك باسم جميع الإخوان الذين لا زالوا على العهد والبيعة أن تنقطع عن المركز العام منذ اليوم انقطاعاً تاماً .

قال : لماذا ؟... قلت لأن خطة قد وضعت لمقاومة هؤلاء الخارجين . والخطة تقتضى أن لا يجد هؤلاء الحنان والحماية اللتين لا تستطيع أن تتخل عنهما في معاملتهم . قال : ولكنى لا أقبل أن يصاب أحد من هؤلاء الإخوة بأذى مهما قالوا . قلت : نعطيك الكلمة على أن لا نمسهم بأذى . قال مادام انقطاعى عن المركز العام يعين على القضاء على هذه الفتنة فأنا عند رأيكم .

هل هو تسام أم انحدار إلى الخضيض : ؟

لقد كان حنو الأستاذ عليهم ، والتزام صفوة الإخوان بيوتهم ، وتفرد هؤلاء الخارجين بنشر فكرتهم عن طريق المركز العام دون مقاومة ، واكتسابهم كل يوم أفراداً من الإخوان الحديثي العهد بالدعوة ، كان كل ذلك مغرياً لهم بالتفادى في ضلالتهم ، والتغالى في انحرافهم ، حتى وصل بهم الغرور إلى الحد الذى أدعى فيه أحد رفعت أنه يتلقى تعليمات وأوامر تلقياً مباشراً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ادعى أولاً أنه عليه الصلاة والسلام يأتيه في الرؤيا ويوجه إليه أوامره . وقد وجد من يصدق في ذلك ومنهم أفراد من أكرم الإخوان وأخلصهم فمهم صديق أمين ومنهم محمد عزت حسن ومنهم حسن السيد عثمان .. وكانت هذه الأوامر والتعليمات كلها منصبة على أن الإخوان المسلمين قد اتخذوا عن القيام بدعوتهم ، وأنهم خانوا الدعوة ، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد اختار أحمد رفعت للقيام بأعباء الدعوة بالطريقة التي شرح لنا طرفاً منها .

ثم تعاطف به الغرور فادعى أنه يتلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم جهازاً نهائياً في تمام اليقظة ، ثم ادعى أنه صلى الله عليه وسلم يحضر معه الغداء ويتناول معه الطعام . ويتلقى منه الأوامر والتعليمات على المائدة .

ولما صار حسن السيد عثمان من مصدقيه ، والمؤمنين بخبراته ؛ وكان حسن كما قدمت شاباً ميسوراً الحال يسكن هو وإخوته الطلبة في منزل فسيح وثير الأثاث ؛ فقد أفسح من بيته لأحمد ، وانقطع هو وأحمد وصديق من كلياتهم كما انقطع محمد عزت حسن عن عمله وحضر إلى القاهرة للإقامة معهم .

وكان لما أثارني ، وحملي على التفكير في خطة حاسمة للوقوف في وجه هذه الفتنة المتفاقمة ، أننى رأيت إخواناً كراماً من ذوى العقل والسبق والرزانة يحضرون هذه الجلسات في منزل حسن السيد عثمان ، وعلمت أنهم كادوا يقعون في حبالهم بدليل توالى ترددهم على جلساتهم في هذا المنزل ، ومن هؤلاء الإخوان الشيخ أحمد الباقورى .

تنفيذ خطة المقاومة :

لما قبل الأستاذ أن ينقطع عن المركز العام اعتبرت ذلك إيذاناً بنجاح الخطة ، وكانت الخطوة الأولى أن أحضرت كشفاً ، وكتبت فيه أسماء الإخوان الذين احتفظوا بإيمانهم بدعوتهم وقيادتهم ولزموا بيوتهم ، فوجهت إلى كل منهم دعوة لاجتماع بمنزل الأخ عبد الفتاح البساطى في الجزيرة . وقد استجابوا جميعاً لحسن صلتى بهم - وانعقد الاجتماع وتحدثت إليهم عن تطورات الفتنة ، وما وصلت إليه ، وعن قبول الأستاذ المرشد فكرة انقطاعه عن المركز العام وشرحت لهم شرحاً أقتنعهم بأن التزامهم بيوتهم ، وتركهم المركز العام هذه الفتنة المخرفة ، إنما هو بمثابة إعانتهم على التمدد في ضلالهم ، وأن حق الدعوة عليهم يقتضيهم ارتياد المركز العام كل ليلة لا يتخلف منا أحد .

ويجدد بي قبل الاسترسال في تفاصيل هذا الاجتماع أن أستاذك فأشير إلى نقطة هامة اضطرت من أجلها إلى تأجيل موعد هذا الاجتماع أكثر من مرة حتى أستوفى بحثها ، فلقد أعددت لهذا الاجتماع العدة لسد كل ثغرة من ثغرات الشك قد تكون تطرقت إلى نفوس بعض من يحضرون ، فجمعت في كلمتي من الآيات والأحاديث والحكم ووقائع التاريخ ما يقنع كل متردد ، إلا نقطة واحدة وقفت أمامها ساهماً عاجزاً ، هي ادعاء هؤلاء رؤية النبي صلى الله عليه وسلم والتلق عنه .

قد يكون من السهل الإقناع ببطلان ما يدعى هؤلاء المدعون أنهم تلقوه عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم إذا كان هذا الذي تلقوه يتعارض مع نص صريح من نصوص الشريعة الإسلامية ولكن إذا كان الذي تلقوه مما هودون ذلك من أمور يجوز فيها الخلاف كالوسائل والخطط التي تسلك للنهوض بأعباء الدعوة ، فإن الحكم بطلان ادعائهم في ذلك ليس أمراً ميسوراً .

وقد شغلني هذه النقطة وأقنعت مضعجي ، وظلمت دائب البحث عن رد مقنع وإجابة شافية تملأ النفس وتزيل الطرح حتى أراد الله - وإذا أراد الله شيئاً يسهل أسبابه - فقد كنت في زيارة أخ كريم من إخواننا الطلبة الصالحين بكلية الصيدلة هو الأخ عبد المنعم أبو الفضل ، وكان والده من كبار العلماء، فبينما أنا أعبت في مكتبة والده التقطت كتاباً وتصفحته فوقع نظري عفواً على عنوان الموضوع الذي يشغل بالي فقرأته بتلهف فوجدت فيه طلبتي وكل بقيتي ، فالمؤلف يقول إن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه « من رآني في المنام فقد رآني حقاً - فإن الشياطين لا تتمثل بي » حديث صحيح لا شك فيه ، ولكن هذا الحديث موجه إلى فئة معينة هي فئة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم دون غيرهم ، لأنهم هم وحدهم الذين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى العين وفي غيبتهم صورته الحقيقية ، وهم بذلك الذين يستطيعون إذا رأوا في منامهم من يدعي أنه رسول الله أن يحكموا هل هذا المدعي صادق أم كاذب ... أما من سوى هؤلاء الصحابة ممن لم يروا النبي صلى الله عليه وسلم رأى العين فإنهم إذا جاءهم في المنام من يدعي أنه رسول الله فكيف يحكمون بصحة ادعائه وليس في غيبتهم صورته صلى الله عليه وسلم الحقيقية ؟

وكان هذا الكتاب هو كتاب « الاعتصام » للإمام الشاطبي .. وقد جعلني ما قرأت من تحليل هذا الرجل لهذا الحديث أزداد إيماناً بأن في سلفنا الصالح وضوان الله عليهم عبقارة . وقد رتب الرجل على هذه المقدمات نتائج ملخصها الحكم بطلان كل ما يأتي عن طريق هذا الادعاء .

أناج صدرى ولوعى على هذه الدرة الثمينة ، وأحسست بأن الله تعالى معيننا على ما نحن بسبيله ، وضاعف ذلك من همى ، وانهدد الاجتماع كما قدمت ، وأثرت هذه النقطة وأوردت قول الشاطبي فيها ، ولقد شعرت بأن إثارتها وإيراد الرد عليها قد أزال حرجاً كان يتردد في النفوس ولم يكن بد من إزالته . وانتبهني في هذا الاجتماع إلى مقررات محددة هي :

أولاً : الاعتقاد بأن أحد رفعت ومجموعته ومن ياوز بهم على خطأ

ثانياً : تمهد كل فرد من المجتمعين بارتياح المركز العام كل ليلة حسب النظام الذي سيوضح لذلك

ثالثاً : التعهد بعدم مس أحد من مجموعة أحد رفعت بأى نوع من الإيذاء

رابعاً : تعهد كل فرد من المجتمعين منذ اليوم بمقاطعة أحد رفعت ومجموعته بمقاطعة تامة بمعنى

أن لا يلتقى عليهم السلام وأن لا يرد عليهم السلام إذا ألقوه عليه ، وأن لا يتحدث إليهم ، وأن لا يرد عليهم إذا وجهوا إليه حديثاً ، وأن لا يغيرهم سمعه ، وأن لا يوبى إليهم ولو بإشارة حتى إذا شتموه لا يرد عليهم .

خامساً : كل من يرتاد منزل حسن السيد عثمان - حيث يقيم أحد رفعت - يسرى عليه نظام المقاطعة سادساً : تكوين لجنة - كنت أحد أعضائها - تكون مهمتها تنفيذ هذه المقررات - وإذا رأت هذه اللجنة أن أحد الإخوان أحل بهذه المقررات قدمته إلى لجنة أخرى تناقشه وتحدد موقفه وتعلنه حتى يعامل على أساس موقفه المعلن .

سابعاً : يحدد المجتمعون البيعة للأستاذ المرشد على مبادئ الدعوة وعلى الطاعة في المنشط والمكره وعلى تنفيذ هذه المقررات .

وقد أعد محضر سجل فيه كل ما دار في هذا الاجتماع من كلمات ومناقشات وما انتهى إليه من مقررات ، ووقع جميع الحاضرين عليها ، وقد رفعت إلى الأستاذ المرشد في بيته . ومنذ ذلك اليوم بدأ تنفيذ نظام المقاطعة ، وقسمنا الإخوان على أيام الأسبوع السبعة بحيث يحضر كل يوم عدد محدد حتى يتمكن الإخوان من الجمع بين تنفيذ المقررات وبين قضاء مصالحهم من مذاكرة وغيرها .

وكان مشهداً رائعاً ومؤثراً معاً حين يدخل أحد رفعت وخلفه مريدوه إلى المركز العام فيجدوه غاصاً بالإخوان - على غير ما اعتادوا - فيلقون السلام فلا يرد عليهم أحد ، فيكربون إلقاء السلام فلا يتلقون رداً ، فيجلسون ويتوجهون نحو هؤلاء الإخوان بالشتائم فلا يردون عليهم .. ثم يدخل رواد من الإخوان حديثي العهد بالدعوة فيلتقاهم إخواننا مرحبين ويلفونهم المقررات التي اتخذت في الاجتماع وبأن الأستاذ المرشد أقرها فليتزم هؤلاء الرواد بنظام المقاطعة ويرجع هؤلاء إلى زملائهم وأصدقائهم من الإخوان في كلياتهم ومعاهدهم ومكاتبهم ليلفونهم ما بلغوا ، ومن أراد من هؤلاء أن يشهر في وجه الخارجين سلاح المقاطعة حضر إلى المركز العام ليشترك مع المكلفين بالحضور ، وامتنع الباقون عن الحضور إلى المركز العام خوفاً من أن يهرجهم الخارجون فيردوا عليهم محرجين أو مجاملين فيقيموا تحت طائلة المقاطعة .

وبذلك استطعنا أن نخلل دار المركز العام بعد أيام إلا منا ومنهم ، وصرفنا وجهاً لوجه ، فيجلسون الساعة والساعتين لا يجدون من يتحدث إليهم ولا من يتحدثون إليه ، ويبحثون عن الأستاذ المرشد فلا يجدون له أثراً .

وتكرر هذا نحو ثلاثة أسابيع شعر هؤلاء الخارجون بعدها أنهم قد عزلوا عزلاً كاملاً عن المجتمع بل عن الحياة نفسها ... وبدأ الذين كانوا يلعبون على الحبلين من الإخوان ، والذين

اتخذوها لعباً وهوأ يشعرون أن نظام المقاطعة الذى هادتهم فترة في أول الأمر قد اقترى منهم وكاد يطبق على أعناقهم فانسحبوا من المركب الذى طالما عزوه وصقوا له ، وكانوا سبباً في إيغال قائده في الضلال ، انسحبوا منه مكروهين ولزموا بيوتهم ...

ووجد أحد رلمت وحواريوه أن من كانوا حولهم أخذوا في الانفضاض عنهم ، حتى لم يبق حولهم أحد ، فاضطروا إلى عدم الحضور إلى المركز العام ، الذى صار بالنسبة لهم سجنًا .. ومحاولة منهم في البحث عن مجتمع قد يجدون فيه تفرجاً لكرهم وبجلاً لنشر آرائهم وضوا بما كانوا يرفضونه من قبل ، وهو الرجوع إلى كليتهم كلية التجارة التي كانوا يرون أنفسهم أعظم من أن ينتظموا طلبة فيها ، وكيف لا وقد أصبحوا أنبياء أو أقرب إلى الأنبياء .

وقد شارب رجالهم حين دخلوا الكلية فوجدوا طلبتها يصدون عنهم صداداً حيث كان إخواننا الكرام بالكلية ملتزمين بنظام المقاطعة وكانوا قد أعطوا زملائهم الطلبة صورة كاملة عن أفكار أحد وزمرته وعرفاتهم ..

حينئذ وجد أحمد نفسه حبيباً في بيت حسن السيد عثمان وليس معه إلا صديق أمين ومحمد عزت حسن لا أحد غيرهم يطرق عليهم البيت بالليل ولا بالنهار ، فأصيب أحد بما يشبه الجنون . حتى رقى قلبنا له ولمن معه ، وبعثت إليهم من يعرض عليهم الصلح على أن يرجعوا إلينا تائبين ، معلنين توبتهم ، فاختلفت إجاباتهم ، أما صديق فإنه جاء إلينا وأعلن توبته ، وأما حسن السيد عثمان فإنه أعلن أنه سيلزم بيته غير متمرض للدعوة بشر ، وأما محمد عزت حسن فلا أدري ما كان من أمره غير أنه قد اختفى اسمه من مجتمع الدعوة منذ ذلك اليوم ويقال إنه ظل متابعاً لأحد .. وأما أحمد فقد عز عليه أن يرجع إلى الصف ويدلن توبته بعد أن صور له الوهم وأوهمه من حوله - وجنوا عليه - أنه يوحى إليه ...

قرر أحد السفر إلى فلسطين لينضم إلى المجاهدين في محاربة الإنجليز واليهود ... ولما علمنا بعزمه هذا أرسل إليه الأستاذ المرشد وطلب إليه الحضور ليجهزه بالمال والسلاح ، ويسلمه إلى مجموعة من المجاهدين الفلسطينيين الذين كانوا يتصلون بنا حتى يؤمنوا له الطريق ، لأن المجاهدين يشكون في كل من يرونه في طريقهم - ماداموا لا يعرفونه - ويمدونه جاسوساً عليهم ويقتلونه فرفض أحد طلب الأستاذ المرشد وأصر على الذهاب وحده ، وذهب فعلاً ، ولقي مصرعه كما كنا نتوقع على أيدي المجاهدين .

ولعمري لقد فعل أحد رفعت ما فعل ، ولكن للوبنا لا تزال إلى اليوم تنقطع وتتفطر حزناً عليه فقد كان ذاك نادر المثال ولكنه فعل الطريق .

خاتمة :

استغرقت هذه الفتنة منذ كانت بصيصاً تحت الرماد حتى قضى عليها قرابة نصف عام كانت الدعوة في خلاله ، عرضة للانتهاك والزوال ، ولكن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ... صحيح أن الدعوة توقفت توقفاً تاماً فترة تزيد على الشهر ، وهي الفترة التي كان لابد من احتجاب الأستاذ المرشد في بيته خلالها ، ولكنها خرجت منها أقوى مما كانت ، واكتسبت من تجربتها هذه فوائد كانت لها عونا في أيامها التالية .

كان مما تعلمته الدعوة من هذه التجربة أن اتخاذ الحماس مقياساً تولى على أساسه الثقة للفرد المتحمس أمر يجب أن يعاد فيه النظر ، فالحماس مع السطحية في فهم كتاب الله وتاريخ الدعوة الإسلامية والخبرة بواقع الحياة أمر من الخطورة بمكان ، فإن هذه السطحية تجعل من الحماس منحدرًا إلى الخفيض ، وإن خيل لصاحبه أنه مرقى في السماء ، فأحد لم يكن له قليل الانضمام إلى الدعوة أدنى معرفة بالإسلام ولا بالقرآن ولا بالسيرة ولا بالتاريخ الإسلامي ، وحين اقتنع بالفكرة الإسلامية انقضت عليها بحماس بالغ ، وقبل أن يتزود بكل معالم الطريق اندفع اندفاعاً غير بصير فاصطدم وتحطم وكاد يحطم معه الدعوة

وكان مما تعلمته الدعوة أيضاً من هذه التجربة أن اللين وإن كان هو الصفة التي يجب أن تتحلل بها القيادة في كل أطوارها ، فإن هناك مواقف تحتاج إلى الحسم ، ولما كان الحسم يتعارض مع اللين فكان من كياسة القائد حينئذ أن يتواري ويختل الطريق لغيره — وقد يكون هذا الغير أصغر منه ولكن لا يقلل الحديد إلا الحديد ، وترك الطابة يتفاعلون كان أجدى من تدخل القيادة بينهم

وكان مما تعلمته الدعوة كذلك أن الدعوات يجب أن نكون أشد حذراً على نفسها من أتباعها المقربين منها على نفسها من أعدائها الخارجيين ، فإن أتباعها أقدر على إصابتها في مقتل .

ولقد كنت سجلت كل ما قلته وما تحدثت به وكل ما خطر ببالي فيما يتصل بهذه الفتنة وكل ما اتخذناه من أساليب لمعالجتها في كشكول ، دونت فيه كل المقررات وأسماء المبايعين عليها وتوقيعاتهم وآثار تلك المقررات وأودعته أحد الإخوة الكرام الذين كانوا معنا في ذلك الوقت ولا

أدري ألا يزال هذا الكشكول موجوداً أم عدا عليه ما عدا على غيره من غارات المباحث العامة التي لم تكن تنقطع .

ولقد تكون خير حاتمة لهذه التجربة القاسية أن أثبت هنا ما جاء على لسان الأستاذ المرشد بصدها في خطابه الجامع الذي ألقاه في المؤتمر الخامس تحت عنوان : مصارحة :

«أيها الإخوان المسلمون وبخاصة المتحمسون المتعجلون منكم : اسمعوا مني كلمة عالية دائية من فوق هذا المنبر في مؤتمر هذا الجامع - إن طريقكم هذا مرسومة خطواته ، موضوعة حدوده ولست مخالفاً هذه الحدود التي التمتعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول ، أجل قد تكون طريقاً طويلة ولكن ليس هناك غيرها - وإنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب ، فمن أراد منكم أن يستمجل ثمرة قبل نضجها أو يقتطف زهرة قبل أوانها فلست معه في ذلك بحال ، وغير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات ، ومن صبر معي حتى تنمو البذرة وتنبت الشجرة وتصلح الثمرة ويحين القطاف فأجره في ذلك على الله ، ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين : إما النصر والسيادة ، وإما الشهادة والسعادة .

أيها الإخوان المسلمون : أجموا نزوات العواطف بنظرات العقول . وأنبروا أشعة العقول بلهب العواطف وأنزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع ، واكتشفوا الحقائق في أضواء الخيال الزاهية البراقة ، ولا تميلوا كل الميل فتدروها كالمعلقة ، ولا تصادموا نوايس الكون فإنها غلبة ، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها واستعينوا ببعضها على بعض ، وترقبوا ساعة النصر وما هي منكم ببعيد .

أيها الإخوان المسلمون : إنكم تبتغون وجه الله وتحصيل مثوبته ورضوانه ، وذلك مكفول لكم مادمتم مخلصين ، ولم يكلفكم الله نتائج الأعمال ولكن كلفكم صدق التوجه وحسن الاستعداد ، ونحن بعد ذلك إما مخطئون فلنا أجر العاملين المجتهدين ، وإما مصيبون فلنا ضعف أجر الفائزين المصيبين ، على أن التجارب في الماضي والحاضر قد أثبتت أنه لا خير إلا في طريقكم ، ولا إنتاج إلا مع خطتكم ، ولا صواب إلا فيما تعملون ، فلا تقامروا بجهودكم ولا تقامروا بشعار نجاحكم واعملوا والله معكم ولن يتركم أعمالكم والفوز للعاملين «وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم» .

خسائرنا في هذه الفتنة :

إن فتنة كادت تودي بالدعوة ، مهما نصرنا الله عليها ، وأنقذنا من براثنها ، لا يمكن أن

مخلص منها دون خسائر ، ولسنا ننكر أنه كانت خسائر لكنها كانت في أضيق الحدود ونجملها
فيما يلي :

- ١ - خسرونا أحد رفعت ومحمد عزت حسن وكانا أخوين عزيزين .
- ٢ - خسرونا عدداً من الإخوان الكرام ولكن خسارتنا لإياهم لم تكن خسارة أبدية بل كانت خسارة مؤقتة فقد اختار هؤلاء الإخوة أن يلزموا بيوتهم لأنهم كانوا لا يزالون في شك من أن الدعوة تسلك طريق القوة والجدل الذي ينبغي أن تسلكه الدعوة الإسلامية .. ولقد لزموا بيوتهم فعلاً رداً من الزمن حتى أثبتت لهم الأيام أنهم كانوا على خطأ حين تعجلوا مواقف قبل أوانها ، وقد دارت الأيام وواجهت الدعوة المواقف التي تعجلوها ولكن بعد أن ثبتت أركانها ، وتممقت في قلوب الناس جذورها ، فخرجوا من بيوتهم ولحقوا بالركب مرة أخرى وكان منهم حسن السيد عثمان وعيسى عبده
- ٣ - خسرونا مجلة «النذير» لأن صاحب امتيازها تخلف عن الركب ، ومع أن المركز العام للإخوان المسلمين هو صاحب الامتياز الحقيقي لهذه المجلة ، ولم يكن الأستاذ محمود أبو زيد إلا مجرد اسم اختير لأنه كان محامياً ولتم الصورة الرسمية لإصدار الترخيص بالمجلة ، مع هذا رأى الأستاذ المرشد ترك المجلة له حين رآه متمسكاً بالحقوق الرسمية
- ٤ - خسرونا عدداً قليلاً من خيرة الإخوان على رأسهم الأخ محمد المغلاوى رحمه الله وكان محاسباً وأخاً من العباد الذين يطيلون الصلاة ركوعاً وسجوداً وكان بيني وبينه مودة خاصة وحب عميق وقد صارحنى بأنه يكنى لي ولإخواني كل حب وتقدير ولكنه لا يستطيع الصبر على ما اختطته الدعوة لنفسها من أسلوب بطى* ومع ذلك فهي أحسن التكوينات الموجودة في مصر ولذا فإنه سيجادل إنشاء تكوين جديد حيث الخطى يتجاوب في خطو سريع مع ما يجيش في صدورنا وتضطرم به نفوسنا .
- وقد صدق ما وعد وأسس تكويناً جديداً سماه «شباب محمد» وقد التقي في آماله بأمال شخصية مسلمة هي شخصية الأستاذ حسين يوسف فكونا معاً هذا التكوين الجديد ، وانضم معهم مجموعة من الإخوان المتعجلين وأفراد آخرون
- والأستاذ حسين يوسف رحمه الله كان مدرساً في مدرسة الفنون التطبيقية ومع ذلك فإنه كان ناظماً على ما جرت عليه هذه المدرسة من رسم الرجال والنساء عاريات وكتب في ذلك الكثير من الاحتجاجات . وكان عضواً في مجلس الجهاد الأعلى لمصر الفتاة ، وقد التقيت

به في مدرسة الفنون التطبيقية حين كنت أحضر اجتماعات طلبة الإخوان بالمدرسة - وكان لنا بها شعبة قوية - فكان الأستاذ حسين يحضر هذه الاجتماعات ، ودارت بيني وبينه مناقشات وقد اتنع بأن مصر الفتاة يتقصها عنصر الدين ولكنه يرى أن الإخوان المسلمين تعوزهم الجرأة .. ولذا فإنه ما كاد يلتقي بالأخ المفلاوى فكان وإياه كالمثل العربي الذي يقول «وافق شن طبقه» فنهضنا بإنشاء التكوين الذي يرضى ضمائرهما

ولكن هل حقق هذا التكوين الجديد آمالها ... هذا ما أجاب عليه الزمن ، ولا داعي لأن نثبت هنا حكم الزمن وإجابته فكلنا نعرفها ، وما أيسر التحديق في سماء الخيال وما أشق مواجهة الواقع ، وكم من خيالات محلفة طواها الزمن إذا ما حاولت النزول إلى ميدان الواقع .

البَابُ الثَالِثُ
فِي مُتَدَارِ الْجَمِينِ الْجَزْدِيَّةِ
فِي الْمَبْنَى الْقَدِيمِ

- سمات هذه المرحلة وخصائصها
- في البناء الداخلي
- في العمل الوطني في ظل الحرب العالمية الثانية

مقدمة

مدد جديد :

مخرجنا من هذه المأساة الأنيمية ، وفي القلوب جراح لا تندمل على مر الزمن ، لأنها تتصل بأعوة قلوب لا صداقة طريق ... ولم يكن مناص من استئناف المسير بعد هذا التوقف الطويل .. ودوى نداء القائد لمرعان ما استجاب الجنود ، ورأينا الدعوة تشق طريقها شقاً ما كانت تستطيعه من قبل ... وأحسست في التفاف الإخوان حول قائدهم كأنما شعروا وأيقنوا أن دعوتهم وقد عبرت المحنة .. هي دعوة الحق .. ودعوة الحق جديرة بالتفاني فيها والبذل في سبيلها ، فصار الإخوان ألصق بدعوتهم من ذي قبل ...

ورأينا الشباب . من كل مهنة ، ومن كل حي ، يتقاطرون على المركز العالم أفواجا يلتمسون طريق الله لإصلاح الناس ليلتزموه وليكونوا حماه والداعين إليه ... وكانت الظاهرة الجديدة أننا رأينا بابنا يطرقه طوائف من العمال والتجار وذوى المهن ، ولم يكن حتى قبيل المحنة يطرقنا إلا الطلبة وقلة من صغار الموظفين ، وهنا بدأت فكرة تكوين شعب ذات كيان حقيق في أنحاء القاهرة ، وهو ما كان يتوق إليه الأستاذ المرشد من قديم .

العجيب حقاً.. أن الدعوة خرجت من هذه المحتو كأنما نشطت من عقال للإلهال عليها من كل فج صيق ، والدار ضاقت بروادها ، واتجه فكر الأستاذ إلى البحث للمركز العام عن مكان آخر يتسع للنشاط الجديد .

الانتقال إلى الحلمية الجديدة :

اهتدى الأستاذ المرشد إلى دار في ميدان الحامية الجديدة ، وهي منزل كامل لاجزاء من منزل كالمقرين السابقين في الناصرية والعتبة ... وميدان الحلمية الجديدة يقع في قلب القاهرة القديمة لكنه أجمل وأنظف حتى فيها . والمنزل يطل على الميدان نفسه ويتكون من دورين أحدهما يقع نصفه تحت الأرض ونصفه الآخر فوقها ، والدور الآخر مما يسمونه «السلامك» حيث تصعد إليه بصف من الدرج. وفوق هذا السلامك سطح فسيح. ويلحق بالمنزل فناء واسع تقرب مساحته من مساحة المنزل كله ، وبجانب بوابة المنزل على يمين الداخل حجرة منفردة كأنها حجرة البواب ولا بد أن الله تعالى علم من مستقبل دعوته ما لم تكن نعلم ، فهيأ لها مكاناً ما كنا نحلم به وموقعاً وسطاً ، كما يسر للأستاذ المرشد سكناً قريباً جداً من هذا المكان ، وهو ما كان الأستاذ المرشد دائماً حريصاً عليه .

مرحلة جديدة :

كان الانتقال بالمركز العام من دار إلى أخرى مرتبطاً بالانتقال بالدعوة من مرحلة إلى مرحلة جديدة، فكانت فترة الإقامة بدار شارع الناصرية مرحلة من مراحل الدعوة لها حدودها ولها خصائصها ولها سماتها كما بينا ، ثم كانت فترة الإقامة بدار ميدان العتبة مرحلة أخرى لها حدودها وسماتها الخاصة بها والميزة لها ، ثم كان الانتقال إلى دار ميدان الحلمية إيداناً بمرحلة جديدة لها سماتها ولها خطرها ... وكانت مراحل الدعوة في نقلاتها الثلاث أشبه بالبادرة التي صارت شجيرة ثم غلظ عودها وأخرجت شطأها فأزرها وطال ساقها وألقت بفروعها ذات اليمين وذات الشمال .. نعم إنها بذلك قد اكتسبت ثباتاً وقوة لكن استطالتها وارتفاعها قد جعلها عرضة لمهب الرياح من كل اتجاه ، لقد كانت في مرحلتها الأوليين وهي بادرة ثم وهي شجيرة في مأمن من أن تنال منها هبات الرياح ، أما في هذه المرحلة وقد غلظت واستطالت وتفرعت وتشعبت فإنها صارت عائقاً في طريق الرياح من أية ناحية هبت ، فعليها حينئذ أن توطن نفسها على استقبال صفعات الرياح وأن ترد عليها بمثلها أو أن تحاول تحاشيها بحركة ماهرة .

كان حسن البنا يعلم كل هذا وهو يعد العدة للانتقال بالمركز العام من العتبة إلى الحلمية الجديدة ، وسترى إن شاء الله خطته التي وضعها منذ الشهور الأولى في هذه الدار ما يدلك على أن كل هذه المعاني كانت في خاطره .

لم يغب عن خاطر الأستاذ لحظة أن عدوه الطبيعي الذي يترصد به ، والذي عليه أن يواجهه في كل لحظة إنما هو الإنجليز .. عدو قوى ماهر : واسع الخيلة ، حسن الاستعداد ، قادر على المواجهة لكنه يؤثر التستر وراء صنائع له من أهل البلد الذي يريد السيطرة عليه ... لم يغب عن خاطر الأستاذ أن عليه أن يواجه كل هذه الأساليب ، ولم يغب عنه أن صنائع الإنجليز في مصر كثيرون ، وقد زودهم الإنجليز بمختلف وسائل السلطة ، وأن هؤلاء الصنائع بعد أن تربوا في أحضان الإنجليز ، وتمرغوا في خيرات بلادهم التي سلبها الإنجليز وخصوصهم بها دون أصحابها ، أصبح هؤلاء الصنائع أشد عداوة لبلادهم من الإنجليز .

لم يغب شيء من هذا عن خاطره ، كما لم يغب عنه لحظة أن الإنجليز بوسائلهم الخاصة وبواسطة أذنابهم المصريين يربون ويعدون عليه أنفاسه ، ويعدون عدوهم الأصيل وعدوهم الوحيد ، لأنه هو وحده صاحب مبدأ وصاحب فكرة ، وهذا وحده كاف أن يجعله مصدر خطر عليهم ، فكيف وأن هذا المبدأ وهذه الفكرة إنما تقوم على أساس القرآن الذي لا يجتمع والظلم في مكان واحد ، لابد أن يقضى واحد منها على الآخر .

لقد عمل حسن البنا في المرحلة السابقة كل جهده أن يتحدى الإنجليز تحدياً سافراً للنصح لظائهم من ناحية ، وليلفت الأنظار إلى دعوته من ناحية أخرى . لأن دعوته كانت في أمس الحاجة إلى وسيلة من وسائل الإعلام ليحس بها هذا الشعب الغافل ... أما في هذه المرحلة فإنه لم يعد في حاجة إلى وسائل إعلام فقد أحس الناس بالدعوة ، وأقبلوا عليها ، حتى امتلأت السفينة ولم يعد بين حافتيها وبين الماء قيد شبر .. ودفعتها الرياح حتى وصلت إلى وسط البحر . وركبت أمواجه المتلاطمة ، وصارت مهمة القائد أن يحسن توجيهها ، وأن يحاول أن يتفادى ما يتدافعها من أمواج حتى تصل إلى مرفأ أمين . وعليه مهمة أخرى لا بد أن ينهض بها في وقت واحد مع مهمته الأولى ، تلك هي إعداد هؤلاء الركاب بحيث لا يأخذهم على غرة لصوص البحر وقطاع الطريق وما أكثر عددهم وأشد بأسهم .

سمات هذه المرحلة وخصائصها :

أرسي الأستاذ المرشد قواعد العمل في هذه المرحلة على الأسس الآتية :

أولاً : بدأت هذه المرحلة مع بدء اندلاع الحرب العالمية الثانية في ١٩٣٩ ، وكان الأستاذ المرشد يرى أن الحرب العالمية تغير وجه العالم ، وتنفعل في سنواتها ما لا يتم فعله من تغيير في مئات السنين ، فهي تختصر الزمن .. وعلى العقلاء الانتفاع بهذه الميزة قبل فواتها

ثانياً : ومن هنا فإنه يرى أن المرحلة التي يحتاج الإخوان في قطعها إلى عشرات السنين ، يمكنهم - بالانتفاع بهذه الميزة - أن يقطعوها في سنوات قليلة

ثالثاً : أن مواجهة الأعداء والخصوم بيئة ضعيفة وتكوين هزيل مجازفة غير مأمونة بل إنها قد تؤدي بالفكرة الإسلامية إلى الزوال . فإذا أضفت إلى ذلك أن هذه المواجهة ستكون في ظروف كلها ظروف استثنائية وكل المرافق مسخرة للمستعمر ، والمستعمر أعصابه على أشدها لأنه يخوض حرب حياة أو موت ، كانت المواجهة انتحاراً لا شك فيه ولا إفلات منه

رابعاً : كما أنه يرى أن انشغال المستعمر بالحرب ومن ورائه الحكومة المصرية ، فرصة للعمل للدعوة دون عوائق ، وعلى الإخوان في هذه الحالة أن يكتفوا من جهودهم حتى ينجزوا أكبر قدر من العمل في أصغر قدر من الزمن قبل أن تنتهي الحرب فجأة فيتفرغ هؤلاء - المستعمر والحكومة - للكيد للدعوة وبث العراقل في طريقها قبل أن تكون قد استكملت عناصر قوتها

خامساً : أنه يرى أن عناصر القوة التي يجب استكمالها في أقرب وقت هي عنصران : التشعب والتكوين . أما الأول فهو العمل على أن تصل الفكرة الإسلامية إلى كل فرد في أنحاء

مصر وأن يصل صداها إلى البلاد العربية والإسلامية وأن يكون للدعوة شعبة في كل حاضرة ومدينة وقرية وعزبة في جميع أنحاء مصر . وأما التكوين فيكون بالعمل على ربط المتتمين إلى الدعوة معا بروابط من الأخوة والحب والتعاون في ظل أسلوب عمل من التربية البدنية والروحية والثقافية

سادساً : أنه في سبيل إنجاز هذا العمل الكبير . يجب على الإخوان - في خلال فترة الحرب أن يفضوا الطرف عن الشئون السياسية فيتجنبوا اتخاذ مواقف سياسية محددة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا مكثفين بالتعرض لما سوى ذلك من الشئون التربوية والاجتماعية والاقتصادية وإذا دهمهم مولف سبامى معين فعليهم أن يتفادوه وأن يطوعوه لخدمة هدفهم الكبير

سابعاً : أنه يرى أنه إذا سلك الإخوان هذا المسلك فإنهم سيفاجئون العالم بعد انتهاء الحرب بأقوى هيئة قادرة على المواجهة وقادرة على النهوض بأثقل التبعات ، ويستحيل على أية قوة في الأرض أن تقضى عليها ، لأنها تكون قد تركزت في النفوس ، واختلطت بالمهج ، وصربت بجذورها في الأحقاد .

على هذه الأسس السبعة سار العمل طيلة سنوات الحرب ، وشقت السفينة طريقها في بحر هادئ كالخضير ، وكلما هبت عاصفة عمل القائد الماهر على تفاديها حتى وصلت إلى شاطئ الأمان فكانت هي السفينة الوحيدة التي وصلت في سلام بجميع ركابها الذين أفلعت بهم من أول الطريق وبأصناف هؤلاء من ركاب السفن الأخرى التي أشرفت على الفرق في أثناء الطريق فدت إليهم يد الإنقاذ فتعلقوا بها من كل جانب .

الفصل الأول في البناء الداخلي

التركيب البنائي للدعوة في هذه المرحلة

حتى ما قبل هذه المرحلة لم يكن للدعوة تركيب بنائي بالمعنى الاصطلاحي المعروف ، وإنما كان هناك المركز العام في القاهرة وفي الأقاليم شعب متناثرة ، وتلقى هذه الشعب تعليماتها من المركز العام وكان المركز العام يخص نفسه بأساليب معينة في التربية لا يطالب الشعب بالقوام بمثلها مثل نظام الكتائب ، ونستطيع أن نجمل النظام البنائي الذي كان سائداً بأنه كان أقرب إلى النظام المركزي ...

فلما انتشرت الدعوة وامت أنحاء البلاد وكثرت الشعب حتى لم تعد مدينة ولا حاضرة ولا قرية تخلو من شعبة كان لا بد من نظام بنائي جديد يسهل معه العمل وتوزع فيه المسؤولية وتتحدد به الحقوق والواجبات وتيسر عن طريقه الاتصالات والمتابعة .

والخطوط الرئيسية للنظام البنائي الجديد هي :

أولا : المكاتب الإدارية :

اعتبر كل إقليم إداري في الدولة مكتباً إدارياً ومعنى هذا أنه صار للإخوان المسلمين في كل عاصمة محافظة مكتب إداري هو بمثابة المركز العام للإخوان في أنحاء المحافظة فكل شعب المحافظة تابعة له وهو يشرف عليها ويصدر إليها التعليمات ويتابع تنفيذها . ومنوط به نشر الدعوة في الأماكن التي لم تصل إليها الدعوة في حدود المحافظة ، كما أنه مكلف بمعالجة ما يجد من مشاكل في شعب المحافظة وعليه نقل النظم التربوية التي يضعها المركز العام إلى جميع هذه الشعب والإشراف على الأخذ بها كما أن عليه توضيح ما تتخذه الهيئات العليا للدعوة من قرارات للشعب التابعة له مع متابعة تنفيذ هذه القرارات .

ويتكون المكتب الإداري من أعضاء مجلس الإدارة لشعبة عاصمة المحافظة مضافاً إليهم نواب الشعب الرئيسية في المحافظة ، وعلى كل شعبة من شعب المحافظة المساهمة بجزء من مالياتها في تكوين رصيد للمكتب الإداري يختص للانفاق منه على نشر الدعوة .

ثانياً : مجالس إدارات الشعب :

يدير شئون الدعوة في كل شعبة مجلس إدارة يتكون من عدد من الإخوان ينتخبهم أعضاء الشعبة فيما بينهم ويرأس كل مجلس إدارة نائب الشعبة ، ومهمة مجلس إدارة شعبة عاصمة المركز مع شعب بلاد المركز هي نفس مهمة المكتب الإدارى بالنسبة لشعب عواصم المركز ، وهكذا تتسلسل القيادة وتندرج المسئولية .

ثالثاً : المركز العام :-

تعتبر القاهرة كغيرها من المحافظات مكتباً إدارياً تتبعه شعب القاهرة ، وفي القاهرة أيضاً المركز العام للإخوان المسلمين وهو شئ آخر غير المكتب الإدارى للقاهرة فهو يتعامل مع المكتب الإدارى للقاهرة كتعامله مع أى مكتب إدارى آخر .

والمركز العام هو المقر الذى يجمع اللجان والأقسام التى تمثل أوجه النشاط التى يقوم الإخوان بمباشرتها أداء لحق الدعوة وتحقيقاً لأهدافها وهذه اللجان والأقسام هي :

لجنة الطلبة واللجنة الثقافية وقسم العمال وقسم الجلالة وقسم نشر الدعوة وقسم الكتابات والأمر وقسم الخدمة الاجتماعية وقسم الاتصال بالعالم الإسلامى وقسم الأخوات المسلمات .

ولكل لجنة من هذه اللجان ولكل قسم من هذه الأقسام فرع في كل مكتب إدارى ، تتلقى هذه الفروع تعليماتها من اللجنة الموجودة بالمركز العام وترفع إليها تقاريرها وتستعين بها في تنفيذ برامجها ... وقد لا يكون لبعض الأقسام فروع في المكاتب الإدارية لأن طبيعة مهمتها ترتبط بالقاهرة دون غيرها من البلاد مثل قسم الاتصال بالعالم الإسلامى .

قيادة الدعوة :

ويمثلها هيئات ثلاث هي :

أولاً : الهيئة التأسيسية :

وهي الهيئة العليا للدعوة يناط بها رسم الخطوط الرئيسية لسياسة الدعوة ، ويرجع إليها في كل ما يمس هذه السياسة أو ما يجد من أمور خطيرة أو ما يستدعى تعديلاً في هذه السياسة أو ما يتصل بكيان الدعوة من قوانين أو إجراءات أو تصرفات ... واجتماعها العادى مرة كل عام ولكن للمرشد العام دعوتها للاجتماع في أى وقت يرى ضرورة لاجتماعها لعرض مسائل جوهرية عليها .

- ولقد تكونت هذه الهيئة أول ما تكونت في سنة ١٩٤١ من مائة عضو اختارهم الأستاذ المرشد مراعيًا في اختيارهم الشروط الثلاثة الآتية :
- ١ - أن يكونوا من السابقين الأولين في الدعوة .
 - ٢ - أن يكونوا ذوي كفاءات ممتازة أو ذوي تفهيمات بارزة ومن أهل الرأي
 - ٣ - أن يكونوا ممثلين لمخالفات القطر ما أمكن .

وتعتبر الهيئة التأسيسية الجمعية العمومية للإخوان المسلمين ، ومن اختصاصها أن تنتخب من بين أعضائها لجلتين تكل بهما هيئات قيادة الدعوة هما مكتب الإرشاد العام ولجنة العضوية .

ثانياً : مكتب الإرشاد العام :

ويتكون من اثني عشر عضواً ومهمته تنفيذ السياسة التي أقرتها الهيئة التأسيسية وحددت خطوطها العريضة ، وإصدار القرارات في مختلف شئون الدعوة ، والتزام بتنفيذ المكاتب الإدارية وشعبها ... وهو يعتبر مجلس الإدارة للدعوة يمثلها أمام الرأي العام وأمام الجهات الرسمية

ثالثاً : لجنة العضوية :

وتتكون من سبعة أعضاء مهمتها اختيار الأعضاء الجدد للهيئة التأسيسية ، وتحقيق ما يثار حول أعضاء هذه الهيئة وإصدار القرارات في شأنهم ... ولقد رأى الأستاذ المرشد أن أكون عضواً في هذه اللجنة لما أعلم من صلاتي بالكثيرين من قدامى الإخوان وحديثهم في القاهرة وغيرها من البلاد ، ولهذا فقد طلب إلى أن أكون بجانبه عند اختياره للأعضاء المائة ليكونوا أعضاء الهيئة التأسيسية حتى يكون ذلك نبراساً لي عند اختيار أعضاء جدد عن طريق لجنة العضوية فيما بعد .

على أن أعضاء الهيئة التأسيسية لم يزد عددهم حتى منتصف الخمسينيات عن مائة وخمسين عضواً مع أنه كان من حق لجنة العضوية قانوناً اختيار عشرة أعضاء جدد كل سنة ولكن ظروفنا نشأت أعفت اللجنة من أجلها بعض الأعضاء حالت دون استيعاب هذا العدد .

ولقد كان من حكمة الأستاذ المرشد وبعد نظره أن أنشأ الهيئة التأسيسية في هذا الوقت بالذات فقد ظهر بعد ذلك من المواقف والمشكلات والأزمات والخلافات ما لولم تكن هذه الهيئة موجودة تقضي على الدعوة وانهار صرحها . وسوف يرى القارئ إن شاء الله الكثير من ذلك فيما بقي من هذه المذكرات .

كما أن وجود هذه الهيئة قد أغنى عن عقد المؤتمرات التي كانت تعقد كل سنة أو سنتين يحشد فيها أكبر عدد من مختلف بلاد القطر ليلخص أمامهم الأستاذ المرشد ما قطعه الدعوة من

خطوات منذ المؤتمر السابق وليسرح لهم بعض ملامح الخطة المستقبلية وكانت هذه المؤتمرات تكلف الإخوان الكثيرين الذين يحضرون من بلادهم الكثير من الجهد والمال كما تكلف المركز العام مثل ذلك... ومع ذلك فقد كانت طبيعة هذه المؤتمرات لا تتيح فرصة مناقشة ما يعرض من تقارير عن الماضي أو مقترحات للمستقبل .

على أن هذه المؤتمرات لم تكن ليصلح عقدها بعد أن كثرت الشعب وكثر عدد الإخوان في كل مكان بحيث تضيق بمنوبيهم الأمكنة في القاهرة مهما اتسع نطاقها للاجتماع والنوم .. أما ولقد أنشئت الهيئة التأسيسية على القواعد الثلاث التي أشرت إليها فإن الأستاذ المرشد كان يدعوها بأعضائها المائة فتضمهم حجرة فسيحة من حجرات المركز العام فيعرض عليهم ما يشاء ويناقشهم ويناقشونه ويقترح عليهم ويقترحون عليه ، ويتحدث كل منهم عن مشاكل محافظته ويصلون في النهاية إلى قرارات مدروسة محددة ، فيرجع هؤلاء الأعضاء إلى محافظاتهم فيشرحون لإخوانهم ما تم في الاجتماع بتوضيح وتفصيل ... فيتحقق بهذا الأسلوب ما لا تحققه المؤتمرات مع إعفاء الدعوة وإعفاء الإخوان من كثير من الجهد والمال والمشقة .

ولهذا فقد كان المؤتمر السادس الذي عقد قبيل تكوين الهيئة التأسيسية في ٩ يناير سنة ١٩٤١ هو آخر المؤتمرات .

استطراذ :

لست أدري هل يعد استطرداً أن أترك هذا الحديث العام لأتحدث عن أمور تخصني ، أم أن حديثي عن هذه الأمور هو من الحديث المتصل ؟.... إن هناك مجموعة في هذه الدعوة لم تعد حياتها الخاصة منفصلة عن الدعوة بل هي جزء منها ؛ لأنها ارتضت يوم خيرها الأستاذ في اجتماع لجنة الأربعة والعشرين في منزله أن تضع حياتها ومستقبلها رهناً بما تطالبه الدعوة .

لقد كانت الدعوة في شخص مرشدها تتحكم في وقت هذه المجموعة لتوجهها التوجيه الذي تريده . فكان الأستاذ المرشد مع شدة احتياجه أن تكون بجانبه ، يمنعا من الحضور إلى المركز العام طيلة الشهر الذي يسبق الامتحان لأنه يرى في إنسانا حياتنا الدراسية نفعاً للدعوة لا يتوفر لها إذا طالت هذه الحياة الدراسية . وكان الفرد من هذه المجموعة حين يتخرج لا يتجه إلى حياة عملية إلا بعد أن يستشير الأستاذ المرشد باعتباره أبصرنا بالاتجاه الأنفع للدعوة أفليس الحديث في هذه الأمور إذن حديثاً في صلب الدعوة وفي صميمها ؟...

بعد التخرج :

يحسن قبل التطرق إلى ما كان من شأن بعد التخرج أن أبدا بإشارة موجزة إلى الحالة الاجتماعية التي كانت سائدة في مصر فيما يتصل بالوظائف والموظفين حتى يكون القارئ على صورة واضحة ؛ كان المتخرجون في أية كلية من الكليات أو مدرسة عليها كما كان أكثرها يدعى في ذلك الوقت لا يجد أمامه عملاً يلتحق به ويرتقى منه ... كانت فرص العمل نادرة نادرة تصل إلى درجة الندم ، ولم يكن العمل إلا ذلك موجوداً إلا في وظائف الحكومة ..

كان المتخرج يوم يتخرج يكتب طلبات التحاق بعدد وزارات الحكومة ومصالحها ويرسلها جميعاً وينتظر لعله يصادف عملاً في أي منها ، ولم يكن عادة يصله رد .. ويظل هكذا عاطلاً ، وبعد كل ستة أشهر يمد كتابة الطلبات وتحفي أقدامه في ارتياد الوزارات التي يتوسم أن يجد فيها عملاً أيها كان ، فإذا كان محظوظاً وجد بعد سنتين من تخرجه عملاً باليومية في إحدى الوزارات ؛ ومعنى ذلك أنه لا يضمن أن يستمر في العمل طول العام فقد يستقفى عنه في أي يوم من الأيام . لم يكن في نيتي العمل في وظيفة حكومية بعد تخرجي حتى ولو وجدت وظيفة مناسبة ، ولما كانت نيتي معقودة على القيام بعمل حر ، بل إنني حددت نوع العمل أن يكون في الألبان ، ولم تكن ندرس الألبان في كاية الزراعة إلا في السنة النهائية .

كاشفت الأستاذ المرشد بعزوفى عن الالتحاق بالوظائف الحكومية ، وبعمزى على الاشتغال الحر بالألبان، فزكى الفكرة ، وأبدى استمداه لموازونى في هذا السبيل ، ومن قبل نالت للفكرة قبولاً لدى والدى وأبدى استمداه لإمدادى بالمال اللازم .

شروع الألبان :

كانت الفكرة محتمرة في نفسى ؛ وعزى على تنفيذها على أشده ، ولكن كيف أنفذها ؟ وكيف أنتقل بهذا العموم إلى واقع الحياة ؟ كانت مهلة أمام شاب ناشئ ، لا عبء له بالحياة .

وبعد أيام نادانى الأستاذ ، وكان لتوه راجعاً من رحلة له في الصعيد وقال لى : لقد عثرت لك على طلبتك . ذهبت إلى مغارة من أجلك لأنى أعلم أن أعماً كريماً فيها وزميلاً لك تخرج في كليتك منذ أربعة أعوام ، كان قد أنشأ معملًا للألبان فيها ، وقد رأيت أن أقبله وأعرض عليه فكرتك ، وقد قابلته وعرضت عليه الفكرة فزكاها ، وأعبرنى بأنه أغلق المعمل لأنه محتاج إلى شريك ، ورحب بك شريكاً له .. وكذلك ذلل الأستاذ المرشد عقبة كنتوداً كانت في طريقي .

وكان لى زميل فى الدراسة تخرج معى هو عباس نجل الأخ الكريم الأستاذ محمد حلمى نور الدين ، وقد اقترح والده أن يكون شريكاً ثالثاً فى المشروع فرحبنا به ..

كنا في ذلك الوقت عقب امتحان البكالوريوس مباشرة أى في أواخر يونية وأوائل يولية سنة ١٩٣٩ ولما كان موسم الألبان يبدأ مع ظهور البرسيم في الحقول فتد كانت أمامنا فترة نقضها في القاهرة قبل الذهاب إلى مغاغة حتى يضى شهر أكتوبر على الأقل .

مفاجأة :

لم يكدهمى علينا بعد ذلك شهر واحد وإذا بولد من إخوان مغاغة - محافظة المنيا - يفرقنا في المركز العام على غير موعد ويعرض علينا مشكلة غريبة .

تتلخص هذه المشكلة في أن في مغاغة مدرسة ابتدائية أهلية تملكها جمعية قبطية . وهى المدرسة الابتدائية الوحيدة - (المدرسة الابتدائية في ذلك الوقت تعادل في أيامنا هذه المدرسة الإعدادية) - التى يلتحق بها أبناء مغاغة وضواحيها الكثيرة ... وناظر المدرسة من قديم هو الأستاذ الشيخ حسن سيد وهو من العلماء وإمام وخطيب المسجد الكبير بمغاغة ... فلما أنشئت شعبة للإخوان المسلمين بمغاغة انضم إليها فضلاء أهالى مغاغة ومنهم الأستاذ الشيخ حسن سيد وأسندت رئاستها إليه ... ولم يدرب بخلد الإخوان ولا بخلد الأستاذ الشيخ حسن سيد أن في هذا تعارضاً مع مصلحة المدرسة ... ولكن بين أن هناك عقولاً ضعيفة ، وصدوراً لا تنطوى إلا على الحقد والضغينة رأت في انضمام الأستاذ الشيخ حسن إلى الإخوان خروجاً على الطاعة، وتمرداً على العبودية، فلم يفتاحوه في ذلك ليقتنهم بخطأ نظرهم إلى الإخوان المسلمين ، ويشرح لهم أن هذه الدعوة إنما تريد الخير لا للمسلمين وحدهم بل لجميع سكان البلاد على اختلاف عقائدهم ؛ وأن الإخوان - حين انضم إليهم واختاروه رئيساً لهم - لم يروا في عمله في مدرسة الأقباط ما يتعارض مع دعوتهم ...

لم يفتاحوه في ذلك بل أسروه في نفوسهم حتى انتهى العام الدراسى فلم يفتاحوه أيضاً ، وانتظروا حتى قاربت إجازة الصيف على الانتهاء واثقنوا أن جميع المدارس الأهلية في القطر قد استوفت العدد اللازم لها من المدرسين والنظار وأن جميع المدرسين والنظار قد تم تعاقدهم مع المدارس ، حينئذ فاجأوا الرجل الذى أفنى زهرة شبابه في خدمتهم بخطاب يقولون فيه إن الجمعية قد قررت الاستفتاء عنه .

وينبى أن يعلم القارئ أن المدارس الأهلية - أو كما تسمى الآن المدارس الخاصة - في ذلك الوقت لم تكن تحت إشراف حازم من وزارة المعارف لا سيما ما يتصل بحقوق العاملين في هذه المدارس من نظار ومدرسين وكتبة وعمال بل كان كل هؤلاء تحت رحمة ملاك هذه المدارس ؛ فهم الذين يتعاقدون معهم على المدة التى يردنها وعلى المرتب الضئيل الذى يحدونه ، وعلى عدد

الخصص التي يدرسونها في اليوم وفي الأسبوع ، وهم الذين يلفون هذه العقود في أي وقت يشاؤون ودون إبداء الأسباب .

وكانت مرتبات هؤلاء المدرسين من الضالة بحيث لا تكاد تصدق ؛ فقد لا يصل مرتب المدرس إلى ثلاثة جنيهات ... كما لا يخفى أن مرتبات موظفي الحكومة كما قدمت - وإن كانت أحسن حالا من ذلك ، إلا أن مرتبات أئمة المساجد في وزارة الأوقاف لم تكن أحسن حالا من مرتبات المدارس الأهلية فكان مرتب الإمام المتخرج في الأزهر ويحمل شهادة العالمية في حدود الجنيهات الثلاثة .

وقد رأيت أن أشير إلى ذلك حتى يتضح للقارئ فداحة المصيبة التي أصابت هذا الرجل الذي خدم هذه المدرسة ثمانية عشر عاماً والذي كان يعول أسرة كبيرة ، وقد وتب معيشته ومعيشة من يعول على أساس هذا المورد الذي يكتسبه من عمله بهذه المدرسة حيث لم يكن مرتبه من وظيفته في الأوقاف يبلغ نصف مرتبه من المدرسة ... وفي الوقت الذي انقطع عنه فيه هذا المورد أصبح عاجزاً أن يجد عملاً يعوضه عنه لأن التوقيت الذي اختاروه لإخطاره بنياً الاستغناء عنه توقيت مدير ، أملاه الحقد الأسود بقصد القضاء على هذا الرجل قضاء تاماً ، ونصيحته أمام الناس حيث تظهر الفاقة عليه وعلى أولاده وذويه ، ويضطر إلى الاستدانة والاستجداء ... ولم يكن في ذلك الوقت في تلك المدارس حق للمفصول أو المستقنى عنه في معاش ولا مكافأة .

وامعتصماه :

كان وقع هذه القصة حين قصها وقد إخوان مغاغة على سمع الأستاذ المرشد كوقع كلمة «وامعتصماه» على سمع الخليفة العباسي المتصم بالله حين نزلت إليه عن المرأة المسلمة التي أسرت ببلاد الروم منتهزين فرصة أنها امرأة وحيدة لا نصير لها في بلادهم .. وكان رد الأستاذ المرشد تماماً كرد الخليفة إذ قال لإخوان مغاغة وهو يبتسم «لا بأس . إذن تنشئ له مدرسة يكون هو ناظرها وصاحبها»

لم يكن لقولة الأستاذ المرشد هذه معنى في عرف العقل والمنطق والقياس للأسباب الآتية :
أولاً : لم يبق على بدء الدراسة إلا أقل من شهر واحد .

ثانياً : أن هذا المشروع إذا أريد تنفيذه فإنه يحتاج إلى رأس مال لا يقل عن بضعة آلاف من الجنيهات في ذلك الوقت ؛ على أن يستغرق تنفيذه إذا وجد هذا المال سنة على الأقل .. فكيف يمكن مجرد التفكير فيه وليس لدى الشعبة ولا لدى المركز العام شيء من هذا المبلغ .

ثالثاً : إذا افترضنا جدلاً أن مدرسة كاملة المباني وافية بجميع ما يشترط من الشروط

الصحية والاجتماعية أنزلت لنا من السماء الآن ، فإن العقبة الكبرى التي لا يمكن تذليلها هي للثور في هذا الوقت على مدرس واحد يتعاقد معه بعد أن ارتبط كل مدرس بمدرسته .

رابعاً : أن إعداد المقاعد والقضاطر والسيورات اللازمة لمدرسة كهذه يحتاج إذا وجد المكان والمال إلى عدة أشهر .

خامساً : إذا افترضنا جدلاً أن هذه المدرسة موجودة بكامل معداتها ومدرسيها فإنها باعتبارها مدرسة جديدة تحتاج إلى عام كامل - مع جميع وسائل الإعلام الميسورة - حتى يعلم الناس الناس بوجودها .. ثم هي لا تبدأ إلا بالسنة الأولى أى بالصف الأول فقط ، لأن الناس لن يثقوا بها إلا إذا أثبتت نتائجها جدارتها لا سيما وفي المدينة مدرسة قديمة أثبتت جدارتها من قبل والجميع يثقون بها .

تلقى وفد إخوان مغاغة وتلقينا نحن الحاضرين من إخوان المركز العام قوله الأستاذ هذه بابتسامة فيها كل المعاني التي تضمنتها الخمسة الأسباب السابقة ، ولكن الأستاذ المرشد كان مصمماً على قوله حيث كررها أكثر من مرة تكرار الوائق المتمكن ... ومع ارتيابنا بل ما نراه من استعالة في تحقيق هذا المشروع فإن ثقتنا التي تفوق كل تصور في الأستاذ المرشد جعلتنا نهم عقولنا ونهم المنطق والواقع ونصدق ما يقول

إن هذا الرجل الذي آتاه الله تعالى من العلم والحكمة ما بهر عقول كبار العلماء فطلبوا إليه أن يؤلف كتاباً يودعها هذه المعارف النادرة فكان رده عليهم : إننى لا أولف كتاباً يكون مصيرها تزيين الرفوف وأحشاء المكتبات ، وإنما مهمتى أن أولف رجالاً أقذف بالرجل منهم في بلد فيحييه ، فالرجل منهم كتاب حتى ينتقل إلى الناس ، ويقتحم عليهم عقولهم وقلوبهم ، ويثبتهم كل ما في قلبه ونفسه وعقله ، ويؤلف منهم رجالاً كما ألف هو من قبل .

إن هذا الرجل الذي ربى هذا الشباب الغض على أممى المعاني الإنسانية وأجلها من إيمان وإيثار ونصحية لم تكن تربيته هذه تربية عقيمة يقف بها عند حدود تطهير النفس وتزكية الروح ثم يعتزل أصحابها المجتمع متفانين في العبادة ، بل كان يربهم هذه التربية ثم يلقي بهم في خضم المجتمع باعتبار أنهم كنوز يستثمرها المجتمع في إصلاح ما فسد منه وبناء ما أنهار من بنيانه .. وكان الأستاذ نفسه هو ألد الناس على استثمار هذه الكنوز وأبرعهم في الإفادة منها ، وأبصرهم بمكان اللائ والدرر فيها ، وأكثرهم تمكناً من سد كل ثغرة من ثغرات المجتمع بما يناسبها من هذه هذه اللائ والدرر كما يقول المثل العربي « يضع الحناء مواضع النقب »

على أساس من معرفته بما تحت يده من هذه الكنوز قال واثقاً قوله التي قالها ... قالها وهو يعلم أنها بحكم العقل وحده والمنطق والحساب إنما هي نوع من المحال ، ولكن الذي بيده مفاتيح هذه الكنوز هو نوق العقل والمنطق والحساب « والله يرزق من يشاء بغير حساب » .

إن المنصر البشرى طاقة كامنة لا حدود لقوتها ولكنها مفتقرة دائماً إلى من يستطيع تفجيرها .

إنشاء المدرسة أو تحقيق المحال

قال الأستاذ المرشد لوليد إسخوان مغاغة ، أنتم مكلفون بأمرين اثنين عليكم أن تنجزوها :
الأول : أن تقولوا للأخ الأستاذ الشيخ حسن سيد إن الإسخوان قررنا أن ينشئوا لك في مغاغة مدرسة ابتدائية تبدأ الدراسة فيها من أول هذا العام الدراسي وتكون أنت ناظرها .

الثاني : أن تجتمعوا بإسخوانكم جميعاً وتدبروا مكاناً يصلح أن يكون مدرسة مهما كان إيجاره والمركز العام. ستكفل بدفع إيجاره .

فإذا تم تدبير المكان فأعبرونا لتكمل الخطوات الأخرى إن شاء الله .

وبعد أيام وصل وفد من مغاغة يحمل إلينا نبأ إيجاد المكان المطلوب وقالوا إن الأخ المهندس الزراعى الأستاذ شلبي محمد جاد وكيل الشبة - وهو نفسه الأخ الذى كان الأستاذ المرشد قد اتفق معه لاكون شريكاً له في معمل الألبان - قدم لنا منزلاً يملكه ملحق به فناء واسع وهو مكون من ثلاثة طوابق ليكون مقراً للمدرسة ، وتبرع بقيمة إيجاره في السنة الأولى .

كان مدرسو المدارس الابتدائية الأهلية في ذلك الوقت ذوى مستوى معين ، فهم عادة من ذوى الخبرة الذين لم يحصلوا على مؤهل ما ، أو من حملة الشهادة الابتدائية ، وأعلامهم مستوى كان من حملة شهادة الكفاءة وهي شهادة تقل عن الثانوية العامة بستين ...

وأراد الأستاذ المرشد أن يقتحم على منافسينا بصاعقة تذهلهم وتفقدهم رشدهم ، فقال لوليد مغاغة : ارجعوا إلى إسخوانكم واطبعوا أكبر عدد ممكن من الإعلانات واكتبوا فيها أن المدرسة الإسلامية بمغاغة قد استقبلت جميع هيئة التدريس بها من القاهرة وكلهم من عريجي كلمات الجامة ويحملون شهادات البكالوريوس والليسانس - واكتبوا أسماءهم ومؤهل كل منهم أمام اسمه - واكتبوا في الإعلان أنهم سيحضرون إلى مغاغة يوم كذا في قطار الساعة كذا - وحدد لهم اليوم والساعة ...

وقال لهم : عليكم أن توزعوا هذه الإعلانات في جميع أنحاء مغاغة وفي جميع قرى المركز ..
وعليكم أن تكونوا جميعاً في انتظارهم على محطة السكة الحديد .

ثم التفت إلى وقال : عليك أن تأهب أنت وزميلك عباس حلمي وعبد بسيوني (تخرج محمد بسيوني في ذلك العام في كلية الحقوق) للسفر معاً إلى مغاغة في يوم كذا وفي قطار الساعة كذا وهو اليوم والساعة اللتان حددهما لإسخوان مغاغة .

ودعوت زميل وقابلنا الأستاذ فقال لنا : إنكم ستقومون بأهم دور في هذا المشروع الذى أنا

أعده مشروع الساعة للدعوة والاختبار الدقيق لها ، وستحملون أتم أكبر عبء فيه ... إن عليكم أن تعرفوا الناس بأنفسكم وبمؤهلاتكم ، وعليكم أن تزوروا أعيان مغاغة وجميع البيوت المعروفة في قرى المركز ... وستكون زيارتكم هذه لهذه البيوت مبعث ثقتهم في نجاح المشروع ، ودافعا لهم على التبرع له بسخاء ... ثم عليكم مع ذلك أن تتعاونوا مع إخوان مغاغة في تدبير كل مايلزم المدرسة من مقاعد وقاطر وغيرها ... وحين تبدأ الدراسة فعليكم أن تقوموا بأنفسكم بتدريس جميع العلوم وستضم إليكم في التدريس الأستاذ الشيخ حسن سيد الناطر ، ولا تتركوا مواقعكم في التدريس إلا بعد أن نعثر على عدد كاف نتعاقد معه من المدرسين المحترفين ...

تلقينا هذه التعليمات من الأستاذ المرشد ولم يخطر ببالنا أننا مقدمون على أشق مهمة على الإطلاق ..

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصباة إلا من يعانيتها

مظاهرات من نوع جديد :

حزنا أمتعتنا - ولم تكن أمتعة ذات بال ، فهي لا تعدو أن تكون ملء حقيبة ضمت أمتعتنا نحن الثلاثة ... وركبنا القطار الذي حدده لنا الأستاذ وتوكلنا على الله ، حتى إذا صارت محطة مغاغة قاب قوسين أو أدنى أعدنا أنفسنا أمام باب عربة القطار التي كنا فيها لنكون أول النازلين حين يقف القطار ، ولما كنا لم نزل بمغاغة من قبل فقد طمأننا الأستاذ أن سنجد في انتظارنا عدداً من الإخوان الذين عرفناهم في القاهرة .

ووقف القطار ، ولم نكد نقدم رجلا للهبوط حتى رأينا المحطة تتموج بمئات من الناس الذين يبدو عليهم أنهم من علية القوم ، ورأينا الجميع يشيرون بأيديهم إلينا ، وتقدم نحونا الإخوان الذين عرفناهم في القاهرة وتناولوا حفيقتنا وحملوها بأيديهم وأحاطوا بنا ، وخرجنا من المحطة في موكب ضخم مهيب نتقدمه نحن الثلاثة وحولنا إخوان مغاغة وخلفنا هذه الجموع كأننا « عرسان » يزفون ليلة الزواج والتهنئة « الله أكبر والله الحمد » يشق عنان السماء .. وسلكوا بنا في هذا الموكب الشارع الرئيسي الذي يخترق المدينة من أولها لأخرها ، وعلى طول الطريق يرشقنا الناس على الجاتين بنظرات ، ويوجهون نحونا إشارات كأنهم كانوا على علم بمقدمنا وفي شوق لرؤيتنا ، حتى وصلنا إلى الدار التي تعد لتكون مقراً للمدرسة فدخلنا ودخل معنا كثير من الناس وأخذ الجميع يرحبون ويبدون سرورهم بمقدمنا .

كان باقيا على موعد بدء الدراسة في المدارس الابتدائية أقل من شهر ، ولم يكن بد من من تقسيم المسؤوليات على الإخوان لينهض كل بما يوكل إليه في أسرع وقت ممكن ، وكان من مسئولية الأخ الأستاذ شاذي محمد جاد المتبرع بالدار أن يغير من شكل المبنى ومحتوياته فيهدم أجزاء ويضيف أجزاء حتى يتواءم المبنى مع الرسم الذي طلبته وزارة المعارف وجعلته شرطاً لاعتراقها بالمدرسة ، وكان على الأخ الأستاذ محمد فؤاد سليمان ومعه مجموعة من الإخوان

أن يحصلوا من مخازن الوزارة ومن المكتبات الأخرى على الكتب اللازمة والكراسيس وغيرها من الأدوات المكتبيه الصفوف الأربعة . وهكذا قسم العمل وكان الموكل إلينا من المسئوليات هو أن نشترك في النهار مع اللجان المختلفة في مسئولياتها حتى إذا انتصف النهار وتناولنا طعام الغداء ، أعددتنا أنفسنا لرحلة يومية يشترك معنا فيها الأستاذ الشيخ حسن سيد وبعض الإخوان لنزور كل يوم بلداً من بلاد المركز أو بلدين لنشرح للناس مزايا هذه المدرسة والسبب في إنشائها وما كان من أمر القدر بالشيخ حسن سيد كما يرون بأعينهم الأشخاص ذوي المؤهلات العالية الذين سيقومون بمهمة التدريس ، فتكون نتيجة كل زيارة من هذه الزيارات ضمن نقل أولادهم من مدرسة الأقباط إلى المدرسة الإسلامية وإلحاق أولادهم الجدد بها ، ثم تبرعاً سخياً يقدمه أثرياء البلد لحساب إنشاء هذه المدرسة .

كان هذا المجهود المتواصل شاقاً فقد كنا نغادر مغارة كل يوم عصراً ولا نعود إليها إلا منتصف الليل لنستأنف في الصباح الباكر العمل مع اللجان المتعددة المسئوليات .

انهالت التبرعات من أثرياء القرى التي زرناها وتمكننا بذلك من شراء جميع احتياجات المدرسة من كتب وأدوات وسبورات ومكاتب وكراسي للمدرسين والزوار وأدوات النظافة وغيرها ثم واجهتنا معضلة هي أننا نريد قاطر للتلاميذ ونريد عدداً كبيراً يتسع للعدد الذي قدرناه من التلاميذ نتيجة دعايتنا وزياراتنا ، وإذا كان معنا ثمن هذه القاطر فإن صناعتها قد تستغرق عدة أشهر ولم يبق على موعد بدء الدراسة إلا عشرة أيام .

تذكرت أن أحد أصدقائنا في رشيد كان قد أنشأ مدرسة ابتدائية في مطويس ولكنه أخفق في المشروع فباع محتوياتها فاشترى أخ كريم من إخواننا التجار برشيد فأرسلت إليه أن يشحن لنا جميع هذه القماطر (التخت) التي اشتراها في سفينة فوصلت مع بدء الدراسة وكانت جديدة وقد طلب في الواحدة المزدوجة المقاعد ثلاثة عشر قرشاً وهو نفس الثمن الذي اشتراها به مع أنه كان يستطيع أن يبيعها في ذلك الوقت بأكثر من ثلاثين قرشاً . ولو أننا اضطررنا إلى صنعها لتكلفت أكثر من ضعف ذلك .

بدء الدراسة :

بدأت الدراسة في موعدها والمدرسة مستوفية جميع مالا تستوفيه مدرسة إلا بعد مضي أربع سنوات على إنشائها أو أكثر إذا كانت الظروف مواتية ، وكادت مدرسة الأقباط تتوقف لولا ما تبقى بها من أولاد الأقباط وقليل ما هم ، وأحس المستكبرون الغادرون بفشلهم وعطأ تقديراتهم فبعثوا إلى الأستاذ الشيخ حسن سيد يطلبون الصلح معه ولكن الرجل رفض أن يضع يده في يد غادرين .

وقنا نحن الثلاثة بالتدريس طول اليوم ومعنا الناظر وابنه وأخ كريم حصل على دبلوم

الفنون التطبيقية في ذلك العام هو الأخ الأستاذ حسن عبد الله القباني قام بتدريس مادة الرسم . فكان كل منا يدرس جميع حصص اليوم متصلة ، ولقد يدرس لفصلين في آن واحد .. ولقد أنهكتنا هذه الفترة التي دخلناها ونحن في أشد حالات الإرهاق من أثر الزيارات المتلاحقة للبلاد وكان الإخوان في خلال ذلك سواء في القاهرة وفي مغارة يجدون في البحث عن مدرسين للتعاقد معهم حتى ودفقوا إلى ثلاثة منهم حلوا محلنا بعد شهر من بدء الدراسة ، ولقد أدركونا ونحن في الرمي الأخير .

تقييم هذه التجربة

كان هذا العمل الذي انتدب الإخوان أنفسهم للقيام به في مغارة ، والذي حتمت الظروف النهوض بأعبائه ، ، كان امتحاناً قاسياً ورأياً هذه الدعوة التي تعد في عمر الدعوات دعوة ناشئة ، وقد كشف هذا الامتحان عن طبائع هذه الدعوة بأسلوب جلي وقد تتضح منه القسائم التالية :

أولاً : أثبتت الدعوة للإخوان أنفسهم أنها دعوة إيجابية فعالة ، كما أثبتت ذلك لغير الإخوان ممن شهدوا مسرح الأحداث ، وبيئت للجميع أنها دعوة لا تقف عند حد الأولوال والدعاية الكلامية والإقناع العقل بالأسلوب المنطقي بل إنها تفعل ما تقول وقد تفعل أكثر مما تقول :

ثانياً : أثبتت أن العنصر البشري إذا ما تربى التربية الإسلامية السليمة الكاملة النابعة من الكتاب الكريم يستطيع أن يأتي بما يشبه المعجزات ، وأنه لا تعوقه العوائق المادية مهما عظمت

ثالثاً : أن القيادة القادرة التي تولت الشباب الفص وأنشأته على أقوم الأسس وأعطته من ذات نفسها هي التي تعرف مقدار ما يمكن في هذا الشباب من طاقة خارقة للعادة ، وهي التي تعرف كيف توجه هذه الطاقة ومتى توجهها لإنجاز أعمال يحكم العقل والقدرة المادية والمنطق باستحالة إنجازها .. ومن دستور هذه القيادة المأثور قولها : إذا صح العزم وضح السبيل .

رابعاً : فسرت معنى الأخوة الإسلامية « المسلم أخو المسلم لا يحقره ولا يتخذله ولا يسلمه » وأنها إنما تقوم على أسس من التضحية والإيثار لا على الأثرة والاستغلال ، لهذا المجهود الذي بذل في إنشاء هذه المدرسة في الطرف المعين الذي كان يجب أن تنشأ فيه ، لا يمكن تقديره بمال مهما كثر ، ومع ذلك وبغير من ولا أدى حين اكتمل المشروع تمام الأكتمال سلم إلى الأخ الذي هبنا لنجده يتصرف فيه كما يشاء حيث قال الأستاذ المرشد حين بلغه نبأ قدره به « إذن ننشئ له مدرسة يكون هو ناظرها وصاحبها » .

خامساً : أثبتت الدعوة أنها مع قدرتها دعوة سلام وعفة ، فقد كان في تصور من دبروا جريمة القدر من قادة جمعية الأقباط ، كما كان في تصور الناس جميعاً في مغارة أن رد الإخوان

على هذه الجريمة النكراء سيكون الاعتداء على هذه الجمعية باليد واللسان ، ولكن المفاجأة كانت في أن شيئاً من هذا لم يحدث ، وإنما كان الرد هو ما تحدثنا عنه دون مس أى من هؤلاء المعتدين بكلمة نابية أو لفظ جارح ، ذلك أن الدعوة الإسلامية أبعد الدعوات عن فحش القول وعن الاعتداء ، لكنها تهب هبة المدعور لحاية من اعتدى عليه من أبنائها ولا تدخر وسعاً في حمايته وحياطته ..

إلى مشروع الألبان :

بعد أن تم إنشاء المدرسة وبعد أن تسلم ، المدرسون المتعاقد معهم أماكنهم في المدرسة اتجهنا إلى مشروعنا الأصلي الذي اعترض طريقه هذا المشروع المدرسي الطارئ ، وكان من توفيق الله أننا فرغنا من مشروع المدرسة في الوقت المناسب لمشروع الألبان ، وتذكرت وشريكي الأستاذ شاربى المشروع وكان معمله مجهزاً أحسن تجهيز وكتبنا عقد الشركة وعرضناه على الأستاذ المرشد - لأنه كان حريصاً على الإطلاع عليه - ووقعناه - ولهمت من شريكي أن سبب فشله في المشروع هو عدم تصريف منتجاته فتكفلت أنا بذلك بعد أن استوثقت من إخوان القاهرة التجار استعدادهم لشراء كل ما ينتجه المعمل ، واستمرت الشركة موسم لبن كاملاً كنت خلاله كثير التردد على القاهرة ثم رأيت إنهاها .

ولقد يكون مفيداً للقارئ أن أسرد على مسامحه تفاصيل هذا المشروع ولكن إيجازاً للقول أكتفى بوضع خلاصة له بين يديه ولا أكون بذلك قد خرجت على الموضوع لتاريخ الدعوة هو تاريخ القائمين بها والعاملين لها والذين كرسوا حياتهم للتبؤس بها ، فلم يكن تحركى لهذا المشروع إلا بوحى من هذه الدعوة ، وما كان اهتمام الأستاذ المرشد به إلا لكونه يرى أن مثل هذه المشاريع دعائم للدعوة ، وهالك الخلاصة .

١ - لم يكن يعوذنا المال فالمال كان متولفاً ولم يكن يعوزنا نصريف الإنتاج فقد كان المظأوب منا أكثر من ضعف إنتاجنا .

٢ - لم يكن يعوزنا الإخلاص لشريكي كان من المثل العليا التي يندر وجودها ومن يخشون الله ويتقونه ، وسأذكر واقعة واحدة تنبئك عن مدى عمق إيمانه بالله ، فقد كان يملك قطعة أرض واسعة في وسط مفاغة فجاءه رجل أجنبي من خارج مفاغة وعرض عليه ثمناً مشرفاً لهذه القطعة يبلغ ضعف ما تستحق لينشئ عليها داراً للسينما وإذا لم يرغب في بيعها فليدخل معه شريكاً في هذه السينما - وكانت السينما في ذلك الوقت أربح مشروع - فطلب منه مهلة وسألني رأيي في هذا العرض فأجبت بأن السينما ما هي إلا أداة لعرض ما يراد عرضه فيها ولكن الأفلام التي تعرض هي عادة أفلام تدعو إلى الرذيلة .. فرفض عرض الأجنبي مع ماليه من إغراء غشبية أن يكون فيه ما يغضب الله .

٣ - لم نبع صفقة إلا بربح ومع ذلك خسرنا خسارة كبيرة نتيجة للة اللبن الوارد

إلى المعمل ، والمصاريف اليومية والشهريّة التي كان لا بد من صرفها على المعمل كانت تكفي لصنع عشرة أضعاف كفة اللبن التي كانت ترد لنا . ومن هنا نشأت تخساره .

٤ - سبب قلة الوارد إلى المعمل ترجع إلى إيثار شريكى عدم المجازلة بدفع الثمان اللبن لأصحاب المواشى قبل توريده إلينا في حين أن تجار « السمن » في القاهرة كانوا يدفعون لأصحاب المواشى في مغاغة مبالغ كبيرة قبل بدء موسم اللبن .. وقد احتلّمت وجهة نظرنا في هذا الموضوع فكنت أرى أننا أولى بالاطمئنان على مالنا إذا دفعناه إلى هؤلاء الفلاحين من أولئك الذين يعيشون في القاهرة ويدفعون لهم الأموال . ولكن شريكى - لطروف شرحتها لي قابله في تربيته وهو طفل - جعلت عنده في كل تصرفاته لفرط حرص .

و كما أن قيام هذا المشروع كان بمشورة من الأستاذ المرشد ، فقد كان إنشائي له وفيض الشركة مشورة منه أيضاً ... على أن الذى أحب أن ألفت النظر إليه أن فاض الشركة بنى وبين الأخ الأستاذ شلبى لم يكن له أى أثر على ما بيننا من علاقة أخوية وسوف سيأتى إن شاء الله في سباق هذه المذكرات ما يوضح ذلك .

رأى عظيم لرجل عظيم

قدمت في خلال الحديث من مشروع الألبان أننى كنت في خلال فترة قيام هذا المشروع أتردد على القاهرة في إحدى مرات ترددى وكان مساء يوم خميس وجدتهم في المركز العام يوزعون الدعاة يوم الجمعة على عدة مساجد ، فلما رأونى بينهم أدخلونى في التوزيع فكان من نصيبى ومعى الأخ صالح عشاوى مسجد أحمد زكى باشا بالجيزة .

وذهبت وزميل إلى المسجد قبل صلاة الجمعة ، ولما أذن للصلاة صعدت المنبر وخطبت الناس وأنا أتلخص وجوههم ، فلاحظت من بينهم وجهاً مشرقاً لشيوخ معمم ذى لحية بيضاء وقور يرمقى وكأنه هو الذى يتفحصنى ، فشغلنى أمر الرجل حتى أنهيت الخطبة وصليت بالناس ، ثم قدم الناس يصالحوننى وأنا أبحث عن الرجل فلم أجده بين من صافحونى .. فلما انفض الجميع وقلبى مشغل بالرجل تبين لى أنه باقى في مجلسه .

فلما رأى الناس قد انكشفوا عني رأيتهم قادمين نحوى فتقدمت نحوه ، ومد يده إلى فشددت على يده ثم صافح زميل ثم خرجنا ثلاثتنا من المسجد وسرنا معاً وقد طلب حين خرجنا من المسجد أن أنشرب عنده القهوة فقبلت على التوشوق إلى معرفة الرجل ، حتى إذا كنا أمام « الفلة » جميلة قال تفصلوا ، ولحمت على باب « الفلة » الخارجى لافتة عليها اسم صاحبها فظننت رجلاً ساكتاً بها .

فلما دخلنا وأخذنا مجالسنا قال الرجل : نريد أن نتعارف ، وقدم لى بطاقته ، فإذا عليها نفس الاسم المكتوب على لافتة « الفلة » وهو « منصور مهران » الأستاذ بدار العلوم سابقاً ،

فبدأت أعرف قدر الرجل ، وإن كنت إ أزدد له احتراماً فقد كنت أوليه لوقاره احتراماً يتواءم وهذا الوقار .. ثم التفت إلى فقلت : أنا فلان بكالوريوس زراعة و صاحب معمل ألبن في مفاغة ، وزميل صالح مصطفى عشماوى بكالوريوس تجارة ومحاسب .

قال الشيخ : كم تعطيك جمعية الإخوان المسلمين التى تنتمون إليها في كل مرة تقومون بنشر دعايتها وإذا كانت تحاسبكم بالشهر فكم تعطيك شهرياً .
قلت له : إن الجمعية لا تعطينا شيئاً لنشر دعوتها لا بالمرّة ولا بالشهر .

قال : لمن من الذى يتكفل للدعاة بمقابل أتعابهم ومصاريف انتقاهم ؟
قلت : ليس عندنا مقابل أتعاب ، وكل منا يتكفل بمصاريف انتقاله .

قال : أنتم فقط أم هذا حال جميع الدعاة ؟

قلت : هذا حال جميع الدعاة ؟ .

قال : أليس للجمعية دعاة بمرتبات تدفعها لهم ؟

قلت : كل الدعاة مثلنا متطوعون . بل إن هؤلاء الدعاة يقدمون للجمعية من جيوبهم .

قال : كم يدفع العضو في الشهر ؟

قلت : الاشتراك في جمعيتنا ليس محدداً ، فمن الأعضاء من لامقدرة عنده فلا يدفع شيئاً ، ومنهم من يدفع خمسة قروش ومنهم من يدفع عشرة قروش وهكذا ومنهم من يدفع جنبها أو أكثر كل حسب مقدرة ولا فرق بين الجميع .

قال : ومن هو رئيس الجمعية ؟

قلت : ليس للجمعية رئيس وإنما لها مرشد عام هو الأستاذ حسن البنا وهو متخرج في دار العلوم وكان أول دفعته وهو مدرس بمدرسة عباس الابتدائية بالسبتية .

قال : وهل حددت الجمعية له مرتباً من ماليها ؟

قلت : لا .. وإنما هو يقسم مرتبه الذى يأخذه من وزارة المعارف بينه وبين أولاده وبين الجمعية ، وهو يقوم بنشر الدعوة في الأقاليم ويسافر كل أسبوع مرة أو أكثر على حسابه الخاص .

قال الرجل .. اسمعوا يا أولادى .. إن هذا اليوم أسعد يوم في حياتى .. إننى أؤمن بأن هذا الدين لا ينقص به إلا دعاة يبذلون له ولا يرتزقون منه .. ثم قال : نحن الأزهرين عيال في دراستنا على كتب الرجال الأجداد الشيخ الصباغ والشيخ النجار والشيخ الحداد وهؤلاء العلماء لم يسموا بهذه الأسماء إلا لأنها أسماء صناعاتهم ، فالشيخ الصباغ كانت مهنته التى يرتزق

منها هي صباغة الأقمشة ، والشيخ النجار كانت مهتته النجارة وهكذا كان لكل مهتته التي يكتسب عيشه منها ثم في وقت فراغه يضع هذه المؤلفات الإسلامية التي نحن مدينون بها رفنا لها تقرباً إلى الله .

يا أولادى ... اليوم أموت وأنا مراقح للهمير لأن الفئة التي كانت تنقص المجتمع الإسلامى قد وجدت ، ونهضة الإسلام كانت مرهونة بوجودهم .

وهنا وقفت وزميلي مسأذين وشاكرين للشيخ حسن ضيافته ودعوته لزيارة المركز العام فاعتذر بأنه قد لا يستطيع لضعفه لكنه حملنا التحية للأستاذ المرشد . ولما رجعنا وقابلت الأستاذ المرشد أبلغته تحية الشيخ وأطلعت على بطاقته فقال لى إنه كان أستاذه ، ولما حدثته بحديثه استمع إليه باهتمام وقال : إن أمثال هذا الرجل يمثل هذا الفهم قليل في عالمنا اليوم .

الشاي في الصعيد

كنت منذ صغرى من محبي الشاي ومن المقلين على احتسائه كل صباح في المنزل ، فلما شبيت وكنت في السنة الرابعة الثانوية ونظرت إلى هذا الشراب فوجدت له جانبين علينا نحن نحن المصريين ، أحدهما إنه صادر عادة لنا أو بالتعبير المألوف « كيفاً » سيطر على أعصابنا بحيث لم نعد نستطيع الاستغناء عنه ، فكأنما استعبدنا فصار لنا سيداً وصرنا له عبيداً . والأخرى أنه مع ذلك بضاعة أجنبية . واقتنعت بوجود مقاطعته .

ولما كنت في مغافة لاحظت أن أهل الصعيد أشد انغراساً في هذا « الكيف » منا نحن أهل الوجه البحرى ، فالعمال مثلاً ينفقون أكثر ما يكتسبون على الشاي .. وقد لمست خطورة هذا الشراب عن قرب حين كان ساكناً معي الأخ الأستاذ حسن عبد الله القباني وهو من أهل قوص إحدى حواضر قنا وهو مدرس الرسم بالمدرسة كما ذكرت قبلاً .. فرأيت بهيئته لنفسه الشاي كل صباح بطريقة يكثر فيها من الشاي الخاف ويظل يغليه في الماء حتى يصل إلى قوام يشبه قوام الزيت ، وحتى إن طعم السكر لا يظهر فيه مهما أكرت منه عليه ، ويحتسئ منه قبل أن يذهب إلى المدرسة ثلاثة أكواد صغيرة ثم يذهب إلى المدرسة ويبدأ عمله في الساعة الثامنة حتى إذا وصلت الساعة العاشرة حيث استراحة التلاميذ نحو عشر دقائق كان فراش المدرسة في انتظاره بأكواب كبير من الشاي ، ثم يجيء إلى البيت ظهراً فيتغدى ويهين الشاي لنفسه بطريقة الصباح ، ثم يذهب إلى المدرسة لفترة مابعد الظهر حيث تنتهى الدراسة الساعة الثالثة فيجد الفراش بالأكواب في انتظاره ثم يشرب الشاي بعد العشاء بمثل طريقة الصباح ، وقد يشرب مرة بين الساعة الثالثة والعشاء .

إنه هو الذى ذكر لى هذا النظام الذى يلتزمه والذى إذا افتقد مرة من مراته عجز عن أداء عمله حتى يسمف بالشاي . ولقد أخبرنى أن الشاي في حياتهم هو كل شيء حتى إن أطفالهم يقطمون على الشاي وأنه هو شخصياً فطم على الشاي .

ولما كانت القدوة هي أقوى وسائل التأثير فقد نهل على إلتناح الأخ الكريم بضرر الشأى وعطووته وعاونته في اتباع خطة انتهت إلى مقاطعة الشأى والاستعاضة عنه بمشروبات وطنية أخرى كالكركيه والينسون والنناع ، فأدى ذلك إلى تحرره من هذه المهيمنة المسيطرة كما أدى إلى تحسن كبير في صحته .

وبهذه المناسبة أذكر أنه لما جاء موعد إجازة نصف السنة وسافر الأخ حسن إلى بلدته قوص ليقتضى الإجازة فيها فلما عاد من الإجازة قال لي سأروى لك شيئاً طريفاً وقع لي في هذه الإجازة .. قال : لما وصل في القطار إلى محطة قوص ، وكان أهل على علم بموعد وصولي نظرت من القطار فوجدتهم في انتظارى على رصيف المحطة ، فزلت من القطار ومعى حقيبتي فلم يتقدم نحوى أحد منهم ليحمل عني حقيبتي كالعتاد ، كما لم يتحرك أحد منهم كأنهم لم يروني ، فتقدمت نحوهم حتى التصقت بهم ولم يمد أحد منهم يده لمصافحتي ففجعت وقلت لهم مالى أراكم هذه المرة تتجاهلوننى ماذا حدث ؟ قالو من أنت ؟ قلت أنا حسن عبد الله فبدأ عليهم الدهشة وقالو أنت حسن ؟ . إذن أنت تغيرت كل التغير ، لقد كنت نحيفاً أسمر الوجه ونراك الآن ممتلئ الجسم أبيض الوجه ماذا حدث ؟ فتذكرن أن شيئاً لم يحدث لي إلا مقاطعتي للشأى التى أدت إلى فتح شهيتي للطعام فقلت لهم ذلك لتعجبوا .

وقد يكون الإسراف في الشأى فعلا من أسباب ضعف الجسم فلا زلت أذكر كلمة للأخ الدكتور محمد أحمد سليمان قاطا في أثناء محاضرة كن قد ألقاها علينا في المركز العام حيث قال : إن الشأى يحتوى على حمض العفصيك « التنيك » الذى يستخدم في ديبغ الجلود . وقال إن الضم في المدة يتم عن طريق أهداب قطيفية تبطن المعدة من داخلها فإذا نزل الشأى على هذه الأهداب القطيفية دبغها أى قضى عليها فتعجز المعدة عن الضم .

وقد جرت عادتنا منذ أقمت بمغاغة أن نزور في كل يوم جمعة قرية من قرى المركز ، فخطب الجمعة في مسجدنا ثم لننتقل إلى بيت من يدعوننا من أهلها حيث نشرح لهم الدعوة وتناقش في أمور البلد على ضوءها .. وفي إحدى أيام الجمعة كنا في زيارة قرية اسمها عزبة على باشا فهمى ، وكان الأخ الأستاذ شلى يعرف عمدتها واستقبلنا العمدة في بيته حتى حان موعد الصلاة فخرجنا متجهين إلى المسجد .. وبينما نحن نمشى اصطدمت قدمي بحجر في الطريق ، فقلت للعمدة ما هذا الحجر الملقى وسط الطريق ومغطى بقطعة من الخيش ؟ فضحك العمدة وقال : إن هذا ليس حجراً إنه رجل وكشف قطعة الخيش فرأيت رجلاً محتبياً ورأسه بين فخديه . ففجعت وسألت العمدة عن شأنه فقال : كان هذا الشاب من أجلة شباب القرية وأقوام بنية ، وأكثرهم إنتاجاً في عمله بالحقول ، فابتل بالشأى حتى صار ينفق كل أجره على الشأى وأهلك الشأى بدنه دون أن يحيا غذاء يقاومه به ، فضعف الشاب حتى صار إذا اشتغل ساعة عجز عن العمل حتى يأتيه بكوب من الشأى ، فأضرب أصحاب الحقول عن قبوله للعمل عندهم فصار معدماً .. فهو يلقى بنفسه هكذا في عرض الطريق حتى يتصدق عليه بعض المارة فيشتري بصدقته شأيا

من هذا المحل - وأشار إلى محل صغير قريب .. فيشر به فيتعش فترة ثم تخور قواه فيرجع إلى وضعه الذي رأيته فيه .

ولما دخلنا المسجد - وكان أهل القرية على علم بمقدمنا وبأننى سأخطبهم خطبة الجمعة - تقدم إلى رجل منهم وسلمنى ورقة قرائتها فوجدت بها هذه العبارة : « إثنى شيخ البلد وإن الشأى لبد قصى على شبابنا فأرجو أن يكون موضوع خطبتك فى بيان أصرار الشأى حتى تنقذ هذا الشباب من الدمار » فلما قرأت الورقة عجبت لهذه المصادفات المتلاحقة ، وسرفى أن عند بعض الناس غيرة على مصلحة المجتمع إلى هذا الحد الرائع .

وأجبت الرجل إلى طلبه .. وبعد الصلاة انتقل الركب إلى بيت العمدة وجلس الجميع فقال العمدة : لا أدرى ماذا أقدم لكم والتمحة عندنا هى الشأى ولا أستطيع أن أقدم لكم الشأى بعدما سمعنا من أضراره فإذا أقدم لكم ؟ قلت : أليس فى حديقتك هذه النجاسة ؟ قال : فيها نعنار . قلت : دع رجالك يحضروا شيئاً منه ويفسلوه ثم يجهزوه كما يجهز الشأى ولكن إذا غلى أول غلية فلينزل من فوق الموقد ودعوه مغطى لبضع دقائق ثم يقدم لنا جميعاً محلى بالسكر .. وقد فعلوا وشرب الجميع وأثنوا على طعمه ومذاقه ، وقد شرحت لهم فوائد الصحة مع رخصه وتيسر وجوده فى كل مكان .

مواجهة بين المرشد العام وطه حسين

لما انتقلت الدعوة بمركزها العام إلى ميدان الخلمية الجديدة ، رأى الأستاذ أحمد السكرى أن ينتقل إلى القاهرة ورأى الأستاذ المرشد أن يهوى له ذلك فألحقه بوظيفة فى ديوان وزارة المعارف سكرتيراً لمدير التعليم الزراعى .

وفى ذلك الوقت عين الدكتور طه حسين المستشار الفنى لوزارة المعارف ، وهو منصب لم يكن موجوداً من قبل ولكنه أنشئ للدكتور طه شخصياً ، وكان لتعيين الدكتور طه فى هذا المنصب دوى هائل فى جميع الدوائر التعليمية والثقافية فى مصر وفى خارج مصر ، باعتبار أن صاحب هذا المنصب هو الذى سيوجه الثقافة فى مصر حيث يشاء ، وستحكم فى تلوين ثقافة البلاد باللون الذى يروقه . وقد يكون هذا المنصب أخطر المناصب تأثيراً فى بلد ناثى كصر تتجاذبه تيارات متضاربة لا يدرى أيها أنفع له ولا إلى أيها يتجه . ولطه حسين نزعات عرفت عنه واشتهر بها . وتوجس الكثيرون خيفة مما عسى أن يسفر عنه تعيينه فى هذا المنصب الخطير .

وطه حسين أديب ضليح تلقى الأدب على الشيخ الموصى الذى كان إمام عصره . ودرس فى الأزهر حتى أوشك أن يحصل على شهادة العالمية منه - وهى أعلى شهادته - ولكنهم - لسبب ما - أسقطوه مع أنه لم يكن يعوزه العلم ولا اللغة ولا الذكاء ... فاتجه منذ ذلك الوقت - مكرها - إلى الجامعة المصرية الناشئة وحصل منها بتفوق على الليسانس ، وأوفدته الجامعة فى بعثة إلى باريس حيث حصل على الدكتوراه وتزوج فرنسية حضرت معه إلى مصر وعين مدرسا بكلية الآداب وصار يكتب ويحاضر فى الجامعة وخارجها ... واقترحنا إلى ميدان

السياسة وناصر حزب الوفد فاعتبر بذلك من المناوئين للسراى ... وألف مؤلفات في الأدب الجاهل والشعر الجاهل كان لها ضجة في أنحاء البلاد ، واستطاع بذلك أن يبرز في المجتمع ، فحقق بذلك من آماله ما لم يكن ليحققه لو أنه حصل على العالمية وسلك طريقها ..

وكاد الأزهر في حملاته عليه أن يعصف به ويقضى عليه قضاء تاماً لولا أنه كان يأوى بانتسابه لحزب الوفد إلى ركن شديد .. ومع ذلك فإن الأزهر بعدائه له واستعدائه السراى استطاع في إحدى الفترات أن يفصله من الجامعة فاحتضنه الوفد وأوسع له من صفحه يحرق فيها بأسلوبه الأدبي الناقد مستغنياً بذلك عن مرتب الجامعة .. ولكنه بعد كل هذا استطاع أن يرجع إلى الجامعة ويصير عميداً لكلية الآداب وتبوأ أعلى المناصب حتى وصل إلى هذا المنصب الذي استحدث من أجله تقديراً لمكانته وإقراراً بفضلته .

على أن احتفاء حكومة في بلد كصر - لا سيما في الزمن الذي نحن بصدده - بإنسان وإحلاله في أعلى المناصب وإضفاء الألقاب الرنانة عليه ، ليس دليلاً على فضله ولا على جدارته ، فثل هذه الحكومات إنما تستوحى قراراتها وتستلهم اختياراتها من إهواء شخصية أو عصبية حزبية أو توجهات أجنبية ... ولست أقصد من هذا إلى الطعن في طه حسين أو النقص من قدرته الأدبية أو الاستخفاف بمواهبه الفطرية ، فقد ألحت إلى ذكائه ومكانته الأدبية ، ولكنني أحببت أن لا يولى القارئ اتجاهات الحكومات في ذلك المهد من الاهتمام والتقدير أكثر مما تستحق .

أما عن طه حسين نفسه فإنه .. مع ذكائه وناقد بصيرفه - شاب طارده أكبر جامعة دينية في بلده فتلقفته جامعات فرنسا ، وأوسعت له من وارف ظلها ، فأحسن في ظلها بترحاب لم يحفظ بشئ منه في بلده وتقلب في أحضان نعمة لم يذق مثلها في منشته ، ولم تكف فرنسا بذلك كله بل حبتة أيضاً قطعة من نفسها حتى يكون حيث كان ومعه روح فرنسا تسيطر على بيته ونفسه وقلبه وعقله ، تلك هي زوجته ... ولولا أن طه حسين كان منطوياً على قلب حصين - لأنه كان يحفظ القرآن منذ نشأته - لما كان مثله بعد ذلك إلا فرنسياً عاصماً .

وضع طه حسين في هذه الأثناء كتابة « مستقبل الثقافة في مصر » ضمنه أراء فيما يجب أن تنتج إليه الثقافة في مصر ، وكان لهذا الكتاب دوى كبير في جميع الأوساط لاسيما الأوساط التعليمية والتربوية التي كان عنها موضوع الكتاب قبل غيرهم ، ولأن الكتاب كان دعوة صريحة إلى الاتجاه إلى الغرب بطريقة مزعجة فتد جاء في الكتاب ما يكاد يكون نصه « وأرى أن نأخذ بالحضارة الغربية خيرها وشرها حلوها ومرها » .

وقد تناولت الكتاب أقلام النقاد بين قادح ومادح ، وسالت أنهار الصحف بهذا النقد ، فالمداحون هم الذين تربوا في أحضان الحضارة الغربية فهم بها مفتونون ، والقادحون كان أكثرهم من أعداء طه حسين التقليديين ... ولا أعتقد أن كتاباً في العصر الحديث في مصر استأثر باهتمام المشتغلين بالتربية والتعليم مثلاً استأثر به هذا الكتاب ، للظروف التي صدر فيها والتي أشرت إلى طرف منها .

كنت في ذلك الوقت في عمل في مغاغة ، ولم تكن وسائل المواصلات ولا وسائل الإعلام قد تقدمت في بلادنا في ذلك العهد بعد ؛ فلم يكن الراديو قد انتشر في مصر أو قد وجد ، فكانت الأحداث التي تضطرب بها العاصمة قلما يصل من أنبائها إلى غيرها من البلاد لا سيما بلاد الصعيد ولولا أن هذا الكتاب قد ظهر وقرأت عنه وأنا أنردد على القاهرة في أوائل أيام انتقالى إلى مغاغة لكنت كأهل الصعيد محالى الدهن عنه ..

وصلى خطاب من الأستاذ المرشد يخبرني فيه أنه سيمحضر لزيارة إخوان « سدس الأمراء » وأنه يريد أن أكون في انتظاره على محطة « ببا » وحدد لي اليوم وموعد وصول القطار وفي الموعد المحدد كنت والأستاذ شلبي ومجموعة من الإخوان في انتظاره ، وقد صحبناه إلى سدس الأمراء - وهي قرية من أعمال مركز ببا بمحافظة بنى سويف .. وكان يوماً كريماً من أيام الله ..

وفي أثناء ذلك انتهز الأستاذ فرصة كنت وإياه منفردين فقال لي : أتعرف يا محمود لماذا حرصت هذه المرة على أن تقابلني ؟ قلت : لعله غير إن شاء الله . قال : إن عندي حديثاً يجب أن تعرفه وظروفك حالت دون أن تكون معنا فتشبهه . قلت متشوقاً : وما عساه أن يكون ؟ قال : لملك طبعاً علمت بما كان من أمر كتاب الدكتور طه حسين الذى أصدره أخيراً عن « مستقبل الثقافة في مصر » وما تناوله الصحف من نقده . قلت نعم ... قال : لقد بلغنى أن الرجل لم يكثر يكل ما كتب وأنه مصمم على وضع آرائه في الكتاب موضع التنفيذ باعتباره « مستشار الوزارة » ولم أكن لفيق وقي قد اطلمت على هذا الكتاب بعد .. وقد اتصل في بعض أصدقائنا من الفيورين وطلبوا إلى أن أنقد الكتاب .. فلما قلت لهم إننى لم أطلع عليه قالوا : إنه لم يعد هناك وقت وكان يجب أن تكون قد قرأت الكتاب فقد ظهر منذ عدة أشهر والدكتور طه لم يكثر يكل ما كتب ونشرو بكل ما ليل وقد قرر وضع الكتاب موضع التنفيذ ، ولا ينبغي أن يكون هناك تغيير جذوى في سياسة البلد الثقافية دون أن يقول الإخوان كلمتهم قال : ولم يكتفوا بذلك بل أخبروني أنهم حددوا موعداً في دار الشبان وطبعوا الدعوات وكان الموعد بعد خمسة أيام . قال الأستاذ : ولما لم أكن أستطيع التحلل من مواعيد كنت مرتبطاً بها في خلال هذه الأيام الخمسة فلم أجِدْ وقتاً أخصصه لقراءة هذا الكتاب إلا فترة ركوبى الترام في الصباح إلى مدرستى لفترة رجوعى منها في الترام . قال : فقرأت الكتاب - لأنه إ يكن كبيراً - وكنت أضع علامات بالقلم الرصاص على فقرات معينة .. ولم تمض الأيام الخمسة حتى كنت قد استوعبت الكتاب كله .

قال الأستاذ : وفي الموعد المحدد ذهبت إلى دار الشبان فوجدتها - على غير عادتها - غاصة .. والمحاضرون هم رجال العلم والأدب والتربية في مصر ، ليس من هو دون هذا المستوى .. وولفت على المنصة واستفتحت بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ، وبجانبى الدكتور

يحيى الدرديري السكرتير العام للشبان المسلمين : ورأيت الكتاب كله منطبعا في خاطري بعلاماتي التي كنت علمتها بالقلم الرصاص ...

قال وبدأت أول ما بدأت فقلت : إنني لن أنقد هذا الكتاب بكلام من عندي وإنما سأنقد بعضه ببعضه .. وأخذت - ملتزماً بهذا الشرط - أذكر العبارة من الكتاب وأعارضها بعبارة أخرى من نفس الكتاب .. ولاحظ الدكتور الدرديري أنني في كل مرة أقول « يقول الدكتور طه في الكتاب في صفحة كذا وأقرأ العبارة بنصها من خاطري ثم أقول ويناقض الدكتور طه نفسه فيقول في صفحة كذا وأقرأ العبارة بنصها أيضا من خاطري » فاستوقفني الدكتور الدرديري ، وطلب إلي أن أمهله حتى يحضر نسخة من الكتاب ليراجع معي النصوص والصفحات لأنه قرأ الكتاب ولم يلاحظ فيه هذا التناقض وكأنه لم يقرأ العبارات التي يسميها الآن .

وأحضر له الكتاب ، وظل يتابعني فيجد العبارات لا تنقص حرفاً ولا تزيد حرفاً ، ويحدد الصفحات كما أحدها تماماً ، فكاد الدكتور الدرديري يحزن كما ساد الحاضرين جو من الدهشة والذهول ، والكل يتجه - كلما قرأت من خاطري عبارتين متناقضتين - إلى الدكتور الدرديري كأنهم يسألونه : أحقاً هذه العبارات في الكتاب ؟ فيقول الدكتور الدرديري في كل مرة « تماماً بالنصوص والصفحات » .

قال الأستاذ : وظللت على هذه الوتيرة حتى أنهيت الكتاب كله وأنهيت المحاضرة فتمام الجميع وفي مقدمتهم الدكتور الدرديري بين معانق ومقبل .

قال الأستاذ : ولما هممت بالانصراف رجاني الدكتور الدرديري أن أنظر برهة لأنه يريد أن يسر إلى حديثاً ، واقترب مني وأسر في أذني سرّاً تعجبت له قال : لما نشرنا عن موضوع محاضرتك وموعدها اتصل بي الدكتور طه حسين وطلب إلى أن أعد له مكاناً في هذه الدار يستطيع فيه أن يسمع كل كلمة تقولها دون أن يراه أو يعلم بوجوده أحد فأعدنا له المكان وحضر المحاضرة من أولها إلى آخرها ثم خرج دون أن يره أو يعلم به أحد .

قال لي الأستاذ المرشد : وفي اليوم التالي ، طلب الدكتور طه حسين بمكتبته بوزارة المعارف الأستاذ أحمد السكري وقال له : أحب أن ترتب لي اجتماعاً بالأستاذ حسن البنا في أي مكان بحيث لا يكون معنا أحد وبحيث لا يعلم به أحد ، وليكن هذا المكان في بيته أو بيتي أو في مكتبي هنا ، فليختر واحداً من هذه الأمكنة . قال الأستاذ : وأبلغني الأستاذ أحمد السكري بذلك فرأيت أن يكون الاجتماع في مكتبته بالوزارة .

قال : وبدأ الدكتور طه الاجتماع بقوله : لعلك يا أستاذ حسن لا تعلم بأنني حضرت محاضرتك وبأنني كنت حريصاً على حضورها وعلى الاستماع إلى كل كلمة تقولها لأنني أعرف من هو حسن البنا ، وأقسم لك لو أن أعظم أعظم في ممر كان في مكانك ما أعرته اهتماماً

قال لي الأستاذ المرشد : فشكرته ثم سألته عن رأيه في المواضيع التي وجهت النقد إليها في الكتاب ، وهل لديه من رد عليها ؟

قال الدكتور طه : ليس لي رد على شيء منها ، وهذا نوع من النقد لا يستطيعه غيرك ، وهذا هو ماعانني مشقة الاستماع إليك ، ولقد كنت استمع إلى نقدك لي وأطرب ... وألم يا أستاذ حسن لو كان أعدائي شرفاء مثلك لطأطأت رأسي لهم ، لكن أعدائي أخصاء لا يتقيدون بمبدأ ولا بشرف ، إن أعدائي هم الأزهريون ، وقد ظنوا أنهم يستطيعون أن يمحوا اسمي من التاريخ ، وقد كرست حياتي لإحباط مكائدهم ، وهأنذا بحمد الله في الموضوع الذي وتقطع أعتاقهم دونه ... ليت أعدائي مثل حسن البنا إذن لمددت لهم يدي من أول يوم .

ثم قال الدكتور طه : هل هناك سوى ذلك مما قد تختلف عليه مما تعرفه عني ؟

قلت : هناك قضية العلم والدين ، إنكم تنادون بأن يكون الدين في خدمة العلم ، وهو الرأي الذي تقوم عليه الحضارة الحديثة في الغرب ... وهذا الرأي خاطيء لأن معناه أنه إذا اصطدم الدين مع العلم في أمر من الأمور نبد الدين واتخذ العلم ديناً .

يجب الفصل بين العلم والدين ، لأن الدين حقائق ثابتة والعلم نظريات متطورة ، فإذا ألبسنا العلم ثوب الدين جمدنا العلم ، وإذا نحن أخضعنا الدين للعلم ، فلسفنا الدين فأخرجناه بذلك عن طبيعته ولم يعد ديناً .

قال الأستاذ : ثم تناقشنا في مواضيع مختلفة تدور حول طبيعة الفكرة الإسلامية ومدى إحاطتها بكل نواحي المجتمع فكان آخر حديث لي بعد أن تحدثنا أكثر من ساعتين أن قلت له : لو أن أصحاب الآراء حين يختلفون حول أمر من الأمور لم يعتقد كل منهم أن رأيه هو الصواب كله وأن آراء غيره هي الخطأ كله بل أضاف إلى اعتقاده في صحة رأيه اعتقاداً بأنه قد يكون في آراء الآخرين نوع من الصواب وإن لم يكن له ، .. لما اشتد الخلاف ووصل إلى خصومة تلمس في ظلماتها معالم الحقيقة . وينقلب النقاش من كونه وسيلة للبحث عن الحقيقة إلى محاولة للانتصار للرأي والمجادلة بالباطل . قال الأستاذ وقلت له : إن خير مثل يوضح ذلك ما ذكره الإمام الغزالي من أن أربعة من العميان وقفوا حول فيل فلمس أحدهم أقرب ما يقابله منه فكان انخرطوم فقال إن الفيل ماهو إلا خرطوم طويل رفيع ، ولمس الثاني أذن الفيل فقال : لا إن الفيل هو صفحة جلدية واسعة ، ولمس الثالث رجل الفيل فقال : لا ... بل هو عمود مستدير ، ولمس الأخير جسم الفيل فقال لا : بل هو حائط عريض أملس ... قال الأستاذ : فلو أن هؤلاء الأربعة لم يتعصب كل منهم لرأيه وتركوا فرصة للتفاهم فيما بينهم .. ولا يمكن تفاهم إلا إذا أقرض كل منهم أن يكون في رأي غيره بعض من الحقيقة - لامتدت يد كل منهم إلى مواضع أيدي زملائه فيلمس ملمسوا فينتكون عند كل منهم صورة كاملة عن الفيل .

هذا... وبعد أن رويت عن الأستاذ المرشد مارويت في هذه الواقعة ، يحدّر بي أن أقرر -

تحريراً للصدق ، وصوناً لأمانة النقل - أننى أسجل مادار فى هذه اللقاءات بعد ستة وثلاثين عاماً من سماعى إياها فقد أكون أنسيت بعضاً منها -- ولقد أنسيت بغير شك الكثير - ولقد لا يكون تعبيرى عن البعض الباقي فى الذاكرة منها دقيقاً تمام الدقة... لكننى كنت حريصاً على تسجيل الخطوط العريضة منها ، وتسجيل أن من آثار هذا اللقاء أن عدل الدكتور طه حسين عن آرائه التى سجلها فى كتابه هذا وفى كتبه ومقالاته التى سبقته وكان له فى بقية فى حياته حط آخر استحق به أن يكون عميد الأدب العربى .

عودة الى البناء الداخلى للدعوة

بعد هذا الاستطراد الذى تناولنا فيه تجربة مغاغة والمواجهة بين الأستاذ المرشد وطه حسين ، نرجع إلى ما خصصنا له هذا الفصل مما يتصل بالبناء الداخلى للدعوة فنقول : سافرت إلى القاهرة . ناوياً الإقامة فيها فرأى الأستاذ المرشد أن يسند إلى بعض مهام الدعوة حيث كنت فى تلك الأثناء . متفرغاً فكلفنى بالإشراف مع الصحافة والطلبة .

١ - صحافة الدعوة

مجلة التعارف

بهذه أن فقد الإخوان مجلة النديز فى أعقاب الفتنة الأولى لم يعد للإخوان مجلة يملكون امتيازها فلجأوا إلى استئجار مجلات كان أصحابها قد حصلوا على الترخيص بها للإصدار والحسابهم - لانهم يعجزون عن ذلك - وإنما فعلوا ذلك حتى تستأجرها منهم هيئة من الهيئات.. وقد ظل المركز العام منذ انتقاله إلى الخلية الجديدة يستأجر مجلات من هذا النوع عدة سنوات وكلما صودرت واحدة استأجر أخرى ومن هذه المجلات النضال والمباحث والتعارف ...

والجدة التى أسند إلى الإشراف عليها كانت مجلة التعارف ، وكان إشرافى عليها فى الفترة التى سقطت فيها فرنسا فى يد الألمان ، وكان لسقوطها دوى هائل فى أنحاء العالم لأنها لم تستطيع الثبات أمام هجمات الألمان حتى ركمت على ركبتيها واستسلمت وتألقت فيها حكومة جديدة على رأسها الماريشال بيتان وكان من أشهر القواد الفرنسيين ، وقد صرح نصريحاً مشهوراً سجله التاريخ أقر فيه بأن هذه الهزيمة المنكرة إنما تعزى إلى الإنهيار الخلقى الذى انحدر إليه الشعب الفرنسى .

وكان هذا التصريح مثار تعليقات فى الصحافة العالمية لأمد طويل لأن سقوط فرنسا بهذه

السرعة كان مفاجأة أذهلت العالم كله .. وكان أشد الناس اهتماماً بتصريح الماريشال بيتان أولئك الدين ظلوا سنين طويلة من قبل يحذرون شعوبهم وحكوماتهم من سوء العاقبة إذا لم يتمسكوا بأهداب الدين والخلق .. وكان الإخوان المسلمون في مصر على رأس هذا الصنف من الناس وكانت مجلتهم هي المرأة التي تعكس مدى اهتمامهم بهذا التصريح فظلت تكتب أمداً طويلاً المقالات الصافية تعليقاً على سقوط فرنسا وأسباب هذا السقوط التي اعترف بها ماريشال فرنسا

وكانت هناك سلسلة متصلة من المقالات في هذا الموضوع دمجها براع طالب بكلية أصول الدين كانت قطعاً أدبية بالغة الروعة ، فلما وصلتني المقالة الأولى منه أخذت بروعتها ولكنني حين رتبت وضع المقالات في المجلة جعلتها في الصفحات الداخلية باعتبار أنها على كل حال من كتابة طالب ولكنني حين عرضت على الأستاذ المرشد الترتيب الذي هيأته للنشر توقف عند هذه المقالة وقال لي : ألم تأخذ بلبك هذه المقالة ؟ قلت : بل . قال : ولم لم تجعلها المقال الافتتاحي إذن : لأنه طالب ؟ قلت : هذا فعلاً هو السبب . قال : أرى أن تجعلها المقال الافتتاحي وأن تجعل كل مقالاته دائماً المقالات الافتتاحية لأنني أشم في كتابته أدب الرافعي رحمه الله . وقال لي : إنه الرافعي الصغير ، وكان هذا الطالب الذي أطلق عليه الأستاذ المرشد لقب «الرافعي الصغير» هو إسماعيل حمدي الطالب إذذاك بكلية أصول الدين ، وكنا إذذاك في الأجازة الصيفية فكان يرسل إلى مقالاته تباعاً من بلدته « إمري » .

وبهذه المناسبة أذكر أن الأستاذ المرشد كان يضع أدب الرافعي في أعلى مراتب الأدب في عصره وينظر إلى الرافعي باعتباره رائد الأدب الإسلامي ، وناهيك بمن يحله الأستاذ المرشد هذا المحل ، فالأستاذ المرشد كان هو الرجل الذي لو شاء أن يتخصص للكتابة الأدبية لملك ناصيتها وكان قمة الأدب ولما لحقه كل من تسنموا هذه القمة ... فكان رحمه الله - وهو صاحب الدعوة الإسلامية في هذا العصر ... يرى الرافعي رحمه الله في مقام حسان بن ثابت في عصر النبوة ... وكان - كما ألمحت من قبل - يحفظ الكثير من شعر الرافعي مع أن أكثر الناس - وكنت منهم - لا يعرفون أن الرافعي كان شاعراً كما كان نائراً ولا يعرفون أن له ديواناً مطبوعاً ، وأنا شخصياً لم أر هذا الديوان إلا عند الأستاذ المرشد ، ولا شك في أن القوى الخفية المعادية للفكرة الإسلامية كانت من وراء حجب ما أمكنها حجة من أدب الرافعي عن الجمهور لأنه كان أدباً نفاذاً إلى القلوب صادراً من قلب يضطرم باسمي العواطف الإسلامية . وحسبك أن تستمع إلى نشيده الوطني الذي اخترق بأعحوبة هذه الحجب المصطنعة فردده الشعب في أثناء صحوة من صحواته الوطنية والذي فاصلته :

لك يا مصر السلامه وسلاماً يا بلادي
إن رمى الدهر سهاماً اتقيها بفؤادي
واسلمى في كل حين

ومن أبياته التي كان الأستاذ المرشد يمثل بها قوله :

لو كل مزمار هو عندنا خنث لنا به مدفع فناه بشع
إذن لكنت لنا بين الوري لغة متى ثقل قلوبنا في العالم استمعوا

وكان الأستاذ المرشد حريصاً على تربية خليفة يخلف الراعي في أدبه لأن الدعوة الإسلامية لا تستغنى عن قلم يدافع عنها في عالم الأدب ويرفع رايها بين الرايات فيه ، وكان يرشح اثنين لهذه الخلافة : إسماعيل حمدي ، وعبد المنعم خلا ف ؛ وكان يعمل دائماً على إفساح الطريق لهما بكل ما يستطيع من وسائل ولكن يبدو أن النكبات التي توالى على الدعوة لم تدع لهما فرصة .

وكان من الكتاب الذين يوصيني الأستاذ بالعناية بهم وإفساح المجال لمقالاتهم « محمد الغزالي » الذي كان إذ ذاك طالباً بكلية أصول الدين أيضاً فقد كان الأستاذ المرشد يبدى إعجابه بقلمه وبأسلوبه .

مجلة المنار :

مجلة المنار هي المجلة التي كان يصدرها ويحررها الأستاذ الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله ، وكان قوامها ما ينشره في صدرها من تفسير القرآن الكريم للشيخ محمد عبده ، حيث كان الشيخ محمد عبده يلقى درساً في جامع الأزهر في تفسير القرآن تحضره مجموعة من صفوة العلماء ورواد الفكر والأدب والوطنية وكان له في مقدمتهم زميله وأقرب تلامذته إلى نفسه الشيخ محمد رشيد رضا .. وكان الشيخ محمد رشيد رضا حريصاً على كتابة ما يلقىه أستاذه في الدرس وينشره في هذه المجلة تباعاً . ولما كان الشيخ محمد عبده على رأس رواد الفكرة الإسلامية في هذا العهد وصاحب نظرية إصلاحية أبرزت الفكرة بصورة شاملة مما لم يكن للناس ولا لعلماء الأزهر بها عهد ، فقد كان تفسيره للقرآن طرازاً جديداً من التفسير تهافت الناس على قراءته في أنحاء مصر وفي أنحاء العالم العربي والإسلامي وكان الوسيلة الوحيدة إلى ذلك هي افتتاح مجلة المنار ... وبذلك حظيت هذه المجلة من الذبوع والانتشار مع التوفير والاحترام بما لم تحظ به مجلة أخرى في العالم العربي والإسلامي لا سيما في أوساط العلماء والأدباء والمنقذين .

ولما اختار الله الشيخ محمد عبده إلى جواره واصل الشيخ محمد رشيد رضا إصدار المنار

مقتنيا أثر أستاذه في التفسير بنفس الأسلوب وب نفس المستوى حيث كان الشيخ رشيد في درجة من العلم والإدراك والإحاطة لا تقل عن درجة أستاذه فيها ... ولذا فقد ظلت المنار بعد وفاة الشيخ محمد عبده في مكانها الرفيع من نفوس العالم العربي والعالم الإسلامي .

على أن المنار لم تكن قاصرة على مقال التفسير - وإن كان مقال التفسير يشغل أكثر صفحاتها - بل كانت تحفل بمقالات وبحوث وفتاوى كان أكثرها بقلم الشيخ رشيد ، وإن كانت لا تخلو من مقالات قليلة لبعض كبار الكتاب الإسلاميين حيث لا يجرؤ أكثر الكتاب على التقدم إليها بمقالاتهم

وظلت « المنار » في مكانها الرفيع حتى اختار الله الشيخ رشيد إلى جواره وكان قد وصل في التفسير إلى سورة هود ، فأخذت أسرة الشيخ رشيد في البحث عن أكبر عالم في العالم العربي ليخلف الشيخ رشيد في المنار حتى وفقوا إلى طلبهم فأسندوا تحريرها إلى عالم جليل من سورية لا أذكر اسمه الآن فحاول متابعة التفسير على مستوى الشيخ رشيد فأتم تفسير سورة يوسف وهنا فوجئ الأستاذ بأسرة الشيخ رشيد تطلب إليه أن يقوم بأعباء « المنار » .

ولم يكن الأستاذ المرشد غريباً على أسرة الشيخ رشيد فلقد كان على صلة وثيقة بالشيخ منذ كان طالباً بدار العلوم وكانت دار مجلة « المنار » ملتقاه بأكثر من التقي بهم من رجالات الحركة الإسلامية في ذلك العهد واتخذت أكثر القرارات في مواجهة المؤامرات ضد الإسلام في هذه الدار ، وظل الأستاذ على اتصال بالشيخ بعد قيام دعوة الإخوان وكان يستشير به في كثير من الأمور .

تردد الأستاذ المرشد أمام طلب أسرة الشيخ مع علمه بأن إسناد تحرير « المنار » إليه شرف لا يعادله شرف واعتراف له بالزعامة العلمية والأصالة الإسلامية ، ولكن تردده بل رفضه الذي صرح به لأسرة الشيخ كان لسببين يكتمهما عن الأسرة هما :

أولاً : أن إسناد تحرير « المنار » إليه سيقطع من وقته جزءاً كبيراً لأنه سيضطرب - أخذاً بطريقة الشيخ ومتابعة لخطته ومحافظة على مستوى المجلة - إلى تحريرها كلها بنفسه ، ولما كانت الدعوة لا تتيج له هذا الوقت فإنه يخشى أن تطفئ واحدة منهما على حق الأخرى .. وفي حين أن الدعوة لا تستغنى عنه فقد يجدون هم في العالم الإسلامي من يقوم بأعباء « المنار » .

ثانياً : أنه حرصاً منه على استمرار صدور « المنار » باعتباره أحد المعالم الإسلامية يرى أن لا يصدرها هو ، حتى تكون في مأمن من المكاييد التي يدبرها أعداء الإسلام الدعوة ومنها

مصادرة صحفها وسحب تراخيصها ، وقال لهم : إننى مع حرصى فى هذا الطور من أطوار الدعوة على تجنب الاصطدام بالسلطات فإنهم ألفوا لنا عدة مجلات كنا نستأجرها ونصدرها ... وقال لهم :- إن أعداء الدعوة من الخمسة والنذالة بحيث لا يتورعون عن إلغاء « المنار » نكأية فينا لأنهم لاوازن لهم من دين أو خلق أو حياء .

وأصر الأستاذ المرشد على الرفض وأصرت الأسرة على إلزامه حتى اضطر أخيراً إلى النزول على إرادتهم بعد أن بين لهم المخاطر .

وأصدر الأستاذ « المنار » وصار يحرق أكثر ما فيها بقلمه وبدأ فى التفسير حيث انتهى سلفه فبدأ بتفسير سورة « الرعد » فخرجت « المنار » تفسيراً وتحريراً فى المستوى الرفيع الذى اعتاده قراؤها فى العالم الإسلامى أيام الشيخ محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا .

وكان لإصدار الأستاذ المرشد مجلة « المنار » أصداء فى الأوساط العلمية الإسلامية عبر عنها الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر فى ذلك العهد بمقال قدم به الأستاذ المرشد إلى قراء المنار أنصف به الرجل الأستاذ المرشد إنصافاً أقر له بالإمامة فى العلم وفى الدعوة .

وصدر من المنار بضعة أعداد ثم أصابته جائحة من الجوائح الحكومية وانقطع عن الصدور مع انقطاع المجلة الأسبوعية .

الشهاب : ثم أصدر الأستاذ « الشهاب » وهو بديل للمنار وفى نفس اتجاهه ومستواه وبعد أن صدرت منه بضعة أعداد كان مصيره مصير سابقه .

٢ — الطلبة :

كانت المهمة الأساسية التى أسندت إلى وشغلت وقتى كله وجهدى كله فهى مرور دالب لا ينقطع على المدارس والمعاهد والكليات وزيارات للعواصم ومحاضرات ومساجلات ومناقشات ومؤتمرات خاصة بالطلبة كنا نعقدتها بدار جمعية الشبان المسلمين وكان الأستاذ يولها أعظم اهتمام تصدر عنها مقررات تطيع وتوزع فى القاهرة والأقاليم .

ندوة الخميس : وهى أسلوب استحدثته لخطابة الطلبة فقد رأيت أن « حديث الثلاثاء » غير كاف للإجابة على كل ماتحتلج به نفوس الطلبة وعقولهم من أحاسيس ومشاكل وأفكار مع أن الأستاذ المرشد كان حريصاً على أن يطرق فى حديث الثلاثاء مواضيع شتى تمس جميع الفئات . وقد اقترحت على الأستاذ المرشد أن يخصص يوماً فى الأسبوع للطلبة وحدهم يتقدمون فيه

بأسئلتهم ويجب هو عليها . وبدأنا هذا الأسلوب عن طريق أسئلة شفوية يقوم الطالب في الندوة فيلقى سؤاله ويقوم الأستاذ بالإجابة عليه . ثم تبين لي أن لدى بعض الطلبة أسئلة يحجمون عن التصريح بها شفاها فطورنا الندوة إلى أسئلة تكتب وتقدم للأستاذ وهو على المنصة فيجيب عليها ثم تبين لي بعد ذلك أن هناك أسئلة تتلجلج في نفوس الكثيرين منهم ويستحيون أن يتقدموا بها ولو مكتوبة - حيث كنت أسلمها طيلة أيام الأسبوع ثم أقدمها للأستاذ عند عقد الندوة .

فأعدنا صندوقاً ثبت على حائط يلقى فيه كل صاحب سؤال سؤاله مكتوباً ولصاحب السؤال أن لا يذكر اسمه .. وفي نهاية الأسبوع أفتح الصندوق وأتناول ما فيها من أوراق وأقدمها إلى الأستاذ فيقرأها ويرتبها ويجب عليها في الندوة .

وكان هذا الأسلوب آثار طيبة جداً في توضيح ما كان غامضاً على كثير من الطلبة من الحقائق والمواقف في الفكرة الإسلامية وغيرها ، كما أنه كان وسيلة ناجحة لحل مشاكل عائلية وعقد نفسية كانت مستعصية ، ما كان هناك من سبيل للكشف عنها ومعالجتها بغير هذا الأسلوب .

وعن طريق هذا الأسلوب الذي وفقنا الله إليه تخرج من هذا الرعيل من الطلبة أفواج انتشرت في أنحاء البلاد فكانوا منار هدى ودعاة خير لأنهم صاروا بهذا الأسلوب دعاة مستبشرين .

من آثار النظام الإداري التربوي الإخواني :

تحدثت عن النظام الإداري الذي أخذت به الدعوة حين انتشرت في أنحاء البلاد واقتضى الأمر أن يرتبط الإخوان بنظام تتسلسل فيه القيادات ويسهل عن طريقه الاتصال بين أعلى قيادة وأبعد فرد في أقرب وقت ، وتتوزع فيه المسئوليات توزعاً يفتت نظام المركزية الذي من طبيعته أن تنعدم فيه الفرص لتكوين الشخصية في التابعين ، في حين أن طبيعة الإسلام وأساسه توفير جميع العناصر التي تكون الشخصية لكل فرد من أتباعه « أن لا نزر وزارة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ماسعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى »

ولاشك في أن هذا النظام الإداري قد آتى أكله ، وأثمر أينع الثمر ، فلقد كنت تحضر جلسة من جلسات أصغر وحدة من وحدات هذا النظام الإداري وهي مجلس الإدارة لشعبة فرعية ، فتحس كأنك جالس وسط برلمان يتجلى فيه النظام والديمقراطية بأجل معانيهما ، فالمناقشات تدور في حدود جدول أعمال يقدمه نائب الشعبة فيدلي كل برأيه متوخياً المصلحة العامة مهتدياً بأصواء الفكرة الإسلامية دون أنانية ولا تعصب ، وتلأفح الآراء ويخرجون منها بالرأى

الذى ينتهون إليه سواء بإجماعهم أود بأغليتهم ... وتلمح في عيون الجميع البطل والاهتمام حين يدرسون مواطن الضعف في قريتهم وكيف يعالجون هذه المواطن كأن الواحد منهم يدرس أخص مصالحة الخاصة ، وبعد أن يشخصوا أنواع الضعف يضعوا علاجاً لكل نوع يوزعون مسئوليات هذا العلاج على أنفسهم وعلى زملائهم بالشعبة فيعرف كل منهم ماهو منوط به من بذل أو عمل ... وبعد ذلك كله يتكلمون عن مسئولياتهم العامة أمام أمتهم باعتبارهم أعضاء في دعوة مهمتها إصلاح مرافق الأمة الإسلامية بالأسلوب الإسلامى الحكيم ... وحين تسمع حديثهم في هذه الناحية تنسى أنك في قرية صغيرة في أطراف البلاد وأنتك بين أفراد من هذه القرية أقرب وصف لهم أنهم أميون أو أشباه أميين ... ولكن المثير حقاً هو ما لهذه الدعوة الإسلامية من صبغة يصطبغ بها المنتمون إليها فتطلق فيهم هذه الصبغة من طاقات الفهم والإدراك وحسن التقدير وواسع الإحاطة ما يسمو بهم إلى أعلى المستويات مهما كانوا من قبل في أديانها .

وتحضر في هذا العدد واقعة حدثت في خلال هذه الحقبة من الزمن التى نعالج وصف حال الدعوة فيها وقد حدثنى صاحبها عنها في وقتها :

وصاحب هذه الواقعة كان أخاً صغيراً من إخوان شعبة فوة وكان إذ ذاك في سن دون العشرين اسمه الأخ مصطفى عنافى وكان يعمل نجاراً في ورشة والده ولم تنح له الظروف أن يحصل على أدنى قسط من التعليم لكنه كان ملماً بشيء من مبادئ القراءة والكتابة ، فلما شب وصار في السن الذى ذكرت كلفه والده بأن ينوب عنه في شراء الخشب الذى يلزمهم من الإسكندرية ، فكان إذا أعد نفسه لهذه المهمة لبس « بدله » بدلاً من ملابس الشغل ، وكان سفره دائماً في الدرجة الثالثة من القطار ... وكان طلاب جامعة الإسكندرية من أهل دمنهور وما حوّلها يذهبون صباح كل يوم إلى الإسكندرية بالقطار ويرجعون إلى دمنهور بعد انتهاء الدروس بقطار المساء .

قال لى الأخ مصطفى : أنهيت عملي في الإسكندرية في ذلك اليوم وذهبت إلى محطة الإسكندرية لأخذ القطار الذى يوصلنى إلى دمنهور كالمعتاد حيث دمنهور هي المحطة الأولى في ذلك الوقت بين الإسكندرية وفوة - قال فوجدت القطار مزدحماً أشد ازدحام في الدرجة الثالثة فانتقلت إلى عربة من عربات الدرجة الثانية فوجدت أحد دواوينها مكاناً شاغراً فاتحتحت إليه وجلس فيه .. وتحرك القطار فلاحظت أن السبعة الموجودين معى في الديوان من طلبة جامعة الإسكندرية وأخذوا يتناقشون في المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى كانت تشغل بال الناس في ذلك الوقت ، وظلوا يتناقشون وأنا أستمع فكنت أنا الوحيد الذى ألتزم الصمت في حين تكلم الجميع .. ويبدو أنهم لم يعتادوا أن يروا في مجتمعهم هذا من يلتزم الصمت فاتجه نحوى أحدهم وسألنى

لم تشترك معنا في الحديث ومارأيك فيما أثير من موضوعات ؟ فاعتذرت إليهم من هذا الصمت ودخلت معهم في المناقشة وأخذت أتناول كل موضوع أثاروه وأحلله وأناقشه في ضوء الدعوة فرايت الجلسة قد تغير وضعها واتخذت وضعاً آخر ، فبعد أن كان النقاش يدور بحيث يبادلون الحديث فيأخذ كل منهم بطرف رأيهم جميعاً قد التزموا الصمت واتجهوا إلى بأسماعهم وأبصارهم . قال وظلت في تناول للمواضيع المثارة بالأسلوب الذي ذكرت حتى أتيت عليها جميعاً ، وحينئذ كان القطار قد قارب محطة دمنهور ، فتقدم إلى كل واحد من السبعة يريد أن يتعرف على وسألوني في أى كلية أنت ؟ فابتمت فقالوا لا تؤاخذنا في هذا السؤال فنحن نعرف أنك لا بد أن تكون طالبا في الدراسات العليا ولكننا نحب أن نتعرف على كليتك لأننا معجبون بمعلوماتك وثقافتك العالية وهذه فرصة نحب أن لا تفوت منا لنحرص كل يوم على أن تكون معنا في قطار واحد وفي ديوان واحد لنستفيد منك ... قال الأخ مصطفى فابتمت أيضا وكان القطار قد أوشك على دخول المحطة فقلت لهم : إننى لست في جامعة الإسكندرية ولكنى في جامعة أعظم منها قالوا : في جامعة القاهرة قلت : لا بل جامعة أعظم قالوا : أين هذه الجامعة ؟ قلت لهم : أنا في جامعة الإخوان المسلمين وأنا لست طالبا وإنما أن نجار لا أكاد أحسن القراءة والكتابة ولكنى تربيت في هذه الجامعة فخرجت منى مانرون ، ومع ذلك لما أنا إلا من أصغر طلائها ... قال الأخ مصطفى فكانت هذه الجلسة أعظم دعاية عملية للدعوة . وأن صياغتها للنفوس والعقول تأتي بما يشبه المعجزات .

وقد أوردت هذه الواقعة لأبين للقارئ ببياناً عملياً ما نوهت عنه من المستوى الرفيع الذى صاغت الدعوة في قالبية المؤمنين بها والعاملين لها والداعين إليها وأن هذا المستوى الذى تلمسه في أعلى الهيئات الإدارية في القاهرة ستجده هو نفسه في الهيئة القائمة على الدعوة في القرية النائية ، فليس هذا المستوى الذى يهربه طلبة جامعة الإسكندرية كان خاصا بالأخ مصطفى بل هو مستوى إخوانه في الشعبة وفي مختلف الشعب « صبغة الله ومن أحسن صبغة ونحن له عائدون »

وهذه الصياغة التى صاغها الدعوة للإخوان المسلمين ليست بدعاً ، وإنما هى طبيعة هذه الدعوة ودأبها ودينها فهى التى صاغت من الرعيل الأول عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح وسعد ابن أبي وقاص وخالد بن الوليد وأسامة بن زيد وأبا ذر الغفارى والمثنى بن حارثة ، وإخوانهم فلم يكن هؤلاء من العلماء الذين درسوا علوم الاجتماع والتاريخ ولا فنون الحرب والسياسة حتى صاروا أعلاماً في هذه العلوم والفنون بل كانوا رجالاً كسائر رجال الجزيرة العربية الذين سماهم القرآن « الأميين » (هو الذى بعث في الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته

ويزكهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم »

ثم إن هذا البرلمان الصغير في الشعبة الفرعية للقرية إذا استشكل عليه أمر ولم يستطع أن يصل فيه إلى قرار فإن بجانبه قريباً منه برلماناً أكبر منه للشعبة الرئيسية للمركز حيث يعقد اجتماع دوري فيها يحضره مندوبو الشعب الفرعية وهي فرصة سانحة لدراسة ما استشكل على هذه الشعب من أمور . فإذا تبق في هذا البرلمان أمور دون حل فاجتماع المكتب الإداري كقيل بإيجاد الحلول . وفي نفس الوقت تتبادل الآراء وتناقش المسائل عن طريق آخر هو طريق الدعاة بين الفينة والفينة من المركز العام . الذين يتحسسون أحوال الشعب في جميع الأنحاء وينقلون نبضها إلى المركز العام ليعالج الأمور على بصيرة .

كما أن هذه التشكيلات المتتابعة في أنحاء البلاد الساهرة على ما يخص كلا منها من مسئوليات الدعوة في الشئون المحلية تنطلق في هذا السبيل وهي مطمئنة إلى أن لها ديدباناً في القاهرة ساهراً لا يغمض له جفن يرقب تطورات الأحوال في مصر وفي البلاد العربية وفي العالم الإسلامي وفي العالم كله ليسلك بالدعوة السبيل الأقوم إزاء هذه التطورات ، فهو يرقب التطورات كل يوم وكل ساعة فإذا وجد مكتب الإرشاد من هذه التطورات ما عظم عليه معالجته دعا الهيئة التأسيسية التي لكل هذه التشكيلات في داخل البلاد أصلاص فيها لتصدر الرأي البات والقرار الأخير .

هل تقليد هذا النظام كاف لا ثمارة نفس الثمر ؟

هذا النظام الإداري المحكم الحلقات ، ما كان لينجح ويؤق ثماره ، لولا أنه كان مطعماً بنظام آخر تربوي روحى هو نظام الكتائب .. كان نظام الكتائب يسرى في النظام الإداري على اختلاف درجاته سريان الروح في الجسد فيبعث فيه الحياة والقدرة والحركة

ولعل هذا هو السر في أن هيئات كثيرة بعضها شيعى وبعضها رسمى أخذت بالنظام الإداري للإخوان المسلمين أخذاً كاملاً ولكنها فشلت ، ولم تصل به إلى شيء مما يعود عليها بفائدة أو بتماسك أو بترابط أو بنفع بل كان وبالا عليها وثقلاً جديداً أضيف إلى ثقائها وحملها على كاهلها ومعوقاً في طريقها ، فلقد أخذت الهيئات بالجسد دون الروح

وقد تستطيع بشيء من الإنفاق أن يصنع لك الفنانون هيكلًا رائعاً لجسد عظيم ، ولكنك مهما أنفقت لن تستطيع أن تجد من ينفخ في هذا الهيكل الروح « لو أنفقت ما في الأرض جميعاً

ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

قسم الأخوات المسلمات :

كان واضحاً في ذهن حسن البنا أن دور المرأة في الإسلام دور خطير ، له أثره البعيد في تكوين الرجال وأمّهات المستقبل ... والدعائم التي أرتكزت عليها دعوة الإخوان المسلمين هي تكوين الفرد المسلم ثم الأسرة المسلمة ثم المجتمع المسلم الذي يلد الحكومة المسلمة .

وحين أسس الأستاذ المرشد أول دار للدعوة في الإسماعيلية وأنشأ مسجداً ، اتبع ذلك ببناء مدرستين إحداها للابناء سماها « معهد حراء الإسلامى » والأخرى للبنات أطلق عليها « مدرسة أمّهات المؤمنين » . وقد عنى بهذه المدرسة عناية كبيرة - حيث لم تكن فكرة تعليم البنات قد وضحت بعد في أذهان المسلمين - فوضع لها منهاجاً إسلامياً عصرياً يجمع بين أدب الإسلام وتوجيهه السامى للبنات والأمّهات والزوجات ، وبين مقتضيات العصر ومطالبه من العلوم النظرية والعلمية والعملية .

وقد أدت المدرسة رسالتها فاستتبع ذلك إنشاء قسم للأخوات المسلمات سمى في أول الأمر « فرقة الأخوات المسلمات » يتألف من نساء الإخوان وقريباتهن ، وتقوم بالتدريس فيه مدرسات على كفاءة خاصة من أهل الإسماعيلية نفسها .

وضع الأستاذ لمن لائحة خاصة تنظم طرائق السير ووسائل نشر الدعوة بين السيدات والفتيات من بيوت الإخوان وغيرهن ... وقد جاء « بمذكرات الدعوة والداعية » للأستاذ المرشد في هذا الصدد وفي صفحة ١٥٠ ما يلي :

لائحة فرق الأخوات المسلمات :

« وللذكرى ثبت هنا أول لائحة للأخوات المسلمات ، وكان عليها العمل بالإسماعيلية وبالقاهرة بعد ذلك :

في غرة المحرم سنة ١٣٥٢ ، ٢٦ إبريل ١٩٣٣ تألفت في الإسماعيلية فرقة أدبية إسلامية تسمى الأخوات المسلمات ، الغرض من تكوين هذه الفرقة :

التمسك بالآداب الإسلامية ، والدعوة إلى الفضيلة ، وبيان أضرار الخرافات الشائعة بين المسلمات .

وسائل الفرقة : الدروس والمحاضرات في المجتمعات الخاصة بالسيدات ، والنصح الشخصي والكتابة والنشر .

نظام الفرقة :

- ١ - تعتبر عضوا في الفرقة كل مسلمة تود العمل على مبادئها وتقسم قسمها وهو « على عهد الله وميثاقه أن أتمسك بأداب الإسلام وأدعو إلى الفضيلة ما استطعت » .
- ٢ - رئيس الفرقة هو المرشد العام لجمعية الإخوان المسلمين ، ويتصل بأعضائها وكيه عنه تكون صلة بينهن وبينه .
- ٣ - كل أعضاء الفرقة ومنهن الوكيه إخوان في الدرجة والمبدأ ، وتوزع الأعمال التي يستدعيها تحقيق الفكرة عليهن ، كل فيما يخصه .
- ٤ - يعقد أعضاء الفرقة اجتماعاً خاصاً بهن أسبوعياً يدون فيه ما قمن به من الأعمال خلال الأسبوع الماضي ، وما يرونه في الأسبوع الآتي .
- وفي حالة ما إذا كثر عدد الأعضاء يصح أن يقتصر هذا الاجتماع على المكلفات بالأعمال منهن .
- ٥ - تصدر اشتراكات مالية اختبارية حسب المقدرة ، وتحفظ في عهدة إحدى الأخوات للإتفاق منها على مشروعات الفرقة .
- ٦ - يصح تعميم هذا النظام في غير الإسماعيلية في حدود هذه اللائحة .
- ٧ - يعمل بهذه اللائحة بمجرد التصديق عليها من أعضاء الفرقة التأسيسية ، والتوقيع منهن بما يفيد ذلك .

... وبانتقال الدعوة إلى القاهرة تكونت بالقاهرة « فرقة الأخوات المسلمات » التي التي صارت في عام ١٩٤٤ « قسم الأخوات المسلمات » .. وقد اتخذ مقرأ له بالمنزل رقم ١٧ شارع سنجر الخازن بالحلمية الجديدة واختار الأستاذ المرشد الأخ الأستاذ محمود الجوهري سكرتيراً لهذا القسم منذ إنشائه ، وظل هذا الأخ الكريم يباشر هذه المهمة ويؤديها أحسن أداء حتى الآن بمعاونة الأخت الكريمة عقيلته من الله عليها بالشفاء واسبغ عليها ثوب العافية .

وقد ساهم القسم في المشروعات الاجتماعية النافعة من المستوصفات ودور الطفولة ورعاية

الأيتم والمدراس وتنظيم مساعدة الأمر الفقيرة .. وأنشأ « دار التربية الإسلامية للفتاة » بشارع
بستان الفاضل بالمينيرة .

ولما انتشرت الدعوة في أوساط الفتيات والأمهات في القاهرة والأقاليم روى إدخال تعديل
على لائحة القسم تفيمن « أن يكون مقر شعب الأخوات المسلمات ودروسهن دور شعب الإخوان
المسلمين أو بيوتهم أو المساجد التي يشرفون عليها بشرط أن يلاحظ إخلاء الدور من الإخوان
تماماً كلما كان هناك اجتماع أو درس للأخوات » ... وقد انتشرت شعب الإخوان في القاهرة
والأقاليم حتى زاد عددها على المائة شعبة .

وكما كانت جهود الأستاذ - كما ذكرنا من قبل - موجهة في معظمها للعناية بالطليعة من
الجامعين طلبة وخريجين ، فإنها كذلك وبنفس القدر من العناية والاهتمام كانت موجهة إلى الطليعة
من الطالبات والخريجات والمدرسات ، فكان يتعهد هذه المجموعة بالدروس الأسبوعية يلقيها
بنفسه ولم يكن يتخلف عن هذه الدروس حتى في حالة المرض .

ومن هذه الطليعة تكونت لجان الزائرات اللاقي يقمن بزيارات لشعب الأخوات في أنحاء
القطر ويشرفن على سير الدعوة فيها وينظمن إقامة المعارض الإنتاجية للأخوات ويوجهن
المؤسسات الثقافية والعلاجية والعملية .

وكان لقسم الأخوات نشاط في مختلف الميادين حتى إنه في مارس سنة ١٩٤٦ تقدم إلى
المدوب السامي البريطاني بالقاهرة بمذكرة احتجاج على اعتداءات جنود الجيش البريطاني
المحتل على الأمنيين من المصريين .

علاقة قسم الأخوات بالنظام الإداري للأخوان :

أخبرت الحديث عن هذا القسم - مع بالغ أهميته - لأنني وإن كنت أوردته ضمن الأقسام
الإدارية للأخوان المسلمين فإنني كنت حريصاً على التأني به عن الارتباط الإداري وأساليبه ..
وقد نشأ حرصى هذا مما كنت ألاحظه من حرص الأستاذ الإمام رحمه الله على هذا المعنى فيما يتصل
بهذا القسم الرئيسي الكبير .

ذلك أن مهمة هذا القسم في رأى الأستاذ رحمه الله هي إعداد جيل من الفتيات والنساء
يزود بأعظم قدر من التربية الإسلامية المستنيرة مع قسط من المعلومات الفقهية والتاريخية
استعداداً لإنشاء البيوت الإسلامية التي قد تعتمد في إنشائها على المرأة أكثر مما تعتمد على الرجل ...

فالزوجة هي التي تعين زوجها على النهوض بأعباء الدعوة الإسلامية ، وهي التي تقف بهمة عنها ، والأم هي التي ترضع أبناءها وبناتها حب الخير وهي التي تدفعهم إلى الشر .

وإذا لم توجد في البناء الإخواني الأم المسلمة الصالحة ، والزوجة المسلمة الصالحة فهيهات أن يقوم هذا البناء مهما كان الرجال مثلاً عليها ... ولهذا قام بناء الدعوة حين قام على أساسين معاً ، في الوقت الذي ينشأ فيه الرجال شيئاً وشباناً كان ينشأ فيه النساء أمهات وأخوات ... جداران متوازيان ومتسايمان ...

ولكن لما كانت فرص الاجتماعات أمام الأخوات غير متاحة بالقدر الذي هي متاحة للإخوان فإن الأستاذ رحمه الله كان حريصاً على أن يجعل هذه الاجتماعات خالصة للتثقيف والتربية دون أن يقتطع من وقتها قليل أو كثير في الانشغال بالشئون الإدارية، كما كان حريصاً على أن لا يضيع جزء من جهود الأخوات في الالتفات إلى المناصب الإدارية والإعداد لها والتطلع إليها مما قد لا يتناسب مع طبيعة المجتمعات النسائية إذا أريد لها الإنتاج دون معوقات .

وربما كان هذا الأسلوب من أهم الأسباب في نجاح التنظيمات النسائية في الإخوان المسلمين بينما فشلت مثيلاتها في جهات أخرى .

ولما كانت دعوة الإخوان المسلمين دعوة عملية لا تعترف بالترف العلمي ولا تقف عند حدود التضلع من العلم الإسلامي لمجرد التضلع ، بل هي حقل تجارب يرى العضو فيها أنه مطالب بتطبيق ما تعلم أولاً بأول في هذه الحقول ... في البيت وفي العمل وفي الشارع وفي النادي وفي نفسه أولاً ، فإن الأخوات كن كلما تعلمن شيئاً من التعاليم الإسلامية يجدن أمامهن حقل التجارب في بيوتهن يطبقن فيها هذه التعاليم على أنفسهن وعلى أزواجهن وأبنائهن وأهلين .

ومن هنا كانت الدعوة تسير قدماً إلى الإمام لا يعوقها عائق فإن العربة متى كان يجرها حصانان وكلاهما يجر في اتجاه واحد فإنها تنطلق في طريقها آمنة مطمئنة ، إذ كل العوائق الخارجية يمكن تفاديها. أما الذي لا يتفادى ولا يقاوم ولا أمل معه في مواصلة السير فهو العوائق الداخلية .. الناشئة من داخل البيت ومن داخل الأسرة .. وناهيك بعربة يجرها حصانان ، كل يجرها في اتجاه مضاد .

بفضل قسم الأخوات المسلمات - وعلى الأسس القويمة التي أسسها الأستاذ الإمام - أسست بيوت على تقوى من الله ورضوان . وأنشئت أسر متماسكة طاهرة رصينة لا يتطرق إليها

الوهن ولا يعرف طريقها التمزق الذى عصفت بكثير من الأسر ... الأم والاب ذوا هدف واحد ،
و يرميان عن قوس واحدة .. والابناء والبنات يقتفون آثار الأبوين على هدى وبصيرة .

لقد أثبت هذا القسم جداته في كل الأحوال ، في حال الرخاء وحال الشدة ... وإذا كان
تفصيل الحديث عما خاضه الإخوان من غمرات الظلم والإعنات والوحشية لم يحن بعد ، فحسب
القارئ في هذا المقام أن يعلم أن قسم الأخوات المسلمات قد خاض نفس الغمرات وتحملت
عضواته من المشقات والأهوال ما قد يفوق ما تحمله الإخوان « وكلا وعد الله الحسنى : »

ولقد بهت الأعداء لما قد فوجئوا به من عمق إيمان الأخوات وشدة ثباتهن على الحق وقوة
صبرهن على المكاره واستبانتهم بوسائل التخويف والإرهاب مما ذكر الناس بالسابقات الأوليات
من الرعيل الأول من الصحابييات الجليلات - فقد كان منهن من قن بدور أسماء ذات النظافين
بنت أبي بكر حين كانت تقوم ينقل الطعام والأخبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر
خارج مكة بينما كانت فريش قد رصدت مائة ناقة لمن يدها عليهما .. وكان منهن من ألقى بهن
في غياهب السجون والمعتقلات وكن يسمن فيها العذاب مما ذكر الناس بسمية أم عمار بن ياسر
رضى الله عنهم جميعاً .

نظام الأسر :

باعتبار الإخوان المسلمين هيئة من الهيئات ، لها كيان حدده القانون ، ولها نشاط يجرى
داخل أبنية في مختلف البلاد ، تمقد فيها الاجتماعات وتلقى فيها المحاضرات .. كان هذا النظام
الإدارى المطعم بأسلوب الكتاب كافيًا لربط أوامر الكيانات الإخوانية بعضها ببعض ، ..
ولكن باعتبارهم فكرة تحمل أعباء نشرها دعوة فإنهم في حاجة إلى أسلوب آخر من أساليب الربط
أداة من أدوات الاتصال .

والأفكار والدعوات بطبيعتها لا تكاد تنشأ في مكان حتى ينشأ معها فيه أعداؤها ، ولا تكاد
تذيع وتعتنق حتى تجرد لها حملات الهجوم والمطاردة ، ولا تكاد تثبت أقدامها حتى تقتلع
اقتلاعاً عنيفاً ليلقي بها بعيداً في غياهب النسيان .

.. أعداؤها حريصون على محو آثارها .. وإذ هم عاجزون عن محو آثارها من النفوس
فليسوا بعاجزين عن محو آثارها من الدور والبنیان ... والأنظمة الإدارية مرتبطة بالدور
والبنیان فإذا زالت الدور والبنیان فإن الأنظمة الإدارية لا تغنى شيئاً .
وإذن فلا بد من رباط يربط معتنقى الأفكار والمستجيبين للدعوات بعيداً عن الدور والبنیان ، ولا يترك

هذه المجموع المؤلفة متبعدة ضائعة هائمة على وجوها إذا فقدت الدور ذات اللاتعات وذات المقاعد والمكاتب ... وكان هذا الرباط هو نظام الأسر .

ولم يكن الإخوان المسلمون هم أول من عرف أهمية هذا النظام ، فقد عرفه قبلهم دعوات أخرى ، كما انتظم في مثله من بعدهم تجمعات أخرى ، لكن هؤلاء هؤلاء سموه نظام الخلايا ... والفرق بين النظامين فرق كبير ، فنظام الخلايا نظام حيواني مأخوذ عن الحيوان فالعلاقات فيه علاقات مادة ومصلحة وهذا الرباط يستبج مع أعضاء الخلية أن يقتلوا أعضاء منها إذا ستنفدوا جهده ولم يعد صالحاً لحمل أعباء كما يفعل بعض أعضاء خلية النحل في بعضها الآخر ، ولكن نظام الأسرة الإخوانية يقوم الارتباط فيه على أساس الأخوة والحب والإيثار والتعاون ، يحمل القوى فيها الضعف ، ويفتدى كل عضو فيها بنفسه وبماله الأعضاء الآخرين ، ولهذا لم يسمها خلية بل سموها « أسرة » .

وتتكون الأسرة من خمسة أفراد ، وهذا العدد هو أدنى عدد لجماعة تريد أن تؤدي جميع أنشطة الدعوة من دراسة للفكرة ونشرها والأخذ بتنظيم التربية البدنية والعقلية والروحية ، مع متابعة تطورات الأحداث ودراسة كل تطور وإصدار القرار المناسب له ، وتلقى التعليمات من القيادة ووضعها موضع التنفيذ والإلمام التام بغيرها من الأسر ، ويمكن التعبير عن الأسرة بأنها هيئة الإخوان المسلمين في صورة مصغرة ...

وتكوين الأسرة من هذا العدد القليل يسهل لها الوجود في أي مكان وفي أي وقت دون التقيد بمكان معين أو زمن معين . وللأسرة نقيب هو الذي يتصل بالقيادة المحلية وللقيادات المحلية نقيب يتلقى من القيادة الأعلى وهكذا حتى يكون التلقى في أوله من المرشد العام ... وللأسرة صندوق للطوارئ ، وهذه الصناديق كلها في النهاية هي صندوق الدعوة ، وكذا أن على الأسرة أن تتلقى التعليمات فلها أن تقترح بنفس الطريق .

ونظام الأسر ليس حلقة مقفلة وليس بالنظام العقيم ، بل هو نظام ولاد مشمر فقد تلد الأسرة نتيجة اتصال أفرادها بمجتمعهم أسراً جديدة بعدد أفرادها ، وتلتزم الأسر الجديدة بنظم الأسرة المقررة من الدراسة والتربية والبدل ونشر الدعوة .

وهكذا أعد الإخوان المسلمون أنفسهم لمواجهة الظروف التي قد تعرض لها كل دعوة بهذا الرباط المحكم الوثيق .

النظام الخاص أو الجهاز السرى

قدمت أن الدعوة بانتقالها إلى مقرها الجديد بالجمعية الجديدة قد اشدت عودها وقوى ساعدها وبدأت تبرز قليلا قليلا على مسرح الحياة المصرية ... وأدرك الأستاذ المرشد بحاسة القيادة التي وهبها الله إياها أن أعداء الدعوة التقليديين وهم المستعمرون وعلى رأسهم الإنجليز ثم أذئابهم من الحكام المصريين الذين هم اليد التي يبطش بها هذا المستعمر ... أدرك أن هؤلاء الأعداء هم للدعوة بالمرصاد ، وأن الدعوة يجب أن لا تكون فريسة باردة لهم ، بل أن تكون ذات شوكة لا يسهل التهامها ... ومن هنا نبتت فكرة « النظام الخاص » للدفاع عن الدعوة .

وقد أدرك الأستاذ المرشد أن قضية فلسطين هي قضية الإخوان المسلمين ، وأن الإنجليز بتواطئهم مع اليهود لن يعدلوا عن خططهم ويسلموا البلاد لأهلها إلا مكرهين ، وعلم الأستاذ المرشد أن الإنجليز يسلحون عصابات اليهود ، وأنه لا بد من معركة فاصلة بين الإخوان المسلمين وبين هذه العصابات مادام الإخوان مصريين على تحرير هذه البلاد وإنقاذ المسجد الأقصى الذي هو هدف اليهود الأصيل ...

وأدرك الأستاذ المرشد أن الحكومة المصرية والحكومات العربية حكومات ضعيفة هازلة متخاذلة بل متواطئة ، وأن ليس في البلاد العربية جيوش سوى الجيش المصري ، ولكن هذا الجيش من الهزال والجهل وعدم الخبرة بحيث لا يقوى على مواجهة عصابات اليهود المدربة المسلحة بأحدث أسلحة الإنجليز والأمريكان والتي تحارب عن عقيدة مستمدة من دينهم ... أدرك الأستاذ المرشد هذا أيضاً فكان ذلك حافزاً على سرعة الاستعداد بتكوين « النظام الخاص »

كان ذلك في عام ١٩٤٠ حين دعا خمسة منا هم صالح عشاوى وحسين كمال الدين وحامد شريت وعبد العزيز أحمد ومحمود عبد الحليم ، وعرض علينا الدواعي التي رآها تقتضى الاستعداد وإنشاء نظام خاص تواجه الدعوة به مسئولياتها في المستقبل ... واقتنعنا برأيه فكون منا نحن الخمسة قيادة هذا النظام وعهد إلينا بإنشائه وتنظيمه وتدريبه ، على أن يكون على أساس من العسكرية الإسلامية القوية النظيفة ، وعلى أن يحاط بالسرية المطلقة بحيث لا يعرف عنه أحد شيئاً إلا أعضاؤه ، وعلى أن يكون تمويله من جيوب أعضائه لأن علامة الجدم فيقدم للتضحية بروحه أن يضحي بماله ...

ورتب القيادة بحيث يكون صالح عشاوى الأول باعتباره المتفرغ الكامل للتفرغ ويلييه كمال الدين حسين فمحمود عبد الحليم فحامد شريت فعبد العزيز أحمد .

وعند مباشرة عملية الإنشاء وجدت نفسى أشبه بالمصو المنتدب لهذه القيادة حيث وأبغنى
أعمل وحدى ولعل ذلك لأن إخوانى فى القيادة رأوا أننى أوثقهم صلة بالطلبة - باعتبارى مندوباً
للطلبة - والطلبة هم العنصر الأساسى فى جميع التكوينات ... وقد تغيرت مجموعة منهم توسعت
فيهم الجهد وعمق الفهم والاتزان ، وعرضت عليهم الفكرة فاستجابوا لها وكانوا هم نواة
هذا « النظام » كما تغيرت أفراداً من شباب الموظفين ومجموعة من العمال الفنيين ذوى الثقافة
الإسلامية واستجاب الجميع فكان هؤلاء جميعاً هم الرعيل الأول فى هذا النظام « الذى أطلق
عليه بعد ذلك « الجهاز السرى » نظراً لأنه يقوم على السرية المطلقة .

ومما ينبغي التذكير به أن هذا الرعيل الأول قد اشتركوا فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ وقد
أبلوا فيها أعظم بلاء شهد به الأصدقاء والأعداء ، وقد استشهد كثير منهم على أرضها الطاهرة .
وكان برنامج المنصوين تحت لواء هذا النظام يقوم على الأسس الآتية :

١ - تقسيمهم إلى أسر - خاصة بهم - مع تسلسل القيادة - مع اشتراكهم فى جميع أوجه
النشاط العامة للدعوة .

٢ - دراسة عميقة مستفيضة للجهاد فى الإسلام وما جاء بشأنه فى القرآن الكريم من سور
وآيات وما جاء بشأنه فى السنة النبوية والتاريخ الإسلامى القديم والحديث مع أخذ العضو نفسه
بأنواع من العبادات والصيام .

٣ - التدريب على الأعمال الشاقة

٤ « على توزيع المنشورات

٥ « على التخاطب والتراسل بالشفرة

٦ « على استعمال الأسلحة

٧ - المبالغة على السمع والطاعة فى المنشط والمكروه وكتان السر

وقد أخذنا من أول يوم فى وضع هذا البرنامج موضع التنفيذ ، ومن طرائف ما أذكره
بهذا الصدد فى الأيام الأولى لهذا التنفيذ : أن أحد الإخوان كان طالباً إذ ذاك فى إحدى كليات
الأزهر وكان سمينا وكان التدريب فى ذلك اليوم على القفز من شرفة إرتفاعها ثلاثة أمتار
وقد رأيت إعداء هذا الأخ من القفز فأبى إلا أن يقفز وكادت قفزه تلحق به أذى لولا أن
تداركه إخوانه .

كما أننا كنا نطبع منشورات بكلام غير ذى هدف معين غير أنه كلام يلفت النظر ويثير
الاستغراب وكان إخوان النظام يوزعونها على المنازل والمكاتب والمتاجر والمدارس والملاهي

بطريقة لا يحس بها أحد مع تخصيص شارع لكل واحد منهم .. ثم يصبح في اليوم التالي كل عمله فإذا سمعنا من زملائنا في المصالح الحكومية وفي غيرها من أماكن التجمع استغرابهم لما جاء في منشور وصل إليهم يقول كذا وكذا علمنا أن التدريب قد نجح .

وكانت المشقة الكبرى أماننا هي الحصول على الأسلحة ، وقد دُلل لنا هذه الصعوبة أننا كنا إذ ذاك في السنة الثانية من سني الحرب العالمية ، وكانت جيوش المحور - ألمانيا وإيطاليا - قد بدأت نظرق أبواب بلادنا من ناحية الصحراء الغربية ، وجلب الإنجليز إمدادات من جنودهم وجنود الإمبراطورية من هنود وأستراليين وإفريقيين ... وعن طريق هؤلاء نشأت في صحراء مصر تجارة السلاح ، فكنا نشترى من هؤلاء التجار بنقودنا القليلة وبما كان يصلنا من مال من الهيئة العربية العليا بفلسطين .

وأقبل خلص الإخوان على الانخراط في سلك هذا النظام الجديد ، الذي كان ترجمة لماطالما درسوه وسمعوه عن الفكرة الإسلامية الشاملة التي ما قامت إلا لتحرر الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده والتي شرع الله فيها الجهاد دفاعاً عن الدين وجعله قلة الأمر وسنامه ليكون وسيلة إلى ذلك .

الابتعاد عن القاهرة :

بعد تجربتي في موضوع الألبان مكثت في القاهرة متأهباً لاستئناف تجربة أخرى من العمل الحر بعد أن أفضى فترة تستقر خلالها نفسي ولم يخطر ببالي أن أتقدم إلى عمل حكومي لندرة الأعمال من ناحية وطقتها وحقارة السبيل إليها من ناحية أخرى فقد كانت الوظيفة الحكومية على حقارتها لابد للوصول إليها من وساطة من وزير أو كبير وهو ما أربأ بنفسى عنه .

ولكن إعلاناً نشر في الصحف تطلب فيه وزارة المالية ثلاثين من الحاصلين على بكالوريوس الزراعة لتعيينهم في وظيفة فرازين للأقطان تمهيداً لتخصير هذه الوظيفة التي لم يكن يشغلها حتى ذلك الوقت إلا الأجانب وجاء في الإعلان أن التعيين في هذه الوظائف الثلاثين سيكون عن طريق مسابقة تجري بين المتقدمين

وجاءني زملائي ليخبروني بهذا الإعلان الذي جاء فيه ما يغري بهذه الوظائف من الناحيتين المادية والأدبية ولكنني - لسوء ظني بالأساليب الحكومية كما قدمت - رفضت مشاركتهم في التقدم لهذه الوظائف لما كان منهم إلا أن تحدثوا مع الأستاذ المرشد في ذلك فاستدعاني وأقنعني بوجوب التقدم لهذه الوظيفة قائلاً : هب أنك وجدتها كسائر الوظائف تعتمد على الوساطات

لماذا خسرت ؟ لن تخسر شيئاً إذا أنت توفقت عن المضى في طريقها ، وقد تكون هذه الوظيفة على غير ما اعتاد الناس وتكون الحكومة هذه المرة جادة فيما فشرت من امتحانات فلا تكون قد أضعنا على أنفسنا الفرصة .

وكان رأى الأستاذ المرشد في محله وتقدمت فرأيت بنفسى في الامتحان الأول - الذى تقدم إليه نحو من خمسمائة منهم كثير من الموظفين - زملاء كان معهم خطابات توصية من وزير الزراعة ووكيل وزارة المالية لشئون القطن قدموها إلى لجنة الامتحان ، ولم يكونوا ضمن الستين الذين نجحوا في هذا الامتحان وكنت أحدهم وقد شجنى ذلك على دخول الامتحان الشفوى بعد ذلك الذى تمخض عن فوز ثلاثين كنت واحداً منهم أيضاً .

ولما كانت زراعة القطن وتجارته تهم أنحاء القطر ماعد القاهرة فقد كان ابتعادى عن القاهرة أمراً لا بد منه ، وقد رأى المرشد أن أطلب تعيينى في دمنهور .

عبد الرحمن السندى :

لما استقر رأى على أن ألتحق بهذه الوظيفة وأن أكون بذلك بعيداً عن القاهرة و كان- الأستاذ المرشد على علم بأننى أكاد أن أكون المباشر الوحيد .. دون زملائى في القيادة - المهمة الإشراف على «النظام الخاص» طلب إلى الأستاذ أن أستخلف من يباشر الإشراف على هذا النظام . وقد نظرت فإذا جميع أعضاء هذا النظام مرتبطون بأعمال تشغل أكثر وقتهم وتستفرغ معظم جهدهم والإشراف على هذا النظام يحتاج إلى تفرغ أو ما يقرب من التفرغ على الأقل كما يحتاج إلى صفات معينة تتناسب مع خطورة هذه المهمة .

منذ التحقت بكلية الزراعة كنت أسكن بالجيزة ، وفي السنة الأخيرة لى بكلية اتخذت لى سكناً مع بعض الإخوان في منطقة خلف مباني الجامعة تسمى «بين السرايات» وكانت الشقة التى نسيناها فى الدور الأول من منزل رجل صالح كان يحبنا ونحبه ... فلما جاءه ساكن للدور الأرضي من المنزل رأى أن يستشيرنا ، وكان الساكن طالباً في كلية الآداب ومعه شقيقه الطالب بالمدرسة الثانوية ، فلما التقيت بالشابين وتحدثت معهما شمت فيهما الصلاح والخلق الفاضل فصارا من جيراننا ، وكان هذان الجاران هما عبد الرحمن السندى وشقيقه .

ثم كان أن جاء الأخ عبد العزيز كامل ليلتحق بكلية الآداب وكان من إخوان الإسكندرية الذين أعرفهم ، وكان يريد أن يسكن قريباً منا فسكن مع هذين الجارين مستقلاً بحجرة من هذه الشقة .

ولما كانت صلتى بالأخ عبد العزيز تقتضي أن أكثر من زيارته لأثونه من ناحية ولأنه كان قد التحق بقسم الجغرافيا بكلية الآداب وكنت أحب أن أطلع على بحوث شائقة لهذا القسم في الأجاس والطبائع وما شابهها من ناحية أخرى .. لذا كثر ترددي على هذه الشقة فكان هذا التردد فرصة لي للتحدث مع الساكنين الآخرين بها

وقد لاحظت على عبد الرحمن هذا الهدوء والرزانة والجد ، كما لاحظت إقباله على إقبالاً يوحى بأن الدعوة التي عرضها عليه تملك شفاف قلبه وتشعر بتشوقه إلى يوم يشتديها فيه بنفسه ، وظلمت طيلة ذلك العام على اتصال وثيق به ، حتى إنه كان لشدة ثقته بي ، وفرط حبه لي يعرض على مشاكله الخاصة - فلما وثقت به تماماً عرفته بالأستاذ المرشد باعتباره عضواً بالنظام الخاص «

وقد فهمت منه في أثناء ما عرضه على من شئونه الخاصة أن له إيراداً يمكن أن يقوم بشئونه ، فلما كنت بصدد اختيار من يخلفني في الإشراف على « النظام الخاص » تذكرت عبد الرحمن فرجعت إليه لألم بطروفه التي طرأت منذ انتهت دراستي بالكلية وغادرت « بين المراتب » ففهمت منه أن كل الذي طرأ عليه هو أنه لم يوفق في امتحان تلك السنة وأنه الآن يعيد السنة الأولى ...

فشرحت له ظروفى وأتني مضطراً أن أكون خارج القاهرة ، وأتني أبحث عن شخصية تخلفني للإشراف على « النظام الخاص » وأشترط أن تكون مستوفية شروطاً معينة ، وقلت له : إن هذه الشروط تكاد أن تكون مستوفاة فيك عدا « التفرغ » فهو ليس بالأمر اليسير ... فقال لي : إنني أشكر لك حسن ظنك بي ... وأنت تعلم أولاً أنني مريض بالقلب ، ومعرض للموت في كل لحظة ، وأحب أن تكون موتى في سبيل الله ... كما تعلم أني إيراداً - وإن كان محدوداً - إلا أنه يعينني على مطالب الحياة الضرورية ... وتعلم كذلك أنني رسبت في السنة الأولى بالكلية وأتني أعيدها ... وقد استقر رأيي على الانقطاع عن الدراسة وسألتحق بوظيفة في وزارة الزراعة بالثاتوية العامة ... وبذلك يتوفر لي عنصر التفرغ الذي تطلبه .

وعرضت الأمر على الأستاذ المرشد فوافق عليه ، وأحضرت عبد الرحمن للأستاذ المرشد حيث بايعه أمامي على أن يقود هذا النظام وعلى أن لا يقدم على أية خطوة عملية إلا بعد الرجوع إلى لجنة القيادة ثم إليه شخصياً .

وسار عبد الرحمن بالنظام سيراً موفقاً فحاز حب من يليه من القيادات والأفراد كما حاز ثقتنا حيث كان يرجع إلينا في كل خطوة عملية بل فيما دون ذلك . ومع وجودي في دمنهور

كنت أسافر إلى القاهرة في كل شهر مرة أو مرتين يعرض على عبد الرحمن ماتم في خلال مدة غيابي ، ومايقترحه للمستقبل .

واتسعت رقعة النظام في القاهرة ، وأخذت تنشعب في الأقاليم فضمت صفوفه الإخوان في مختلف البلاد .

أول عمل للنظام الخاص :

كنا في ذلك الوقت في أوائل أعوام الحرب العالمية الثانية ، وكانت القاهرة نزع بحافل الجنود الإنجليز ، وكنت لا تكاد تمشي في شارع من شوارع القاهرة لا سيما الشوارع الرئيسية خصوصاً بالليل إلا ويحتك بك جماعات من هؤلاء الجنود في حالة سكر وعريضة ، يهاجمون الرجال والنساء ، ويمسحون بكل ما تصل إليه أيديهم ، في الوقت الذي تلازمهم فيه أسلحتهم كأنهم في ميدان القتال .

وجار الأهالي بالشكوى من عبث هؤلاء الجنود ، ومن كثرة ما جتوه من قتل أبرياء ، وهناك أعراس وتحطيم محلات ، ولكن الحكومات التي تحكم البلاد لم تكن تجرؤ حتى على توصيل هذه الشكاوى إلى سامع السادة الإنجليز .

ورأى إخوان « النظام الخاص » أن يعملوا عملاً يثبت الخوف في قلوب هؤلاء الجنود المابيين ، لعل هذا الخوف يردعهم عن عبثهم حين يشعرون أن الطريق أمامهم ليس سهلاً كما اعتادوا ، وأن هناك من يقف لهم بالمرصاد ، وأن حياتهم ستكون ثمناً لهذا العبث .

وقرر « النظام » لكي يكون للعمل أبلغ الأثر أن يختاروا توقيتاً معيناً ومكاناً معيناً ومناسبة معينة ، فاختاروا ليلة عيد الميلاد ، واختاروا النادي البريطاني حيث يكون مكتظاً بالجنود الإنجليز وضباطهم وألقوا عليهم قنبلة لم تقتل أحداً ولكنها بعثت الرعب في نفوسهم وحقت الغرض منها تماماً فبدأوا يفهمون أنهم يعيشون وسط قوم يستطيعون أن يحفظوا كرامة أنفسهم بأنفسهم وأن يلقنوا من يعتدى عليهم دروساً قاسية ، وقد قبض في هذا الحادث على بعض الإخوان أذكر منهم الأخ نفيس حمدي الذي كان إذ ذاك طالباً والأخ حسين عبد السميع .

الصاغ محمود لبيب :

ضابط من ضباط الجيش ، كان من القلائل الذين كانت تجيش صدورهم بالحسرة على ما آلت إليه حال بلادهم ، وكانوا يتناجون سراً فيما بينهم ، وكانوا يبحثون عن وسيلة لإتقاذ هذه البلاد من ذل الاستعمار ، ومن غائلة الفساد الذي نشره في ربوعها .

وكان من رعييل عزيز المصرى وصالح حرب ، وكان ممن رحلوا إلى تركيا في أثناء أزمتها واضعاً نفسه رهن إشارتها للمحافظة على الكيان الإسلامى الذى كانت تمثله في ذلك الوقت الخلافة الإسلامية ، وشارك في كل الحركات العسكرية التى قامت في مصر وفي غيرها والتي كانت بواعثها وطنية إسلامية .

وقد أحيل الاستبداع مبكراً ولذا كان في رتبة الصاع (الرائد) ، ويبدو أن هذا الرجل كان خبيراً بطبعه وكان ميسور الحال ... جاء ذكر اسمه على لساني مرة أمام والدى رحمه الله فقال لي إنه يعرفه إذ كان والدى منتدباً ناظراً لمدرسة بوعاز رشيد - وكان ذلك في أوائل الثلاثينيات - فذكر موظفو فنار رشيد أن نقطة السواحل التى بجانبهم جاءها ضابط يرأسها اسمه محمود ليبب من أتقى الناس ومن أحسنهم معاملة لمروسيه وللناس جميعاً ، ولم يحضر إلى هذه النقطة ضابط نال إعجاب جميع الناس والكل يحبونه إلا هذا الضابط ، قال لي والدى : وقد تعرفت عليه وجلست معه فشعرت بعاطفته الإسلامية الجارفة ووجدتني أحبيته ، إلا أن إقامته في هذه النقطة لم تطل .

تعرف هذا الرجل على الأستاذ المرشد مبكراً في أواخر الثلاثينيات ، وكان الأستاذ يحبه ويحترمه ، وكان الرجل - وقد تعرفنا عليه - قليل الكلام .. وكان نواة التكوينات الإخوانية في الجيش كما أنه كان المشرف على تنظيم التدريبات العسكرية للمدنيين من الإخوان سواء من كان منهم في « النظام الخاص » وغيره ، وكان هو يمثل الإخوان في لجان الاتصال بين الإخوان وبين الجامعة العربية في إعداد متطوعي الإخوان لحرب فلسطين وكان من القلائل الذين كانوا يفهمون الإسلام ديناً ودولة ، وما كاد يعلم بظهور الإخوان المسلمين حتى أتى بنفسه وماله ووقته وكل مواهبه بين أيديهم ، فقد كانوا أمنيته وحلمه الذى تحقق ... وكان هذا الرجل الصامت من أكثر الإخوان إنتاجاً ، ولم يقبل أن يكون له منصب رسمى من مناصب الهيئة لأنه كان يكره الظهور ويكره أن يعرف الناس إنتاجه ... ومع أنه لم يكن له منصب رسمى في الدعوة فقد كان الأستاذ المرشد يكل إليه كل ما هو عسكرى فيها فكان بمثابة وكيل الدعوة في الشؤون العسكرية ... وقد لعب في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ دوراً عظيماً .

أول محاكمة في تاريخ الدعوة

انتهام بمحاولة قلب نظام الحكم

كانت النية معقودة عند الإنجليز وأتباعهم من حكام مصر على الوقوف في وجه المد الإخوانى الذى بدأ وكأنه السيل المنحدر من فوق الجبل . وقد افتنع هؤلاء - بالتجربة - بأن مواجهة الدعوة

بوسائل العنف والتصدى البوليسى لها لن ينال منها بل قد يزيدها قوة ، ويزيد الرأى العام إلتفافاً حولها ، وإذن فلا بد من إصااق تهمة ضخمة بهم أولاً ، وتدير مقدمات لهذه التهمة من الإحكام بحيث يكون حكم القضاء فيها ضد الدعوة مضموناً ودامغاً فينزح هذا من نفوس الشعب الثقة وحسن الظن بهذه الهيئة ، وهنا تتخذ الحكومة إجراءاتها ضدها بحكم القانون وبتأييد من الشعب ... وهكذا درج الإنجليز على أن تكون خططهم في محاولة القضاء على أعدائهم مبنية على مظهر قانونى مؤثر في نفوس الرأى العام مثير لمشاعره .

كان ذلك في أوائل سنى الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٢ ، وكان للإنجليز في تلك الأيام مؤسسات منتشرة في معظم عواصم البلاد لتكون عيوناً لهم على تحركات الوطنيين لاسمياً الإخوان المسلمين ، وكانت هذه المؤسسات في مظهرها ثقافية لتعليم اللغة الإنجليزية ونشر الثقافة البريطانية وتسمى هذه المؤسسات « المجالس البريطانية » وكانت تباشر عملها في اصطيااد الوطنيين ذوى النشاط في المجتمع بواسطة عملاء من المصريين - وما كان أكثر هؤلاء العملاء ، وما كان أحقر نفوسهم ، باعوا أنفسهم للمستعمر لقاء دراهم معدودة ليكونوا سوطاً على ظهور أبناء جلدتهم - وقد عانيت شخصياً من هؤلاء العملاء تجربة قد أشير إليها .

قام « المجلس البريطانى » بطنطا - بالاستعانة بعملائه المصريين - بتلفيق قضية خطيرة ضد الإخوة المسلمين في شخص فردين من خيرة أفرادهم هما الإخوان محمد عبدالسلام فهمى وجبال الدين فكيه وحشروا معها خمسة أفراد آخرين .. والتهمة التى وجهوها إليهم « أنهم يعدون جيشاً للترحيب بمقدم «رومل» القائد الألمانى الشهير ، وأنهم يتحدثون بليلة في الأفكار ، ويعدون عناصر معادية للحلفاء » - ولما كانت البلاد في حالة حرب مع الأعداء فقد طالبت النيابة بإعدامهم . وسميت هذه القضية بالجناية العسكرية العليا رقم ٨٨٢ لسنة ١٩٤٢ لم يتم الحكم وستأتى الإشارة إليها في موضوع قادم إن شاء الله ...

وكان بطل التحقيق في هذه القضية هو الأستاذ محمد توفيق رفقى رئيس النيابة الذى سبق التحدث عنه في المحاولة الأولى لتقديم الأستاذ المرشد إلى القضاء لما نشره في الصحف عن مطالبته بتسليح الجيش المصرى وتسليح الشعب المصرى .

وقد قدمت القضية أمام محكمة الجنايات العسكرية العليا بباب الخلق وكانت مكونة من خمسة أعضاء برئاسة المستشار فؤاد بك أنور وعضوية المستشارين محمد توفيق إبراهيم بك وزكى أبو الخير الأبو تيجى بك (وكانوا يسمونه جارو مصر) ومعهم اثنان من العسكريين :

ولازالت هذه القضية ماثلة في خاطرى مع مرور أكثر من ثلاثين عاماً عليها ، وهذه

الثلاثون عاماً مليئة بالأحداث الجسام التي كانت جديرة أن تعنى عليها وتمحو من الذاكرة آثارها .. لكن الذي أبقاها في خاطري هو ما كنت ألاحظه من شدة اهتمام الأستاذ المرشد بها ، حتى إنه كان مواظباً على حضور جميع جلساتها ، ولم يكتف بذلك بل كلفني بالمواظبة كذلك على حضور جلساتها وبأن أكون مجموعة من الإخوان تحضر أيضاً وتكون مهمة كل واحد منهم أن يكتب كل ما يحدث في الجلسة وكل لفظ يقال فيها على أن أجمع كتاباتهم في كل يوم وأستخرج منها صورة كاملة عن الجلسة أقدمها إليه ، وعلى ضوئها يكتب ملاحظات يقدمها هيئة الدفاع لتستعين بها في إعداد دفاعها ، وكان الأستاذ يقول لي : « إن هذه القضية تروقني لأنها قد أعدت إعداداً محكماً ، واختير لها وقت يبرر كل إجراء استثنائي ، فالمحكمة عسكرية والمحقق خادم الإنجليز ، وشهود الزور تحت يد الإنجليز ، والحكام المصريون لا يكونون لنا خيراً ، وإذ حكم على فكيه وعبد السلام فسيكون ذلك قضاء على الدعوة ، فالشعب لازال في غفلة ، ويستطيع الحكام اعتياداً على هذا الحكم أن يلوثوا سمعتنا أمام الشعب واتخاذ ما يحلو لهم من إجراءات ضدنا »

اتصل الأستاذ المرشد بأشهر المحامين في مصر وطلب إليهم الحضور في هذه القضية ، وترك لهم أن يحددوا أتعابهم كما يشاءون ، على أن يولوا القضية كل اهتمامهم ... ولكن هؤلاء المحامين رفضوا أن يتقاضوا أتعاباً وتطوعوا مشكورين ، وأذكر من هؤلاء المحامين الأستاذة محمد علي علوية باشا وعبد الرحمن البيلي بك ومحمد فريد أبو شادي بك وعمر التلمساني وعلى منصور ... ومع أن هذه المجموعة من أعلام المحاماة لم تجتمع في قضية من قبل فإن الأستاذ المرشد .. رغبة في إتمام دعم هيئة الدفاع - تأقت نفسه إلى محام كان يعد في ذلك الوقت الحجة التي يرجع إليها في معضلات القانون سواء إليه شخصياً أو إلى مؤلفاته وكان عميداً لكلية الحقوق واستقال لا ليرافع وإنما ليستشار في المعضلات ذلك هو الأستاذ على بدوي بك .

كان الأخ محمد فهمي أبو غدير تلميذه ، وهو الذي لفت نظر الأستاذ المرشد إليه ، ولكن أتى لنا أن يصل إلى قلبه لاسيما ونحن لا نطلب منه مجرد استشارة بل نريده أن يتبنى القضية ويرافع فيها ، وكان فهمي يلمس فيه نزعة إسلامية لكنه لا يجرؤ أن يتفاهم معه فيما نطلب ... وفيما نحن نقلب الأمر تذكر عبد الحكيم عابدين أن الأستاذ الشيخ محمود أبو العيون هو خال على بك بدوي .. وعبد الحكيم أيام كان غارقاً في بحار التصوف كانت له صلات قوية بكبير أسرة آل أبي العيون الشيخ محمد أبو العيون لأنهم أهل بيت علم وتصوف فانبرى عبد الحكيم لحمل مسؤولية موضوع على بك بدوي ... وباتصال عبد الحكيم بخاله الأكبر الشيخ محمد أبو العيون

وبشرح دعوة الإخوان لعل بك وبسط ظروف القضية والكشف عن أبعادها وهدف الإنجليز من ورائها قبل على بك أن يتبنى القضية ويدافع فيها دون مقابل .

وقد قضى الإخوان الكريمان فكيه وعبد السلام فترة الحبس على ذمة القضية ثمانية أشهر في سجن الحضرة بالإسكندرية ، ولما خان موعد تقديمها إلى القضاء نقلوا إلى سجن الاستئناف بالقاهرة .

وقد استغرقت المحاكمة جلسات كثيرة لا أذكر الآن عددها ، وكانت كل جلسة تستغرق اليوم كله .. وكان الذى يحيرنى هو وجه رئيس هذه المحكمة فؤاد بك أنور ، فقد كنت حريصاً على أن ألاحظ ملامح وجهه وما تتركه المفاجآت التى تحدث فى أثناء الجلسات من آثار على هذه الملامح ، لعلها توحى إلينا باتجاه هذا الرجل . ولكننى لم أكن أرى فى هذه الملامح شيئاً حتى أننى كنت أقول للأستاذ المرشد كأن وجه هذا الرجل وجه تمثال .

وكان فى القضية كثير مما يثير سواء فى شهادة الشهود المدلة عليهم أو فى مهاجمة الدفاع هؤلاء الشهود لإظهار بطلان شهادتهم أو فى مرافعة النيابة وما كالتة للإخوان من تهم الخيانة العظمى وما طالبت به من تطبيق مواد الإعدام .. والذى يسمع مرافعة النيابة ومادعت به من أدلة ومضبوطات وشهادة شهود يفهم أن هذه المرافعة ليست مرافعة رئيس النيابة الذى يقرأها بل هى خلاصة جهود متعددة تصافرت على تضييق الخناق حول أعناق هؤلاء المتهمين بقصد الإيقاع بما وراءهم من هيئة هى بنت القصيد .

وقد شهدت جلسات قضائية مختلفة ، واستمعت إلى الدفاع فيها ، فلم أر ولم أسمع مثل هيئة الدفاع فى هذه القضية ، كان المحامون مستميتين فى الدفاع كأن المتهمين أينأؤهم ، وكانوا يفهمون أنهم لا يدافعون عن هؤلاء المتهمين وإنما يدافعون عن هيئة الإخوان المسلمين التى اتعنوا - قبل أن يقبلوا الوكالة فى الدفاع عنها - أنها النبت الطاهر النقى الوحيد فى هذا البلد الذى يؤمل فى إنقاذ البلاد على يديه ، والذى تصافرت جهود كل ذوى السلطة من داخل البلاد وخارجها على تدميره والقضاء عليه قبل أن يكبر ويغلط ويستوى على سوكه .

وهنا كلمة حق يجب أن يقال هى أن السلطات المصرية والبريطانية مع كل ما كانت تدفع به من ملوك الكثير من وسائل العبث والإفساد ، فإنها لم تمد يد عبثها إلى القضاء ، فإن قدسية القضاء كان لها فى نفوس الجميع رهبة وتوقير واحترام حتى نفوس هؤلاء العابثين... نعم إنهم وجدوا من رجال النيابة من باع نفسه لهم ولكن صمام الأمان وهو القضاء نفسه كان سليماً مصوناً ، وكان القاضى يرى نفسه السلطة العليا فوق كل السلطات كما كان الناس جميعاً حكاماً ومحكومين يرونه كذلك .

ولما « جاء دور الأستاذ على بدوى فى المرافعة سوكان آخر المترافعين على ما ذكر - جاء فى سياق مرافعته بصدد ماورد فى بعض الأوراق المضبوطة من عبارات عن قتابل ومتفجرات ونحوها تعليقات طريفة فحواها أن الشعوب والأفراد تتأثر لغة تخاطبها سواء بالكلام المنطوق أو المكتوب بما تعيش فيه من ظروف ، فظروف الحرب المستعرة التى نعيشها تركت طابعها على تعبيراتنا فتشبهنا تنا واستعاراتنا وكنياتنا تلمح فيها أسماء الآلات الحربية فتسمع أو تقرأ أن فلانا ألقى بالأس قنبلة أو فجر ديناميتاً والقصد من ذلك أن هذا فلان جاء فى حديثه بمفاجأة وأن فلانا فرق جمعاً من خصومه ، وقال : لا يجوز فى وقت حرب كالدى نعيش فيه أن نحمل هذه الألفاظ وهذه العبارات على ظاهرها وأن لا يستنتج منها معان كانت تؤديها فى وقت السلم ، وقدم إلى المحكمة عدداً من « المصور » بعد أن قرأ منها عبارات من هذا القبيل وردت فى مقال كاتب من كتابة ، وقال لو أننا أخذنا هذه الألفاظ وهذه التعبيرات على على ظاهرها لقدمنا هذا الكاتب إلى محكمة الجنايات .

أما بحوث الأستاذ على بدوى الفقهية فى تنفيذ شهادة الشهود وما أجرى من التفتيش وتحقيق فكانت مستفيضة وكان يستشهد بفقرات من كتبه وكتب غيره ، وكانت المحكمة تنصت إليه باهتمام شديد وكثيراً ماكان رئيس المحكمة وعضواها يستعيدونه مقاطع من المرافعة يدونونها فى أوراق أمامهم ، لأنه ذو صوت خفيض ، ولولا السكون التام الذى كان يخيم على قاعة الجلسة ماسمعه أحد ، ولعل مكبرات الصوت لم يكن مسموحاً بها فى داخل الجلسات فى ذلك الوقت - وكان استماع المحكمة إلى الأستاذ على بدوى كاستماع المغرمين إلى مطرب قد أخذ بألبابهم ، مما يدل على شغف رجال القضاء فى ذلك الوقت بالبحوث الفقهية العميقة دون الوقوف عند السطحيات والقشور وشقشقة الكلام .

وبعد انتهاء المرافعات أعلنت المحكمة رفع الجلسة للمداولة لإصدار الأحكام واستمرت المداولة نحو ساعة كانت علينا وعلى الأستاذ المرشد بالذات أطول من أعوام لخطورة ماستتمخض عنه هذه الساعة من كلمات معدودة ينطق بها رئيس المحكمة تقرر مصير هذه الدعوة المرهون بهذه الألفاظ ... وانتهت المداولة وخرجت هيئة المحكمة بكامل أعضائها ووقفنا جميعاً ونطق رئيس المحكمة بالأحكام وفى صدرها براءة فكيه وعبد السلام فهتف جميع الحاضرين « يحيا العدل » وكأنما كان هذا الحكم بعثاً للأستاذ من مرقده ، فاتجه مستبشراً إلى المحامين فهناهم وهناؤه وعانقهم وعانقوه .

وفكيه وعبد السلام كانا قطبين من أقطاب الدعوة فى طنطا ، وكان فكيه موظفاً ببلدية

طنطا ، وكان عبد السلام مهندساً في مصلحة الطرق والكبارى بها ، وقد سافر إلى إنجلترا بعد ذلك وحصل على الدكتوراه وعمل أستاذاً بكلية الهندسة بأسبوط ثم عميداً لها ثم وكيلاً لجامعة الأزهر .

وزيادة في بيان خطورة المجالس البريطانية التي لفقت هذه القضية أذكر أنى حين عينت في دمنهور سنة ١٩٤١ كنت أغشى المجتمعات فيها وأتحدث عن دعوة الإخوان المسلمين وكانت المقاهى ضمن هذه المجتمعات ... وكان زملاى في العمل والأقدم منى وجوداً في دمنهور يحيطون بى ، حيث كان لهم معارف وأصدقاء من مختلف الطبقات .

وجاءنى زملاى في يوم من الأيام وطلبوا إلى أن أتوقف عن غشيان هذه المجتمعات فترة ، فسألتهم عن السبب فقصوا على قصة مؤداها أن مؤامرة قد حيكت للإيقاع بى عن طريق شخص مثقف من أسرة كريمة من أسر دمنهور ويعمل صحفياً - وذكروا لى اسمه - وفى نفس الوقت يعمل عميلاً للمجلس البريطانى بالبحيرة ، سمعنى هذا الشخص أتحدث في إحدى المقاهى وتناول حديثى الإنجليز ، فكتب تقريراً يتهمنى فيه بمهاجمة الإنجليز ومعاداة الحلفاء وسمه زملاً لى يسأل بعض الحاضرين عن اسمى وعن وظيفتى فتنهبوا إلى غرضه وحاولوا أن يثنوه عن عزمه من تقديم التقرير إلى المجلس البريطانى - وكان التقرب إلى الإنجليز في ذلك الوقت مما يتفاخر به - لكنهم عجزوا عن ذلك ، وتذكروا أن هذا الشخص شقيق خياط كلهم كانوا زبائنه فذهبوا إليه وقصوا عليه قصة أخيه وفهم الخياط أن هذا التصرف من أخيه إذا تم فإنه سيفقده أكثر عملائه فذهب إلى أخيه وأرغمه على العدول عن تقديم التقرير ومزقه بنفسه .

محنة أولى القربى أو المئنة الثانية

إن تقدير الإخوان للأستاذ المرشد ، وحبهم إياه ، وتفانيهم في حبه ، وإثاره على أنفسهم كان هو الشعور الغامر النابع من كل قلب ، وقد كنا نقرأ عن مدى حب الصحابة رضوان الله عليهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكنا نظن ذلك مغالاة من الرواة حتى قام هذا الرجل - حسن البنا - بدعوته ، وتعرفنا عليه ، وسرنا معه ، وعاملناه وعاشرناه فرأينا في خلقه وحديثه وتوجيهاته ومعالجته للأمور صورة مصغرة من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحببناه وازددنا مع الأيام حباً له وتفانياً في حبه ، فاستطعنا حينئذ أن نفهم وتتصور مارواه الرواة عن مدى حب الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأن ما رواه الرواة لم يكن مغالاة ولا تهويلاً بل كان مجرد إشارة إلى معان يعجز التعبير عن تصويرها .

لم يكن الرجل يعيش لنفسه ، ولم يكن يدخر مالا ولا جهداً ولا وقتاً ولا صحة دون دعوته وأذكر بهذه المناسبة أنه أبلغ وهو بالمركز العام بأن السيدة قرينته قد اشتد عليها المرض فطلب بالتليفون الدكتور الفمراوى - وهو الطبيب الذى كان يعالج الأسرة - ولما حضر الطبيب صحبته إلى المنزل ، وبعد إجراء الكشف أخذ الطبيب فى كتابة وصفة الدواء ، فمال على الأستاذ وطلب منى جنيها سلفة وأعطاه للطبيب . ذلك أنه كان يجعل مرتبه كله للدعوة لا ينتقص منه إلا ما يكفى الضرورات الأساسية للبيت الذى كان يعيش أدنى عيشة يعيشها بيت فى مستواه ... ولا يفوتنى أن أذكر أن الأستاذ فى أول الشهر التالى أصر على رد السلفة إلى مع أنى كنت أقول له إننا نعتبر بيتك جزءاً من الدعوة .

كان يعيش لدعوته ، وما فهمت معنى قول عائشة رضى الله عنها حين سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت « كان خلقه القرآن » إلا بعد أن عايش هذا الرجل وعاشرته فرأيت كلامه وصمته وحركته وسكونه ويقظته ونومه وحبه وبغضه وكتابته وقراءته وفكره كلها للإسلام فكنا نراه الإسلام فى صورة بشر .. عرفنا رجلاً قبله وبعده دعاة للإسلام لكن الإسلام لم يكن يشغل إلا جانباً من حياتهم وكانت أمور أخرى تشغل الجوانب الأخرى ... أليس القرآن الذى كان خلق النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى أشار إلى معنى التخلق بالقرآن حيث قال « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له » ؟ .

ألححت هذه الإلماحة السريعة لأوضح كيف يحب الإخوان أستاذهم وإلى مدى يحبونه ويتنافسون فى الخطوة برضاه ، باعتبار رضاه من رضا الله عز وجل فهو لا يحب إلا الله ولا يرضى إلا الله ... وكان للأستاذ فى ذلك الوقت ولد وبنات وكانوا صغاراً ، وكان له شقيقتان . فاتجهت أنظار الإخوان المؤهلين للزواج فى ذلك الوقت إلى شقيقته الكبرى ، وتنافس الكثيرون فى السعى للخطوة بهذا الشرف ، وكل منهم يعتقد أن له من المكانة فى نفس الأستاذ ما يجعله أهلاً للخطوة ، ولم يكن أحد يجرو على طلب ذلك صراحه بل كان تلميهاً - وكنا نحن - من أمثالى الذين لم يكونوا بعد مؤهلين للزواج - نرقب هذا التنافس ولا نعرف أى المتنافسين سوف يخطئ بما يأمل .

وأنا بحكم ما بنى وبين عبد الحكيم عابدين من اتصال دائم كنت أعلم أنه قد دخل هذه الحالة ، وقد أسر إلى بذلك طالباً منى الرأى ... ولم يكن طلبه الرأى منى فيما إذا كان اختياره هذه

الزوجة مناسباً أم يعدل إلى غيرها ، وإنما كان طلبه الراجح من فيا إذا كنت أراه هو مناسباً أم غير مناسب ، وقد أحسست في عرضه الأمر على ، وطلبه الرأي مني أنه يريد أن يسمع مني ما يشجعه على المضي في هذا السبيل . وقد سمع مني فعلاً ما يريد ... غير أني كنت أرى في قرارة نفسي أن دون تحقيق ذلك لعبد الحكيم خطر القتاد ، فالطلاب كثيرون والصفوف على الأستاذ المرشد من كل جانب وعبد الحكيم هو أقل الطالبين مالا وأدناهم مركزاً ومكانة في المجتمع ؛ إنه في ذلك الوقت لم يكن يملك ما يصلح أن يكون مهراً فلا مورد له إلا مرتبه من وظيفته المتواضعة في إدارة الجامعة ومع ذلك فهو مطالب بمسئوليات مالية لأهله - كما أثرت من قبل - والأستاذ المرشد يعلم ذلك - ... لا مؤهل لعبد الحكيم إلا مواهبه الشخصية وما قدمت في فصل سابق من هذه المذكرات من أنه أول أخ تخرج في الجامعة وبائع على أن يجعل مستقبله رهناً بمطالب الدعوة مع أنه كان أحوج الحاضرين وأقدرهم على تنمية موارده لاحتياج أهله إلى هذا المورد .

وكانت المفاجأة أن اختار الأستاذ المرشد عبد الحكيم زوجاً لشقيقته .. فقبل هذا النبأ في الظاهر بما يشبه الرضا من الجميع ، ولكنني كنت أحسن بأن هناك نفوساً قد أصابها هذا النبأ بشعور من خيبة الأمل .. ومع ذلك فلم أكن اعتقد أن هذا الشعور سيؤدي إلى كوارث .

وقد ذكرني اختيار الأستاذ لعبد الحكيم دون الآخرين بسعيد بن المسيب رضي الله عنه حين طلب إليه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أن يزوج ابنته لابنه فأعرض عن ذلك وزوجها تلميذه الفقير عبد الله بن أبي وداعة الذي سأله سعيد . لم لم تزوج ؟ فقال له : ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة .

وقد انقسم الإخوان إزاء هذه المفاجأة ثلاثة أقسام :

قسم تلقى هذه المفاجأة بالإجلال والإعجاب لأنها هي نظرة المؤمنين الصالحين حين يختارون لبناتهم . وهذا القسم هو الكثرة العالية من الإخوان .

وقسم أصابته المفاجأة بخيبة أمل حيث أخطأه الاختيار وكان يتمنى أن يكون هو المختار .. وهذا القسم هو مجموعة من شبان الإخوان المؤهلين للزواج والذين عرضوا أنفسهم وهم عدد قليل .

والقسم الثالث أصابته المفاجأة بخيبة أمل مع أنهم لم يرشحوا أنفسهم ولم يكونوا صالحين لذلك لأنهم في سن الكهولة ولهم بيوت يعولونها ولكنهم كانوا يتمنون أن لا يهمل هذا الزواج لعبد الحكيم بالذات ، لأنهم يعرفون أن عبد الحكيم ذو مواهب تؤهله للبروز في المجتمع ، ولما كانوا هم يشغلون المناصب البارزة في الدعوة ، فقد يزاحمهم عبد الحكيم في هذه المنصب

لاسيما واختيار الأستاذ المرشد لعبد الحكيم دليل على ثقته في هذه المواهب .

وهناك قسم رابع نشأ بعد ذلك كانت مهمته استغلال القسمين الثاني والثالث لتحقيق أغراض في قرارة نفسه أكثرها سياسى وبعضها شخصى .

ولما كانت شخصية المرشد لها من الإجلال في النفوس ما لا يحرقه أحد على النيل منه ، كما أن مسلكه في مقدراته الفائقة على توزيع عواطفه على جميع الإخوان توزيعاً يملأ نفوس الجميع لم يتح لأحد أن يجد فيه ثغرة ينقل منها إليه ، ولا مفرزاً يغمزه به ، فكان لابد إذن من البحث عن سبيل آخر لإيذائه عن طريق ملتو غير مباشر ، وكان الطريق هو محاولة تجرييع شخصية عبد الحكيم والنفوذ من ذلك إلى تجرييع الدعوة نفسها .

وسأعرض الآن لواحدة من هذه المحاولات كان مبعثها مبعثاً شخصياً ، وقد بدأت أحداث هذه المحاولة منذ كانت الدعوة في ميدان العتبة وبدأ الطلبة يقبلون علينا وكنا نحسن استقبالهم ونوليهم كل ما نستطيع من اهتمام وعناية وكان من هؤلاء الطلبة طالب في كلية الآداب اسمه (ع . س . أ) ... استقبلناه كغيره من الطلبة ولكن رأيت مقبلاً بشكل ملحوظ على عبد الحكيم عابدين مما جعلنى أرتاب فيه ، ولكن هذا الشعور لم يجعلنى أقصر في حقه فكنت أعامله كما أعامل زملاءه ... غير أنى رأيت عبد الحكيم يولييه من العناية أضمافاً ما يولى زملاءه - سوعبدالحكيم كما قدمت إنسان كله عاطفة ، فما كاد يشعر باقبال هذا الطالب عليه حتى غمره بسيل من عواطفه فكان كلما قابله قابله بالعناق ، وكنت أفتقد عبد الحكيم فإذا لقيته سألته أين كنت بالأمس فيقول لى كنت عند الأخ (ع) في بيتهم ... وقد أوسع عبد الحكيم له في جملة التذير فكان يكتب المقالات تمجيداً في الإخوان المسلمين وإشادة بهم .

لم يكتف عبد الحكيم بأسلوبه العاطفى المتطرف الذى يتعامل به مع هذا الأخ بل جامعاته فى عدم إقبالى عليه بنفس أسلوبه وأخذ يذكر لى مزايا هذا الأخ الأدبية وحماسه المتأجج للدعوة وأسلوبه فى الكتابة ، وأخذت أذكره بما سبق أن قلته له من قبل منذ كنا فى دار شارع الناصرية وبما حذرته منه من شعور البداوة الذى نشأ عليه والمبى عن حسن الظن المطلق بكل الناس وفى كل الظروف ومن مظهر هذا الشعور البدوى من التفالى فى الحب والعناق فى كل لقاء وإباحة بيتك لكل من أحببته يدخله فى غيابك وحضورك ، ودخولك بيوتهم كأنها بيتك ، ومعاملتك أهلهم كأنهم أهلك ، وقلت له : كل ذلك لأرضاه .. وقد أرضاه إذا ضمنت لى أنك تعيش فى بيئة أو مجتمع من الملائكة المزهين عن الأهواء ، المطهرين من سوء الظن وسوء النية .. أما المجتمع الدنيوى الذى نعيش فيه فهو يضم الطيب والخبيث ، وقد ينقلب الطيب خبيثاً ، وقد ينقلب الخبيث طيباً ،

فلا ينبغي أن ننطلق في عواطفنا انطلاقاً لا حدود له مهما سميت هذه، المواطن وذكورته بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك « أحب حبيبك هوناً ما ، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما . وأبغض بغيضك هوناً ما ، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما .

واشتد الحوار بيني وبين عبد الحكيم ورماني في نهايته بأن معاملي « الرسمية » للإخوان لاسيما الجدد منهم من أمثال هذا الأخ تنفرهم من الدعوة فقلت له : إنني لا أعامل أحداً معاملة رسمية كما تدعي بل إنني أعطى كل إنسان حقه من حسن اللقاء ، وكل ما أحاوله هو أن ألتصّد في عواطفى ، فالمصافحة عند اللقاء تكفى ، والعناق عند الرجوع من السفر أو بعد الغياب الطويل لأبأس به ، والزيارة في البيوت بدعوة ملحة من صاحب البيت كما يقولون « زر غباً نرود حباً » وكررت تحذيرى متمسكاً بطريقتى في المعاملة .

وغادر عبد الحكيم الغرفة التى كنا نتلاوم فيها من المركز العام وهو مصر على أنه يسلك الطريق الإسلامى الأقوم ... وشاب ذو نفس شاعرة نشأ في بيئة بدوية ثم تلقفته الصوفية بأشد طرقها تصفية للنفس ثم اتصل بدعوة الإخوان المسلمين التى تضع مرتبة الأخوة في الدعوة فوق مرتبة الأخوة في الدم ، شاب كهذا قلما يعدل عن خطته في الاندفاع بعواطف الأخوة والحب التى تتأجج بين جوانحه إلا بكارثة .

وانتقلت الدعوة إلى الحلمية الجديدة ، واستمر عبد الحكيم في اندفاعه الذى كان يجد له تجاوباً من الطرف الآخر ، ولا أدري لم كان هذا التجاوب الذى لا أجد مبرراته متوفرة في هذا الطرف بل كنت أرى فيه معنى التصنع وأشم منه رائحة الاستدراج ، وظللت كعادتي أسأل عن عبد الحكيم في بيته فلا أجده المرة تلو المرة ثم أقابله فيخبرني بأنه كان في بيت هذا الأخ .

ومرت الأيام وأعلنت خطوبة عبد الحكيم لشقيقة الأستاذ المرشد ، فكان هذا الإعلان بمثابة إعلان حرب لا هوادة فيها على عبد الحكيم أو قل في الحقيقة على الدعوة نفسها ولكن اتخذ عبد الحكيم قديص عثمان .

انقلب هذا الأخ الذى أشرت إليه انقلاباً فجائياً على عبد الحكيم وخاصمه بغير مقدمات واتهمه بأنه اتخذ صداقته له وأخوته معه وسيلة إلى مداعبة شقيقته .. وبغير مقدمات رأينا هذا الأخ يعلن مقاطعته للمركز العام وتبرأه من الدعوة مالم يبتز منها عبد الحكيم ...

مفاجآت وجدت آذاناً صاغية من أولئك الذين أشرت إليهم في القسمين الثانى والثالث ،

وجدت هذه الاتهامات الفجائية هوى في نفوسهم فقاموا يروجونها وينشرونها بطريقة مشيرة ، وعادت إلى الذاكرة حادثة الإفك « إن الذين جاموا بالإفك عصابة منكم ، لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين . »

ولما كان الأستاذ المرشد يعلم عن عبد الحكيم ما أعلم ، كما أنه كان يتوقع أن يكون لإعلان خطوبة عبد الحكيم لشقيقته آثار لا بد أن تمس بعض القلوب ، فإنه لم يرعه من هذه الحملة الفجائية إلا كونها جاءت بغير مقدمات وبطريقة مفاجئة تحس معها أن أصحابها قد فقدوا رشدهم فتخلوا عن أدنى مبادئ الأدب والحياء .

جاءني عبد الحكيم وهو يكاد يموت غمّاً وقال لي : لقد فهمت الآن أنك كنت على حق ، أنك كنت أبعد مني نظراً ، وأنتى لم أكن إلا أبله لا أدرى مايراد بي ، ولا مايدبرنى ؛ لقد خالفتك وأخلصت لهذا الأخ وجعلت له من نفسى وقلبى مالم أجعله لأشقائى ؛ فكان يدعوونى إلى منزلهم وعرفنى بوالده ووالدته وإخوته وأخواته كما دعوتهم إلى بيتى كما تعلم ، وتوالت دعواتهم لى حتى إن والديه يدعوانى دونه ؛ وكنت أعتبر والديه والذى وإخوته وأخواته إخوتى وأخواتى .. ومرضت شقيقته الكبرى مرضاً خطيراً ، ولما كانوا يعرفون عن صلتى بالأطباء (كان لعبد الحكيم صداقة وطيدة مع أشهر أطباء القاهرة وكان محبباً إلى نفوسهم إلى الحد الذى كانوا يستجيبون له إذا طلبهم ليل أو نهار حيث كان، دون أن يتقاضوا أجراً ، ولم يكن يطلب أحداً منهم لنفسه ولا لذويه إلا نادراً ، وإنما كان يطلبهم لعلاج من يلجأ إليه من الإخوان) استفاثوا بى وطلبوا إلى أن استدعى لهم طبيباً كبيراً معيناً ففعلت واستمر العلاج ولكن المرض قد استفحل حتى صارت الفتاة هيكل عظمياً بلا لحم ولا دم ، وعلا وجهها شحوب الموت حتى إن أمها وأخواتها عافوها وابتعدوا عنها ، وشعرت الفتاة بذلك فصارت تبكى وتنعى نفسها ، وهنا اضطرت أن أجلس بجانبها ، مع أننى فى قرارة نفسى باعتبارى بشراً كأي بشر متقزز من منظرها ومن رائحتها ، ولكننى كنت أحاول أن أرفع من روحها ، وأعيد إليها ثقها فى الحياة - ولقد كان والدها وإخوتها وأخواتها - ومنهم هذا الأخ - يشكروننى على أداء هذه الخدمات الإنسانية التى عجزوا هم عن أدائها .

قال عبد الحكيم : وبتفانى أصدقائى الأطباء فى علاجها ، وبما اتبعته من أساليب لرفع معنوياتها تحسنت حالتها ، ودبت فيها الحياة من جديد ... وحتى آخر يوم كنت موضع إجلالهم جميعاً ، ولا حديث لهم إلا حول اعترافهم بمجمل عليم ، وبإنسانيتى التى فاقت ما عرفوه من إنسانية .

قال : وفى اليوم التالى ذهبت كالمتعاد لزيارتهم فرأيت وجوماً على وجوههم حتى خيل لى

أن الفتاة ماتت ، ولكنني رأيتهما بخير ، وحاولت أن أعرف سبب الوجود فلم استطع فخرجت وأنا في حيرة من هذا التبدل المفاجيء ، واستعرضت كل تصرفاتي معهم لم أذكر شيئاً بدر مني فأغضبهم فلم أجد إلا تقديرهم لكل كلمة قلتها أو تصرف أتيت به ، فزمت على أن أسأل نجلهم الأخ (ع) حين ألقاه ليلاً بالمركز العام كالمعتاد فلم أجده حاضراً ولكنني سمعت قالة سوء توجه إلى منسوبة إليه . ولا يردد هذه القالة شخص واحد بل ترددها مجموعة معينة بطريقة تشهر بأنها مبيتة ومذبذبة ... ولم أصدق أنه هو قائلها في أول الأمر لكنني تبينت أنه هو مصدرها وأنه هو الذي بآء بإثمها ، وأنتى لم أكن حتى تلك اللحظة إلا سادراً في حسن ظني متجلاً برداء غفلتي ولم أتنبه من غفلتي إلا الآن ، فإن اليوم الذي في مسائه قلبوا لي ظهر الحزن هو نفس اليوم الذي أعلن في صباحه نبأ خطوبتي لشقيقة الأستاذ المرشد ، وما كنت متظراً منهم إلا أن يقابلوني بالبشر والتفاني والتبريك ..

وعبد الحكيم المشبوب العاطفة ، المتصوف ، الشاعر ، البدوي ؛ لم تكن هذه الصدمة لتقف به عند حد إفاقته من غفلته . وورثه إليه فحسب ، بل إنها لذقت به على الطرف الآخر البعيد ؛ فإذا به يقرر أن يعتزل الناس لأنه فقد الثقة فيهم ؛ فانقطع عن المركز العام وعن غشيان أى مكان آخر ماسوى بيته وعمله ، وهجر أصدقاءه وأحبابه ومعارفه وحتى أهله ، وعكف على الصيام المتصل والقيام بالليل تكفيراً عن زلته بإفراطه في حسن ظنه بالناس .. ولما طال انقطاعه ومضى أكثر من شهر زرتة في بيته أو بمعنى أدق في معتكفه وعاتبته على هذا الأسلوب فقال لي : ما كنت أعتقد إلا أنك آخر من يعاتبني في ذلك ؛ فالذي فعله الآن ما هو إلا تكفير لمخالفتي نصيحتك . قلت : ولكن التكفير لا يكون بالانتقال من النقيض إلى النقيض ، وانقطاعك عن المجتمع لا يقل ضرراً عن انهماكك فيه مندفعاً بغير حدود ، ولكن المطلوب هو التزام الوسط في كل الأمور .. ومازلت به حتى أنهى اعتكافه وصومه ورجع إلى المجتمع ولكن بعد بضعة أشهر قطع في خلالها شوطاً بعيداً في حفظ القرآن أو لعله أتم حفظه

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، وإنما امتدت آثاره وتشعبت إذ صار عداً للدعوة يظهر في صور مختلفة من ابتعاد عن الدعوة إلى استقلالات إلى اعتكاف مجموعات تجتمع في البيوت والكل يشيرون قالة سوء بغير علم ، وكلما وجدوا عدواً للدعوة لاذوا به وظاهروه عليها متناسين قول الله تعالى «الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً» ويبدو أن بسط القرآن لقصة الإفك ؛ وجعلها صدر سورة من سوره ، والإسهاب في سرد تفاصيلها ، وتحليل مواقف الفئات المختلفة فيها ، والتهديد بأقصى العقوبة لمثيرها والرائعين فيها وحتى للذين يلذ لهم مجرد الاستماع إليها ثم يخرج من ذلك كله بتحذير مزلول فيقول «يعظكم الله أن

تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » ... هذا السرد المفصل في أبرز موضع من السورة يوحى بمدى خطورة هذا الأمر كما يوحى بأن الدعوة الإسلامية في مختلف الميادين وعلى مر الزمن عرضة لتكرار مثل هذه الحادثة فيها ولذا حذر جل شأنه من تكرارها بقوله « أن تعودوا لمثله أبداً » و قرن العودة إلى مثلها بالتخلل عن الإيمان بقوله « إن كنتم مؤمنين » ثم أشار إلى اهتمامه بالتفصيل والتوضيح لخطورة العواقب بقوله « ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » .

ذلك أن الدعوات الإصلاحية عامة والدعوة الإسلامية خاصة إن هي إلا مجتمعات يتفاعل بعضها مع بعض ، وهذا التفاعل مع اختلاف المشارب ، وتباين البيئات . وتنوع الآمال ، يؤدي بطبيعته إلى شيء من خلاف في الرأي أو تنافس على أمل أو تسابق إلى منصب ؛ وقد يورث مثل ذلك في بعض النفوس الضعيفة العداء ويوظف فيها الحفيظة والحقد ... وحين تفكر هذه النفوس الضعيفة في الانتقام من المخالف أو المنافس أو المسابق لا تجد أمامها وسيلة أيسر ولا أسهل ولا أقل تكليفاً من النيل منه بكلمة يرسلونها في عرضه لا تكلفهم شيئاً ولا تقتضيهم جهداً ولكنها كافية إذا وجدت آذاناً من في قلوبهم مرض أن تدير كرامته وتهوى به في المجتمع إلى الخبيث بل تخرجه من المجتمع منبذاً . . فإذا كان هذا المنافس ركناً من أركان دعوة انهارت الدعوة بانهاره ونفى عليه وعليها معاً .

ولقد وقفنا مع الأستاذ المرشد إزاء هذا الهجوم الغادر الوقفة التي يرضاها الله تعالى ولا يرضى سواها ؛ ظننا بأنفسنا غيراً كما أمر الله عز وجل في هذا الموقف حيث يقول «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم غيراً وقالوا هذا فلان مبین » وكنا كما تمنى القرآن الكريم أن يكونه المجتمع الإسلامي إذ يقول : «ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم» فتولى الله تعالى عنا رد كيد الكائدين في نحورهم وكفى الله المؤمنين القتال وخرجت الدعوة من هذه الفتنة مرفوعة الرأس بأذى قدر من الحسائر التي هي في حقيقة أمرها تخليص للدعوة من خبال علق بها « لوخرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولاوضعوا خلالكم يغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين »

المؤتمر السادس

كان المؤتمر السادس هو آخر المؤتمرات العامة للدعوة كما أشرت إلى ذلك من قبل ، ذلك أن الإخوان بعد ذلك قد كثروا وتشعبوا إلى الحد الذي لم يعد مكان يتسع لاجتماعهم على هذه

الصورة ، وقد استغنى عن أسلوب المؤتمرات بنظام الهيئة التأسيسية والمكاتب الإدارية وتسلسل القيادة واللامركزية .

وقد أقيم هذا المؤتمر بدار المركز العام بالجمعية الجديدة في ١١ ذى الحجة ١٣٢٩ الموافق ٩ يناير سنة ١٩٤١ ، وقد حضر عدد كبير جداً من إخوان القاهرة والأقاليم وكان له صدى مدو في جميع الأنحاء .

ومع أننى كنت السكرتير العام المساعد لهذا المؤتمر حيث كان الأستاذ أحمد السكرى السكرتير العام له فليس لدى الآن مرجع أرجع إليه في تفاصيل هذا المؤتمر غير ما بقى في ذاكرتي مع أننا طبعنا رسالة خاصة بكل ما تم فيه ووزعت على أوسع نطاق .

وقد طرق الأستاذ المرشد في بيانه في هذا المؤتمر كل الموضوعات التى تتصل بالدعوة التى طرقها من قبل في المؤتمرات السابقة لكنه طرق في هذا المؤتمر موضوعين جديدين لم يطرقهما من قبل وهما :-

الاول : الشركات الأجنبية في مصر :

كان الأستاذ المرشد إذا أراد أن يعد بياناً ليلقيه في مؤتمر من المؤتمرات الإخوانية العامة تفرغ لنفسه ساعتين أو ثلاثاً فيخرج بالبيان الكامل الشامل ... أما إعداد بيانه لهذا المؤتمر فقد أجهد نفسه فيه إجهاداً كبيراً واستغرق منه أياماً كثيرة وقد طلب إلينان نمده بمطبوعات إحصائية ضخمة صار يعكف على قراءتها الأيام تلو الأيام ويقتبس منها البيانات الدقيقة التى جعلها صلب خطابه .

وكان بيانه في هذا المؤتمر أطول بيان ألقاه في المؤتمرات. وقد تضمن لأول مرة إحصاء دقيقاً للشركات العاملة في مصر ، وبين أنها جميعاً تقريباً شركات أجنبية ، وبين جنسية كل منها . وتحدث عن مستوى المعيشة للمصريين وقارنه بمستوى المعيشة لغيرهم .

وتناول هذا الموضوع كان فضحاً لحقيقة كانت جميع الجهات في مصر تستتر عليها فقد حدد عددها بأنها ثلاثمائة وعشرون شركة تسيطر سيطرة كاملة على اقتصاد البلاد ، وتمتص خيراتها دون أهلها .

ويخيل لى أن تناول الأستاذ المرشد لهذا الموضوع الخطير الذى هولب الاستعمار كان من أهم العوامل التى لفتت نظر المستعمرين لخطورة دعوة الإخوان المسلمين عليهم ، والى بدأوا من أجلها يخططون للقضاء عليهم . وكان أول أسلوب لجأوا إليه هو تلفيق تهمة تدمتهم بالخيانة ، وقد

تناول الحديث عنها آنفاً تحت عنوان «أول محاكمة في تاريخ الدعوة» ولولا عدالة القضاء المصري وأصائله لتحقيق المستعمرين ما أرادوا .

على أن تناول الأستاذ لهذا الموضوع كان أمراً لابد منه، لما كانت دعوة الإخوان المسلمين مجرد مبادئ وأفكار وفلسفة، وإنما هي برنامج إصلاحى شامل. فكيف تنفادى الحديث عن عصابات تسرق قوت الشعب تحت اسم شركات وتنقله إلى بلادها وتترك هذا الشعب يتلوى جوعاً وعرياً وحفاء... وما كانت المبادئ والأفكار لتغنى مثل هذا الشعب فتيلاً إذا لم تعمل على توفير أسباب المعيشة الكريمة له، وأول هذه الأسباب؛ أن يعرف الشعب كيف يتسرب قوته وثمره جهده إلى خارج البلاد .

وإذا كانت هذه الشركات قد استطاعت بمهارتها أن تقطع السنة الأحزاب السياسية في مصر على اختلافها بأن انتقت من كل حزب أفراداً من أبرز من فيه وعينتهم أعضاء وسميين في مجالس إدارتها بمرتبات ومكافآت خيالية فكانت رشوة مقنعة لم يتهب إليها الشعب المضلل .. فإن الإخوان المسلمين بحكم إيمانهم بربهم واستمساكهم بعقيدتهم كانوا أمنع من أن تستحوذ هذه الشركات بأحاييلها وإغراءاتها عليهم فكانوا هم في إعلان كلمة الحق أحق بها وأهلها .

وبقدر ما كان تناول الأستاذ لهذا الموضوع مفاجأة للشركات والمستعمرين ولجميع الجهات المسئولة في مصر وخارج مصر، فلقد كانت مفاجأة أيضاً للإخوان المسلمين أنفسهم الذين حضروا المؤتمر والذين قرأوا بيانه فيما بعد؛ لأن الإخوان لم يكونوا قد اعتادوا أن يسمعوها في مؤتمراتهم إلا شرحاً لدعوتهم وتوضيحاً لمواقفهم... ولكن القيادة الموهوبة هي التي تستطيع أن تنتقل بجنودها وأتباعها من ميدان إلى ميدان في الوقت المناسب وبالأسلوب الذي تستكمل به الدعوة خطواتها وتثبت وجودها وتحقق معانيها في واقع حياتها .

والموضوع الآخر هو الملك:

وينبغي بهذا الصدد أن نذكر أن الملك فاروقاً كان حتى ذلك التاريخ لا يزال مناط آمال الشعب وموضع احترامه، لأن سيرته كانت سيرة مرضية ومسلكة كان مسلماً شريفاً، ولعل ذلك نتيجة تأثير الشيخ محمد مصطفى المراغى عليه. وقد سبق لى أن أشرت إلى هذا الرجل وقلت إنه لم يكن مجرد شيخ للأزهر كسابقه أو لاحقيه الذين كانوا مجرد موظفين يدينون بالولاء للحكومة والملك، بل كان شخصية ذات تأثير في الحياة الاجتماعية والسياسية للبلاد وكان موضع احترام الملك فاروق وتوقيره وكان في صحبته إلى المساجد، وهو صاحب فكرة إعلان القاهرة عاصمة

مفتوحة في أثناء الحرب العالمية الثانية ، وقد أعلن ذلك وهو في صحبة الملك في أحد المساجد ، ولم يكن الإنجليز يرتاحون إليه ، ولما توفي الشيخ في سنة ١٩٤٥ في مستشفى المواساة بالإسكندرية ، أدى الملك فاروق صلاة الجمعة التالية في مسجد سيدى بشر وطلب من المصلين بعد الصلاة أن يقرأوا الفاتحة على روح صديقه الشيخ المراغى .. ولم يبدأ فاروق في الانحراف إلا بعد وفاة الشيخ وحسبك أن تعلم أن فاروقاً هو الذى أمر في ذلك الوقت بجعل الهجرة النبوية من الأعياد الرسمية وأمر بالاحتفال بها وقد سجل ذلك الشاعر الكبير محمود غنيم في قصيدة له ألقاها في المهرجان الأدبي الذى أقيم بداز الأوبرا في ١٢ فبراير سنة ١٩٤٢ حيث يقول :

ملك إذا الإسلام عد حماته	كان الطليعة في صفوف حماته
نور الصلاح يلوح فوق جبينه	والشعب يصلحه صلاح ولاته
الله أكبر هل بصرت بركه	يمشى الهويناً غادياً لصلاته
والشعب يدعو الله خلف ركابه	حتى يهز العرش من دعواته
فكأنه فاروق يثرب نفسه	يسعى بموكبه إلى جمحاته
قل للشيد بعيد هجرة أحمد	جددت عهد الفتح بعد فواته
هذا جهاد في سبيل الله ما	نضح الدم القاني على راياته

معدرة للقارئ في هذا الاستطراد قبل أن أدخل في الموضوع الذى أنا بصده فقد أحببت أن أسجل تاريخاً لعل أذكره قد حجب عن شباب هذا الجيل بسوء قصد فقد درج حكامنا على سنة أهل النار « كلما دعات أمة لعنت أختها » فلكي ينسب حاكم نفسه إلى الفضل لا يرضيه إلا أن يجرد سابقه من كل فضل .. أما نحن - الإخوان المسلمين - فلا نستبيح تزوير التاريخ من أجل إبراز فضل لنا ، ولا نبالي أن نشيد بمحاسن أعدائنا إن كان لهم محاسن لأننا ملتزمون بقول الله تعالى « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ».

وليس معنى هذا أننا ننكر أن فاروقاً هذا تولاه بعد ذلك شياطين الإنس من رؤساء أحزاب وبطانة فاجرة فصنعوا منه شيطاناً فها هو بإثمه وإثم ماحق بالبلاد من انحطاط وتدهور ودمار ...

ولكن الخيبة التى انعقد فيها المؤتمر السادس للإخوان كان فاروق على ما وصفنا. فتعبد الأستاذ المرشد أن يفسد على الانجليز وأذئابهم محاولاً تهيم في إينار صدر فاروق على الإخوان بما ألقوه في روعه من أن الإخوان هم أعداء الملك. فقال في بيانه في وضوح لا لبس فيه : « إن ما يشاع عنا من أننا أعداء الملك ليس صحيحاً بل إننا نلتزم بقول الإمام مالك رضى الله عنه

«لو كانت لي دعوة واحدة مستجابة لجعلتها للسلطان فإن صلاحه يصلح به خلق كثير» .

وعلى العموم فإن هذا المؤتمر لم يستوف حظه الجدير به من التسجيل التاريخي لفقداننا المرحوم الأساسي في شأنه وهو الرسالة الخاصة به ونجتزئ به هذا القدر عنه الآن وعسى أن نظفر فيما بعد بنسخة من هذه الرسالة فنسجل ملحقاً له إن شاء الله .

إلى دمنهور

في ١٦ يونية سنة ١٩٤١ انتقلت إلى دمنهور حيث تسلمت على بمصلحة القطن بها حسب توجيه الأستاذ المرشد لي كما قدمت . ولم تكن دمنهور غريبة علي فقد كنت أقضي في ربوع محافظتها جزءاً كبيراً من أجازة الصيف كل عام لنشر الدعوة ، إذ كنت أحس إحساساً داخلياً بأن علي مسؤولية خاصة نحو هذه المحافظة التي ولدت بها ، .. ولم أكن أتصور أن هذه المحافظة من السعة وتراعى الأطراف بهذا القدر الذي ووجهت به حين عزمت علي ارتياد أنحائها ..

وتستطيع أن تقول إنه في خلال تلك السنة وما بعدها بدأ الأستاذ المرشد يقذف كل إقليم من أقاليم القطر بشمرة من ثمرات تربيته التي عكف عليها خلال سني الدراسة في الجامعة .

وإذا تحدثت عن الدعوة في إقليم البحيرة وقد ساهمت في إرساء قواعد الدعوة فيها فإنما أعرض بذلك صورة لإرساء هذه القواعد في كل إقليم والذي كان من نتيجته أن نشرت الدعوة ووافها على البلاد من أقصاها إلى أقصاها لم تدع عاصمة ولا مدينة ولا قرية ولا نجماً إلا دخلته وكان لها فيه مستقر ومستودع .

في دمنهور :

كان يتقاسم النفوذ في هذه المدينة أسرتان ؛ أسرة تنتسب إلى حزب الوفد وأسرة تنتسب إلى الأحزاب الأخرى ، وكنا حريصين على أن نحسن صلاتنا بالأسرتين ، دون أن يمنعنا هذا من جذب بعض من شباب الطائفتين إلينا . وكان اهتمامنا ينصب أكثره على طلبة المدارس الثانوية والصناعية والزراعية ، وكنا نأخذ هؤلاء الطلبة ومعهم أتراب من ذوى الحرف بنظام الكتاب الذي يخرج منهم رجالاً صالحين ، .

ولم يكن عدد الإخوان بهذه الشعبة كبيراً ، كما لم يكن من بين هؤلاء الإخوان شخصيات بارزة من شخصيات المدينة ، كما لم تكن دار الشعبة في مظهرها وأثاثها فخمة بل كانت متواضعة بدائية ، لكن كان من يرتاد هذه الشعبة يشعر بفيض غامر من الروحانية الجارفة ، لأن أفراد

هذه الشعبة على صغر أسنانهم وخالة مراكزهم الاجتماعية كانوا أما يفهمون دعوتهم حتى الفهم ويعرفون حقوقها عليهم ويعطون هذه الدعوة حقها من نفوسهم وقلوبهم وألسنتهم وعقولهم وأبدانهم . فترى الجدل في حركاتهم وسكناتهم وترى الأخوة والمحبة والإيثار في تعاملهم فيما بينهم ، فلا تلبث حين تجلس إليهم أن تمتزج بهم .

كان الأخ المهندس الدكتور محمد عبد السلام فهمي مدير أعمال بمصلحة الطرق والكباري بطنطا في ذلك الوقت ، وكانت طنطا مسقط رأسه ، وكان من أحبائي الأقرين منذ كنا طلبة بالجيزة ... جاء لزيارتي مرة بدمهور واختلط بإخوان الشعبة ، فطلب من إدارة الطرق والكباري بطنطا أن تسند إليه المرور على فروعها بالبحيرة . ومع ما في ذلك من مشقة عليه فإنه كان يقول لي : إن روحانية هذه الشعبة وما بها من امتزاج نفسى وعمل جاد متناسق كأنه الموسيقى جذبني وهون على المشقة .

اضطهاد حكومي :

ولست أدري لم حدثت الحكومة هذه الشعبة باضطهاد دون غيرها من الشعب ودون الاضطهاد الحكومي العام ؟ .. فبينما كانت الشعب جميعاً في أنحاء القطر تنعم بالحرية كانت شعبة دمنهور تهجم ليلاً ونهاراً في فترات متقاربة .

كان هناك بكباشي اسمه «الرفاعي» له مكتب خاص وإدارة مستقلة ووظيفته مدير الشئون العامة بالمدينة كان يهاجنا في أثناء المحاضرات الأسبوعية ويحاول منع المحاضرة ويطلبنا للتحقيق معنا في مكتبه ثم لا يجد شيئاً يعتمد عليه من القانون ...

كان في دمنهور - وأعتقد أنه كان في كل عاصمة - قيمان للبوليس لكل قسم منهما مأمور ومعاون وضباط خاصون به ، أحدهما يسمى البندر ومهمته ما يتصل بمدينة دمنهور نفسها والآخر يسمى المركز ومهمته ما يتصل بما سوى المدينة من قرى مركز دمنهور وكان القيمان في مبنى واحد .. وكان لبندر دمنهور معاون بوليس اسمه اليوزباشي محمد أبو السعود .. وكان هذا الرجل وكأن لا عمل له إلا الاضطهاد بنا ، كان يهاجنا ليلاً ونهاراً ويرسل لنا خبراً من المباحث لحضور كل محاضرة تلقى بالشعبة ؛ وبناء على ما يكتبه هذا الخبير يأتي هذا المعاون في اليوم التالي ليحقق معنا ، وكنت استثقل هذا الرجل السمين ذا الكرش فكنت أصادمه وأتحده سواء في الشعبة أو في مكتبه في البندر ... وقد ذكرت اسم هذا الرجل ومواقفي معه هنا لأن مولفنا قد حدث لي مع هذا الرجل بعد خمسة عشر عاماً سيأتي الحديث عنه في حينه إن شاء الله .

ولا زلت حتى هذه الساعة أجهل الجهة التي كانت تخرص هؤلاء الناس علينا هل هي أوامر جكومية عليها ؟ وهذا مستبعد لأن الأوامر لا تخص شعبة دون أخرى . أم هو تحريض موصى من رجال الولد في عهد حكومة الولد ومن رجال الأحزاب الأخرى في أيام حكمهم .. ولكن هؤلاء الناس من الأمريتين كانوا دائماً يحسنون استقبالنا ولا نحس منهم بروح عدوانية .. أم أنها كراهية شخصية دفعت هذين الشخصين من رجال البوليس إلى تعدينا ؟ ..

رب ضارة نافعة :

كانت هذه المضايقات المستمرة والمصادمات المتتالية تترك في نفوسنا بعض المرارة ، مع أنها لم تكن تنتهي في كل مرة بأكثر من مشاجرة بيني وبين محمد أبو السعود سواء في دار الشعبة أو في مكتبه .. إلا أن هذه المضايقات كان لها فائدة لم نعرفها إلا بعد نحو عام .

ذكرت أن بوليس البندر وبوليس المركز كانا في مبنى واحد . وتبين لنا فيما بعد أن ضابطاً من ضباط بوليس المركز برتبة ملازم كان يراقب ما يحدث بيننا وبين هذا المعاون السمين ، وكان يسائل نفسه لم هذا التهمج المستمر على هؤلاء الشباب بغير جريرة ؟ ولم لم يسأم هؤلاء الناس هذا التهمج المتوالى دون هوادة فيتركوا الفكرة التي من أجلها يسامون هذا الظلم فيستريحوا من هذا العناء ؟ ...

وقد نقل هذا الضابط بعد ذلك رئيساً لنقطة بوليس «صفط الملوك» مركز إيتاي البارود .. وكانت الدعوة في ذلك الوقت قد سبقت إلى ما حول هذه المنطقة ووصلت إلى آل أبو رقيق في «المسين» عن طريق نجلهم صالح أبو رقيق الطالب إذ ذاك بكلية الحقوق بالقاهرة . وتعرف صالح على هذا الضابط في نقطة صفط الملوك ؛ .

وكأنما كان هذا الضابط أرضاً خصبة شديدة الخصوبة لا ينقصها إلا الماء لتنتب وتزدهر وتؤتي أثمارها ، وكان الماء هو هذه الدعوة التي احتضنها احتضان الأم لولدها الذي آب بعد غياب طويل ... ومنذ ذلك اليوم عاش هذا الضابط هذه الفكرة ، ونعم بها زمناً ، وشقى بها أزماناً ولكنه شقاء لم يستطع مع بالغ قسوته أن يمس القلب الذي لم تفارقه السعادة لحظة واحدة .

كان هذا الضابط هو الأخ الحبيب الأستاذ صلاح شادى ؛ الذي زرت في بيته في نقطة صفط الملوك في ذلك الوقت وقص على قصة مراقبته إيماناً في مضايقات المعاون محمد أبو السعود ، وأن هذه المضايقات كانت أول شيء شد انتباهه إلى هذه الدعوة ، وأحس معه أنها دعوة حق ... وقد تصادف أن كان عنده في ذلك اليوم زائر آخر عرفنا به فكان هو شقيق زوجته مدرساً للغة

الإنجليزية بالمدارس الثانوية بالقاهرة وكان هذا الزائر هو الأخ الأستاذ محمد فريد عبد الخالق الذى اقتنع بالدعوة وعاهد عليها وصدق ما عاهد الله عليه .

وقد أوليت الأخ صلاح شادى هذا الاهتمام لأن هذا الأخ قد نهض بأدوار خطيرة في الدعوة ما كان لينهض بها غيره . ولقى في سبيلها أشد ما يلقاه مؤمن على يد أعتى الظالمين وسنعرض إن شاء الله لهذه الأدوار في مواضعها .

نشر الدعوة بالبحيرة :

لم يكن بالبحيرة في ذلك الوقت شعب للإخوان إلا في دمنهور ورشيد والمحمودية وشبراخيت ، فرأينا أولاً أن نركز على تكوين شعبة قوية منظمة في دمنهور ثم نهضنا بنشر الدعوة في بلاد المحافظة فكاننا نخصص مساء يوم الخميس ويوم الجمعة كل أسبوع لزيارة مركز من المراكز حتى صار في كل مركز شعبة ثم انتشرت الدعوة إلى ماسوى ذلك من المدن والقرى .. وكان للأستاذ المرشد حنين شديد لزيارة شعب هذه المحافظة التى نشأ فيها وكان له ذكريات في كثير من مدنها وقرىها ... وأذكر بهذا الصدد أننا كنا نتنقل معه بين بلاد مركز كوم حمادة حتى وصلنا إلى قرية «عربتا» فقال لنا إنه بعد أن حصل على دبلوم مدرسة المعلمين الأولية من دمنهور عين مدرساً في مدرسة عربتا الإلزامية .

مناقشة حول الربا :

تعتبر دمنهور من أشهر بلاد القطر في تجارة القطن وحلجه وكان بها في ذلك الوقت ثلاثة عشر محلياً ... ورغب زملائي في العمل تأسيس رابطة لهم تودع أموالها في بنك بفائدة فلما عرضوا على المشروع رفضته لهذا السبب باعتبار هذه الفائدة ربا ...

وكننت مع بعض زملائي في زيارة صاحب أكبر محليج بالمدينة لسنائي: هل صحيح أنك تعتبر فوائد البنوك رباً فاجبت بالإيجاب فتعجب وقال وما حجتك في ذلك ؟ .. فقلت قول الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بيني من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فآذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » ومعنى هذا أنك إذا اقترضت إنساناً أو بنكاً مبلغاً من المال أو اقترضت منه فحين تسترد هذا المبلغ أو حين ترده يجب أن لا يزيد ملياً وأن لا ينقص ملياً .. وهل الربا إلا عقد ترتبط فيه الزيادة في المال بزيادة المدة ؟ ...

قال : إذا كان ماتقول صحيحاً فعنى ذلك أننى فى عملى أتعامل بالربا . فقلت له وهل هناك شك فى أن تجارة القطن فى بلادنا إنما تقوم على الربا ؟ قال : إنك تعلم مدى تمسكى بالدين ... ولو علمت بأن تعامل مع البنوك فى تجارة القطن رباً لتركت تجارة القطن ، ولكنك فاجأتى بشئ . لم أسمع من قبل وفى البلد علماء وأزهر .

قلت سأوضح لك الأمر بمثل واقعى : إذا حددت البورصة سعر صنف من أصناف القطن بأربعين ريالاً للقنطار ونزل فى مركز دمنهور مائة تاجر كل تاجر يعول بيتاً ويملك كل منهم ألف جنيه لشراء القطن من المنتجين ، وتوزعوا فى قرى المركز فنزل فى قرية منها خمسة تجار ، وعين أحدهم الأظطان وأعطى سعراً لها ثلاثة وأربعين ريالاً . ثم مر الأربعة الآخرون واحداً بعد الآخر فزادوا السعر الزيادة المعقولة فى حدود خمسة قروش لكل منهم فصار السعر الأقصى أربعة وأربعين ريالاً ، ومعنى ذلك أن هؤلاء التجار المائة سيشتري عشرون منهم عشرين صفقة وسيجتمع للواحد منهم برأس ماله حوالى مائة قنطار ، يستطيع أن يعلجها لحسابه ويبيعها معلوجة ويحضى منها ربحاً مناسباً يعيش به هو وأسرته عيشة كريمة وربما عاشت بجانبه أسر .

أما الذى يحدث الآن فعلاً ؛ فصاحب محلج مثلك رأس ماله مثلاً عشرة آلاف جنيه لو اشترى بها جميعاً قطناً زهراً فإنها لا تكفى لشراء أكثر من ألف قنطار . فإذا اشترى هذه الكمية ترك فرصة واسعة لمئات من صغار التجار أن يشتروا بجانبه ، ولكن الواقع المؤلم هو أنك لا تعتمد فى الشراء على العشرة الآلاف التى تملكها بل تذهب إلى البنك وتقرض منه بضمان البضاعة وبفائدة محددة فيضع البنك تحت يدك مائة ألف جنيه ، فإذا نزل هؤلاء المئات من التجار الصغار مشتريين فلن يستطيعوا منافستك فى أية قرية من القرى لأن مندوبك فى القرى سيعاون السعر رفعاً تقوى عليه المائة ألف جنيه ولا تقوى عليه الألف جنيه وبذلك يتعطل هؤلاء التجار ولا يجدون منافساً من طرق بابك والجو . إليك لتتخذ منهم عمالاً بأجر زهيد عندك .

وحسب الربا ظلاماً أنه يتقاضى على المئات الذين يريدون أن يعيشوا مجرد عيشة كريمة ليرفع على أنقاضهم فرداً واحداً ليعيش فى أعلى درجات الرفاهية .

فى قوة . تجربة ناجحة للدعوة

كان على الحكوى كما لدمت فى دمنهور ، وشادت الأقدار أن يكون رئيسى فيها رجلاً كبيراً لا يتعفف ، ومع أننى كنت حريصاً على أن لا أحتك به فإنه كان يعتقد أننى أطارد كالمثل الذى يقول : يكاد المريب يقول خذونى ... وقد عمل هذا الرجل بما له من صلوات مع الرؤساء الكبار على التخلص منى ففوجئت بعد سنة واحدة فى دمنهور بنقلى إلى قوة .

سافرت إلى فوة وذهبت إلى الخليج الذي سأكون مسئولاً عما يدور فيه من حمل ولما رأيت طريقة العمل فيه ومعاملة أصحابه لموظفي الحكومة المشرفين عليه فهمت لماذا اختار لي هذا الرئيس هذا الخليج بالذات ... عرفت أن ثلاثة عشر موظفاً من مصلحة القطن نقلوا إلى هذا الخليج قبل ولم يستطع أحد منهم أن يستمر فيه إلا عدة أشهر نقل بعدها على أثر ضربه ضرباً كاد يفضي به إلى الموت ... كان أصحاب هذا الخليج قوماً يريدون أن يرجعوا من أي طريق لا يبالون بشرف ولادين ولا قانون معتمدين في ذلك على انقطاع بلدتهم عن غيرها لسوء المواصلات كما أن الخليج يقع خارج العمران كما يعتسدون على فساد ذم الرؤساء واستعدادهم لقبول المنح والهدايا .

كنت في ذلك الوقت في سن مبكرة لم أجد الاثنين والعشرين عاماً ولم أكن جربت حقارة النفوس التي ووجهت بها لأول مرة وعلى حين غرة ولم أكن أتصور أن يكبد رجل لم احتك به ولم أنه بأذى لشاب مثلي في سن أحد أبنائه فيلقى به بين أنياب السباع ... أسلمت وقالت ولكن ذلك لم يكن ليؤثر في مباشرتي على فقد باثريه .. ومباشرتي على في مثل هذا الخليج لا تعني إلا شيئاً واحداً هو مصادرة أصحاب الخليج في مورد رزقهم الحرام ... ويبدو أن هؤلاء الناس لم يتعودوا على رؤية من يقف في طريقهم لأنهم تعجبوا أولاً ثم تقدم نحوي ابن صاحب الخليج وكان مديراً للمحليج ورفع يده مهدداً بصفعي ... وهنا ذهبت إلى مكتبي وكتبت استقالة والدموع تقطر من عيني وأرسلت الاستقالة إلى رئيسي .

وحضر رئيسي من دسوق وحاول إصلاح ما بيني وبين إدارة الخليج متوسلاً إليهم وعذراً إليهم من أن يصيبني ما أصاب الثلاثة عشر زميلاً من قبلي ومزق الاستقالة .

وهذأت نفسي إلى أنني قبل كل شيء صاحب دعوة ، وأن البيئة التي وجدت فيها في هذا الخليج مهما تلوثت به من مساوئ فإنها لا تخلو من خير ديني ، وعلى صاحب الدعوة أن يكشف عن هذا الخير وإلا كان فاشلاً أو كانت دعوته غير جديرة أن تكون دعوة إصلاحية ، ولما كانت دعوته مما لا يتطرق الريب إلى صلاحيتها فإنه هو الذي - إذا لم يستطع النفوذ بها إلى قلوب الناس على اختلافهم - يكون فاشلاً .

إن تجربتي في هذا الخليج قد أثبتت لي أن هذا الجنس البشري مهما تدنس وانحط إلى أسفل السافلين ، وفشلت في علاجه وسائل الإصلاح فإنه لا يستعصى على الدين .. وثبت لي أن بلادنا هذه لا تقاد إلى أعلى مراتب السمو والنبيل إلا عن طريق الدين .. وكل ما سوى ذلك من وسائل الإصلاح ليس إلا مضيعة للوقت وتبديداً للجهد ... محال أن يقاد الإنسان إلا من قلبه !!! ...

وحدثني عنها وفي ذكرها نفع كبير لمن يقرأها ، قال لي : كنت في شبابي من أقوى الناس بلية ، وابتليت بتعاطي الهواريين حتى أنحل جسمي إلى حد أنني صرت إذا هبت على الرياح أخشى أن توفني على الأرض ، وكنت في الصيف أنزع إلى الاسكندرية حيث لي بيت فيها ، وكنت خلال إقامتي في الاسكندرية أتردد على مقهى السنانية ، وكان صاحب المقهى يشتري لي الهواريين وكانت اللعبة بعشرين جنياً .. وفي إحدى المرات اشتري لعبة فلما رجعت إلى المنزل فتحتها وتعاطيت منها فلم أتأثر بها فعلمت أنها مفسوشة فرجعت بها إلى المقهى وأعطيت اللعبة لصاحب المقهى وذكرت له ما كان من شأنها ، فاستدعى الذي اشتراها منه وذكر له ما قلته بصدها فرد الرجل رداً فاحشاً ثم التفت إلي وقال : إذا ذكرت ذلك مرة أخرى عن بضاعتي فسأصفعك صفعاً أليق بك على الأرض . فكان تهديد الرجل إيائي أثر عميق جداً في نفسي وقلت لنفسي إن هذا الرجل صادق في كلامه فإنه إذا صفعني فإنه سيلقي بي على الأرض لأن جسمي لا مقاومة فيه ... يا للهوان إلى هذا الحد أصبحت تافها حتى إن مثل هذا الصعلوك يشتمني ويهددني ... وقررت في نفسي أمراً ... وهنا انبرى صاحب المقهى بماله من سطوة يدافع عني ويشيد بمكانتي ويهدد الرجل ويأمره بتغيير اللعبة المفسوشة في الحال فانصاع الرجل وأحضر اللعبة الحقيقية فأخذتها ووضعتها في جيبي وغادرت المقهى إلى المنزل .

قال لي : ودخلت شقتي واتجهت إلى المرحاض وأخرجت اللعبة وفتحتها وأفرغتها في المرحاض عن آخرها وشدت السيوفون ثم دخلت حجرة النوم وبدأت الآلام تتناوبني ، وكلما مر الوقت تضاعفت الآلام حتى صرت أصرخ كالجنون من شدة ماتمزقني الآلام ... وجاءوا بالطبيب فقرر أن تعاطي الهواريين وإلا فالموت ... فرفضت وآثرت الموت ثم جاءوا بأطباء آخرين فقرروا نفس القرار وأصررت على الرفض . وكانت الآلام تستبدني حتى أفقد وعي فأنزل من المنزل وأنا لا أحس بنفسي وأهيم على وجهي كالجنون حتى كان أهل يحدوني في بعض الأحيان على بعد أميال نائماً على «دكة» أحد البوابين .

ظلت هذه الآلام المبرحة نحو شهر ثم أخذت تخف شيئاً فشيئاً فقرر الأطباء أن أقضي شهراً في جهة خارج المدينة فاستأجرت مكاناً في المكس ومكثت فيه حتى اكتملت لي صحتي وعادت إلى عافيتي التي كنت أنعم بها قبل أن أبتلي بهذا «الكيف» الملعون .

وجدير بالذكر أن ننبه إلى أن «الهواريين» هو مسحوق أبيض مخدر يتعاطى عن طريق الشم بالأنف وهو أشد المخدرات تأثيراً وأخطرها سمية وأقواها استيلاء على مراكز الإحساس .. وهذه

الصبرية الواقعية تثبت أن العزيمة القوية قادرة على تهر أعتى العادات والكيوف مهما تمكنت من التلصص واستولت على مراكز الإحساس فيها .

وجاءني الشيخ صاحب المحلج في يوم من الأيام وقال لي : سأخبرك بشيء يسرك ، لقد امتنعت عن الخمر ... وبعد ذلك بفترة وجيزة أخبرني أنه امتنع عن الأليون ثم الحشيش ثم طلب مني حين أقوم لصلاة الظهر أن يصحبني فكنا نصل جماعة أنا وهو في مكتبه ، ورأيت في أحد أطراف فناء المحلج حجرة مهجورة مهدمة فسألت عنها فقليل إنها المسجد الذي كان من شروط الترخيص الحكومي بالمحلج أن يكون ضمن بنائه فبنى ولم يستعمل حتى تهدم . فأشرت على الشيخ أن يصلحه فأصلحه وورشه وكنا نصل فيه إذا وهو معنا كثيرون من الموظفين والعمال بالمحلج . وجاء ميعاد الحج فاستعد الرجل لأداء الفريضة وأداها ثم قام أهل فوة بجمع تبرعات لإصلاح دورة مياه مسجد أبي المكارم أكبر مساجد فوة فلما علم بذلك تعهد بأن يقوم بهذا العمل وحده وقد هدم هذه الدورة وأنشأ دورة أخرى على أحدث طراز كلفها خمسمائة جنيه .

خلاصة القول أن الرجل أجاب داعي الله بعد أن كان غارقاً في بحار الشر فكان برهاناً على أن الدعوة الإسلامية الخالصة هي وحدها العلاج الناجع لمجتمعنا ولعلاج غيرها .

الدعوة في فوة :

إذا أحببت أن تعرف معدن أهل فوة فحسبك أن تعلم أن الأستاذ حسن البنا هو من أهل فوة . ولد في شمشيره إحدى قرى مركز فوة ... نزلت هذا البلد الكريم ولم تكن الدعوة قد وصلت إليه بعد ، ولعل السبب في ذلك صعوبة المواصلات إليه في ذلك العهد .. وما كدت أتصل بأهل هذا البلد الكريم حتى أقبلوا على مستجيبين لدعوة الله وأنشأوا شعبة ضمت صفوة الناس شباباً وشيباً وزاولت جميع أوجه النشاط الروحي والثقافي والرياضي والعسكري ، وصار إخوان فوة مثلاً علياً في كل وجه من هذه الأوجه .

تجديد في أساليب الدعوة :

لم يكن بفوة في تلك الأيام أية مؤسسة من مؤسسات الترفيه ، فلا سينما ولا مسرح ... وقد رأيتها فرصة سانحة لنقل الأفكار الإسلامية إلى عقول الفلاحين وعقول الناشئة وأهلهم ، فصغت من أحداث نفى مشركي لريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولبنى هاشم في شعب من شعاب مكة مسرحية . وكنت من قبل قد وضعت أحداث معركة القادسية في مسرحية طويلة ، وكانت هاتان المسرحيتان باللغة الفصحى ، فرأيت أن أصنع بجانب ذلك مسرحية باللغة العامية لتخاطب عامة

الناس وجعلت هدفها معالجة مادرج عليه الفلاحون ، في ذلك الوقت من الاستدانة بالربا من اليهود الذين أنشأوا مكاتب في المدن ويعتقون بمندوبهم إلى القرى والعزب للإيقاع بهؤلاء الفلاحين العوام . ولما كانت مسرحية القادسية طويلة فقد اجتزأت بفصلها الأخير .

ولقد استغرقت وقتاً طويلاً في تدريب مجموعة من شباب الشعبة على التمثيل حتى أتقن كل منهم الدور الذي أسند إليه تمام الإتقان ... وعرض لنا بعد ذلك عائق ضخم وهو المكان الذي تمثل فيه هذه المسرحيات ... ولم يطل بنا البحث فقد خطر لي أن أعرض على الحاج محمد المصري صاحب المحلج . وكان الوقت في مقتبل الصيف وفناء المحلج خال من القطن — أن نستعمل فناء المحلج لهذا الغرض ، ورحب الرجل كل الترحيب .

وأقام الإخوان المسرح مستفيدين بأخشاب المحلج ، وأعلن عن الحفل وأقبل الناس عليه من فوة وما حوله من القرى بالألوف مما لم يكن يتسع له مكان آخر غير هذا الفناء المترامي الأطراف . ونجح الحفل بحمد الله وتوفيقه نجاحاً لم يخطر على بال أحد ، وتأثر الناس بالأفكار التي راوها وسمعوها وصارت حديثهم الذي يتحدثون به في مجالسهم .. وكان هذا الحفل سبباً في تعديل مسار كثير من الناس وسبباً في افتتاح شعب كثيرة .. وعلى أثر هذا الحفل أدى الشيخ محمد المصري فريضة الحج ورجع تائباً نقياً ..

بين حب الناس وحقد الرؤساء :

لقد كنت أنقل إلى فوة لم يكن إلا حقداً وظيفية من رئيس مارق ، ولما كان هذا النقل أثر سيء على الدعوة في البحيرة ، فقد ألح إخوان دمنهور على الأستاذ المرشد أن يعمل على رجوعي إلى دمنهور وقد فعل وجاء أمر النقل — ويبدو أنه كان صادراً من رئيس الوزراء — حيث كان هو وزير المالية — لأن أحداً من السادة الرؤساء الخاقدين لم يستطيع أن يضع في سبيله العراقيين ... والواقع أنني سررت به لا لشيء إلا لأتقهر رئيسي المارق في عمر داره في دمنهور .

ولكن الذي حدث أنني رأيت نفسي أمام مظاهرة من إخوان فوة — وما أكثرهم وما أحبهم إلى نفسي — ومن الحاج محمد المصري صاحب المحلج الذي ظن أن النقل طبعى من الحكومة فقرّر أن يذهب إلى الوزير لإلغاء هذا النقل ، فلما علم بأن النقل إنما جاء عن طريق الأستاذ المرشد ، قرر السفر إليه وحمل معه مجموعة من الإخوان وطلبوا إليه إلغاء النقل ، وشرح له الحاج محمد المصري حالته قبل وجودي بقوة وحالته بعد وجودي ... واتصل بي الأستاذ المرشد تليفونياً يسألني عن

وأي بعد هذه المظاهرة ولم يكن أمانى باعتبارى إنساناً يقدر الناس إلا أن أوافق على إلغاء النقل والبقاء بقوة ولد كان .

ولما جاء صيف عام ١٩٤٦ أتممت زواجى ولم أكن أعلم أن الرؤساء المارقين قد تواطأوا على مؤامرة مبيوكة الأطراف لنقل إلى جهة بعيدة ، وتم لهم ما أرادوا حيث نقلت إلى ديروط بمحافظة أسيوط .

عرض من الأستاذ :

وهنا عرض على الأستاذ المرشد أن استقيل من عملى بالحكومة وأتفرغ للدعوة بمرتب أكبر من مرتبى ، فطلبت منه أن يمهلى حتى أستنبر برأى والذى الذى سألته فقال لى : يا محمود لأن تعطى الدعوة خير من أن تأخذ منها فلما أخبرت الأستاذ بما قاله والذى وقع من نفسه أحسن موقع وقال «ذرية بعضها من بعض»

فى ديروط

كانت ديروط فى ذلك الوقت بلداً لا يزال أهلها يعيشون عيشة الجاهلية ، لكل فرد منهم يبيع كل ما يملك فى سبيل أن يستأجر لنفسه رجلاً أو أكثر مهمتهم أن يسيروا خلفه حيثما سار ، وأن يجلسوا حوله أينما جلس ، وكل منهم يحمل بندقيته على كتفه ؛ فالفقير يسير خلفه رجل واحد والمتوسط الحال يسير خلفه رجلان أو ثلاثة والثرى يسير فى موكب من هؤلاء السدنة والحراس الذين لا لزوم لهم ولا داعى إلا الظهور بمظهر العظمة والقوة المتكلفة المستعارة ... وكانت ديروط فى تلك الأيام أكثر بلاد القطر جرائم

سافرت إلى ديروط وتسلمت عملى بها وأنا أكاد أتميز من الغيظ من نجاح هؤلاء الرؤساء المارقين الذين أرادوا أن يتخلصوا منى ليستمتعوا بالكسب الحرام دون رقيب فقلدوا بى أولاً إلى قوة ، طناً منهم أنهم ألقوا بى بين برائن الأسد ، وكادوا يحققون أملهم بتركى هذا العمل نهائياً وقد استقلت فعلاً ولكن رئيسى المباشر ثنائى عن الاستقالة ، ثم رأوا وجودى بقوة منع عنهم مورداً حراماً كانوا يستمتعون به من وراء سلوك محلجها سلوكاً يخالف القانون ، وباهتداء صاحب المحلج إلى صراط الله المستقيم لم ير داعياً يدعوهُ إلى تقديم ما كان يقدمه إليهم .. فدبروا حين علموا بزواجى أن يقدفوا بى إلى أشد بلاد القطر إجراماً فى الصعيد لأمل واستقيل فيتحقق لهم ما يريدون .

ذهبت إلى ديروط وحدي دون زوجتي وأقت في فتدليها الكبير امام المحطة ، و كان دوره الرسى مطعماً ومقهى وكان بالمقهى «سلاحليك» أكبر من سلاحليك مراكز البوليس ، لأن زبائنه كانوا من هذا النوع المسلح اختيالا وتفاهراً وجاهلية . فكان الزبون إذا دخل المقهى يتابعه تناول عمال المقهى منهم السلاح وعلقوه بالسلاحليك ثم يسلمونه لهم عند خروجهم ... وكان عملي يقتضي أن أذهب إلى المحالج التي أشرف عليها صباحاً ومساءً حتى الساعة التاسعة مساء كل يوم ، ولما كانت المحالج خارج البلد نصحتني قوم من عقلاء البلد أن لا أذهب إلى على فترة المساء اتقاء الخطر ؛ وحدث فعلاً أكثر من مرة حوادث قتل في هذه المنطقة وبلغ من جرأة المجرمين أنهم كانوا يهاجون جنود البوليس في هذه المنطقة ويجردونهم من سلاحهم وعجز المركز عن مقاومتهم .

وبعد فترة قصيرة من وجودي بديروط فوجئت بزائر لم أكن أعرفه ولكنه عرفني بنفسه فإذا هو رئيسي مفتش مصلحة القطن في محافظة المنيا وأسيوط ، وعجبت حين رأيته يواسيني ، وقد لاحظت دهشتي فقال لي : لاتدهش فأنا مظالم مثلك ، أنا أقدم موظف في المصلحة وأعلام مؤملاً ولكني مثلك لا آكل الحرام — كان هذا الرئيس مسيحياً — فكان جزائي أن القوا بي هنا في هذه الوظيفة مع أنني قاربت سن المعاش ... وأنا سمعت عنك وأتابع أخبارك بحب وإشفاق ، فلما علمت أنهم قد ذلوا بك إلى أسوأ بلد في نطاق سلطة وظيفتي قدت إليك لأعرض عليك أقصى ما أستطيعه من تخفيف عنك في نطاق سلطتي وهو أن أنقلك إلى مغاغة التي تعد أرق بلد في التفتيش التابع لي وأقرب بلد فيه إلى القاهرة ... ولما كانت مغاغة ليست غريبة على فلي فيها إخوة أعزاء وذكريات كريمة رحبت بعرضه وشكرته عليه ...

كيف كانت تدار شئون الدولة :

وسافر الرجل وبعد يومين وصلني كتاب منه فيه القرار بنقل إلى مغاغة محل السيد (ع.ح) حل أن يتسلم الأخير العمل في ديروط وعلى أن يكون التنفيذ فوراً .. لم أكن أعرف السيد (ع.ح) هذا الذي سيحل محل وأحل محله ، وإن كنت أعرف مغاغة تمام المعرفة فلم يمس على فراق لها إلا سبع سنوات . وذهبت في اليوم المحدد إلى مغاغة فرأيت عجباً وسمعت عجباً ... العجب الأول أنني حين نزلت مغاغة اتجهت مباشرة إلى شريكى السابق وصديقي وأخى الأستاذ شلبي محمد جاد وكان في ذلك الوقت قد صار عمدة مغاغة ، فلتقاني أحسن لقاء ثم تحدثت معه عن سكن لي باعتباره أكبر مالِك للعقارات في المدينة ففوجئت بأن مغاغة ليس فيها حجرة واحدة . وقام معي فعلاً ومرورنا فأثبت مرورنا هذه الحقيقة المرة .

ثم رجعنا إلى مكتبه وجلسنا نتحدث وإذا بشخص يستأذن في الدخول فرأيت رجلاً يكبرياً جليلاً ، في سن تجاوز الخمسين وتشرف على الستين وعلى عينيه نظارة سوداء ، فسلم وجلس ، وكأنه كان يريدني دون الحاضرين فانتقل إلى جانبي وعرفني بنفسه فإذا هو السيد (ع.ح) الذي قدمت لأجل محله .

قال لي الرجل : لعلك فوجئت بلقائي إياك في هذا المكان ، فالمكان المجهود للقاء معك هو جهة العمل لتتم عملية التسليم والتسلم ؛ ولكنني لما علمت بأنك ستحضر إلى مغارة اليوم أيقنت أنك ستزول عند أخيك الأستاذ شلبي فحرصت على لقائك عنده .

قال الرجل : وسأكون معك صريحاً غاية الصراحة لأنني أعلم أنك لست كأي زميل حاول أن ينقل مكاناً ... وهنا عجبت لقوله إنه سيكون معي صريحاً كأن في الأمر شيئاً أنا أجهله . قال : إنني هنا منذ عشر سنين وقد حاولوا نقلني أكثر من مرة ففشلوا . قلت : إن هذا الكلام غامض فمن الذين حاولوا ولماذا حاولوا وما الذي يعنيهم من أمر نقلك بالذات وكيف فشلوا ؟ ..

قال : يا أستاذ محمود يجب أن تعلم أن كل زملائنا هنا في الصعيد يستفيدون من وظائفهم أكثر من أضعاف مرتباتهم ، وأنت الوحيد الذي أقر الجميع بترفعك عن ذلك - وشرح لي وسائل الاستفادة - ثم قال لي : إنني هنا في مغارة قد توطدت العلاقة بيني وبين أصحاب المحلجين فيها وأصبحت أعيش من أثر ذلك في رغد والحمد لله .. وإنني أعتبر نقلني من هنا قتلاً لي ، ولذا فقد ضحيت بالكثير وبذلت الكثير في سبيل إلغاء نقلني في كل مرة ، حتى إنني في المرة الأخيرة وكانوا قد أحكموا الخناق حول رقبتي اضطرت أن أبذل مبلغاً كبيراً في السراي (السراي الملكية) حتى صدر أمر منها إلى وزير المالية بإلغاء نقلني وكانت صدمة للذين وضعوا الخطأ .

ثم قال : لقد حدثتك بالحقيقة التي لم يكن أحد يعرفها ولم أحدث بها أحداً غيرك ، ومع ذلك فإذا قررت تنفيذ النقل فلن تلقى مني أية مقاومة لأنني لا أجرو على الوقوف في وجه رجل طاهر . وإن كنت أجرو على الوقوف في وجه الوزير نفسه ، وهؤلاء هم أبنائي (وأخرج من جيبه صورة لثلاثة أبناء في مختلف المدارس وفي الجامعة) ثم قام مستأذناً بعد أن عزم على أن أكون ضيفه تلك الليلة وانصرف وهو يكاد يبكي .

وبت تلك الليلة عند أخيك الأستاذ شلبي أكرمه الله فقد كان على العهد لم يتغير . ولأنني ما عرضته على في تلك الليلة وألح على في قبوله حيث قال : إن شقني التي أسكنها واسعة مكونة من ست غرف ، وسأقسمها بيني وبينك تأخذ ثلاث غرف وأنا أخذ الثلاث الأخرى . فشكرت له جميل عرضه الذي ذكرني بما عرضه الانصار على إخوانهم المهاجرين ... وقلت له : يا أخى

لقد عرفت اليلة من عمل الذى أنتسب إليه مالم أكن أعرف ، وسأسافر صبيحة غد إن شاء الله إلى المنيا لمقابلة المفتش الذى نقلنى إلى مفاغة وأعتذر إليه بأننى لم أعتز على سكن ، وأسأل الله تعالى أن يحفظ على إيمانى وسط هذه الفتن .

عرف الإنجليز عن ديننا مالم نعرف :

فى حلال الفترة التى أقتها بدىروط وحدى فى الفندق أشار على بعض الأصدقاء أن أودع نقودى فى صندوق توفير البريد حفظاً لها ... فذهبت إلى مكتب البريد - وكان معاون البريد صديقاً لى وكان شاباً طريفاً وكان مسيحياً - وقلت له إننى أرغب فى إيداع مامى من نقودى صندوق التوفير فسألنى : هل تريد استمارة للمسلمين أم استمارة بفوائد ؟ فلما سمعت هذا السؤال منه طننته بمنزح معنى لأنه يعرف أننى من الإخوان المسلمين فأراد أن يتندر بهذا الأسلوب ، فقد كنت أعرف أن البريد يغير المتعامل معه بين طريقتين : التعامل بالفوائد والتعامل بغير الفوائد ، وكان اعتقادى أن استمارة التعامل بدون فوائد مطبوع عليها «استمارة للتعامل بدون فوائد» حيث إن الأخرى مطبوع عليها استمارة للتعامل بفوائد : فقلت للمعاون : دعنا من المزاح وأعطينى الاستمارة المطبوع عليها «التعامل بدون فوائد» فرد على قائلاً : إنك حملت كلامى على محمل المزاح ... إنه ليس مزاحاً وناولنى الاستمارة فرأيت مطبوعاً عليها «استمارة للمسلمين» .

كان لهذا الحادث العارض فى نفسى تأثير عميق ودلالات مؤلمة ... وقلت لنفسى إن الذى أسس مصالحة البريد فى مصرهم الإنجليز وهم الذين وضعوا نظمها وأسساها وأساليبها ، ولا يزال العمل يدور بهذه المصلحة على نفس النظم والأساليب التى وضعوها .

فالإنجليز إذن قد فهموا من ديننا أن المسلم بحكم أنه مسلم لا يجوز له أن يتعامل تعامل مالياً مع أحد - ولو كان هذا الأحد مصلحة حكومية - بفوائد لأن الفوائد رباً والربا حرمه الإسلام وعلى هذا الأساس طبعوا نوعين من الاستمارات نوع بدون فوائد ونوعه «استمارة للمسلمين» ونوع آخر بفوائد وفى نظرهم أنه لغير المسلمين .

ثم باقى أكثر المسلمين متكرين لديهم متناسين أنفسهم معرضين عن الاستمارات التى أعدت للمسلمين متعاملين بالاستمارات الربوية ... لقد عرف الإنجليز عن ديننا مالم نعرف ، وقدرنا ولكننا احتقرنا أنفسنا .

النقل إلى دمنهور ثانية :

كانت الفترة التى قضيتها فى ديروط فترة غير مستقرة ، فقد كنت موزع الخاطر ، ثم

تخلل هذه الفترة شهور طويلة أصاب البلاد فيها وباء الكوليرا - أعادنا الله منه ولا أعاد أيامه ، وفي خلاله كان الناس يعيشون في خوف ، وتقطعت الصلات بين البلاد حيث أوقف سير قطارات السكة الحديد وغيرها من طرق المواصلات ، ومنع الانتقال من مكان إلى مكان حتى إنني حين أقبل العيد حاولت السفر إلى رشيد بالطائرة من أسبوط فقبل لي إن جميع الأماكن محجوزة لما بعد العيد بأسبوع ... وقد استضافني في أيام العيد الأخ الكريم السيد محمد حامد أبو النصر في منفلوط المتاخمة لديروط وبالغ في إكرامى أحسن الله إليه وعوضه خيراً عما ناله من ظلم كبير .

ولم ألبث بعد ذلك إلا قليلاً حتى نقلت إلى دمنهور ، ويبدو أن مما سهل نقلى هذا أن لهذه الأماكن النائية والبعيدة عن أعين الرقابة طلاباً كثيرين يتهافتون عليها .

ترشيح المرشد العام لمجلس النواب سنة ١٩٤٢

قد يبدو هذا العنوان كما يبدو العنوان الذى يليه في هذا الفصل وكأنهما دخیلان عليه ؛ إذ أن فيها احتكاً بالحكومات القائمة وقتذاك وقد يراها القارئ أليق بأن يلحقاً بالفصل القادم المخصص للعمل الوطنى منها بالإلحاق بهذا الفصل الذى يعالج العمل الداخلى ... ولكن القارئ سوف يقتنع بأنهما من صميم هذا الفصل حين يعلم أن هدف الأستاذ المرشد من وراء هذا الاحتكالك إنما كان تمهيد السبيل لتثبيت دعائم الدعوة في أنحاء البلاد ، وتأمين خطواتها في هذا السبيل حتى تستكمل كل وسائل القوة المعنوية والمادية .

ومن المسلم به أن أمة دعوة ذات أهداف نبيلة وبرامج إصلاحية تريد تحقيق هذه الأهداف والبرامج ينبغي أن يكون من وسائلها إلى ذلك العمل على الوصول بأعضائها إلى مقاعد المجالس التشريعية ، ولا يتأتى ذلك إلا بخوض المعارك الانتخابية ... ومن بدائه الأمور أنه كلما كان عدد النواب هيئة من الهيئات أكثر كان تحقيق آمالها أيسر ؛ ولكن الإخوان كانوا يعتقدون أن حصولهم على مقعد واحد في مجلس النواب كفى ليؤثر في هذا المجلس أبلغ التأثير إذا كان صاحب هذا المقعد هو حسن البنا ؛ ذلك أن لديه من قوة الشخصية والقدرة على الإقناع مع ما يتمتع به من روحانية لياضة وبلاغة آسرة ما يشد إليه الأسماع والعيون والعقول والقلوب ، وما يفعل في السامعين فعل السحر ... وقد استطاع بهذه المواهب النادرة أن يجمع حوله من الأنصار الذين يفتنون بدعوته بأموالهم ودمائهم مئات الألوف في أنحاء مصر وغير مصر من الدول العربية والإسلامية .

هذا اتخذ الإخوان قراراً بترشيح المرشد العام عن دائرة الاسماعيلية في الانتخابات التى

أعلنت حكومة الوفد إجرائها سنة ١٩٤٢ ... وإذا كان أعظم المرشحين لم يكن لتقدمه لترشيح من صدى إلا في دائرته التي ينتمى إليها ، فإن تقدم حسن البنا للترشيح كان له صدى يتروى في جميع محافظات القطر ومراكزه وحواضره وقراه بل وقد تعدى ذلك الصدى إلى خارج مصر ؛ ذلك أن في كل مكان من هذه الأماكن رجالاً ونساء يعتقدون الآمال للعريضة على هذا الترشيح .

وينبغي أن يكون مفهوماً أن ترشيح حسن البنا في دائرة الإسماعيلية ليس له إلا معنى واحد هو أنه من قبل أن تجرى انتخابات قد صار عضواً بمجلس النواب مهما نافسه في الترشيح مائة مرشح منهم رئيس الحكومة نفسه ، ذلك أن أهالي هذه الدائرة عن بكرة أبيهم رجالاً ونساء وأطفالاً يعتبرون ترشيح حسن البنا عندهم شرفاً لا يعادله شرف ، وأن انتخابهم إياه فريضة من فرائض الدين وقربة من أعظم القربات إلى الله عز وجل .

وهذه الحقيقة التي يعرفها أهل الإسماعيلية ويعرفها الإخوان في كل مكان ؛ ويعرفها الإنجليز أيضاً ، وإن كان يجهلها - حتى ذلك الوقت - فئات أخرى منهم حكام مصر ورجال الأحزاب المصرية الذين لم يستطيعوا أن يفهموا عن الإخوان المسلمين أكثر من أنهم جماعة تدعو إلى الدين الذي لا يخرج في تصورهم عن كونه طقوساً وعبادات ومحاربة للمنكرات بالوعظ والإرشاد ... بالرغم مما يبذله الإخوان من جهود لتوضيح فكرتهم عن الإسلام باعتباره ديناً ودولة ، وعقيدة وشرعية ، وبرنامجاً إصلاحياً شاملاً لجميع شئون الحياة

تقدم الأستاذ المرشد بطلب الترشيح إلى وزارة الداخلية كالمعتاد ... فما الذي حدث ؟ ... بعد أيام قلائل جاءه رسول من قبل مصطفى النحاس باشا رئيس الحكومة يدعوه لمقابلته وسأقل هنا نص ما جاء في تقرير الأمن العام عن هذه المقابلة وعن هذا الموضوع عامة وقد نشره في جريدة الأهرام في ١٤-٢-٧٥ الدكتور عبد العظيم رمضان مدرس التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة طنطا ضمن وثائق نشرها ، قال التقرير :

«لم يكذب ذاع خبر ترشيح الأستاذ حسن البنا ويدفع التأمين إلا واتصل به حضرة عبد الواحد الوكيل بك صهر حضرة صاحب المقام الولي مصطفى النحاس باشا ، وتكلم معه في موقف الإخوان المسلمين ، وطلب منه الرجوع إلى رفعة النحاس باشا لكي يكون رفعتة على بيته من أمرهم لأن رفعتة لديه فكرة غامضة عنهم .

وبعد بضعة أيام تلقى دعوة بمقابلة رفعة النحاس باشا ، وتمت المقابلة بفندق ميناهاوس ، وقد طلب منه رفعة النحاس باشا أن يتنازل عن الترشيح . وصارحه رفعتة أنه يطلب ذلك إيثاراً للمصلحة العامة ولمصلحته (أي مصلحة الأستاذ البنا) إن كان يريد الإبقاء على جماعات الإخوان

المسلمين في مختلف البلدان . فرفض ذلك وقال إنه يستعمل حقاً من حقوقه الدستورية ولا يرى ما يمنعه من الترشيح ، وإن كان هناك موانع فإنه يطلب بيانها لكي يتبين مبلغها من الصحة ، وفصلاً عن ذلك فإن قرار الترشيح صدر من هيئة المكتب العام لجماعة الإخوان ، وأنه شخصياً لا يملك الرجوع في ذلك .

فرجاه رفعة النحاس باشا أن يعمل على إقناع الأعضاء بالعدول عن ذلك ، وأن رفعتة رأى أن يدعو لينصح له بالتنازل وإلا اضطر إلى اتخاذ إجراءات أخرى يراها رفعتة قاسية ، ولا يرتاح إليها ضميره ، ولكنه حرصاً منه على مصلحة البلد مضطر إلى تنفيذها . ولما استوضحه تلك الإجراءات قال رفعتة إنها حل جماعات الإخوان المسلمين ونفى زعمائها خارج القطر ؛ وتلك هي رغبة هؤلاء الناس (يقصد الإنجليز) الذين بيدهم الأمر يصرفونه كما يرون ، ونحن مضطرون إلى مجاملتهم خصوصاً في هذه المسائل الفرعية ، وفي هذه الظروف العصبية ، لأنهم يقدرون على كل شيء ، وفي استطاعتهم إن شاءوا أن يدمروا البلد في ساعتين .

وقد ترك رفعتة فرصة للتفكير في الأمر ، وأن تم مقابلة أخرى في هذا الشأن ، وقد عرض الأمر على هيئة مكتب الإرشاد فلم توافق الأغلبية على التنازل ، ولكنه هو شخصياً وافق عليه لا خوفاً من النفي ولكن حرصاً على قيام الجماعة واستمرارها في تنفيذ أغراضها .

وأخيراً استقر الرأي على التنازل ، وتوجه مرة أخرى لمقابلة رفعة الرئيس بوساطة سليم بك زكي الذي بسط لرفعتة دعوة الإخوان ومدى انتشارها في المدن والأقاليم ، فانهز هذه الفرصة وطلب من رفعتة ضمانات بقيام الجمعية وفروعها . وعدم الوقوف في سبيلها - وعدم مراقبتها والتضييق على أعضائها لعدم من نشاطهم فوعده رفعتة بما طلب .

وقد أوردت ماجاء بتقرير الأمن العام عن هذه المقابلات لأنه هو فعلاً نص ماحدثنا به الأستاذ المرشد عقب رجوعه من كل من المقابلتين ، فقد كنا في ذلك الوقت في المركز العام ننتظر رجوعه على آخر من الجمر لأن موضوع الترشيح كان أمراً جوهرياً بالنسبة لنا وجميع الإخوان في أنحاء البلاد ، ولهذا فإنه رأى بعد أن قص علينا ماحدث أن تنتقل إلى الاسكندرية وطنطا وغيرها من العواصم ليقصه عليهم حتى يكون الجميع على صورة واضحة من الموضوع .

وموقف الأستاذ المرشد في هذا الموضوع كان أحد المواقف القليلة التي جاء رأيها النهائي فيها صدمة لمشاعر الإخوان وعواطفهم ، فما من أحد في أنحاء البلاد إلا وشعر بهذه الصدمة التي تمثلت لنا في صورة فرصة أفلتت منا إرادتنا ولو أننا تمسكنا بها لأفادت الدعوة منها أعظم فائدة .

ولم يسلم الإخوان للاستاذ المرشد بما طلبه إليهم ، ولم ينزلوا على رأيه إلا للثقة التي لا حدود لها فيه ، وللاطمئنان الكامل إلى اخلاصه ومقدرته وبعد نظره وحسن تدبيره للأمر .

وتقريراً للواقع أقول إن هذا الموقف الذي وقفه الأستاذ في هذا الموضوع - وإن كان قد جرعنا في أوله بعض المرارة - إلا أنه عاد على الدعوة بما لا حصر له من الفوائد ، وحسب القارىء أن يعلم أن قوة الإخوان المسلمين في ظل هذا الموقف وفي خلال أربع سنوات بعده قد تضاعفت أضعافاً كثيرة كما وكيفاً حتى صارت أقوى هيئة شعبية في مصر وفي البلاد العربية على الإطلاق .

ومع أن حزب الوفد الحاكم في ذلك الوقت كان حريصاً على أن يخرج من تجربته هذه مع الإخوان بكسب معنوى لحسابه ، فإن الإخوان قد خرجوا منها بمكاسب لدعوتهم لا يقاس بأدناها كسب الوفد - إن كان قد كسب شيئاً - فضلاً عما أشرنا إليه آنفاً من انفتاح كل الطرق أمام الإخوان ليث دعوتهم في كل مكان دون عوائق ؛ فإن هناك مزايا أخرى ما كانت لتنعجز وتتخذ سبيلها إلى واقع الحياة في مصر لولا هذين اللقائين اللذين تما بين الأستاذ المرشد والنحاس باشا وعلى رأس هذه المزايا .

- ١ - إحياء الأعياد الإسلامية لا سيما مولد النبي صلى الله عليه وسلم وجعله عيداً رسمياً للدولة وقد أصدر رئيس الحكومة حديثاً رسمياً مستفيضاً تحية لهذه الذكرى الكريمة .
- ٢ - إلغاء البغاء في أنحاء البلاد وكان وصمة عار في جبينها .
- ٣ - قانون بوجوب استعمال اللغة العربية في تعامل جميع الشركات والمؤسسات ومراسلاتها
- ٤ - تحريم الخمر - وإن كان التحريم قد اقتصر على المناسبات الدينية .
- ٥ - بذل جهد مشكور في وضع أساس إنشاء الجامعة العربية .

وقد كان الأستاذ المرشد قد أخبرنا فيما أخبرنا به عما دار بينه وبين النحاس باشا في هذين اللقائين أنه كان حريصاً أن يلقى في روع النحاس باشا أن تنازله عن الترشيح لابد أن يقابله ما يسد هذه الفجوة بعمل إسلامي تقوم به الحكومة يثلج صدر الشعب الذي كان يؤمل الكثير من العمل الإسلامي من وراء دخولي مجلس النواب. وقال له إن العمل الإسلامي الذي تقوم به الحكومة يقربها إلى نفوس الشعب ويرفع اسم زعامة الوفد .. وقد تعهد النحاس باشا بالتهوص بهذه المطالب . وقد وفي الرجل بتمهده . وقد ألقى عقب هذين اللقائين حديثاً ضمنه هذه المعاني التي اتفق عليها .

وعقب صدور هذا الحديث عن النحاس باشا تقابل عبد الواحد الوكيل باشا مرة أخرى مع الأستاذ المرشد واقترح عليه أن يصدر بياناً يسجل فيه أن التنازل قد تم احتراماً لقرار الوفد بترشيح

شخص آخر ويعلن فيه تأييده لسياسة الوفد في التعاون مع بريطانيا لتنفيذ معاهدة التحالف -
 فرفض الأستاذ المرشد ذلك واكتفى بذكر فقرات من خطاب النحاس باشا معلناً أن الإخوان
 عون له في سياسة الإصلاح الديني والاجتماعي .. ونشبت هنا نص هذا الخطاب الذي وجهه الأستاذ
 المرشد إلى النحاس باشا كما نشر بجريدة المصري يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٤٢ تحت عنوان :
 الإخوان المسلمون يستجيبون لنداء الزعيم - ويعلنون أنهم عون للحكومة في تحقيق برنامجها
 الإصلاحى

كتاب قيم من المرشد العام للرئيس الجليل

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس الحكومة المصرية .
 أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وأصل وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ،
 وأحييكم فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد
 فقد تحدثتم رفعتكم إلى الأمة المصرية حديثاً رائعاً جميلاً ، ضمتموه كثيراً من المبادئ القويمة
 والأمانى الطيبة التى يسر كل مصرى أن يحققها الله على يديكم ...
 فقد أشدتم بالصراحة والتعاون والإخلاص ، ودعوتهم الأمة إلى مصارحتكم والتقدم اليكم
 بالنصح ووددت أن تمتلئ صدورنا جميعاً بهذه المعاني السامية (فنحن أبناء أسرة واحدة هي الأسرة
 المصرية الكريمة) .

وقررتم رفعتكم أنه من دواعى سروركم أن نتعاون الأمة والحكومة في هذه الظروف الدقيقة
 في تنفيذ سياسة خارجية حكيمة ، وتصميم سياسة داخلية بصيرة ... فالواجب يقتضينا والمصلحة
 تدعونا إلى أن ننفذ بإخلاص وحسن نية أحكام المعاهدة التى وقعناها بمحض اختيارنا وملء حريتنا
 وقصدنا من ورائها سلامة استقلالنا القومى والاحتياط لمثل هذه الظروف العصبية .. كما أن الحكومة
 ساهرة على اتباع سياسة عمرانية عاجلة لخير الطبقات الفقيرة قبل غيرها .. ومن واجب الحكومة
 والبرلمان أن يضعوا في رأس برنامجهما درس المسائل الاجتماعية والسعى إلى حلها حلاً سريعاً حاسماً
 وقد أشرتم إلى التطور الجديد في حياة العالم كله تطوراً «هو مقدمة لتطور أعمق غوراً»
 وأبعد أثراً يجعل مظهر العالم في غير مظهره اليوم» .

ثم ختمتم هذا الحديث «بأن علينا أن نعبر الطريق المخوف بالمخاطر ، المحوط بالمكاره ،
 متعاونين متحدين مع الشعوب الشرقية وإخواننا أبناء العروبة الكريمة كالبنيان المرصوص يشد

التقوين الأستاذ أحمد حمزة فأدى الصلاة مع المصلين خارج الدار ، فكان منظراً إسلامياً ديمقراطياً واقعاً رؤية أصحاب المعالي الوزراء وهم بين الإخوان يؤدون صلاة المغرب في خشوع المؤمنين الصالحين ...

وبعد الصلاة جالس أصحاب المعالي الوزراء مع الإخوان فوق سطح الدار حول موائد الشاي والحلوى والمرطبات .. وافتتحت الحفلة بتلاوة آي الذكر الحكيم ثم ألقى الأستاذ أحمد السكري كلمة ترحيب وتلاه الأستاذ حسن البنا بكلمة أوضح فيها فكرة دعوتهم وأهدافهم .

وألقي بعد ذلك كل من أصحاب المعالي وزراء الزراعة والتقوين والشئون والتجارة كلمات مناسبة أشاروا فيها إلى مشروعات حكومة الوفد وعلى رأسها النحاس باشا وهي المشروعات التي تحقق الأغراض الإسلامية مثل إلغاء البغاء . وإحياء الأعياد الإسلامية وتحريم الخمر والموبقات وقانون استعمال اللغة العربية وغير ذلك من مقاصد حكومة الوفد .

ثم وقف الأستاذ أحمد السكري فشكر الوزراء على ما أبدوه في كلماتهم من استعداد طيب نحو تشجيع جماعة الإخوان المسلمين ورجاهم أن يبلغوا رفعة الرئيس تحيات الإخوان وأطيب تمنياتهم وأن يقدموا له باقة من كتاب الله وهي الآية الكريمة «ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور .

وانتهى الاحتفال في الساعة العاشرة مساءً

وقبل أن نصل في معالجة هذا الموضوع إلى نهايته ، لا يفوتنا أن نوجه إلى غمرات وردت في تعليق الكاتب الذي أشرنا إليه آنفاً فيما نشره بجريدة الأهرام في ١٤ - ٢ - ١٩٧٥ حيث شكك سيادته في صدور العبارات التي وضعنا تحتها خطأً مما نقلناه من تقرير الأمن العام عن النحاس باشا ، ولمخصها أن الإنجليز هم الذين طلبوا من النحاس باشا إرغام حسن البنا على التنازل وحسبنا في الرد على هذا المؤرخ الذي يستقى معلوماته من وثائق إدارة الأمن العام أن يطلب من هذه الإدارة وثيقة عما تم في ترشيح الأستاذ حسن البنا نفسه في نفس الدائرة في سنة ١٩٤٤ في أيام وزارة أحمد ماهر ، فإذا لم يعثروا على هذه الوثيقة ، فليذهب إلى الإسماعيلية ويسأل عشرات الآلاف من أهلها الذين حضروا هذه الانتخابات ولا يزالون على قيد الحياة لسمع منهم كيف تدخل الإنجليز بأنفسهم وبجيش احتلالهم المرباط في الإسماعيلية لإسقاط حسن البنا مما ستفصله في الصفحات القادمة إن شاء الله .

وسيادة المؤرخ كان مدرساً بجامعة طنطا حين أُرِخَ لهذا الموضوع سنة ١٩٧٥ ، وهذا المنصب يكون صاحبه عادة في سن تناهز الأربعين ، ومعنى ذلك أنه في أثناء هذه الفترة التي يؤرخ لها كان في عهد الطفولة .

ولكنه حين يؤرخ هذه الفترة يؤرخ لفترة شهدها جيل لا زال يعيش معه فكان عليه وهو مدرس للتاريخ المعاصر ويؤرخ لتاريخ معاصر أن يرجع إلى من عاصروا هذه الأحداث في مواقعها ، وهم لا يزالون على قيد الحياة بدلا من أن يقتصر في تاريخه على الوثائق التي لا يكتفى بها عادة إلا في التأريخ لأحداث طال عليها الأمد ولم يعد على قيد الحياة من يرجع إليه فيها . على أننا سوف نتناول تعليق هذا المؤرخ بمناقشة موضوعية في الفصل القادم إن شاء الله .

نقل المرشد العام الى قنا

أشرت في أوائل هذه المذكرات إلى أول بعثة أعدها الإخوان لحج بيت الله الحرام وكان الأستاذ المرشد على رأسها كما أشرت إلى المؤتمر الذي عقده الملك عبد العزيز آل سعود ودعا إليه عظماء المسلمين في حج ذلك العام وإلى حضور الأستاذ المرشد وإخوانه هذا المؤتمر بغير دعوة باعتبارهم مستمعين ، وإلى تقدم الأستاذ المرشد إلى المنصة بعد انتهاء الخطباء الأصليين من مختلف البلاد الإسلامية ، وإلى اكتساحه كل من تقدموه ، وحظوته وحده دون جميع الخطباء بإعجاب الحاضرين حتى إن الحكومة السعودية نشرت خطبته في جريدتها الرسمية الوحيدة في ذلك الوقت «أم القرى» ولم تنشر سواها .

بقي أن نذكر أن من بين الذين حضروا هذا المؤتمر - مدعوين من الحكومة السعودية - ومن بين الذين خطبوا فيه وكانوا موضع رعاية خاصة من جانب الحكومة لا باعتبارهم من كبار البلاد الإسلامية لحسب بل باعتبارهم أيضاً من كبار الكتاب والأدباء والخطباء «الدكتور محمد حسين هيكل باشا»

والدكتور محمد حسين هيكل باشا أديب من أديباء مصر ، وكاتب من أعظم كتابها ، وله مؤلفات بعضها روائع مثل قصة «زينب» وبعضها تاريخي وتحليلي مثل «حياة محمد» و «منزل الوحي» ، وهو من كبار رجال حزب الأحرار الدستوريين ، وتولى رئاسة الحزب فيما بعد ، وكان «رئيس تحرير جريدة «السياسة» اليومية الناطقة بلسان هذا الحزب كما كان يصدر بمجلة أسبوعية تجمع إلى السياسة الأدب واللغة والتاريخ وكانت تسمى مجلة «السياسة الأسبوعية» .

تولى هذا الرجل أول منصب حكومي له في تلك السنة (١٩٤٤) حيث أسندت إليه وزارة

المعارف العمومية ؛ وكأنما كان هذا الرجل يسر في نفسه أموراً لم يبد بها لأحد وأنه كان يطوى على أصفان كانت تعتمل في نفسه منذ سنين ولم يجد الفرصة لإصعاد زفراتها التي كانت تحرق قلبه ؛ فلما أتيت له الفرصة لم يستطع أن يحبس منها شيئاً فأطلقها سوداء قاتمة ، شوهاء بشمة .. وكأنما تذكر الرجل مواقف معينة - وإن كان قد طال عليها الأمد - إلا أنها لا زالت ماثلة في خاطره حائكة في صدره وإليك إيالة إلى هذه المواقف :

أولاً : موقف الأستاذ المرشد في مؤتمر مكة الذي نوهنا عنه آنفاً .

ثانياً : في خلال فترة العشرينيات والثلاثينيات كان اتجاه المثقفين اتجاهاً غريباً ؛ ذلك أن الطبقة الرائدة منهم كان أكثرها ممن تلقوا تعليمهم في جامعات أوروبا ، وهؤلاء هم الذين كان بيدهم توجيه الثقافة في مصر فنشأوا وكأنهم أجانب عن بلادهم وأهلهم ، وكان أول مظهر من مظاهر تأثيرهم بالغرب تنكروهم لدينهم حتى صار التسك بالدين وأداء فرائضه دليلاً في نظرهم على الجهل والتأخر والبعد عن الحضارة والثقافة ... ولذا كنت ترى المؤلفات تتناول ما يهم الغرب والغربيين أكثر مما يهم أهل البلاد ، وبمعنى أوضح كان الناس لا سيما القادة مفتونين بالغرب يكادون يحسون بالخزي والعار من انتسابهم إلى تاريخهم وقوميتهم ودينهم .

وكان من أوائل من تلقى العلم في أوروبا وعاد إلى مصر دون أن يفتن عن أصله ودينه محمد أحمد جاد المولى بك ، وكان المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف العمومية ، وقد وضع كتابين ، أولهما « محمد المثل الكامل » والآخر « محمد الخلق الكامل » تناول فيهما مواقف من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم منذ سعد العالم بولادته حتى لحق بالرفيق الأعلى أثبت بها أنه هو وحده الذي حقق المثل العليا التي طالما حلم بها الفلاسفة وتخللها الحكماء .

وعلى عكس ما كان يتوقعه أترابه ومعاصروه من قادة الثقافة في مصر صادف الكتابان قبولا في مختلف الأوساط المصرية والعربية ، وحظيا بانتشار واسع أسال لعاب هؤلاء القادة ، ناظرين إلى ما يجنى من وراء هذا الانتشار من ربح مادي وكسب معنوي .. وجرياً وراء هذا الربح بدأوا يفكرون في الرجوع إلى أصلهم ، والا نهاء إلى أرومتهم ... ولكن كيف يقتحمون هذا الميدان ؟ لم يقتحموه عن طريقه السوى ، ولم يلتقوا بأنفسهم بين أحضانهم كما يرجع الوليد العاق النائب إلى أحضان أمه وأبيه ، بل اقتحموه عن طريق ملتو كأنما لا يعرفون طريقاً يوصلهم إلى بيوتهم إلا عن طريق الغرباء الذين اتخذوهم أئمة .

أراد الدكتور محمد حسين هيكل أن يكتب في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكتب ؟ كان أحد المستشرقين الفرنسيين واسمه « ديرمنجهام » قد وضع كتاباً سماه « حياة

محمد» فطفق الدكتور هيكل يترجم هذا الكتاب وينشر كل أسبوع فصلا منه في مجلته «السياسة الأسبوعية» ويعلق عليه حتى إذا أتم ترخبة الكتاب ونشره في المجلة معلقاً عليه، جمع ما نشر من أصل وتعليق في كتاب أخرجه بنفس الاسم .

لقى الكتاب رواجاً . والكتاب قيم في أسلوبه وطريقة عرضه للأحداث ومعالجته للمواضع وتحليلها... وقد نفذت طبعته الأولى لأول ظهورها، لكن في الكتاب مغمزاً لا يدركه إلا الراسخون في العلم وقد أدركه الأستاذ المرشد وعلق عليه في أحاديثه الخاصة والعامة وفي مجلة الإخوان المسلمين؛ ذلك أن الدكتور هيكل اقتدى بالمؤلف الفرنسي فيما جرت عليه الحضارة المادية الغربية من إخضاع كل شيء للمقاييس العلمية التي هي نفسها المقاييس المادية مما يطلقون عليه اصطلاح «العلم التجريبي» .. وهذه المقاييس إن صحت في كل ما يتصل بالمادة بسبب فإنها لا تصالح أن تكون مقياساً لما هو وراء المادة؛ وهو الجزء الأعظم والأهم الذي يقوم على أساسه الدين .. وقد سبق أن أشرنا إلى هذه النقطة فيما كان من حديث بين الأستاذ المرشد والدكتور طه حسين .

إن الأساس الأول في الدين هو الإيمان بالغيب، وهو أول صفة للمتقين جاءت في مستهل سورة البقرة «ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب» والغيب هو ما وراء المادة أو ما لا يحيط به العقل البشري، وما لا تدركه الحواس الخمس... ومعجزات الأنبياء من هذا الباب . ومن الخطأ إخضاعها للعلم التجريبي، وهو أشد خطأ من قياس الضوء بالمقياس الذي نقيس به القماش مثلاً، مع أن كلاً منهما مادة؛ فما بالك بما هو ليس بمادة؟ ..

ومن هنا أعرض الدكتور هيكل عن معجزات النبي صلى الله عليه وسلم جميعاً ولم يستثن منها إلا القرآن الكريم... نعم إن القرآن هو أعظم المعجزات لكن هذا لا ينفي أن هناك معجزات أخرى ثابتة بصحيح السنة لا يجوز إنكارها وقد يكون في إنكارها مساس بصميم الإيمان .

أراد الأستاذ المرشد أن يلفت النظر إلى هذا الخطأ الكبير الذي وقع فيه الدكتور هيكل، ووقع فيه عن عمد وإصرار حيث سجل في مقدمة كتابه تقييده بالأدلة العلمية التجريبية.. فأعلن الأستاذ المرشد عن حفل تكريمي للأستاذ محمد أحد جاد المولى بك لكتابه «محمد المثل الكامل» في دار المركز العام ودعا إليه كبار المشتغلين بالأدب والعلم من العاملين في حقل الدعوة الإسلامية.. وفي هذا الحفل، وفي حضور هذا الجمع المتقني وفي مقدمتهم المكرم؛ أعطى جاد المولى بك حقه من الاحتراف والتكريم باعتباراه الرائد الأول وصاحب اللواء الذي التحم حملوكه الظلام وأضاء مصباحه المتبليج جنبات الميدان فهرع من خلفه مهتدين بمصباحه—الجميع حتى المترددون والمعرضون وتحدث الأستاذ المرشد عن المعجزات وأفاض فيها وعن المادية الغربية وانتان كتابتها....

أنا لم أحضر هذا الحفل لأنه أقيم قبل أن أتعرف على الإخوان ، ولكن الأستاذ المرشد حدثني عنه حديثاً مستفيضاً ... ولم يكن يخطر ببال أحد أن هذا النقد الموضوعي البريء سيحمله الدكتور هيكل في نفسه ويدخره ليوم هو في عرفه يوم الانتقام .

ثالثاً : الدكتور هيكل صحفي بنى مجده على الصحافة والتحرير ، ومجلة «المنار» كانت تعتبر في العرف الصحفي في ذلك الوقت قمة من قم الصحافة المصرية وحدها بل العربية أيضاً التي يشرف صحفي مثل الدكتور هيكل أن تنشر له مقالا ... ثم يرى الدكتور هيكل - وقد اعتلى متن وزارة المعارف العمومية - مدرساً في مدرسة ابتدائية عنده يرأس تحرير هذه المجلة الشاذلة ... ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل يترطه الشيخ المراغي شيخ الأزهر تقريراً لا يطمع هو أن يحظى بكلمة واحدة مما جاء به ، ثم يصدر هذا المدرس المجلة الشاذلة ويحورها كلها تقريباً يقلمه فيرفقها إلى القمة التي كانت عندها أيام صاحبها ... أجيح هذا نار الحقد التي طوى الدكتور هيكل ضلوعه عليها .

رابعاً : هذه المواقف الثلاثة لا تمس إلا الدكتور هيكل وحده ؛ لكن هيكل لم يكن يستطيع أن ينتقم لنفسه إذا لم يصادف الانتقام هوى في نفس الحكومة القائمة بأسرها .. وقد كان هذا الهوى معتلا في نفس الحكومة ؛ فإنها كانت حكومة الأحزاب الشكولية التي لا قاعدة لها في الشعب ، ولا تستند إلا إلى القصر الذي يتخذها مطية إلى مطامعه . وهذه الأحزاب أشد حنقا على الإخوان منها على الوفد ، لأن الوفد حين يفار من الإخوان يحاربهم بنفسه لأنه حزب شعبي له قوة ذاتية ، أما هؤلاء الشراذم من الباشوات خدام القصر ومن هم من وراء القصر ، فإنهم لا شعبية لهم ، فليس لهم قوة ذاتية يحاربون الإخوان بها نداءً لند ، وإنما يستعدون عليهم القصر والإنجليز . وشتان ما العدوان .

وسط معمعان العمل الدائب في المركز العام الجديد بالحلمية الجديدة ، ووسط البحر الخضم بدعوة الله ، مبايعة على الإيمان والجهاد .. وسط هذا الجد كله فوجئنا بقرار هازل يجيئنا من الحكومة التأقية بتوقيع وزير المعارف هيكل بنقل الأستاذ المرشد إلى قنا على أن يكون التنفيذ فوراً ... والقرار تفوح منه رائحة الحقد الدفين التني .

ورد الأستاذ المرشد فوراً على حامل القرار بالرفض ، ووقف الإخوان جميعاً من وراء هذا الرفض متحدين ما تصنعه هذه الحكومة الحقيرة التي يرأسها أحمد ماهر الذي تلقى أضواء على شخصيته بعد قليل إن شاء الله ... وكان حامل القرار قد أبلغ الأستاذ المرشد بأن مجلس الوزراء قرر حل الإخوان إذا لم ينفذ الأستاذ قرار النقل ... وكنا إذ ذاك في أواخر سني الحرب العالمية

الثانية والأحكام العرفية سيف مصلحت في يد الحكومة ... ومع ذلك قرر الإخوان تحدى الحكومة والوقوف في وجهها ... وتواردت أفواج الإخوان من جميع نواحي القطر تعلن ولائها وولولها وراء الأستاذ المرشد مهما كلفها ذلك .

ورأت الحكومة النافذة هذه السيول الجارفة من الإخوان ، ولحمت في أعينهم أمارات الجدد والاستعداد ، وأحسست بأن الأمر أخطر مما كانت تعتقد ، ورأت أن مصلحتها في التمهقير.. ولكن تمهقيرها بعد إقدامها على القرار المتهوس ليس أمراً ميسوراً بعد أن شاع وذاع وأصبح على كل لسان ... فلم تجد وسيلة أمامها لحفظ ماء وجهها إلا توسط رجال يعرفون أنهم أثيرون لدى الأستاذ المرشد ، ، وكان هؤلاء أكثر من رجل أذكر منهم الآن الأستاذ الشيخ رضوان السيد وكان من العلماء وكان عضواً في مجلس النواب وعضواً في حزب الأحرار الدستوريين وكان صديقاً للأستاذ المرشد ، وأسرة الشيخ وبلده من الإخوان ... وقد تردد هذا الرجل في تلك الفترة العصبية على المركز العام مرات كثيرة مما ذكرني - وأنا أكتب هذه السطور - بما نقرأه في أيامنا عن سياسة «المكوك» التي يقوم بها وزير خارجية أمريكا «كيسنجر» في المفاوضات بين مصر وإسرائيل .

وكان الذي يحمله هؤلاء الوسطاء هو ما يشبه الاعتذار ينقلونه عن رئيس الوزراء بأن هذا القرار صدر خطأ وأنه يخشى إن أعلن في الحال رجوعه عنه وبمجه أن يذهب هذا بهيبة الحكومة أمام الرأي العام ، لهذا فهو يلتبس أن يعينه الأستاذ البنا على تلافي الخطأ بطريقة تحفظ كرامة الحكومة وذلك بأن يقبل تنفيذ القرار لمدة شهر واحد يعود بعده إلى مكانه .

ومضى على قرار النقل الفوري أكثر من أسبوع والإخوان مع كل هذه الوساطات مصرون على الرفض ، مستعدون للتحدى .. وصار مركز الحكومة في حرج شديد ، وهنا دعا الأستاذ المرشد إلى إجتماع للإخوان في المركز العام كان أشبه بإجتماع الهيئة التأسيسية موسع بعض التوسيع وتناول الموضوع وتطوراته وقال إنه في خلال هذه الفترة بعد صدور القرار ومقابلة الوسطاء وتقليبه الأمر على مختلف وجوهه خرج برأى قد يكون مفاجئاً لمشاعر الإخوان هو أن ينفذ قرار النقل وأخذ في شرح رأيه فقال :

أولا : إن صدور قرار النقل مقترناً بالتهديد بالحل ، وقرعائنا الكثير لأنه كشف لنا عما تكنه صدور هذه الأحزاب الشكلية من كراهية وحقد . والدعوة في حاجة إلى أن تعرف أصدقاءها وأعداءها ومدى ما يمكنه كل منهم لها من حب وبغض .

ثانياً : أن هذا القرار قد كشف لم عن مدى تضامنتنا ومقدار قوتنا مع أننا لا نزال في أول الطريق ، كما كشف لنا عن مدى ضعفهم وتخاذلهم مع أنهم في قمة السلطة .

ثالثاً : أن أحزاب الأقلية هذه إنما تعتمد في وجودها على الملك ، وأن اتصال هذه الأحزاب بالملك لا يزيده إلا فساداً ، وهم يعملون على عزله عن الشعب حتى لا يرى غيرهم أمامه ، ومن مصلحة الملك وبالتالي من مصلحة الشعب أن تتاح له فرصة رؤية الإخوان المسلمين باعتبارهم الهيئة الوحيدة التي لا تسعى إلى تحقيق مطامع شخصية ، فهي وحدها القادرة على تقديم النصيحة له وبصلاح الملك تصلح البلاد .. وقد كان في سخط هذه الحكومة أن تصدر قرار النقل ويتم التنفيذ في يوم وليلة دون أن تثار ضجة فيشغون بذلك غليلهم دون أن يصل شيء إلى مسامع الملك ولكن الأمور جرت على غير ما يمحون وكانت ضجة وصلت إلى كل مسمع ... ومن المصلحة والأمر كذلك أن لا يظهر بمظهر المتعنت . بعد أن أحس الجميع بقوتنا حتى لا يجد هؤلاء فرصة لنشوبه موقفنا .

رابعاً : ليس هدفنا هو منازلة أحزاب الأقلية ، ولا ينبغي لمناوشات جانبية أن تلتفت لها فيشغلنا ذلك عن المعركة الكبرى التي نعد لها ، ويجب أن ندخر لها كل قوتنا ، ولا نبدد شيئاً منها أمام الإثارات والاستفزازات .

خامساً : إننا في حاجة - لتأمين خطواتنا القادمة في الدعوة وهي خطوات هامة وخطيرة - إلى فترة تكون فيها بمنأى عن الرقابة البوليسية بمختلف أسمائها ، التي تلاحقنا في كل وقت وفي كل مكان ، ولن يتأتى لنا ذلك إلا بظهورنا بالمظهر السلمي الذي قد يبدو أن فيه مساساً بكرامتنا لكن وراءه الخير الكثير للدعوة ، ولن ننسى في موقفنا هذا معاهدة الحديدية التي أخفت وراء بنودها - التي أغضبت كبار الصحابة - كل ما سجله الإسلام بعد ذلك من انتصارات وفتوح ... وذكر الأستاذ المرشد أن من ضمن التمهيدات التي قطعتها الحكومة على نفسها - ونقلها إلينا الوسطاء إذا أُنزلت التنفيذ أن يرفعوا عنا الرقابة البوليسية .. وقال الأستاذ المرشد : وأنا لا أتصور أن يرفعوا عنا الرقابة نهائياً ولكن قد يخفصونها وهذا يكفيني .

سادساً : أن الصعيد الأعلى - لبعد المسافة وسوء المواصلات - لم ينل حظه من عناية الدعوة ، ولعل هذه فرصة أتاحتها الله لتدارك ما فات من حق هذه البقعة العزيزة من البلاد .

وكانت المجموعة التي أسر إليها الأستاذ المرشد بهذه الكلمات البالغة الأهمية هم صفوة الدعوة . ومع أن حججه كانت مقنعة عقلاً ، فإن عواطفهم المتأججة لم تتحمل أن ترى الأستاذ ينزل على

أمر الحكومة لبدا أكثرهم وقد انفجر في البكاء ... فكان هذا من الجنود هو الموقف المذلل
الأسى ، كما كان من القيادة الموقف الذى وضع فيه أن هذه القيادة ليست من الطراز الذى
تسوقه الجماهير وتجتاحه العواطف ، وإنما هى القيادة الموهوبة الواسعة الأفق النافذة البصيرة ،
التي لا تبطل الهزيمة المؤقتة مسيئة مرارتها وباحتياها لا رغما عنها لا أنها ترى في انسحابها هذا
أمام عدوها فرصة لها تتمكنها من القضاء عليه .

ولا أستطيع أن أنكر أننا جميعاً كنا فيما يشبه المأتم بعد أن حدثنا الأستاذ حديثه هذا ، ولكن
ثقتنا فيه واقتناعنا بقدرته على الرؤية البعيدة المدى . وتناوله الموضوع تناولا كأنما اخترق فيه
حجب الغيب ، كل ذلك لم نملك معه إلا الموافقة والتأييد .

وأعد الأستاذ نفسه للسفر ، وقد استخلف في هذه الغيبة الشيخ الباقورى ، ولم يبين لماذا
استخلفه في هذه المرة دون غيره ، ولكن الحكمة في ذلك لم تكن خالية علينا ولا على الشيخ الباقورى
فقد كان الأستاذ المرشد يريد أن يشعر هذه الأحزاب الحاكمة بمنتهى الأمان من جانبه ، وبالتعبير
الدارج كان يريد أن «ينومهم» فالشيخ الباقورى موضع ثقة منه ، وهو في الوقت نفسه صهر
الشيخ محمد عبد اللطيف دراز الذى كان في ذلك الوقت من كبار رجال أحد حزبي هذه الوزارة
وإن لم يكن عضواً رسمياً في الحزب .

وسافر الأستاذ المرشد إلى قنا ، أو قل انتقلت الدعوة إلى قنا .. ومع أنه كان يتردد على
القاهرة إلا أننا لاحظنا أن هذه المنطقة من مصر العليا صارت تحتل من تفكيره واهتمامه الجزء الأكبر
فقد أخبرنا في أول مرة حضر فيها إلى القاهرة أن هذه البلاد في أمس الحاجة إلى دعوة الإخوان ..
فأكثر المسامين في هذه المنطقة يسيطر عليهم الخمول والكسل مما جلب عليهم الفقر ونشر بينهم
الجهل والمرض نصاروا وكانهم عالة على غيرهم ... وقال لنا : إننى سافرت إلى هذه البقعة وأنا
على عزم أن أمكث فيها الشهر الذى تم الاتفاق عليه مع الحكومة ولكننى بعد أن رأيت حالة المسلمين
فيها فلن أغادرها إن شاء الله حتى أصل هؤلاء المسلمين بدينهم ليصبحوا مثلاً كريماً في النشاط والعمل
والإنتاج والعلم والابتكار .

ومضى الشهر ، وانتظر المسئولون في الحكومة أن يستنجزهم الإخوان وعدهم فلم يجدوا ..
وجاء الوسطاء والتفتوا بالأستاذ وأخبرهم بأنه لا يريد الرجوع الآن . فأسعد ذلك الحكومة أيما
إسعاد .. وظل الأستاذ في قنا شهراً بعد شهر وإذا بهذه المنطقة من البلاد التى تضم محافظتى قنا وأسوان
لقد دبّت الحياة في أوصالها وهبت من رقادها ، والتهب شعور هؤلاء الخاملين ، وفهموا الإسلام
على حقيقته فأنشأوا المنشآت وأقاموا العمارات ، وافتتحوا المدارس ، وأقبلوا على العلم ، وواصلوا

الليل بالنهار في العمل ، كأنما كانوا مارداً نائماً تحت أطياف الثرى فقام ينفض عن نفسه أثقال ما هيل فوله من تراب وانطلق يهرس ما فاتة ...

ولما كانت الفئات الأخرى من غير المسلمين في هذه المنطقة قد أثرت وتأثرت من وراء حمول المسلمين وجهلهم وتخلفهم ، وصاروا سادة المنطقة على حساب خنوع المسلمين ولقرهم وتقاعسهم لقد فوجئت هذه الفئات بالمسلمين وقد تبدل كسلهم نشاطاً ، وحمولهم حركة ، وتقاعسهم عن العمل دلوياً ، وتحجر عقولهم إنتاجاً وابتكاراً ، وتفرقهم اجتماعاً ، وتشاحنهم فيما بينهم حياءً وتضامناً ، ونفورهم من العلم إقبالاً عليه وتسابقاً إليه ، ورضاهم بالفقر انبعاثاً في طلب الفنى من أكرم سبله. فوجئوا بذلك ، وهالهم ما رأوا من تبدل حال بحال مما يشبه فعل السحر ... فخولوا على ما حققوا من مراكز مالية وأدبية في غفلة مواطنهم المسلمين ، وأملوا في الاحتفاظ بهذه المراكز - وقد علموا أن شيئاً لم يطرأ على المسلمين في بقعهم فقيرهم هذا التغير ، ونقلهم هذه النقلة التي هي أقرب إلى الخيال ، إلا وجود هذا المدرس الذي نقل إلى بلدهم منذ بضعة أشهر ...

إذن ، فلا بد - تداركاً للأمر - من السعى لدى المسئولين بالقاهرة لنقل هذا المدرس من إقليمهم إلى جهة أخرى ، لأنهم تصوروا أن هذا الرجل إذا طالت إقامته في بلدهم فسيفضي على مجدهم ويصنف مراكزهم ... وإنهالت الشكاوى من وجود الأستاذ البنا تطلب من الحكومة نقله ، وقامت الوفود من الفئات ذات النفوذ وسافرت إلى القاهرة طالبين من المسئولين الفؤث بنقل الأستاذ البنا ... وعلم المسلمون هناك بذلك فقامت المظاهرات تطالب ببقائه بينهم ، فصارت الحكومة مرة أخرى في موقف لا تحسد عليه ... ما كادت الحكومة تمر لغياب الأستاذ البنا عن القاهرة ورضاه بالبقاء في هذا المنفى الذي اختاروه له حتى فوجئت بعد بضعة أشهر بقوى ذات نفوذ تطالب بإلغاء نقله إلى قنا ، وبقوى شعبية عارمة يخشى بأسها تطالب بإبقائه بقنا ... ولم تستطع الحكومة اتخاذ أى إجراء لأنها لا تقوى على الوقوف في وجه قوى النفوذ من أهل قنا ولا على مواجهة جموع شعب قنا فلم تجد أمامها من سبيل للمرة الثانية إلا اللجوء إلى الأستاذ البنا لأنه هو وحده الذي يستطيع أن ينقل الحكومة من حرجها .

واستجاب الأستاذ لرجاء الحكومة ، وقبل الرجوع إلى القاهرة وتكفل بإرضاء هذه الجموع الشعبية الثائرة .. وقد كان .. ورجع إلى القاهرة بعد أن رد الروح إلى الجسد الإسلامى الذى كان هامداً في هذه البقعة العزيزة من البلاد .

الفصل الثاني

في العمل الوطني في ظل الحرب العالمية الثانية

كان العمل الوطني دائماً في الدعوة يسير جنباً إلى جنب مع العمل في البناء الداخلي ، وما قدم أحدهما على الآخر إلا لظروف تدعو إلى ذلك ، فخلال الحقبة من الزمان التي ظلت نيران الحرب العالمية الثانية مشتعلة الأوار لم تكن فرصة العمل الوطني متاحة ، فأذهان الناس في جميع شعوب الأرض مشغولة بأنباء الحرب منفعلة بأحداثها ومواقفها ، مرتعدة خوفاً من شبح وصول طغيانها إلى بلادها ، وكل قضايا الشعوب ومطالبها وخلافاتها كلها وضعت على الرف حتى تنقشع سحائب الهول التي أظلت العالم كله .

ورأى الإخوان أن خير ما تستغل فيه هذه الحقبة أن تستغل في إرساء بناء داخل راسخ للدعوة في قلوب الشعب في مختلف الأنحاء ، وإن اقتضى ذلك التناهي عن مواقف عارضة في الطريق ربما وسمت الدعوة من أجلها بسمة الضعف والانهزام ، وقد أشرنا في الفصل السابق إلى موقفين من هذه المواقف وكشفنا النقاب عما كان وراءهما من كسب للدعوة في الميدان الذي تريد أن تفرغ جهدها له وتبذل كل ما في وسعها لتأمينه وتثبيت أركانه .

ومع ذلك فلم يتوان الإخوان لحظة في أي وقت من الأوقات عن إجابة داعي الوطنية بكل ما يطلبه ذلك الداعي من جهود ، وسرى في هذا الفصل إن شاء الله كيف كان الإخوان دائماً عند حسن ظن ذلك الداعي .

وقد بدأت الحرب العالمية الثانية في أواخر عام ١٩٣٩ ووضعت أوزارها في سنة ١٩٤٥ ، وفي خلال هذه السنوات الخمس حدثت تغيرات كبيرة في مصر وفي العالم أجمع .. وكان الأستاذ المرشد في أوائل أيام هذه الحرب كثير الإشارة إلى أهمية سنى الحروب وإلى عمق تأثيرها في كل شيء ، ويحذرننا من التباطؤ في ملاحقة أيامها ويقول : إن سنوات الحرب وإن كانت عادة لا تتعدى عدد أصابع اليد فإنها تطوى الزمن طياً ، فيتم من التغيرات في خلالها ما لا يتم في مائة عام . ويحثنا على مضاعفة الجهد حتى لا نرخذ على غرة عندما تنتهي الحرب فنجد أنفسنا متخلفين .

ولقد كان حديث الأستاذ المرشد في هذه الناحية على كثرة ما رددته على أسماعنا غريباً لا نكاد نفهمه، ولكننا مع ذلك كنا نستجيب له ومن ورائه في العمل المتواصل الذي لا يهدأ ليلاً ولا نهاراً. ولم نفهم معنى ما كان يحثنا عليه وما كان يحذرنا منه إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها ووقفت كل هيئة عند الخط الذي وصلت إليه فوجدنا أنفسنا في المقدمة سابقين سبقاً عظيماً. فحمدنا الله على هذه القيادة البصيرة التي قطعت بنا مسافة ما كنا نقطعها في أربعين عاماً قطعها بنا في أربع سنوات ومن قبل قالوا «في الصباح يحمد القوم الممرى» .

جبهة لإنقاذ البلاد

ظل الإنجليز في مصر نحو أربعين عاماً ، ودينتهم التسوية والمطالبة ، لا ينتهون مع مفاوضات المصريين إلى نتيجة قاطعة ، ولا إلى حل فاصل .. لكنهم في سنة ١٩٣٦ خرجوا عن طبيعتهم ، وطلبوا من مصر وفداً مثلاً للبلاد ليعقدوا معه معاهدة ، وكان بنود هذه المعاهدة كانت معدة لديهم فأكاد الوفد المصري يصل إلى لندن حتى وقعت المعاهدة .

والمعروف عن السياسة الإنجليزية أنهم بعيدو النظر . يعدون العدة لأمر قد لا يراها غيرهم ، ثم تقع هذه الأمور فلا يؤخذ الإنجليزية على غرة . ولم ينتبه المصريون ولا ساستهم إلى أن الإنجليز كانوا متلهفين على عقد هذه المعاهدة لأنهم كانوا يأمحون في الأفق أن حرباً كانت على الأبواب ستقع في خلال سنة أو سنتين ، وأنهم سيصطلون بنارها ، وأنهم يريدون أن يتخذوا من مصر دريئة لهم ، وأن يجعلوا من حلفائهم المصريين وقوداً لهذه الحرب .

ووقعت الحرب العالمية الثانية ، واجتاحت جحافل الألمان أوروبا في أسابيع ثم انتقلوا إلى شمال أفريقية .. ومن ليبيا زحفوا إلى السلوم حيث كانت الجيوش البريطانية في انتظارهم فاكسحوها وفرت بأقصى سرعتها أمام قوات المارشال روميل الذي وقف بقواته عند مشارف الإسكندرية في العلمين على بعد ٧٠ ميلاً من الإسكندرية .

كان أحرار المصريين يمتنون الإنجليز ، ويترصدون بهم الدوائر ، ويتمنون أن لو أصابهم كارثة تأتى عليهم فلا تبقى منهم ولا تدر .. فلما قامت ألمانيا بهجومها المكشع على أوروبا: هب هؤلاء الأحرار ينتهزون هذه الفرصة لتخليص البلاد من يد الإنجليز ...

كون الأحرار على اختلاف نزعاتهم جبهة لإنقاذ البلاد ، وكان تكوين هذه الجبهة يجري تحت ستار السرية التامة ، وأنا شخصياً مع أبي كنت أقوم ببعض ما كان يوكل إلى من أعمال لهذا.

الجبهة - لا أعرف من الجهات المشتركة فيها ولا الأشخاص المشتركين فيها إلا الاستاذ المرشد وعلى ماهر والسيد أمين الحسيني مفتي فلسطين .

كانت خطة الجبهة تتلخص في محاولة الاتصال بالحكومة الألمانية والاتفاق معها على أن تحمل مصر عبء الدفاع عن نفسها ضد الإنجليز في مقابل أن تستقل وتظل صديقة لألمانيا .. وقد حدث الاتصال فعلاً ، وكانت تصلنا خطب «هتلر» بنصها وكنا ننسخ منها نسخاً لتوزيعها على المشتركين في الجبهة .

وأعدت الجبهة العدة لهريب «عزيز المصري» إلى ألمانيا في طائرة من طائرات الجيش ، لكن الظروف حالت دون ذلك حيث اصطدمت الطائرة بأسلاك اضطرتها إلى الهبوط ، وقبض على عزيز المصري وعلى قائدي الطائرة حسين ذو الفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرؤوف .. وعلى غير ما كان منتظراً أصدرت المحكمة العسكرية التي حاكمتهم حكماً برأهم مما أُلجج صدور الأحرار الأظهار في كل مكان .

كما استطاع السيد أمين الحسيني أن يهرب إلى ألمانيا ، والتقى بهتلر وتفاوض معه فيما هدفت إليه الجبهة من استقلال مصر واستقلال فلسطين والبلاد العربية ، وكان السيد أمين موضع احترام الحكومة الألمانية طيلة الفترة التي مكثها في ألمانيا .

وظلت الجبهة تعمل وتعد نفسها اليوم الذي تطرد فيه الإنجليز من مصر حتى شاءت إرادة الله أن ينقلب الموقف رأساً على عقب ، ويتقهقر الجيش الألماني حين دخلت أمريكا بنقلها ونزلت قوات الحلفاء في المغرب بقيادة الجنرال الأمريكي إيزنهاور وأصبح الجيش الألماني محاصراً بين هذا الجيش الجديد والجيش البريطاني .

ولم يكن في حسابان ألمانيا أن أمريكا ستدخل الحرب وكانت ألمانيا تحاول دائماً استرضاءها لأنها تعلم مدى خطورتها ، ولكن تشرشل بأسلوبه المؤثر وزيادته المتكررة وإثارته نزعة الشعوب الناطقة بالإنجليزية وأن هذه الشعوب في حقيقتها شعب واحد ، استطاع - على غير توقع من هتلر - أن يجر أمريكا إلى الحرب .

وكان من نتيجة ذلك أن تمكن الإنجليز ، ويبدو أن مخبراتهم كانت على علم ببعض معلومات عن هذه الجبهة فكانت الاعتقالات التي اتخذتها حكومة الوفد في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ .

وزارة على ماهر سنة ١٩٣٩

تعد هذه الوزارة نسج وحدها بين الوزارات التي توالى على الحكم في مصر ، فقد تولت

أمور البلاد في أخرج الأوقات عند بدء قيام الحرب العالمية الثانية ، وكان أعضاؤها نوعين من الوزراء فبعضهم كانوا وزراء متخصصين ، وبعضهم الآخر كانوا من ذوي التاريخ الوطني الإسلامي الحافل ومن هذا البعض الأخير كان صالح حرب وزيراً للحربية وكان عبد الرحمن عزام وزيراً للشئون الاجتماعية وهي وزارة استحدثت لأول مرة في مصر وللأوقاف .

وكان هناك تجاوب فكري ونفسي بين هذه الوزارة وبين الإخوان حيث كانت هذه الوزارة وزارة كفاءات لا وزارة الخشدة المألوف من ذوي الألقاب ... ولذا فإنها كانت أول وزارة منطلقة غير محدودة الأبعاد إلا بما توحى إليها المصلحة العامة .. وقد ساعد هذه الوزارة أيضا على الانطلاق أنها كانت مؤيدة من الملك الذي كان إذ ذاك في مقتبل أيامه ولم يكن بعد قد تلوث ، فكانت رغباته متوائمة مع رغبات الشعب ، وكان لا يزال يرى في على ماهر شخصية المعلم الناصح القدير .. وكان البرلمان متوائماً مع الملك فكان مؤيداً للوزارة ..

كان الإنجليز - وقد أعلنوا الحرب على المحور (ألمانيا وإيطاليا) - يعتقدون أن مصر - كما تعودوا منها ومن حكامها - ستكون سباقة إلى إعلان الحرب على المحور تضامناً معهم ... وقد حاب ظنهم لأول مرة فقد اقتنعت الوزارة بأن لا تعلن الحرب وبأن تعلن الحياد فكانت هذه ضربة قاصمة لظهور هؤلاء المستعمرين ... وقد لقي هذا التصرف الجريء من الحكومة تجاوباً مسن جميع الأوساط في البلاد ، وعده الشعب بطولة من على ماهر من أعظم البطولات .

وبعد أن أذاع على ماهر قرار إعلان مصر دولة محايدة ، ذهب إلى البرلمان لإلقاء بيان في هذا الشأن وأخذ الرأي على هذا القرار ، وقد أيد مجلس النواب على ماهر بالإجماع ، ومع ذلك لم يستطيع الإنجليز أن يقبضوا عواطفهم ولا أن يحتفظوا بوقارهم الذي كان شعار سياستهم الاستعمارية فلم يتورعوا في هذا الموقف عن إسقاط هذه الوزارة وهي مؤيدة من مجلس النواب ومن الشعب ومن الملك .

محاولة الإخوان لإنقاذ هذه الوزارة :

كان على ماهر يحس بمراحل الغضب تغل في صدور الإنجليز ، وكان الإخوان يحسون بذلك ، إلا أن الفرق بين الإحساسين كان كبيراً فقد كان على ماهر يتصور أن الإنجليز لن يتخاطروا بسمتهم فيسقطوا حكومة مؤيدة من الشعب والبرلمان والملك ؛ أما الإخوان فكانوا يعتقدون أن هذا الموقف ليس من المواقف التي يتقيد الإنجليز حيالها بأية قيود أدبية .. وقد اقترح الإخوان على الحكومة خطة تلزم الإنجليز بالتفكير عشرات المرات قبل إعدامهم على مس هذه

الوزارة بأذى ، وقد أفتق الأستاذ المرشد بهذا الرأي . كستاف عبد الرحمن عزام ، وطلب إليه أن ييلفسه إلى رئيس الوزراء ، وقد فعل ولكن على ماهر كان لا يزال متوهساً تصوره الذى أشرنا إليه ...

أما اقتراح الإخوان فيتلخص فى أن تعلن الوزارة على العالم نفسها حكومة إسلامية ، ويرتكز هذا الاقتراح على الدعائم الآتية :

أولاً : أن الإنجليز حين يواجهون بالدين - أى دين - يشعرون بشئ من الرهبة يصرفهم عن المواجهة ، ويبحثون عن صيغة أخرى غيرها .

ثانياً : أن إعلان مصر حكومة إسلامية معناه أن المساس بهذه الحكومة سيكون مساساً بجميع المسلمين فى أنحاء العالم . ولا تقوى إنجلترا - لا سيما وهى فى حرب - على مواجهة ثورة يقوم بها المسلمون فى كل مكان تأييداً لهذه الحكومة ... ولا ننسى أن الإنجليز وهم فى حالة السلم لم يستطيعوا مقاومة مظاهرات قام بها المسلمون فى الهند احتجاجاً على تصريح صرحت به الحكومة البريطانية اشتم منه المسلمون رائحة المساس بحكومة الخلافة الإسلامية فى تركيا ، ولم يخرج الإنجليز من هذا المأزق إلا بإصدار الشيخ محمد رشيد رضا بياناً أعلن فيه أن هذا التصريح لايمس الإسلام .

ثالثاً : أن الجيش البريطانى المحارب والذى كان إذ ذاك فى مصر وفى شمال أفريقية كان أكثره من الهنود المسلمين والإفريقيين المسلمين ومساس الإنجليز لحكومة أعلنت أنها حكومة إسلامية بأذى قد يثير هؤلاء الجنود ، وفى إثارتهم أشد الخطر .

رابعاً : أن الإخوان فى هذه الحالة سيجدون فى يدهم حجة لإثارة المسلمين فى مصر وغيرها . ولم يعرف على ماهر أنه قد أسرف فى حسن الظن ، وأنه أخطأ فى عدم الأخذ باقتراح الإخوان إلا بعد أن أسقطت وزارته .

ولا يشك أحد فى أن هذه الوزارة كانت وزارة عظيمة وواقعية وعاملة من أول يوم على تحدى الإنجليز ؛ ففى أول اجتماع لها اعترفت بروسيا وخفضت مرتبات الموظفين ١٠٪ وأحالت بهض كبار الموظفين المعروفين بميلهم إلى الإنجليز إلى المعاش وكان منهم أمين عثمان .. وقد عملت على اختيار الرجال ذوى التاريخ الوطنى المشرف فقد عينت لقيادة الجيش الفريق عزيز المصرى وكان عدواً للإنجليز ، وقد بدأ هذا الرجل يحد من تسلط الإنجليز على الجيش المصرى .. وكان الإنجليز يعرفون بواسطة أجهزتهم التجسسية صلة هذا الرجل بالإخوان فعملوا على إزاحته

وزارة الوفد في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢

هذا التاريخ من التواريخ المشهورة في السياسة المصرية ، لأنه اليوم الذي طلب فيه الإنجليز من الملك فاروق دعوة «حزب الوفد» لتولى الوزارة وهددوه باقتحام قصره بالمدبابات الإنجليزية إذا لم يلب طلبهم وقد فعل . وتعتبره الأحزاب المصرية بل ويعتبره غيرهم من الأيام السوداء حيث لجأ الإنجليز إلى التدخل السافر في شئون مصر الداخلية ، ويصمون النحاس بالحزبي والمار لأنه جاء إلى الحكم على أنة رماح الإنجليز .

وتصدينا للحديث عن هذه الوزارة أمر لا بد منه حيث كان لنا تجربة -تحدثنا عنها في الفصل السابق - وكثير من المعلقين من الجيل الجديد الذي لم يعيش هذه التجربة لم يفهموها على وجهها الصحيح ، ولذا فسوف نحاول إن شاء الله الكشف عن هذا الوجه الصحيح والإبانة عن حقيقة بعض المواقف في هذه التجربة فنقول :

حشر المؤرخ مدرس التاريخ المعاصر بجامعة طنطا الذي أشرنا إليه قبلا «الإخوان المسلمين» ضمن قائمة أعداء الوفد وخصومه إذ جعل عنوان بحثه المنشور بجريدة الأهرام في سنة ١٩٧٥ «٤ فبراير . وثائق جديدة . صورة من تقارير الأمن التي تسجل تحركات خصوم الوفد بعد الحادث» وأورد تحركات الحزب الوطني وحزب الأحرار الدستوريين وحزب السعديين ثم أورد موضوع ترشيح الأستاذ حسن البنا .. وقد رتب سيادة المؤرخ على ذلك أن تصرف النحاس مع الأستاذ البنا في موضوع الترشيح كان من تلقاء نفسه باعتباره الإخوان خصوصاً له لا من وحي الإنجليز ، وقد أورد سيادته في تأييد رأيه هذا الأسباب التالية :

أولاً : أنه ليس من المعقول أن يعرى النحاس باشا ضعفه على هذا النحو أمام الشيخ حسن البنا لإقناعه بسحب ترشيحه . خصوصاً أن النحاس كان في مركز قوة وليس في مركز ضعف . فضلا عن أن علاقته بالشيخ حسن البنا كخصم سياسى لم تكن تجيز له أن يسلم خصمه سلاحاً كهذا السلاح يظنه به .

ثانياً : الوقائع التاريخية تكذب ذلك تمام التكذيب ، فقد بدأ النحاس عهده بالإفراج عن عزيز المصرى وحسين ذوالفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرؤوف ، رغم ما هو معروف من أنه تم القبض عليهم أثناء هروبهم بطائرة إلى المحور . ولم يكتف النحاس بذلك بل أمر بشطب القضية.

فهل فعل النحاس ذلك بأوامر من الإنجليز ؟ اللهم إلا إذا كان الثلاثة قد غيروا مواقفهم وأصبحوا أنصاراً للإنجليز .

ثالثاً : أطلق النحاس سراح محمد على الطاهر المجاهد الفلسطيني وصاحب جريدة الشورى الذى لجأ إليه فى ٧ مارس سنة ١٩٤٢ وكان قد قبض عليه فى عهد حسن صبرى بطلب من الإنجليز ثم هرب من المعتقل وظل مختفياً حتى سلم نفسه للنحاس باشا ، وكان هذا الإفراج دون الرجوع إلى الإنجليز .

رابعاً : سبق أن أنكر النحاس باشا أن القبض على «على ماهر» قد تم بطلب من الإنجليز ، وأعلن فى مجلس الشيوخ أن مصطفى النحاس ليس من طراز رجال الدولة الذين يضعفون أو يستسلمون أو يستسلمون ، فكيف يظهر استسلامه أمام البنا ويعترف بانصياعه لرغبة الإنجليز بصدده ؟

وانتهى بذلك تعليق السيد «المؤرخ» وبصرف النظر عما ينطوى عليه هذا التعليق من روح التهميم والانحياز فلنأخذ نتناوله من الناحية الموضوعية فنقول :

أولاً : لم يكن بين الإخوان وبين الوفد حتى ذلك الوقت أية خصومة أو عداوة فلم يكونوا يعدون الوفد خصماً ولم يكن الوفد يعدهم من خصومه . وقد سبق أن ذكرت فى مواضع أخرى من هذه المذكرات أن تعليمات الأستاذ المرشد كانت تحت الإخوان المسئولين فى هذه الفترة على إبراز الدعوة بالصورة التى تكون فيها مقبولة من الجميع على اختلاف أحزابهم ونزعاتهم ، ولم يكن المقصود بالصورة المقبولة من الجميع الأحزاب السياسية وحدها بل يقصد بذلك أن لا يكون بيننا وبين أى صاحب فكرة معينة سواء كانت سياسية أو دينية أو اجتماعية خصومة لأن الدعوة فى تلك الحقبة من الزمن كانت فى حاجة إلى أن تأخذ طريقها إلى قلوب المواطنين جميعاً على اختلاف أحزابهم وطوائفهم ومعتقداتهم دون أن تشغل عن ذلك بمعارك جانبية تعطل مسيرتها . فحشر «الإخوان المسلمين» ضمن خصوم الوفد فى هذا الصدد مخالف للواقع كما أن تعبير «خصمه السياسى» تعبير فيه افتراء على التاريخ .

وإذا كانت المسألة مسألة الخصومة السياسية فلم لم يشغل النحاس مع السعديين والأحرار الدستوريين والحزب الوطنى وهم خصومه السياسيون دون شك ما فعله مع الإخوان المسلمين ؟ .

ثانياً : أما إطلاق النحاس باشا سراح محمد على الطاهر وعزيز المصرى وزميليه ، واتخاذ الكاتب ذلك دليلاً على أن النحاس كان يتصرف من تلقاء نفسه دون استيحاء من الإنجليز أو دون

مبالاة بالإنجليز ، فإن هذا استنتاج نظري وقد بترت الوقائع فيه عن ظروفها .

إن مجيء النحاس إلى الحكم على أسنة رماح الإنجليز - مهما قيل في تعليقه - كان غصة في حلق كل مصري ، وكان النحاس يعرف ذلك ، وكان الإنجليز أيضاً يعرفون ذلك .. فكان على الإنجليز أن يخففوا من أثر هذه النصبة بإطلاق يد النحاس في إجراءات عليها مسحة الوطنية ، وفي الوقت نفسه لاتنصر الإنجليز كإطلاق سراح محمد علي الطاهر وعزيز المصري وزميليه لاسيما وقد أخذت المحكمة التي كانت تحاكم عزيز المصري وزميليه بنظرية الدفاع في بطلان قانون الأحكام العسكرية ؛ فضلا عن أن الإفراج عنهم وعن الطاهر لم يكن إلا إفراجاً شكلياً ؛ لأنهم ظلوا تحت مراقبة القسم المخصوص والمباحث العامة .

ثالثاً : أما اعتقال النحاس على ماهر ، وادعاء النحاس أمام مجلس الشيوخ أن هذا الاعتقال لم يتم بناء على طلب الإنجليز ، فسأله فيها نظر ... فاشك في أن النحاس يعتبر على ماهر أشد أعدائه أساساً ، لأنه يعرف عنه المقدرة السياسية ، وسعة الأفق ، والذكاء اللساح ، واستقلال الرأي . وقوة الشخصية .. يعرف عنه كل ذلك ، ويتمنى لو أتاحت له فرصة القضاء عليه ؛ فإذا وجد عند الإنجليز نفس هذا الشعور نحو علي ماهر ، فإنه لاشك سيسارع إلى تنفيذ هذا الإجراء دون طلب من الإنجليز ؛ كما أن الإنجليز لا يطلبونه صراحة ماداموا يثقون أنه سيتم دون أن يضطروا إلى طلبه .

أما أن ينسب النحاس هذا الإجراء إلى نفسه دون اشتراك الإنجليز فيه فهذا أمر لا يضر الإنجليز في شيء بل إنهم يسعدون أن يجدوا من يرضى لنفسه أن يتحمل عنهم هذا الوزر أمام الشعب وأمام التاريخ ... وهل كان علي ماهر حبيباً للإنجليز فاعتقله النحاس تحديداً لهم ونكاية فيهم حتى يكون إعلانه في البرلمان أنه اعتقله من تلقاء نفسه مشرفاً له ، ومفخرة يباهي بها ؟ إنه اعتقله في أعقاب مأساة دستورية لم يحدث لها مثيل من قبل في تاريخ مصر - وقد نوهنا عنها من قبل - وقد ضاق الإنجليز به ذرعاً بعد إقالته حين رأوه - بواسطة جواسيسهم - يتعاون مع الأحرار من أبناء مصر على تكوين جبهة لتخليص مصر من الاحتلال الإنجليزي ووقايتها من احتلال آخر ، حيث كانت جيوش الخلفاء في ذلك الوقت في هزائم متلاحقة .

فليس إذن نفى إنسان عيباً ما عن نفسه دليلاً على براءته من هذا العيب إذا ما كانت كل الظروف والقرائن المحيطة به تصمه بهذا العيب .

رابعاً : ثم نرجع إلى حديث الأستاذ المرشد عن مقابلته للنحاس باشا فأقول إن الأستاذ المرشد قد قص علينا - في اجتماع خاص بالمركز العام - ما تم بينه وبين النحاس من حديث

لكن كان هو بنفسه وبالخرف الواحد مالمصه على الإخوان في الإسكندرية وطنطا وغيرهما من العواصم . وبالرغم مما ورد في حديثه في كل من هذه العواصم مخاطباً الإخوان من قوله « وهذا حديث خاص بكم لا يصح إطلاع غيركم عليه » فإنه كان يعلم أن أشخاصاً من قبل الأمن العام مدسوسون في كل اجتماع من هذه الاجتماعات ... ومعنى ذلك أنه كان دقيقاً في نقل عبارات النقاش الذي دار في أثناء المقابلة مع النحاس لأنه يعلم أن مندوبي الأمن العام سيعرضون هذه الأقوال التي سمعوها منه على رئيس الحكومة ... فلو أن رئيس الحكومة رأى في هذه الأقوال تزييداً كما ادعى حضرة المؤرخ لما سكت على ذلك .

ولو أن الأستاذ المرشد كان حريصاً فعلاً على أن يخص الإخوان وحدهم بحديثه ، لانعقدت لذلك اجتماعات أخرى ذات صبغة أخرى لا يسهل اختراقها ولا التسمع عليها سواء من رجال الأمن أو غيرهم . وسيأتى إن شاء الله في صفحات قادمة ما يوضح مدى فهم الإخوان للاجتماعات ومدى ملامتها للأغراض التي تعقد من أجلها .

نظرة مجردة إلى حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ :

ينبغي أن يتساءل المؤرخون والمحللون للأحداث عن الدوافع التي حملت الإنجليز على المطالبة بمجيء الوفد إلى الحكم في هذه الظروف ... هل كان دافعاً واحداً كما قيل وأن هذا الدافع كان أنهم في ظروف حرب ، ويجب أن يكون في الحكم حزب الأغلبية حتى يضمّنوا في البلاد هدوءاً يساعدهم على التفريغ لشئون الحرب ؟ هل كان هذا هو الدافع الوحيد أم أنه كان مع هذا الدافع دوافع أخرى ؟

ألا يجوز أن يكون من الدوافع الأخرى محاولة تحطيم الوفد نفسه والنقض على سمعته ؟ ... إن دهاء الإنجليز وبراعتهم السياسية ، ومقدرتهم على الإنفاذ الكاملة من كل طرف ، أمر مسلم به ولا شك فيه ؛ فهم فعلاً كانوا في ظروف دقيقة ، يسهل مهمتهم فيها أن يكون على رأس الحكومة زعيم الأغلبية ... وهم يعلمون مدى تكالب الوفد على الحكم وتشوقه إليه .. ويعلمون في نفس الوقت أن الذي يتولى الحكم في ظروف الحرب التي تلازمها دائماً قسوة الحياة ، وصعوبة وسائل التكوين ، مع تعرض البلاد للغارات ... كل ذلك سيخلق الكراهية في نفوس الشعب للجالس على قمة الحكم ... وقد استطاع الإنجليز تحقيق هذه الأغراض بجمعاً حين أتوا بالنحاس إلى دست الحكم ... وقد فهم الشعب بعض ماهدف إليه الإنجليز ، ولكنهم لم يفتنوا إلى كل الأهداف إلا بعد أن تحققت فعلاً وخرج الوفد من هذه الجولة في الحكم خاسراً .

ولقد كانت دهشة الناس في مصر على أشدها حين رأوا الإنجليز يطلبون الوفد للحكم ،
 ووجدوا الوفد يسارع بالإجابة كأنما كانا على ميعاد ... وكان الذين يحسنون الظن بالوفد يتمنون
 أن يرفض الوفد أن يتولى الحكم بأمر الإنجليز الذين هم بغير شك أعدى أعداء البلاد ، ولكن
 هؤلاء حين رأوا الوفد مسارعاً إلى إجابة الإنجليز ، علموا أنهم كانوا مسرفين في حسن الظن .
 ولله عبرة الكثيرون عن هذا الشهور بطرق مختلفة كان أروعها خمسة أبيات من الشعر نشرها
 «الأهرام» يوم ٩-٤-١٩٤٢ للشاعر الكبير الأستاذ محمود غنيم تحت عنوان : الذئب والكبش
 وهالك هذه الأبيات :

الكبش قسام خطيباً فوق رابية	ينعى على الذئب فك الذئب بالغيم
فتمم الذئب في أذنيه : أنت على	رأس القطيع أسير نافذ الكلم
فقبل الكبش ناب الذئب معتسداً	عما رماه به من سالف التهم
وقال للشاء : خوضوا وارتعوا معه	من لاذ بالذئب منكم لاذ بالحرم
فإن تصب أحداً منكم مخالفه	فإنهـا بلسم يشفى من السقم

وكم كان لهذه الأبيات من صدى في نفوس المثقفين في أنحاء مصر ، فلقد عمد الأستاذ محمود
 غنيم إلى الاستتار وراء التورية حين جعل الموضوع النقدي حديثاً على لسان الحيوان ، فتلقها
 المثقفون بفهم للاح لأن المعنى مستمر من قبل في نفوسهم .

على أن موضوع ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ الذي أقمنا فيه السيد المؤرخ المعاصر إقحاماً ؛
 لم يكن له في نفوس الإخوان ولا في أوساطهم وقع يذكر ، إذا قيس بوقعه في نفوس السراي
 والأحزاب ... ذلك لأنه بالنسبة للإخوان لم يصف جديداً إلى معلوماتهم عن الإنجليز ولا عن
 الوفد ولا عن السراي ولا عن الأحزاب الأخرى .. فالإخوان كانوا يعرفون من تجاربهم في
 قضية فلسطين أن الإنجليز إذا سنحت لهم الفرص فجروا .. والوفد منذ عقد معاهدة سنة ١٩٣٦
 أصبح يعتبر الإنجليز أصدقاء وحلفاء ، كما يعرف الإخوان أن الوفد أصبح يسعى إلى الحكم
 لإشباع شهوات أعضائه وأنصاره من مغانم الحكم ولا يبالي من الذي يدعوه إلى الحكم .. أما الأحزاب
 الأخرى التي لا نصيب لها من الشعب فليس أمامهم إلا التقرب إلى السراي وإلى المستعمر مضحين
 بمصالح البلاد في سبيل إرضائهما ، فإذا أغضى هذان عنهم وسلما أزمة الحكم لغيرهم لبسوا ثياب
 الوطنيين ، وأخذتهم الغيرة على الوطن ، وتباكوا على ضياع مصالح البلاد .

إنشاء الجامعة العربية

نبتت فكرة إنشاء جامعة الدول العربية أول ما نبتت في أذهان الساسة الإنجليز في أعقاب

الحرب العالمية الثانية في غضون سنة ١٩٤٤ . ولقد حاول الإنجليز أن يوهوا العالم أنها إنما نبئت في أذهان العرب فأوعزت إلى نوري السعيد باشا رئيس وزراء العراق أن يرفع أول صوت منادياً بها ... وكان الإخوان قد عرفوا من قبل مصدرها الحقيقي وأنها من بنات أفكار سياسة الإنجليز .. وقبل أن ينادى بها نوري السعيد كان الإخوان قد وضعوها موضع الدراسة والفحص ، وقلبوها على جميع جوانبها ، وخرجوا من الدراسة بأن يتبنوا هذا المشروع ولو أنه من وضع الإنجليز .

كان الإنجليز يهدفون من وراء هذا المشروع إلى استحداث جهاز يسهل لهم بسط نفوذهم على جميع الدول العربية ، وليس أقدر على إصابة هذا الهدف من إنشاء هذه الجامعة - ولكن الإخوان رأوا في إنشاء هذا الجهاز - مع سوء القصد في إنشائه - رمزاً يوصى إلى معنى عزيز هو من صميم دعوتهم ألا وهو إشعار قسم ذي بال من المسلمين في هذا العالم بأن هناك آصرة قرابة تربطهم ، وأن هذه البقعة مهما تعددت أسماء الدول فيها فإنها أمة واحدة .

ورأى الإخوان أيضاً في إنشاء هذه الجامعة وسيلة تيسر لهم الاتصال بشعوب هذه الدول ، وتضفي على هذا الاتصال معنى الشرعية بعد أن كان هذا الاتصال شبه محرم إلا جلسة ؛ كما أنهم رأوا أنهم - مع تنبههم لأغراض الإنجليز - يستطيعون بوسائلهم الخاصة أن يدسوا أنفسهم في هذا الجهاز أو بالمعنى الأدق في تعديل توجيهه بحيث يحقق - بجانب ما أنشأه الإنجليز من أجله - أغراضاً نافعة تعود بالخير على البلاد العربية والبلاد الإسلامية .

وضع ميثاقها :

دعى إلى القاهرة رؤساء وزارات الدول العربية المستقلة في ذلك الوقت ، وكانت سبع دول تقريباً هي مصر والسعودية واليمن والعراق وسورية ولبنان لوضع ميثاق لجامعة الدول العربية . ويبدو - كما هو في خاطري الآن - أن اجتماع هؤلاء الرؤساء كان في الإسكندرية .

وكانت الخطة التي وضعها الأستاذ المرشد أن يكون في استقبال هؤلاء الرؤساء وفد من الإخوان للترحيب بهم ولإشعارهم بأن المهمة التي قدموا من أجلها تلقى من اهتمام الشعب ما هي جديرة به - وهو ما كان الإنجليز يحاولون إيهام الشعوب العربية به - ولذا فإن هذه الحركة من الإخوان قد نالت رضا نوري السعيد الذي كان المتبني لفكرة الجامعة وكان هو الداعي لها ... وقد أتاح الإخوان لأنفسهم بهذا الرضا فرصة الوجود بجانب لجنة الرؤساء ، وعن طريق هذا الوجود استطاعوا أن يعرفوا كثيراً مما كان يدور خلال اجتماعات هذه اللجنة ، واستطاعوا بطريق غير رسمي الاشتراك في بعض المناقشات .

اختار الأستاذ المرشد الأخ الأستاذ محمد لبّيت البوهي رئيس الإخوان بالاسكندرية ليكون ضابط اتصال بين الإخوان وبين لجنة الرؤساء ، وكان اختياراً موفقاً فقد كان الأستاذ لبّيت شخصية مقبولة وأمينّة وحكيمة من أولئك الذين ليل فيهم :

إذا كنت في حاجة مرسلًا فأرسل حكيمًا ولا توصـــــــــــــــــه

فكان الأستاذ لبّيت يعرض علينا كل يوم مادار في الاجتماع الذي حضره ، وكان الأستاذ المرشد يدرس النقاط التي ستكون مدار النقاش في الاجتماع القادم ويوضح الصورة التي يحاول الإخوان أن يضمنوا القرار في إطارها ، ويحملها الأستاذ لبّيت حيث يجتمع الرؤساء .. وبأسلوبه البق ووسائله الخاصة يصدر القرار على الصورة المطلوبة أو قريباً منها .

السيد رياض الصلح :

استطاع الأستاذ لبّيت أن يكتشف أن بين هذه المجموعة من الرؤساء رجلاً عظيماً ، وشخصية قادرة ، تفهم الأمور على وجهها الصحيح . وذات قلب كبير مفعم بالإيمان بالفكرة الإسلامية باعتبارها السبيل الوحيد لإتقاذ البلاد العربية والإسلامية .. وتبين أن الرجل يتابع من طرف عفى نشاط الإخوان وأنه يكن لهم الحب والتقدير .. وتحدث مع الأستاذ لبّيت حديثاً صريحاً حول فكرة إنشاء الجامعة ، وأنه حضر بنفسه للاشتراك في وضع ميثاقها لعله يستطيع أن يجعل منها جهازاً نافعا للعرب كما يجب أن يكون ؛ وطلب منه أن يعتبره الإخوان ممثلاً لهم في هذه الهيئة الرسمية التي تضع الميثاق ، وعلى الإخوان أن يمدوه بأرائهم أولاً بأول ليدافع عنها ويحاول إدماجها في مواد الميثاق .

ذلك هو السيد رياض الصلح رئيس وزراء لبنان وأعظم شخصية في تاريخ لبنان الحديث ، والرجل الذي لم يملأ الفراغ الذي خلفه بموته أحد حتى اليوم ... كان رجلاً مؤمناً قوياً ، واثقاً من نفسه مرهوب الجانب ، من أعظم الرؤساء ، محبوباً من شعبه ... يرى نفسه فوق مستوى الأطماع كما كانت همته غير محدودة بالحدود المصطنعة للعالم الإسلامي المقسم ظالماً وتعسفاً .

توطدت الصلة بين الإخوان وبين هذا الرجل العظيم ، وكان اكتشاف الإخوان حقيقة هذا الرجل عنصراً من عناصر إحياء الأمل لدى الإخوان أن هناك كنوزاً مخبوءة يدخرها الله تعالى لدعوته ، فحرص الإخوان على أن تظل صلتهم به في طي الكتمان حتى يؤدي الرجل ما يستطيع من خير للأمة العربية والإسلامية دون أن يتنبه المستعمرون فيصوبوا إليه سهامهم من كل جانب .

وما تجدر الإشارة إليه ، وما يجب أن يعيه المتصدون للإصلاح من أصحاب الأفكار والدعوات أن لا يحصروا آمالهم في حدود الظروف المادية المحيطة بهم فيقعدهم ذلك عن التماس بالاعباء الجسم ؛ بل عليهم أن لا يتقاعسوا عن انتداب أنفسهم لأشق المهام وأصعبها مراساً ، فإن ذلك سيفتح أمامهم أبواباً وسينير لهم سبلاً ما كانوا ليروها وهم قاعدون ... فيوم ووجه الإخوان بفكرة الإنجليز في إنشاء الجامعة العربية ودرس الإخوان الفكرة ؛ فوجدوا أن ولاءهم يقتضيهم أن يتلقوا هذه الفكرة من الإنجليز ويعملوا على الإفادة منها ؛ يؤمنون أن الإخوان في حيرة من أمرهم كيف يقتحمون إلى هذا المؤتمر وهم يعلمون أن رؤساء الدول العربية صنائع للمستعمر ، ولكنهم رأوا أن واجبه يقتضيهم أن يقتحموا ففعلوا وآمالهم معلقة بوجه الله وحده ، فكان أن فتح الله بين أيديهم أوسع الأبواب بتعريفهم على هذا الرجل العظيم وصدق الله العظيم «ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . » ... ولقد يسرت للإخوان الأمور حتى إنهم كانوا يطبعون مذكرات يشرحون فيها وجهة نظرهم فيما سيعرض أمام لجنة الرؤساء من مواضيع ويوزعونها على الوفود لتنير لهم الطريق وتبهر الجو للسيد رياض الصلح حين يتبنى رأى الإخوان ويدافع عنه .

مكاسب عن طريق رياض الصلح :

وسأحاول الآن أن اسرد بعض ما تمكن الإخوان من تحقيقه من مكاسب عن طريق هذه الجامعة عادت بالخير على الأمة العربية والإسلامية .

أولاً : إخراج ميثاق جامعة الدول العربية في صورة أكثر فعالية من الصورة التي كان يريد لها الإنجليز ... ومعنى ذلك أنه حتى الصورة التي أخرج عليها الميثاق لم تخل من قصور ، ولكن بعض التحسين الذي أمكن إدخاله عليها قلل من هذا القصور ، وجعل هناك مندوحة لتقارب هذه الدول بعضها من بعض تقارباً حقيقياً إلى حد ما ، كما أتاح لها أن تعمل عملاً إيجابياً وإن كان محدوداً .

ثانياً : اختيار عبد الرحمن عزام أميناً عاماً للجامعة .. واختيار رجل كعبد الرحمن عزام لهذا المنصب ليس بالأمر الهين ، إذا عرف من هو عبد الرحمن عزام وعرف تاريخه وجهاده وأفكاره ... لقد كان اختيار هذا الرجل أمانة عزيزة للإخوان ... وقد أشرت فيما سبق إلى صلة عبد الرحمن عزام بالإخوان سواء وهو في الحكم عضواً في وزارة علي ماهر وفي غير الحكم .

ثالثاً : تعرف الإخوان بالقاضي الكبسي ممثل اليمن في لجنة الميثاق ... وقد ينبغي الإشارة في هذا الصدد إلى أن الدعوة حين وجهت إلى اليمن باعتبارها دولة عربية مستقلة لتشارك برئيس وزرائها في وضع ميثاق جامعة الدول العربية بعث الإمام يحيى حميد الدين إمام اليمن بالقاضي الكبسي مثلاً له على أن يكون مستمعاً دون أن يشترك في المحادثات .. وقد أثار هذا النوع من الاشتراك في اللجان تندر كثير من الأوساط الصحفية والشعبية في مصر حتى سرت مسرى المثل ، فإذا دعا أحد أصدقائه لغداء مثلاً وأجابوا وتقدموا للطعام إلا واحداً فإن هذا الواحد يقول متندراً : اعتبروني كبسي في هذه الوليمة .

لكن هذا الرجل «القاضي الكبسي» كان رجلاً ذكياً ؛ فإن مجرد تعرفه على الإخوان فتح عينيه على ما كان يحذره إمامه ؛ فلقد كان إمامه حريصاً على أن لا يعرف مندوبه شيئاً مما يدور في العالم الخارجي لاسيما الدعوات التحررية التي تدعو إلى الثورة على الظلم والاستبداد . فلم يكن القاضي الكبسي يسمع من الإخوان حتى اختمرت في ذهنه فكرة ، كانت هي نواة الثورات المتلاحقة التي خلصت اليمن من مظالم الحكم الإمامي المستبد ، وإن كان الرجل «القاضي الكبسي» نفسه قد راح ضحية في طريق التحرير ، رحمه الله وأجزل مثوبته على ما قدمه لبلاده .

رابعاً : الاعتراف باستقلال أندونيسيا وباكستان .

نبى الإخوان الدعوة إلى مؤازرة أندونيسيا في جهادها للتخلص من استعمار هولندا ، ومؤازرة باكستان في تخليص المسلمين من اعتداءات البوذيين وعباد البقر من الهنود ، وإقامة دولة للمسلمين باسم باكستان تحمى كياناتهم وتمكن الأمر لهم

ومع أن جهاد المسلمين في هاتين الجبهتين جبهة أندونيسيا وجبهة الهند كان له صدى مدو في أنحاء العالم كله ، إلا أن الحكومات المصرية لم تحس بشيء من ذلك ، ولم تكن تعير هذا الجهاد العظيم اهتماماً مع أنها كانت أجدر الحكومات أن تهتم به لأنها الحكومة التي ينظر إليها المسلمون على أنها زعيمة العالم الإسلامي ومناط آماله .. ولم يفت هذا الشعور المتخاذل في عهد الإخوان فدأبوا على المناداة بتأييد هذا الجهاد المقدس بكل وسائل التأييد ؛ فكان هناك اتصال دائم بين قادة هذا الجهاد في أندونيسيا والهند وبين الإخوان المسلمين .. وقدمت منها وفود استقبلهم الإخوان أحسن استقبال ، حتى قدم السيد محمد علي جناح زعيم المسلمين في الهند والمطالب بتكوين دولة باكستان ؛ وقد استقبله الأستاذ المرشد وأحسن وفادته وعرفه بعبد الرحمن عزام . ولما أتمز جهاد الأندونيسيين والمسلمين في الهند وأعلنوا إقامة دولتين مستقلتين . تحاذل

الغرب عن الاعتراف بهما أملاً في القضاء عليهما وهما بعد نبتان غصتان.. وهناتقدم الأستاذ المرشد بذكره إلى جامعة الدول العربية يستثير في رجالها النخوة العربية والغيرة الإسلامية طالباً منهم الاعتراف بالدولتين الناشئتين ، ثم كان لعبد الرحمن عزام الفضل في استصدار قرار باعتراف جامعة الدول العربية ، فكان هذا القرار دعامة الدولتين في الوجود القانوني ، ولم تجدد الدول الأخرى بدأ من الاعتراف بهما بعد ذلك القرار .

خامساً : بلاد الشمال الأفريقي :- كانت بلاد الشمال الأفريقي - المغرب والجزائر وتونس - نرزخ تحت كابوس ثقيل من استعمار فرنسي غاشم . وكانت ليبيا تن تحت وطأة الحكم الإيطالي المستبد وعن طريق الجامعة العربية وعبد الرحمن عزام استطاع الإخوان أن يلعبوا أدواراً في التوفيق بين زعامات الأحزاب في هذه البلاد ومساندة الثورات التي شبت بها ضد المستعمر .. ولم يكن الإخوان حريصين على إبراز أنفسهم في هذا الميدان بل كانوا حريصين على إبراز الجامعة العربية لأن إبرازها في هذا الموقف كان أنفع لهذه البلاد وأشد تأثيراً في السياسة العالمية ، ولو أن الرجال القائمين بهذه الأدوار كان الموجهون منهم من الإخوان العاملين في الجامعة العربية وخطبة العمل في هذا المجال كانت باتفاق بين الإخوان وبين أمين الجامعة، وقد انتهت هذه الجهود - والحمد لله - باستقلال هذه البلاد وتخلصها من وطأة الاستعمار .

سادساً : تطوع الإخوان في حرب فلسطين :- كان جامعة الدول العربية دور عظيم في تنظيم التطوع في حرب فلسطين وسرجه الحديث عن هذا الدور حتى نبسط الكلام في شأن هذه الحرب إن شاء الله .

عرض من الملك عبد الله

في خلال تلك الفترة كان الأستاذ عبد الحكيم عابدين في رحلة خارج مصر زار فيها بلاد الشام بأقسامها ... فلما عاد من رحلته أخذ يشرح لنا ما تم في رحلته حتى وصل إلى الأردن فقال إنه قابل الملك عبد الله الذي أبدى إعجابه بدعوة الإخوان وبقيادتهم وأنه ينتظر الخير للأمة الإسلامية على أيديهم ثم قال الملك : إن الأردن في حاجة إلى جهود الإخوان ، ولتكن أولى خطوات هذه الجهود أن يعين الأستاذ عبد الحكيم عابدين وزيراً في حكومة الأردن على أن ينعم عليه وعلى الأستاذ حسن البنا برتبة الباشوية .

فابتسم الأستاذ المرشد وسأل : وماذا كانت إجابتك يا عبد الحكيم ؟..

قال : وهل تكون إجابتي إلا بالرفض ولكن بأسلوب مهذب ... ولكن الملك مع ذلك أصر على أن يرجأ البت في هذا العرض حتى أرجع إلى مصر وأقابلك .

وقد رد الأستاذ المرشد على الملك عبد الله برسالة رقيقة استنهض فيها للعمل للإسلام مشيداً بانتسابه إلى الفترة الشريفة ، وأثنى فيها على حسن ظنه بالإخوان ، واعتذر إليه بأن العمل غير الرسمي للدعوة الإسلامية أخرج إلى جهود الإخوان وأنه يأمل أن تلتقى الجهود الرسمية وغير الرسمية في سبيل هذه الدعوة .

محاولة أخرى لدخول مجلس النواب

كان ذلك في أواخر عام ١٩٤٤ بعد أن استطاع الملك إقالة وزارة الوفد معتمد أعلى ما قدمته له هذه الوزارة من أسلحة بما تورطت فيه من أخطاء مست صميم الشعب في قوته من المأكل والملبس . وأقيمت الوزارة وحل مجلس نوابها كالمعتاد ، وأعلن عن انتخابات جديدة لمجلس نواب جديد ، وقرن هذا الإعلان كالمعتاد أيضاً بالظعن في نزاهة الانتخابات السابقة ، وبأن الانتخابات القادمة ستكون حرة مائة في المائة .

وقرر الإخوان دخول هذه الانتخابات بترشيح الأستاذ المرشد في دائرة الإسماعيلية وترشيح عدد آخر من الإخوان في دوائر مختلفة .

كان هناك حرص شديد من الدولة الجديدة على إبراز هذه الانتخابات في صورة مغايرة لتلك التي كانت عليها انتخابات حكومة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ التي كان من أبرز ما عرف عنها وشوه صورتها منع الأستاذ المرشد العام للإخوان المسلمين من ترشيح نفسه وإرغامه على سحب هذا الترشيح ، وكان لهذا المنع ضجة في جميع أنحاء البلاد ..

ولكن أسلوباً آخر في الخفاء ومن وراء الكواليس كان يجري حسب مشيئة السادة المستعمرين :- في رسالة بعث بها الصاغ محمود ليب رحمه الله إلى جريدة المصري في سبتمبر سنة ١٩٥٠ جاء فيها ما يلي :-

«في وزارة أحمد ماهر باشا أراد المرشد العام أن يرشح نفسه ، فعلمت أنا من أحد أصدقائي أن خطاباً أرسل من السفارة البريطانية إلى أحمد ماهر باشا يطلب فيه منه أن يعمل على منع المرشد العام والأستاذ على البرير (كان من كبار السودانيين الأحرار المقيمين بمصر والمؤمنين بوحدة وادي النيل) المرشح في دائرة عابدين من التقدم لانتخابات ...

فأسرعت إلى فضيلة المرشد فأبلغته ذلك فضحك واستبعد هذه الفكرة . وفي اليوم التالى طلبه أحمد ماهر باشا لمقابلته فلما قابله طلب منه أن يسحب ترشيحه . وحاول أن يقنعه فرفض . فقال له : لماذا تتشدد معى وقد قبلت مثل هذا من حكومة النحاس باشا وتنازلت عن ترشيحك ؟.

فرد عليه بقوله : إن حكومة النحاس باشا كانت تواجه حالة سياسية مضطربة فى الداخل والخارج ولم يكن هناك بد - إجابة لداعى الوطنية الكريمة -من أن نقبل منها هذا ؛ إذ كانت الحالة تدعو إلى توحيد الجهود لا إلى توزيعها لوجود الأعداء داخل الأراضى المصرية .

يقول الصاغ محمود لبيب : وقد قابلت بعد ذلك على البربريك فقال لى إن أحمد ماهر باشا طلبه هو الآخر وأطلعته بالفعل على خطاب السفارة الإنجليزىة .

فلما ووجه القصر ممثلا فى هذه الأحزاب بإصرار الإخوان على ترشيح مرشدهم فى الانتخابات وجدوا أنفسهم أمام أمرين أحلاهما مر : ففتح الطريق أمام حسن البنا إلى مجلس النواب كارثة حيث نجاحه فى هذه الدائرة أمر لاشك فيه .. كما أن منعه من الترشيح يهدم صرح الدعاية الذى شيده على أساس من الحرية المطلقة التى ادعوا أنهم إنما جاءوا ليردوا إلى الشعب ما حرمه الوفد منها وظلوا فى حيرة من أمرهم حتى اهتدوا إلى الحل الأمثل الذى علمنا أخيراً أنه إنما جاءهم من عند واضعى أدوار التمثيلية والذين اختاروا مثلها والذين تكفلوا بإخراجها إلى الجمهور ، وتبين لنا أن واضع الرواية وغزجها قد تضطره الظروف إلى القيام بنفسه بدور البطولة لها وإلا فشلت التمثيلية ولم تحقق هدفها .. واتضح أن واضعى التمثيلية وموزعى أدوارها هم المستعمرون الإنجليز .

وبدا للجمهور على المسرح أن ترشيح المرشد العام لا يلقى أى اعتراض من الحكومة ونظراً لما جبل عليه الإخوان من حسن الظن وسلامة الطوية اعتقدوا أن هؤلاء الناس قد راجعوا ضمائرهم ورغبوا فى تحسين علاقاتهم بالإخوان والسير فى ركب المواطنين الصالحين .

مفاجأة :

لم يبدل الإخوان أى جهد فى الدعاية للمرشد العام فى دائرته - كدأب ما يبذل للمرشحين فى دوائرهم - لأن أهل الإسماعيلية بعثوا إلى القاهرة بوفود تمثلهم لتقديم شكرهم إلى الأستاذ المرشد العام أن آثرهم على جميع دوائر القطر بترشيح نفسه فى دائرتهم مع أن جميع الدوائر كانت تمنى أن تحظى بترشيحه فيها .. وتكفل أهل الإسماعيلية بدفع التأمين من جيوبهم .

ولما جاء يوم الانتخاب فوجيء أهل الإسماعيلية بتدخل الجيش البريطاني في الانتخابات بأن أحضروا أعداداً كبيرة من العمال الذين يعملون فيه في سيارات وأدى هؤلاء العمال الانتخاب بتذاكر مزورة بأسماء ناخبين من أهل الإسماعيلية. وهؤلاء جميعاً ينتخبون المرشحين الآخرين. واحتج أهل الإسماعيلية وأهملت السلطات احتجاجاتهم وانتهى يوم الانتخابات ، وظهرت نتائج الانتخابات وكانت نتيجة دائرة الإسماعيلية إعادة الانتخاب بين الأستاذ المرشد وبين مرشح آخر .

هنا بدأ الإخوان يفهمون الوضع على حقيقته حيث بان الخفى ووضح الأمر ، وتبين أن الإنجليز تعزيزاً لمركز حكومة السعدين التي يريدونها ، وافقوا على أن تظهر هذه الحكومة أمام الشعب بمظهر الموافق على ترشيح المرشد العام على أن يتكفلوا هم - أي الإنجليز - بإسقاطه ، ويكون ذلك بالطريقة الآتية :-

أن يرشحوا ضده أكثر من واحد من المقاولين الذين يعملون معهم في الجيش ... ونظراً لتوزيع قوة الحكومة في جميع دوائر القطر لحفظ الأمن فيكون جهد الجيش الإنجليزي مع قوة الأمن العادية في الإسماعيلية قاصراً على عدم إعطاء المرشد العام أغلبية مطلقة من الأصوات ... فيعاد الانتخاب بينه وبين أحد المرشحين الآخرين . وهنا في إعادة نتائج الفرص لحشد أكبر قوة ممكنة من قوات بوليس الحكومة المصرية للتعاون مع الجيش البريطاني تعاونا يكفي لإسقاطه .

ولما لم يكن شيء من هذه الأفكار يخطر ببال الإخوان ، فإن الإخوان لم يكلفوا أنفسهم متونة الذهاب إلى الإسماعيلية لشد أزر الأستاذ المرشد لتيقنهم من نجاحه بل ومن اكتساحه .. فلما فوجئوا بالواقع الاليم الذي حدث في الإسماعيلية ، وجدوا أنفسهم مطالبين بالسفر إليها لحضور معركة الإعادة .

وينبغي أن يكون معروفاً أن حَكَدَار - مدير الأمن - في محافظة القنال كان في ذلك الوقت إنجليزياً ، وأن شركة قنال السويس كان مقرها الإسماعيلية ، وأن قيادة جيش الإحتلال البريطاني كان مقرها الإسماعيلية ، وأن عشرات الآلاف من العمال المصريين الذين يعملون في الجيش البريطاني قد أتوا من مختلف بلاد القطر وأكثرهم من الصعيد ، وكان العامل يتنسى من الجيش البريطاني أجراً يعادل ضعف ما يتقاضاه على نفس العمل في أي مكان في البلاد .

معركة الإعادة :

من التجاوز في التعبير أن نسمى ما حدث في الإسماعيلية في ذلك اليوم معركة الإعادة أو

معركة الانتخابات ؛ فإن الذى حدث كان حرباً اعلنتها الحكومة المصرية متضامنة مع الجيش البريطانى ضد أهل مدينة الإسماعيلية .

لقد سافرت إلى الإسماعيلية ضمن عدة مئات من الإخوان من مختلف أنحاء البلاد لنشهد هذه المعركة التى توقعنا أنها ستكون معركة حامية ، لكن الذى رأيناه قد فاق كل ما خطر ببالنا ، ولولا أننا شهدنا بأعيننا لما صدقنا أن يحدث هذا الذى حدث .. وشاء الله أن تكون أكثر بلاد القطر ممثلة لترى بعينها الجريمة التى لم يحدث لها مثيل من قبل ولا اعتقد أن يحدث مثلها من بعد . حتى تكون كل البلاد فى مصر على علم بما حدث .

ولكى يكون القارىء فى مخيلته صورة مصغرة لما حدث فسأضع تحت ناظريه بعض مناظر من أحداث ذلك اليوم .

المنظر الأول : خرج أهل الإسماعيلية منذ الصباح الباكر متجهين إلى أماكن اللجان الموزعة فى أنحاء الدائرة ليدلوا بأصواتهم ، ومع كل منهم تذكرته الانتخابية ، فوجدوا أمام مدخل كل لجنة سيارة ضخمة من سيارات نقل الجيش البريطانى تنلق هذا المدخل وتحول بين الناخبين وبين الدخول إلى اللجنة .

المنظر الثانى : كثر عدد الناخبين بمرور الوقت أمام مقار اللجان ، ولما طال انتظارهم ولم تتحرك السيارات المعترضة ، حاولوا اقتحام السيارات للدخول فإذا بقوات ضخمة من بوليس القنال والبوليس المتقدم من القاهرة ومن جهات أخرى تعترض طريقهم وفى أيديهم الأسلحة والهرافات .

المنظر الثالث : يلجأ الناخبون إلى الأستاذ المرشد يشكون إليه فيتصل بالمحافظ فيطمئنه المحافظ ولكنه لا يعمل شيئاً فيلجأ إلى الحكدار الإنجليزى فيتر باتريك فيرد عليه بأن عنده تعليمات من الجهات العليا ببنفذهـاـ .

المنظر الرابع : القوات الضخمة من البوليس فجأة تهاجم الناخبين المحتشدين أمام مقار اللجان وتعمل فيهم هراواتهم وتهدهم بأساحتهم حتى تبعد بهم بعض الشئ عن مقار اللجان ، ثم تطوقهم تطويقاً محكماً . وهنا نرى ناقلات ضخمة من ناقلات الجيش البريطانى قادمة وهى محملة بعمال الجيش البريطانى ، وفى سرعة جنونية تنجـه إلى مقار اللجان ، وتكون السيارات المعترضة للمداخل قد أفسحت الطريق فتدخل هذه السيارة حتى باب المبنى الذى به لجنة الانتخابات ، وتلتصق مؤخرتها بالباب وتفرغ حولتها من العمال فيدخل كل منهم ويقدم للجنة تذكرة باسم ناخب من ناخبى

اللجنة ، ورئيس اللجنة وأعضاؤها يعلمون أن أحداً من هؤلاء العمال لا يحمل بطاقة انتخابية باسمه بل ليس منهم من يعرف الاسم المكتوب في البطاقة التي يقدمها ، وكل ما لقنه هؤلاء العمال هو أن ينتخبوا الاسم الذي حفظوه وهو اسم المرشح المنافس للأستاذ المرشد .

المنظر الخامس : بعد أن تفرغ السيارة حولتها تظل في وضعها حتى تؤدي الحمولة المهمة المكلفة بها ثم ترجع الحمولة إلى مكانها في السيارات حتى إذا امتلأ رتل السيارات التي جاءت معاً ينطلق الرتل دفعة واحدة خارج مقر الدائرة وفي سرعة جنونية بين صفوف جنود البوليس حتى تختفي عن الأنظار داخل المعسكرات البريطانية ؛ وبعد قليل يأتي رتل آخر ويمثل الدور نفسه .

المنظر السادس : يدخل الأستاذ المرشد مقر إحدى اللجان ويضبط بنفسه أمام أعضاء اللجنة مائة تذكرة انتخابية مزورة يحملها غير أصحابها من هؤلاء العمال ، ويقدمها لوكيل النيابة فلا يتخذ وكيل النيابة أي إجراء سوى أنه يتسلم التذاكر قائلا إنه سيجري تحقيقاً دون أن يفعل شيئاً

المنظر السابع : أمام هذه المهازل وهذا الإجماع لم تتألك نحن - الإخوان الزائرين - أعصابنا فوجدنا أنفسنا نهجم سيارات الجيش البريطاني المحملة بالعمال ونحاول منعها من دخول اللجان ، فإذا بقوات البوليس تهاجمنا بقيادة فيز باتريك الحكدار ، وقد رأيت هذا الحكدار الإنجليزي يأمر الجنود بحملنا في سيارات نقل جاءوا بها وحملت أنا شخصياً مع مجموعة من الإخوان إلى إحدى هذه السيارات وسط مناقشات حادة بيننا وبين هذا الحكدار . وبعد أن دخل رتل السيارات القادم من المعسكرات البريطانية والذي كنا نهجمه إلى مقر اللجان أمر هذا الحكدار بإطلاق سراحنا

المنظر الثامن : عند انتصاف النهار ، قرر الإخوان أن يقوموا بعمل عنيف قد يؤدي إلى وقوع ضحايا من الجانبين ، ويبلغ ذلك مسامع الأستاذ المرشد فيحضر حيث يجتمع الإخوان وينهى إليهم رأيهم بعدم موافقته على هذا الإجراء ويقول : إن دماء الإخوان أعز عليه من أن تسفك في سبيل معركة مهما بالغنا في أهميتها فإنها لا تعدو أن تكون معركة جانبية .

ولكن أهمية هذه المعركة الجانبية أنها كشفت لنا بوضوح حقيقة الاستعمار الذي يهجم على صدر بلادنا وحقيقة ساستنا الذين يتظاهرون أمام الشعب بالوطنية وهم في السر قد تعاقدا مع الإنجليز على أن يكونوا مطاياهم ونعالا في أقدامهم يدهسون بها رقاب الشعب المسكين

وينقضى هذا اليوم الأغبر ... وتعلن نتيجة الانتخابات بسقوط المرشد العام في الدائرة التي

يعلم كل مصري وكل عربي بل ويعلم العالم كله أن هذه الدائرة هي عقر داره ، وأن رجالها ونساءها وأطفالها لا يهتمون إلا باسمه ويؤثرونه على آباؤهم وأمهاتهم .

موقف مسرحي للإنجليز :

بدأت إقالة الملك لوزارة الوفد يوم إقالتها وكأنها انتصار للملك ... لا لأنه أقال وزارة وفدية - فقد أقال من قبل وزارات وفدية - وإنما لأن وزارة الوفد التي أقالها هذه المرة كانت مؤيدة تأييداً سافراً من الإنجليز ، ولا زال اقتحام الدبابات البريطانية سور قصر عابدين لإوغام الملك على استدعاء النحاس للحكم ماثلاً في الأذهان ... فكان الملك وقد تمكن من إقالة هذه الوزارة قد انتصر على الإنجليز وتغلبت إرادته على إرادتهم ...

ويبدو أن الإنجليز كانوا راغبين في إيهام الشعب بهذا المعنى فتظاهروا بأنهم غلبوا على أمرهم ... وتركوا وسائل إعلامنا تبرز هذا المعنى أيضاً حتى استقر ذلك في نفوس الشعب .

وقد استطاع الإنجليز - بهذا الموقف المسرحي - تحقيق الأهداف التالية :

الهدف الأول : أنهم حطموا الوفد باعتباره الهيئة الشعبية المسيطرة ، فقد دخل الوفد الحكم وله في نفوس الشعب الحب والإعزاز . وغادره فاقداً هذا الحب والإعزاز وحل محلها البغض والمرارة حيث عانوا في ظل حكمه شظف العيش وقسوة الحياة نتيجة ندرة مواد المعيشة ، واستيلاء الجيش البريطاني على أطياها ثم تسلط أتباع الوفد من كبار الموظفين والتجار على البقية الباقية من هذه المواد بالسلب والنهب والاستغلال .. وهو الهدف الذي أشرنا إليه من قبل عند مناقشتنا لحادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ... ولا يخفى أن الطريقة السافرة التي اختارها الإنجليز في ٤ فبراير لتمكين الوفد من الحكم هي في حد ذاتها قد زلزلت ثقة الكثيرين في الوفد - لكن ما ارتكبه الوفد من أخطاء في أثناء حكمه قد أتت على البقية الباقية له في النفوس ... وربما كان إحساس الوفد بنجاح سياسة الإنجليز في إفقاده ثقة الشعب هو الذي دفعه بعد ذلك إلى تغيير سياسته التقليدية في معاداة الملك وإبدالها بسياسة التزلف إليه والتلق له .

والهدف الثاني : أنهم رغبوا في إنشاء الشعب مرارة ما استقر في نفوسهم من آثار الاعتداء والصلف وامتهان الكرامة فيما اتخذوه من إجراء يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ .. وقد رأوا أن ظهورهم بمظهر المستكين المغلوب على أمره أمام السلطة الشرعية المثلثة في الملك مسحاً لهذه المرارة أو تخفيفاً منها على الأقل .

ويبدو أن هدف الإنجليز في هذا الصدد قد تحقق إلى حد كبير ، فقد كنت تسمع من الكثيرين في مختلف الأوساط يوم إقالة وزارة الوفد كلاماً فيه معنى الشماتة في الإنجليز .

والهدف الثالث : أنهم أرادوا أن يهيئوا جواً يحل الشعب على شوق لاستقبال الوزارة القادمة استقبال الأبطال المنقذين . الذين جاءوا رغم أنف الإنجليز ليسحوا عار يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ وليردوا للشعب كرامته وشخصيته .

وهذا ما تحقق فعلاً كذلك ؛ فقد بدا للناس كأنما استرد الملك كرامة الشعب في شخصه ، كما بدا لهم كأنما جاء الملك متحدياً سلطة الإنجليز بالرجال الذين هم أعداء الإنجليز ، بدليل أن الإنجليز يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ قرروا إبعادهم عن الحكم ... إذن فرحاً بهم رغم أنف الإنجليز ... وتظاهر هؤلاء الرجال بأنهم جاءوا إلى الحكم لإنقاذ الحرية رغم أنف الإنجليز .

انكشاف المؤامرة بين الإنجليز والسعديين :

خدع الشعب تماماً أمام مكر الإنجليز ونفاق السعديين ... والشعب معذور في أن يخدع فقد أحكم الإنجليز خططهم ، واستطاع الملك وأنصاره السعديون أن يتقنوا تمثيل الدور الذي رشعهم الإنجليز لأدائه ، ولم يكن الشعب يعلم شيئاً عما كان يدور خلف الكواليس قبل أن تفتح أمامه الستارة ليرى على المسرح هؤلاء الرجال وعلى رأسهم الملك وقد ظهروا وبأيديهم سيوف تقطر دماً مدعين أنه دم الإنجليز المعتدين .

ولم يظن الشعب إلى أن ما رآه على المسرح لم يكن إلا خدعة كان هو ضحيتها، ولم يبدأ يسترد وعيه شيئاً فشيئاً ، ويفهم ما كان يدور خلف الكواليس إلا بعد أن صدمته فاجعتان .

أولاهما : انتخابات الاسماعيلية وما أثبتته من أن تسلط الإنجليز وتبجحهم يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ لم يكن أوقع ما عندهم إذ أنهم كانوا في انتخابات الاسماعيلية أكثر تسلطاً وأشد وقاحة وتبجحاً .

ففي يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ لم يجدوا معاضدة في عدوانهم من السلطة الحكومية مثلاً في بوليسها ورجال إدارتها ، أما في الاسماعيلية فقد وجد العدوان الإنجليزي من بوليس الحكومة المصرية ورجال إدارتها ورئيس حكومتها عوناً بل خدماً يحمون عدوانه ، ويتهاونون على نيل الخطوة لديه ...

في ٤ فبراير كان عدوان الحكومة البريطانية موجهاً إلى الملك وإلى حفنة وراثة من صنائه

البشوات سدته شهواته وخدام نزواته ، ومطلب الإنجليز كان استدعاء الحزب الشعبي للحكم أى أنه كان مطلباً في ظاهره على الأقل في جانب الشعب ... أما في الإسماعيلية فقد كان عدوان الإنجليز مؤيداً بالملك وصناعه السعديين ، موجها توجيهها مباشراً وسافراً ضد الشعب نفسه ... مما لم يدع للشعب مندوحة للتعليل أو للتأويل أو لحسن الظن في أن هذه المظاهرة التي قام الملك بتدبيرها مع أذنايه السعديين لم تكن إلا خدعة للشعب ، واستخفافاً بعقليته ، واستهتاراً بقهقهه ووعيه ... ولم يعد عند الشعب أدنى شك في أن هذه الوزارة السعدية وعلى رأسها الملك ليست إلا صنعة حقيرة للإنجليز .

ومن سوء حظ الإنجليز وأذنايهم أنهم ظنوا أن معركة انتخابات الإسماعيلية لن تكون أكثر من معركة في دائرة من ثلاثمائة دائرة أو نحوها لن يشعر بما يدور فيها إلا أهل المنطقة .. ولم يدر بخلدكم أن جميع دوائر القطر ستكون مثلة يوم الانتخابات في هذه الدائرة ، وأن هؤلاء الممثلين سيجعون في اليوم التالي إلى بلادهم ويروون لأهل هذه البلاد ما شاهدوه بأعينهم من مآس واعتداء وإجرام .

وهكذا استيقظ الشعب المصري في اليوم التالي على فهم جديد ، ووعى جديد ، ونظرة جديدة إلى الناس وإلى الأمور وإلى الحكومة التي حانت إلى الحكم باسم حكومة التحرير والإنقاذ ، تحرير الشعب من ديكتاتورية الوفد ، وإنقاذ شرف البلاد من وصمة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ .

أما ثمانية الفاجعتين التي استيقظ الشعب على دويها فهي حيرته لم يحب الإنجليز تأييدهم لحكومة الوفد التي ضحوا في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ بجانب كبير من سمعتهم في سبيل إسناد الحكم إليها ، ثم نقلوا تأييدهم إلى الجانب الآخر الذي داسوه بأقدامهم في ذلك اليوم ؟ ...

ظلت الحيرة مستبدة بأفكار الشعب ، لا يجدون لها تعليلاً ، حتى استقرت الأمور لهذه الحكومة ، وحظيت بمجلس نواب صنعته بيديها بالمواصفات التي حددها الإنجليز ، حينئذ انطلقت القنبلة التي أفاق على دويها الشعب من حيرته ، حيث استبان له ما كان ملتبساً عليه ، وظهر له ما كان مستوراً عنه وتكشف السر الذي كان في طي الكتمان بين السعديين وبين الإنجليز وكان ذلك حين أعلنت الوزارة السعدية برئاسة أحد ماهر الحرب على المحور (ألمانيا وإيطاليا) .

وقد سبقت الإشارة من قبل إلى أن الإنجليز منذ أعلنوا الحرب على ألمانيا سنة ١٩٣٩ وهم يلحون على الحكومات المصرية المتعاقبة أن تعلن الحرب على ألمانيا تنفيذاً لبنود معاهدة سنة ١٩٣٦ فقد ألحوا في ذلك على وزارات على ماهر وحسن صبرى وحسين سرى ولكن لما كانت هذه

الحكومات ترى أن لا مصلحة لمصر مطلقاً في إعلان الحرب على دول لم تمسنا بأي نوع من أنواع الاعتداء ، فإنهم جميعاً أصروا على رفض هذا المطلب حتى صار رفضه سياسة عامة للدولة يقف وراءها الشعب كله بجميع أحزابه وطوائفه .

حتى وزارة الوفد التي جاء بها الإنجليز في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ عجز الإنجليز عن إخراجها في اتخاذ هذا القرار .. ويبدو أن هذا كان هو السر الحقيقي وراء تخلي الإنجليز عن تأييدها آخر الأمر لا سيما بعد أن عقدوا في الخفاء الصفقة مع السعديين .

وجاء أحمد ماهر مطمئناً إلى تأييد الإنجليز ، متحدياً إرادة الشعب التي أجمع عليها بكل طوائفه متجاهلاً شعوره وعواطفه ، وأعلن الحرب على المحور ، ظناً منه أن تأييد الإنجليز يحميه من غضب الشعب ، ولكن غضب الشعب كان أقوى مما يظن ؛ إذ قام شاب فدائي من غمار هذا الشعب الغاضب اسمه محمود العيسوي يعمل مجامياً فأفرغ فيه طلقات أودته قتيلاً ، ولما سئل محمود العيسوي في التحقيق عن الدافع الذي دفعه إلى قتل أحمد ماهر قال بصريح العبارة : إعلانه الحرب على المحور وما قد يجره ذلك على البلاد من دمار في حرب لاناقة لنا فيها ولا جمل .

أحمد ماهر

إذا وصل الرجل في قومه أو في دولته بأية وسيلة من الوسائل إلى مركز الصدارة سواء أكان هذا المركز شعبياً أو رسمياً فقد أصبح من حق الناس في قومه أو في بلده أن يعرفوا على تاريخه ، وأن ينقبوا عن دفائن أسرارهم ، وأن يتعقبوا ما يستخفى به من مسلوك بالليل وما يعلن به في النهار ، حتى يكشفوا عن حقيقة أمره ، ويميطوا اللثام عن كنه شخصيته .

وإذا كان لكل قوم خصائص ومثل ، وهذه الخصائص والمثل قد تختلف من قوم لقوم ومن شعب لشعب ، فلقد رأينا شعوب أوروبا وأمريكا لا يقوم فيهم زعيم ولا يتصدر رياستهم رئيس إلا كشفوا عن أمره - على ضوء هذه الخصائص والمثل - ما يجعلهم على بينة من حقيقة ، فإذا رجحت كفته رفعوه إلى مكان الصدارة بأكتافهم ، وحاطوه بقلوبهم ، وإذا خفت موازينه وكشفوا زيفه قذفوا به مع أمثاله المضللين إلى غياهب النسيان .

وما أجال الإسلام - باعتباره دعوة عالمية - كان بدءاً من الدعوات في هذه القاعدة السليمة والطبيعة المستقيمة فلقد تتبع القرآن شخصية محمد صلى الله عليه وسلم التي رشحها لقيادة الدنيا إلى يوم القيامة تبهما وصل به إلى أدق أسرار الشخصية في بيته مع نسائه . وجعل البحث في مثل هذه الأسرار من حق الأمة التي رشح لقيادتها .. ولا أعتقد أن شخصية من شخصيات العالم مهما بلغت

خطورة المنصب الذى أسند إليها أو الزعامة التى سيطرت بها قد أبيع اسمها أن يعرف من أسرارها الخاصة عشر مئشار ما عرف الشعب الإسلامى فى أنحاء العالم من أسرار محمد صل الله عليه وسلم

ومعذرة فى هذه المقدمة التى ذهبت بنا بعيداً عن واقع الحال الذى نعالجه فى مذكراتنا هذه عن بلادنا المغبونة الحظ ، المسلوقة الإرادة ، المحبى عليها دائماً .. فقد انفردت الأحزاب بهذا الشعب الطيب ، وشكلت تفكيره بالشكل الذى يرضيها ، فهو لا يتلقى معلوماته إلا منها ، ودرج - كما علمته - على أن يتلقى ما يتلقاه منها على أنه حقائق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

ولا أنكر أنه قد أتى على وعلى أترابى حين من الدهر كنا ضمن هذا الشعب المغرور به ، فكنا نتلقن من حزب الوفد المعلومات التى تبرز لنا أحمد ماهر هذا فى صورة البطل ، وفى صورة الإنسان المثالى .. حتى إذا انفصل عن الوفد وكون ما يسمى بحزب السعدين ، رماه الوفد بجميع النقائص ونسب إليه كل العيوب وجرده من كل المزايا .. واقتنع الشعب بذلك مع أنه كان مقتنعاً بالأمس بعكسه .

هذا منطق لا يقره عقل ولا يسيغه ذوق ... ولكن على هذا درج شعبنا المضلل ، وبهذا الأسلوب السقيم ارتضى لنفسه أن يسير فى الحياة معصوب العينين مشلول الإرادة وفى أذنيه وقر ومن بينه وبين الحقائق حجاب .

أما والإخوان المسلمون أصحاب فكرة مضيئة ، ومنهج واضح المعالم ، وغاية بينة القسما ، فإن الفرد منهم لا يضل ولا ينحرف لأن ميزانه بين يديه لا يفارقه لحظة ، يزن به كل شخص من تصرفه ، ويقيم ما يقابله من أفكار ومناهج وأهداف ، وصدق الله العظيم « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم »

فى فترة الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات كان المتخرجون - كما أسلفنا - فى مختلف الكليات لا يكادون يجدون - مع الوساطات - وظائف حتى باليومية ، وكان الواحد منهم يظل السنوات ذات العدد لا يجد عملاً .. وكان الأخ طاهر عبد المحسن قد تخرج فى كلية التجارة قبل بسنة أو ستين وظل هو وزملاؤه يبحثون عن عمل ... وتصادف أن أعلنت وزارة المالية عن وظائف عندها حامل بكالوريوس التجارة ستجرى مسابقة للمتقدمين منهم هذه الوظائف ؛ فتقدم الجميع آمليين أن يكون لهم من هذه الوظائف نصيب .

ثم أعلنت الوزارة عن المسابقة وحددت لها تاريخاً وساعة معينة فى ذلك التاريخ . كما حددت

مكاناً معيناً هو ديوان وزارة المالية ؛ فاستعد طاهر لهذه المسابقة . فلما جاء اليوم المحدد فوجئ طاهر بأن هذا اليوم المحدد بالتاريخ يوافق يوم الجمعة وأن الساعة المحددة هي الساعة الثانية عشرة ظهراً ... ومعنى هذا أن الذين سيحضرون هذه المسابقة سيتركون صلاة الجمعة ، فاعتم طاهر لذلك وعزم على أن يذهب قبل الميعاد بساعة إلى ديوان الوزارة ليتقدم بشكوى إلى الوزير ضد هذا الموظف المستهتر الذي حدد هذا الميعاد ، ويطلب منه تأجيل هذا الميعاد حرصاً على أداء صلاة الجمعة ...

وذهب طاهر إلى ديوان الوزارة ، واستفسر عن اسم الموظف الذي حدد الميعاد ففوجئ بأن الذي حدد الميعاد هو الوزير نفسه ، وأنه هو الذي سيمتحن المتقدمين للمسابقة بنفسه .. فطلب مقابله فلما دخل عليه شكاه له طاهر من أن هذا الموعد سيضيع على من يحضرون المسابقة صلاة الجمعة وطلب منه تأجيله إلى ما بعد صلاة الجمعة .. فرد عليه الوزير رداً وقحاً فيه كل الاستهتار والاستهزاء بالدين وبصلاة الجمعة وبالصلوة على اختلافها . فثار طاهر عليه ولعنه وألقى بخطاب الوزارة في وجهه وخرج تاركاً هذه المسابقة لهذا الوزير الوقح البذي المستهتر ... وجاء في المساء إلى المركز العام وقص علينا القصة .

أتعرف أيها القارئ من هو هذا الوزير ؟ إنه الدكتور أحمد ماهر

وبأي مقياس قاسه طاهر عبد المحسن ... وبأي ميزان وزنه ؟ إنه بمقياس الفكرة الإسلامية وميزانها الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزىل من حكيم حديد .

وقد شاء الله أن يكشف لنا حقيقة هذا الرجل مبكراً ... فكثير من الناس لا يصلون .. ولكن أحدهم حين يواجه بهذا يقر بخطئه وتشهر بأنه في خجل من هذا الخطأ ... أما هذا الرجل الذي هو في منصب وزير وليس فوقه سلطة تلزمه بتحديد ميعاد في وقت معين فيقوم متطوعاً مختاراً بتحديد اليوم بيوم الجمعة وتحديد الساعة بالثانية عشرة ظهراً ... ثم يواجه بهذا الخطأ فيكشف عن أنه اختاره متحدياً شعور المسلمين الذين ينتسب إليهم زوراً وبهتاناً . مثل هذا الرجل هو من أشارت إليهم الآية الكريمة « وإذا ناديتهم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » وقوله تعالى « أرايت من اتخذ إلهه هواه وأصله الله على علم وحتم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله »

المأسونية :

يلزمنا سياق الحديث ونحن نكشف اللثام عن شخصية أحمد ماهر أن نلقي بعض الضوء على

الماسونية حتى يكون هذا الإسم أو هذا الاصطلاح دأمدلول عند القارئ ..

ولفظ الماسون كما يفهم من لفظه الفرنسى فيه معنى البناء وقد نشأت الماسونية في أوروبا وأطلقت على نفسها هذا الإسم مدعية أن الماسونيين هم البناء الأحرار وكان ذلك منذ أكثر من قرن من الزمان وهى فكرة يهودية من الأفكار التى وضع اليهود أسسها بعد أن حددوا أهدافها الحقيقية التى احتفظوا بها لأنفسهم ولكنهم أعلنوا لها أهدافاً أخرى لامتت إلى هدفها الحقيقى بسبب . فأهدافها المعلنة هى :

«أنهم يريدون إيجاد أخوة عالمية تذوب في غمارها فوارق العقيدة والقومية والوطنية» وهذا الهدف يبدو للرجل الخالى انذهن القليل التجارب هدفاً إنسانياً راعياً تهفو إليه النفوس وتهافت عليه القلوب ... إنها إخوة إنسانية رفيعة .

ولكن هاك حقيقة هذا الهدف . :

إن خطورة هذا الهدف إنما تكمن في نصفه الأجير الذى يقول : تذوب في غمارها فوارق العقيدة والقومية والوطنية .

فالإسلام إنما جاء وهدفه هو إيجاد أخوة عالمية «يأبها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شملواً ولقبائل لتعارفوا» ولكن إذابة فوارق العقيدة والتومية والوطنية هى بمثابة الديناميت لهذا الهدف كن ببنى صرحاً شامخاً ويضع في أساسه ديناميتاً يكفى لنفسه ونسف ماحوله من صروح ... وتوضيحاً لذلك أضرب المثل التالى :

إذا كنت ماسونياً مسلماً فأخوتك العالمية هذه تقتضيك أن تفضل أخاك في الماسونية ولو كان غير مسلم أو كان ملحداً على إخوانك في الإسلام ..

إذا كنت ماسونياً مصرياً فأخوتك العالمية هذه تقتضيك أن تفضل أخاك في الماسونية ولو كان غير مصرى على إخوانك في الوطنية .

إذا كنت ماسونياً عربياً فأخوتك العالمية هذه تقتضيك أن تفضل أخاك في الماسونية ولو كان غير عربى على إخوانك في القومية العربية .

ومعنى هذا بأسلوب أوضح إذا كنت عربياً مصرياً مسلماً وكنت ماسونياً وطلب إلى المصريين مقاتلة الإنجليز المستعمرين لإخراجهم من مصر فإذا رأيت هؤلاء الإنجليز المستعمرين لبلادك إخواناً لك في الماسونية فعليك في هذه الحالة أن تفضل هؤلاء الإنجليز على بنى وطنك وأن

لا تقاتلهم بل عليك أن تعمل على ما فيه مصلحتهم وإن كان في ذلك قضاء على مصالح بلادك وعلى تحريرها . وإذا قيل لك إن اليهود في فلسطين قد قتلوا المسلمين والنصارى وانتزعوا أرضهم وعليك أن تقاتلهم ثم وجدت أن هؤلاء اليهود إخوان لك في الماسونية فهم عندك أفضل من المسلمين والنصارى أصحاب البلاد وأصحاب الأرض وأصحاب الحق وكنت في جانب اليهود وضد أهل دينك وقوميتك وأهل الحق .

ومعنى هذا على المستوى الواقعي أن شعباً تنتشر فيه الماسونية سيكون شعباً متخاذلاً متفككاً لا يدافع عن نفسه ولا يطالب بحقوق وطنه ولا يستجيب لنداء دينه .

فإذا كان أفراد من الماسونيين في هذا الشعب المهيبض الجناح ذوى مناصب مرموقة وذوى نفوذ وسلطة فإنهم سيكونون أشد بلاء على بلادهم وعلى قومهم وعلى دينهم لأن ماسونيتهم تهيء لهم فرص التواطؤ مع الأعداء على بلادهم وقومهم ودينهم ، إذا ما كان هؤلاء الأعداء من الماسونيين وواضعو أسس الماسونية تواطؤوا في وضعها مع الطبقات الحاكمة في دول أوروبا على أن تكون الماسونية في خدمة أغراضهم وعلى أن يكون الشرف الإسلامى بما فيه من كنوز وخيرات هدية تقدم اليهم بين يدي أطماعهم واستغلاهم ، ففي عصر الاستعمار الذى كانت انجلترا فيه رائدة ركبه كان رؤساء وزارتها ووزراء خارجيتها من الماسونيين ، فهم يخدمون أغراض اليهودية العالمية من ناحية باعتبارها صاحبة الفضل عليهم وعلى بلادهم ولأنها من ناحية أخرى هيأت لهم عن طريق الماسونية بلاد الشرق ليلتهموها لقمه سائقة على أساس نشرهم الماسونية في ربوع هذا الشرق الغافل .

الطريقة العملية للماسونية : وليست الماسونية نظريات تدرس ويتجادل حولها ولا أفكار صاغها مفكرون لمجرد أن تكون غذاء فكرياً كدأب النظريات والأفكار التى تمخضت عنها عقول الفلاسفة ، بل إنها نظام عمل وضع للتنفيذ من أول يوم وضع فيه والذين وضعوه حاكوا بوضعه مؤامرة خطيرة ضد نظام هذا العالم المتأسك لتقويضه من أساسه وتحويله إلى ألوية فائدة الإرادة في يد اليهودية العالمية التى هانت على نفسها وعلى العالم ، فلا هى بعدها المحدود تستطيع أن تخضع العالم لإرادتها ، ولا هى مستطاعة أن تقنع بنصيبها في الحياة باعتبارها أقلية من الأقليات . وإذن فلا سبيل أمامها لتحقيق أطماعها إلا بحبك مؤامرات لتفكيك أواصر هذا العالم حتى تتمكن من تحقيق أطماعها وترضى دفين أحقادها .

ويقوم النظام الماسونى على السرية المطلقة وعلى أساليب الإيجاء والإحاطة بهالات من الأوهام وعلى الرموز والألقاب التى اشتق أكثرها من المعابد اليهودية .

وكان لا يمكن هذا مقام تفصيل هذا النظام ، وحسبنا مجرد الإشارة إلى أسسه التي يقوم عليها حتى تتاح فرصة أخرى للفاضة في شرحها ، ولتعد إلى الحديث عن الشخصية التي تطرق اليه عنها وإلى إلقاء بعض الضوء على الماسونية وآثارها في بلادنا فنقول :

إن الماسونية قد غزت مصر والبلاد العربية منذ أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، وساعد على غزوها هذه البلاد وجود الاستعمار ووجود جاليات من اليهود بعضهم من أهل البلاد وبعضهم الآخر قدم من أوروبا ... وكان هؤلاء اليهود لا سيما الأجانب منهم هم نواة المحافل الماسونية في مصر والبلاد العربية (المحفل الماسوني هو النادي أو المقر الذي يجتمع فيه الماسونيون في بلد من البلاد أو في حى من أحياء عاصمة كبيرة ، وغير مسموح لغير أعضائه بدخوله . وإذا دخلته وجدته صورة طبق الأصل من المعبد اليهودي حيث ترى المذبح والقناديل والتراثيل والملابس الرسمية السوداء) .

ولقد رأى الفاضل أن يكون اليهود الأجانب نواة هذه المحافل لأن هذا الصنف من اليهود كانوا يمثلون أرفع المراكز الأدبية والمادية في البلاد ففى الوقت الذى كانوا يسيطرون فيه على اقتصاد البلاد ومرافقها كانوا يتمتعون بقسط لا بأس به من العلم والثقافة ، وكانوا باعتبارهم أجانب في بلد مستعمر طبقة متميزة يمتنى الكثيرون من أهل البلاد أن يحدوا لهم مكاناً بالقرب منها . وتهاافت الكثيرون من سكان الريف والمدن على التمسح بهذه الطبقة . فوجدت هذه الطبقة الفرصة المواتية لتختار من بين هؤلاء المهاجرين الهيموعة التي جاءت الماسونية لاصطيادها ، وهما طائفتان :

١ - طائفة حلة الأذهان ، طيبو القلوب ، سريعو الاستجابة ، طيعو الانقياد من أسيان الريف وقهار المدن .

٢ - طائفة المثقلين ذوى الأطماع الذين لا يتقيدون بدين ولا يتمسكون بمبدأ ولا يعترفون بمثل

وتكونت المحافل في أنحاء البلاد لا سيما في المواسم التي تؤثر في الحياة الاجتماعية والحياة السياسية في سائر البلاد .. والاسلوب المتبع هو أن يشعر كل هؤلاء المنتسبين إلى الماسونية من الطالعين بمزايا ملموسة لهذا الانسحاب ، فهناك في جميع المحافل إشارات سرية يتعلمونها ، فإذا دخل عضو ماسوني متجراً أو مصنّعاً أو محكماً أو إدارة حكومية وكان له حاجة يرجو

لقضاءها ، فما عليه إلا أن يؤدي هذه الإشارة فاذا رأى من يبادله مثلها علم أنه أخوه في الماسونية وتلقى حاجته فوراً ويقدم على غيره مهما كان غيره أحق منه .

وكثيرون من التجار والزراع والصناع والموظفين ، حسنت أحوالهم وأخذ بأيديهم إلى أعظم الأوصاف وأرق المناصب عن هذا الطريق .. وضمن قادة الماسونية بذلك وجود قاعدة عريضة لهم في أحشاء الشعب تدين لهم بالولاء وتسبح لهم بالحمد .

ولما كانت الناحية السياسية في ذلك الوقت وفي تلك البقعة من العالم هي بيت القصيد ، فقد عكف القادة الموجهون على العناية بعدد من أفراد الطائفة الثانية لهم صلة بالأحداث السياسية ، فهدوا لهم أسباب البروز - وكانت إذ ذاك في أيديهم - وفتحوا أمامهم طريق المناصب العليا في الدولة حتى وصلوا بهم إلى حيث ينتهي إليم توجيه السياسة في البلاد ، فوجد الشعب هؤلاء يتصدرون إدارة الحكم في البلاد دون أن يعرف كيف كان وصولهم لا سيما والأصابع الخفية للماسونية تحرق البخور أمامهم وتنفتح في أبواق المجد من خلفهم والشعب الذي لا يدري من أمر نفسه شيئاً مأخوذ بهذه المآلات التي أحيط بها هؤلاء الصناع المدسوسون عليه والمزورون في الانتساب إليه .

القطب الأعظم : ومن هذه الشخصيات «أحمد ماهر» فقد تولوه يافعاً وعكفوا على العناية به شاباً وكهلاً حتى وصلوا به في مراتب الماسونية إلى أعلاها فقد صار «القطب الأعظم» ، كما وصلوا به في مناصب السياسة حتى صار «رئيس الوزراء» .

وإنه لما يثير الأسف والإشفاق معاً على شعبنا المصري وشعوبنا العربية أنها لم تكن حتى ذلك الوقت تنظر إلى الماسونية نظرة تشوبها أية شكوك أريب بل إن بعض المنتسبين إلى الماسونية - كانوا يخرجون على ماتعهدوا به من الكتمان - ويذكرون لذوهم والمحيطين بهم على سبيل الفخر أنهم ماسونيون ويمجدون فيمن حولهم من يغبطونهم على هذا المقام العظيم .

والله وحده يعلم كم من المزايا حققتها الماسونية العالمية لخلفائها المستعمرين على حساب مصالح بلادنا عن طريق هؤلاء الذين توفرت على تغذيتهم والعناية بهم وفتح الطريق أمامهم حتى بوأهم أعلى مناصب الدولة دون أن يحس الشعب التائه المسكين .

ولم يكن أحد ماهر وحده هو الذي تبنته الماسونية العالمية بل إن هناك كثيرين غيره قد وصلوا إلى مناصب الوزراء عن هذا الطريق وما يزسى له أن بعض هؤلاء كانوا من أسر ذات سمعة دينية وكانوا من نساء الأزهر الشريف ...

وننقل للقارئ هنا ما نشرته جريدة الأهرام في ٢٠-٣-١٩٤٥ بعد اغتيال أحمد ماهر تحت عنوان : « وفد الماسونية السورية والبنانية » :

« قدم إلى القاهرة وفد يمثل الماسونية في سوريا ولبنان لحضور حفل التأسيس التي ستقام للمفطور له الدكتور أحمد ماهر باشا بوصفه « القطب الأعظم » للمجلس الماسوني السامي في مصر وملحقاتها وهي سوريا ولبنان والبلاد العربية - وهذا الوفد مؤلف من الأساتذة حسين اللاز وإلياس فازان وخليل النصول وميشيل حداد ومترى الصدى - وقد نزل حضراتهم ضيوفاً على المحفل الأكبر الوطني المصري .

ولا أنكر أن الأيام تطورت بعد ذلك وعمل التاريخ عمله وجاء قوم ممن تعلموا في مدرسة الإخوان المسلمين ففهموا الخفايا التي يجهلها الشعب عن الماسونية وغيرها ، وتصدروا منصة الحكم في مصر فألغوا الماسونية باعتبارها أداة للاستعمار ... غير أن كل ما فعلوه لهذا الإلغاء هو صدور أمر أو قرار بذلك دون أن يستأصلوا جذورها أو يلذوا ما خلفت من آثار جعلت الشعب يشعر حتى اليوم أنه يعيش في حياة متناقضة فالماسونية تلغى ولكن تمجيد قادتها مازال أمراً واقعاً فالمؤسسات لازالت تحمل أسماءهم والشوارع والميادين تسمى بأسمائهم .

على هامش قضية اغتيال أحمد ماهر :

تولى رئاسة الوزارة بعد مقتل أحمد ماهر زميله وصديقه وظله محمود فهمي النقراشي فأمر بإحالة القضية إلى المحكمة العسكرية العليا برئاسة محمود منصور بك وعضوية حسن حمدي بك واثنين من العسكريين ... وقد ترفع عن المتهم على بك بدوى فدافع دفاعاً رائعاً ، ودفع بعدم اختصاص القضاء العسكري . وتبين أن المتهم كان منتسباً إلى شباب الحزب الوطني .

وفاجأ المتهم المحكمة بأنه يطلب النقراشي شاهد نفى فسألته المحكمة عن أسباب ذلك فقال : أولاً : إن دولته يعلم أن الحرب كانت ستعلن هجومية وترسل قوات إلى الشرق الأقصى وأوروبا ، وأن هذا الوضع تغير بعد ارتكاب الحادث .

ثانياً : أن إعلان الحرب كان بناء على تدخل الإنجليز وكان أحمد ماهر والنقراشي عند السفير البريطاني في يوم الحادث مما يدل على أن هناك تدخلا من الإنجليز في شئون مصر الداخلية .

ثالثاً : أن النقراشي قال في شخصياً إن الحكم في هذه القضية سيكون رادعاً .

وقام على بك بدوى وأيد هذا الطلب .

من دفع على بك هد القضاء العسكري : جاء في دفع على بك بدوى بعدم اختصاص القضاء

العسكري نظر هذه القضية ما يل :

«إنه لا يجوز نزع المتهم من قصاته العاديين الطبيعيين وهم قضاة محكمة الجنايات ، وليس معنى هذا أنني أشك في القضاء العسكري أو أفاضل بينه وبين القضاء العادى ، وإنما في القضاء العادى وسائل تجعل المتهم أكثر اطمئناناً ، وفي ضمانات لحرية دفاعه والتأني في محاكمته .

وفي القضاء العادى أربع درجات هي الإحالة ومحكمة الجنايات ومحكمة النقض ومرتين في بعض الحالات . والإحالة مرحلة مهمة ؛ فقاضى الإحالة ليس قنطرة كما يراه البعض ، بل هو يملك بنص القانون تعديل وصف التهمة ، وقد يكون هذا التعديل في صالح المتهم .

ثم إن المحكمة العسكرية تستطيع أن تحكم بالإعدام مثلاً غيابياً ، وينفذ الحكم عند اعتقال المتهم دون سماع دفاعه . أما القضاء العادى فيظل الحكم معلقاً حتى يقبض على المتهم فيسقط الحكم وتعاد محاكمته من جديد . فالمتهم قد حرم من كل هذه الدرجات .

ثم إن نظر القضية أمام المحكمة العسكرية يؤدي في النهاية بعد الفصل فيها إلى شيء من الحرج ، فقد يكون هناك وجه بنقص الحكم الصادر بالإعدام مثلاً وبه أخطاء تستدعى نقضاً ، فترى النيابة حرجاً من الإشارة إلى هذا الخطأ ، كما يرى دولة الحاكم العسكري حرجاً في إلغاء الحكم إذا تبين له خطأ نظراً لصلة الصداقة الوثيقة بدولة القتل ، فالمتهم لا يطمئن إليه كسلطة نقض نظراً لما يربط بينه وبين الوثيق من الصلة القوية ، ولحرصه على أن تكون العقوبة رادعة شديدة ، فهو لا يرضى لنفسه هذا الموقف ففى قبول الدفع رفع الحرج الشديد عنه .

وكان تكوين هذه الدائرة وإسناد رياستها إلى محمود منصور بك ذا دلالة خاصة ربما وضحت هذه المذكرات ذلك في مواضع قادمة إن شاء الله حتى إن المتهم ألح في طلب إحالة القضية إلى دائرة أخرى وقال إن هذه الهيئة أصدرت حكماً في قضية مشابهة استبعدت فيه الصفة السياسية للجريمة بل اعتبرت هذه الصفة ظرفاً مشدداً ... وقد رفضت المحكمة هذا الالتماس مما اضطره إلى التقدم بطلب رد المحكمة وقد رفضته المحكمة أيضاً .. وطلب المتهم شهادة النقراشي والنحاس وعلى ماهر ومكرم عبيد وحافظ رمضان والدكتور محمد هاشم وعبد العزيز الشوربجي وفتحى رضوان والأستاذ حسن البنا . ورفضت المحكمة هذا الطلب في أول الأمر فلما هدد على بك بدوى بالانسحاب

وافقت على دعوتهم فلما حضروا قررت سماعهم في جلسة سرية وقد احتج على بك على ذلك ولكن المحكمة أصرت .

وعلى العموم فإن هذه القضية والأساليب التي اتبعت في إجراءاتها كانت وصمة عار في جبين القضاء المصري فحسبك أن تعلم أن قضية حول المتهم فيها اتجاه الحكومة الذي كان مبيتاً مع السفير البريطاني من إعلان حرب هجومية على المحور إلى حرب دفاعية وأدلى بالشهادة فيها جميع زعماء البلاد ، هذه القضية لم يستغرق نظرها أمام هذه الدائرة إلا نحو أسبوعين ، ، فكأنما كانت هذه الدائرة مجرد بوق لتتطرق بالحكم الذي هدد به رئيس الحكومة النقراشي المتهم عندما قابله في أثناء تحقيق النيابة معه ... وخير ما تلخص به هذه القضية وهذه الدائرة أن ثبت هنا ما حتم به الأستاذ الكبير على بك بدوى مراقبته التي استغرقت ثلاثة أيام حيث قال :

«وهناك كلمة أخرى أريد أن أقولها وهي أنه متى تجتمع روح الفقيد وروح هذا الشاب أمام الله فإنه سيحكم بينهما بعدله المطابق دون فارق بين هذا وذاك ... وقد تقدمت لحضراتكم بدفع شكلي وبدفاع موضوعي . ودفاعي في الموضوع كله ظروف تبرر إنقاذ المتهم من الإعدام ؛ فإن قضيتهم على شكلي وحكمهم برفضه فإنني سأبكي المبادئ القانونية أحر اليكاه ، وإن تبتزم دفاعي وقضيتهم بإعدام هذا المتهم فإنني سأبكي من بعده أخلاقه النبيلة وحال هذه الأمة التعمسة » .

البَابُ الرَّابِعُ
فِي مَسِيرَةِ الْحَمِيدِ الْجَدِيدِ
فِي السَّارِ الْجَدِيدِ
بَعْدَ انْتِهَاءِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ

الفصل الأول

وصول الدعوة إلى قمة النفوذ الشعبي

مقدمة

بحلول عام ١٩٤٤ كانت الدعوة قد وصلت إلى أوج الذبوع والانتشار ؛ فلم يعد مكان في مصر يغفل عن دعوة ، كما أصبحت الجامعة والأزهر للعتين من قلاع الدعوة ، وصار للدعوة وجود في كل بلد عربي ، كما صارت البلاد الإسلامية الأخرى تعتبر الإخوان في مصر قيادة لها .. صار الإخوان في مصر أعلى صوت شعبي ، وصار لهم أقوى نفوذ على مستوى الأمة بأسرها ؛ وذلك كما أشرت من قبل بفصل التكتيك البعيد المدى الذي حصن الأستاذ المرشد به خطوات الدعوة حيال الجبهات المختلفة الحاكمة .

اتجه الجميع يخطبون ود الدعوة ، وينثرون الزهور في طريقها ، وحاول الكثيرون من الشخصيات البارزة أن يحدوا لهم أماكن فيها ، ولم تعد ترى المركز العام في ليلة من الليالي خالياً من وفد يمثل بلداً عربية أو إسلامية ... حتى أبناء الأسر الأرستقراطية بدأوا يتطلعون إلى أماكن لهم فيها ، وما كان للدعوة أن ترفض أى إنسان يتقدم إليها «ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً» .

ومن النماذج الفردية التي خطبت ود الدعوة في ذلك الوقت ، وكانت ملفتة للنظر ومثيرة للاستغراب الأستاذ عباس محمود العقاد ؛ فقد كان معروفاً عنه أنه رجل يخطط لنفسه في الحياة خطأ لا يلتقي مع الدعوة في يوم من الأيام .. وجدنا هذا الرجل يتقرب إلى الدعوة ويمد لها يده ، ويدعو سعيد رمضان إلى بيته ويطلب إليه أن يبلغ الأستاذ المرشد إجلاله واحترامه ، وأنه يرى فيه أعظم شخصية لمصلح ، وأن هذه الدعوة هي الأمل الوحيد الذي يجب أن تركز له كل الجهود حتى تنفذ البلاد من الاستعمار الداخلي والخارجي .

ويأتى سعيد فيبلغنا ذلك فنتعجب ، ونزداد تعجباً حين يذكر لنا أن العقاد متفعل بالدعوة كل الانفعال وأنه اتصل به عن طريق « مكوجى » كان يكوى الملابس للعقاد فسأله العقاد : ألا تعرف سعيد رمضان ؟ .. فقال إنه يكوى ملابسه عندي وأعرفه ، فطلب إليه العقاد أن يعرفه

بسميد ... ويقول سعيد إن العقاد استخلفه أن يكثر من ريارته وأن لا ينقطع عنه لأنه يريد أن يسمع منه الكثير عن الإخوان المسلمين

حديث الثلاثاء :

ظل الأستاذ المرشد مواظباً على إلقاء حديث الثلاثاء من أول يوم عرفت فيه دار الإخوان سنة ١٩٣٦ ، ولعله كان مواظباً عليه قبل ذلك ... ولقد كنت أحضر هذا الحديث في المركز العام في شارع الناصرية ولا يكاد ينعدى عدد الحاضرين فيه أصابع اليدين ، وقد أشرت إلى الوسائل التي كان الأستاذ يلجأ إليها محاولاً جذب انتباه سكان هذه المنطقة من حي السيدة زينب إلى دار المركز العام لعل عدد من يحضرون هذا الحديث يتضاعف ، ومع ذلك كله لم يتضاعف .

وبانتقال المركز العام إلى ميدان العتبة ازداد عدد من يحضرون هذا الحديث أو المحاضرة فكان في بعض الأحيان يزيد على المائة ، ولما انتقل المركز العام إلى ميدان الخلمية الجديدة في الدار الأولى تضاعف العدد فكان يصل إلى المائتين والثلاثمائة فلما اشترى الإخوان قصر آل «أبو حسين» وهو المبنى المقابل لهذه الدار - ضاقت الداران بفناء يهما وحجراتهما بمن يحضرون هذا الحديث فاحتشد أكثر الحاضرين في الميدان والشوارع المحيطة بالدارين وصار حديث الثلاثاء شيئاً آخر ؛ تحول إلى مؤتمر كالمؤتمرات التي كان يعقدها الإخوان كل عام أو كل عامين ولكنه يعقد كل أسبوع ، ويحضره أكثر من كانوا يحضرون المؤتمر السنوي . وتمثل فيه شعب القاهرة - على كثرتها - كما يفد إليه الكثيرون من الأقاليم ، وأصبحت تناقش فيه قضايا الساعة .. ولذا فإن صدى هذا المؤتمر الأسبوعي كان يتردد في جنبات جامعة القاهرة ، فيصل صدها إلى جامعة الإسكندرية ، وتجد الجامعات تجاوباً من الأزهر العتيق ؛ كلها تنشد نغمة واحدة ، ونضرب على وتر واحد ، هو نفسه الذي تطرب له جنبات الوادي من أقصاء إلى أقصاء ، ثم ترتد النغمة المرسل - بعد سياحتها الطويلة - إلى مصدرها في المركز العام للإخوان الذي صار بالنسبة لمصر مركز الثقل الذي تنتهي إليه الآمال أو مركز الدائرة ينبعث منه الإشعاع :

لقد كان مآل إليه حديث الثلاثاء في أواسط الأربعينيات مفاجأة خدمت قلوب الإنجليز والقصر والأحزاب ... ما كانوا يعتقدون أن هذا الرجل ذا اللعبة السوداء ، المدرس الابتدائي ، الذي رمى نفسه أن يخرج مهزوماً من معركته مع الأحزاب الملكية حين قررت نقله إلى قنا ، ومن معركته مع الوفد حين قرر ترشيح نفسه في دائرة الإسماعيلية لمجلس النواب ... ما كانوا يعتقدون أنه قادر على انتهاز فرصة انشغالهم ، بالكيد بعضهم لبعض ، فيفعل بهذا الشعب ما يشبه

السحر حتى استطاع أن يصهره بمختلف أحزابه وطوائفه في بوتقة أفكاره ومبادئه وأخرج منه صفاءً كالبيان المرصوص .

لم يعد في مصر من يستطيع أن يجمع حوله كتل هذا الشعب شبابه ونشأته ، رجاله ونسائه وأطفاله غير حسن البناء ... لم يعد أى حزب من الأحزاب أو هيئة من الهيئات حتى الوفد يستطيع أن يحظى في مؤتمر مهما حضره شهوراً بعدد من الناس يعادل عدد من يحضرون حديث الثلاثاء كل أسبوع بغير تحضير وبغير دعوة ... حتى الحفلات التي يقيمها الملك في ليالي شهر رمضان ويدهو إليها الشعب ليسمعوا مشاهير القراء وليجلسوا على الأرائك الوثيرة وتقدم لهم أطيب المربطات ... حتى هذه الحفلات لا تحظى بمثل العدد الذي يحضر حديث الثلاثاء بغير دعوة وبدون مقاعد .

إن حديث الثلاثاء كان وحده كافياً أن يكون مقياساً صادقاً أقر بصدقه الجميع حكومة وقصرًا وهيئات وأحزاباً يدل على قوة الإخوان وعلى أنهم أصبحوا من القوة بحيث لا يستطيع مواجهتهم ولا حتى منافستهم .

من أراد أن يرى الشعب كله يجمع طوائفه وطبقاته وثقافته وتجارته وصناعه وفلاحيه وعماله ورجاله ونسائه فليس أمامه إلا منصة واحدة إذا وقف عليها وتطلع من فوقها رأى هذا الشعب هي منصة حديث الثلاثاء .

الجوالسة :

وكما تطورت محاضرة الثلاثاء أو حديث الثلاثاء حتى صارت مؤتمراً حاشداً ضاقت به الأمكنة على اتساعها ، فازدحمت بمن يحضرونه الشوارع وقوفاً على أقدامهم الساعة والساعتين بلا فوجر ولا تأفف ، فكذلك تطورت جوالسة الإخوان المسلمين حتى صارت جنداً كثيفاً يفرح لرويته قلب كل مؤمن ، ويحترق غيظاً وكداً قلب كل متكبر حقود .

منذ دخل نظام الكشافة مصر ، كانت الفرق التي تنشأ لا تضم الفرقة الواحدة منها إلا صنفاً واحداً وطبقة واحدة ففي المدارس فرق كلها طلبة وفي المصانع فرق كلها عمال . وفي النوادي فرق للطلبة وفرق أخرى للعمال ؛ ذلك أن الطلبة يرون أنفسهم صنفاً أرق من العمال فهم يستنكفون أن تجمعهم والعمال فرقة واحدة .

أما فرق جوالسة الإخوان المسلمين فترى في الفرقة الواحدة الطالب بجانب العامل ، والفلاح بجانب المدرس ، والتاجر بجانب إمام المسجد ، والصانع بجانب المهندس ، والمروء بجانب الرئيس والشاب بجانب الشيخ ؛ ذلك أن هؤلاء جميعاً على اختلاف أستانهم ومؤهلاتهم ومنهم

وطبقاتهم الاجتماعية والاقتصادية . والثقافية ، لم ينخرطوا في سلك الجلالة إلا بعد أن صهروا في بركة الدعوة الإسلامية ثم صيفوا من جديد صياغه نزعته من نفوسهم الانانية والآثرة والكبر والتعالى . وأحلت محلها روح الأخوة والإيثار والتواضع والحب .

وإذا كانت فرق الكشافة والجوالة في مختلف الأنحاء لا تتعدى أهدافها إسعاف غريق ومساعدة شيخ ضعيف وتجهيز كسر ، فإن جوالة الإخوان المسلمين كانت أهدافها أبعد من ذلك مرمى ، وأشق ظريفاً ؛ فكل جوال مهم نذر نفسه أن يكون فداء للمجتمع ، ويعتبر انخراطه في سلك الجلالة طريق الإعداد ليوم الجهاد .. ولعل هذا هو الذي جعل الناس ينظرون إلى جوالة الإخوان المسلمين نظرة أخرى غير تلك التي ينظرون بها إلى الجلالة الآخرين .

ولم أنك شاهدت عرضاً لجحافل جوالة الإخوان المسلمين وهي تتحرك في شوارع القاهرة في شجاعة ونظام وعلى رأسها الأخ الكريم سعد الدين الوليلي ، لأحسست بالفخر والاعتزاز أن أصبح لحق والفضيلة حماة أشداء وجنود أوفياء .

ولم تكن هذه الجحافل قاصرة على القاهرة وإنما كانت كل حاضرة في القطر تعز بجحافلها وتنساب منها روح الفخر والاعتزاز بالحق إلى أهلها ، ولم تخل شعبة بهذا صغر حجمها وبعد مكانها من فرقة خاصة بها تجمع شبابها وشيوخها .

ولم يكن هؤلاء الجنود يحطمون الحمارات أو يقتحمون أماكن الفجور أو يتعقبون الأشرار والمفسدين ومع ذلك فإن الفساد والفجور والشر كان يتوارى خوفاً وفرعاً من هذه القوة التي علموا أنها من وراء الحق والفضيلة ، ولم يعد أحد من كانوا يجاهرون بالرديلة يستطيع أن يرفع رأسه ، بل إن كثيرين من هؤلاء أفلحوا عن الشر وتابوا ، واتخذوا أماكهم في صفوف هذه الجحافل ... وصدق الله العظيم إذ يقول «لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون» و إذ يقول «عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم» وكان الأستاذ كثيراً ما يقول « لا قيام للباطل إلا في هفلة الحق » .

أثر الجلالة في نفوس الشعب : انقسم الشعب من ناحية تأثير الجلالة إلى الفئات لآتية فئة كانت تحلم بأن ترى للإيمان والحق والفضيلة قوة تحميها ، فلما تحقق الحلم ورأت بعينها هذه القوة سارعت إليها وانصوت تحت لوائها مقدمة نفسها ودمها وماله في سبيل تحقيق هذه الأهداف السامية ، وهذه الفئة كان منها الشاب والكهل والشيخ والفقير والغنى والامى والمتقف وبعض هؤلاء كانوا من أنشط المنتسبين إلى الهيئات الأخرى والأحزاب .

وفئة أخرى كانت تائهة في بدهاء الحياة ، تتقاذفها الرياح وتلقى بها في كل اتجاه ، وهي لاتعرف لنفسها اتجاهاً ولا مستقراً ، لم تجد في توهانها من يمد لها يداً ولا من يضيء بين يديها مصباحاً ؛ حتى استفاقت على صوت هؤلاء الجنود يرج الأرض رجاً وإلى هتافاتهم تهز القلوب هزاً فأحسوا أن باباً كان مغلقاً قد فتح أمامهم إلى طريق آمن وأمان .. ولكثرة ما تقطعت بهم السبل من قبل حكامهم شيء من الشك فراودوا أنفسهم حتى اطمأنت لتقدموا إلى الصف واتخذوا أماكهم فيه وأكثر هؤلاء من الكهول .

وفئة ثالثة من الشعب رخصت لنفسها من أول يوم أن تكون دائماً في موقف المنفرج الذي يبدى رأيه في كل ما يراه ولكنه - مهما أعجبه ما يراه واقتنع به - لا يساهم فيه ، ومهما ساء ما يراه لا يقاومه ، فهي فئة سلبية في كل حال ... وهؤلاء حين رأوا جنود الجلالة من الإخوان وتسلوا فيهم القوة القادرة ومع ذلك لم يفعلوا ما فعلته فرق القمصان الزرقاء من التسلط على الناس وفرض الإتاوات عليهم ؛ أعجبوا بهم ، وكان مظهر إعجابهم التصفيق لهم في أثناء عرضهم ، والإشادة بهم كلما جاء ذكرهم .. وتضم هذه الفئة ناساً من جميع الطبقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وهي الفئة الغالبة في الشعوب المستضعفة التي قتل الاستعمار حيوتها .

وفئة رابعة من الشعب نشأت في الرذيلة واستمرأتها حيث صارت الرذيلة مرتزقها وتضم هذه الفئة قطاع الطرق «الفتوات» والعاملين في دور التهو وروادها وأبناء الأثرياء والطلاب الفاشلين الذين ألقى بهم فشلهم آخر الأمر وسط عصايات الصوص والقنطرة .. وهذه الفئة هي التي دوخت رجال الأمن وغصت بهم السجون ومع ذلك فسرهم في ازدياد ، والشعب منهم في رعب وخوف .

هذه الفئة كانت نظرتها إلى جنود الإخوان نظرة والعية ؛ رأوة بأعينهم لأول مرة «فئة آمنوا بربهم وزدناهم هدى» انتظموا في هذه الصفوف تاركين أعمالهم هاجرين بيوتهم وراحتهم واضعين حياتهم على أكفهم في سبيل دعوة الإصلاح والانقاذ. ثقالت هذه الفئة نفسها : إذا كان لا يفل الحديد إلا الحديد إذن فقد آن لنا أن نخل الطريق لهذه القوة الجديدة وأن ندخل جحورنا حتى لا تجتاحنا جحافلها العاتية .

وهذا هو الذي حدث فعلاً ؛ فكان في قلب كل شرير ومجرم رهبة لا تفارقه من أنه إذا لم يكف عن شره فإن بطش هذه القوة سيحمل إليه في يوم من الأيام ... ومع ذلك فإن بعض هذه الفئة من كبار عتاتها كان منطوياً على قلب سليم غشى عليه ظلام الجهل والإهمال ، فكان في ظهور هذه القوة الجديدة جلاء قلبه وشفاء بصره فاستجاب وانخرط في سلك المؤمنين .

والفئة الخامسة والأخيرة هي فئة الحكام ومحترفي السياسة . وهؤلاء - في بلد لا يصعد فيها المستمر إلى سدة الحكم إلا من توطأ معه على صفقة خاسرة ضحيتها مصالح البلاد - هم أعداء كل إصلاح لا سيما إذا كان في هذا الإصلاح مظهر من مظاهر بعث روح الجدل والفتوة والشجاعة في نفوس الشباب ... ولذا فقد كانت جولة الإخوان غصّة في حلوق هذه الفئة سواء منهم من كان في سدة الحكم ومن كان خارجه .

ولقد حاول من كان في الحكم منهم أن يولف تيار هذه الروح الدافقة بتسليط رجال القسم الخصوص بوزارة الداخلية فاستعملوا معهم كل ما في جعبتهم من أساليب حتى إنه من طريق ما حدث في هذا الصدد أن قيادة الجوالاة أعلنت في إحدى المناسبات عن استعراض يقومون به فاتخذ البوليس - وكان ذلك في القاهرة والاسكندرية - جميع وسائل المنع حيث حاصروا المركز العام وجميع الشعب ولكنهم فوجئوا بالاستعراض يدك شوارع القاهرة والاسكندرية في نفس الموعد المحدد ، وكان ذلك بأن القيادة أعطت أمراً سرياً بأن يتجه كل فرد من أفراد الجوالاة إلى ميدان محدد في لحظة محدودة وهو بملابسه الملكية وفي حقيبته ملابس الجوالاة . وفي اللحظة المحددة كان جميع الأفراد موجودين في هذا الميدان وأطلق القائد صفارته فخلع كل فرد ملابسه وارتدى ملابس الجوالاة وانتظمت الصفوف وبدأ الاستعراض .

وهكذا وجد عتالة وزارة الداخلية أنفسهم أعجز من أن يقفوا في وجه هذا التيار الإسلامي الجارف ، فأبلغوا سادتهم الحكام ؛ فبيت هؤلاء مع أولياء أمورهم الإنجليز خططاً بعيدة المدى ستعرض لها إن شاء الله في صفحات تالية .

مقياس في الزعامة الدينية :

بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، أخذت كل دولة في إعادة النظر في شأن مرافقها وسياساتها الداخلية والخارجية . ورأت الحكومة المصرية أن تعيد النظر في سياستها التعليمية - وقررت وزارة المعارف أن تستعين بكبار العلماء المتخصصين فتسند إلى كل متخصص الفرع الذي تخصص فيه ليدرسه ويمحصه ثم يدلي بما عنده في مؤتمر يضم كبار رجال الفكر يعقد في لاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة على أن يخصص يوم لكل متخصص في فرعه .

علمنا نحن الإخوان بنبأ هذا المؤتمر حين أخبرنا الأستاذ المرشد بأن وزارة المعارف أرسلت إليه خطاباً تنبئه فيه بأنه قد وقع عليه الاختيار ليدلي بآرائه ومقترحاته في التعليم الديني وحدد له اليوم لإلقاء بيانه .. كانت نفوسنا تتوق إلى حضور جميع أيام هذا المؤتمر لنستمع إلى ما يلقي فيه

بما لا يخلو من فائدة ولكن تكاليف الدعوة وأعباءها لم تدع لنا فرصة لذلك ، ولكن كان لازماً علينا أن نرافق الأستاذ المرشد في يومه المخصص له في هذه الجمعية .

ودخلنا القاعة التي لم تكن قد دخلناها من قبل ، فوجدناها خاصة بكبار ورجال الفكر وعمداء الكليات وكبار رجال وزارة المعارف وزراء المعارف السابقون وكبار الأدباء والكتاب .. ولدت نظرتنا عند دخولنا الردهة المؤدية إلى القاعة أن وجدنا موظفي الجمعية والمستولين عن تنظيم المؤتمر يستقبلوننا باهتمام ظاهر وشوق عظيم ويسألون عن شخصية الأستاذ البنا .. ولقد سألتهم لم هذا الاحتفاء المثير ؟ فقالوا :

إن هذه المؤتمرات تعقد كل يوم خلال الأسبوع ولم يكن يحضر في كل يوم إلا عدد قليل من أصدقاء المحاضر أما اليوم فقد أدهشنا أن وجدنا كل رجال الفكر الذين لم يجتمعوا معاً من قبل قد بكروا بالحضور ، وكانوا حريصين على أن لا تفوتهم محاضرة الأستاذ حسن البنا فزادنا هذا شوقاً إلى رؤية هذا الرجل الذي أجمع كل رجال الفكر على تقديره .

ودخلنا القاعة وأخذنا مجالسنا وقام المستول فقدم الأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين ليلقى بيانه عن التعليم الديني .. ووقف الأستاذ المرشد على المنصة وبدأ بحمد الله وبتحية السادة الحاضرين ثم استهل محاضره بكلمة هزت مشاعر الجميع حيث قال : « انتدبني الوزارة للبحث عن التعليم الديني وليس من رأي أن تهتم بالتعليم الديني وإنما عليها أن تهتم بالتربية الدينية ثم أخذ في شرح الفرق بين التعليم الديني وبين التربية الدينية وقال إننا في مصر لا يعوزنا التعليم الديني فالأزهر يقوم بأداء هذه الرسالة منذ مئات السنين أما الذي يعوزنا حقاً فهو التربية الدينية .

وقال : إن ملء الرأس بالمعلومات الدينية ليس هو الذي يهذب الخلق ويوجد الوازع الذي يحث على الخير ويبعد عن الشر وإنما الذي يؤدي إلى ذلك هو التربية الدينية التي تعتمد أول ما تعتمد على القدوة الصالحة . وتحدث بعد ذلك عن التربية الدينية وأفاض في الحديث عنها وضرب أمثلة لها من التاريخ الإسلامي .

ثم تحدث عما نسميه نحن «التعليم الديني في إنجلترا» وبين أنه ليس تعليماً دينياً بل هو تربية دينية ، وشرح برامج هذه التربية الدينية في مدارس إنجلترا إلى ما قبل الحرب وما أدخلوه على هذه البرامج بعد الحرب من تعديل وبين دور الكنيسة في مدارس الأطفال ، وما أضافته وزارة التربية والتعليم في تلك البلاد من أعباء جديدة على كاهل رجال الكنيسة إزاء هذه المدارس ..

واستشهد بتقرير وضعته اللجنة الموكول إليها إصلاح التعليم في مدارس إنجلترا ، وكان أبرز ما فيه هو إلحاح اللجنة على مضاعفة الوقت المخصص للتربية الدينية في المدارس على اختلاف دوجاتها لأنه السبيل لوقاية الأجيال القادمة من الانحراف ولتأهيلها لتحمل أشق الأعباء .

ثم وازن بين إمكانات التراث الإسلامي في التربية وإمكانات غيره من التراث والأفكار وأثبت تفوق التراث الإسلامي في ذلك وقراءه الذي لا يحارى .

وكان الأستاذ المرشد مقدراً أن الذين سيحضر هذه المحاضرة هم الذين حضروا فعلاً ، فقد أعدّها إعداداً يناسب هذه المستويات ، فلقد كان في محاضراته هذه أستاذ الأساتيد حقاً ، فقد كنت أنظر في وجوه هؤلاء الجهابذة في أثناء إلقاء المحاضرة فأراها مأخوذة ذاهلة ، وكان الجميع وهم عليه القوم قد نسوا مكانتهم العلمية في المجتمع وتحولوا إلى تلاميذ بين يدي أستاذهم وبعد انتهاء المحاضرة أبل الجميع على الأستاذ المرشد بصافحونة بحرارة وعبارات الإعجاب تترى على ألسنتهم .. وكان أشد الحاضرين إعجاباً الدكتور منصور فهمي عيد كلية الآداب ورائد الفلسفة في مصر .

ومع كل هذا التوفيق وهذه الروعة وهذا الإعجاب الذي أبداه الجميع سواء بالقلب مرتسماً على لسان وجوههم ، أو باللسان في عبارات ترجمت عن القلوب ، فإن القاعة لم تخل من حركات معمردة على هذا الإجماع ، وهى وليدة حقد قديم لم تزده روعة المحاضرة إلا تفاقفاً ؛ ولعل الذى دفع صاحبه إلى الحضور اعتقاده أنه سيسمع كلاماً معاداً وأفكاراً فجأة وحديثاً عتيقاً بالياً كالذى دأب الناس على سماعه من علماء الدين ، فيشقى ذلك صدره ، ولكنه فوجئ بما لم يكن يحتسب ، فكانت منه هذه الحركة التى لم تزدد في هذا الجو الروحى الرائع عن أن تكون حركة سلبية ، حيث انسحب صاحبها عقب المحاضرة مباشرة وخرج من القاعة ، ولم يكن السيد هيكل وزير المعارف الأسبق يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك .. وإن كان ما بيته في نفسه أكبر «وما تخفى صدورهم أكبر»

الأستاذ أحمد حسين :

بعد قيام الحزب الكبرى سنة ١٩٣٩ وبعد إعلان الأحكام العرفية في مصر ، تعثرت خطوات حزب مصر الفتاة ... فلقد كان الحزب يعتمد على الجو المفتوح ، كما قام من أول يوم على أسلوب المجابهة المكشوفة .. وبهذا الأسلوب استطاع أن يحظى بإعجاب الشباب لجمع حوله منهم أعداداً كبيرة .. وكان الحزب يعيب على الإخوان الأسلوب الهادئ الذى يعتمد على الإقناع بالغاية

واتباع أسلوب التكوين والتربية ويرميهم بالضعف والجبن حين يترون مواجهة العواصف ويهكفون على التربية والتكوين .

فلما فقد الحزب الجوى المفتوح وجد نفسه مكتوف اليدين، وتوقف إنتاجه، وبدأ الذين تجمعوا حوله ينفصون عنه ، فلما أراد الأستاذ أحمد حسين أن يتدارك المؤلف بدأ يتحرك كما كان يتحرك في الجوى المفتوح فاعتقل ، وباعتقاله بدأ الحزب يتفكك ، فلما أطلق سراحه حاول الذين أطلقوا سراحه (الوزير فؤاد سراج الدين) أن يثيروا حول نزاهته الشكوك فأشاعوا أن سراج الدين منحه منزلاً ومبلغاً من المال .. ولما كانت نفوس الناس في الجوى المغلق تتلطف أى كلام فقد أثرت هذه الإشاعة تأثيراً سيئاً في الحزب فانفض أكثر الباقين حتى أقرب الأعضاء إلى أحمد حسين مثل فتحي رضوان وحامد الناحل ، وذهب فتحي رضوان إلى الحزب الوطنى وأسس مع الدكتور نور الدين طراف وبعض من شباب الحزب الوطنى «اللجنة العليا للحزب الوطنى» وأخرج مجلة اللواء الجديد .

ورأى أحمد حسين أن يتجه بحزبه اتجاه جديد لعله يصادف من النجاح ما صادف الإخوان فأنشأ الحزب الاشتراكي الإسلامى وحاول بذلك استعادة ما فقدته من أنصار لكن حزبه الجديد لم يكن أحسن حظاً من حزبه السابق فحوله بعد ذلك إلى الحزب الوطنى الاشتراكي .

وحينئذ لم ير أمامه من سبيل إلا أن يلجأ إلى الأستاذ المرشد الذى كان يبادله الحب والإجلال فحضر إلى المركز العام أكثر من مرة ، وأخبرنا الأستاذ المرشد بأن الأستاذ أحمد حسين جاء ليعرض على الإخوان أن يتحد حزبه مع الإخوان ويعمل معاً وفى اتجاه واحد كما عرض عروضاً أخرى مشابهة لذلك ، ولكن الإخوان مع ثقهم الكاملة في شخصية الأستاذ أحمد حسين وفي نزاهته واستعداده الفطرى للالتزام بالفكرة الإسلامية فإنهم يرون في شخصيات أتباعه نوعيات مهما قيل في حماسها وفي وطنيتها فإنها لا تلتق مع الفكرة الإسلامية في كثير من نواحيها ، ولهذا رأى الإخوان أن يظل الأستاذ أحمد حسين في حزبه ويعمل بوحى من مبادئه على أن يكون الإخوان من ورائه يدعمونه ويؤيدونه في كل خطوة يرونها في اتجاه دعوتهم ، وقد بر الإخوان بوعدهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

إحساس الوفد بخطورة الإخوان عليه :

لم يكن الوفد حتى إقالة وزارته التى وليت الحكم في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ يقيم للإخوان وزناً أكثر من أنهم جماعة دينية كسائر الجماعات الدينية غير أنها جماعة نشطة على رأسها شاب

طموح يريد أن يظهر ، وحسبه تحقيقاً لطموحه أن يصل إلى مجلس النواب ..

وكان الوفد يثق في نفسه أنه يمثل الشعب وارثاً هذه الثقة عن مؤسسه سعد زغلول ثقة لا يهزها أخطر الأحداث ولا ألدح الكوارث ... ألم ينسحب من مجلس إدارته ثمانية أعضاء من مؤسسيه ولم يؤثر ذلك فيه ، بل ظل كما هو .. وكل ما حدث بعد انسحابهم أن انقلب الشعب عليهم ، وحين أسسوا حزباً سموه حزب السعديين أطلق الشعب على حزبهم هذا «حزب السبعة ونص» احتقاراً لهم وتهوئاً من شأنهم ؟ ... وحين خرج مكرم عبید السكرتير العام للوفد على رئيسه مصطفى النحاس وألف «الكتاب الأسود» في إظهار مطالب النحاس مؤيداً بالوثائق والأسانيد ثم ألف حزباً سماه «حزب الكتلة الوفدية» لم يؤثر ذلك فيه أيضاً بل ظل صرحه كما كان شاخصاً عالياً لا يطاول ولا ينال ، وكل ما حدث هو تضاؤل صورة مكرم عبید وحزبه وكتابه تضاؤلاً مستمراً حتى صار نسباً نسبياً ؟

وقد سقت هذه الأحداث لا بين للقارئ مدى ثقة الوفد في نفسه وأنه البنيان الشعبي الأواحد الذي لا ينال ... وأنه لا يعنيه ولا يشغل باله إذا ما رأى أو سمع عن أحزاب تنشأ أو جاعات تتكون أو مؤتمرات تعقد أو حفلات تقام .. فهؤلاء جميعاً في نظره إن هم إلا أطفال يلعبون بجانب صرحه العظيم ، فإذا أن يظلموا يلعبون حتى يشبوا عن الطوق فيشرفوا بدخول الصرح الشامخ وإما أن يتلاشوا .. وهكذا كان ينظر الوفد إلى الإخوان المسلمين وينتظر لهم إحدى النهايتين وقد ظن الوفد أنه تغلب على هذا الشاب الطموح حسن البنا حين نصحه بالعدول عن ترشيح نفسه لمجلس النواب فانتصح ، واعتقد الوفد أنه قد استطاع أن يطوى هذا الشاب وجماسته تحت جناحه ، وأنه مهما تحرك فإن مجاله منحصر تحت هذا الجناح ... ثم أقبل الوفد الإقامة المهيئة التي ظل بعدها نحو عامين يجمع ما تشتت من أمره ، ولم ما تشعث من شئونه .. فلما استفاق من غشيته واسترد رشده وبقظته استيقظ على أحلام مزعجة .

استيقظ فوجد هذه الجماعة قد استفحل أمرها ، وتفاقم خطرهما حتى غزته في عقر داره ... إن رأس ماله الذي يعتز به ويفخر ويتباهى هو هذا الشعب الذي لا يعترف إلا به - ومع كل ما تصافر عليه الملك والانجليز وأعوانهم من حيل وعنت ومؤامرات وإغراءات لم يستطيعوا أن يمسوا نفوذهم الشعبي في قليل ولا كثير - لكن هذه الجماعة قد استطاعت أن تشاركه في رأس ماله وأن تقاسمه هذا النفوذ الشعبي العتيق .

والحكم على أن زعيماً أو حاكماً أو حزباً أو هيئة لها نفوذ شعبي لا يكون بادعاء ذلك ، ولا بالخطب الرنانة ولا بمقالات صافية في الصحف ولا بالمقدرة على شراء الأصوات في الانتخابات

بأموال القصر ثم الوصول إلى الحكم عن هذا الطريق ، وإنما يعترف بالنفوذ الشمي للحزب أو للهيئة التي تستطيع وهي في صفوف الشعب أن تؤيد حكومة تقوم فإذا سحبت تأييدها لها سقطت . وقد دخل الوفد تجربتين أيقن بعدهما أنه لم يعد هو وحده الذي يحتكر النفوذ الشمي وأنه صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في التوجيه الشمي :

أما التجربة الأولى فهي حين تقدم إسماعيل صدق طالباً تأييد الإخوان لوزارة يؤلفها لمفاوضة الإنجليز لاسترداد حقوق البلاد ، وقطع على نفسه عهداً بالتزام خطة رسمها له الإخوان ، وألف الوزارة في ظل تأييد الإخوان ، وحمل الوفد على حملة شعواء ، واستعدى عليه الشعب بجميع أساليب الاستعداد ، لكن ذلك كله لم يهز الوزارة ولم يؤثر فيها ... فلما رأى الإخوان أن إسماعيل صدق بدأ يحمي عن الخطة التي رسموها له أعلنوا سحب تأييدهم له فقامت المظاهرات في كل مكان ، واختل الأمن في البلاد واضطرت الوزارة إلى الاستقالة .

وأما التجربة الثانية فهي حين أعلن النقراشي عزمه على عرض قضية البلاد على مجلس الأمن وتصدى له الوفد لمنع من القيام بهذه الخطوة وألقى بثقله في سبيل ذلك .. وشعر النقراشي بحرج موقفه فلجأ إلى الإخوان طالباً التأييد فأيدوه .. وبفضل هذا التأييد استطاع أن يواجه تحديات الوفد وأن يمضي في خطواته إلى نهايتها .

تجربتان قاسيتان أفضتا مضجع الوفد ، وأحس بعدهما لأول مرة في تاريخه أنه مهدد في كيانه نفسه ، وأن سكوته على ذلك ضياع وهلاك .. إذن فليدع الوفد كل ما كان يشغله من أمر أعدائه التقليديين من أحزاب وقصر وإنجليز ولتفرغ للاخوان المسلمين .

ولما كانت هاتان التجربتان هما صلب الجهود الوطنية التي استؤنفت عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية لاستخلاص حقوق البلاد في الحرية والاستقلال وإجلاء قوات الاحتلال ، فسوف نبين للقارئ في الصفحات التالية إن شاء الله دور الإخوان في هاتين التجربتين .

خطوات عملية لاستخلاص حقوق البلاد

أشرنا من قبل إلى أن إيدان الحرب العالمية الثانية بانتهاء كان حافزاً لكل ذي حق دولي أن يستأنف المطالبة بحقه ، وكان على المصريين أن يهبوا مطالبين بحقوق بلادهم في الحرية والاستقلال وإجلاء الجيوش المحتلة التي جثمت على صدرها زهاء السبعين عاماً فوقت حائلاً بينها وبين العلم والنور والحضارة والحرية والرخاء ومزقت وحلتها فجعلتها فرقاً وأحزاباً وأدت مواهبها التي كانت كفيلاً أن تبرزها في مكان مرموق بين دول العالم وشعوبه .

ولما خرجت مصر من هذه الحرب ولا زال في عنقها غل معاهدة سنة ١٩٣٦ فكان عليها أولا أن تحرر عنقها من هذا الغل فتنتقل بذلك في عالم الحرية مع المطلقيين .. والفترة التي ساهم الإخوان خلالها في المطالبة بحقوق البلاد بعد أن وضعت الحرب أوزارها قد استغرقت نحو أربع سنوات تقول الحكم فيها ثلاث وزارات أولاها وزارة النقراشي الأولى من مارس سنة ١٩٤٥ حتى فبراير سنة ١٩٤٦ وثانيها وزارة إسماعيل صليق من فبراير سنة ١٩٤٦ حتى ديسمبر سنة ١٩٤٦ ثم الثالثة وزارة النقراشي الثانية من ديسمبر سنة ١٩٤٦ حتى آخر سنة ١٩٤٨ .

وزارة النقراشي الأولى

تولى النقراشي رئاسة الوزارة خلفاً لأحمد ماهر عقب اغتياله .. والنقراشي رجل قد يصلح لكثير من المناصب لكنه لا يصلح للعمل السياسي المتشعب لا سيما في بلد مثل مصر كثير المشاكل والمتاعب يحتاج مع الإرادة والحزم إلى المرونة وسعة الأفق وبعد النظر .

ولكن هكذا كان . ورأى الإخوان أنفسهم أمام أمر واقع لا مفر منه ولا معدى عنه هو أن الأداة الرسمية التي لابد أن تطالب البلاد بحقوقها عن طريقها هي هذه الحكومة السعدية النقراشية وما يؤسى له وينبئ أن يعلمه القارئ أن هذه الحكومة قد جاءت إلى الحكم واثرة حقداً أسود على الإخوان المسلمين عن رئيسها السابق كان ذلك الرئيس يطوى عليه دون مبرر .. وسأكتفى بإيراد مثال واحد بنبي القارئ عن مدى هذا الحقد وأسبابه ودواعيه :

حقد موروث ذفين

كانت الكفة الأخرى في ميزان السياسة المصرية في ذلك العهد التي تحاول أن تعادل الكفة الشعبية التي يمثلها الوفد ، هي القصر متحالفاً مع حزب السعديين الذي يتزعمه أحمد ماهر والنقراشي وإبراهيم عبد الهادي والدكتور السجوري ، وكان حزب الأحرار الدستوريين بزعماء الدكتور محمد حسين هيكل قد ارتضى لنفسه في ذلك الوقت أن يكون ذيلاً للسعديين .

ولما كانت وزارة الوفد التي تولت الحكم عقب حادثة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ قد استطاعت بأساليبها الدعائية وصحافتها الواسعة الانتشار أن تنسى الشعب مرارة هذه الحادثة ، رأى القصر بعد نحو سنتين من هذه الحادثة أن يذكر الناس بها ، تأليفاً للشعب على الوفد ، فأوحى إلى عملائه السعديين أن يدبروا خطة لذلك

ورأى السعديون أنهم لكي يحققوا ذلك لابد لهم من أن يتعاونوا مع الأحزاب الأخرى والهيئات المختلفة ، فاتصلوا في سرية نامة بالأحرار الدستوريين والحزب الوطني والحزب الاشتراكي

ومجموعة أخرى من الأحزاب والهيئات كانت موجودة في ذلك الوقت ، واستجاب الجميع إلى عقد اجتماع سرى لهذا الغرض ما عدا الإخوان المسلمين الذين رفضوا في أول الأمر بدعوى أن في مجموعة الأحزاب والهيئات التي استجابت الكفاية ولا يضرهم تخلف هيئة واحدة ، لكن السعديين ألقوا إلحاحاً شديداً فاستجاب الإخوان أخيراً مكتفين بإيفاد أخ صغير كان إذ ذاك لا يزال طالباً بكلية الحقوق هو الأخ سعيد رمضان .

وانعقد الاجتماع فعلاً في ظل الكتمان برياسة الدكتور السنهوري ، وأخذ السنهوري يشرح المقصود من الاجتماع وهو أن تقوم الهيئات الحاضرة متضامنة بحركة عنيفة كظاهرة تذكر الناس بمحادثة ١٩٤٢ سنة وبأن الوفد جاء إلى الحكم على أسنة رماح الإنجليز ، ولا مانع من القيام ببعض التفجيرات لإيقاف حركة المواصلات لإثارة انتباه الجماهير ، ثم طلب السنهوري من ممثلي الأحزاب والهيئات الحاضرين أن يدل كل برأيه ففعلوا وكان إجماعاً بالموافقة على اقتراح السنهوري ، قهقلى وجهه فرحاً ... وكان سعيد قد طلب أن يكون آخر المتكلمين وكان فعلاً أصغر الموجودين سناً ومركزاً اجتماعياً ، فلما جاء دوره قال : إننى لا أوافق على هذه الخطوة ولن يشترك الإخوان في شئ منها . فكانت كلماته بمثابة ديناميت نفس الاجتماع كله لأنه كان هو مركز الثقل في الاجتماع كله .

والتفت إليه السنهوري باشاً مغضباً وسأله عن سبب رفضه . فقال سعيد :
«ياسعادة الباشا أرجو بعد أن تحدثت في الاجتماع بكل ما في نفسك أن تعرفنى بالموجودين فيه فرداً فرداً ، كلا باسمه» .

فالتفت السنهوري إلى الموجودين فوجد نفسه عاجزاً عن معرفة أكثرهم ... فقال سعيد :
إن إجماعاً على هذه الغاية من السرية وللاتفاق على أعمال خطيرة لا يعرف رئيس الاجتماع أسماء الحاضرين ولا شخصياتهم ، هو اجتماع فاشل لم يكن يستحق أن نحضره ، وما حضرنا إلا بعد إلحاحكم ، ولتثبت لكم ياسعادة الباشا - مع احترامى لشخصك - أنكم تتصرفون تصرف الأطفال وما كاد يخرج المجتمعون ، وما كادوا يصلون إلى مقر هيئاتهم وإلى بيوتهم إلا وأطبق البوليس السياسى عليهم واقتادوهم فرادى إلى وزارة الداخلية وواجهوا كلا منهم بما قاله في الاجتماع بالحرف الواحد ، دليلاً - كما أشار سعيد - على أنه كان من بين الحاضرين أشخاص مدسوسون من عملاء البوليس السياسى .

من آثار هذا الاجتماع : كان المفروض أن يكون فشل هذا الاجتماع دافعاً لحزبه السعديين

على الإعجاب بهذا الشاب وبالهبة التي ربه هذه التربية ، وأن يتعلموا منه كيف يتعاملون مع الناس وكيف تعقد الاجتماعات التي يرجى لها النجاح ... ولكن هل كان هذا أثره في نفوس السعديين ؟ هل قالوا كما قال عمر بن الخطاب لمن أرشده إلى خطأ صدر منه «رحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا» وحين راجعته المرأة وهو على المنبر فقال على الملأ قوله المشهورة «أصابك المرأة وأخطأ عمر» ؟ هل تحلوا بصفات المؤمنين التي بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله «الحكمة صالة المؤمن ، يأخذها أنى وجدها ولا يبالي من أى وعاء خرجت» ؟

لم يكن الأثر في نفوس السعديين هو هذا الأثر النبيل بل كان الأثر عكس ذلك تماماً كان الأمر أن امتلأت نفوسهم حقداً على الإخوان المسلمين ، وأخذ يسيطر على زعمائهم شعور بأن هذه الهبة - بما رأوا من حصافة أصغر أعضائها - هي القادرة على قيادة الشعب والوصول عن طريقه إلى قمة السلطة ، فلا بد إذن من الكيد لها والعمل بكل الوسائل الشريفة وغير الشريفة على القضاء عليها وإبادة من الوجود وكان هذا الشعور من الغليان في نفوسهم حتى إنه كان يفيض في بعض الأحيان على ألسنتهم ، وقد فاه به رئيسهم أحد ماهر أكثر من مرة متخطياً حدود اللياقة والأدب أمام مجموعات من الشباب بعضهم من شباب الإخوان وهو لا يدري .

وكانت أولى خطواتهم في سبيل تسميم الآبار أن ذهبوا إلى الملك يعتذرون له عن فشل ما طلب إليهم إنجازه بأن الإخوان المسلمين هم الذين كانوا سبب الفشل ، وأنهم أعداء الملك ، وأنهم يتآمرون مع الوفد ضد الملك ... ثم عملوا على قطع السبيل على الأستاذ المرشد أن يقابل الملك لأن الأستاذ كان حريصاً على مقابلته لإقناعه بدعوة الإخوان المسلمين وبأنه إذا تعاون معهم على تحقيق أهداف هذه الدعوة فإنهم يستطيعون أن يجمعوا الشعب حوله ، وفي ذلك تثبيت لعرشه ، وتثبيت العرش على أسس من حب الشعب خير من محاولة تثبيته بالقوة والإرهاب . أو بالخداع والإغراء وقد قطع السعديون في هذا الاتجاه الحائذ الآثم أشواطاً بعيدة ، حتى إنهم تركوا الوفد - عدوهم التقليدي - جانباً ، وجعلوا القضاء على الإخوان المسلمين هدفهم الأورح الذي يؤرقهم بالليل ، ويشعل النار في صدورهم بالنهار .. وكان أحد ماهر يصرح بذلك في اجتماعاته السرية في نظره والمفضوحة أمام الإخوان في الحقيقة فيقول : لن أهدأ حتى أقتل على هذا الرجل ... «أبو دقن» يقصد الأستاذ المرشد ، ويكيل له الشتائم القذرة . ويقول : أبو دقن ده المدرس الابتدائي .. نعجز نحن ومعنا جميع الأحزاب والهيات عن إخراج مظاهرة مادام هو لا يريد إخراجها ؟ ما هذا الشباب المغفل الذي وصلت به البلاء أن يتركنا ولا يعيرنا اهتماماً ويسير وراء هذا المدرس الابتدائي الحقير أبو دقن .. لابد من القضاء عليه .

كان هذا السفه يبلغ الأستاذ المرشد ويبلغ الإخوان ، وكان الأستاذ مع ذلك يهون الأمر على الإخوان ويقول : لازال عندنا أمل أن يهديهم الله وينزع من صدورهم الحقد والصفينة ويحل محلها الحب والإخاء .

لكن تقرب الإخوان إليهم لم يكن يزيدهم إلا حقداً ، وقد كنا وإياهم كما قال الله تعالى على لسان نوح عليه السلام «وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً» .

في سبيل تحرير البلاد :

مع كل ما كان يعلمه الإخوان من سوء نية السعدين وما يضمنونه من حقد عليهم فإن الإخوان كانوا يتجاوزون عن ذلك ويتغاضون عنه ويتناسونه حين يذكرون حق بلادهم عليهم وأن الفرصة السانحة للمطالبة بحقوقها إذا أفلتت فقد لا تعود ؛ في أعقاب الحروب العالمية تتغير عادة خريطة العالم فتنشأ دول وتطمس دول وترتفع دول وتنخفض دول حتى إذا استقرت الأمور لم يعد ميسوراً إدخال أى تعديل في أوضاع الدول والشعوب ... ولما كان الإخوان أصحاب دعوة تلزمهم بأن يبذلوا كل شيء في سبيل تحرير بلادهم ، ولا يمكنهم أن يحققوا ذلك إلا عن طريق الحكومة القائمة إذن فليتجاوزوا عن كل شيء وليتعاونوا مع هذه الحكومة في سبيل تحقيق هذا الهدف الأسمى ، فكان الإخوان في ذلك كما قال أبو الطيب :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد
ولقد أخذ الإخوان يحثون الحكومة على الجلد في المطالبة بحقوق البلاد والاستقلال والوحدة
لواذى النيل .. ولسنا ندعى أننا كنا وحدنا الذين يحثون الحكومة على ذلك بل كانت جميع الهيئات
والأحزاب تحت على ذلك ولكن الهدف كان مختلفاً فقد كان هدفنا من ذلك تبصير الحكومة
وتقوية موقفها أمام المستعمر في حين كان حزب كالوفد يهدف من ذلك إلى إخراج مركزها .
ولكن الذي حدث فعلاً هو أن الحكومة لم تأخذ هذا الأمر الخطير مأخذ الجد . وأخذت
تسوف وتهاون وتؤجل وأخيراً تقدمت إلى الحكومة البريطانية على استحياء وحجل بمذكرة هزيلة
تشرع بأنها تطالب بما هي ليست مؤمنة به مما أطمع الإنجليز وجعلهم لا يردون حتى يرفض هذه
المطالب الهزيلة . وقد أثار ذلك جميع الهيئات في مصر فأصدرت كل هيئة بياناً أوضحت فيه
احتجاجها على هذا التهاون المخزى . ولما كان الإخوان يرون انتزاع حقوق البلاد المسلوقة في هذه
الفرصة السانحة قضية المصير فقد عقدت الهيئة التأسيسية جلسة غير عادية استمرت يومين

ناقشت فيها هذا الموضوع وأصدرت البيان التالى الذى نشر بالصحف يوم ٢-١٩٤٦ وكان
وكان البيان بياناً مطولاً استعرض المذكرة المصرية والرد البريطانى ثم قال :

«الذى يلفت الأنظار فى المذكرة المصرية أنها سلكت مسلك الضعف والاستجداء فى أسلوبها
على مسر للإنجليز التهرب من الاعتراف بحقوقنا التى أنعمت إجماع الأمة عليها :

ثأولاً : بنت الحكومة مطلبها على تعديل المعاهدة التى أثبتت الظروف أنها لم تعد صالحة لأن
تكون أساساً للعلاقات بين الدولتين ، بل إن هذه الظروف نفسها قد فرضت بطلان هذه المعاهدة
وإلغائها إلغاء تاماً لأسباب أهمها : زوال عصبية الأمم من الوجود ، وقيام ميثاق الأمم المتحدة
الذى اشتركت مصر فى توقيعه ، وتغير الظروف الاستثنائية التى أبرمت فيها المعاهدة ، فضلاً عما
بدلته مصر من مجهود أثناء الحرب فاق ما قررت المعاهدة بمراحل كثيرة ، وفاق ما كان منتظراً
منها مما أدى إلى تغيير فى مجرى الحرب فى جانب الحلفاء كما اعترف بذلك قادة الحرب وزعماء
الدول الكبرى أنفسهم .

ثانياً : لم تحدد الحكومة فى مذكرتها مطالب البلاد فى قوة وصراحة ، وكان أولى بها
وهى صاحبة الحق أن توضح هذا الحق توضيحاً قوياً تؤكد فيه أنها لن ترضى عن الجلاء ووحدة
وإدى النيل بديلاً .

ثالثاً : السودان ... شطر الوادى لقد نجح أبناء الوادى لهذا الأسلوب المتخاذل الذى
صاغت فيه الحكومة قضية السودان ، بل قضية وادى النيل ؛ فلقد طلبت فى ذيل مذكرتها أن تشمل
المحادثات مسألة السودان «مستوحية» مطالب السودانيين وأمانهم ... وكان أحمرى بها أن
لا تردد هذه النغمة الملتوية التى يذكرها الإنجليز على الدوام ليفرقوا بين شطرى الوادى. ولقد أعلننا
غير مرة أن مطالب السودان وأمانيه هى بعينها مطالب المصرى وأمانيه .

إن الإخوان المسلمين فى أنحاء الوادى ليعلمون فى قوة ووضوح أنهم لن يرضوا بعد اليوم
ذلاً ولا هواناً ، ولن يقبلوا تردداً فى نيل حقوقهم ومطالبهم ، ويدعون الشعب كله أفراداً
وجامعات وهيئات أن يقفوا معهم صفاً واحداً فى المطالبة بهذه الحقوق والعمل على تحقيقها أو الفناء
فى سبيلها .

أيها المواطنون

إن الإخوان المسلمين ليسجلون على الحكومة هذا الموقف الضعيف ، ويسجلون على الإنجليز هذا الجحود

واقده علمتنا التجارب أن الاستقلال والحرية ما كانت يوماً من الأيام صكاً يكتب أو اتفاقاً يعقد لايشفى غلة ولا يروى أواراً ، ويهيئون بالأمة أن تستعد لجهد متصل عنيف ، فليس للهوان بعد اليوم من سبيل .

ولتعملوا أن المفاوضة وسيلة وليست غاية مقصورة لذاتها ، ولا يمكن أن نقدم على الوسيلة إلا إذا أطمأننا على أسس بيئة لتحقيق هذه الغاية ، فلتعظ بالماضي ، وليحذر الساسة الأعياب المستعمرين ، ولتتوحد الصفوف وتتحد الجهود بتوجيه وطني خالص لوجه الله والوطن .
أيها المواطنون

إن حقوقكم قد اجتمعت عليها كلماتكم ، وارتبطت على المطالبة بها قلوبكم ، وهى الجلاء التام عن وادى النيل بلا مراوغة ولا تسويق ووحدة الوادى بلا تردد ولا إهمال ، وحل المشاكل الاقتصادية المتعلقة بيننا وبين الإنجليز على وجه السرعة حتى تنسم البلاد ريح الحرية ويطمئن الناس على حياتهم ومستقبلهم .

والإخوان المسلمون حين يضعون هذه الحقوق والأهداف من رسالتهم موضع العقيدة والإيمان يرون أنها ليست مما يصح أن يكون محلاً للمساومة على الإطلاق ، وكل من حاول ذلك فهو خارج على وطنه ، متحمل وحده تبعه عمله منبوذ من سائر مواطنيه .

مظاهرة كوبرى عباس الثانية فى ٩ فبراير ١٩٤٦ :

ولم يكن بيان الإخوان هذا هو البيان الوحيد الذى ووجهت به الحكومة إزاء موقفها الضعيف المتخاذل بل إن كل الهيئات والأحزاب التى كانت خارج الحكم قد أصدرت بيانات بهذا المعنى ولكن الحكومة كانت تتلقى بيان الإخوان بجدية واهتمام لأن الهيئة الوحيدة التى كانت قادرة على إتباع بيانها بحركة شعبية عملية معبرة عن السخط هى هيئة الإخوان ، فكل بيان يصدر عن الإخوان يتردد صدهاء فى جنبات الجامعة وفى أحياء القاهرة وفى مختلف بلاد القطر . ولما كان هذا البيان قد أشعر الجميع باليأس من هذه الحكومة التى ظلت فى الحكم قوابة العام دون أن تخطو خطوة جادة لاستخلاص حقوق البلاد ، فقد وقعت مصادمات عنيفة عقب صدور هذا البيان بين البوليس والشباب فى القاهرة والاسكندرية فى ٩ نوفمبر سنة ١٩٤٦ وكان هذا يوماً مشهوداً تكررت فيه مأساة كوبرى عباس التى حدثت فى ١٩٣٦ والتى أشرنا إليها فى مستهل هذه المذكرات ولكن الفرق بينهما كان فى شئ واحد هو أن الذى أمر بضرب الطلبة بالرصاص فوق كوبرى عباس سنة ١٩٣٦ كان إنجليزياً فى حين أن الذى أمر بضربهم بالرصاص فوق

نفس الكوبرى في هذه المرة كان وبالأسف مصرياً تبرا منه مصريته وهو عبد الرحمن عمار بك وكان المنفذ مصرياً أيضاً هو اللواء سليم زكى باشا ... وقد أصيب ١٦٠ طالباً إصابات شديدة وفقد ٢٨ طالباً حيث كانوا يلقون بأنفسهم من فوق الكوبرى في النيل من شدة الضرب بالرصاص وفي نفس اليوم قامت مظاهرات في المنصورة وأسوان - وقامت قوات كبيرة من رجال البوليس بمحاصرة المركز العام للإخوان ودور الإخوان بالقاهرة ومنعوا دخول الإخوان وقد أرسل وكيل الإخوان برقية احتجاج إلى جريدة المصرى على هذا الحصار محملاً الحكومة نتيجة هذا التصرف الجائر فكان أن صادرت الحكومة جريدة المصرى يوم ١١-٢-١٩٤٦.

وأمام هذه المقاومة الشعبية العارمة اضطرت هذه الحكومة لتقديم استقالتها يوم ١٤-٢-١٩٤٦ فقبلت .

موقف شائن لهذه الحكومة إزاء أندونيسيا : كانت أندونيسيا وهى بلاد إسلامية تضم نحو سبعين مليوناً تروح تحت حكم هولندا ، فلما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها هبت كما هب غيرها من البلاد مطالبة بالاستقلال وبجلاء الجيوش الهولندية عن أراضيها ، وتألقت فيها حركة مقاومة تزعمت هذه المطالبة وقد استطاعت هذه الحركة أن تصل بقضيتها إلى هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن مطالبة بإصدار قرار من هذا المجلس بإجلاء الجيوش الهولندية والجيوش البريطانية التى جاءت إلى أندونيسيا لتعزيز سيطرة الهولنديين الذين عجزوا عن صد مقاومة الوطنيين .. وقد تقدمت روسيا إلى المجلس باقتراح لتأليف لجنة للتحقيق في شئون أندونيسيا .

وكان يمثل مصر في هيئة الأمم المتحدة في ذلك الوقت الوزير السعدى مدوح رياض ، فانظر أيها القارئ إلى ما قاله ممثل مصر في خطابه الذى أفتحت به جلسة مجلس الأمن بصدد هذا الموضوع قال « إن مثل هذه اللجنة لن تأتى بالثمره المطلوبة .. وقال .. إن وجود القوات البريطانية هناك لا ينطوى على أى تهديد بل إن وجودها ماهو إلا لتنفيذ أوامر الحلفاء وقيادة الحلفاء العليا في الباسفيك ، وإنه لمن واجب السلطات العسكرية في الدول ذات الشأن معالجة الموقف الحالى .

أما فيما يتعلق بالناحية السياسية ، فإنه ينبغى لنا أن نثق بروح التسامح والسخاء التى يبدىها مندوبو هولندا ... وتكلم بعد ذلك عن الحركة الوطنية الأندونيسية فقال :

أحب أن أشير إلى أن الحركات الشعبية يمازجها دائماً الغلو وتجاوز حد الاعتدال . ويخيل إلى أنه يصعب إيجاد فارق واضح بين الحركة الشعبية وبين هذه العناصر التى تجنح للغلو . وقد تحدث المستر بيفين (وزير خارجية بريطانيا) عن الفاشية في أندونيسيا وأظن أنه لاتزال في تلك

البلاد بقيمة من هذه العناصر . وختم حديثه بقوله «ترى هل الحالة في أندونيسيا قائمة حقاً كما تصور لنا ؟....»

ولن أتعرض هنا لتعليق الإخوان على هذا الخطاب المزرى فقد ذكرت في فصل سابق جهود الإخوان العملية التي بذلوها في مؤازرة الشعب الأندونيسي التي كانت ثمرتها إعلان الجامعة العربية اعترافها الرسمي بدولة أندونيسيا مما دعا دول العالم إلى الاعتراف بها ؛ ولكنني سأعرض موقف القلة القليلة من الأعضاء الأحرار بمجلس النواب والشيوخ في ذلك الوقت الذين تصدوا لهذا التصريح الرسمي وطلبوا مناقشته . وأجترى بشيء مما جاء في كلمة لفكرى أباطة حيث قال : «ومن عجب أن نسمع ممثل الحكومة المصرية يصرح بهذا التصريح الذي صرح به في اجتماع الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة ويقول إنه يعارض في قيام لجنة التحقيق التي اقترحتها روسيا وأن إجراءات الهولنديين إجراءات سليمة ... لقد جاء هذا التصريح ضربة قاسية علينا وعلى البلاد التي تنشده وتقدر الحرية حتى إن الصين عارضت في هذا وأيدت الطلب الروسى وهو قيام لجنة لتحقيق ما يجرى وماجرى في هذه البلاد .

ونحن كزعماء للحركة العربية يجب أن نهتم جداً بهذه المسائل وأشار إلى تصريح بدوى باشا وعلاقته بالدول العربية (كان بدوى باشا مندوباً لمصر في الأمم المتحدة في هذه الحكومة نفسها قبل مدوح رياض وصرح تصريحاً أساء إلى العرب) ثم قال : نحن نطلب الجلاء ووحدة وادى النيل ولنا مطالب خاصة بشأن فلسطين وبشأن تدعيم استقلال البلاد العربية . فإذا كنا كذلك فيجب أن يكون مثلوا حكومتنا في تصريحاتهم مؤيدين لهذه السياسة .

وقد سقت هذه الواقعة ليعرف القارئ العقليات التي كانت تسوس هذه البلاد المنكودة ، والتي استباححت لنفسها أن تدافع عن الاحتلال البريطاني لبلاد إسلامي شقيق في الوقت الذي أوهمت الشعب المصري أنها تقوده إلى مقاومة هذا الاحتلال وطرده من بلادنا .

وزارة إسماعيل صدقي

كان إسماعيل صدقي أحد كبار الساسة المصريين القديرين وكان يرى نفسه أكبر من أن يكون تابعاً لحزب ، فعاش ماعاش شخصية مستقلة إلا أنه كان يعد عدواً لحزب الوفد ، وكان الوفد يخشى بأسه ، لأنه كان قديراً في عمله ، جريئاً في إجراءاته .. وكان الوفد حريصاً على تشويه كل إصلاح يأتي عن طريقه معتمداً على شعبيته وعلى جهل المواطنين ، ولازلت أذكر وأنا صغير كيف شوهت مجلات الوفد مشروعات عزازان جبل الأولياء الذي أنشأه هذا الرجل على النيل في السودان لتصور

المجلة شخصاً مصرياً يطلب كروب ماء من عامل متقهى فيقدم له العامل الكوب ويقول له : بعد إتمام
خزان جبل الأولياء سيكون ثمن هذا الكوب قرشاً صاعاً - وكان القرش الصاع في ذلك الوقت
ثمناً باهظاً . وتم هذا المشروع فعاد بأعظم الفوائد .

وهكذا كانت الحياة الحزبية في مصر نوعاً من أنواع الكجل والاستغلال : فهي الأحزاب
لأبرامج لها ، وهدفها جميعاً الوصول إلى الحكم لا شيء إلا لترشو أنصارها بالإغتهاق عليهم
من خزانة الدولة حتى تضمن أن يكونوا بجانبها إذا أبعادوا عن الحكم أملاً في الرجوع إليه مرة
أخرى يعوضون خلالها ما فاتهم من مغام .

فالإصلاح مثلاً في نظر حزب من هذه الأحزاب لا يكون إصلاحاً إلا إذا أتى عن طريقه ،
وتم على يديه وفي أيام حكمه فإذا تم إصلاح على يد حزب آخر فلا بد من تشويهه والتويه عليه ، وقد
أنشأت وزارة للأحرار الدستوريين كان يرأسها محمد محمود باشا طريق سكة حديد ربط
مدن مديرية المنوفية وكان هذا في الحقيقة عملاً جليلاً ، ولكن الوفد تناول الحديث عن هذا المشروع
بتهمك كاريكاتورى في إحدى مجلاته الفكاهية يظهر فيه رئيس الوزراء في شكل مثير للضحك
وتحت هذا الرسم كتبت الآق :

قربت منوفاً من بنها وكذا الباجور وإسطنها
سرس سبك قربت منها بطريق حديد يا محمد

ولذا فإن الإخوان كانوا حريصين دائماً على المطالبة بإلغاء هذا النوع من الحزبية المدمرة ،
وما من مؤتمر من مؤتمرات الإخوان إلا وتعرض لهذا المعنى ... ولهذا كان الإخوان أبعد الناس
عن أن يقيدوا أنفسهم بالولاء لحزب من هذه الأحزاب أو بالارتباط معه أو بالانحياز إليه ، وكانت
العلاقة بينهم وبين هذه الأحزاب تنطص في شيء واحد هو أن يؤيدوا الخطوة التي يتخذها حزب
منها ويراهم الإخوان في مصلحة البلاد .

وبعد سقوط وزارة السعدين ورؤى إسناد الوزارة إلى إسماعيل صدق ، وكان هذا الرجل
واقعياً ولمس في واقع الحياة المصرية أن الإخوان المسلمين صاروا العنصر الفعال والقوة الشعبية
المسيطرة ورأى أنه مقبل على مواجهة موقف خطير يتوقف عليه مستقبل البلاد فقرر أن لا يقبل
هذا المنصب إلا إذا اطمأن إلى تأييد من هذه الهيئة الشعبية .. ويبدو أن القصر الذي رشحه لهذه
المهمة كان مسلماً بهذا الواقع الجديد فترك له الفرصة الكافية للتباحث مع الإخوان في هذا الشأن .

اتصال صدقي بالاستاذ المرشد :

اتصل صدق بالاستاذ المرشد وكاشفه باتجاه النية إلى اختياره لرياسة وزارة غير حزبية

لمفاوضة الإنجليز ، وبأنه أرجأ رده بالقبول أو الرضا حتى يعرض الأمر على الإخوان المسلمين وينتهي معهم على وضع معين . فصارحه الأستاذ المرشد بقوله : إن ماشاع بين الناس عن تاريخك السيامي قد يبعث على النفور منك . ولكننا نحن الإخوان المسلمين مقيدون بقول الله تعالى «ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً» فنستمع إليك ونزن ما تقول بميزان دعوتنا .. فقال الرجل : إنني أعلم ما أشاعه أعدائي عني ، وإن كان كل إجراء اتخذته ضدهم كان له ما يبروه من وجهة النظر الحزبية المصرية التي لا تنقيد بأداب ولا بمثل ولا بخلق وإنما هي كيد شخصي يكيده فرد لفرد وحزب لحزب .. وهكذا كانت الحياة السياسية في مصر ... أما وقد تطورت هذه الحياة السياسية ونشأت فيها هذه الهيئة التي تقوم على الدين والخلق فلا يسعى حين أتقدم إليها إلا أن أشعل الثوب الذي لبسته طول حياتي وأعلن لها توبتي وافتتاح صفحة جديدة .. والهيئة أن تأخذ على ما تشاء من موافق وأن تجربني هذه المرة .

اجتماع الهيئة التأسيسية

طلب الأستاذ المرشد من صدق باشا أن يمهل حتى يجمع الهيئة التأسيسية للإخوان ويعرض عليهم الأمر ... والأمر في هذه الحالة يقتصر على أحد رأى الهيئة فيما إذا كانت تقبل التفاهم مع رجل مثل صدق باشا له ماضٍ مريب ، وقد جاء مقراً بأخطائه ، معلناً التوبة ، عازماً على افتتاح صفحة جديدة .. ودار نقاش طويل في هذا الاجتماع استمر طول الليل وانتهى بقرار من الهيئة بقبولها مبدأ التفاهم مع الرجل مادام قد جاء يريد فتح صفحة جديدة على أسس يرتضيها الإخوان .

الاتفاق مع صدقي على أسس المفاوضات

تم الاجتماع الثاني بين الأستاذ المرشد وصدق باشا أبلغه الأستاذ المرشد قرار الهيئة بقبول مبدأ التفاهم معه. وطلب من صدق باشا شرح وجهة نظره فيما سيطلب به الإنجليز في المفاوضات : ثم أخذ الأستاذ يشرح له وجهة نظر الإخوان والحد الأدنى الذي لا يقبل الإخوان بأقل منه من مطالب البلاد في الجلاء والاستقلال ووحدة وادي النيل ... ووافق صدق باشا على الحد الأدنى من المطالب الذي حدده الأستاذ المرشد وأعطى العهد والميثاق بذلك على نفسه .

اجتماع ثانٍ للهيئة التأسيسية

ونظراً لخطورة الموضوع فقد دعا الأستاذ المرشد الهيئة للمرة الثانية في ظرف نحو أسبوع ليعرض عليها ما تم الاتفاق عليه من مطالب هي الحد الأدنى لما يرتضيه الإخوان ، وقد ناقشت

الهيئة البنود وأقرتها ، وقررت أن يكون الإخوان وراء هذه الوزارة ما سارت في الطريق الذي حدده لها الإخوان ، فإذا ما حادت عنه فإن الإخوان يسحبون تأييدهم لها ويتخفون من المواقف ما تلزمهم به دعوتهم .

وأبلغ صدق بالقرار ، وأعلن تشكيل الوزارة التي لم يشترك فيها السعديون ، وشاع في مختلف الأوساط أن هذه الوزارة مقيدة من الإخوان ... وبالرغم مما أعده الوفد من حملات على هذه الوزارة فإن الظروف قد استقرت لها في ظل تأييد الإخوان ، واستمرت كذلك حتى بدأت جلسات المفاوضات ، وهي المفاوضات المشهورة باسم «مفاوضات صدق - بيفن» وكان يبين هذا وزير خارجية حكومة العمال في بريطانيا ، وكان من كبار الدهاة الماكريين .. وقد استغرق تشكيل الوزارة وإجراء المفاوضات نحو عام ، انتهى بإخفاق صدق في تحقيق ما اتفق عليه من مطالب تعد الخد الأدنى لحفظ كرامة البلاد ... وحاول صدق إقناع الشعب بأن النافه القليل الذي حققه هو نجاح للمفاوضات محاولا البقاء في الحكم .. وهنا أعلن الإخوان سحب تأييدهم له ، ولكنه أخذ في التثبيت بأهداب الحكم إلا أنه اضطر أخيراً إلى الاستقالة تحت وطأة موجات عارمة من المقاومة الشعبية التي لم يسبق لها مثيل .

بيان واضح عن موقف الإخوان من هذه الوزارة

بعد أن خصنا موقف الإخوان من وزارة صدق باشا ، نعود لنتناول هذا الموقف بشئ من التفصيل نظراً إلى أن هذا الموقف كان حدثاً تاريخياً غير مسبوق ، ومفاجأة في عالم السياسة المصرية لم يسبق لها مثيل ، ولهذا فقد وقف الشعب إزاءه مشدوهاً وانقسم في نظره إلى ثلاثة أقسام :

١ - قسم فهم الإسلام حق الفهم فعرف أنه دعوة تدور مع الحق حيث يدور فلا تبالى أن تؤيد من رفع راية الحق وإن كان عدواً ، ولا تبالى أن تضرب على يد من يجادل بالباطل وإن كان صديقاً «ولا يجر منكم شأن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى» «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، قالوا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ قال : بأن تضربوا على يديه» .. وهذا القسم تابع خطوات الإخوان مع هذه الوزارة بكل الاقتناع منذ ظاهر الإخوان هذه الوزارة حتى عملوا على إسقاطها .

٢ - وقسم كانت له السيطرة الشعبية على السياسة المصرية رأى في مساندة الإخوان لهذه الوزارة انتقاصاً من سيطرته فسخر وسائل إعلامه لتشويه هذه المساندة ، والخروج بها عن معانيها الإسلامية السامية إلى معان مادية حقيرة آمل من وراء ذلك في استعادة ما فقد من سيطرة شعبية .

٣ - وقسم ثالث خدع بما أذاعته وسائل إعلام القسم الثاني إما لأنه كان ساذجاً لم يستطع متابعة الأحداث وتفهمها تفهما سليماً ، وإما لأنه رأى في التجاوب مع ما أذاعته هذه الوسائل تفادياً لخطر محقق به أو تقريباً من هدف يرمى إليه .

وكان القسم الثاني هو حزب الوفد الذي كان يملك من وسائل الدعاية ما لا يملك الإخوان عشر معشاره ودوافع الوفد إلى ذلك سترجي الحديث عنها حتى يحى دورها .. وهذا القسم لا يعنينا أمره ، وليس هو المقصود بهذا التوضيح الذي نحن الآن بصدده ، وإنما المقصودون بهذا التوضيح هم القسم الثالث الذي خدعته وسائل القسم الثاني .. وإذا كان أصحاب النظرة السطحية للأمر من هذا القسم يلتبس لهم وجه العذر فهم يحتاجون إلى من يأخذ بأيديهم ، فقد لا يلتبس وجه عذر لمن سايروا وسائل الدعاية لجرد تفادى عقبة أمامهم أو الخروج من مأزق ، ولكننا مع ذلك سنلتبس العذر للجميع وننتصدي لإبانة واضحة لهذا الموقف تبدد ضباب اللبس وتمزق حجب الافتراء والتضليل .

وما يدعونا أيضاً إلى التوضيح والإبانة أن رجلاً لهم في نفوسنا كل التقدير لم يسلموا من الوقوع في هذا الخطأ ومن حقهم علينا أن نوضح لهم ما عساه كان خافياً عليهم حتى يصححوا نظرهم ومن هؤلاء الرجال الرئيس أنور السادات فقد تعرض في كتابه « الثورة المصرية وأسبابها السيكلوجية » إلى هذا الموقف نعرضاً يستحق التعليق .. فالرئيس السادات كان في خلال تلك الفترة من حكم إسماعيل صدق رهين السجن على ذمة قضية اغتيال أمين عثمان ، وما كان لرجل في مثل تلك الظروف لتتاح له فرص متابعة مواقف سياسية لم يكن أكثر ما يتصل بها يعلن على صفحات الجرائد ... فإذا تعرض مثل هذا الرجل بعد ذلك للكتابة عن فترة كان بحق يعد غائباً عنها ، فإنه سيستقى أنباءها من غيره ، وقد يكون هذا الغير مغرضاً .

كما لا ننسى أن نقول إن الفترة التي وضع فيها كتابه كانت فترة حادثة حرجة في سنوات ١٩٥٤ وما قبلها وما تلاها كان على الذي يريد أن يحتفظ لنفسه بالأمن من البطش والفدر أن يقدم برهاناً على أنه ليس من الإخوان المسلمين ، فإذا كان إنسان مدموغاً بأنه كان على صلة بهم والوشايات تلفه من كل جانب من هذه الناحية ، فإن عليه أن يسارع بتقديم برهان يدحض به حجج الواشين ، فإذا ما كرر قالة شاعت في وقت ما فقد يلتبس له العذر .

نظرة الإخوان إلى الأحزاب :

سبق أن أمانا إلى هذه النظرة من قبل ونعود إلى الحديث عنها بتفصيل فنقول إن هذه الأحزاب

لم تكن إلا أسماء على غير مسميات ، أنشأتها الأهواء والمناامع الشخصية ، وآلت كلها بعد قليل إلى أن أصبحت ناعلاً يتنهل منها المستعمر ما يشاء ليطأها كرامة المصريين ويرغم أنوفهم .

أما نظرة الإخوان إلى الوفد ، فإنهم يرونه حزباً قائماً على قاعدة شعبية بلا شك ، لكنهم لا يرون في تاريخه ما يؤهله لقيادة شعب يريد تحقيق آماله في الحرية ويصل حاضره بمآخيه فتورة سنة ١٩٢٩ كانت ثورة عارمة حقاً ، نابعة من صميم الشعب ، وقد عمت جميع مدنه وقراه وكان هدف الشعب فيها محدداً لا لبس فيه ولا غموض وهو الحصول على الاستقلال التام الناجز وطرد المستعمر من الأراضي المصرية .. وسواء أكان سعد زغلول قد اعتلى موجة الثورة أم كان هو باعها فقد كان المطلوب منه أن يستغل هذه الثورة لمصلحة البلاد أحسن استغلال بإذكاء شملها إذكاء متواصل لتظل على اشتعالها حتى تتحقق الآمال التي قامت الثورة من أجلها ، على أن الشعب في ذلك الوقت لم يكن بحاجة إلى من يذكرى أوار ثورته ، بل كان من اليقظة بحيث لا يرضى بالتضحيات بالنفوس والأموال .

ولكن الذى حدث كان غير الذى كان متوقفاً ، فقد رأينا سعداً بدلاً من أن يذكرى أوار الثورة يعمل على إخماد جذوتها ، ويستغل براعته الخطابية وثقة الشعب فيه استغلالاً عكسياً ، فيوهم الشعب أن الذى اتفق مع الإنجليز عليه من استقلال زائف مقيد بأثقل القيود هو كل المستطاع وليس في الامكان أبدع مما كان ... ولا زال الناس من الجيل الماضى السابق جيلنا يتحدثون عن لجنه ملتر وهى تخلص في استفتاء شعب أمى سياسيا ، مفتون بشخصية زعيم بارع أولاه ثقته ، واعتقد أنه هو وحده القادر على تحقيق أمانيه .. فإذا كان هذا الزعيم هو الذى يتخالف زملاءه في الوفد الممثل لمصر .. والقابع في لندن للتعبير عن آمال الشعب ، فأكثر أعضاء الوفد مصمون على مطالب الشعب كاماة ، وسعد هو الذى يريد أن غير ذات الشوكة تكون له فلا عجب أن ينخدع الشعب — كدأب الشعوب البدائية في الثقة بزعمائها — ويختار رأى سعد لمجرد ثقته المطلقة في شخصه وهكذا استطاع سعد أن يبيع الثورة المصرية التى قلما يتاح مثلها ، وأن يستقطبها لنفسه وأن يخمد جذوتها وأن يقف بتبارها الجراف الهدار عند حد ، وأن يحقن السياسة المصرية بميكروب خطير هو ما سمي بعد ذلك بأسلوب المهادنة والمفاوضات ، ولا يخفى على القارئ أن هذا الأسلوب إذا كان بين ضعيف وقوى ومسلح وأعزل فليس له معنى إلا التخاذل والذل والاستجداء .

ولو أن البلاد في ذلك الوقت قد أتيح لها زعيم له مثل مواهب سعد ولكنه لم يؤثر السلامة وواصل الجهاد الذى أعلنه الشعب والتضحيات التى استعذبها الشعب ، لتغير تاريخ شعبنا المغبون الذى جنى عليه وهو لا يدري .

هكذا تكون حزب الوفد ، وعلى هذا الأسلوب سار بالقضية المصرية أيام مؤسسه ، وعلى نفس الأسلوب سار خلفه النحاس حتى نعى الشعب معنى كلمة الجهاد وظنها عرافة من الخرافات وكان الشعب في ذلك معذوراً لأنه رأى زعماءه يسمون المستعمر حليفاً ويتخلدون الفاصب صديقاً ويطلقون على المعاهدة التي عقدها معه سنة ١٩٣٦ معاهدة الشرف والاستقلال وهي في حقيقتها معاهدة القيود والأغلال ، والتي كان من أصدق ما وصفت به ما وصفتها به أحد المنصفين في مقال كتبه في ذلك الوقت في جريدة الأهرام إذ شبه ما اتفقت انجلترا معنا عليه في هذه المعاهدة بما اتفق عليه أعرابي فتاك نزل عند أعرابي مسالم ضعيف وطلب منه أن يشتركا ممّا في إعداد وجبة مسن العصيدة ، وقال له إنني لن أطلب منك شططاً فسأقسم مكوناتها بيني وبينك بإمداد على هذا النحو :

منك الدقيق ومنى النار أولقدها والماء منى ومنك السمن والعسل

إذا كانت هذه هي نظرتنا إلى الأحزاب المصرية في ذلك الوقت ونظرتنا إلى حزب الوفد ، فهل نحن مقيدون بعد ذلك بأن نقيس الأمور بمقياسهم أو أن نزن الأشخاص بميزانهم أو أن نعالج الأحداث بطريقتهم ؟ هل إذا كرهوا شخصاً كان علينا أن نكرهه ، وإذا ناصبوه عداً فليتنا أن نناصبه أو نقاطعوه فليتنا أن نقاطعهم ؟

ولما كان « كل حزب بما لديهم فرحون » ظن حزب الوفد أن اختلاف معالجتنا للأحداث عن معالجتهم لها هو نوع من الحقوق الذي يستحق العقاب ويستوجب التأديب ، لا سيما وهو لم يجرب من قبل خروجاً على أسلوبه إلا ممن يناصبونه العداً الشخصية ، ولما كان هو ومنافسوه التقائديون لا يعرفون للقيم مكاناً لا في أخلاقهم ولا في تعاملهم فقد استباح لنفسه في هجومه علينا الكذب والافتراء والزور والبهتان مستغلاً في ذلك كل ما يسر له من وسائل الدعاية والإعلام .

وإذا تحددت لأتارى نظرة الإخوان إلى هذه الأحزاب فننعرض ظروف مواقف الإخوان إزاء الأحداث في خلال هذه الفترة الهامة من تاريخ مصر فنقول :

أولاً : بعد ما تعهد به صدق باشا للإخوان من المطالبة الجادة القوية بحقوق البلاد أو التدخل عن الحكم إذا تعسرت الأمور ، كون وزارته من حزب الأحرار الدستوريين ومن المستقلين وكان صدق باشا مضطراً إلى إيجاد وزارة من هذا الحزب أو من حزب السعديين لأن الحزبين معاً - الأمر الواقع - يكونان أغلبية أعضاء مجلس النواب .. وعند عرض صدق وزارته على مجلس النواب طالباً الثقة بها حصل على الثقة بالأغلبية وامتنع السعديون عن التصويت .. وقد احتفظ صدق باشا لنفسه بالرياسة والداخلية والمالية وكان وزير الخارجية أحمد لطفى السيد وكان تأليف هذه الوزارة في ١٨-٢-١٩٤٦ .

ثانياً : تأييداً لهذه الوزارة وتثبيتاً لمركزها أمام الإنجليز قامت في ٢١-٢-١٩٤٦ مظاهرات ضخمة بالقاهرة من جميع طبقات الشعب لإظهار شعورها نحو مطالب البلاد وكانت مظاهرات تنسم بالقوة والنظام ، وفي الوقت الذي لم تتعرض فيه قوات البوليس لهذه المظاهرات برزت فجأة قوات من الجيش البريطاني تصدت لهذه المظاهرات وهاجمت المتظاهرين المسالين العزل بأسلحتها وفتكت بعدد كبير منهم ؛ مما أثار النفوس وزادها حقداً على الإنجليز ... ومن صفاقة الحكومة الإنجليزية وعدم حيائها أنها على أثر هذه المظاهرات وما أزهقه هجومهم الغادر عليها من أرواح بريئة أرسلت إلى الحكومة المصرية مذكرة تطلب منها الطلبات الثلاثة الآتية :

١ - معاقبة المسؤولين ٢ - دفع تعويضات عن الخسائر ٣ - المحافظة على الأمن
ثالثاً : في ٢٤-٢-١٩٤٦ قابل وكيل الإخوان رئيس الوزراء صدقي باشا بمكتبه بالرياسة وأطلعته على رأى الإخوان في الموقف الحاضر وسلمه بياناً عن الحوادث الأخيرة ورأى الإخوان فيما يجب أن يتبع حيالها ، ونورد فيما يلي نص هذا البيان :

حضرة صاحب الدولة إسماعيل صدقي باشا رئيس مجلس الوزراء
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

فقد توليت دولتك الحكم والشعب يحتاز أدق مرحلة في تاريخه ، في الوقت الذي هبت فيه شعوب الأرض جميعاً تطالب بحريتها واستقلالها . ولقد دبت اليقظة في نفوس الأمة المصرية عن بكرة أبيها ، وقامت هي الأخرى تطالب بحقوقها المنصوبة ، وأجمعت بمختلف طبقاتها وهيئاتها على ضرورة نيل هذه الحقوق مهما تكلفها ذلك من مرتخص وغال .

ولقد كان للوعي القوي في مصر واليقظة المشوبة في قلوب المصريين أثر هائل تجاوبت به الأصداء في مختلف بلاد العالم ، وكان حرباً بالوزارة السابقة أن تستغل هذا الشعور القومي الرائع فتنتفع به في مواجهة المستعمرين وتستند إليه في مطالباتها بحقوق البلاد كاملة غير منقوصة ، ولكنها فشلت كل الفشل في ذلك ، وظهرت على الأمة بمذكرتها الهزيلة المتلوية ورد البريطانيين المثير على هذه المذكرة مما أزعج النفوس وأثار العواطف ، وكان ما كان نتيجة سوء تصرفها في سياستها الداخلية فضلاً عن فشلها في السياسة الخارجية ، وإساءة مثلها في هيئة الأمم المتحدة إلى القضية المصرية خاصة وقضية الأمم العربية والإسلامية بوجه عام .

ولقد ظلت الأمة على يقظتها - وستظل كذلك حتى تتحقق لها أهدافها - وفي يوم الخميس الماضي قام الشعب بمختلف طبقاته من شباب وشيب وعمال وطلبة يظهرون شعورهم في إجماع رائع

لم تشبه شائبه ولم يدفعه غرض مستتر اللهم إلا إعلان مطالبهم المشروعة والاستمساك بحقوقهم المفتصبة فلم يعكس صفوه معكرو حتى كان هذا الحادث المؤلم الذى إن دل فإنما يدل على استهتار عجيب بعواطف المصريين وتحد ظاهر لمشاعرهم وإحساساتهم إذ اعتدى على المتظاهرين من جانب الإنجليز اعتداء ظاهراً العيان شهده كل إنسان ، ولا شك أن التحقيق العادل المنصف سيثبت أن الإنجليز هم البادئون وأنهم هم المعتدون ، فهذه اللوريات الضخمة الأربعة التى هجمت على صفوف المتظاهرين من الأبرياء فى شارع القصر العينى فقتلت من قتلت وجرحت من جرحت بلا رحمة ولا شفقة ولا هوادة كانت الشرارة الأولى التى أثارت النفوس وطيرت الألباب .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل انطلقت المدافع الرشاشة من مكائنها فتفكك بالمصريين العزل الذين لم يجدوا ما يرد عنهم غوائل المعتدين ، ولولا حكمة القادة منهم وحسن توجيه أولى الأمر من رجالهم لتفاقم الخطب وعم الخطر وسادت الفوضى .

لهذا ياصاحب الدولة ولما يحسه الشعب لهذه التصرفات الجائرة لا يسع الإخوان المسلمين أمام هذه الظروف إلا أن يتقدموا للحكومة المصرية بالمطالب الآتية :

أولاً : التقدم إلى الحكومة البريطانية على وجه السرعة بمذكرة صريحة تطلب فيها الجلاء التام عن أرض وادى النيل ووحدة الوادى وحل المشاكل الاقتصادية التى تسبب عنها ما نراه من اضطراب فى الأسواق وكساد فى التجارة وعسر مالى لا يعلم إلا الله مدى ما يجر إليه البلاد من تدهور وخطر ثانياً : سحب ممثل مصر فى هيئة الأمم المتحدة وهم الذين أساءوا إلى قضية البلاد وقضايا الأمم العربية والإسلامية . وإيفاد من يمثل مصر تمثيلاً صحيحاً مشرفاً .

ثالثاً : عرض القضية على مجلس الأمن فى أول انعقاد له إذا لم تستجب إنجلترا لطلب الحكومة المصرية فى موعد عاجل محدد .

رابعاً : أن تطلب الحكومة المصرية من الإنجليز اعتذاراً رسمياً عن سوء تصرف الجنود البريطانيين فى الحوادث الأخيرة مع دفع تعويضات مناسبة لأهالى القتل والمصابين .

خامساً : اعتبار المدن المصرية (القاهرة والاسكندرية وبور سعيد والسويس والإسماعيلية) مناطق حرام على الجنود البريطانيين إلى أن يتم ترحيلهم إلى بلادهم .

سادساً : أن تطلب الحكومة المصرية عقد مجلس الجامعة العربية بصفة استثنائية لعرض تطورات القضية المصرية عليه واتخاذ قرار حاسم إجماعى أسوة بما اتخذ فى قضايا الدول الشقيقات سوريا ولبنان وفلسطين .

هذا فيما يختص بالسياسة الخارجية والحوادث التي سببها الإنجليز ، أما فيما يختص بالمؤلف الداعل فيرى الإخوان :

أ - الإسراع في تحديد المسؤولية في الحوادث الأخيرة التي أساءت فيها الحكومة السابقة إلى الشعب أيما إساءة حيث صادرت الحريات ونكلت بالطلبة الأطهار وأسالت الدماء الزكية ، ومحاكمة المسئولين والمتسببين في هذه الحوادث الخطيرة .

ب - الاستغناء عن خدمات موظفي البوليس والجيش المصرى من الإنجليز .

ج - الإفراج عن جميع المعتقلين الذين زج بهم في السجون ولا ذنب لهم إلا النداء بمطالبتهم والعتاف لواءى النيل .

د - تعويض أهالى الشهداء الذين ذهبوا فداء حرية الوطن واستقلاله .

ياصاحب الدولة :

هذا ما أردنا أن نتقدم به إلى دولتكم .. وأنتم اليوم على رأس الحكومة المصرية ، والبلاد تجتاز أدق مرحلة في تاريخها ، وسيسجل التاريخ في صفحاته الخالدات لكل امرئ ما قدمت يده - وإن مصر العزيزة التي لها من ماضيها أروع آيات المجد والفخار لترب من أبنائها جميعاً يقظة شاملة وجهداً متصلاً حتى يتحقق لها أملها ، وتصل إلى ما ترجو من مستوى رفيع بين سائر الأمم والشعوب .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

رابعاً : كان «الوند» - محاولة منه لزعزعة مركز الوزارة الصديقة - قد أوعز إلى زعماء الطلبة التابعين له أن يقرروا إضراب الطلبة ثلاثة أيام احتجاجاً على ضحايا الوزارة السابقة ، واجتمع الطلبة فعلاً في حرم الجامعة وخطب فيهم هؤلاء الزعماء ... وحضر الأستاذ محمد حسن المشاوى باشا وزير المعارف وألقى كلمة ذكر فيها أن الوزارة الحاضرة جاءت لتنفيذ ما يريده الشعب من المطالبة بحقوقه فإذا لم تستطع فلن تظل في الحكم ساعة... وقام الطالب مصطفى مؤمن ممثل الإخوان وطلب من الطلبة العدول عن الإضراب ثلاثة أيام والاكتفاء بيوم واحد في الأسبوع القادم وكتابة مذكرة بمطالبهم للملك فأطاع الطلبة ... وكانت هذه أول لظمة تلقاها الوند ...

وقد أصدر الوند بياناً حث فيه الشعب على مقاومة الحكومة الجديدة ، وأصدر الإخوان بياناً يطلبون فيه إلى الأمة اعتبار يوم ٤ مارس ١٩٤٦ يوم حداد عام تكريماً لأرواح الضحايا

والشهداء الذين راحوا ضحية اعتداء الجيش البريطاني الفاشم وأعلنوا في البيان عن تكوين لجنة تمثل فيها جميع الطوائف والأحزاب لتنظيم الإضراب العام في ذلك اليوم وقد مثلت في هذه اللجنة مختلف الطوائف ، ماعدا الوفد الذي رفض الاشتراك ، ومع ذلك فقد استجاب الشعب لهذه اللجنة وتم الإضراب الشامل في ذلك اليوم كما قررت نقابة الصحفيين احتجاجاً للصحف وأضرى المحامون والمؤلفون وعمال شركات الغزل وأصحاب المحال المختلفة . ولقد شاركت السودان وسوريا ولبنان والبلاد العربية في الحداد على الشهداء وأعلنوا الإضراب العام .

خامساً : في ٢ مارس تقابلت اللجنة القومية مع رئيس الوزراء وعرضت عليه مطالبها ودارت بينها وبينه مناقشة حول هذه المطالب انتهت بموافقة رئيس الوزراء عليها ، وعلى أثر ذلك صدر بيان أذيع بالراديو وأبلغ للصحف ... وجاء في هذا البيان :

«أعلن رئيس الحكومة أنه يشارك الأمة رغبتها في تكريم الشهداء وهو يقدر كل التقدير عواطف الشعب ، ولم تتردد الحكومة من جانبها في الاحتجاج بشدة على الاعتداء على هؤلاء الشهداء وستعمل فوراً على تعويض عائلات الشهداء والجرحى تعويضاً سخياً عما أصابهم من أضرار وهي على استعداد لتلقى اقتراحات اللجنة القومية لتكريم الشهداء تكريماً يبقى على مر الزمن ...» ورئيس الحكومة يعد البلاد أنه لن يتوانى عن إطلاع الأمة إذا جد الجد واعترض سبيل تحقيق المطالب الوطنية عقبات لم تستطع تدليلها .

وفي جلسة مجلس النواب في ٢٧-٢-١٩٤٦ كان صدق باشا قد ألقى بياناً صرح فيه بأنه رئيس المطالب الثلاثة التي كان قد طلبتها الحكومة البريطانية عقب مظاهرات يوم ٢١-٢-٤٦ فأبداه المجلس ، ومن أيده الأستاذ فكرى أباطة (كان فكرى أباطة في ذلك الوقت عضواً بالحزب الوطنى) مع أنه قد أعلن عدم الثقة بالحكومة منذ أسبوع . وتكلم فكرى أباطة فقال : أرجو أن أستمع دولة رئيس الوزراء أن أنهى مسألة المفاوضات جانباً فليس موضوعها الليلة ثم قال : في هذه اللحظة الرائعة الممتازة أود أن أقول بل من واجبي أن أقول : إننى أؤيد رئيس الحكومة على طول الخط في الموقف الحازم الذى وقفه .

وفي اليوم التالى لمقابلة رئيس الوزراء للجنة القومية طلبت الحكومة المصرية من الحكومة البريطانية رسمياً إجلاء جنودها فوراً عن القاهرة والإسكندرية .

سادساً : يلاحظ القارئ أن الوفد قد تخلف عن مواكبة الحركة الجماعية التي دعا إليها الإخوان وكان هو وحده الهيئة التي تخلفت عن الاشتراك في اللجنة القومية ، إذا ما أسقطنا من حسابنا

حسابنا حزب السعدين الذى جاءت حكومته بالخزى وأسقطها الشعب منذ قليل . ، وما كان يمثلوها ليشتروا في لجنة تؤلف للاحتجاج على جرائم ارتكبتها حكومتهم .

وظن الوفد أن عدم اشتراكه في اللجنة القومية سوف يحبط عملها ويشل حركتها ولكن الذى حدث كان غير ذلك فقد نجحت النجاح التام الذى أشرنا إليه ، فبدأ الوفد في مشاغباته بأن نشر في «المصرى» أن شباب الأزهر يستنكرون أن يمثل في اللجنة القومية الشيخ محمد شريت لأنه موظف في وزارة الأوقاف وليس طالباً ولا مدرساً في الأزهر (عاماً بأن أسرة شريت هذه من أعرق الأسر المصرية صلة بالأزهر فكبيرها كان من كبار علماء الأزهر ومدرسه وجميع أفرادها تقريباً من علماء الأزهر) .

ولا شك في أن إحراز هذه اللجنة التى دعا إلى تكوينها الإخوان هذا النجاح كان عجباً لعود الإخوان المسلمين ، وامتحاناً خطيراً لمدى شعبيتهم وتأثير الشعب بدعوتهم .

وفي ٢ مارس سنة ١٩٤٦ كتبت مجلة «دى تابلت» البريطانية مقالاً قالت فيه : إن مصر تتولى الزعامة بين الدول الإسلامية التى فقدتها تركيا بعد الحرب الماضية وصحف القاهرة تهدد الآن جامعة الأم البريطانية بمهاد دينى وقد أكد صدق باشا من جديد صداقته مع بريطانيا ولكنه مصر على أن تسحب القوات البريطانية فوراً .

سابعاً : قررت الحكومة في ١٩ مارس تأليف هيئة للمفاوضات ، وعرضت على «الوفد» الاشتراك فيها على أن يمثل كل حزب يفرد واحد ويمثل الوفد بفردين هـ فرفض الوفد وطالب بأن تكون له الأغلبية والرياسة فتكونت الهيئة من صدق رئيساً وحسين سرى وعلى ماهر وعبد الفتاح يحيى وشريف صبرى وعلى الشمسى ولطفى السيد ومكرم عبيد وحافظ عفيفى والقرائى وهيكىل وإبراهيم عبد الهادى أعضاء .

كما تشكل الوفد البريطانى في ٣ ابريل برياسة أرنست بيغن وزير الخارجية وعضوية لورد ستانجيت وزير الطيران والسفير البريطانى رونالد كامبيل ولواء البحر والجو البريطانيين في الشرق الأوسط - ومن جهة أخرى حضر إلى مصر الوفد السودانى برياسة إسماعيل الأزهرى .. . ويلاحظ في تكوين الهيئة المصرية للمفاوضات أنها مكونة من اثني عشر عضواً منهم أربعة فقط من الحزبين والثمانية الباقون من المستقلين ومنهم الرئيس، وفي فريق المستقلين أشخاص يثق الإخوان في وطنيتهم وقوة شخصيتهم .

ثامناً : تخللت هذه الفترة عملية التجديد النصفى لأعضاء مجلس الشيوخ ، وقد حرص

ليادتهم الموقف الرائع الذى نشرته الصحف في ٦-٤-١٩٤٦ وهو «تلقينا من جمعية الإخوان المسلمين أنها اتفقت مع رؤساء المناطق لمناسبة التجديد النصفى لمجلس الشيوخ على أن لاتدخل شعب الهيئة بصفتها الرسمية في هذه المعركة ، ولكل أخ مطلق الحرية في أن ينتخب من شاء من حضرات المرشحين متى اعتقد أنه أقدرهم على خدمة المصلحة العامة بغير نظر إلى أى اعتبار آخر ، وأن لاتتخذ دور الإخوان موقفاً لدعاية انتخابية من أى لون كان . وأن لاتقبل الهيئات الإدارية للإخوان تبرعات ما من أحد المرشحين لأي غرض من الأغراض طول هذه الفترة

تاسعاً : في ٨ مايو صدر البيان البريطانى الذى أذاعته السفارة البريطانية بالقاهرة ونصه : « إن السياسة البريطانية المقررة لحكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة هي توطيد محالفتها مع مصر على أساس المساواة بين أمتين تجمع بينهما مصالح مشتركة . وتطبيقاً لهذه السياسة بدأت المفاوضات في جو من الود وحسن النية. وقد عرضت حكومة المملكة المتحدة إجلاء جميع قواتها البرية والبحرية والجوية عن الأراضي المصرية والمفاوضة لتحديد مراحل هذا الجلاء وموعد إتمامه والتدابير التي تتخذها الحكومة المصرية لتحقيق تبادل المعونة في زمن الحرب أو في حالة توقع التهديد الوشيك بها طبقاً لتحالف » .

وتبادل الطرفان المصرى والبريطانى المذكرات والمشاريع وتمددت الاجتماعات بينهما حتى توقفت المفاوضات عند تقدم الطرف البريطانى بمشروع لا يكاد يختلف عن معاهدة ١٩٣٦ فيطلب خمس سنوات لإتمام الجلاء ، ويطلب في حالة الحرب أو التهديد بها أن تسمح مصر للقوات البريطانية باستخدام أرضها بصفة كاملة كقاعدة حربية .

وفي ٢٥ سبتمبر تقدم الجانب المصرى برد على المشروع البريطانى . ويتضمن هذا الرد أن يكون الجلاء في سنتين واستبعاد مادة خطر الحرب أو التهديد بها ونص على وجوب وحدة وادى النيل .

عاشراً : رأت الحكومة إدخال بعض تعديلات على هذا الرد فرفضت هيئة المفاوضات ذلك بأغلبية أعضائها - وهم المستقلون - ولما وصل الرد إلى الجانب البريطانى قرر قطع المفاوضات وغادرت هيئة المفاوضين الإنجليز إلى لندن .. وعرض صدق أن يسافر بنفسه إلى لندن لمتابعة المفاوضات فيها فرفضت الهيئة بنفس الأغلبية ذلك ، وصرح على ماهر وعلى الشمسى : بأن على مصر أن لا تعقد أية معاهدة مع بريطانيا ... فاضطر صدق إلى تقديم استقالة وزارته إلى الملك الذى حاول إسنادها إلى شريف صبرى فرفض فاضطر الملك إلى رفض استقالة صدق .

الحادى عشر : لما شعر الإخوان بأن الوزارة راغبة في التساهل مع الإنجليز في حقوق البلاد اعتبروا هذا إخلالاً من صدق في تعهده لهم ونكثاً منه في وعده الذى قطعه على نفسه وأيدوه على

اساسه ؛ فاعلنوا تحليهم عن تأييده ، ووضع هذا في عريضه ونعوسا ان المست ٨٠ ١ تحوير
١٩٤٦ وفي خطاب أرسلوه إلى صدق باشا في نفس التاريخ وقد نشر كلاهما في الصحف
في نفس اليوم ، ونثبت فيما يلي نصهما :

إلى مقام جلالة الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله ومن والاه والله أكبر والله الحمد
حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول حفظه الله
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

لقد تابعت الأيام والشهور ومضت الحوادث يتلو بعضها بعضاً وكلها تثبت أن المفاوضات
بين مصر وبريطانيا لم تعد الوسيلة الصالحة لتحقيق مطالب البلاد ، وأنها ليست أكثر من إجراء
يقصد من وراءه الإنجليز التعاقد لحماية مصالح يدعونها لا تتفق تظاً مع استقلال البلاد وحريتها
مع تفويت الفرص السانحة وكسب الوقت والعمل على تفريق كلمة الأمة .

وقد أدرك شعب وادى النيل بفطرته السليمة هذه الحقيقة فحدد مطالبه تحديداً واضحاً لم
انتظر وصبر طويلاً ، حتى إذا لم يبق في قوس الصبر مزرع طلب إلى الحكومة مثلاً في كل هيئاته
الوطنية وصحفه وجرائده ، بل على لسان بعض أعضاء وفد المفاوضات نفسه أن تعلن فشل هذه
المفاوضات وتوجه اتجاهها سديماً ، فترفع الأمر إلى هيئة الأمم المتحدة ، وتعلن سقوط معاهدة ١٩٣٦
التي أصبحت بحكم الحوادث والظروف غير ذات موضوع كما صرح بذلك معالي وزير الخارجية
المصرية في مجلس النواب ، وتطلب إلى الإنجليز وغيرهم سحب جميع القوات الأجنبية عن أرض
الوادي وجوه ومائه ، وتدعو الأمة وتنظم معها سبيل الجهاد للوصول إلى الاستقلال الكامل
والحرية الصحيحة كما تفعل كل أمة مجاهدة نكبتها الحوادث بظلم واحتلال غير مشروع ...

ولكن حكومة صدق باشا الأولى والثانية لم تصغ إلى هذا الصوت القوي والوطني المخلص
وأصرت على المضي في طريقها ، حتى بعد أن سافر المفاوضون الإنجليز إلى بلادهم واعتزم صدق
باشا أن يلاحقهم إلى هذه البلاد وأن يسافر إلى لندن لاستئناف المفاوضات التي لاخير فيها
ولافائدة ترجى من وراءها .

وأسام هذا الموقف الضار بمصلحة الوطن في وقت نحن أحوج مانكون فيه إلى الدقائق فضلاً
عن الأيام والشهور ننفقها في العمل المنتج - يفرغ الإخوان المسلمون إلى جلاتكم راجين أن

حقوق البلاد لتنهض بذلك حكومة قوية على هذه القواعد السليمة والأسس الصالحة .

ويعتقد الإخوان المسلمون من كل قلوبهم أنهم إنما يعبرون بذلك عن شعور أمة وادى النيل جميعاً من الشمال إلى الجنوب ، وإن جلا لتكم وأنتم الوطنى الأول خير من تتحقق على يديه الآمال وتنصلح بسامى حكته وجميل إرشاده وتوجيه الأحوال .

ولفكم الله للخير وحقق للوادى فى عهدكم الزاهر مايرجوه من صلاح وحرية واستقلال والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

إلى رئيس الوزراء :

حضرة صاحب الدولة إسماعيل صدق باشا ..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ...

فقد أسندت إلى دولتكم مقاليد الحكم فى فبراير سنة ١٩٤٦ وكان معروفاً أن المهمة الأولى للحكومة هى مفاوضة الإنجليز لاستخلاص حقوق الشعب الحقة التى أعلنتها الأمة وسلمت بها الحكومة (الجلاء التام ووحدة وادى النيل) .

وكان المفروض أن لا تستغرق هذه المفاوضات أكثر من شهر أو شهرين أو ثلاثة فى نظر أطول الصابرين صبراً ، وخصوصاً وحقوق الوطن واضحة لا تحتاج إلى كثير من لف أو دوران .. وقد درست القضية درساً وافياً من الجانبين ، وضاع على الأمة عام كامل أو يزيد بتفريط الحكومة الماضية وعدم مبادرتها إلى المطالبة بحقوق البلاد منذ وضعت الحرب أوزارها فى وقت تتقر فيه مصائر الأمم وتقف فيه الشعوب على مفترق الطرق أحوج ما تكون إلى الدقائق الساعات بله الشهور والسنوات .

ولكن المفاوضة طالت حتى أسامت وأملت فتوقفت واستؤنفت ثم انقطعت ووصلت ثم يتجنى علينا المفاوضون الإنجليز فهزوا أكتافهم وجعوا أوراقتهم وانصرفوا عنا إلى بلادهم هازئين ساخرين .

وكان المنتظر بعد هذه اللطمة القاسية وبعد أن عبث الغاصبون بحقوقنا ووقتنا ورجلنا هذا العبث وأضاعوا علينا كل هذا الوقت الطويل ، وارتفعت الأصوات من كل جانب تهيب بالحكومة أن تعدل عن هذه الخطة التى لاخير فيها ولا فائدة ترجى من ورائها . وبلغت إليها قرارات

بأحدهما من الشمال إلى الجنوب ، ووضح أن المشروع الإنجليزي والمشروع المصري لا يحققان مطالب البلاد ، ولا يزيد كل منهما عن أنه تنظيم مهذب أخوئى للحماية والاحتلال ، وأن الإنجليزي غير مستعدين إلى أى تغيير جوهري فيما عدا الصيغ والألفاظ .

كان المنتظر من الحكومة أمام هذا كله أن تصغى إلى هذه الأصوات الوطنية القوية المخلصة وتحترم إرادة الشعب الذى تدعى أنها تحكم باسمه وتبادر فتتخذ هذه الخطوات :

إعلان فشل المفاوضات الحالية وأنها لن تقبل بعد الآن أن تدخل مع الإنجليزي في مفاوضات أخرى بعد أن أثبتت الحوادث كلها أن بريطانيا لا تريد من وراء أى مفاوضة إلا التعاقد والاعتراف بمصالح تدعيها تتعارض كل التعارض مع حريتنا واستقلالنا وحقوقنا الثابتة المقررة .

وإعلان سقوط معاهدة ١٩٣٦ التى ألغتها الحوادث العالمية وأقر وزير الخارجية المصرية في مجلس النواب أنها أصبحت غير ذات موضوع .

وأن تطلب إلى الإنجليزي وغيرهم في عزم وإصرار سحب جميع قواتهم البرية والبحرية والجوية من الوادى كله ، وإلا اعتبر وجود هذه القوات اعتداء مسلحاً على سيادة البلاد تترتب عليه آثاره العملية من عدم التعاون مع بريطانيا ، والقانونية من قطع العلاقات الدبلوماسية بينها . وتدعو الأمة إلى الجهاد في سبيل حقوقها ، وتنظم معها وسائله وأساليبه كما تفعل كل أمة ترجو الحياة العزيزة ، وتؤثر الموت الكريم في ظل الاستشهاد على الإستكانة والذل والاستعباد .

ولكن حكومة دولكم لم تفعل شيئاً من هذا بل أصرت بإصراراً عجيباً على موقفها الضعيف المتخاذل ، وأمعت في الإصرار والتمسك بأهداف أمل خائب باعتزامكم السفر إلى لندن لاستئناف المفاوضات هناك ، وأخذت تكيث شعور الهيئات والجماعات والأفراد وتصادر الحريات ، وتمنع الاجتماعات ، وتنهياً لقمع الحركات الشعبية المخلصة بالحديد والنار .

وأمام هذا الموقف الضار بقضية الوطن ومصالحه في الداخل ، وأمام قرار الجمعية العمومية للإخوان المسلمين الذى يقضى بأن الحكومة المصرية إذا أصرت على المفاوضة ، ولم تنزل على رأى الأمة ، ولم تعلن الخطوات السابقة خلال شهر سبتمبر الماضى فإن الأمة تعتبرها متضامنة مع الغاصبين في الاعتداء على استقلال الوطن وحرية وتجاهدها معهم سواء بسواء .

يسجل المركز العام للإخوان المسلمين على حكومة دولكم أنكم بإصراركم هذا تفوتون على هذه البلاد أئمن الفرص وتكونون بذلك قد تضامنتم بقصد أو بغير قصد مع الغاصبين في الاعتداء

على استقلال الوطن وحرية وأن هذه الحكومة لا تمثل رأى البلاد فى شىء ، وكل إجراء تتخذه باطل أساساً ، وعليكم أن تدعوا أعباء الحكم لمن هو أقدر منكم على سلوك النهج القويم ، وإعلان حقوق الوطن كاملة من غير حاجة إلى تصديق الفاسيين ، وتنظيم قوى الأمة لتكافح الظالمين المهتدين - وستجاهد الأمة كل معتد على حقوقها من أبنائها أو من الأجانب عنها بكل وسيلة مشروعة حتى تصل إلى ماتريد - وهى واصلة بإذن الله والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

الحادى عشر : فهم صدق باشا عقب هذين الخطابين أنه لم يعد له من سند شعبى يستند إليه وأن الشعب الذى ظل هادئاً طيلة مدة وزارته السابقة سيتحرك ، ومعروف للجميع أنه هو الحاكم الجبار الذكى القوى البارح فى استغلال سلطاته الحكومية فى محاربة أعدائه السياسيين والذى طالما لجأت إليه السراى الملكية لتأديب المتمردين على طاعتها من الزعماء الوطنيين .. وإذن فلا بد من رجوعه إلى طبيعته وحشد قواته وتعبئة جنوده لمواجهة هؤلاء الوطنيين الجدد ... وقد سبق له أن أذل من هم أعظم منهم شأنًا فأدخلهم جحورهم ... وكان أن فعل صدق ما كان متوقعاً منه فاتخذ الإجراءات الآتية :

١ - قررت الحكومة تأجيل الدراسة فى الجامعة وجميع المعاهد والمدارس إلى ما بعد عيد الأضحى ٩ نوفمبر أى نحواً من شهر .

٢ - فى ١٥ أكتوبر أصدر النقراش وهيكلياناً يتحديان فيه رأى الإخوان ويقولان : لقد رأينا فى سفير رئيس الوزراء ووزير الخارجية الضمان الكافى لبيان وجهة النظر المصرية - وكان وزير الخارجية فى ذلك الوقت إبراهيم عبد الهادى .

٣ - صودرت جريدة الإخوان المسلمين . وصدر قرار حظر من النيابة يحظر نشر أية أخبار عن حوادث المظاهرات. وأجرى تحقيق مع وكيل الإخوان ورئيس الإخوان فى الإسكندرية ٤ - أصدرت وزارة الأوقاف أمراً إلى أئمة المساجد بعدم السماح لغير وعاظ الحكومة بالخطابة فى المساجد .

٥ - فى ٢٤-١١-١٩٤٦ سافر صدق وزير خارجيته الجديد إبراهيم عبد الهادى إلى لندن وأقى بمشروع معاهدة ادعى فيه فى بيان أذاعه أن مشروعه حقق مطالب البلاد فى الجلاء ووحدة وادى النيل .

٦ - أذاع مستر إتلى رئيس وزراء بريطانيا ومستر بيغن بياناً كذبا فيه صدق من ناحية السودان وأعلن أن بريطانيا لن تجلو عن السودان حتى ولو تخلت مصر عنه .

٧ - حاول صدق عرض مشروعه على هيئة المفاوضات لرفضه سبعة أعضاء منها وهم المستقلون . فطلب من الهيئة إرجاء البت في المشروع حتى اجتماع آخبر ثم رفض دعوة هذه الهيئة بعد ذلك .

٨ - أصدر المعارضون السبعة بياناً بأن المشروع لا يحقق أهداف مصر في الجلاء ووحدة وادى النيل . فصدر مرسوم ملكي بحل هيئة المفاوضات وذلك في ٢٦-١١-١٩٤٦ .

٩ - بعد أن تخلصت الحكومة من هيئة المفاوضات عرضت مشروعها على مجلس النواب الذى يمثل السعديون والأحرار الدستوريون أغلبية ساحقة فيه ، فانسحب ٥٥ عضواً هم أعضاء الحزب الوطنى وحزب الكتلة والمستقلون وطلبت الحكومة عقد جلسة سرية . ومنعها هذا المجلس الثقة بأغلبية ١٥٩ صوتاً . وشكر صدق الأعضاء الذين أيدوه ، وقد امتنع ثلاثة عن التصويت هم الرجال وشوكت التونى ومحمد بربرى - وكان ذلك في ٢٧-١١-١٩٤٦ .

الثاني عشر : وقعت حوادث شديدة في أنحاء القاهرة ، فقد قام الأهالى بالتجمهر في ميدان سليمان باشا وكذلك في ميدان الملكة فريدة وفي شبرا ، وقامت مظاهرات أشعلوا النيران في كومة من الكتب الإنجليزية وفي بعض عربات الترام كما حطموا واجهات بعض المحلات في شارع فؤاد وفي القصر العيني قلبوا بعض عربات الترام . وفي باب الشعرية هاجم الأهالى مكتبة تباع الكتب الإنجليزية واستولوا عليها وأحرقوها ... وفي مساء ذلك اليوم أصدرت وزارة الداخلية ورياسة مجلس الوزراء بلاغين نسباً فيها هذه الحوادث إلى الإخوان وتوعداهم بأشد العقوبات إذا تكررت هذه الحوادث ... مع أن هذه الأحداث وما تلاها لم تكن إلا يقظة شعبية عامة ولم يكن دور الإخوان فيها أكثر من بعث الوعي الوطنى .

الثالث عشر : بعد حصول صدق على الثقة التي أشرنا إليها من مجلس النواب اعتقد أنه قد أصبح في مأمن ، وقد استخدم بكل ما عرف عنه من فجور كل وسائل القمع والإرهاب حتى يوقف التيار الزاحف نحوه فاعتقل الوكيل العام للإخوان وعاث في البلاد فساداً محتماً في قرار حظر أئمة المظاهرات الذى أصدرته النيابة ولكن استجاباً لقدمه النائب موريى فخري عبد النور هتلك الستار الذى حاكه حول إجرامه ، ونورد نص هذا الاستجواب الذى يقول :

«تواترت الأخبار بأن حوادث مؤلمة وقعت يوم ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٤٦ على طلبة أبرياء ، ومنها أن طلبة كلية العلوم بالعباسية وفؤاد الأول وفاروق الأول ومصر الثانوية والأهرام الثانوية والهندسة التطبيقية هاجمهم البوليس وقد قتل منهم الكثيرون ، كما التهمت دبابه مبنى

إحدى المدارس وأطلقت نيرانها الحامية على الطلبة العزل فأصابته الكثيرين ، كما قبض على مئات في مختلف أنحاء القطر»

وفي ٢-١٢-٤٦ نشرت جريدة الدبيل ويركر الإنجليزية مقالاً وصفت فيه الاضطرابات التي وقعت في مصر أخيراً وقالت إن صدق باشا كان محروساً بأورطة كاملة من رجال البوليس المسلحين عندما وصل إلى البرلمان لإحراز قرار الثقة الأخير .

الرابع عشر : بعد كل هذا أصر صدق باشا على إيفاد وزير خارجيته إبراهيم عبد الهادي إلى لندن لتوقيع المعاهدة .

الخامس عشر : على أثر ذلك وقعت في القاهرة أحداث خطيرة وصنفتها الصحف فقالت : ليس هذه الأحداث الغربية أو الخطيرة بعبارة أصح وأوضح من سابقة بل لعلها الأحداث الأولى من نوعها :

١ - في أيام ٣-١٢ وما تلاها بعد الساعة العاشرة من مساء اليوم الأول سمع سكان القاهرة دويماً هائلاً ملائ الأرجاء وأحدث هزات عنيفة في بعض المساكن فأخذوا في تبين مصدر هذا الدوي المفاجئ . ولجأ بعضهم إلى أحد الأقسام لينبأ بالخبر ولكنه تبين أن هذا القسم كان مبعث الدوي والانفجار ، ذلك أن قبلة ألقبت عليه فانفجرت فأحدثت هذا الدوي الهائل . وقد حدث هذا في وقت واحد في أقسام بوليس الموسكى والجالية والأزبكية وباب الشرية ومصر القديمة وفي نقطة بوليس السلخانة .

وقد سببت تحطيماً لنوافذ هذه الأقسام ولم يصب أحد ولم يعرف الفاعل .

٢ - أصرب المحامون

٣ - اعتكف صدق في اليوم نفسه وعقد اجتماعاً في بيته برجال الأمن

٤ - ألقبت قنصلتان على سيارة هيكل باشا انفجرت إحداها فحطمت السيارة وأصابته جندى الحراسة إصابة بسيطة .

٥ - بالرغم من تشديد الحراسة على مراكز البوليس بوقوف حراس مسلحين على سطوحها توالى إلقاء القنابل على أقسام عابدين والخليفة والجيزة ومركز إمبابة وعلى معسكر بريطاني بمصر الجديدة .

٦ - قامت قوات كبيرة من البوليس بقيادة اللواء سليم زكى باشا حكامدار العاصمة بمحاصرة

المركز العام للإخوان المسلمين بالجمعية الجديدة وبتفتيش دار الجريدة والمطبعة لم يعثر على شيء .

السادس عشر : أقيمت هذه الأحداث الأخيرة صدق باشا بوجوب نزوله على إرادة الأمة فقدم استقالته في ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦ ولم يكن هذه المرة أمام القصر بد من قبولها .

تهقيب :

بعد فراغنا من سرد الأحداث التي توالى على البلاد في خلال سنتين ابتداء من تولي وزارة النقرشي باشا عقب انتهاء الحرب في فبراير سنة ١٩٤٥ حتى استقالة وزارة صدق باشا الثانية في ديسمبر سنة ١٩٤٦ ، نرى أن لاندع هذا السرد التاريخي يمر دون نظرة فاحصة فيه ، وتحليل دقيق لأحداثه ، وتعليق واع على نتائجه وثمراته ، لما كان لهذه الأحداث من آثار بعيدة المدى في مستقبل هذه الأمة .

أولا : لم يكن الإخوان دخلاء حين زجوا بأنفسهم في خضم المطالبين بحقوق الشعب في الحرية والاستقلال، فطبيعة الاسلام تأتي أن يعيش المسلمون تحت سلطان غيرهم ، يحتلون أرضهم بجيوشهم ، يستغلون خبراتهم لأنفسهم والله تعالى يقول : «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» ومن الأحكام المقررة في الفقه الإسلامي أنه إذا دبت أرض الإسلام صار الجهاد فرضاً على كل مسلم ومسلمة . والحديث الشريف يقول «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»

فإذا كان الذين يتحركون في هذا الأمر إنما تحركهم الأهواء والمطامع ويهدفون إلى الجاه والمناصب ، فتحرك الإخوان في هذا الأمر إنما هو بدافع من صميم الدين والهدف منه إرضاء رب العالمين ، فهم يبذلون ولا يقبضون ويضحون ولا يغمنون .

ثانياً : أن مساندتهم لحاكم أو معارضتهم لحاكم لم يكن الدافع إليها تحقيق مأرب شخصي أو نفع مادي ، وإنما كان الدافع إليها الحرص على تحقيق مطالب البلاد ، وانتزاع حقوقها في الحرية والاستقلال .. ولو كان هدفهم شخصياً لما أيدوا صدق باشا أول الأمر حين قطع على نفسه عهداً بالعمل على تحقيق هذه المطالب كاملة ، ولما عارضوه حين بدأ منه التفريط في بعض هذه الحقوق وحين أصر على فرض اتفاقيته القاصرة على الشعب .

فسائدة الحاكم لغم تظل على حالها لا تتغير ما ظل الحاكم قابضاً على أزمة السلطة قوياً في مركزه ، وحكومة صدق باشا ظلت قابضة على أزمة السلطة متمتعة بتأييد الملك والبرلمان حتى آخر يوم من أيامها ، ولولا معارضة الإخوان لها لما تزعزع مركزها .. فإذا كان هدف الإخوان

من مسافقتها تحقيق المآرب وجنى المغنم لما عارضوها وزعزعوا مركزها لتظل لهم بقرة حلوباً .
ونحسب بهذه المناسبة أن نوجه سؤالاً إلى الذين يلقون بظلال من الشك على علاقة الإخوان
بوزارة صدق باشا فنتطالبعهم بأن يذكروا لنا المغنم التي جناها الإخوان المسلمون من تأييدهم هذه
الوزارة سواء أكافت هذه المغنم للدعوة عامة أو لأفراد من أعضائها .. فإن عجزوا عن ذلك -
وهم عاجزون لاننا أعلم بأنفسنا منهم وسجل التاريخ بين أيدينا - كان كلامهم أو كتابتهم في
هذا الصدد نوعاً مما أشار الله تعالى إليه في قوله «والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا
فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً» ونقول نحن هؤلاء ما قال الله تعالى من قبل «ولولا إذ سمعتموه ظن
المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين»

أما تلقف أراجيف من أفواه الذين يملكون أبواق الإذاعة والإعلان ، والتقرب بها إلى حاكم
طهية فهو في ذاته إثم كبير ومرور به ريح ، وعن الدين ارتكبوا هذا الخطأ أن يصححوا
ويرجعوا إلى الحق فيه قبل أن يسجله التاريخ عليهم فيبوثوا بإثمة ولا يجحدوا من دون الله من ولى
ولا نصير .

وليست هذه أول فرية ولا آخر فرية تفتري على الإخوان المسلمين ولكن الله تعالى كان
للمفتريين بالمرصاد ففضح اقترامهم وكشف سوءاتهم ومخرج الإخوان وصلاحهم ناصعة البياض
وذهب هؤلاء بما تكشف من زورهم واقترانهم وإجرامهم إلى الجحيم «فأما الزبد فيذهب جفاء
وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال»

ثالثاً : أن إسقاط صدق باشا لم يكن هزيمة شخصية له بل كان هزيمة له وللحزبين المؤيدين
له السعديين والأحرار الدستوريين والملك من ورائهم والسياسة الإنجليزية التي كانت متلهفة على
عقد المعاهدة في أقرب وقت ممكن تثبيتاً لمركزهم في مصر في الوقت الذي يوهمون فيه المصريين
بأنهم نزلوا عند إرادتهم وتنازلوا عن معاهدة ١٩٣٦ التي أحسوا أنها فقدت فاعليتها وأذنت بانتهاء

رابعاً : كشفت هذه الأحداث عن القوة الحقيقية للإخوان ، وليس معنى ذلك أن الأطراف
المختلفة لم تكن تعرف أن الإخوان قوة كبيرة لها وزنها - فلقد كان الكل يعرفون - ولكن هذه
الأحداث أضافت اللثام عن قدر هائل من القوة فاق ما كانوا يمتقدون وتخطى ما كانوا يتصورون
ونورد فيما يلي مقالاً نشرت ترجمته جريدة المصري في يوم ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦ تحت عنوان :
رأى لندن في الأحزاب المصرية :

لندن - لمراسل المصرى الخاص :

كتبت جريدة «التمس» مقالا هاماً في نسخها الأسبوعية عن «الروح الوطنية في مصر» جاء فيه «إن المعارضة الرئيسية في مصر للبريطانيين صادرة من أربع هيئات رئيسية في الوقت الحاضر هي : حزب الوفد القوى والحزب الوطنى الصغير وحزب مصر الفتاة والإخوان المسلمون» أما الوفديون والوطنيون فهم حزبان سياسيان منظمين ، وموقفهما تجاه تعديل المعاهدة ومسألة العلاقات بين بريطانيا ومصر يخضعان لاعتبارات سياسية ولا نستطيع إن نقول أن أحدهما يعادى الأجانب .

أما حزب مصر الفتاة فهو جماعة تغالى في الوطنية تسيّر على برنامج يدل على أن زعماءها قد درسوا نظم جمعيات الشباب الهتلري والفاشيستى .

على الإخوان المسلمين يزعمون أنهم من طراز آخر يختلف عن ذلك ، وقد وصفهم الشيخ حـ مؤسس هذه الهيئة وزعيمها بقوله : إنهم ليسوا سياسيين أو حزباً سياسياً ، ولكنهم وطنيون يحبون خير مصر واسترداد حقوقها المقتضية .. ومع ذلك فإن هذا وصف شامل لجمعية تستحق نشأتها وتأثيرها في الحياة المصرية العامة دراسة وبحثاً ، فقد أنشأ الشيخ حسن البنا الإخوان المسلمين منذ ١٩٠٦ عاماً حينما كان مدرساً في الاسماعيلية ، ولم تتقدم هذه الحركة تقدماً حقيقياً إلا بعد انتقاله إلى القاهرة في عام ١٩٣٤ .

ولما كان حسن البنا شديد الإيمان بالتحاليم الإسلامية ، وخطيباً مفوهاً ، فإنه ما لبث أن كسب أتباعاً وأنصاراً كثيرين ونفوذاً كبيراً ، وأظهر أنه سياسى بارع ، فقد أصبح للجمعية بفضل إدارته الحكيمه فروع في جميع أنحاء مصر ، وبدأت مبادئه تنتشر في البلدان العربية المجاورة ، ثم أصدر جريدته في أوائل عام ١٩٤٦ .

وتتألف هذه الجمعية التي يقدر عدد أعضائها ما بين ٣٠٠ ألف ، ٦٠٠ ألف عضو من طبقة العمال ، ولكنها تضم عدداً من الطلبة وبعض المثقفين من الطبقة الوسطى ولا سيما المعلمين . ولم تبد طبقة أصحاب الأراضي حماسة كبيرة نحو الإخوان المسلمين خوفاً من احتمال ازدياد قوتهم مما يقضى إلى إضعاف سلطة الطبقة العليا على الفلاحين .

ويلوح أن لهذه الهيئة طابعاً عسكرياً فأعضاؤها يسرون في طوابير ويتدربون ويظهرون في زى عسكرى أمام الجمهور .

والهدف الرئيسى للهيئة هو العمل على إحياء الإسلام مما قد يفيد حياة الأمة المصرية بأسرها ، ولتحقيق هذا الهدف نقضى الضرورة لتنشئة جيل جديد يفهم معنى الإسلام ويتبع التعاليم الإسلامية.

ويعتقد الإخوان المسلمون أن المدنية الغربية الحديثة تقوم على الماديات وحدها ، وهي المسئولة إلى حد كبير عن تدهور السلوك والأخلاق ، ونشر الفقر والبؤس في مصر . ويرون كذلك وجوب إثارة الشعور المعادى للأجانب في مصر . وقد قال الشيخ حسن البنا في العام الماضي إنه يتكلم باسم ٥٠٠ ألف من الإخوان المسلمين الذين يمثلون مبادئ وآمال ٧٠ مليون عربي و ٣٠٠ مليون مسلم . وأضاف إلى ذلك أن مهمة الإخوان المسلمين ليست سياسية بما في هذه الكلمة من معنى ولكنهم يتمسكون بالإصلاح الإجتماعي مما قد يجعلهم قرييين من الشئون السياسية . ومع أن بعض المصريين قد بلغوا شأواً كبيراً من المدينة والتقدم إلا أن معظم السبعة عشر مليوناً المواطنين في هذه البلاد يعيشون كالحیوانات (كذا) ولا بد للمصريين أن يشغلوا جميع فروع الحياة المصرية ثم يرحبوا بالأجانب في الفروع الباقية الأخرى بعد ذلك . ولا ريب أن القوة والحرية وتعاون الدولة أمور ضرورية لتحقيق هذه الأهداف ، ولهذا يتعاون الإخوان المسلمون مع الوطنيين والسياسيين . ولقد اتهم الإخوان بالتعصب الديني ولكن الإسلام أوصى بالتسامح ولذلك فهم لا يشعرون بالتعصب الديني ضد الأجانب .

وقد تدخل الإخوان المسلمون للمرة الأولى في الشئون السياسية المحضة في عام ١٩٣٦ وكانوا من مشجعي الأعمال المعادية للبريطانيين في مصر حينما نشبت الثورة العربية في فلسطين ، وهم ما فتئوا من أنصار مفتي فلسطين ، وضاعفوا من نشاطهم بعد ما وضعت الحرب أوزارها . وكان هناك ما يحمل على الاعتقاد في عام ١٩٤١ على أنهم يقومون بأعمال التخريب ، ويجمعون المعلومات عن قوات الحلفاء ويقومون بالدعاية المعادية لهم ومحاولة إسقاط مجهودهم الحربي بصفة عامة في مصر وفي أكتوبر عام ١٩٤١ اعتقل الشيخ حسن البنا غير أنهم أطلقوا سراحه بعد ذلك بشهر واحد . وفي عام ١٩٤٢ بعد ما تولت حكومة النحاس باشا الحكم أعلن تأييده الصريح للحكومة والمعاهدة المصرية الإنجليزية . ولما أصدر الشيخ حسن البنا نعليجاته إلى أتباعه بعدم معارضة الحكومة بدا أنه يؤيدها بعض الوقت تعرض لانتقاد شديد من أنصاره غير أنه تغلب على هذه المعارضة ومضى في تعزيز مركزه .

وشرع في تنظيم حملة واسعة النطاق لاكتساب أعضاء جدد لمبادئه . ولم يمض وقت طويل حتى وصف الوفد الإخوان المسلمين بأنهم أصبحوا خطراً على البلاد واهتهم بالتدخل في السياسة تحت ستار الدين ، وسارت العلاقات بين الإخوان المسلمين والوفد - وهي علاقات لم تكن طيبة في وقت من الأوقات - من سيئ إلى أسوأ .

ويتدخل الإخوان المسلمون في الوقت الحاضر في الشئون السياسية علانية ، ويمتقدون أن

البريطانيين ما زالوا معتدين واستعمايين وأن على مصر أن تقطع المفاوضات وتعلن إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وتطالب البريطانيين بسحب قواتهم بدون قيد أو شرط في وقت محدد يعينه الخبراء العسكريون المصريون . فإذا رفضوا ذلك اعتبروا معتدين مسلحين ولا بد من طلب معونة من هيئة الأمم المتحدة .

ويرى الإخوان المسلمون أن لا تقبل أى معاهدة أو تحالف مع البريطانيين ما دام الاحتلال قائماً ، ويجب أن يستعد سكان وادى النيل للكفاح من أجل حقوقهم وأن لا يكون هناك تعاون من الآن مع البريطانيين .

ولم يظهر بعد تأثير هذه الدعاية المعادية للأجانب ، وطبعى أن تسمع آراء الإخوان المسلمين عن الأمانى المصرية إذ لا ريب أن دعواتهم الوطنية قد لاقت آذاناً مصغية من قبل كثير من المصريين الأوفياء المخلصين . غير أنه لا يمكن التسامح أو التهاون تجاه محاولة خلق عداوة وشكوك بين شعبين نشأت بينهما صداقة كبيرة وعشرة طويلة عادت عليها بالمنفعة المتبادلة ، ولحسن الحظ لا يزال المصرى العادى والبريطانى العادى بعيدين كل البعد عن كراهية كل منهما للآخر .»

خامساً : كما أن هذه القوة التى كشفت عنها هذه الأحداث قد وضعت هذه الهيئة فى وضعها الصحيح فى مكان الصداقة ، فإنها جرت عليها ويلات ومصائب من كل جانب ، فالوئد أحس أن مركزه الشعبى صار فى خطر - وسنفرد لذلك فصلاً إن شاء الله - وأحس الملك أنه أصبح لأول مرة - وجهاً لوجه - أمام هيئة شعبية قادرة على السيطرة لا مطامع لها فى حكم ولا مناصب ، وهذه المطامع هى التى كان يقود بها الزعماء الشعبيين وغير الشعبيين من مناخرهم ليركموا تحت أقدامه . وأحس محترفو السياسة من الزعماء الوهميين من خدام القصر أنهم أصبحوا بذلك مهددين . وأحس الإنجليز والمستعمرون أنهم أصبحوا أمام وضع جديد يهدد سياستهم فى مصر والبلاد العربية والبلاد الإسلامية .

وزارة النقراشى الثانية

بعد سقوط وزارة صدق باشا كان الناس ينتظرون أن تسند الوزارة إلى شخصية قوية ذات تاريخ وطنى مشرف ، وكان آخر ما يخطر بالبال أن يستدعى لتأليفها رجل تحاذل أمام الإنجليز بمذكرته الضعيفة المتهاكمة التى سجلت عليه الخزي والتفريط فى حقوق الوطن ... ولكن الذى حدث كان عجباً فقد استدعى فعلاً محمود فهمى النقراشى باشا فألف وزارته الثانية كأن البلاد قد أفقرت من الرجال .

ومع ما في هذا التصرف الملكي من تحذ لمشاعر الشعب عامة ومشاعر الإخوان خاصة ، فإن الإخوان -إنقاذاً لقضية البلاد وتلافياً لضيق الوقت الثمين- تناسوا تاريخ الرجل وسابق فشله وسوء تصرفه وتقدموا إليه بخطة كاملة ونصيحة مخلصه ، فقد بعثوا إليه في ١٠-١٩٤٧ بالخطاب التالي :

دولة النقراشي باشا رئيس الوزراء .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

فقد وصل الموقف في الداخل والخارج إلى الحال التي تعلمونها دولتكم من الضيق والحرج ، وأصبح من الحتم اللازم على كل غيور على مصلحة هذا البلد أن ينسى نفسه وحزبه ويذكر شيئاً واحداً هو خير هذا الوطن والعمل السريع الحازم لعلاج هذه الحال .

كل تصرفات الإنجليز ياباشا في لندن وفي السودان وفي أي مكان تدل على أنهم لا يريدون أن يسيروا مع المطالب المصرية خطوة واحدة إلى الحق ، فهذه التصريحات المتوالية من رئيس الحكومة البريطانية ومن حاكم السودان . وهذه التصرفات الهلالية من إقصاء الموظفين المصريين والا ستئثار بكل شيء دون حكومة مصر في جنوب الوادي . وهذا التحدي كل يوم بقول جديد وعمل جديد ، كل هذه أدلة متوالية صريحة سافرة لا تقبل جدلاً ولا تأويلاً على أن القوم قد نفضوا أيديهم من الصداقة المزعومة والمجاملة الموهومة وآثروا أن يفرحوا ما يريدون فرضاً بالقهر أو بالغدر ولن يستطيعوا بإذن الله .

وكل شيء في الداخل مظهر سافر واضح من مظاهر القلق والألم والأسى والأسف والحزن والضيق . هذه المعاهدة المعطلة وهذه الحريات المكيلة وهذا الرعب تمتلئ به الصدور وهذا الخذر من الحاكم والمحكوم . وهذه القوات من البوليس السري والعلني ترابط في كل مكان . وتبعث الرهبة والريبة في كل يوم ، ولا يمكن أن تعيش في هذا الجو أمة مهما كان صبرها طويلاً ومهما كان صدرها واسعاً وحلمها عظيماً -والضغط يولد الانفجار ، لا بد إذن من عمل شيء ، والسبيل أمامنا والحمد لله مهياً والوسائل مهيأة ولا ينقصنا إلا الحزم والإقدام فإلى الأمام .

أعلن ياباشا فشل المفاوضات واقطعها في عزة وكرامة ، وصارح البريطانيين بأنهم أحوج إلى صداقتنا منا إلى صداقتهم ، وأنها نعرف الوسائل التي تنال بها حقوقنا كاملة غير منقوصة ، وأنها لم تؤثر سبيل المفاوضات إلا إقامة للحجة وإثباتاً للمسألة وإعداداً إلى الله والناس ، ثم اطلب إلى الإنجليز جلاء قواتهم عن أرض الوادي فلا يليق بدولة عضوة في هيئة الأمم المتحدة أن تحتل

تواتها أرض دولة أخرى هي عضو في الهيئة كذلك كما هو نص القرار ؛ والإمكان وجودهم عدواناً مسلحاً على سيادة الوطن وخروجاً على ميثاق هيئة الأمم وتهديداً للأمن والسلام في الشرق الأوسط .

فإن لم يفعلوا فتقدم بقضية الوطن إلى مجلس الأمن وإلى محكمة العدل وإلى كل مجمع دولي فأنس فيه ميلاً إلى الإنصاف . ونفوراً من الظلم والعدوان بعد الدواصة الكاملة والتمحيص الواسع والتنظيم الدقيق ورعاية كل الظروف والملايسات .

ثم أطلق الحريات كاملة ولا تخش شيئاً ياباشا ، ولا تخف على الأمن والنظام فإنك لن تجد شعباً يقدر الأمن ويحب النظام ويدين بالطاعة كهذا الشعب المصري الذي لا يعرف أن يحيا إلا في ظل النظام والطاعة .

ثم وجه الدعوة إلى مواطنيك في جنوب الوادي وشماله في برنامج شامل مفصل يوضح غايتك ووسيلتك لتحقيق المطالب التي أجمعت عليها البلاد (الجللاء التام عن الوادي كله والحرص التام على وحدته) وادع الأمة جميعاً إلى أن تكون معك على ذلك ، وإلى أن تتألف من هيئاتها وأحزابها وجماعاتها ومفكرها جبهة قومية سودانية مصرية واحدة تتعهد الشعور الوطني وتسده إلى الخير وتقف به عن العدوان ، وتنظم الدعاية الشعبية في الداخل والخارج ، فتعمل الحكومة بوسيلتها الرسمية وتعمل تلك الجبهة القومية إلى جانبها بوسائلها الشعبية .. والجميع يرمون عن قوس واحدة ، ويهدفون إلى غرض واحد معروف مقدس عزيز ... ولا تستبعد هذا ياباشا ولا تظنه من الخيال فقد رأيت وسمعت ولمست وأحسست استعداد الجميع العظيم لمثل هذا معارضين ومؤيدين ، على أثر بيانك بمجلس النواب .. فإذا خطوت بعده هذه الخطوة العملية فسيكون الجميع معك لا بمجرد التصفيق والاستحسان ولكن بالقول والعمل واللسان والسنان ، ولن يتخلف عنك في ذلك إلا من في قلبه مرض فيخسر نفسه وجهاده وماضيه ويظل مع الخوالب .

وثق ياباشا أنه لن يكون معك شعب وادي النيل وحده ولكن سيكون معك سبعون مليوناً من العرب يؤازرهم ثلاثمائة مليون من المسلمين تحفق قلوبهم لمصر وتتحرك مشاعرهم وعواطفهم لمشاعرها وتسكن بسكونها وليس ذلك بقليل .

دعني أصارحك ياباشا وأنت لا شك عايم بأن الأمة ليست كما كانت بالأمس ، فقد امتلأت أفتدتها بشعور جياش قوي ، وأصبح الوعي الوطني اليوم تام الاكتمال قوى الأثر ، والشعور الوعي قوة أية قوة وهما عدة الشعوب المجاهدة وسلاح الأمم المناضلة . كما أتاح الله لهذه الأمة من

رجالها وهياتها من جمع كلمتها الشعبية في تشكيل منظم مرتب ، وفي وحدات مؤمنة باذلة -
والتجميع والتنسيق والنظام الدقيق قوة أخرى. ولا شك - قوة تسرع إلى الخير وقوة تحول دون
الشر فالزمام أبداً، معقود ولن يفلت بإذن الله ..

يادولة الباشا - لقد تقدمت لدولتك بمثل هذه النصيحة منذ عام مضى وهأنذا أتقدم بها اليوم
وأعتقد أني بذلك قد أبرأت ذمتي وأديت أمانتي والوقت من ذهب فسر على بركة الله والله معلنك
وأقدم ولا تتردد فتفلت الفرصة السانحة وتعود من جديد إلى التجارب القاسية ، ونستبين النصح
ضحى القدر حيث لا يفيد ولا ينفع ألا قد بلغت اللهم فاشهد والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

هذا هو نص الخطاب الذي تقدم به الإخوان للنقراشي باشا بعد تسلمه مقاليد الحكم بأقل من
شهر ويلاحظ فيه القارئ، عدا الخطة المفصلة المقترحة ؛ بث روح الاطمئنان في نفسه إلى أن
الإخوان سيكونون بجانبه ومن ورائه وأن تنظيماتهم الشعبية قادرة على النهوض بأعباء الجهاد ضد
المستعمر إذا ما ارتضت الحكومة سلوك سبيل الجهاد ، وهذا لعمري هو نكران الذات حقاً أمام
رجل لم يمس على اعتدائه على الشعب وعلى الإخوان بالذات إلا عام واحد .. بل يبدو أن بعض
الطلبة أرادوا أن يبتشوا العرب في نفوس الإنجليز حتى يرغموهم على التفاهم مع هذه الحكومة
بأن انتهزوا أعياد الميلاد يوم ٢٥ ديسمبر فانفجرت خمس قنابل في الاتحاد المصري الإنجليزي
وخلف باركاليفورنيا في شارع توفيق وفي شارع جلال وشارع الملكة فريدة وعلى سيارة تاكسي
كان يركبها الجنود الإنجليز أمام مدرسة بغمرة وهذه هي الأماكن التي يأتى إليها الجنود
والضباط الإنجليز - على أن أحداً لم يصب .

مواقف متناقضة لهذه الحكومة :

١- بعد توجيه الإخوان خطابهم إلى النقراشي وإصدارهم بياناً إلى الشعب بنفس المعنى أعلن
النقراشي أنه قرر قطع المفاوضات مع الإنجليز وعرض القضية على مجلس الأمن ، ومعنى هذا
أنه نابذ الإنجليز بالعداء .

٢- بعد سقوط وزارة صدق عشية حصوله على ثقة شبه إجماعية من مجلس النواب ثبت
للقنراشي باشا ولغيره أن اعتماد الحاكم في مصر لتثبيت مركزه وتأمين خطواته على تأييد هذا
المجلس لم يعد كافياً وأنه لابد من الاستناد إلى قوة شعبية حقيقية ، ولما كان من المستحيل أن يحظى
من الوفد بتأييد فلا مناص من اللجوء إلى الإخوان .

٣ - أعلن الإخوان تأييدهم لهذه الحكومة بعد أن أعلنت استجابتها لمطالب البلاد - ومعنى
تأييد هيئة شعبية لحكومة كان يأمل المستعمر من وراء ضعفها الحصول على مكاسب له أن يحاول الدس

بين هذه الحكومة وبين هذه الهيئة حتى ينفرد بالحكومة وحدها فيعمل عليها ما يشاء .

وكان الإخوان حريصين على أن لا يتيحوا الفرصة للاستعمار ، ولكن المستعمر لجأ إلى أساليب حقيرة - مستغلا الصبغة الدينية للإخوان - فسلط بعض صناعته من المصريين فهاجموا بعض الكنائس والمعابد .

وقد ظهر أثر ذلك في مقال نشرته جريدة فيلادلفيا تريبيون في ٢٥-٥-٧؛ تعرضت فيه فيه للإخوان المسلمين بقولها « إن عدم الاستقرار في مصر لا يرجع كله إلى الحماية الوطنية بين المصريين أنفسهم ، فهناك على سبيل المثال ما يسمونه جمعية الإخوان المسلمين وهي التي غدت مسئولة عن عدد من الحوادث التي وقعت في مصر أخيراً . إن نشاط هذه الجمعية في صالح الإسلام أكثر منه في صالح المصريين ، وضد المسيحية أكثر منه ضد البريطانيين ؛ وهذا يفسر الهجوم الذي وقع أخيراً على كنيسة قطية والهجوم الذي وقع منذ عام مضى على الكاتدرائية البريطانية في القاهرة وعلى معابد اليهود والكنائس اليونانية في الإسكندرية .. لقد بدأت هذه الحوادث تظاهرات سياسية وانتهت كظاهرات لعنف يقوم بها المتعصبون المسلمون والدولة التي راقب هذه التطورات باهتمام . وتعتبر الدولة التي تستفيد من ذلك هي روسيا فإذا استطاعت أن تثير الدول العربية ضد الدول الأوروبية فإن الشرقيين الأدنى والأوسط قد ينفجروا » .

هذا بعض ما جاء بهذه الجريدة ولا داعي للتعليق عليه فالباءث عليه واضح والهدف منه ظاهر وهذا هو أسلوبهم في الوقعة بين الطوائف لا سيما حين يأسون من مواجهة الحق البين والمحيات المؤمنة ذات المبادئ التي لا تشتري ضمائرهما في سوق النفاق والشهوات . وقد ثبت أن الهجوم على الكنائس من تدبير الإنجليز .

٤ - علم الإخوان كما علم غيرهم أن هذه الحكومة بالذات هي أضعف من أن تقوم بأعباء مواجهة الإنجليز لأن رئيسها النقراشي يحمل إصر تأييده المفاوضات القديمة واشترائه واشترائه حزبه فيها وخطابه المشهور الذي تحدى فيه طوائف الشعب كله بتأييده بكل قوة . شروع صدق - ييفن في الجلسة السرية لمجلس النواب فعمل الإخوان على تكوين جبهة من جميع الهيئات المصرية المحايدة ضمت الشبان المسلمين ومصر الفتاة والحزب الوطني والكتلة وحزب الفلاح وحزب العمال وانضم اليها السعديون الأحرار كما ضمت الشخصيات المستقلة . وكانت مهمة هذه الجبهة هي العمل على وحدة الصفوف في مواجهة الإنجليز . وقد بذلت هذه الجبهة أقصى ما استطاعت من جهد ولكن نتيجتها قد أجعلها صالح حرب باشا في بيان أذاعه يوم ٢٤-٣-١٩٤٧ جاء فيه . :

«إن شباب الأمة فوضنى فى محاولة توحيد الصفوف فقت بمقابلة الجهات المختلفة وتبين أنها ثلاث جهات :

١ - معسكر الحكومة ويتكون من حزبي الأحرار والسعديين .

٢ - معسكر الوفد .

٣ - معسكر الأحزاب والهيئات الأخرى (وهى التى تتكون منها الجبهة التى فوضته)

فالمعسكر الثالث زحج بالتوحيد ، ولكن المعسكر الأول رفض حل مجلس النواب الحالى فى الوقت الذى اشترط فيه المعسكر الثانى حل مجلس النواب الحالى .

فشلت هذه الجبهة فى مساعيها وظل النقراشى على تمسكه بأن يواجه الإنجليز وحده ، فدارت مناقشات واجهه بعض أعضاء مجلس الشيوخ فى أثناءها بمواطن الضعف فى مواقف السابقة مما يضعف حجته أمام خصوم البلاد ، فأصر على رأيه ...

حتى الموظفون الإخصائيون واجهوه بمثل ذلك فعندما أبلغ النقراشى باشا محمود حسن باشا سفير مصر فى الولايات المتحدة باعتزاه تقديم القضية إلى التحكيم الدولى نصح السفير بأن تكون الهيئة التى تتولى ذلك مثلة للرأى العام المصرى بأجمعه .

ولكن النقراشى أصر على رأيه .. وحينئذ رأى الإخوان أنهم أمام أمرين أحلاهما مر إما أن يعملوا على إسقاط النقراشى وفى هذا إضاعة للوقت الثمين والجهد الوطنى المخلص وفى هذا مواجهة مباشرة للملك الذى أبدى إصراراً على التمسك بهذا البرلمان وما يتفرع عنه من حكومات هزيلة ... وستتحول المعركة من مواجهة المستعمر إلى مواجهات داخلية وهوما يتمناه المستعمر .. وإما أن يؤيدوا النقراشى بعد أن قيد نفسه بتصريجات رسمية أنه سيفتح صفحة جديدة فى مواجهة المستعمر .. واختار الإخوان أمراً اعتبروه أخف الأضرار .

هـ - كان أمل الإخوان كما كان أمل كل مصرى أن ينجز النقراشى وعده فينبذ إلى الإنجليز على سواء وفى أقرب فرصة ولكن الذى حدث أنه ظل يؤجل المواجهة يوماً بعد يوم بحجج مختلفة حتى فوت على البلاد بهذا التأجيل المصطنع ثمانية أشهر ، استطاع الإنجليز فى خلالها تكوين جبهة من السودانيين مناهضة لمصر برياسة المهدي وتطالب بالاستقلال عن مصر. وطرد حاكم السودان فى خلالها قاضى قضاء السودان المصرى وأبدله بسودانى عنه هو كما طرد مدير التعليم المصرى أيضاً ، فجعل ذلك مهمتنا فى المطالبة بوحدة وادى النيل أمراً صعباً ؛ ولو أن النقراشى أخذ

بنصيحة الإخوان فأعلن إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ واتفاقية سنة ١٨٩٩ الخاصة بالسودان لما استطاع الإنجليز ولما وجدوا الفرصة لفعل ما فعلوا في السودان ولكان موقفهم موقف المدافع عن نفسه لا موقف المهاجم .

٦- في الوقت الذي تدعى فيه الحكومة أنها تناهب لمهاجمة الإنجليز ودمهم بالاعتداء ويقوم الإخوان بتعبئة الشعور الشعبي هذه الخطوة :

(أ) فيطبعون كتاباً عنوانه «إلى الشهداء الأبرياء» تقوم هذه الحكومة بمهاجمة دار الإخوان ومصادرة النسخ التي طبعت من هذا الكتاب .

(ب) القنابل التي ألقيها بعض الطلبة في ليلة عيد الميلاد على الأماكن التي يتردد عليها الإنجليز والتي أشرنا إليها من قبل والتي ألقيت بحكمة بحيث تخيف الإنجليز دون أن تقتل أحداً ، تلقى الحكومة القبض على الطالبين حسين عبد السميع ومحمود نفيس وتقدمهما إلى محكمة الجنايات كأنهما مجرمين .

(ح) يقوم جواله الإخوان باستعراض في القاهرة لبعث الروح في الشعب في ٣٠-٦-٤٧ فيقوم بوليس الحكومة بمهاجمتهم ويحاول منعهم من مواصلة الاستعراض حتى تقوم بينهم وبين البوليس معركة .

٧ - عند عرض القضية على مجلس الأمن وإصرار النقراشي على أن يكون هو وحده وحزبه مثل مصر فيها يقع ما كان محذوراً ؛ فقد كان الأساس الذي بنى عليه عرض القضية على هذا المجلس هو قطع المفاوضات لفشلها ، وكان لا بد أن يذكر النقراشي ذلك في بيانه أمام المجلس ؛ فكان السير الكسندر كادوجان مندوب بريطانيا في المجلس يقذف في وجه النقراشي بالحجة وهي أن النقراشي نفسه هو الذي أيد مواصلة المفاوضات ووافق على مشروع صدقي - بيغن ... وبذلك انهار دفاع النقراشي كله حيث انهار أساسه وفشلت القضية أمام المجلس .

٨ - لم تقصر الأمة من جانبها في مساندة هذه الحكومة فالأستاذ أحمد حسين رئيس مصر الفتاة سافر إلى الولايات المتحدة قبل عرض القضية بفترة طويلة وأخذ يشرح جوانبها للشعب الأمريكي - وفي أثناء عرض القضية على مجلس الأمن قام الأخ الأستاذ مصطفى - ومن مندوباً عن شباب الإخوان بعمل جرى لإثارة اهتمام العالم بقضية مصر - ونشبت نص مجاه بالصحف ووكالات الأنباء عن هذا العمل فيما يلي :

«نيويورك في ٢٢-٨-١٩٤٤ :

في جلسة مجلس الأمن بعد الظهر افتتحت الجلسة في موعدها ، ولكن حادثاً لم يسبق له مثيل في تاريخ المجلس وقع في مستهلها ؛ فإن الأستاذ مصطفى مؤمن ماكاد يرى النقراشي باشا يحتل مكانه المعتاد ليلقي بيانه حتى خرج من مكان المتفرجين إلى مكان الأعضاء والسكرتيرين فحدثت ضجة بين الأعضاء ، فطلب الرئيس منه أن يلزم النظام ثم دعا الحراس لإخراجه من قاعة المجلس .. وكان الأستاذ مؤمن يلبس الطربوش كمادته .

وقد علمت أن الأستاذ مؤمن كان يريد أن يخطب في أعضاء المجلس باسم الشعب المصري ، وجاء في الكلمة التي استطاع إلقاها ما يلي :

سيدى الرئيس

أتقدم إليكم باسم جميع شعوب الشرق الأوسط وبالنيابة عن الإخوان المسلمين .. نحن نطلب أن تعامل قضيتنا بالعدالة التي أصبحت جدية بها ، فإذا لم يحدث ذلك فإن ألوفاً من الناس سيبدلون حياتهم رخيصة في الكفاح من أجل حرية بلادهم .. ثم قال وهو يلوح بأوراق معه : « ونحن نطلب الحرية - ولكن حارسين مع نائب رئيس ضباط الأمن أخرجه . ولكنه ظل ينطب بصوت عال حتى خرج ... فساد الدهول أعضاء المجلس ليذكر أعضاءه بالحقوق المهضومة التي يسكتون على هضمها .

وبعد أن خرج الأستاذ مؤمن من الجلسة تبعه بعض مندوبي الصحف إلى قاعة الصحافة الواقعة خلف قاعة مجلس الأمن مباشرة - وقد تأثر الأعضاء لقول مؤمن : إن ثورة ستجتاح وادى النيل بدون ويب إذا حدثت مفاوضات ، وإن النذير قد بدأ اليوم في حوادث القاهرة وأنه يريد أن يعلن ذلك على العالم كله .. وقال ..

«أيها السادة أريد أن أكرر عليكم ما أبلغته لمجلس الأمن قبل مناقشة المسألة المصرية اليوم ، فإنى أعلن أولاً أن استئناف المفاوضات سيلقى مقاومة شعب وادى النيل بأسره ، وأعلن ثانياً أن لضم عرى وحدة وادى النيل ستضر السلام العالمى . وأعلن ثالثاً أن سياسة الدول الكبرى التي تسعى إلى مصالحها الاستعمارية دون النظر إلى الأمم المهضومة الحقوق ستدفع هذه الهيئة إلى المصير نفسه الذى اندفعت إليه هيئة الأمم ؛ أى الموت والاندثار من عالم الوجود .. وقد تلقيت من القاهرة اليوم وثيقة كتبها شباب مصر بدمهم ، وهم يعربون فيها عن الرأى الذى أبديته لكم الآن تماماً . وما يجمع شعب وادى النيل عليه هو تطهير جبين البلاد من وصمة الاحتلال البريطانى فوراً ،

وإنهاء الحكم التمسقى الذى أقاموه لأغراضهم الخاصة فى السودان» .

٩ - فى نفس يوم اجتماع مجلس الأمن لنظر قضية مصر - وكان يوم جمعة - دعا الإخوان الهيئات الوطنية والشعب لإعلان تضامنه مع الحكومة فى مطالبتها بحقوق البلاد . فخرجت مظاهرة ضخمة من الجامع الأزهر وأمامها علم الإخوان المسلمين تهتف بمطالب البلاد .. فإذا ببوليس الحكومة يهاجمها مهاجمة وحشية فأصيب الأستاذ المرشد بعدة ضربات فى وجهه وفى أحد أصابعه ... وقد أخبرنى الأخ الأستاذ محمود الجوهري وكان حاضراً فى هذه المظاهرة أنه لما جرح إصبع الأستاذ المرشد وسال منه الدم نظر إليه وتمثل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مثل هذا الموقف وقال :

هل أنت إلا إصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

وكان يتمثل بهذه الكلمات الكريمة حين اجتمعوا بعد المظاهرة فى بهو الاستقبال وقد أخذوا يضمضون له جراحه .

كما أخبرنى الأخ الأستاذ محمود - وكان بجانب الأستاذ المرشد طيلة فترة هذه المظاهرة - أنه لاحظ - كما لاحظ الأستاذ المرشد نفسه - أن تصرف رجال البوليس فى ذلك اليوم كان يشعر بأن هناك خطة مرسومة لاصطياد الأستاذ المرشد منفرداً للتخلص منه ... ذلك أن قوات البوليس حاصرت الأزهر وكانت تعمل على تفريق من يخرجون منه وتشيتهم أولاً بأول حتى إذا خرج الأستاذ المرشد اصطادوه وحده ... وكان الأستاذ آخر من خرج من المسجد وكأنهم ظفروا بما أرادوا فحاصروه بالقوة كلها راكبة الخيل وهو منفرد .. وهنا تصرف الأستاذ المرشد تصرفاً مذهلاً إذ اختطف عصاً من أحد أفراد القوة وأخذ يضرب بها كل حصان على أنفه فيرفع الحصان رجليه الخلفيتين فيهبى الجندي الذى يمتطيه على الأرض وبذلك تمكن من إسقاط أفراد القوة كلها ، وكان الإخوان قد لحقوا به فى خلال هذه المنازلة البارة والتفوا حوله وعادوا به إلى المركز العام وقد نجاه الله من موت محقق كان مديراً له فى ذلك اليوم والله غالب على أمره .

وقد توفى فى تلك المظاهرة ثلاثة رجال وكان أحدهم الأخ الشهيد محمد عبد الرحيم الأنصارى من عمال السكة الحديد .. وقد أخبرنى الأخ الأستاذ محمود الجوهري أيضاً قال : كنا نستعد للجمع هذه المظاهرة وكانت وقتئذ بجانب الأخ محمد عبد الرحيم وهو مسند ظهره إلى سور مدرسة المحمدية بشارع أحمد عمر قريباً من المركز العام وكان فى زيه المعروف به وهو الجلباب الأبيض والعمامة

البيضاء الكبيرة وسمعتة يقول قولة لا أنساها «إننى أشم اليوم رائحة الجنة» وأذكر أن الأخ الأستاذ لبيب البوهى قد أخرج قصة باسمه فى ذلك الوقت .

وقد رأيت بإيراد هذه اللوحات أن يتبين القارئ فى ضوءها صورة المواقف ومدى البون الشاسع بين الأم الشكلى والناتحة المستأجرة .

ولم يفت الأستاذ المرشد فى خلال هذا الإجراء الفاشم من البوليس أن يعتب على اللواء سليم زكى حكمदार القاهرة ...

وفى نفس اليوم قامت مظاهرات فى طنطا وبور سعيد والإسكندرية ... وكانت هذه المظاهرات من الضخامة بحيث هزت أبنائها أرجاء العالم حتى إن مراسل جريدة المصرى فى نيويورك أرسل إلى جريدته يقول : تلقت نيويورك قبل ظهر اليوم أنباء المظاهرات حتى وقعت فى القاهرة ، وانتشرت هذه الأنباء بسرعة عظيمة هنا فى نيويورك ، وكان لها أثر قوى على الجميع - ولم يشأ أعضاء الوفود المختلفة أن يعلقوا بشئ .. وقد أعرب كثيرون فى ليك سكس عن أسفهم لإصابة كثيرين فى خلال المظاهرات ... وقد عاق السير والترسمات على هذه الأنباء بقوله : إنه يخشى أن تكون الحالة قد تطورت فأصبحت خطيرة للغاية .

ومع هذا التناقض المزرى فى مرافق الحكومة إذتهاجم مظاهرات قامت لتأييدها وتقوية مركزها فى مجلس الأمن فإن الإخوان لم يثنوا عن مواصلة تأييد الحكومة إذ تم اجتماع بين الإخوان والهيئات الوطنية وبين خشية باشا نائب رئيس الوزراء وسويت المسألة وقرروا الإضراب يوم ٢٦-٨ استنكاراً لمعاهدة سنة ١٩٣٦ .

١٠ - يحار المرء أمام تصرفات النقراشى باشا التى لا تدل على أنه كان جاداً يوم أعلن فى مجلس النواب أنه سيهاجم الإنجليز ويصمهم بالاعتداء ، فلا شك على سبيل المثال فى أن العمل الجرى الذى قام به مصطفى مؤمن فى مجلس الأمن كان أعظم أثراً وأجدى نفعاً للقضية المصرية من ألف خطية كالتى ألقتها النقراشى فى هذا المجلس فلقد لفت أنظار العالم كله إلى مظالم الإنجليز واعتدائهم على حرية الشعب المصرى بطريقة عملية مثيرة لا سيما وقد شغعت بمظاهرات ضخمة فى القاهرة هزت مشاعر العالم ... وكان أدنى ما ينتظر من رئيس وزراء مصر أن يحتضن هذا الشباب فى شخص مصطفى مؤمن ومن معه ويشيد بهم .. فانظر ماذا فعل هذا الرجل :

الذين جاء بالصحف في ذلك الوقت وقرأناه ولا زال مسجلا فيها إلى اليوم هو أن الأستاذ أحمد كامل قطب كان شاباً وطنياً وكان محامياً ورئيساً لحزب الفلاح .. وسافر هو الآخر إلى نيويورك ليشارك في الجهود الشعبية من أجل القضية ، فلما قام مصطفى مؤمن بحركته وألقى الكلمات التي أشرنا إليها قبلا وأخرجوه من قاعة المجلس ، قام الأستاذ أحمد كامل قطب بمثل الدور الذي قام به مصطفى مؤمن فأخرجوه أيضاً .. ويبدو أن مفاجأة مصطفى مؤمن لم تدع فرصة للنقراشي ليفكر ويكون رأياً فيما حدث فلما قام أحمد كامل قطب بنفس الدور كان النقراشي قد كون رأياً فاتجه إلى أحمد قطب وقال له أمام الجميع : اخرج يا مجرم .

وقد عز على الأستاذ أحمد كامل قطب أن يرميه رئيس وزراء مصر بالإجرام واعتقد أنها مجرد زلة لسان فقابلته في اليوم التالي أمام وفد مصر وعتب عليه فيما صدر منه إليه وقال له يا دولة الباشا إن العمل الذي قمت به هو جهاد شريف لتأييدك وتأييد قضية البلاد وما كان ينبغي أن ترميني من أجله بالإجرام فرد النقراشي باشا عليه قائلاً : إنك بالعمل الذي قمت به أمس فأنت مجرم لما كان من الشاب المجاهد إلا أن قال للنقراشي : إذا كان أحد مجرماً إذن فالمجرم أنت . وتركه وانصرف .

أما تصرف النقراشي باشا إزاء مصطفى مؤمن فقد كنت على علم به في تلك الأيام ولكنني قد حملته يوم بلغني على عمل المبالغة وكنت عازماً على إغفال ذكره في هذه المذكرات لهذا السبب ، ولكن شاءت الأقدار أن تجمعي الظروف بزميل لي في العمل لا علاقة له بالإخوان المسلمين ولا بالسياسة ولكنه يرتبط برباط القرابة مع المرحوم الأستاذ عثمان عبيد الذي كان في ذلك الوقت اتصالاً لمصر في نيويورك ، وفي معرض حديثه عن خلق قريبه وشجاعته قال لي إنه رحمه الله حدثه أنه بعد الانتهاء من عرض القضية على مجلس الأمن جاءه الطالب مصطفى مؤمن الذي استطاع أن يجتذب انتباه العالم إلى مصر وإلى قضية مصر وشكا إليه أنه أنفق كل ما كان معه من نقود وأنه يريد أن يرجع إلى مصر وطلب إليه أن تتكفل القنصلية بمصاريف سفره . قال الأستاذ عثمان فوافقت لأن التعليمات تقضي بذلك .. قال الأستاذ عثمان فلما علم النقراشي باشا بذلك استدعاني وعتفني على موافقتي على ترحيل مصطفى مؤمن على نفقة القنصلية ، فبهت لهذه المفاجأة لأنني كنت أعتقد أن مصطفى مؤمن بما آداه من خدمة للقضية سيكون موضع تكريم من الحكومة ورئيسها ... فسألته عما يريدني أن أفعله . فقال : ارفض ترحيله على نفقة القنصلية . فقلت له : وكيف أرفض

والتعليمات عندي تلزمنى بالموافقة ؟ قال : أنا رئيس الحكومة وأنا أمرك . ثقلت له : إذا كان الأمر كذلك فلا بد من أمر كتابي .. فلما أحس بأننى أفضمته تقهقر .

١١ - أصدر مجلس الأمن قراراً بتأجيل القضية مصر إلى أجل غير مسمى ، ورجع النقراشي إلى مصر وكان الجميع ينتظرون منه حين يرجع أحد مؤلفين إما أن يقود الشعب المهياً تمام التهيئة للتصال ضد الإنجليز وإما أن يقدم استقالته .. ولكنه رجع واتخذ موقفاً آخر غير هذين هو موقف السكوت المطبق . وقد طال سكوته حتى أسأم أهل مصر جميعاً وأهل وادى النيل وكاد يبعث في نفوسهم اليأس وإليك نموذجاً من البيانات التى صدرت من الهيئات المختلفة معبرة عن هذا المعنى وهذا البيان صادر من حزب مصر الفتاة يقول :

«إن دولة النقراشي باشا خيب آمال البلاد منذ عودته من أمريكا فقد لاذ بالصمت المطلق ، ولم يحاول أن يوجه البلاد أو يقودها نحو تحقيق أهدافها . ثم توالى الحوادث فى الخارج والداخل فراح حاكم السودان يفاجئ الحكومة بتصرف جديد كل يوم جاهداً فى العمل على فصل السودان نهائياً ولم تفعل الحكومة المصرية شيئاً بل ولم تقل شيئاً : وليس هناك ما يكشف عن عجز الحكومة كآزمة ضباط البوليس (قاموا بإضراب) واختتم البيان بأنه يجب على الحكومة أن تفسح الطريق لحكومة أخرى تكون أكثر قدرة منها على التعاون مع الشعب وحل مشكلاته وأزماته بروح جديدة وعزم جديد» .

وإذا كان هذا نموذجاً يمثل رأى الهيئات الشعبية فى موقف هذه الحكومة وقد صدر فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤٧ فقد تبادلت الحكومة فى موقفها هذا المهين حتى إن الحزب المشارك للسعدين فى الحكومة وهو حزب الأحرار الدستوريين قد استبد به الضجر فعقد اجتماعاً فى ١٦ ديسمبر سنة ١٩٤٧ ووقف رئيسه الدكتور هيكى بصف موقف الحكومة من القضية بأنه «سبات عميق» وقد نشر ذلك فى الصحف فى ذلك اليوم .

ونورد نموذجاً آخر يمثل رأى المستقلين من ذوى الفكر فيما جاء فى كلمة ألقاها فى مجلس الشيوخ فى ١٣-١-١٩٤٨ وهيب دوس بك عضو المجلس حيث قال «إن الذى تشعر به البلاد ويشعر به الناس جميعاً هو أن رئيس الوزراء يلوذ بالصمت دائماً فى كل أمر يتطلب إليه بيانه، وهذا ما يجب أن يوضع له حد» ثم قال : أما وقد ذهب وفد مصر إلى مجلس الأمن وعاد فقد كان مفروضاً أن الحكومة قد أعدت عدتها لمواجهة حالتى النجاح والفشل ، وبقاء القضية معلقة فى المجلس ليس

هو النجاح الذى ذهب وفد مصر إلى ذلك المجلس من أجله ، فحل ما فيه من مجلس م يحكم برخص الدعوى ، فإذا أعدت الحكومة لذلك ؟ وقد ثبت أن الخطوات التى عطلتها لم تفد البلد شيئاً على الأقل ويجب أن لا يبقى الأمر على طريقة عدم كشف الأوراق ، بل يجب أن تعرف البلاد حقيقة المؤلف فإذا كانت الحكومة أعدت خطة معينة أزمت تنفيذها فعليها أن تصارح البلاد بها .

واستطرد فقال : إن المنسوب البريطانى فى مجلس الأمن واجه وفد مصر بأن هذا المجلس غير مختص إلا بنظر الحالات التى تهدد الأمن العالمى . وتساءل كيف فات الحكومة ذلك فطلت الحيلة على ما يرام وظل الإنجليز على قناة السويس لا يعكرو صفوهم معكرو ، على أن الأمن لا يهدد إلا إذا كانت مصر تنوى أن تعمل عملاً .

ورأى أن السكوت على تصرفات حاكم السودان إنما هو تكملة للعبارة التى قالها المرحوم سعد زغلول باشا حين قال : «هل عندكم تجريدة ؟» وتساءل عن الأساس السحرى الذى ننتظره لإزاحة الإنجليز من بلادنا إذا كنا بلا تجريدة وبقي الإنجليز حيث هم فى بلادنا لا يحلون عنها . وقال : إني لو كنت صاحب الأمر يوم أمر حاكم السودان بإخراج الموظف المصرى من السودان فى ٢٤ ساعة وإلا اعتقل لما ترددت فى أن أستدعى الموظفين الإنجليز فى مصر جميعاً وأعلنهم بأن عقود استخدامهم قد أُلغيت . وهذا كان أبلغ رد على إخراج موظف مصرى من أرض هى جزء من بلده .

١٢ - فى الوقت الذى طالبت فيه كل الهيئات والأحزاب الممثلة للشعب بتخلى هذه الحكومة عن مركزها بعد فشلها التام نرى جريدة التيمس تعبر عن وجهة النظر الرسمية فى لندن فتشئ على النقراشى ونقول إن الواجب يحتم عليه البقاء فى الحكم ونقول : إن جماعة الإخوان المسلمين يضعون أمام النقراشى مشكلة أخرى ، وإن هذه الجماعة قد برهنت على منفعتها كجبهة معارضة لخصمها وهو الوفد ، ولكن زعامة الإخوان المسلمين لا تتحمل مسئولية ، وتشددتها يجعل تأييدها ميزة ليست لها قيمة مؤكدة » .

وكان من المنتظر أن يقوم الإخوان بعمل قوى . يصحح الوضع يلزم هذه الوزارة بالتدخل تبليدها وبأن تقود البلاد إلى مقاومة المستعمر حتى يخرج من البلاد وإما أن تترك مكانها لحكومة ترضى لنفسها أن تحمل هذا العبء ... ولكن كارثة كبرى حلت بالعالم الإسلامى أذهلت كل مسلم فى الأرض وجعلت كل دولة عربية وإسلامية تنسى مشاكلها الخاصة أمام هذه الكارثة تلك

هى صدور قرار هيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين .. مما جعل الإخوان يصفون كل ثقلهم وراء العمل على دفع هذه الكارثة وتجاوبت جميع الشعوب العربية بهذا الشعور حتى اضطرت حكوماتها المتهالكة إلى الظهور بمظهر المتجاوب هى الأخرى .

ورأى الإخوان أن تكريس جهودهم لدفع هذه الكارثة المروعة أجدر أن يقدم على كل ماسواه وقد أرجأوا مواجهة هذه الحكومة آمليين في أن تحظى قضية فلسطين بتأييد من هذه الحكومة ، فتأييد هذه الحكومة ضرورى لتأمين ظهر الإخوان في محاولتهم دفع الكارثة الهائلة بفلسطين. وكان الإخوان قد رفعوا إلى الملك فاروق عريضة في شأن القضية المصرية وما آلت إليه وما ينبغي أن يتخذ في شأنها ، فلما وقعت كارثة قرار هيئة الأمم بتقسيم فلسطين بعثوا في ١٨-١-١٩٤٨ برسالة إلى النكراشى باشا أشاروا في مستهلها إلى أن الوزارة عدت عريضة الجماعة المرفوعة أخيراً إلى جلالة الملك معارضة لها ضاق صدرها بها ثم قالوا : «إن الإخوان المسلمين يجاهدون وحدهم تارة ومع المجاهدين تارة أخرى في سبيل فلسطين العربية ، وقد أعلنت الحكومة اهتمامها بهذه القضية وتشجيعها للعامين في سبيلها . وإنهم حين يعملون لفلسطين يعملون لها مخلصين ولا يسمحون لأنفسهم بأن تعلق بهذا الجهاد شبهات السياسة المحلية . وهم على استعداد لشكر الحكومة المصرية في هذا المعنى إذا قامت بواجبها ، ولتنبيهها إذا قصرت ولتنددها أشد النقد إذا أصرت على التقصير .»

ويلاحظ القارئ أن في هذه الرسالة نوعاً من اللين والملاطفة لحكومة يعلم الإخوان من بلادها ما يعملون ولكن الظروف المحيطة بالبلاد الإسلامية والتبعات الملقاة على عاتق الإخوان حيالها اقتضت هذه الملاينة مع حكومة كانت هى الأمر الواقع وقد ضمنت تأييد الملك بجعلها إبراهيم عبد الهادى رئيساً للديوان الملكى ولا ينبغي العاقل أن يحارب في جبهتين ، لاسيما وقد نبتت بجانب قضية فلسطين وفي نفس الوقت قضية أخرى ألقت على كاهل الإخوان عبئاً آخر تلك هى قيام «ثورة اليمن»

ثورة اليمن

في خلال الأربعينيات أثر عن بعض كتاب الغرب الذين جاؤوا البلاد العربية قولهم : «إن مصر متخلقة عن أوروبا مائة عام ، والسعودية متخلقة ثلاثمائة عام ، أما اليمن فإنها لا زالت تعيش في عصر ما قبل الثورة»

وقد لا يكون في قولهم هذا مبالغة ؛ فإن الذين كانت راحة تحت لون من الحكم يدعى لنفسه أنه الحكم الإسلامى الوحيد في العالم حتى إن الحاكم كان يطلق على نفسه لقب «الإمام» ويقصد بذلك أنه الحاكم الإسلامى الذى يجب أن يدين له بالطاعة كل مسلم على وجه الأرض ... لكن هذا الحاكم كان أبعد الناس عن الإسلام بل إنه كان سبة وعاراً في جبين الأمة الإسلامية .

نعم استطاع حكم هؤلاء الأئمة أن «يحفظ» هذه البلاد - كما يدعون - من أن تمتد إليها يد المستعمر ولكن هذا «الحفظ» كان أشبه بالاستجارة من الرمضاء بالنار ، فلقد استطاع هؤلاء الأئمة أن «يحفظوا» الذين من أن ينفذ إليها بصيص من النور، ومن أن تسرى فيها نسمة من نسائم الحياة ... عزلوا الذين عن العالم كله ، وكتبوا أهلها بأغلال الفقر والجهل والإذلال ؛ فجميع ما نقل الأرض هو للامام ، فترأى الناس عن فلاح الأرض حتى جذبت .. والتعليم محرم إلا على أسرة الإمام وفي حدود لا تثير العقل ولا تفنق الذهن .. والمواصلات منعومة ولا أقول قليلة أو نادرة ، فلم تكن هناك وسيلة للمواصلات إلا الدواب فليس في البلاد خط حديدى واحد وليس فيها طريق معبد يصلح للسيارات وليس في الذين كلها إلا سيارة واحدة هي سيارة الإمام .. أما انعدام الطب والدواء والمستشفيات فأمر طبيعى مع فقد العمل والتعليم والمواصلات .. وهدف الأئمة من هذا «الحفظ» الذى يدعونه هو أن يأمنوا على عرشهم من أن يقوم في الذين من ينازعهم فيه أو حتى من يسأهم عما يفعلون .. وأنى يقوم رجل من هذا القبيل في بلد كل أهله جهلاء وأكثرهم مرضى وفقراء ولا تستطيع قرية أن تتصل بحيرانها إلا بشق النفس ؟ ..

ولم يكتف الأئمة بكل هذه الوسائل من وسائل «الحفظ» بل إمعاناً في «الحفظ» تذرعو ابوسيلتين جهنميتين أخريين :

أولاهما : أنهم نشروا زراعة نبات مخدر يسمى «القات» وأكثروا من زراعته وعملوا على ترويج تعاظمه - وما له ببل نشر الفساد - فصار مضغ القات شغل أهل الذين الشاغل .. وبذلك ضمن الأئمة أن قضى هذا «القات» على البقية الباقية في هذا الشعب الذى لا يكاد يفنى من التخدير

والوسيلة الأخرى : هي أن يأخذ الإمام من كل شيخ قبيلة أحد أبنائه ويبقيه عنده موثقاً وهينة لديه حتى لا يفكر أحد الشيوخ في الخروج عن طاعة الإمام ليقول ولده .

وليس هذا الوصف الذى أوردته للذين مستقى من مقال كتب أو من مؤلف وضع قد يشك في اتجاه كاتبه أو هدفه ، وإنما هو وصف وصفه لأحد الإخوان الفضلاء كان هو أول بعثة

تعليمية أوفدت إلى اليمن هو الأخ الأستاذ جمال عمار وذلك بعد أن أنشئت الجامعة العربية وكان ذلك أول اتصال لليمن بالحياة .. أخبرني حين رجع من اليمن بمشاهداته هناك وهي التي استخلصت منها ما قدمت من وصف موجز لحال اليمن .. وما ذكره لي أيضاً عن رجال الشرطة في صنعاء أن الإمام لا يكاد يعطيهم مرتبات فهم عادة حفاة ومن المناظر المألوفة أن ترى الواحد منهم يجرى في الأتربة وقد عطف بعض الدواجن والمرأة صاحبة الدواجن تجري خلفه مستغيثة تتوسل إليه أن يرد لها ما عطفه من دواجنها ؛ فالشرطة الذين يفترض فيهم أنهم يحمون الشعب من المعتدين هم الذين يحتلون ويستبيحون أموال الناس تحت اسم الإمام وبصره .

هذا قليل من كثير مما أنبأني به الأخ الأستاذ جمال عمار عما رآه بنفسه في اليمن .. وحين كنت بمكة سنة ١٩٥٠ كنت أنظر إلى الرجل فأعرف أنه يمني فأساله فيتين صدق فراستى وكانت العلامة التي أميز بها اليمنى هي نحول جسمه وشحوب لونه وضعف بنيته ، كلهم مرضى بفقر الدم فلا غذاء ولا دواء ولا عمل ولا أمل ، وأكثرهم جاءوا من اليمن إلى السعودية مشياً على الأقدام .

وتاريخ اليمن يبيننا بأنها كانت من أحصب البلاد تربة ومن أغناها نجارة ومن أذكاهها عقولا وهي الأرض التي قال الله تعالى في وصفها «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور » والتي قال رسول الله صلى الله عليه فيها «الإيمان يمان والحكمة يمانية» ولكنها أجذبت على أيدي «الأئمة» الذين احتكروا الإسلام وأرادوا أن يحتكروا الحكم والسلطة .

اتصال الإخوان باليمن :

كان أول اتصال للإخوان باليمن عند انعقاد المؤتمر البرلماني العالمي لقضية فلسطين سنة ١٩٣٨ وقرر المؤتمر إيفاد وفد عربي لحضور مؤتمر المائدة المستديرة في لندن فأوفدت المملكة العربية السعودية الأمير فيصل بن عبد العزيز وأوفدت اليمن اثنين من أبناء الإمام يحيى حميد الدين هما على ما أذكر سيف الإسلام أحمد وسيف الإسلام عبد الله . . وحضر الأمراء الثلاثة إلى القاهرة وأوفد المركز العام للإخوان مع السيوف الأخ محمود أبو السعود ليكور سكرتيراً لهما أو مترجماً لإجادته اللغة الإنجليزية ، ولما رجع من هذه الرحلة روى لنا العجب العجيب من أمر هذين السيفين وجهلتهما بالحياة حتى إنه خجل من وجودهما في مثل هذا المؤتمر .

وكان الاتصال الثاني في أثناء الجلسات التمهيدية لإنشاء جامعة الدول العربية ، وقد أشرت من قبل إلى إيفاد اليمين القاضى حسين الكبسى لحضور هذه الجلسات على أن يكون مستمعا دون أن يشترك في المناقشات .. وفي خلال هذه الاجتماعات تفتحت عيننا هذا القاضى - وكان رجلا ذكيا - ومن معه من اليمينيين على الحياة وتمنوا لو أن بلادهم أخذت بنصيب منها .

كما أن أفراداً من شباب اليمين الذين وفدوا إلى القاهرة لتلقى دراسة بالأزهر اتصلوا بالإخوان فنبه هذا الاتصال مشاعر فيهم كانت خامدة وفهموا من الإسلام مالم يكونوا يفهمون فاستقر في وعيهم أن بلادهم في أمس الحاجة إلى إصلاح يتناول جميع شئونها وكل مرافقها ... ولكن كيف يتم مثل هذا الإصلاح والأئمة مسيطرون ؟ ..

دوافع القيام بالثورة :

لم يكن القيام بالثورة في اليمين ضد الحكم الإمامى الفاشم أمراً غريباً ، فإن المظالم التي كانت تفرح تحتها اليمين كانت أضعاف المظالم التي قامت من أجلها الثورة الفرنسية .. أما أن الثورة بتدبير الإخوان المسلمين أو قامت بتدبير الفئة المثقفة من أهل اليمين أو قامت بتضامن الجهتين معاً ؛ فأمر لا يعنى الذين يبحثون عن الأسباب الداعية للثورة وهل هي جذيرة بالتقدير أم هي أسباب مفتعلة لا أساس لها من الواقع .

وعلى كل حال فإن مبلغ علمي أن الإخوان منذ عرفتهم كانوا يتمنون أن يتخلص اليمين من حكم «الأئمة» حتى تدب في أوصاله الحياة .. ولست أدعى أنني كنت مشاركاً في تدبير هذه الثورة فلقد كنت في تلك الأثناء بعيداً عن القاهرة ، ولكنني أستطيع أن أقرر أن فكرة إعداد الشعب اليميني للثورة قد نبتت في المركز العام ؛ أما تفاه يائها وخطوطها فلا أعتقد أن المركز العام قد تدخل في رسمها .

الفضيل الورتلاني وعبد الحكيم عابدين :

عند تناول ثورة اليمين بالتسجيل نجد أنفسنا أمام شخصيتين من غير اليمينيين كانا قطبي رحى هذه الثورة هما «الفضيل الورتلاق وعبد الحكيم عابدين» .

وأولهما كان إذ ذاك شاباً جزائرياً من زعماء المجاهدين الذين طاردهم الاستعمار الفرنسى فهرب إلى مصر واتصل بالإخوان وكان كثير التردد على المركز العام حتى ليكاد يتردد عليه كل

يوم باعتبار هذه الدار مركز الحركات التحررية ضد الاستعمار في كل بلد إسلامي .. وكان الفضيل لماع الذكاء ، سريع الحركة كثير المعارف ، لا يقتصر تحركه على ما يخص موطنه الأصلي - الجزائر - بل كان يرى العالم الإسلامي وحدة لا تتجزأ وأنه مطالب بتحرير كل جزء منه ... وأعتقد أن الفضيل كان أول من سافر إلى اليمن وأسس هناك شركة للتجارة .

أما عبد الحكيم عابدين فإنه سافر إلى اليمن بعد ذلك وكان سفره تلبية لطلب حكومة الثورة التي ألقت برئاسة القاضي عبد الله بن أحمد الوزير .

تطور الأمور في هذه الثورة :

١ - تلقت جريدة الأهرام في ١٥ يناير سنة ١٩٤٨ برقية من عدن من سيف الإسلام الأمير ابراهيم نجل الإمام يحيى ينهى فيها والده ويعلن نبأ إنشاء حكومة دستورية في بلاد اليمن وعلى رأسها السيد عبد الله بن أحمد الوزير . وقد وقع البرقية بصفته «رئيس مجلس الشورى في الحكومة الجديدة» .

وسيف الإسلام ابراهيم هو النجل الثامن لإمام انمين يحيى وهو شاب في الثلاثين إذ ذاك عرف بتمرده على والده مما أدى إلى سجنه مرتين . وقد لجأ إلى عدن حيث التف حوله لفيف من اليمنيين وألفوا «جمعية الأحرار اليمنية الكبرى» واتخذ لنفسه لقب «سيف الحق» بدلا من «سيف الإسلام» .

كما تلقى عبد الرحمن عزام أمين الجامعة العربية من السيد حسين الكبسى برقية بعد ذلك بثلاثة أيام هذا نصها :

«مات الإمام يحيى ونودي بالوزير إماماً»

وأرسل السيد الفضيل الورتلاني برقية من صنعاء إلى بعض الدوائر العربية في القاهرة مؤداها أن الإمام يحيى اغتيل هو وثلاثة من الأمراء ورئيس الحكومة اليمنية .

٢ - أرسل السيد حسين الكبسى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية في حكومة الثورة معرباً عن استعداده للاسترشاد بأراء دول الجامعة العربية في حدود ميثاقها ، ثم أرسل إلى عبد الرحمن عزام برقية يدعوه فيها إلى زيارة انمين حيث يشاهد «بناء جديداً على قواعد جديدة بصنعها حكومة ديمقراطية في ظل ملك ديمقراطي» وسأل مندوب جريدة الأهرام السيد عبد الرحمن عزام

هل يسافر إجابة لهذه الدعوة ؟ فقال إنه لا يتأخر عن السفر إذا تطلبت المصلحة ذلك .. كما استطلع مندوب الأهرام رأى عربى كبير مسئول فى موقف المملكة العربية السعودية إزاء اليمن بعد الحوادث الأخيرة فقال : «إن مؤلف جلالة الملك آل سعود هو موقف الجامعة العربية بل تأييد لها » .

٣ - أذاعت وكالة الأنباء العربية من عدن : «لم يكن يداع فى صنعاء رسمياً أن السيد عبد الله بن أحمد الوزير نودى به ملكاً دستورياً على اليمن حتى احتشد نحو عشرة آلاف من الخلق لتحيته خارج قصر غمدان فى صنعاء . وصرح السيد محمد نعمان الذى كان يزعم فى المنفى «جمعية اليمن الكبرى» قبل هرب الأمير إبراهيم . والذى صار وزيراً للزراعة فى وزارة الثورة بأن ثلاثة من أبناء الإسماء يحيى وهم الأمراء سيف الإسلام اسماعيل ويحيى ولا أذكر الثالث قد اعترفوا بالملك الجديد فنعينوا فى وظائف كبيرة من وظائف الدولة .

٤ - سيف الإسلام أحمد أكبر أبناء الإمام يحيى والمطالب بعرش أبيه غادر مقره فى «تعز» والتجأ إلى قبائل الشمال يؤيهم على الحكومة الجديدة .. وترسل الحكومة الجديدة إلى الملك عبد العزيز آل سعود تطلب إليه تزويدها بطائرات لمقاومة سيف الإسلام أحمد فيبلغ الملك عبدالعزيز الجامعة العربية بأنه لن يجيب هذا الطلب حتى يتبين له رأى الجامعة .

٥ - توالى برقيات من وزير خارجية الحكومة الجديدة تستعجل وتستبذل حضور وفد الجامعة برئاسة الأمين العام ولكن الأمين العام أخذ يتلصص فلم يعلن عن تكوين الوفد إلا فى ٢٤ فبراير مكوناً من الأمير السعودى حاكم جدة وعبد الرحمن عزام وعبد الوهاب عزام سفير مصر فى السعودية وحيدر مردم وزير سوريا فى جدة وعبد الجليل الراوى وزير العراق فى القاهرة وتقى الدين الصلح سفير لبنان فى القاهرة وسعيد المفتى وزير داخلية شرق الأردن وتقرر سفرهم يوم ٢٦ فبراير .

٦ - فى خلال هذه الفترة استطاع سيف الإسلام أحمد أن يضلل سكان حجة والحديدة وكون منهم جيشاً وبعث إلى الجامعة يطلب التحكيم وقد استجابت الجامعة لطلب أحمد وأرسلت برقية إلى الحكومة اليمنية وإلى أحد تطلب منهما إيقاف القتال حتى يصل بعثة الجامعة. ثم اجتمعت اللجنة بالنقراشى ثم قصد عزام إلى منزله حيث وافاه فى الساعة الرابعة إبراهيم عبد الهادى رئيس الديوان الملكى ودام اجتماعهما وقتاً طويلاً ؛ وتقرر أن يرافق الوفد الدكتور حسين حسنى السكرتير الخاص للملك ممثلاً الحكومة المصرية .

وقرر الوفد السفر إلى اليمن (بحراً) من بور سعيد يوم ٢٨ فبراير إلى جدة حيث ينضم إليه المندوب السعدي ثم يواصل السفر (بحراً) إلى المدينة حيث يستقل الوفد السيارات إلى صنعاء ويستغرق قطع المسافة بين المدينة وصنعاء بالسيارة يومين وبعض اليوم .

٧ - في الوقت الذي كانت تتوالى برقيات الحكومة الجديدة تستحث وفد الجامعة كان الإخوان على اتصال مستمر بعبد الرحمن عزام يستحثونه من جانبهم ولكن دون جدوى وكان الإخوان يريدون قيام وفد منهم بالسفر إلى اليمن لتعزيز مركز الحكومة الجديدة ولكنهم رأوا أن يعملوا جاهدين على قيام وفد الجامعة لأن وجوده في اليمن فيه كل التعزيز .. فلما وصلوا أخيراً إلى تحديد موعد لسفر هذا الوفد ، قام الإخوان باستئجار طائرة خاصة أقلتهم معهم مندوبو نقابة الصحفيين المصريين ومعهم أيضاً مكبرات للصوت لمخاطبة القبائل والجماهير . ويلاحظ أن الصجر من هذا التلكن وصل بالحكومة إلى الحد الذي هددت فيه بالالتجاء إلى الأجانب لدقاس الدول العربية .

٨ - وصلت الطوافة فاروق مقللة وفد الجامعة إلى جدة وقد غادرتها إلى بورسودان للترود بالئون اللازمة استعداداً لرحلتها إلى صنعاء حيث قرر الوفد السفر إلى صنعاء عن طريق البحر أيضاً لرادة الجو ولما وصل الوفد إلى جدة سافر إلى الرياض لمقابلة الملك عبد العزيز الذي أعرب لهم عن استيائه الشديد لمصرع الإمام يحيى .. وتمت هذه المقابلة يوم ٤ مارس سنة ١٩٤٨ .

٩ - وصلت إلى جدة بعثة الإمام الوزير إلى الملك عبد العزيز لمقابله ومقابلة وفد الجامعة ، ويتألف الوفد السيد أحمد بن عبد الله الوزير نجل الإمام والفضيل الورتلاني مدير الشركة المصرية اليمنية والقاضي محمد محمود الزبيرى وزير المعارف وقد أقلت هذا الوفد إلى جدة الطائرة المصرية التي حلت وقد الإخوان المسلمين إلى اليمن وقد استأنف أعضاء هذا الوفد سفرهم بسرعة إلى الرياض وقد طلب ابن الوزير من الملك عبد العزيز طائرات ودهابات وجاء في البرقية :

«ويسعدنا أن تشرفوا بجلالتكم بنفسكم لتحكموا على الحقيقة عن مشاهدة أو ترسلوا من نشقون به » .

وقد سأل أحد الصحفيين الوفد اليمنى : كيف تقولون إن جبل الأمن مضطرب في البلاد مع أن راديو صنعاء وحكومتها يقولون غير هذا ؟ فكان الجواب أن صنعاء ذاتها في أمن وطمأنينة ولكن الاضطراب والفوضى يتسع مداها على الأيام ؛ لاختلافاً على الحكم ومن يتولاه ولكن مجرد السلب والنهب وإطلاق العواطف والنوازع التي ظلت مكبوتة عشرات السنين .

ويبدو أن سيف الإسلام أحمد قد استغل هذا الشعور في الشعب وجاراه في عواطفه ونوازعه وحشه على القمادى فى السلب والنهب ووعدهم إذا نصرته على ابن الوزير أن يفتح لهم خزانة الدولة على مصراعها فانطلقوا كالذئاب الجائعة ، وقد دخل أحد صناعاء على رأس جيش من المحرومين هذه هى دوافعه وحوافزه وآماله .

١٠ - طال انتظار هذا الوفد لمقابلة الملك عبد العزيز حتى دخل سيف الإسلام أحمد صنعاء يوم ١٤ مارس فأرسل الملك عبد العزيز إلى هذا الوفد من يقول له : إن الملك يرفض مقابلتك لأنه غير مستعد لاستقبال لصوص وقتلة .. وعاد عبد الرحمن عزام إلى القاهرة دون أن يدخل اليمن .

تعليق على هذه الأحداث :

بدأت الثورة باغتيال الإمام يحيى ثم أعلن عن قيام حكومة جديدة برياسة القاضي عبد الله بن أحمد الوزير وكان من أكبر شخصيات اليمن ومن القلائل المتفتحين .. وقد بايعه بالإمام أهل الحل والعقد في اليمن كما ينص على ذلك دستور البلاد فإن هذا الدستور الذى هو من وضع الإمام يحيى وأسلفه لا يقر أن تكون الإمامة وراثية بل تكون لمن يبايعه أهل الحل والعقد .. وبذلك لم يكن عبد الله بـأحد الوزراء دخيلاً على الإمامة ولا مفتصباً إياها من أحد .. ومن وزراء هذه الحكومة القاضي حسين الكبسى الذى كان أول مندوب لليمن في الجامعة العربية . والقاضي محمد محمود الزيرى من أعظم أدباء اليمن وشعرائها .

وقد سيطرت هذه الحكومة على البلاد تمام السيطرة وألقت القبض على «السيوف» وهم أبناء الإمام يحيى . وبحسن ظن أرسلت إلى الجامعة العربية تطلب إليها إرسال وفد برياسة أمينها العام ليرى بنفسه استقرار الأمور وليسهم بالمشورة في وسائل الإصلاح في مختلف المرافق وقام المركز العام للإخوان من ناحيته بحث الجامعة العربية على إجابة طلب الحكومة اليمنية .

وتلكأت الجامعة العربية في إفاد وئدها تلكؤاً لفت أنظار العالم كله ، ولم يكن لهذا التلكؤ المقصود من معنى سوى أنه محاولة لإحباط هذه الثورة ، وبعد كل هذا التلكؤ قام الوفد ولم يتوجه إلى اليمن مباشرة كما كان ينتظر بل اتجه إلى السعودية ومكث في السعودية أياماً تلقى نصائح العاهل السعودى الذى قد لا يسهده أن يقوم حكم في جاراته المتاخمة له يضرب بنظام الوراثة والأسر المالكة عرض الحائط ويختار الأصلح غير عابء بالأسرة التى ينتسب إليها .. ثم أفل وغد الجامعة راجعاً إلى مصر دون أن يدخل اليمن .. فكأنما كان موكولاً إليه تمثيل دور معين رسم له وقد اتقن تمثيله فلما تم الدور دلف إلى مكانه وراء الكواليس .

وقد فهم الإخوان المفزى من الحركات المريبة التى كانت تجرى على المسرح ، فهذا التلكو الذى لفت الأنظار وافتضح أمره حين أرادوا أن يتظاهروا بالخروج من دائرته المفرغة واضطروا إلى تحديد موعد للسفر . سبق هذا السفر حركات تشبه المؤامرة نذكر منها :

أولاً : مقابلة الأمين العام للتقراشى صباحاً يعقبها فى المساء وفى منزل الأمين العام مقابلة لإبراهيم عبد الهادى رئيس الديوان الملكى وتدوم المقابلة وقتاً طويلاً .

ثانياً : يضاف إلى الوفد السكرتير الخاص للملك فاروق على أن يكون ممثلاً للحكومة المصرية

ثالثاً : فى ٢٦ فبراير أى بعد نحو شهر ونصف من قيام الثورة ببرق السيد المؤيد مندوب

اليمن فى الجامعة العربية إلى سيف الإسلام أحمد بأن الملك فاروق يعزيه فى والده .

رابعاً : يقرر الوفد أن يكون السفر عن طريق البحر وهذا وحده كاف أن يكون دليلاً على أن المقصود هو إضاعة الوقت وإلا فهل تعجز الجامعة العربية عن استئجار طائرة كالتى استأجرها الإخوان ؟ .

خامساً : أن تخصص للوفد الطوافة فاروق حتى يشعر الوفد أنه فى كنف الملك .

سادساً : يعدل الوفد عن خطته التى أعلن عنها فلا يقوم من جدة مباشرة إلى اليمن بل يتجه إلى الرياض فى ضيافة الملك عبد العزيز .

هذا ولقد عاجلت موضوع ثورة اليمن بطريقة لم تمس بواطن الأمور فى تفاصيلها وأسرارها تاركاً ذلك لمن عانوها واصطلوا بنارها وقد سمعت من الأخ الأستاذ عبدالحكيم عابدين بعد رجوعه من اليمن شيئاً من هذه التفاصيل والأسرار ، ولكننى أوثر أن يناقش هو بنفسه هذه التفاصيل وهذه الأسرار لأن البيئة والظروف التى وقعت فيها هذه الأحداث لا أحسبها أنا كما يحسبها إنسان عاش فيها وتلبث بها .

آثار هذه الثورة :

كان لهذه الثورة آثار على المستوى المصرى وأخرى على المستوى العربى وثالثة على المستوى العالمى ... أما على المستوى المصرى فإنها ألقت فى روع القائمين على الحكم فى مصر أن هذه الثورة نذير لهم بين يدي عذاب شديد ؛ فليلقوا بثقلهم أولاً لإحباطها ثم ليدوا العدة للقضاء على مدبريها وهم الإخوان المسلمون الذين بلغوا أشدهم حتى إنهم يقيمون الدول ويسقطونها .

فوجد فاروق فى مصر تجاوباً لأحاسيسه عند عبد العزيز آل سعود فى السعودية وقد قربت ما بينهما

وأنسبها الخلافات التي كانت بينهما ظناً منهما أن الثورة كانت ضد الملكية مع أن ابن الوزير قد بايعه العلماء ملكاً .

وأما على المستوى العالمي فقد طمان فشل الثورة قلوب الطاغوت الاستعماري المتمثل في أمريكا وإنجلترا وفرنسا إلى أن العالم العربي لازال لقمة سائغة لهم . كما أن الطاغوت وقد عرف العرق الوحيد الذي ينبض بالحياة في جسم العالم العربي وهو الإخوان المسلمون .. إذن فلا بد من خطة لاستئصال هذا العرق حتى يظل الجحيم فاقداً رشده مستكيناً لهم .

وأما أثرها على الإخوان فقد كانوا يطمنون أن تنجح الثورة ليكون للإسلام في هذا العالم دولة ولكن شاءت إرادة الله أن يتأخر تحقيق هذه الأمنية ، فأحس الإخوان بقوى الشر تتألب عليهم وتجمع شتاتها لتفترسهم .

الفصل الثاني

في قضية فلسطين

وصلنا هذه القضية في الباب السابق إلى تطور انتهى بعقد مؤتمر مائدة مستديرة بلندن حضره ممثلون عن البلاد العربية ، وقد أصدرت الحكومة البريطانية في أعقاب هذا المؤتمر ما يسمى «الكتاب الأبيض» وأهم ما في هذا الكتاب أنه وضع حداً لهجرة اليهود إلى فلسطين .

ويبدو أن اليهود وجدوا في هذا الكتاب الأبيض ما يعرقل خططهم المرسومة لاحتلال فلسطين فلجأوا إلى الحكومة الأمريكية التي سرعان ما استجابت لهم وطلبت تكوين ما يسمى «لجنة التحقيق البريطانية الأمريكية» وكانت هذه اللجنة وسيلة قانونية تستر أمريكا وراءها لنسف الكتاب الأبيض وتحقيق مآرب اليهود .

وطاقت هذه اللجنة بالبلاد العربية، متظاهرة بأنها لجنة تبحث عن العدالة بالاستماع إلى أطراف النزاع وقد حضرت إلى مصر وعقدت في القاهرة جلستين ، وكانت جلستها الأخيرة في ٢-٣-١٩٤٦ وقد استمعت في هذه الجلسة إلى السيد مراد البكري وعبد المجيد صالح باشا وصالح حرب باشا والدكتور منصور فهمي باشا والأستاذ المرشد العام .. تقول جريدة المصري : وقد تكلم الجميع في حماس مغل ثم ساد الجلسة السكون عند مناجاء دور الشيخ حسن البنا وقد ارتجلى كلمة هادئة رزينة باللغة العربية جمعت بين قوة الحجة وسرعة البديهة وحضور النكتة . وتولى الترجمة الأستاذ أحمد السكري وكيل الإخوان المسلمين .

وقد استهل الشيخ البنا كلمته بالاعتذار عن لقائها باللغة الإنجليزية ثم قال إنه لا يريد أن أن يتحدث عن مشحلة فلسطين من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية فقد طال لها البحث ولا حاجة إلى تكرار ما قيل . واستطرد قائلاً : باسم الإخوان المسلمين أؤيد ما أعلنته العرب وزعمائهم ومندوبوهم وكذلك الجامعة العربية .

والناحية التي سأحدث عنها نقطة بسيطة من الوجهة الدينية ، لأن هذه النقطة قد لا تكون مفهومة في العالم الغربي ، ولهذا فإني أحب أن أوضحها باختصار ؛ فأقرر أن خصومتنا لليهود ليست دينية لأن القرآن الكريم حض على مضافاتهم وبصاقتهم ، والإسلام شريعة إنسانية قبل

أن يكون شريعة قومية ، وقد أفنى عليهم وجعل بينهم اتفاقاً « ولا تتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن »

وحينما أراد القرآن الكريم أن يتناول مسألة اليهود تناوّلها من الوجهة الاقتصادية والقانونية فقال تعالى وهو آصديق القائلين « ليطلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل » .

ونحن حين نعارض بكل قوة الهجرة اليهودية ، نعارضها ، لأنها تنطوي على خطر سياسي اقتصادي ، وحققنا أن تكون فلسطين عربية .

ولي كلمة أخيرة من الوجهة الدينية ؛ فإن اليهود يقولون عن فلسطين إنها أرض الميعاد .. ونحن لا مانع لدينا من أن يكونوا في يوم القيامة معنا .

(وقد أثارت هذه العبارة عاصفة من الضحك لم تليث أن اتصلت بأخرى عندما استطرد الشيخ البنا قائلا (: لاحظت أن هذه الهيئة الموقرة منعت التدخين في قاعة الاجتماع خشية أن يؤذى بعض الحضور . وإذا كنتم تحرصون على أمزجة الناس من فعل الدخان ، فخليق بكم أن تحرصوا على أهل فلسطين من النيران ...

الرئيس : ولكن بين الحضور من يدخن الآن (وكان يدخن في القاعة عبد المجيد إبراهيم صالح باشا وصحفي أمريكي ومندوب جريدة المصري)

الشيخ البنا : خالفوا القوانين (ضحك)

واختتم الأستاذ البنا كلمته بقوله : لقد استمعت للجنة إلى رجاء اليهود ، وتركت الرجل الأول الجدير باستشهاده في قضية فلسطين وهو الحاج أمين الحسيني وكذلك المجاهدين المبعدين فأكون سعيداً إذا عملت اللجنة على الإفراج عنهم جميعاً .

وبعد طواف اللجنة بالبلاد العربية واستماعها إلى من استمعت إليهم أصدرت تقريرها في آخر إبريل سنة ١٩٤٦ وكان هذا التقرير مفاجأة أليمة للعرب الذين كانوا يحسنون الظن بها فقد تضمن تقريرها السماح بهجرة إلى فلسطين لمائة ألف مهاجر يهودي واستمرار الانتداب البريطاني وتعديل قانون بيع الأراضي وإشراف الحكومة على الأماكن المقدسة .. وضحج العرب في كل مكان وأعلنوا احتجاجاتهم ، وقد عقب السيد جمال الدين الحسيني بقوله : إن هذا التقرير الذي وضع تحت ضغط الولايات المتحدة يحكم على فلسطين بأن تصبح أرض الدماء والبؤس .. وانها لت

برقيات الاحتجاج على جامعة الدول العربية ومنهابرقيّة من المرشد العام .

وما زاد العرب حنقاً على هذه اللجنة وعلى الحكومة الأمريكية أن أصدر الرئيس ترومان عشية إصدار اللجنة قرارها تصريحاً قال فيه :

«إني سعيد جداً بأن أيدت لجنة التحقيق البريطانية الأمريكية طلي بالسلاح لمائة ألف يهودى بالهجرة إلى فلسطين في الحال . وهكذا يجب أن ينفذ نقل هؤلاء القوم التمساء بأسرع وقت مستطاع ولعل أهم ما جاء في تقرير اللجنة أنها تهدف إلى حماية العرب في فلسطين بضمان حقوقهم المدنية والدينية وبالعامل على إنهاء مركزهم الثقافي والاقتصادي .

وقد صررت بإلغاء اللجنة كتاب سنة ١٩٣٩ الأبيض الذي يحّد من هجرة اليهود ويمنهم من شراء الأراضي ، ولا شك أن هذه التوصية أثراً كبيراً في العمل على النهوض بالوطن القوي اليهودي» .

وكان تنبؤ السيد جمال الحسيني صادقاً فلقد تحولت فلسطين بعد تقرير هذه اللجنة إلى شلة من النيران ولكن بين كفتين غير متوازيتين فالعرب الفلسطينيون يجاهدون وحدهم في الميدان لا سند لهم إلا جهودهم الذاتية حيث الأمة العربية ممزقة الأوصال مغلوقة على أمرها يحكمها حكام يدينون بالولاء للمستعمر أكثر مما يدينون به لعروبهم ، أما اليهود فورا هم ثروات اليهود في كل بقاع الأرض وورا هم أمريكا تمدهم بالمال وتسندهم بالنفوذ ثم حكومة فلسطين البريطانية مهمتها سن التشريعات التي تسهل لليهود تحقيق أغراضهم وتضع العقبات أمام العرب وجنود الجيش يهاجمون العرب في الليل والنهار ويقتلون المجاهدين ويحسون اعتداء اليهود وإجرامهم .

وأتى العرب مرة أخرى من إفراطهم في حسن الظن فلقد أنشئت في سنة ١٩٤٥ في أعقاب الحرب العالمية الثانية هيئة عالمية جديدة سميت «هيئة الأمم المتحدة» ووضع لها ميثاق يسمى «ميثاق حقوق الإنسان» من قرأ بنوده وجد فيها العدالة المطلقة ، فظن العرب أن هذه الهيئة هي خير ملجأ إليه لا ستخلاص حقوق أهل فلسطين فاجتمع رؤساء الدول العربية في جامعة الدول العربية وقرروا عرض هذه القضية على هذه الهيئة .

وتبارى الخطباء العرب من رؤساء الدول العربية ووزار خارجيتها في إلقاء بيانات ضافية في ساحة هذه الهيئة مدعومة بأقوى الحجج التاريخية والقانونية عن حقوق العرب في فلسطين ولكن تبين أخيراً أن هذه الهيئة لم تكن أخف جوراً ولا أهون ظملاً مما سبقتها من لجان لقد أصدرت قرارها بأغلبية ٢٥ صوتاً ضد ١٣ مع امتناع ١٧ عضواً عن الاقتراع في ٢٩ نولبر

سنة ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما عربية والأخرى يهودية .

مظاهرة مصر الكبرى لتأييد فلسطين في ١٥-١٢-٤٧

وقع قرار تقسيم فلسطين على العرب جميعاً موقع الصاعقة وأعلنت الدول العربية رفضها له وعدم اعترافها به ، وأعد الإخوان لمظاهرة اهتزت لها جنبات القاهرة اشترك فيها الأزهر والجامعة وتجمعت في ميدان الأوبرا حيث خطب فيهم السيد رياض الصلح والأمير فيصل بن عبد العزيز والشيخ محمود أبو العيون وجيل مردم بك وصالح حرب باشا والقمص متياس الأنطوني والسيد اسماعيل الأزهرى والأستاذ المرشد العام .. وكانت المظاهرة أشبه بمؤتمر على أعلى المستويات الشعبية والرسمية عقد في فندق الكونتنتال، وقد تهدم بعض مباني الفندق من شدة ضغط الجماهير وكان الاحتاف كله من أجل فلسطين ، وما يؤسى له أن بعض المندسين في المظاهرة ممن لم يفهموا سغزاها ولا معناها ولا أهدافها حاولوا الاحتاف للنحاس باشا ولكن الناس أسكتوهم حتى لا يذهبوا بجلال الموقف .

وخطب الأستاذ المرشد فقال : «ليبك فلسطين .. دماؤنا فداء فلسطين وأرواحنا للعروبة.. يازعماء العرب ... بإقامة الأمة العربية .. إننى أنادى الأمم المجاهدة ، الحجاز وسوريا والعراق وشرق الأردن ولبنان وأبناء وادى النيل وكل عربي يجرى في عروقه دم العروبة الحر .

أيها الزعماء... أنتم القادة... وهؤلاء الجنود ... قد وقفوا دماهم لدفاعكم المقدس .. إن هذا الشباب ليس هازلا .. ولكنهم جادون .. عاهدوا الله وعاهدوا الوطن على أن يموتوا من أجله .

إنه وإن كان ينقصنا اليوم السلاح فسنستخلصه من أعدائنا ونقذف بهم في عرض البحر لقد تألبت الدنيا تريد أن تسلبنا حقنا ، وقد عاهدنا الله أن نموت كراماً أو نعيش كراماً .

إننى أعلن من فوق هذا المنبر أن الإخوان المسلمين قد تبرعوا بدماء عشرة آلاف متطوع للاستشهاد في سبيل فلسطين .. وهم على أتم استعداد لتلبية ندائكم .

أثبتنا هنا كلمة الأستاذ المرشد لما كان لها من دلالة تتصل بلب المشكلة وواقعها فإن القضية قد أضيفت كلاماً ولم يعد يجدي فيها غير العمل .. والعمل الشاق المضنى الذى تهون فيه النفوس ونرخص الأرواح ... وهو ما أشار إليه الأستاذ المرشد في كلمته إشارة ظاهرة محددة .

وفى مايو سنة ١٩٤٨ كان زعماء الدول العربية مجتمعين في «عالية» بلبنان فأرسل إليهم الأستاذ المرشد العام بوقية يعدم فيها بما وعد من قبل في كلمته بادخال عشرة آلاف مجاهد كدفعة

أولى إلى فلسطين وكان من أثر إعلان الإخوان هذه الخطوة العملية ما يلي :

- ١ - الأثر المباشر وهو أن أعد كل أخ نفسه ، وسارعوا إلى تقديم أنفسهم وأمواهم إلى المركز العام حتى ضاق هو وشعب القاهرة على سعتها بأفواجهم المتلاحقة .
- ٢ - أشعل هذا الإعلان الحماس في نفوس مجموعة كريمة من ضباط الجيش المصري فاستقالت من الجيش وأعلنت تطوعها .
- ٣ - جعل اليهود يشعرون أن الطريق ليس مهيأ أمامهم لتحقيق أمانهم بعد أن طنوا أنهم بمكرهم وأمواهم وبخداع الإنجليز قد قضوا على كل مقاومة كانت تعترض سبيلهم لا سيما أن الذين يتعهدونهم ليسوا جنوداً محترفين . بل هم شباب متطوع دفعته إلى التطوع عقيدته وإيمانه . وهذا النوع من الجنود قوى الشكيمة شديد المراس .
- ٤ - جعل دول الغرب وهى التى تحتضن اليهود تترتب بأعناقها إلى هذا الإعلان الجريء لتعرف كنهه وتبين مدى جديته فقد عهدوا العرب قوالين غير فعالين ، لتقاطر المراسلون الصحفيون لهذه الدول على المركز العام وأمطروه بالأسئلة ، ورأوا بأعينهم أفواج الإخوان المتطوعين .
- ٥ - تشجيع الرؤساء العرب . وبث روح الطمأنينة في نفوسهم حتى لا يتخاذلوا ويتهربوا من المسئولية .

دور الإخوان في حرب فلسطين

ليس المقصود من الكتابة عن دور الإخوان في حرب فلسطين سرد تاريخهم في هذه الحرب ، ولا الحديث عن خططهم ومعاركهم ، فهذه أمور جدية أن توهم فيها مجلدات ، وأن تكون هذه المجلدات بين يدى كل عرب ومسلم ليستمدوا منها روحاً وقوة ، وليستلهموا منها معاني الاعتزاز والفخر بالانتماء إلى أمتهم العظيمة .. ومما يؤسى له أن لا يكون بين أيدينا ... نحن العرب - هذه المجلدات . وأن تكون هذه المجلدات عند أعدائنا الذين لا يدعون صغيرة ولا كبيرة إلا درسوها وتعلموا منها .. ولذا فإننا حين نكتب عن دور الإخوان في هذه الحرب فإنما نؤمى إلى ذلك مجرد إيماء بلمع مما بقى في خاطر بعد هذا العهد الطويل .

سارع الإخوان من أنحاء البلاد إلى التطوع من أول يوم فتح الأستاذ فيه باب التطوع ، وكان الأستاذ يشترط في المتطوعين من الشباب شروطاً أهمها أن يكون المتطوع قد نطوع برضا الوالدين . وأذكر بهذه المناسبة أننى كنت في ذلك الوقت بالمركز العام ، فأقبل على شُب عرفنى بنفسه وقال

لي : إنني حمدت الله أن قابلتك هنا لأنك تعرفني حيث كنت عندنا في دمهور ، وأنا أعرف أن الأستاذ المرشد يثق فيك ، قلت له : وماذا تريدني أن أفعل ؟ قال : لما أعلن الأستاذ المرشد فتح باب التطوع عزم على التطوع وبعث كل ما في دكانى من بضاعة واشترت بثمانها سلاحاً وذخيرة ومثونة للجهاد وأغلقت دكانى وحضرت اليوم إلى المركز العام ليلحقنى الأستاذ بالفوج المسافر إلى فلسطين .. ولكن الأستاذ سألنى : هل أبواك راضيان ؟ فلم أستطع أن أكذب .. فقال لا تسافر حتى يكونا راضيين . فخرجت من عنده وأنا في أشد الحزن .. وأرجوك أن تشفع لى عند الأستاذ المرشد ليقبلنى في هذا الفوج قبل أن يسافر فإن الحصول على موافقة والدى ليس متوقفاً .

فقلت له : إن الأستاذ المرشد لا يقبل الشفاعة في مثل هذا ، وعليك أن تحصل على رضا والديك ، وإلا فرضاها أولى . فتركنى وهوىبى .

وقد أوردت هذه الواقعة ليتصور القارئ البقطة الروحية التى بعثتها دعوة الإخوان المسلمين في نفوس هذه الأمة حتى ألحقته بالرعيلى الأول من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعرض جيش المسلمين استعداداً لغزوة بدر فرد من استصغرسه فكان ممن رده أسامه بن زيد ورافع بن خديج والبراء بن عازب وأسيد بن ظهير وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت وردعير بن أبى وقاص فبكى فأجازه ، وكان منهم من وقف على أطراف أصابعه ليبدو أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلاً فيجيزه .

تدخل الجيوش العربية :

بدأ الإخوان يعدون العدة لتنظيم حركة عسكرية لإنقاذ فلسطين عندما أصدرت هيئة الأمم المتحدة قرارها المشار إليه وكانت منظمات اليهود العسكرية هى منظمة الهاجاناه أى حراس المستعمرات ومنظمة أرجون زفاى لجوى ومنظمة اشتيرن وفرقة البالماخ الفدائية التى أنشئت على النمط الروسى

وكانت المنظمات العربية الفلسطينية اثنتين هما النجادة والفتوة فوجه الإخوان اهتمامهم إلى هاتين المنطمتين على أمل أن تصبحا قادرتين على الوقوف في وجه المنظمات اليهودية ، ولكن سرعان ما قام خلاف بين قوادها تين المنطمتين .. وقد حاول الإخوان إصلاح ما بينهما ، ولم يكن بد لإتمام هذا الصلح من إنفاذ الصاغ محمود لبيب ، فتم على يديه هذا الصلح ، وارتضته

المنظمتان مدرباً لهما ولكن بعد فترة غير طويلة تنهت حكومة الانتداب الإنجليزية إلى خطورة وجود الصاع عمود لبیب فی فلسطين علی خططها ومؤامراتها ضد العرب ، فاصدورت هذه الحكومة أمراً إليه بمغادرة البلاد كما طاردت جميع الإخوان الذين دخلوا فلسطين ، ولكن كثيراً من الإخوان كانوا قد تمسوا على حرب مستمرة مع منظمات اليهود ولم تستطع أن تصل إليهم يد الحكومة لتخرجهم من البلاد .

فلما انسحب الإنجليز من فلسطين في مايو ١٩٤٨ دخلت الجيوش العربية من الشرق والغرب والجنوب لتعيد الأمن إلى نصابه .. وبذلك أصبح في فلسطين نوعان من القوات العربية : النوع الأول : المتطوعون وهم متطوعو الإخوان المسلمين والمتطوعون من ضباط الجيش المصري الذين استقالوا من الجيش ، وقد انضم هؤلاء الضباط إلى متطوعي الإخوان ، واتخذهم الإخوان قادة لهم . وكان من أبرز هؤلاء الضباط القائم مقام (العقيد) أحمد عبد العزيز الذي ارتضاه الإخوان قائداً لهم لما كان يمتاز به من الإيمان والشجاعة والنضحية والجرأة الحارقة .. والنوع الآخر هو الجيوش العربية .

هل كان دخول الجيوش العربية صواباً أم خطأ :

وأترك الإجابة على هذا السؤال إلى الأخ الذي عاصر هذه الحرب وخاض غمارها من أول يوم حتى نهايتها وهو الأخ كامل إسماعيل الشريف حيث يقول في كتابه صفحة ٨١ : الرد على هذا السؤال هو أن العصابات لا يمكن أن تقاتل عصابات مثلها وتنتصر عليها . وأن العصابات لا يمكن أن تحسم الحرب بمفردها ، ولكنها كانت ولا تزال سلاحاً خطراً لوسارت في ركاب جيش منظم وأحسن تدريب أفرادها وقيادتهم ؛ فيحتل الجيش المنظم المدن والمراكز ويتولى الدفاع عنها بينما تقوم العصابات المدربة بتحطيم قوى العدو ومهاجمة وحداته وطرق مواصلاته .

وإذن فلم يكن هناك بد من دخول الجيوش العربية لتحقيق الهدف الذي حاربنا من أجله ؛ ولكن الخطأ أولاً وآخره في عدم استعداد هذه الجيوش استعداداً يكفل لها أداء مهمتها ، وجهلها المطبق بقوى العدو الذي تحاربه . والخطأ بعد ذلك خطأ الزعماء السياسيين الذين لم يدخلوا في حسابهم هذه الهيئات الدولية ومدى خضوعهم لها أما دخول الجيوش نفسها فلا غبار عليه ولا مفر منه ، ولا يمكن أن تحسم الحرب بدونه لا في المأخى ولا في المستقبل إذا أردنا حقاً أن نعاود الكرة لتحرير الأرض المقدسة .

هذا هو رأى الأخ الأستاذ الشريف على أن هناك في هذا الموضوع آراء أخرى .

الإخوان يتطوعون من جميع الأنحاء :

يقول الأستاذ الشريف كانت القوة الأولى من إخوان مصر قد دخلت فلسطين ورابطت في النقب وافتتحت أولى معارك الجنوب في «كفار ديروم» في ١٤ أبريل ١٩٤٨ . وفي نفس هذا الوقت كانت القوة الثانية بقيادة اليوزباشي محمود عبده (كان ناظراً لمدرسة ثانوية) تنتقل إلى معسكر «قطنة» بسوريا ، لتستكمل تدريبها ثم ترابط فترة في النقب وتشارك مع زميلاتها الأولى وأخيراً تصحب الشهيد أحمد عبد العزيز في جولته الموفقة قبل أن يستقر في جنوب القدس ويكون من نصيب هذه القوة أن يوكل إليها الدفاع عن مرتفعات «صور باهر» الحصينة ، وهناك تلحق بها قوة كبيرة من الإخوان المسلمين في شرق الأردن بقيادة المجاهد عبد اللطيف أبو قورة رئيس الإخوان في عمان ، وتندمج القوتان في فرقة واحدة متحدة القيادة ، ليكون لها الفضل بعد ذلك في المحافظة على تلك المرتفعات ، وعرلة الخطط اليهودية التي كانت ترمي إلى احتلالها لتتحكم في القوات المصرية المتطوعة المربطة في مناطق «الخليل وبيت لحم»

ولم يكن الإخوان في سوريا بأقل نصيباً من غيرهم إذ ادخاوا قوة من رجالهم يقودها الأستاذ مصطفى السباعي رئيس الإخوان في دمشق عملت بهمة ونشاط في مناطق «المثلث» و«القدس» وساهمت مساهمة فعالة في الدفاع عن هذه المناطق الحيوية .

وكانت العصابات غير النظامية التي شكلتها شعب الإخوان في فلسطين تعمل منذ بداية الحركة في المناطق الشمالية والوسطى تحت القيادات العربية المحلية وتقوم بغارات ناجحة على مستعمرات اليهود وطرق مواصلاتهم رغم الضعف الشديد الذي كانت تعانيه سواء في التسليح أو التدريب .

ولقد اضطر الإخوان إزاء القيود التي فرضتها الحكومة إلى تقديم شبابهم للعمل تحت قيادة الجامعة العربية ، فتشكلت منهم ثلاث كتائب أتمت تدريبها في معسكر الها كستيب ثم تسلت إلى فلسطين قبيل زوال الانتداب البريطاني . وكان يقود الكتيبة الأولى الشهيد «أحمد عبد العزيز» الذي قام بنشاط ملحوظ في مهاجمة اليهود في النقب قبل أن تتخذ موقفاً دفاعياً عن مناطق جنوبي القدس .. وكانت الكتيبة الثانية بقيادة البكاشي «عبد الجواد طبالة» ترافق الجيش المصري وتشارك معه في الدفاع عن منطقة غزة ، وتتولى حصار بعض المستعمرات ، وتقوم بحراسة بعض النقاط الهامة في خطوط المواصلات ثم تستقر بعد ذلك مع زميلاتها في «بيت لحم» عقب استشهاد المرحوم أحمد عبد العزيز .

وتتجمع هذه القوات في تلك المنطقة وتنتجح في المحافظة عليها وتسليمها للجيش الأردني بعد حصار شاق طويل ، وهجمات عنيفة من العدو أظهرت في صدها الكثير من البطولات .

وهكذا وبالرغم من تلك القيود القاسية التي فرضها الاستعمار وحافظ عليها أذنا به من بعده فقد اشترك الإخوان في الحرب بأعداد كبيرة كانوا يتحملون الإنفاق على معظمها ويتكبد مركزهم العام ألوف الجنيهاً في شراء الأسلحة والمعدات ... ولكي نضع بين يدي القارئ صورة توضيح مدى فعالية القوة القتالية للإخوان في فلسطين فسنتقن بعض صفحات من كتاب الأستاذ كامل إسماعيل الشريف يشرح فيها بعض مواقع لهم مع اليهود .

أول معركة للاخوان بفلسطين :

في صفحة ٦٩ من كتاب الأستاذ الشريف يقول :

لم يكن الإخوان يعلمون عن المستعمرات اليهودية وتحصيناتها أكثر مما عرفته إدارة المخابرات في الجيوش العربية النظامية ، فلقد هونت هذه المخابرات من شأن التحصينات اليهودية وقللت من أهميتها ، حتى لقد قدرت إحداها ٧٢ ساعة ليفرغ جيشها من احتلال فلسطين كلها ، وحتى سمعنا أحد المسؤولين العسكريين في جيش عربي كبير يقول للوحدات العسكرية الزاحفة إنها ذاهبة في «نزحه عسكرية إلى تل أبيب لا أكثر ولا أقل» وحتى لا يقطع على الضباط والجنود دهشتهم قال لهم إن الناس في قريتي حين يقيمون الأفراح والليالي الملاح يطلقون الرصاص في الهواء دليلاً لفرحهم وعلامة على ابتهاجهم ، وإن الأسلحة التي معكم تكني جداً هذه المهمة الهينة اللينة .

كان الإخوان في الفترة الأولى من الحرب يجهلون المستعمرات اليهودية وطرق تحصينها ، فظنوا أن في مقدورهم مهاجمتها واحتلالها رغم ما كانوا يعانونه من نقص في الأسلحة والمعدات . ولقد تمت المحاولة الأولى في الساعة الثانية من صباح ١٤ إبريل ١٩٤٨ وكان الغرض منها احتلال مستعمرة «كفار ديروم» المحصنة . وهذه المستعمرة وإن كانت صغيرة الحجم إلا أنها كانت مقامة في وضع بالغ الأهمية لقربها من الحدود المصرية ، ولوقوعها على طريق المواصلات الرئيسي الذي يربط مصر بفلسطين ، وكان في استطاعة حراسها أن يراقبوا الداخل والخارج وأن يقطعوا هذا الطريق في أي وقت يشاؤون وهم يخنفون خلف أبراجهم المسلحة دون أن يتعرضوا لشيء من الأذى ... لذلك كله اهتمت القيادة اليهودية بهذه المستعمرة وبألفت في تحصينها وإقامة الأبراج الشاهقة حولها ، وإحاطتها بحقول كثيفة من الألغام والموانع السلكنية الشائكة ثم زودتها بعدد كبير من نخبة رجال «الهاجاناه» وفرقة «الهالماخ» الفدائية .

هذا وصف موجز لهذا «الجيب» اليهودي الخطر الذي حاول الإخوان تطهيره واحتلاله ، ثم تلقوا على يديه درساً قاسياً ، وكانت هذه المعركة هي نقطة التحول التي غيرت مخطتهم وصرفتهم عن معاودة الهجوم على المستعمرات دون أن يملكوا المعدات اللازمة لهذا النوع من القتال .

هاجم الإخوان المستعمرة في وقت مبكر من صبيحة اليوم ، ونجحوا في المرور خلال حقول الألغام عبر عمرات أعدوها طوال الأسبوع الذي سبق المعركة ، واجتازوا عوائق الأسلاك الشائكة .. كل هذا تم بدقة وسرعة دون أن يتنبه حراس المستعمرة لما يجري حولهم ولم يفيقوا إلا على صوت انفجار هائل أطاح بأحد مراكز الحراسة ، ثم بدأت المعركة داخل الخنادق وعلى أبواب الأبراج و«الدشم» وأبدى الإخوان في هذه المرحلة من ضروب البطولة والفدائية ما لا يمكن حصره ولا تصويره . واستطاع اليهود أن يسدوا الثغرات التي أحدثها المجاهدون في دفاعات المستعمرة ثم حاصروا القوة الصغيرة التي نجحت في التسلل إلى أوكارهم ومضوا يحصدونها ببنادقهم ورشاشاتهم .

وهكذا فشلت المحاولة الأولى ومضى الإخوان يحملون شهداءهم وجرحاهم وكان عددهم يربو على العشرين وانتهت المعركة على هذه الصورة المؤسفة ولكنها ظلت مثلاً فريداً للبطولة والتضحية .

من بطولات هذه المعركة :

ما زاد في روعة هذه المعركة أنها كانت المعركة الليلية الوحيدة التي شهدتها معارك الجنوب ، وتمت في خفة وهدوء يدلان على مستوى عال في التدريب والمقدرة ، وظل الإخوان طوال فترة الحرب يتذكرون المثل العليا التي سجلها المجاهدون فيها ، والتي أعادت إلى الأذهان صوراً حية من جهاد الصدر الأول ، فهذا أحدهم وهو المجاهد «محمد سلطان» من مجاهدي الشرقية يزحف على بطنه حاملاً لغمًا هائلاً وهدله أحد مراكز الحراسة في المستعمرة .. يتنبه إليه الحراس وهو قيد خطوات من هدفة ليطلقون عليه رصاصات تصيبه في ذراعه وتعجزه عن المضي في زحفه ، ولكنه يتحمل على نفسه ويزحف بصعوبة والدماء تنزف من جراحه والرصاص يتناثر من حوله ويظل يجاهد بعناد حتى يقترب من هدفة فيشعل اللغم ويدمر مركز الحراسة ويقضي على البطل الغد ويمضي ليلاق ربه شهيداً .

وهذا المجاهد «عبد الرحمن عبد الخالق» يقود إحدى جماعات الاقتحام في المعركة ويستمر في قتاله الرائع رغم أوامر الانسحاب التي صدرت إليه فيقول : كيف ننسحب وإخواننا في داخل

المستعمرة ؟ ثم يذكر من معه بقول الله تعالى «يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار» ويظل يقاتل بشدة حتى تصيبه رصاصة قاتلة في رأسه لتضع اسمه في عداد الشهداء وهذا مجاهد آخر هو «عمر عبد الرؤوف» تصيبه رصاصة في صدره فتبدو على وجهه ابتسامة مشرقة ويهتف بمن حوله «أترون ما أرى ؟» ثم يأخذ نفساً طويلاً ، ويقول : هذه هي الجنة .. إنني أراها .. وأشهم رائحتها » ثم يلفظ أنفاسه الطاهرة .

ما استفادته الإخوان من هذه المعركة :

خرج الإخوان من هذه المعركة بنتيجة واحدة ، فهموها وظلوا يعملون على أساسها طوال الفترة التي قضوها في فلسطين ، فهموا أن مهاجمة المستعمرات اليهودية بهذا النقص الواضح من الأسلحة والمعدات هو انتحار محقق ، وفهموا كذلك أنهم لن ينجحوا إلا في حرب عصابات ينزلون فيها الضربات على خصومهم خارج هذه المستعمرات دون التعرض لخصونهم واستحكاماتهم . ولقد قلت للإخوان عقب هذه المعركة مباشرة : «إن اليهود أقوياء في هذه الحصون والأبراج ، فلن نهاجمهم فيها بعد اليوم ولكننا سنغير على قوافلهم ونضطرهم إلى قتالنا في الأرض المكشوفة» وعلى هذه الطريقة بدأ الإخوان ينظمون أنفسهم في عصابات صغيرة ترابط على طرق المواصلات وتهاجم شبكات الماء ومراكز التموين ، حتى اضطرت اليهود إلى إخراج كثير من قواتهم لحراسة المواصلات والقوافل ، فاستطاع الإخوان بذلك أن يوقعوا بهم ضربات حاسمة سريعة وأن يغموا منهم كميات كبيرة من العتاد والسلاح . وإليك مثالا للأخذ بهذه السياسة :

أسلوب جديد في مهاجمة اليهود :

حدث مرة أن قامت قوة من الإخوان بقيادة المجاهد حسن عبد الغنى بتدمير شبكات المياه بين مستعمرتي (بيري) و (أنكوما) وأباحت أنابيب المياه لأعراب المنطقة بتنزعونها من الأرض تحت حراستهم ، حتى نزعتم من الأنابيب مساحات شاسعة ؛ ثم رابطت في المنطقة لتمنع العدو من إصلاحها . وصبر اليهود يومين عساها تنصرف لشأنها ولكن القوة العنيدة ظلت تواصل تدمير الأنابيب ونزعها والتعرض للمصفحات والقوافل التي تحاول إصلاحها ؛ فلم تجد القيادة الإسرائيلية بدأ من الدخول في معركة مباشرة . فجمعت عدداً من المصفحات من جميع المستعمرات وأحاطت بالقوة الصغيرة من جميع الجهات ، وأخذت تقترب منها على أمل أن تظفر بها .. وصمد الإخوان صموداً عجيباً ، وأوقعوا من اليهود عدداً من القتلى قبل أن يبعثوا في طلب النجدة من معسكراتهم

وجاءت مصفحات الإخوان وألأمت نطاقاً حول مصفحات العدو الذي أسقط في يده حين رأى نفسه محصوراً بين نارين ، فاضطر إلى طلب نجدة أخرى من المستعمرات القريبة ، وامتلا ميدان المعركة بقوات كبيرة من الجانبين واشتد القتال بين الفريقين شدة لم يسبق لها مثيل حتى يئس العدو من زحزحة الإخوان عن موقفهم فأخذ يطلق سحجاً من الدخان ليستر انسحابه .. وما كادت أطباق الدخان تنجاب عن ميدان المعركة حتى سارع الإخوان يجمعون غنائمهم من السلاح ويعودون لتدمير الأنايب من جديد .

حقارة اليهود : وأيقن اليهود أنه لا قبل لهم بمواجهة هذه القوات المتفانية في حرب شريفة ، فلجأوا إلى أسلحة الغدر والخيانة ؛ وحاولوا تسميم آبار يستعملها الإخوان في منطقة «عزاعة» حيث كان المجاهد نجيب جويليل يربط فيها بسريته .. ولكن عين الله المبصرة وبقطة الإخوان مكنتهم من اكتشاف الجريمة قبل وقوعها : وذلك أنهم لجؤا رجلين يرتديان الملابس العربية ويتظاهران باستجلاب الماء ، وكان منظرهما يدعو إلى الرية ، فاقترب منهم الجندي الحارس وأمرهما بالوقوف فلاذا بالفرار فتعقبهما الحارس وعدد من إخوانه حتى أدركوهما ولم يبق بينهما إلا خطوات وأمرهما بالتسليم مهددين إياهما بإطلاق النار فرفعا أيديهما بالتسليم ، وحين اقترب الإخوان منهما انبطحا على الأرض في سرعة ولذا على المهاجرين عدداً من القنابل اليدوية ، فأسرع الإخوان بملاصقة الأرض ثم أطلقوا عليهما النار فأردوهما قتيلين .

وبلغت النقمة بالإخوان من هذا القدر أن حلوا الجشتين إلى مستعمرة «نيريم» وهناك على مقربة من العدو نصبوا الجشتين بالهترول وأشعلوا فيها النار على مرأى من المستعمرة .. وجن جنون اليهود وأخذوا يلوحون بأيديهم في غضب وانفعال .. وحين جن الليل هاجموا مواقع الإخوان في «عزاعة» انتقاماً لهذا الحادث ولم يتمكنوا من زحزحة الإخوان وإن كانوا قد نجحوا في قتل أحد المجاهدين الأبرار الشهيد عيسى إسماعيل عيسى من إخوان الشرقية الكرام .

وهكذا نجحت الخطة الجديدة ، ولم يعد الإخوان في حاجة إلى معاودة الهجوم على المستعمرات المحصنة والتعرض لنيرانها ؛ ذلك لأن اليهود قد اضطروا إزاء هجمات الإخوان المولقة على قوافلهم وطرق مواصلاتهم إلى تعيين دوريات ميكانيكية وقوات كبيرة من المشاة لحراسة تلك الطرق والمنشآت وحمايتها أمام تلك الهجمات .. ولم يكن الإخوان ليضيقوا الفرصة الثمينة فأخذوا يغيرون على هذه القوات المبعثرة في الصحراء ويرغمونها على القتال إرغاماً حتى تحولت تلك المنطقة إلى ساحة حرب قوية .. ولم يكن يمر يوم في تلك الفترة دون أن تنشب معركة عنيفة تنتهي حتماً بقتل عدد من جنود العدو وتدمير عدد آخر من مركباتهم ومدعاتهم .

ولقد حاولت القيادة اليهودية أكثر من مرة القضاء على هذه العصابات وتطهير المنطقة منها ، فكانت ترسل عدداً كبيراً من قواتها ، وكان هذا أقصى ما يريده الإخوان فيستدرجونهم إلى المناطق الوعرة ويحاصرونهم في الشباب والوديان .

وإذا نظرنا إلى هذه الفترة نجد أن الإخوان قد وصلوا إلى نتيجتين لم يكونوا يستطيعون الوصول إليهما بدون هذه الأعمال العصابية ؛ فالنتيجة الأولى هي خروج اليهود من مستعمراتهم وحصونهم لمقاومة عصابات خفيفة محصنة في بطون الشباب والوديان . والنتيجة الثانية أن الإخوان استطاعوا الحصول على كثير من الغنائم والمعدات التي لم يكونوا يملكونها بالمصفحات الضخمة والأسلحة الرشاشة البعيدة المدى ، هذا عدا أنواع مختلفة وكميات كبيرة من الذخائر والقنابل .

من البطولات الخارقة :

يقول كامل الشريف في صفحة ١١٤ : «وكان هذا النجاح حافزاً على القيام بحركة جديدة ذلك أن مستعمرة «تل بيوت» دأبت على إطلاق النيران من برجها الضخم وتسبب عن ذلك كثير من الخسائر والأضرار مما اضطر أحد عبد العزيز إلى إصدار أوامره إلى الأخ المجاهد «حسين حجازي» ليتولى تدمير هذا البرج الخطر.. وفي ليلة ٤ يونيو انطلقت جماعتين الإخوان من بيت لحم وأحيط انطلقهم بتكتم كبير حتى إن زملاءهم في القوة لم يعلموا حقيقة المهمة التي سيقومون بها ، حتى لمعت برقة خاطفة أضواء صفحة السماء وأعقبها انفجار هائل ارتجت له أركان المدينة وشاهد الناس أحجار البرج الضخم تتناثر في الهواء ثم تهاوى لتصنع من تراكمها قبراً كبيراً يضم تحته رجال الهاجاناه .

الهدنة الأولى أو الكارثة العظمى

وقد علمت جريدة «أخبار اليوم» في عددها الصادر في ٥ يونيو سنة ١٩٤٨ تصف هذه العملية الجريئة فقال بعد كلام طويل : «وفي الليل تسلل (حسين) ومعد أربعة جنود .. وزحفوا على الأشواك في «صور باهرة» أربعة كيلو مترات تحت تهديد الرصاص الطائر في الهواء والحيات الزاحفة بين الأحجار ... وقرب الفجر سمعت «بيت لحم» انفجاراً مدوياً ، وتهدمت ثلاثة حصون من (تل بيوت) . وفي الصباح عاد (حسين حجازي) ليتلقى تهنئة قائله ومنها لقب «بطل تل بيوت» .

«وبينما المجاهدون يوجهون ضربات مركزة في كثير من المناطق ، ويعدون أنفسهم للوثوب

على القدس الجديدة إذا بالدول العربية تقبل الهدنة الأولى وتصدر أوامرها لجيوشها بوقف إطلاق النار لمدة أربعة أسابيع تبدأ من يوم ١١ يونية ١٩٤٨ » .

موقف الإخوان من الهدنة الأولى :

الذي اقترح الهدنة الأولى هي الأمم المتحدة يمثلها الكونت برنادوت ، والذي اعترض على هذا الاقتراح هم الإخوان المسلمون لأن الإخوان كانوا هم أدرى الناس بحقيقة الموقف في فلسطين ... كانت القوات العربية جيوشاً ومتطوعين في انحصار ساحق ، وكان اليهود في هزائم متلاحقة وارتباك شديد .. وفهم الإخوان أن اليهود لم يجدوا لهم مخرجاً من الورطة التي وقعوا فيها إلا بحيلة مأكرة يستردون فيها أنفاسهم . ويعيدون خلالها تنظيم صفوفهم ، ويستغلون فيها غفلة خصومهم . فأوحوا إلى مؤيديهم في الأمم المتحدة - وما أكثرهم - أن يطلبوا تقرير هدنة يسحب الطرفان خلالها قتلاهم لمدة أسبوعين .

فهم الإخوان ذلك ، وكل المتابعين لأنباء القتال في فلسطين في ذلك الوقت كانوا يفهمون ذلك ، والصحفيون الذين كانوا في الميدان وخارج الميدان كانوا يفهمون ذلك .. وكان على حكومة مصر أن تكون أول من يفهم ذلك .. لكن هذه الحكومة وقفت موقف الأبله لا بل موقف المتبale

كان على الحكومة المصرية أن ترفض هذه الهدنة أو أن تتلصق على الأقل في قبولها عدة أسابيع وإذن لتغيرت نتيجة هذه الحرب ، ولما كانت هناك مشكلة تسمى مشكلة فلسطين ولا دولة تسمى دولة إسرائيل .

لم يدخر الإخوان وسعاً في تقديم النصيحة للحكومة أن لا تنخدع وتقبل الهدنة . وقد افترض الإخوان -بحسن الظن أن الحكومة لم يتضح لها خطورة الموافقة على هذه الهدنة فشرحوا لها مدى الأضرار التي ستحق بالمجاهدين وبالجيش العربي وبالأمة العربية وبالأمة الإسلامية إذا ما وافقت على الهدنة وصارت هي وجيشها والمجاهدون ملتزمين بها في حين أن اليهود لن يلتزموا بها بل إنها ستكون فرصة لهم لإعادة تنظيم صفوفهم بعد أن مزقت كل ممزق .

وقد كتب الأستاذ المرشد مقالاً افتتاحياً في جريدة الإخوان اليومية الصادرة في ٣ يونية سنة ١٩٤٨ تحت عنوان «حول اقتراح الهدنة... ماذا وراء هذا الرد ؟ » نقل للقارئ نص هذا المقال لبالغ أهميته التاريخية .. يقول المرشد العام ...

«هنا حقائق ثلاث لا يجادل فيها أحد من الناس :

الحقيقة الأولى أن هذه العصابات الصهيونية الآتمة الغادرة في فلسطين قد اعتدت اعتداء منكراً على المدن الفلسطينية الكبرى وعلى القرى الصغرى ، وارتكبت من الفظائع ما تشيب له الرموس ، وكان عن عدوانها هذا أن شردت عشرات الألوف من عرب فلسطين وهاجروا إلى الأوطان المجاورة ، وتركوا ديارهم وأموالهم وبيوتهم ومصالحهم نهياً مقسماً في أيدي هذه العصابات التي تحتل الآن حيفا ويافا وعكا وطبرية وهي أعظم مدن فلسطين . ولهذا لم تجد الدول العربية بداً من امتشاق الحسام لتأديب هؤلاء الطغاة ولاستنقاذ هذه المقدسات ، ولتأمين حياة المقيمين . ورد المهاجرين العرب إلى أوطانهم ، وطرد السفاكين من الصهيونيين إلى البلاد التي تولدت بهم .

والحقيقة الثانية أن الجيوش العربية منتصرة مظفرة بيدها زمام الموقف والحمد لله ، وأن كل يوم يمضي يزيدها ظهوراً وتمكيناً ، وأن الشعوب العربية قد انتفضت فتكشفت عن أروع وأجل وأفضل خصال آبائها وأجدادها نجدة وعزة وبذلا وتضحية وقوة وبسالة. وأنها تبذل الدم والمال والنفيس والرخيص ولا تبقى على شيء في فرح وسرور وطمأنينة وارتياح، وأن عنوان هذا كله قد قرأه الخاص والعام على جبهات الأبطال من رجالنا وشبابنا في الميدان .

والحقيقة الثالثة أن جامعة الدول العربية قد طالوت حتى تعبت المطاولة نفسها ، وقد صبرت على عبث الساسة الدوليين حتى مل الصبر ذاته ، وقد أضاعت فرصاً كثيرة وأوقاتاً غالية ثمينة في سبيل الظفر بتقدير الرأي العام العالمي وإثبات حسن النية والأخذ بالحكمة والعقل والتبصر ، وأصبح الأمر كما قال الأستاذ العقاد في إحدى مقالاته ، لن نجني بعد ذلك من الحكمة والتعقل إلا أن نعرف بعد فوات الأوان أننا كنا أشد تعقلاً من المجانين .

هذه هي الحقائق الثلاث التي كانت ولا زالت تفرض على الدول العربية أن ترفض كل اقتراح يشير إلى هدنة أو شبه هدنة إلا بعد أن تدخل جيوشها تل أبيب وتطرد هذه العصابات الآتمة من حيفا ومن يافا ومن عكا ومن طبرية وتطوق كل مستعمراتهم أو تستولى عليها وترد المهاجرين من عرب فلسطين إلى ديارهم .. ثم إذا قيل بعد ذلك « الهدنة » فيها وإلا فإقتال حتى يقذف بأخضر يهودي صهيوني إلى البحر وتظهر فلسطين المباركة من هذا الرجس .

ومن هنا كان الرد المطاط المرن غريباً علينا نحن الإخوان المسلمين ؛ فنحن في ساعات الجد الحازم الذي لا يحتمل العبث مع العابثين من رجال ليك سكيس وأشأطا .

ونحن في الحقيقة حائرون في السبب الذي جعل اللجنة السياسية جامعة الدول العربية تؤثر هذا الوضع وترد بمثل هذا الرد ؟ ..

وهل حقيقة ما يقال من أن بريطانيا هي التي دفعت بالدول العربية إلى القتال لتسوى خلافاتها معها في ظل انشغالها بهذا الميدان حتى إذا «لحمتها هذه اللخمة» أرادت الهدنة بعد ذلك لتصل في هذه الفترة إلى ما تريد ؟ وأنها بذلك تلعب على الحبلين وتظن أنها قد أرضعت العرب بتظاهرها بالوقوف إلى جانبهم حيناً ثم تحاول إرضاء اليهود بتشجيع الهدنة التي يستطيعون في ظلها أن يتنفسوا مما هم فيه من ضيق ؟.

أم أن ذلك غير صحيح والصحيح أن قادة العرب أنفسهم هم الذين يريدون هذه الهدنة لأمور جدت وحوادث حدثت بعد الاستيلاء على القدس القديمة .. ونحن لا نستطيع أن نصديق هذا ولذا لا نرى له نصيباً من الصحة فقادة العرب في تماسكهم وتضامنهم واتفاقهم على كل شيء ووطنيتهم أعظم غيرة وحرصاً على مصلحة فلسطين ومصلحة أوطانهم من أن يكون هناك ظل لهذا التفكير .

وإذا لم يكن هذا ولا ذلك فهل الصحيح أن حكام الشعوب العربية لا زالوا مغرمين بالأساليب السياسية كارهين لكل ما يتصل بالحرب والجهاد بسبب، يؤثرون دائماً أن يصلوا من غير هذه الطريق ولو لم يكن هناك طريق غيرها . ، وأنهم وجدوا في الهدنة المقترحة ما يتفق مع هذا الهوى ويمائى هذا المنطق لقبولها مرحبين ..؟.

ونحن لا نريد أن نصديق هذا أيضاً فالحكام بعد أن رأوا هذا الإجماع الرائع وهذه الحماسة البالغة من شعوبهم لا يمكن أبداً إلا أن تتحول في أنفسهم طبيعة المسألة بل عادة المسألة والملاينة التي ألفوها ويؤمنوا أقوى إيمان بأن الجهاد هو أقرب طريق لتحقيق الآمال وما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا .

لم يبق إذن إلا فرص واحد هو أن اللجنة السياسية تريد أن تبرهن من جديد على حسن نية الدول العربية وجهها الدائم للسلام لتكسب بذلك عطف الرأي العام العالمي ولتكسب الوقت أيضاً ولتخرج الصهيونية أمام مجلس الأمن .

وسمع جواز هذا في عرف السياسة فنحن نعتقد أن العدول عن الحزم وعد أخذ الأمور بمنتهى الشدة والجد في الموقف الذي نحن فيه لا يكون وراءه إلا تعقد الأمور وزيادة المتاعب ،

لنا نؤثر أن يكون شعارنا اليوم وبعد أن يتسنا من أساليب الدبلوماسية هذا اليأس ما قاله من قبل
المؤمن بن علي :

وحكم السيف لا تعباً بعافية
فاتتال بغير السيف منقبية
وخلها سيرة تبقى على الحقب
ولانرد صدور الخيل بالكتب
كان يطاع لقصير رأى !!!...

إننا متشائمون من هذه الهدنة لا نرضى بها ولا نوافق عليها . ونحمل الذين اختاروا هذه
طريق تبعة عملهم بين يدي الله والناس . والله الأمر من قبل ومن بعد ولا حول ولا قوة إلا بالله
على العظيم ...»

ولم تكن الهدنة الأولى في حقيقتها إلا أسلوباً جديداً ابتكرته هيئة الأمم لمساعدة اليهود وتمكينهم
من جلب الأسلحة الثقيلة والذخائر . ولقد كان قبولها من جانب العرب اعترافاً فعلياً بقيام إسرائيل
لم تقف فائدة الهدنة لليهود عند حد جلب السلاح والعتاد فحسب ، ولكنها أيضاً كانت وسيلة
لاحتلال المواقع الحامة ، إذ أن أغلب المراكز الخطيرة لم يستطع اليهود احتلالها إلا بهجمات غادرة
ناموا بها خلال الهدنة .. وكانت الحجة دائماً عند هيئة الأمم وعند حكومة إسرائيل أن أصحاب
هذه الحركات الغادرة ليسوا إلا عصابات فوضوية متطرفة ، وكانت الدول العربية تصدق هذا
الزعم ونشفت على هيبها وكرامتها أن تجارى عصابات فوضوية وهى الدول ذات المركز والسلطان .
وعن هذا الطريق احتل اليهود أغلب المناطق التي وقعت في أيديهم .

الموقف بعد الهدنة الأولى :

يقول كامل الشريف في صفحة ١٤٨ : أود قبل أن أستطرد في بيان ما خفى من نشاط
الإخوان المسلمين وأثرهم في الميدان أن أشير إلى بعض التغيرات الجوهرية التي طرأت على جبهات
القتال بعد فرض الهدنة الأولى ليكون القارئ على حقيقة بينه من الموقف .

لزم الجيش المصري مواقفه التي احتلها . وأخذت وحداته تنظم الدفاع عن نفسها وتستعد
لاستئناف القتال ، وعند نهاية الهدنة أخذ الجيش يهاجم مراكز اليهود بعنف وشدة ، ويضيق
الخنناق على المستعمرات الجنوبية حتى كادت تموت جوعاً وعطشاً ، وأدركت القيادة اليهودية حقيقة
الخطر الذي يحيط بهذه المستعمرات فحاولت تموينها بالطائرات ولم تنجح في هذه الخطة أيضاً إذ كان
السلاح الجوي المصري في ذلك الحين لا يزال يسيطر . وأذكر أنهم قاموا بمثل هذه المحاولات في

المستعمرات التي يتولى جنود الإخوان حصارها غير أن الإخوان أروغوها أكثر من مرة على إلقاء حولتها بعيداً عن المستعمرات تحت تأثير نيران المدافع الرشاشة التي كانت تسلط عليها من أبعاد قريبة والفرار راجعة إلى قواعدها . وكانت هذه الحركة مصدر غنائم جديدة للإخوان ومصدر مضايقات مثيرة لليهود .

الهدنة الثانية أو الثالثة الأثافي

وهنا فرضت الهدنة الثانية التي استطاع اليهود في خلالها أن يجلبوا أنواعاً جديدة من الأسلحة الثقيلة والطائرات الضخمة ... وحين آنسوا في أنفسهم شيئاً من القوة والإعداد ، ضربوا بالهدنة عرض الحائط وبدأوا عمليات جريئة واسعة النطاق ؛ فهاجموا (تقاطع الطرق) في ١٤ أكتوبر واحتلوها .

وبذلك تحطم الحاجز الذي يفصل الشمال عن الجنوب ، وانطلقت القوات اليهودية المدرعة تحمل الأسلحة والجنود وانتفضت المستعمرات الهائلة الوادعة ، ودبت معالم الحياة والنشاط في أوصالها وقامت لتؤدي دورها المرسوم فقطعت طرق المواصلات حين كان الضيق يشتد على خطوط الجيش الأممية مما اضطر قيادة الجيش إلى تقصير خطوطه والتخل عن مناطق المجدل واسدود تاركة خلفها قوة قوامها خمسة آلاف جندي في منطقة (الفالوجا) لم تستطع الإلانات والحقاق بالجيش المنسحب إلى غزة .

بطولات خارقة لحماية انسحاب الجيش المصري

فرضت السياسة الخرقاء للحكومة المصرية على الجيش المصري في فلسطين بقبولها الهدنتين الأولى والثانية الوضع الذي يكون فيه الانسحاب هو أقل الضررين ، ولم يتوان الجيش في إعداد خطة الانسحاب ، ولكن كان لابد لتأمين انسحابه من الاحتفاظ بمواقع معينة إذا فقدتها فشلت خطة الانسحاب وصار الجيش معرضاً للغناء ، ونقل فيما يلي عن الأستاذ كامل الشريف لمعان بطولات واثقة للإخوان في سبيل تأمين الجيش المصري .

١ - استرداد العسلوج

كان احتلال العسلوج يعني قطع مواصلات الجيش المصري في الجبهة الشرقية ؛ مما دعا القيادة العامة إلى تنظيم خطة لاستردادها . وفي اليوم التالي تحركت قوة كبيرة من الجيش النظامي تعاونها المدفعية والسيارات المدرعة ، ولكنها فشلت في الاقتراب من القرية لاستماتة العدو في الدفاع عنها

فاستنجدت القيادة العامة بالبكباشى أحمد عبد العزيز الذى وكل الأمر لليوزباشى محمود عبده قائد الإخوان فى «صور باهر» ليتولى إرسال قوة من رجاله تسترد هذه المواقع ، وأترك وصف النتيجة لسعادة اللواء أحمد محمد المواوى بك القائد العام وهى مقتبسة من شهادة أدلى بها بين يدي القضاء فى إحدى قضايا الإخوان المسلمين التى عرفت باسم «قضية سيارة الجيب» وكانت إجابته رداً على سؤال وجهه إليه الدفاع فى القضية المذكورة .

— هل كلفتم المتطوعين بعمل عسكري خاص عند مهاجرتكم العسلوج ؟..

— نعم ... العسلوج بلد تقع على الطريق الشرقى واستولى عليها اليهود فى أول أيام الهدنة . ولهذا البلد أهمية كبرى بالنسبة لخطوط المواصلات ، وكانت رئاسة الجيش تهتم كل الاهتمام باسترجاع هذا البلد ، حتى إن رئيس هيئة أركان الحرب أرسل لى إشارة هامة يقول فيها (لا بد من استرجاع العسلوج بأى ثمن) فكانت الخطة التى رسمتها لاسترجاع هذا البلد هى الهجوم عليها من كلا الطرفين من الجانبين ، فكلفت المرحوم أحمد عبد العزيز بك بإرسال قوة من الشرق من المتطوعين وكانت صغيرة بقيادة ملازم ، وأرسلت قوة كبيرة من الغرب تعاونها جميع الأسلحة ولكن القوة الصغيرة هى التى تمكنت من دخول القرية والاستيلاء عليها . ولما سأله المحامون عن السبب فى تغلب القوة الصغيرة أجاب :

— القوة الغربية كانت من الرديف وضعفت روحهم المعنوية بالرغم من وجود مدير العمليات الحربية فيها إلا أن المسألة ليست مسألة ضباط .. المسألة مسألة روح ، إذا كانت الروح طيبة يمكن للضابط أن يعمل ما يشاء ، ولكن إذا كانت الروح ميتة فلا يمكن للضابط أن يعمل شيئاً ... لا بد من وجود الروح المعنوية .

يقول كامل الشريف : وهكذا تحررت «العسلوج» وكان تحريرها على يد قوة من الإخوان بقيادة ضابط ملازم هو الأخ المجاهد «يحيى عبد الحليم» من إخوان القاهرة ... ومع هذا النجاح الباهر الذى أحرزه الإخوان وعظم الخسائر التى منى بها العدو ، كانت خسائرنا صغيرة جداً لانتجنا واعدداً من الجرحى من بينهم قائد القوة المهاجمة المجاهد «يحيى عبد الحليم»

١ — استرداد تبة اليمن :

نجح العدو فى ١٩ أكتوبر فى اقتحام مرتفع شاهق يعرف بتبة اليمن ... وهأنذا أنقل نص إشارة رسمية بعثتها قيادة (بيت لحم) إلى الجهات العسكرية المسئولة بتاريخ ٢٠ أكتوبر : «قام العدو بهجوم عنيف على جميع مواقعنا الدفاعية تحت ستار غلله شديدة من نيران الأسلحة الأوتوماتيكية والهاونات وقاذفات الألغام والمدفعية الثقيلة — صدت قواتنا الهجوم — تمكن العدو

من الاستيلاء على مواقعنا بجبل «اليمين» سقامت قوة من الإخوان المسلمين بقيادة الملازم أول خالد فوزى بهجوم مضاد فطردت العدو بعد أن كبدته خسائرنا فادحة - خسائرنا ضعيفة. وقد أبلغنا مراقبي الهدنة «.

وقد علقت أغلب الجرائد العربية واليهودية على هذه المعركة وذكرت جهود الإخوان فيها بالإكبار والإعجاب .. وكتبت جريدة «الناس» العراقية في عددها الصادر يوم ٧-١١ مقالا تحت عنوان «بسالمة متطوعة الإخوان المسلمين» جاء فيه :

«وإن اليومين الماضيين امتازا ببسالمة منقطعة النظير من متطوعة الإخوان المسلمين فقد استولى اليهود شمال غرب بيت لحم بعد محاولات عديدة على جبل مرتفع يسمى «تلة اليمين» ويشرف على قرى الوجبة وعين كارم والمالحة وما جاورها وأصبحوا يهددون كل المناطق المحيطة بها ، ورأت قيادة الجيش المصرى ضرورة تطهيرها فندبت لذلك عدداً من متطوعة الإخوان المسلمين في «صور باهر» فتقدمت سرية منهم .. ولم تمر ساعة حتى كانت هذه الفرقة قد أجهزت على القوة اليهودية وغنمت ذخيرتها ومتاعها وحررت قرية «الوجبة» وأصبحت تسيطر على منطقة واسعة .. وقد أصدرت قيادة الجيش المصرى أمراً بتسمية الجبل «تلة الإخوان المسلمين» . وقد استشهد من الإخوان كل من مكواى سليم على من الزقازيق والسيد محمدقارون من المنصورة وإبراهيم عبد الجواد من الفيوم رحمهم الله رحمة واسعة » .

أقول : وقد نشرت الصحف المصرية نبأ هذه الموقعة وقد قرأتها في ذلك الوقت في جريدة الأهرام بنفسى هذه المعانى .

٣ - حماية الجيش المصرى فى مرحلة الانسحاب :

فى مرحلة انسحاب الجيش المصرى بعد الهدنة الثانية حاول الجيش تثبيد أقدامه فى منطقة «غزة» وجمع قواته المبعثرة بعد الانسحاب ... يقول كامل الشريف : والد «ماكر يابى إعطاء قوات جيشنا فرصة للتفكير فى أمرها بما يقوم به من هجمات «وهمية» على غزة ومن غارات جبارة على مراكز الجيش بها ، ويزيد فى إشغالها بالمانورات البحرية التى تقوم بها قطع أسطوله وتحاول قطع الطريق الساحلى الذى تسلكه القوات فى انسحابها من المجدل .

ولم تكن هناك خطة منظمة للدفاع عن هذه المناطق إذ كان الجيش - كما ذكرت - مشغولاً فى عمليات الانسحاب ، ولم يكن فى هذه المنطقة كلها حتى ذلك الحين غير عدة سرايا من الإخوان

المسلمين ، ووجد هؤلاء الإخوان أنفسهم أمام حقيقة واقعة هي عبء المحافظة على جيش مصر وسمايته من أى عدوان يحركه اليهود من هذه المنطقة ، ولا يستطيع أحد أن يتكهن بفداحة الكارثة التى كانت وشيكة الوقوع لولا وجود هذه الفئة المؤمنة المجاهدة فى ذلك الحين .

شعرنا بخطورة الموقف ، فقدمت مشروعا إلى القيادة العامة بينت فيه الأخطار الكبيرة التى يمكن أن تقع لو فكر اليهود فى مهاجمة هذه المناطق ولطمح خطط الرجعة على الجيش ، وطالبت فى ختام التقرير بإطلاق يد الإخوان وإعطائهم العتاد اللازم والترخيص لهم باحضار قوات أخرى من مصر حتى يمكنهم تنفيذ ذلك المشروع .

وكان المشروع الجديد يقضى باحتلال مواقع (حاذية) حول كل مستعمرة من المستعمرات الكبيرة ومحاصرتها وعدم إعطائها أية فرصة للتكتل حتى يفرغ الجيش من تنظيم خطوطه الدفاعية . ولقد استدعيت القيادة العامة فى «غزة» وناقشتنى فى تفاصيل الخطة ، ثم أبدت موافقتها المطلقة على تنفيذها . وأذكر أن اللواء الماوى قد وعدنى بكتابة خطاب إلى الأمانة العامة للجامعة العربية وإلى رئاسة أركان الحرب يطلب فيه تجنيد كتيبة من الإخوان عن طريق المركز العام والشعب وإرسالهم فوراً إلى الميدان ليتمكن من السيطرة على الموقف .

ولقد ذهبت من فورى إلى فضيلة الأستاذ الشيخ محمد فرغل رئيس الإخوان فى فلسطين وعضو مكتب الإرشاد العام وأطلعته على تفاصيل الخطة ، فسافر من فورى إلى مصر ليعمل على تجهيز هذا العدد الكبير وعمل الترتيبات اللازمة نحو ترحيلهم إلى الميدان . وأذكر أن اللواء موسى باشا لطفى - وكان يشرف على إدارة العمليات الحربية فى الميدان - قابلنى بعد ذلك وأبدى إعجابه الشديد بالمشروع ، وألهمنى أن هذه الخطة لو نفذت بدقة وإحكام فسوف يكون لها الفضل الأول فى حماية الجيش فى هذه المرحلة الخطيرة والاحتفاظ بهذه المنطقة الباقية من فلسطين ، فوعده خيراً ومضيت إلى المعسكر لأعد العدة وأبدأ العمل .

جمعت الإخوان فى ساحة التدريب بالمعسكر وقلت لهم إن الله قد فتح لهم باباً جديداً للجهاد وإن الظروف قد ألقت على كواهلهم عبء المحافظة على الجيش وكرامته ، وإنه لولا ثقتى فى قوة إيمانهم ورغبتهم فى الكفاح ما قبلت أداء هذه المهمة الشاقة التى أعلم فداحتها وخطرها . ولن أستطيع أن أصور شعور الإخوان وهم يستمعون لهذه الأنباء ، كانوا يقبلون على فى ابتهاج واضح وكأنهم يدعون إلى حفلة عرس أو نزهة خلوية لا لميدان قتال فيه من المشقة والخطر ما فيه .

ولقد خرج الإخوان المسئولون فى استكشاف حول المستعمرات ، وعانوا المواقع التى رأوا

احتلالها ثم عاد كل واحد منهم يعد «فصيلته» ليحتل بها مواقع .. وكانت مشكلة المشاكل إقناع أفراد من الإخوان بالتخلف عن فصولهم والبقاء في المعسكر ، ولست أنسى ما كان من أمر المجاهد الشاب «عبد الحميد بسيوني خطاب» نجل العالم الجليل الشيخ بسيوني خطاب ، لقد كان هذا الشاب يبكي بكاء مرأ حين أمره قائد فصيلته بالبقاء في المعسكر ، وما زال يبكي ويبعث بالوساطات حتى أشفقت عليه فسمحت له بالخروج .. وخرج من المعسكر وهو أشد ما يكون لرحاً وابتهاجاً . ولقد أخلص النيه للجهاد فاجتباه ربه وأكرمه واتخذ شهيداً في إحدى المعارك المشهورة التي جاءت بعد ذلك .

وأقيمت المواقع الجديدة حول المستعمرات ، ولم تكن سيارة يهودية تجرؤ على التنقل بين مستعمرة وأخرى إذ أقام الإخوان «الكائن» على الطرق وملأوا الأرض بالألغام ، وأخذت دورياتهم المصفحة تجوب الصحراء الواسعة وتصل في طواقها حتى مدينة «بئر السبع» نفسها .

ولكى أصور أهمية هذه الحركة وأثرها يمكن أن أقول إن خمس عشرة سيارة مصفحة ودبابه قد دمرت خلال أسبوع واحد من بدء العمل ، عدا أنابيب المياه التي كانت تدمر كل يوم مما اضطر اليهود إلى ملاقاته الإخوان وجهاً لوجه ، فنشبت معارك رهيبه سقط فيها بعض الإخوان ولكنها جاءت بأحسن النتائج وأبرك الثمرات ولقد ضج اليهود بالشكوى وأبلغوا مراقبي الهدنة احتجاجاتهم أكثر من مرة ، وعلقت محطة إسرائيل على هذه الحركات وهددت باستئناف القتال ضد الجيش إن لم تكف عصابات الإخوان عن نشاطها في هذه المنطقة .

ولقد فكر بعض كبار الضباط في زيارة تلك المواقع البعيدة الواقعة حول (وادي الشلالة) و (تل حجه) و (الرابية) و (الشعوث) وكان برفقتهم أحد الإخوان يدطم على الطريق ، فلما رأوا أنفسهم يتوغلون في الصحراء مبتعدين عن خطوط الجيش لأكثر من خمسة عشر كيلو متراً إلى الشرق وهاهم أن رأوا المستعمرات اليهودية خلفهم داخلهم شيء من الشك والريبة وما لأحدهم على الجندي المرافق لهم يسأله (أترأه ضللت الطريق ؟) فلما أخبره أنهم يسرون في الطريق الصحيح قال له (إني أعتقد أنكم متفقون مع اليهود وإلا لما جرؤتم على التوغل في مناطقهم بهذه الصورة الجنونية) وضحك الأخ المرافق وضحك الضباط جميعاً .. وحين رجعوا إلى معسكراتهم أخذوا يشيدون بما رأوا من بسالة الإخوان وشدة بأسهم وهكذا تمت عمليات الانسحاب وبدأ الجيش يستقر في المواقع الجديدة التي اختارها .

٤ — معركة التبة ٨٦ :

نتيجة ظروف سياسية سنعرض لها في الفصل التالي إن شاء الله أمر الإخوان بالانسحاب من

مواقعهم الحاکمة لتمكن اليهود من الاستيلاء على مرتفع هام جداً جنوبي دير البلح يعرف باسم «التبه ٨٦» وكان نجاحهم في احتلال هذا الموقع ينفى عزل حامية غزة وتمثيل مأساة «الغالوجا» مرة أخرى .

ويقول كمال الشريف : ولقد رأينا كيف اضطر الجيش إلى إخلاء مناطق برمتها عندما احتل اليهود موقعاً مشابهاً عند (بيت حانون) وكان هذا ما يرى إليه اليهود من معارك (الطرق) التي اتسمت بها حربهم في فلسطين من قطع مواصلات الجيش وإرغامه على التقهقر ، ثم طلب الهدنة لتمكنهم من المحافظة على ما وقع في أيديهم ، وكان هذا ما أرادوه من احتلال مرتفع (دير البلح) الذي نتحدث عنه .

ولقد تحدث إلى الأمير الای (محمود بك رأفت) قائد قطاع (دير البلح) بالتليفون في ساعة متأخرة من ليلة ٢٣ ديسمبر وأخبرني أن العدو قد نجح في اختراق خطوطنا الأمامية في دير البلح وانتزع المرتفع من أيدي جنودنا الذين أذهلهم (المفاجأة) ، وقواته تتجمع الآن وتحاول الوصول إلى طريق المواصلات الرئيسي ، ولكن قوات الجيش تحاول حصره فوق المرتفع حتى الصباح حيث يمكننا أن نقوم بهجمات مضادة لاسترداده وتطهيره . ثم صارحنى بأن الموقف جد خطير ، وأن هذه المعركة سوف يكون لها أثر بالغ في النتيجة العامة للحرب . وختم حديثه طالباً أن يستعد الإخوان ليكونوا آخر (ورقة) نقذف بها في وجه اليهود ...

فألقيت سماعة التليفون وخرجت من المكتب وكانت أصوات الانفجارات العنيفة تسمع عن بعد في جبهة القتال فأمرت بصفارة الإنذار لتتجمع قوات الإخوان ، وطلبت تجهيز سرية للاشتراك في هذه المعركة ، فتهاافت الجميع ، فلما وقع الاختيار على الفصائل الثلاث اللازمة ، هلل أفرادها وكبروا وأخذوا يهتفون من أعماق قلوبهم «هبي ريح الجنة هبي» ومضوا يملدون أسلحتهم ويستعدون لمنازلة العدو .. وبعد ساعة تحركت السيارات بمن فيها لترابط قريباً من أرض المعركة كان الوقت الفجر ، وكان اليهود حتى ذلك الحين لا يزالون فوق المرتفع الذي احتلوه ولا تزال مدافعهم تسيطر على مساحات واسعة من الأرض المنبسطة حوله .

ولم تكده الشمس ترسل أول أشعتها حتى صدرت الأوامر لجنود الجيش بالتقدم فانسابوا في أفواج متلاحقة تريد أن تصل إلى القمة وتطرده العدو الرابض فيها ، ولكن ارتفاع الموقع وسهولة أسلحة اليهود على الأرض المحيطة به كانا يمنعان الجنود من الاقتراب ، وظلت الحالة هكذا موجات إثر موجات وجرحى كثيرون وشهداء يستقنون دون الهدف ... وكيف للحوم آدمية أن تقاوم

القنابل والرصاص .. والعدو الماكر يربص بخلف حنادقه التي أعدها بعناية ويصوب نيرانه منها على لحوم بشرية متراصة .. وبدا جلياً للعيان أن لا أمل مطلقاً في كسب المعركة إلا في حضور عدد من الدبابات فأرسلوا في طلبها على عجل .. وجاءت الدبابات ودفعت إلى المعركة واحدة تلو الأخرى فتعطلت منها اثنتان على سفح التل ولم يستطع أحد الاقتراب من مواقع العدو .

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر ، والريح لا تزال تقوى بشدة ، وتسوق أمامها قطعاناً من السحب الكثيفة وعواصف المطر الباردة .. ووقف الضباط يتطلعون إلى السماء يلتسمون العون من الله العلي الكبير بعد أن جربت كل الأسلحة ووضع جلياً أن هذه المعركة قد (ماعت) وضعف الأمل في حسمها قبل الليل .

وكان لابد من إلقاء الورقة الأخيرة لطلب الأمير الامي محمود بك رافت إحضار الإخوان على عجل ، وما إن سمع الجنود والضباط اسم الإخوان حتى سرت في نفوسهم روح جديدة من الأمل والثقة . وطلبت من القائمقام على مقام قائد الفرسان أن يوفر دباباته ليدفع بها أمام جنود الإخوان

وبعد لحظات وصل جنودنا إلى ميدان المعركة ، وترجلوا عند مكان أمين لتنظيمهم وإعدادهم ... وكانت الخطة تقضى بتقسيم الإخوان إلى ثلاث مجموعات : تهاجم اثنتان منها الموقع من الأمام ومن جهة الشمال بينما القوة الثالثة تدور حول الموقع وتهاجم مؤخرته . وتمنع تدفق الإمدادات عليه وتجذب اهتمام المدافعين إليها وتشغلهم عن القوتين الآخرين .. وكان المفروض أن تتقدم الدبابات متجمعة أمام قوة الإخوان تحت ستار من نيران المدفعية والأسلحة الرشاشة وتحت غلالة من قنابل الدخان التي كانت تطلقها مدافع الهاون التابعة للإخوان ، وبدأت المعركة على هذا الأساس وانطلق الإخوان إلى أهدافهم وقد علت وجوههم إشراقة الإيمان القوي وكانوا ينشدون بحماس نشيدهم المعروف :

هو الحق يحشد أجناده ويعتد للموقف الفاصل
قصفا الكنائس آساده ودكوا به دولة الباطل

وأمسك الضباط والجنود أنفاسهم وهم ينظرون إلى هذا الشباب المؤمن يتوالب في ثبات وقوة ولا يشبه الرصاص والقنابل عن التقدم .. لقد آمن الضباط والجنود أن هناك نتيجتين لا ثالث لهما : إما أن ينتصر هؤلاء الشباب أو يموتوا جميعاً لأن الانسحاب والتراجع لا يدخل في برنامجهم

إطلاقاً ، وخاصة في مثل هذا الموقف الحرج الخطير .. وظلت مدافع الإخوان تقذف المواقع بقنابل الدخان فترة طويلة حتى أحالت القمة إلى سحابة قائمة لا ترى خلالها إلا أنسنة من اللهب الناتج عن انفجارات القنابل ... وسكنت المدافع وانساب المجاهدون إلى أهدافهم وبدأت معركة الخنادق . وروع اليهود حين رأوا الإخوان يلقون بأنفسهم فوقهم في الخنادق والدشم ويعاركونهم بالقنابل والحرايب والأيدي ... ورغم كثرة الضحايا من الإخوان فإن القوة لم تتمكن من احتلال أطراف خنادق العدو وأخذت تطهرها جزءاً جزءاً ... ولم يجد اليهود بداً من إخلاء المواقع فصمت مدفعيتهم وأسلحتهم وشوهدت مصفحاتهم تتحرك للخلف حاملة الجرحى والهللكى . وكان هذا المنظر حافزاً للجنود الآخرين ملهياً لحاسهم فأخذوا يتكاثرون على الموقع ويتمون تطهيره حتى جاءت أخيراً الحلالات (قاذفات اللهب) تطارد فلول العدو المهزومة وانتهت المعركة بنصر حاسم . وكانت إحدى المعارك الكبرى التي تكبد فيها العدو خسائر فادحة دون أن يحصل على نتيجة تذكر ... ووجد ضمن القتلى عدد من كبار الضباط الإسرائيليين وبينهم قائد المعركة وهو «كولونيل» روسي يحتل مركزاً هاماً في الجيش الإسرائيلي ووجدت في جيبه تفاصيل الخطه التي اتبعت في دير البلح والخطط المقبلة التي كان يراد منها إلقاء الجيش المصري في أعماق البحر .

كانت الشمس قد مالَت للمغرب حين انتهت المعركة . وأخذ الجنود يحتلون الموقع بعد فرار اليهود منه . أما جنود الإخوان فقد انسحبوا في هدوء وسكون بعد أن أخذوا معهم كيات وفيرة من الأسلحة الألمانية والروسية وأكداً من القنابل والدخائر وكان كبار الضباط يعانونهم عند خروجهم ويهتئونهم بهذا النصر الحاسم ويشيدون بجهودهم وفضلهم .

ولقد زارني في الصباح مندوب من قبل القائد العام فؤاد صادق وأخبرني أن اللواء فؤاد صادق يرغب في مطالبة الحكومة بالإعانة بأوسمة عسكرية رفيعة على الإخوان إشادة بفضلهم واعتزازاً بجهادهم في هذه المعركة وغيرها وهو يريد مني كشفاً بأسماء «الإخوان» الذين اشتبكوا في معركة الأمس . فأنعت أولاً في تقديم كشف لهذا السبب وقلت إن الإخوان لا يعملون بغية أو سمة وشارات وإنما هم طلاب ثواب ومغفرة وليس لهم مطمع من جهادهم غير الاحتفاظ بكرامة أمتهم وجيشهم والإبقاء على عروبة فلسطين كجزء من وطنهم الإسلامي الكبير ... ولكنه ألح إلحاحاً شديداً وحاول إقناعي بأن الإعانة على الإخوان لا يعد انتقاصاً لبلاتهم وثوابهم بل هو اعتراف من الدولة بشجاعتهم وصدق جهادهم ثم هو فوق ذلك اعتراف بفضل الدعوة التي صنفهم .. وأمام هذا الإلحاح أعطيته الكشف .

مظاهر متناقضة :

كان من التناقض العجيب أن مصر كانت تحارب اليهود في فلسطين وهي تعلم أن جزءاً كبيراً من تمويل المعركة ضد قواتنا إنما يصل إلى اليهود من مصر عن طريق اليهود الذين يهشون فيها فأعظم متاجر القاهرة والإسكندرية كانت في يد اليهود كما أن دور اليهود الكبيرة المفرية كانت ملكاً لهم ...

الفصل الثالث

خط التآمر العالمي للقضاء على الدعوة

منذ انتقلت دعوة الإخوان المسلمين إلى القاهرة ، وأحس الإنجليز بوقوفها بجانب أهل فلسطين ضد اليهود وتبنيها هذه القضية ، وكان ذلك في أوائل سنة ١٩٣٧ ، منذ ذلك التاريخ ومحاولات الإنجليز عن طريق صنائعهم من حكام مصر متوالية ومتصلة لا تنقطع ولا تهدأ لتعويق الدعوة وبث العقبات في طريقها وقد ألمنا بأمثلة هذه المحاولات في الفصول السابقة من هذه المذكرات

ولكن الدعوة برعاية الله سبحانه ، وبما وفق الله مرشدها إليه من سعة في الألق وبعد في النظر وإخلاص في العمل ، استطاعت أن تتخطى هذه العقبات ، وأن تثب فوقها وثباً سبقت به أقرانها المتحررين من عقبات الطريق وكائن الأعداء .. وبهت الأعداء حين رأوها وقد شبت عن طوقها ، وبلغت رشدتها ، وامتد رواقها حتى كسا أرض مصر وظلل الكثير من الأرض العربية والعالم الإسلامي .. ولم يعد في مصر - وهي المنار الذي يهتدى به كل عربي ومسلم - صوت أعلى من صوتها ولا يد أقوى من يدها ولا كلمة أنفذ إلى القلوب من كلماتها .

وكانوا يعتقدون - بعد أن رأوا نفوذها قد تعاظم .. أن هذا النفوذ مهما تعاظم فجعله مصر لا يعتد بها ، فإذا بهم يفاجأون بهذا النفوذ يصل إلى أبعد البقاع العربية ، فيبدل دولة في اليمن ويقيم دولة أخرى بها ، وتبسط الدولة الجديدة سلطانها ويستتب لها الحكم ... ومعنى هذا أن هذه هي الحلقة الأولى من سلسلة لا تلبث الدول العربية أن تقع واحدة تلو الأخرى ، وتحقق بذلك نواة الدولة الإسلامية ... وهنا لا يكون للاستعمار إلا أن يحمل عصاه على عاتقه ويرحل إلى غير رجعة ، فإن هذا الكتاب «القرآن الكريم» لا يقبل حيث حكم إلا أن يكون سيداً ، ولا يرضى أن يكون له في السيادة شريك .. وهذا أمر يفهمه كل المستعمرين فمنهم من يسره في نفسه ومنهم من يجهل به .

فأيام كانت إيطاليا تجند الألوف من شبابها للإغارة على ليبيا للاستيلاء عليها في العشرينيات من هذا القرن كانت الفقرة التي تتكرر بعد كل مقطع من النشيد الذي يردده هذا الشباب هي : «دعني يا أمي أحطم هذا «الكتاب» الذي لا أمل لنا في أن نسود العالم ما دام موجوداً»

فالمستعمرون لم يقدموا على استعمار البلاد الإسلامية إلا بعد أن درسوا مقومات استقلال هذه البلاد فعرفوا أن لب هذه المقومات هو الحكم بالقرآن ، فصبوا سهامهم إليه ... فإذا قامت هذه الدول الإسلامية من جديد - على يد الإخوان المسلمين - محتكمة إلى القرآن ، إذن فقد صاغت الفرصة على الاستعمار .

وإذن فلا بد من تخطيط ... لقد رسموا خطة قوضوا بها دعائم ثورة اليمن ... فهل يفرحون بهذا النصر مكتفين به ؟ إنهم ليسوا السذج ولا البسطاء .. إنهم أبعد نظراً وأشد حذراً لقد فهموا أن الذي أشعل هذه الثورة التي أحبطوها يستطيع أن يشعل ثورات في أماكن أخرى ويستطيع أن يعيد الكرة في اليمن نفسها ... فهل يكون هدفهم تتبع الثورات والعمل على إحباطها ؟ ! إن هذا أمر يطول أمده ولا يرجى أن تكون له نهاية .. فليكن هدفهم إذن محاولة القضاء على الروح التي تنفخ الحياة في كل مكان ... فليكن هدفهم طمس مصدر النور الذي ينفذ شعاعه إلى الظلام فيبده حيث كان ... فليكن هدفهم التضامن مع أي كان ، والتحالف مع الشيطان للقضاء على الإخوان المسلمين .

تهديد أمريكي مقنع :

نشرت الصحف المصرية في ذلك الوقت ترجمة لما جاء بإحدى كبريات الصحف الأمريكية عن حسن النيا ما يخصه «وصفته شكلاً وثقافة وسناً وذكاء ومقدرة على حسن الأداء وعلى تملك قلوب سامعيه وعلى سيطرته على المجتمع الإسلامي ثم عقت على ذلك بقولها : إن هذا الرجل هو أقوى رجل في العالم الإسلامي اليوم ولا يمكن أن يغلب إلا أن تصير الأحداث أكبر منه»

ولم نفهم نحن الإخوان في ذلك الوقت من تعقيب الصحيفة في قولها «إلا أن تصير الأحداث أكبر منه» أن هذا أسلوب خطير من أساليب التهديد وأن هذه الصحيفة بهذه العبارة تستحث قوى الشر في كل مكان أن تتجمع لوضع مخطط للقضاء على هذا الرجل الذي ضافوا به ذرعاً ... وإذا كانت السياسة الأمريكية سياسة أقرب إلى الصراحة فإن السياسات الأخرى في الدول الاستعمارية كانجلترا وروسيا هي سياسات التكم والسرية المطلقة .

وهذه الدول لا تأخذ على عاتقها إلا التخطيط ، أما التنفيذ فإنها تسخر له غيرها من هم الصق بالرجال الذين يخططون له ويحيكون المؤامرات لتنفيذ فيه .. وقد يصل إحكام المؤامرة إلى حد أن يقوم المسخر بتنفيذها وهو لا يشعر أنه مسخر بل يعتقد أنه يقوم بها لحسابه الخاص .. وقد

وجدت هذه الدول في مصر من يتحرفون شوقاً إلى القيام بأي دور للقضاء على الإخوان المسلمين : وجدت ملكاً غارقاً في شهواته يرى الإخوان أكبر خطر على شهواته التي لم يعد يعيش إلا بها فهو يرى القضاء عليها قضاء عليه ، ووجدت حزباً حاقداً موتوراً رضى رجاله أن يكونوا سدة شهوات هذا الملك الفاجر ، فوجودهم مرتبط بوجود هذا الملك بشهواته ، وإذا ظهرت البلاد من رجس هذا العرش العفن كانوا هم أول من يركلون بالأقدام .. ووجدت حزباً كبيراً منافساً يمكن استغلاله في تشويه صورة الإخوان في أعين الشعب .. ورأوا شياباً كثيراً متسكماً يمكن إغراؤه بما يرضى نزعاته .. وبهذا صارت مهمتهم ميسرة .

وفي الصفحات التالية نسوق إن شاء الله بعضاً من هذه الخطط :

١ - البوليس السياسى :

وهذا أسلوب مكشوف وبدائى ، وقد لجأت إليه الحكومات المصرية على اختلاف أحزابها ضد الإخوان . فهم يبتئون رجال هذا البوليس في المجتمعات الإخوانية على أمل أن ينقلوا إلى الحكومة أسرار هذه المجتمعات ... وكان الإخوان بفراستهم يكتشفون الشخصيات المتكررة لهذا البوليس ، كما أن الإخوان كانوا إذا أرادوا أن يتداولوا في أمر ذى بال لم يتداولوا إلا في اجتماعات خاصة يعرف كل منهم فيها أخاه ولا يستطيع أى شخص آخر أن يتسرب إليها .. على أن نظام الأسر المتسلسل والذي يربط كل الإخوان العاملين كان جداراً متيناً يجعل التسرب أو التسمع أمراً مستحيلاً .

وإذن فإن الذى كانوا يتوخونه من بث رجال هذا البريقي في اجتماعات الإخوان من وصولهم إلى أسرارهم قد فشلوا فيه ...

على أن كثيرين من هؤلاء وهم ذوو هائل مية - كانوا يستبشرون لأنفسهم أن يختلفوا كلاماً وينسبوه إلى الإخوان ليشعروا رؤسائهم أنهم يعملون عملاً .. والعجيب أن هذا الدش كان يروج على رجال هذه الحكومات

ومع أن تسليط هؤلاء الرجال على مجتمعات الإخوان لم يحقق شيئاً مما كانت تأمله الحكومات ، فإن كثرة تطفلهم على هذه المجتمعات خوف بعض من كان يفتى هذه المجتمعات من ذوى الإيمان الضعيف يجعلهم يحجمون عن غشيانها ؛ فقد كان من المألوف في أثناء إلقاء محاضرة أسبوعية في شعبة من الشعب أن يدخل ضابط من البوليس السياسى ويطلب نفس الاجتماع وأن تقوم مشادة

بينه وبين إخوان الشبهة وقد يؤدي ذلك إلى أن يأخذ المسئول عن الشبهة إلى أقرب قسم بوليس ويحرق له محضراً .

ويجب أن يكون معروفاً أن البوليس السياسى فى تلك الأيام لم يكن يعمل لحساب الحكومة المصرية وحدها بل كان يعمل لحسابها ولحساب السفارة البريطانية بل إن بعض ضباطه كانت صلتهم بالسفارة البريطانية أقوى من صلتهم بالحكومة المصرية ، ولم يكن هذا يغضب المسئولين بالحكومة . وقد كان مثار فخر محمد المسئولون فى الحكومة المصرية عليه القائم مقام محمد ابراهيم إمام مدير البوليس السياسى أن تنشر الصحف المصرية صورة له والسفير البريطانى السير رونالد كامبل يسلمه نيشان الإمبراطورية البريطانية فى ٢١ مايو سنة ١٩٤٧ تقديرًا لخدماته .

ولقد كان منظرًا مألوفًا أن ترى القائم مقام محمد ابراهيم إمام أو أحد رجاله داخلًا دار المركز العام ومعه أمر بمنع اجتماع أو بمصادرة عدد من المجلة أو استدعاء بعض الإخوان للتحقيق معهم.. وقد يتحداه الإخوان فى بعض الأحيان ؛ وهكذا كانت العلاقة بين الإخوان وبين البوليس السياسى أو القسم المختص كما كان يسميه البعض كحرب سجال يقيدون الإخوان مرة ويتحداهم الإخوان مرة أخرى .

وهذا الأسلوب من أساليب مضايقة الدعوة والكيد لها قد اتبع منذ فجر قيامها لم يفتر يوماً واحداً مع اختلاف درجات ضغطه . فكان يزداد الضغط فى بعض الأحيان ويخف فى أحيان أخرى ، كما كان يشتد على شعبة من الشعب ويفتر مع شعبة أخرى .. وعلى كل فلم يكن ذا تأثير خطير على الدعوة أمام تنظيماتها المحكمة البناء .. ولكن دورهم الخطير مع الإخوان سيأتى ذكره فى مكان آخر إن شاء الله .

٢ — جمعية إخوان الحرية

من أساليب السياسة الإنجليزية الماكرة أنها حين تخطط لما بين يديها من ظروف لا يشغلها هذا عن أن تخطط فى نفس الوقت للمدى البعيد ؛ فكان المفترض وقد اشتعل أوار الحرب العالمية وانجلترا نفسها هى الهدف الذى تصب فوق رأسه حمها ويراد تدميره وإزالته من خريطة العالم ، كان المفترض أن يكون تخطيط الإنجليز مقتصرًا على محاولة إنقاذ بلادها وبلاد حلفائها من هذه الولايات ، ولكن الذى حدث أن الإنجليز لم يكتفوا بالتخطيط لهذا وحده بل كانوا يخططون فى نفس الوقت لمقاومة التيار الجديد الذى أخذ يكتسح مصر والبلاد العربية والإسلامية لا يقف أمامه شىء ، ألا وهوتيار الإخوان المسلمين .

لقد أخذ الشباب ينفض من حول الزعامات التي صنموها وينصوى تحت لواء الإخوان المسلمين ، مع أن لعبة الزعامات كانت لعبة ناجحة تمام النجاح واستطاع الإنجليز بها أن يشغلوا الشباب عن الجد وعن اللب قانعاً بالشعارات وبالقشور ؛ فإذا استطاع الشباب أن يرفعوا زعيمًا إلى سدة الحكم استقر في خاطرهم أنهم قد حققوا كل آمال بلادهم ، ولا عليهم بعد ذلك ، فليطمئنوا وليفرحوا وليناموا ويستفرقوا في النوم فقد تحقق مالا أمل بعده .

فإذا كانت هذه اللعبة قد انكشف زيفها وانضح أمرها وتبين الشباب أنهم كانوا مخدوعين فانفضوا عنها إلى الإخوان المسلمين ، إذن فلا بد من التفكير في لعبة أخرى تكون أشد تأثيراً وأقوى إغراء لجذب هذا الشباب جذباً يصرفه عنهم .

اتجه تفكيرهم إلى جذب الشباب من أحط غرائزه - وهي أسهل مايقاد منه الشباب - ولكنهم اتبعوا خطة الشيطان حين يخطط لإغواء الصالحين ؛ فهو لا يدخل عليهم ناهياً إياهم عن صلاحهم بل يدخل عليهم مباركاً ما هم عليه من صلاح ليأنسوا إليه فيسلسواله القياد فيقودهم بعد ذلك إلى مهاوى الضلال .

واقترء بالشيطان في خطته الخادعة أنشأوا جمعية أطلقوا عليها «جمعية إخوان الحرية» فالإخاء الذي يفخر الإخوان بالدعوة إليه وتمكيته بين النفوس رفعت هذه الجمعية شعاراً لها . وبلاد مثل مصر تشكو وطأة الاحتلال وتطالب بالحرية يكون للفظ الحرية أجل صدى في أسماع شبابها ... ورؤساء هذه الجمعية إنجليز مؤهلون تأهيلاً خاصاً يسهل لهم سبل الاتصال بالمصريين وبالعرب فهم يتكلمون العربية وعلى درجة عالية من الثقافة ، وعلى إدراية واسعة بأحوال البلد الذي سيعملون فيه ، وفضلاً عن ذلك فهم مزودون بسلحين قاطعين هما المال والنساء . من هم رؤساؤها ؟.

لم تكن هذه هي المحاولة الأولى من الإنجليز لإرساء أساس لجمعية تناوى الإخوان المسلمين فقد أنشأوا في سنة ١٩٤٥ جمعية في القاهرة سموها «جمعية الإصلاح الوطني» . أسندت رياستها لجمال الدين هورث دن وهو إنجليزي سبق له أن أقام في مصر وتعلم العربية الدارجة وادعى الإسلام وتزوج من مصرية مسلمة كانت تقيم معه في لندن .. وقد أنشأ مطبعة أمام السفارة البريطانية لإصدار المنشورات المضللة ... وانتهت هذه المحاولة بالفشل فلجأ الإنجليز في أثناء الحرب العالمية الثانية إلى إنشاء جمعية إخوان الحرية .

وقد أسندوا رياستها للمستر فاي وكان محاضراً سابقاً بكلية التجارة بجامعة القاهرة ثم انتقل

إلى قسم النشر بالسفارة البريطانية . ومن زعمائها الآنسة فريال استارك التي ألقت عدة كتب عن العرب ، والمستر سكيف رئيس القسم الإنجليزي بكلية الآداب بجامعة القاهرة سابقاً .

وقد بدأت باتخاذ مقر لها في بيت السنارى بحارة منج شارع الكوى بالسيدة زينب ثم لم تلبث أن افتتحت لها فروعاً وشعباً في طول البلاد وعرضها حتى القرى ممتدة في ذلك طريق الإخوان المسلمين في الدخول بالدعوة إلى أعماق البلاد حتى إن بعض الصحف المصرية قد نشرت في مارس سنة ١٩٤٧ عن رحلة قام بها في ذلك الوقت المستر فائى إلى الوجه القبلى يصحبه من يسمى بالشيخ الزواوى وذكرت الصحيفة أنهما اتصلا بعرب الجبهة والأنصار وامتدت رحلتهم إلى قنا وأسوان .. ولما كان التقرب إلى الإنجليز في ذلك الوقت هو البضاعة الرائجة وكانت خزانة الحكومة البريطانية مفتوحة على مصراعها فسرعان ما تضخمت هذه الجمعية بما ضمت لعضويتها من ذوى المصالح والمنافقين ، وبعد أصدرت الجمعية في ذلك العام كتاباً باللغة العربية في ثلاثمائة صفحة يتضمن أسماء أعضائها وكان بينهم أناس يحتلون مراكز خطيرة في المجتمع .. وكانت الجمعية تصدر نشرات لا تستحي أن تشيد فيها بدور بريطانيا في فلسطين وتدخل أمريكا في الشئون الداخلية للدول الصغيرة كما تنشر فيها خطاب السفير البريطانى .

خطة الجمعية وأهدافها :

لم يكن الإخوان لينزعجوا للعدد الضخم من الأسماء الرنانة وغير الرنانة التي انضوت تحت لواء هذه الجمعية والتي حواها المجلد الضخم ذو الثلاثمائة صفحة الذى أصدرته ، فإن هؤلاء هم غشاء السيل ومن قال الله في أمثالهم «لو كانوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً ولا وضعوا خلا لكم » وإنما أزعج الإخوان هو خطة جهنمية وضعتها هذه الجمعية للايقاع بالشباب الفاضل الإهاب الخالى الذهن السهل القيادة .

فقر الجمعية في القاهرة مؤثث بأفخر الأثاث ومزود بجميع وسائل الترفيه ثم توجه الجمعية الدعوة إلى الشباب في معاهده الدراسية وفي نواديه الرياضية وفي مختلف أماكن تجمعاته لحضور محاضرة لرئيس الجمعية أولاً حد محاضريها في مقرها مساء يوم محدد ، وموضوع المحاضرة جذاب يتصل بالحرية التي هي من حق كل المجتمعات ، فيستجيب لهذه الدعوة في أول الأمر عدد قليل من الشباب .. وحين يستمع إلى المحاضرة ويتمتع بالجلوس على الطنافس والرياش وتقدم إليه المرطبات صيفاً والمشروبات الساخنة شتاء مع بعض الخلوى الفاخرة ؛ فيخرجون من هذه المحاضرة لا هجين بالثناء على مارأوا وما سمعوا وما لدم لهم من طعام وشراب . فإذا مادعت الجمعية

إلى محاضرة أخرى تضاعف عدد المستجيبين وهكذا حتى يصل الحال إلى التسابق للظفر بالجلسة الممتعة المشبعة والتي لا تكلفهم كثيراً ولا ليلًا .

حينئذ .. وبعد أن يطمئن القائمون على الجمعية إلى أن مجموعة ضخمة من الرواد قد أصبحوا أسرى هذه المتعة الحلال حتى الآن .. يبدأون - تطعيم محاضراتهم التي تدور كلها حول التفتي بالحرية وأنها أشرف ما يطلب - بلون من الحرية فيه الإغراء هو حرية الاختلاط بين الشباب والفتيات .. وتبدأ الفتيات التابعات لقيادة الجمعية في مجالسة هؤلاء الشباب ومجاذبتهم أطراف الحديث وما أسرع الشباب الذي استهوته من قبل المتعة الحلال إلى الاستجابة إلى المتعة الجديدة التي هي أشد إغراء من الطعام والشراب والتي تبدأ عادة بشيء في ظاهره في حدود الحياء والأدب ثم تتدرج حتى تصل إلى الحرام .

وهكذا يأخذ القادة «المرشدون» في التوسع في معنى الحرية بعد أن أوقعوا ضحاياهم في شرك الإثم وفقد كل منهم احترامه لنفسه ، فتتجه المحاضرات إلى العقيدة ، وتأخذ في توجيه سهام النقد نحوها ، وتبرز المتمسك بعقيدته في صورة المتعصب المتزمت ، وأن الحرية تقتضي أن يدع عقيدته جانباً حتى لا تكون هناك عوائق تعوق سبل الأخوة بين الناس من مختلف الأديان . ويلاحظ أن إقناع صرعى شهواتهم يمثل هذا لا يحتاج إلى كثير جهد ولا إلى عظيم غناء ، فتجريد الواحد منهم من عقيدته ما هو إلا إجهاز على جريح مشغن بالجراح ؛ ولذا فإن المحاضرات التي كانت تنمق بأقوى الأساليب إقناعاً تتحول بعد صرع الشباب أمام شهواتهم إلى ما يشبه التعليمات والأوامر لا تستغرق وقتاً ولا تتخللها مجاملة ، ولذا ترى خطوات الانحدار تتوالى في سرعة مذهلة لا تلبث أن ترى الشباب في نهاية المنحدر أشبه بالجثة الهامدة لأنها فقدت إنسانيتها وفقدت حتى آدميتها .

في الخطوات الأخيرة التي تتخذ مع هذا الشباب للإجهاز على ما بقي فيه من آدمية حتى يبدو أمام نفسه حيواناً أو بهيمة يمقد حفل يضم الجنسين وتقدم الخمور وتعزف الموسيقى المثيرة للأعصاب حتى تلعب الخمر بالعقول ويفقد كل الحاضرين سيطرتهم على أعصابهم ويغيبوا عن وعيهم ولا تستيقظ إلا حيواناتهم وتلفاً الأنوار . وإذا يترك للحيوانية العنان فلا يفيق الجميع إلا وقد وجد كل نفسه في حضن فتاة .

ومن الأساليب التي قد يعجز الشيطان عن ابتكار مثلها ، أنه إمعاناً في إذلال الشباب وتماديًا في الاستيلاء عليه وأسرهم وقطع صلته بالحياة وتحويله إلى آلة يسخرونها حيث شاءوا ... إنهم لا يكتفون باستعمال الفتيات التابعات للجمعية في الإيقاع بالشباب بل يكلفون هؤلاء الشبان -

تمشياً مع نداء الحرية - باصطحاب أخواتهم معهم ، فيحضرن ويمررن بالخطوات التي مر بها إخوتهم حتى يصلن إلى الحضيض الذي انخطوا إليه .

ولقد وصل الأمر إلى أن انتهت حفلة من الحفلات الصاخبة التي أشرت إلى طبيعتها الحيوانية فلما أصبح الصباح وجد أحد الشبان نفسه في حضن أخته .. ولقد سمعت بأذى قوماً أعرفهم من أهل حمى السيدة زينب يتحدثون في حزن وأسى عن هذا الشاب وأخته وما آل إليه أمرهما في تلك الليلة وكان الشاب وأخته من أهل الحمى نفسه ومن أسرة سميت أمامى .

لطبيعة خطة هذه الجمعية طبيعة جهنمية ؛ فهم يجهدون أنفسهم في محاولة جذب الشباب إلى الجمعية مرة واحدة ، ثم يتركون هذه المهمة لهذا الشباب نفسه بعد أن جردوه من آدميته ليقوم عنهم بهذه المهمة ... وقد اعتمدوا في ذلك على خطة نفسية تتلخص في أن الشاب بعد أن غروره حتى فقد آدميته يتولد في نفسه حقد على زملائه الشبان الذين لا زالوا يحتفظون بآدميتهم وإنسانيتهم وعقيدتهم ، وهو إذ يرى نفسه عاجزاً عن أن يسترد ما فقدته فإنه يحاول أن يراهم وقد فقدوا ما فقدوه ليتساووا معه .. ولذا فإن شبان الدفعة الأولى أوضحاها بالدفة الأولى يلحون بكل الوسائل على جر زملائهم من الشبان للذهاب إلى دور الجمعية متكتمين عنهم ماحدث لهم ، غير ذاكرين لهم إلا ما يفرهم بالذهاب لسماع المحاضرات والاستمتاع بالمقاعد الوثيرة والمشروبات المرطبة والحلوى الشبية دون مقابل ، ولا يزالون يغرونهم حتى يستجيبوا فينال لهم ما نال سابقهم وهكذا .

مثال لمحاولات سابقة :

ويجدر بنا أن نذكر أن الانجليز منذ أحسوا بظهور دعوات جادة في مصر أخذ الشباب يلتفت حولها ويستجيب لندائها وذلك في منتصف الثلاثينيات ، حاولوا بث أفكار معاكسة لهذه الدعوات لتمثل في دعوة الشباب إلى نوع من الميوعة مشيرين فيه نزوات الفرائز الوضيعة ، محاولين بذلك فض الشباب عن هذه الدعوات الجادة النابتة حديثاً .. وإذا كان بعض كتابنا الكبار الآن قد لبسوا رداء الجد والفضيلة فإن بعضهم كان في ذلك الوقت مطية ذلولا لترويج هذه الأفكار الدينية ، فقد كان أحد هؤلاء الكتاب يترجم كتباً كان الكتاب الواحد منها بمثابة شحنة مستوردة من الديناميت تكفى لتدمير أخلاق أمة ولم يكتف هذا الكاتب بذلك بل أنشأ جمعية أنسيت اسمها الآن ولكنني لم أنس آثارها في تخنيث الشباب وسلب روح الرجولة منه .. والذي جعلني غير ناس هذه العملية مع طول الأمد الذي انقضى على أيامها أنه كان لنا معها حديث طويل .

وبدا هذا الحديث - وأنا طالب في كلية الزراعة - بأن رأينا بعض زملائنا من الطلبة أخذوا يصففون شعورهم بطريقة مثيرة ، وأخذوا يلبسون بنطلونات ملفطة للنظر ، وأخذوا ينشرون

بين الطلبة أفكاراً تدعوا إلى التخثت وإلى مهاجمة المتدينين والداعين إلى الدين باعتبار ذلك رجعية .. وأخذت هذه الأفكار تنتشر كما انتشرت مظاهر التخثت في المظهر والملبس بين الطلبة وكان هؤلاء يحملون شارة خاصة هذه الجمعية .. فكان أن تصدينا - نحن الإخوان - لهم ، وأخذنا نبادلهم أمام الطلبة في أفكارهم ، ولكن انتشار الفساد أسرع من تقبل الحق ، فنحن كنا حين ندعو إلى الجهد كأنما نقد في صخر أماهم إذ يدعون إلى الفساد والتخثت فكأنما كانوا قد حلى بينهم وبين ما يشتهون .

ولقد كان هذا حافزاً للدعوتين الجادتين أن توحداهما في الوقوف أمام هذا التيار الجارف ؛ فوقف الإخوان ومصر الفتاة في الكلية وقفة كريمة .. وكان لي صديق من شباب مصر الفتاة في كلية الزراعة اسمه محمد محمود نصار وكان شاباً صالحاً قوياً لا يخشى في الحق لومة لائم .. فتداولنا معاً في أمر هذا الشباب الذي يزداد عدده يوماً بعد يوم ؛ تسويه الكلمات التي تخاطب فيه شهوره ؛ واستقر رأينا على خطة رجونا أن يكون فيها الحل لهذه المشكلة .

كان قد أظننا إذ ذاك شهر رمضان وكان من مقتضيات ظهور هذه الجمعية بمظهر المحقرين للدين أن يستعلن أعضاؤها بالإططار .. وكان يشد من أزور أعضاء هذه الجمعية في تحديها للدين والمتدينين أستاذ قدم من أوروبا في نفس هذا العام ، وما يوسف له أنه أستاذ مصرى مسلم .. وكنت وصديقى نصار قد استمددنا خططنا من قوله تعالى «فلما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون» فاتفقنا على أن نخطم رأس هؤلاء الداعرين المتمثلة في شخصيتين هما شخصية هذا الأستاذ وشخصية الطالب الذى يعتبر زعيم الفكرة الإجرامية .. ودخلنا قاعة المحاضرات فتمتد الأستاذ أن يشعل سيجارة وبدأ الطالب الزعيم يتناول قطعة من الشيكولاته .. وتنفيذاً للخطة تحرش نصار بالطالب يريد منعه من تناول الشيكولاته فرفع هذا صوته محتجاً على نصار ومستنجداً بالأستاذ الذى تدخل قائلاً : ما هذا التدخل في حرية الغير .. كل إنسان حر يفعل ما يشاء . فيقوم أحد الطلبة الإخوان ويقول للأستاذ : إن للحرية حدوداً بحيث لا تؤدي إلى إيذاء الغير . فيرد الأستاذ بأن هذا تعصب . فيقول له نصار : وأنت كذلك يجب أن تراعى إحساسنا وتطفىء السيجارة . فيرى الأستاذ في هذا إهانة لكرامته ويصيح بصوت مرتفع بأنه يحتقر هذا التعصب وهذا الجهل وهذه الرجعية . فيرى نفسه وقد أحاط به مجموعة من الطلبة الإخوان يؤازرهم طلبة متدينون ويتقدم نحوه نصار ويقول له : أطفىء السيجارة وإلا فستضرب ضرباً نعرف به قيمة نفسك . فيلقى بالسيجارة راعماً ويدوسها الإخوان بأحذيتهم ويخرج هارباً إلى مكتب

العميد ويطلب منه أن يحميه من فلان وفلان ويعين اسمى واسم نصار فيرسل العميد معه من يخرج منه من باب خلفي للكلية ... وفي اللحظة التي هرب فيها الأستاذ لاذ بالفرار والطلب الزعيم والطلبة يلاحقونه بالتمديد .

ومن أروع ما يسجل بالفخر والإعجاب أن العميد الأستاذ محمود توفيق الحفناوى باشا حين سمع شكوى الأستاذ قال له قبل أن يستدعينا : أنت المخطئ ، لأنك بإعلانك الإنفطار في رمضان خرجت عن حدود الأدب والخلق والذوق الذي كان جديراً أن يتحلى به أستاذ مثلك .. ولما استدعانا بعد ذلك العميد ذكرنا له مآدب عليه هذا الأستاذ من تحد للدين والعرف والخلق فأثنى على ما فعلنا وعمل على إبعاد هذا الأستاذ عن الكلية .

وكانت هذه الخطة كفيلة بالقضاء على هذه الجمعية وما أجبن الباطل إذا ما واجهه حق قوى .

وسائل الإخوان في مكافحة جمعية إخوان الحرية :

حين ظهرت هذه الجمعية في القاهرة في أثناء الحرب العالمية فهم الإخوان أنهم هم المقصودون بها ، وأنها أنشئت خصيصاً لتكون معول هدم لما يبنيه الإخوان ، وأنها سلاح ضدهم أقوى من أسلحة الهجوم والمواجهة ، وأنها تحتاج منهم إلى تخطيط دقيق لمقاومتها وإحباط خطتها ، وقد كانت خطتهم لمقاومتها تقوم على المحاور الآتية :

أولاً : أولفدوا إلى مقر هذه الجمعية مجموعة من كرام الشباب من الإخوان لاستطلاع أحوالها وجمع معلومات عن قادتها وعن مهمة كل فرد من أفراد هذه القيادة ، وتتبع خطوات هؤلاء الأفراد داخل مقر الجمعية وخارجه والإلمام باتصالاتهم والوصول من هذا التتبع إلى مصدر تمويلهم .

ثانياً : أولفدوا مجموعة أخرى من الإخوان للاشتراك في نشاطات الجمعية والتظاهر بالتجاوب مع القائمين بهذه الأنشطة - مع الاحتفاظ بأنفسهم من التلوث بحجج مختلفة - حتى يلموا بكل ما يحدث للشباب داخل هذه الاجتماعات إلماماً عن معاينة تنفى كل شك وأن ينقلوا صور ما يحدث إلى قيادة الإخوان أولاً بأول .

ثالثاً : أولفدوا بعد ذلك - وبعد أن عرفوا عن هذه الجمعية - كل شئ - مجموعة أخرى من الإخوان الأقوياء الحجة والواسعي الثقافة إلى الاجتماعات العامة للجمعية التي تلقى فيها المحاضرات باعتبار هذه المحاضرات هي المصيدة التي يقع بين فكها الفرائس من الشباب الساذج الخالي بالذهن - ومهمة هذه المجموعة هي التعرض بالنقد إلى الأفكار التي تتضمنها هذه المحاضرات ، على أن يتبادل

أفراد المجموعة - الذين يجلسون في أماكن متفرقة - هذا التمرض واحداً بعد الآخر حتى يلقوا أولاً ظلالاً من الشك على هذه الأفكار أمام الحاضرين فتزعزع ثقتهم بالحاضرين ، ثم يتدرج أفراد المجموعة في المناقشة حتى يبدأوا في كشف الأعياب الجمعية وفضحها أمام الشبان فضحاً خفيفاً فتزجل المحاضرة .

رابعاً : تكرر المجموعة حضور المحاضرة في الموعد الذي أجلت إليه وتكمل مهمتها بالمهاجمة والنقد والمناقشة المنطقية ثم العنيفة ثم يفصح الأعياب الجمعية وإفسادها للشباب البريء والقضاء على مثله وعقيدته ونشر روح الانحلال الخلقى بعد وقوعه في الشرك ... وهنا يتحدث المسئولون في الجمعية مكذبين هذه الادعاءات فيقوم فرد - هو أحد أفراد المجموعة التي تضمنها البند ثانياً - ويقف بين الحاضرين ويعرفهم باسمه وبتاريخ انضمامه للجمعية ويقص عليهم الخطوات التي اتبعتها الجمعية معه ومع زملائه لإفساد أخلاقهم وتلوين شرفهم وبث روح الانحلال العقدي والخلق فيهم وما رآه بنفسه مما اقترف مع زملائه في خلال حفلات ماجنة دبرت لهم ... وهنا تتعالى أصوات الاحتجاج على الجمعية من كل مكان ويسود الهرج ويحدث بعض التحطيم في أمتعة الجمعية ويلوذ المحاضر ومن معه من المسئولين بالهرب .

وهذه الخطوات التي أثبتنا أنها هي خطة وضعت في دار المركز العام على أنها مجرد أفكار ، غير أنها حين وضعت موضع التنفيذ جاء الواقع مصداقاً لها كأنما كانت وحياً فقد حدث كل ما تصوره واصفوها وكانت وسيلة ناجحة لإحباط نشاط الجمعية في المجال الشبابي الخطير .

خامساً : كان ظهور هذه الجمعية من أقوى البواعث على النشاط في تكوين الشعب في القاهرة فلم يمض عام إلا وكانت الشعب قد عمت جميع أحياء القاهرة . وكان الذي دعا الإخوان إلى ذلك أنهم أرادوا أن يجعلوا صوت الدعوة قريباً من الشباب في كل مكان فيقيمون بذلك تحصينات لهذا الشباب تحميه من إغراءات الفساد بمختلف صورها ، فإن أخطر شيء على الشباب أن تتركه خالي الذهن أمام الفارات الوافدة بما تحمله من مظاهر خادعة فلا تلبث أن تجد في ذهنه الخالي أرضاً خصبة تنفوس فيها وتنمو وترعرع ولا يسهل بعد ذلك نزعها بعد أن ثبتت جذورها

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

فند ذلك الحين أخذ الإخوان في تقسيم القاهرة إلى مناطق يتحمل مسئولية الإشراف على الدعوة في كل منطقة منها مجلس يكرس جهده على نشر الدعوة في منطقته وتأسيس الشعب في أنحائها ومباشرة أنشطة الدعوة في كل شعبة منها ؛ فحاضرة أسبوعية وفريق جوال لل شباب فيها ومدرسة

جمعة للأطفال بها وكتبة للصفوة ممن نصجوا من العاملين في أنشطتها حيث دراسة القرآن وحفظه مع مسابقات في الحفظ والتفسير .. ثم يقد إلى محاضرة الثلاثاء بالمركز اله'م من تسعته ظروقه فيستوعب شحنة قوية يفرغها في شعبته طيلة أيام الأسبوع .

سادسا : قام الإخوان الطلبة في كليات الجامعة والمدارس على اختلاف أنواعها بحملة توعية لإخوانهم وزملائهم جعلت هذه المعاهد والكليات مغلفة في وجه دعاة هذه الجمعية بعد أن كانت آمالهم معقودة على هذه المجتمعات الشبابية الزاخرة بالصيد السمين السهل الاصطياد - كما أن قعم العمال بالمركز العام ضاعف من نشاطه فصارت المصانع ومراكز التجمعات العالية بالقاهرة والإسكندرية في مأمن من غارات هذه الجمعية وأفكارها الخطرة الهدامة .

أثر خطة الإخوان :

إذا قلنا إن خطة الإخوان إزاء هذه الجمعية قد نجحت فليس معنى هذا أن الجمعية قد أغلقت دورها وانسحبت من البلاد ، وإنما كان نجاح الخطة في إنقاذ عنصر الشباب من بين برائن هذه الجمعية وتحصينه ضد أفكارها ومغرياتها .. وهذا العنصر هو العنصر المرجى ففساده ضياع للبلاد وقضاء على مستقبلها وصلاحه هو تأمين للبلاد ومستقبلها .. أما العناصر الأخرى الذين ظلت دور هذه الجمعية بعد ذلك تعج بهم فهم حشالة الناس مها علت مراكزهم لأنهم عبيد المادة وطلاب المنافع والمتلونون بكل لون وهذه أصناف لا يعيرهم الإخوان اهتماماً لأنهم يكثررون عند الطمع ويقلون بل يعدمون عند الفزع .

وقد ظلت الجمعية موجودة ذات دور وذات أعضاء ولكنها كسيحة تنفق على أعضائها وتهمي لهم الفرص الحرام حتى جاء من بصق عليها بصفة واحدة فذابت في التو واللحظة وصارت كأن لم تكن .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

(٣) إعلان الحرب على الجريدة اليومية

لا أعتقد أن عناصر النجاح لمشروع لإنشاء جريدة يومية توفرت من قبل أو ستوفر فيما بعد ، كما كانت متوفرة لإنشاء جريدة يومية للإخوان المسلمين ... فالمال متوفر حيث جوب الإخوان أغنياء وفقراء مفتوحة للمشروع لا تغلق دونه ، والثقافات المختلفة التي يحتاج إليها التحرير والطبع

والإعلان واستقاء الأخبار متوفرة ومتوثبة للعمل تطوعاً أو بأجر زهيد .. وجمهور المشترين الذى يعتبر شراء هذه الجريدة عبادة كالصلاة والصوم جمهور ضخم تزخر به أنحاء البلاد فى كل مدينة وفى كل حى وفى كل شارع وفى كل قرية مهما نأت عن العمران .

وإذا كان فرد من أسرة «تقلا» قد استطاع أن ينشئ جريدة يومية هى «الأهرام» وتمتحن من إصدارها مائة عام . وإذا كان فردان هما مصطفى أمين وعلى أمين قد استطاعا أن ينشئا جريدة «الأخبار» وأن يستمرا فى إصدارها أكثر من عشرين عاماً .. وتجد هذه الصحف مكانها فى كل بيت تقريباً ... أفلا تستطيع أقوى هيئة فى مصر وأعظم هيئة تنظيمياً أن تصدر جريدة يومية وأن تكون حتى فى مستوى جرائد الأفراد ؟ .

لم يفكر الإخوان المسلمون فى إصدار جريدة يومية إلا بعد أن اطمأنوا إلى توفر جميع إمكانيات نجاحها على أعلى مستويات النجاح ... كان ينقصهم الأرض التى ينشئون عليها دار الجريدة فاشتروا قطعة أرض فى قلب القاهرة تزيد مساحتها على نصف فدان ، ووضع أكبر مهندسى معمارى فى مصر الدكتور سيد كريم تصميم البناء المكون من اثني عشر طابقاً . ولقد رت تكاليف إنشائه ، وأسست شركتان مساهمتان إحداهما لإنشاء المطبعة والأخرى لإصدار الجريدة وجمع المال ، وخاطب المسئولون فى شركة الطباعة أكبر شركات أوربا لعرض ما عندها من أحدث نماذج المطابع .. ولما كان إنشاء الدار وورود المطبعة يستغرق أكثر من عام فقد روى إصدار الجريدة مؤقتاً فى مطبعة كبيرة اشترت من داخل البلاد ريثما يتم البناء وتصل المطبعة الحديثة من الخارج .

لما الذى حدث بعد ذلك وهل نجح المشروع ؟ ؟

إن الإجابة على هذا السؤال مأساة تاريخية .. وإنها جريمة ضد هذا الشعب أن تخفى حقيقة المأساة عن هذا الجيل المحبى عليه والذى نشأ فى ظل الظلام .. فإن تعريف هذا الجيل بهذه المأساة سيفتح عيونه على حقائق مرعبة ، وسيكون فى استطاعته بعد ذلك أن يقيم كمكثيراً من عناصر التاريخ المخفاه عنه أو المزيفة عليه ...

حتى نحن الذين كنا نعيش وسط المعارك فى ذلك الوقت ، وكنا نعتقد أننا أصبحنا - بعد أن عركتنا الأيام - أدرى الناس بالناس المعاشين لنا ، وكنا نعتقد أننا قد أحطنا بكل الظروف المحيطة بنا ، وبالألاعيب والمؤامرات التى يمكن أن تحاك ... حتى نحن قد فوجئنا بما أذهلنا وسلب ألبابنا وكاد أن يقذف اليأس فى نفوسنا .

لقد كان إصدار الجريدة اليومية تجربة لا أقول قاسية بل إنها ألقى تجربة مرت بنا .. إنها جرحت قلوبنا وقهرت نفوسنا وكشفت لنا أن أعداء الإسلام أقوى مما كنا نعتقد وأكثر مما كنا نظن ... وأقنعنا بأننا كنا مصرين في حسن الظن .

يبدو أن الإنجليز - وهم المخططون لكل مؤامرة وإن عهدوا بتنفيذها إلى صنائعهم - كانت نظرهم إلى مشروع الجريدة اليومية على الوجه التالي :

قالوا لأنفسهم ولصنائعهم : إذا كان الإخوان وهم يعدمون وسائل النشر والإعلام إلا الكسبح منها قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه من القوة حتى اكتسحوا الميدان السياسي متخطين كل ما ألقى في طريقهم من عقبات ، فكيف إذا تولرت لهم أقوى وسائل النشر والإعلام وهي الجريدة اليومية ؟ ! .. إذن لقصوا على كل معارض ولسحقوا منافسيهم سحقاً ولملكوا زمام الحكم لا في مصر وحدها بل في العالم العربي بل ولحققوا أمنيته في إحياء الخلافة الإسلامية ... إذن فلنحل بكل وسيلة مشروعة وغير مشروعة بينهم وبين الإفادة من هذه الجريدة اليومية .

وسائلهم في محاربة الجريدة اليومية :

لم يتورع الإنجليز وصنائعهم عن استخدام ألد الأساليب في محاربة هذه الجريدة ... وقد استفرغوا جهدهم في سبيل تحقيق الفكرة التي استبدت بعقولهم، وهي أن حرمان الإخوان من هذه الجريدة هو آخر سهم في جعبتهم لوقف المد الإخواني الجارف .. وقد أخذت وسائلهم في الحرب الصور الثلاث التالية :

أولاً : حرب التحرير

كان في أوساط الإخوان من الكفاءات النادرة ما يكفي لتحرير جميع أبواب الجريدة بأوفى ما تحرر به الصحف خبراً ومقالة وأسلوباً وتعليقاً .. إلا أننا نعلم أن الناس قد ألفوا أسماء معينة يسعدهم أن يقرأوا لها ، وإذا رأوا مقالا مهوراً بتوقيع واحد منهم اعتقدوا أن في هذا المقال من الائتنان ما يشبه الوحى في الوقت الذي قد لا يكون فيه ما يستحق أن يقرأ ... وقد عرضت هذه الفكرة على الأستاذ المرشد فأيدها وسألني عن اختار من الكتاب المرموقين ليكتب عندنا ، فاقترحت اسم الدكتور محمود عزمى ... وكان الدكتور محمود عزمى في ذلك الوقت صحفياً مشهوراً ليس له لون حزبي وكان يعد أعظم المعلقين السياسيين في مصر وكان يكتب تعليقاته في أكثر من جريدة

فوافق الأستاذ المرشد على التراجع وانتدب أحد الإخوان الذين يعرفونه للاتفاق معه على أن يكون المعلق على الأنباء السياسية بجريدة الإخوان وله أن يقدر أتعابه كما يشاء... وكنا واثقين أنه سيسارع مستجيباً لا سيما والجريدة مضمون توزيعها من أول عدد على أوسع نطاق كما أننا تركنا له تقدير أتعابه بنفسه ولكن المفاجأة المذهلة كانت حين جاء الرسول ليقول : إن الرجل يطلب مهلة قبل أن يعطى الكلمة... وانقضت المهلة فكان جواب الرجل «الاعتذار»... والترح غيرى من الإخوان أسماء أخرى واتصلوا بهم بعروض سخية فكانت أجوبتهم «الاعتذار» وبدأنا حينئذ نحس كأن يدأ خفية تمتد في الظلام برسائل طوالة الكتاب وحين يقرأها الكتاب يحجمون ويعتذرون . وقلبنا مع الأستاذ المرشد الأمر على وجوه فخرنا بهذا التصور الذى أيا سنا من فئة الكتاب الصحفيين المحترفين . وجلسنا مع الأستاذ المرشد نستعرض عدة أسماء ننتقل من اسم لآخر من غير المحترفين ولا نجد فى أنفسنا الجرأة لمناقشة أى منهم لما نعلم من نواحي ضعف فى كل منهم قد توفيقهم معنا موقف الصحفيين المحترفين ...

وأخيراً عطر لى خاطر شمت فى انبلاجه فى خاطرى نور الأمل يشق ظلمة اليأس التى أحاطت بنا ، فقلت : يا أستاذ حسبنا ما نالنا من غيبة أمل حين اتجهنا إلى الغرباء نلتبس عندهم العون ، فلندع الغرباء جانباً ولنتجه إلى من تربطنا بهم وشائج المبادئ وروابط الوطنية . قال : ومن تقصد إذن ؟ قلت إن الحزب الوطنى هو أقرب الوطنيين إلينا ونكاد نعتقد أنه جزء من دعوتنا ، كما يحس أعضاؤه بأنهم كذلك منا ، وحافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى شخصية صارت فى الأيام الأخيرة من الشخصيات ذات الشهرة فى الأوساط المختلفة.. وإذا قرأ الناس له فى جريدتنا فيسكون ذلك عاملاً من عوامل إقبالهم عليها .. وبينك وبين الرجل صلة قوية ، ولا إخاله إذا كلمته إلا مسارعاً إلى الكتابة لا سيما والحزب الوطنى ليس له جريدة تنطق بلسانه .

فتهلل وجه الأستاذ المرشد ، وكأنه وقع على طلبته التى كان يفتردها ، وأمسك بالتليفون وطلب حافظ رمضان باشا فرد عليه وتبادل معه التحيات والأشواق والأستاذ يتشم ثم أخذ يفاتحه فى الموضوع الذى اتفقنا عليه .. وسرعان ما اختفت الابتسامه من وجه الأستاذ ولاحظنا أن حل محلها تقطيب يشعر بالألم وينم عن الغضب .. وأنهى الأستاذ المكالمه ووضع التليفون وتهد طويلاً وقال بصوت متهدج كأنما خرج مهزوماً من معركة :

وزهدنى فى الناس معرفتى بهم وطول إختبارى صاحباً بعد صاحب
فلم ترفى الأيام خلا تسرفى مبادئه إلا ساءنى فى العواقب

لفهمنا ما حدث ، وأطرفنا جميعاً ذاهلين لا ندرى ما نقول ولا ندرى ما نفعل وطال صمتنا حتى قطع الصمت صوت الأستاذ المرشد يقول :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحمام المهنسد حافظ رمضان الذى كنا ندعوه لخطير الأمور ... يتخاذل حين نطلبه لكتابة مقال في جريدة الإخوان ؟ ! ما هذه المفاجآت ؟ ! وبمن نثق بعد ذلك ؟ ! ... هل جريدة الإخوان غول مخيف يبعث الرعب في قلوب الصحفيين ؟ ... كلهم خافوا منها ... حتى حافظ رمضان ؟ ! يا حسرة على العباد .

قلت : يا أستاذ ... إن حافظ رمضان بعد أن دخل الوزارة — خارجاً على سنة أسلافه من رؤساء الحزب الوطنى — قد صار فى عداد عبيد القصر ... ولا بد أن الملك — وهو فى نظرهم واهب القوى والقدرة — قد أوحى إلى عبيده جميعاً بمقاطعتنا .

وإذ ذكرنا هذه المواقف المخزية حتى من رجال كنا نعددهم من الأبطال ، فينبغى أن نذكر بالفخر والإعجاب موقف الأستاذ محمد الشافعى اللبان الذى استجاب وحده لنداء الأستاذ المرشد وصار بكل شجاعة يوالى الكتابة في الجريدة مع أنه كان من كبار الموظفين الحكوميين .

ثانياً : حرب الإعلان :

من المعروف أن أهم مورد تعتمد عليه الصحف لتعويض مصروفاتها هو أجور الإعلان ، ذلك أن التوزيع مهما اتسع نطاقه فإن إيراده لا يفي بما صرف ... ولهذا تبذل الصحف قصارى جهدها في الوصول بتوزيعها إلى أرقام مثيرة حتى يكون ذلك مغرياً للمعلنين أن يعلنوا عن منتجاتهم فيها ... وأكثر الصحف إعلانات هي أغناها وأكثرها مورداً ، وأقل الصحف إعلانات هي أفقر الصحف ويعتبر هذا تدير إفلاسها .

وجريدة كجريدة الإخوان المسلمين اليومية ، سبق إصدارها دعوية واسعة واستقر في أذهان الناس جميعاً في مصر وفي خارج مصر أن توزيع هذه الجريدة على أوسع نطاق مضمون بضمها الفروع والشعب المنتشرة في كل مكان .. كان مفروضاً أن تنال عليها طلبات الإعلان لأن دوافع المعلنين إلى الإعلان فيها مكتملة ... ولهذا كان من أوائل ما اهتمت به إدارة الجريدة قبل إصدارها أنها أنشأت إدارة للإعلان على أعلى المستويات . وقد تكونت هذه الإدارة من فئتين : فئة ذات خبرة سابقة وفئة لا خبرة لها ولكنها تأنس في نفسها ميلا واستعداداً لهذا النوع من العمل

أما الفئة ذات الخبرة السابقة فإنها عناصر كان لها مكان مرموق في صحف أخرى ولكنها تركت مكانها ، وضحت بما يدره عليها من إيراد استجابة لنداء من ضميرها بوجوب وضع خبرتها في خدمة أول صحيفة يومية إسلامية كان إصدارها أملاً عزيزاً طالما تالت إليه نفوس المؤمنين ولكنه كان بعيد المنال .. أما وقد تحقق فلا أقل من تجنيد الخبرات له ... وإذا ذكرنا هذه الفئة فيجدر بنا أن نذكر بالثناء والتقدير الأستاذ عبد المجيد وافي الذي كان إذ ذاك الشاب الأزهرى الموهوب الذى كان آية في فن الرسم ، والذي كان دعامة في جريدة الأهرام لتركه مكانه فيها وقدم نفسه وموهبته وخبرته في خدمة الجريدة الناشئة ضارباً بما عرضته عليه جريدة الأهرام من إغراء ماذى عرض الحائط لأنه اعتبر انتقاله هذا واجباً عليه عليه الضمير ويفرضه عليه الدين .

وأما الفئة الأخرى التى تكوّن منها إدارة الإعلان وهى فئة لم يكن لها سابق خبرة ولكنها تألّس في نفسها استعداداً فكان نواتها أخ كريم كان إذ ذاك حديث التخرج في كلية التجارة وقد أعرض عن وظائف الحكومة وجاء مسارعاً إلى قسم الإعلان بالذات في الجريدة ذلك هو الأخ الكريم الأستاذ محمود عساف .

وصمت إدارة الإعلان أيضاً مجموعة من الإخوان الشباب من ذوى الكفاءات المختلفة ، وكانت مجموعة المندوبين مثالا للنشاط واللباقة ، وهى المجموعة التى ينتشر أفرادها في مختلف أنحاء القاهرة للحصول للجريدة من أصحاب المتاجر والمصانع والشركات على عقود للإعلان مدداً يتفق عليها ... وقد ابتكر الأستاذ محمود عساف عدة ابتكارات في عالم الإعلان كشفت فعلا عن مواهبه وقدراته كما أن الأستاذ عبد المجيد وافي أتى بالنعجب العجيب في إبراز فكر الأستاذ محمود عساف بالرسم .

وقد فصلت بعض التفصيل في ^أ الإعلان وتكوينها وشخصياتها لا بين للقارئ إلى أى مدى كان الاهتمام بالإعلان وإلى . هذه الجريدة إمكانيات النجاح في عالم الإعلان بل إمكانيات الاكتساح في هذا الميدان ... وإذا كان تزويد إدارت الإعلان في مختلف الصحف اليومية بالكفاءات مرهونا بما تغدقه الصحف من أموال فإن جهاز الإعلان في جريدة الإخوان قد اجتمع له ما لم يجتمع لصحيفة يومية من الكفاءات القادرة لم يجمعها إلا دافع من القلوب ونداء ملؤه الإخلاص والتفانى .

تحرك جهاز الإعلان وهو يجمع في يديه كل مقومات النجاح وبذل أكرم الجهود وواصل

الاتصال بالشركات والمصانع والتاجر عارضاً عليهم تصميمات مبتكرة ذهل لروحها كل من وآما ، متساهلا في الأمر حتى يتم الإغراء ... ولم يستطع مسئول واحد في كل هذه الجهات أن يظهر عيباً في تصميم أو يلاحظ نقصاً في ابتكار أو حتى أن يكتم إعجابه بما عرض عليه من تصميمات أو أجور ، ولكن المفاجأة كانت في الخصيلة الضئيلة لهذه الجهود ... كانت الخصيلة عقوداً من متاجر تربطها بالإخوان وشائج ، أما المتاجر الكبيرة والمصانع المصنعة والشركات ذات الثراء فقد ولقت موقف الإحجام دون سبب ولا مبرر ، فقد أكثر «المتدبرون» من التردد عليها يطلبون من المسئولين فيها مجرد إبداء الأسباب .. فلم يحفظوا بجواب .

هبت أجهزة الإخوان بوسائلها المختلفة بحثاً وتقيباً وراء السر الدفين لهذه الظاهرة العجيبة وانتهى البحث بالوصول إلى السر ... وكان السر يكمن في دار السفارة البريطانية التي كانت تقبض بإحدى يديها على دفة الاقتصاد المصري كما كانت تقبض بيدها الأخرى على دفة السياسة المصرية ، فقد كانت أكثر الشركات الكبرى والتاجر الرئيسية ملكاً للأجانب . كما كان القصر الملكي وما يتبعه كما كانوا يسمونه وزارات واجهة مصرية للسفارة البريطانية .

شركة الإعلانات الشرقية :

ولما كان الإنجليز يقدرون مدى خطورة القلم الحر على سياستهم الاستعمارية ، وكانت سياستهم تبنى دائماً على عدم المواجهة ، فقد وضعوا خطة لإخضاع الصحف لسلطانهم بمهاجمتها من من الخلف عن طريق التحكم في مصادر الإعلان ... ولم يكتفوا بأن أكثر الشركات والتاجر ملك لهم بل وحدوا المصعب الذي نصب فيه الاعلانات من أى مصدر من المصادر حتى ولو كان المصدر مصرياً في شركة للإعلان أنشأوها وجعلوها فرعاً في مصر لوزارة المستعمرات البريطانية وأطلقوا عليها زوراً وبهتاناً وتضليلاً اسماً هو براء منها هو «شركة الإعلانات الشرقية» وهي الشركة التي كان كل العاملين فيها من رجال الخبايا البريطانية ومن مدبري المؤامرات من دهاقين اليهود . والتي حيكت بين جدرانها وفي مكاتبها كل المؤامرات الإجرامية ضد الشعب المصري وإن كان الذين تطوعوا لتنفيذها -سوف-مصريين من أغرتهم مناصب الحكم وأعاهم الذهب البراق عن الحقيقة فباعوا أنفسهم لمن سخروهم لتدمير أهلهم وبلادهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

ولكى أتق بعض الضوء على هذه الشركة حتى تتضح للقارئ حقيقتها سأكتفي بإيراد فقرات من مقالات نشرت في إحدى صحف الوفد في ٢٢ حتى ٢٤ مارس سنة ١٩٤٧ أيام كان الوفد خارج الحكم تحت عنوان «صحف شركة الإعلانات الشرقية وحقوقنا الوطنية» :

«دأبت الصحف التي تصدر في مصر بلفات أجنبية عن شركة الإعلانات الشرقية على تعدي الشهور الوطني المصري والسوداني ، فطالعتنا جريدة «لا بورص إيجيشيان» أول أمس بمقال التناحي فندنا مزاعمه في عدد أمس وعدنا إليه اليوم في مكان آخر . وخرجت علينا «الإيجيشيان جازيت» مساء أمس بخطاب مفتوح إلى المصريين من زعم نفسه صديقاً لمصر وسرد عليه غداً .»

«والمستول عن صحيفة» «لا بورص إيجيشيان» هو «جان ليجول» وقد اتفق أخيراً مع الصهيونيين على العمل معهم في فلسطين ، وسيشد رحاله بعد قليل إلى هناك ليقوم بدوره في محاربة قضية العرب العادلة بعد أن أدى دوره في مصر في محاولة النيل من قضية مصر ومعاضدة الاستعمار البريطاني في استغلالنا والوقوف حجر عثرة في طريق تقدمنا »

«كشفنا الستار في عدد أمس عن الألبان «جان ليجول» داعية الاستعمار والصهيونية . وهو الذي ظل طوال مدة الحرب ينفث سمومه من أبواق «شركة الإعلانات الشرقية» التي يتولى إدارتها العامة «هنري حاييم» الصهيوني تحت إشراف ضباط انتدبتهم القيادة العليا البريطانية بدعوى مراقبة تحرير صحيفتي «الاجيشيان جازيت» و «الاجيشيان ميل» اللتين تصدران باللغة الإنجليزية»

ومن المولم حقاً أن نقول : إن الصحف التي كانت تصدر في مصر في ذلك الوقت - مهما اختلفت أسيادها وانتسبت في ملكيتها وتحريرها إلى أحزاب مصرية أو إلى أشخاص مصريين فإنها جميعاً في حقيقتها لم تكن إلا نشرات تصدر عن شركة الإعلانات الشرقية ، فللكتاب في كل صحيفة منها أن يكتبوا ما يشاؤون ولكن في نطاق حددته لهم هذه الشركة ، وهم يلزمون بالطاعة والامتثال لأنها تستطيع أن تقطع عنهم أجورهم بحرمان جريدتهم من الإعلانات ... ويلاحظ أن الجريدة الوفدية التي نقلنا فقرات من مقالاتها في شأن هذه الشركة كانت تعاني أزمة إعلانات لأن سياسة الوفد في ذلك الوقت كانت تقضي بمهاجمة الإنجليز .

ولو أن جريدة أخرى غير جريدة الإخوان قد اتبعت معها هذه الطريقة الجهنمية لأغلقت أبوابها من أول يوم ، ولكن جريدة الإخوان استطاعت أن تواجه هذه الحرب الشواء لأن الإخوان كانوا يعتبرونها جزءاً من حياتهم فرصدوا لها ما يقيم أودها ويسد ثغراتها .

وقد يضطر لسائل أن يسأل : ألم يكن الإخوان - وهم ذوو خبرة بالواقع الألم ليبلادهم - يتوقعون هذا المؤلف الذي وجهوا به قبل أن يواجهوا به ؟ والجواب على هذا هو أن الإخوان كانوا حقاً يتوقعون الكثير من الإنجليز وأذناهم ، لكنهم لم يكونوا يتوقعون أن تصل الخسة بهم إلى

هذا الحد ، كما لم يكونوا يتصورون أن لشركة الاعلانات الشقية عن السيطرة على مصادر الإعلان هذا القدر الذى تستطيع به وقف الصحف من الصدور إذا شئت وقفها .

ثالثاً - حرب التوزيع :

دأب الإخوان منذ أول عهدهم بإصدار مجلات تنشر أفكارهم على توزيعها بأنفسهم عن طريق التسليم باليد في القاهرة ، وعن طريق البريد في الأقاليم حيث يرسلون إلى كل بلد بها شعبية كمية من كل عدد ، حتى إذا وصلت الكمية إلى الشعبة تولت توزيعها على أعضائها ، وتجميع المتحصل من بيع المجلة وترسله إلى المركز العام عن طريق البريد أو عن طريق أحد أعضائها المسافرين ... وبهذه الطريقة كانت توزع كميات كبيرة من المجلة قد لا تحظى بمثلها بمجلات مشهورة في مصر في ذلك الوقت .

لكن هذه الطريقة لا تصلح لتوزيع جريدة يومية أخص خصائصها أنها - بما تحوى من أنباء وتعليقات - هي بنت يومها ، فإذا فات يومها فقدت قيمتها وعادت قصاصة من ورق قد تصلح لأشياء مختلفة لكنها لا تصلح للقراءة... ومعنى هذا أن إصدار جريدة يومية يقتضى أن تصل نسخها إلى القارئ - مهما بعد مكانه - في نفس يوم صدورها بل في نفس ساعة صدورها إن كان ذلك ممكناً ، ولا يتأتى هذا إلا بجهاز متخصص للتوزيع مزود بجميع الوسائل الحديثة وله مراكز تابعة له في كل محافظة ومدينة وقرية .. وقد تمرست بهذا العمل شركات قليلة العدد .. وقد فهمنا أخيراً أن هذه الشركات كانت تنتهى جميعاً إلى يد واحدة .

وكان على جريدة الإخوان أن تتعاقد مع إحدى هذه الشركات . وقد تعاقدت فعلاً ، وكانت سيارات هذه الشركة تحمل قبل فجر كل يوم نسخ الجريدة وتأخذ مسارها مع الجرائد الأخرى كالأهرام والأخبار والمصرى وتصل معها إلى كل مكان في القطر ، ومن مراكز التوزيع تسلم إلى الموزعين أى باعة الصحف .

ولم يكن قراء الصحف في تلك الأيام بالكثرة التى نراها الآن ، فكان على الموزعين أن يبذلوا جهوداً لإغراء الناس بشراء الصحف حيث يرتبط دخل الموزع بالعدد الذى يوزعه .

والمفاجأة التى أذهلت الإخوان في هذا الميدان أنه في مساء كل يوم كانت تصل إلى إدارة جريدة الإخوان في القاهرة مرتبجات بالآلاف ويصل معها في نفس الوقت أضعاف عدد هذه المرتبجات شكواى من الإخوان في كل مكان بأن الجريدة لم تصل إليهم .. فتتصل إدارة الجريدة بشركة التوزيع لاثثة نظرها إلى هذه المفارقات فتقوم شركة التوزيع بإطلاع مندوب الجريدة على

كشوف التوزيع التي توضح أن الجريدة تصل إلى جميع الموزعين في كل مكان من القطر ... وصارت هذه الظاهرة تتكرر كل يوم .

وكشف الإخوان السر العجيب .. فأتضح أن الشركة - شركة التوزيع - توصل الجريدة إلى الموزعين فعلا - حتى تكون أمام القانون منفذة بنود العقد - ولكنها في نفس الوقت ترسل عن طريق مندوبيها تهديدا شفوياً إلى كل موزع بأنه إذا أظهر جريدة الإخوان ووزعها فسيكون عرضة للاستغناء عنه وإبداله بغيره ثم أتبعته الشركة التهديد بإغراء مؤداه أن تعطى للموزع مكافأة تتناسب مع عدد النسخ التي يحبسها عن التوزيع من هذه الجريدة .

وقد أثبتت وأنا بالقاهرة بهذا الكشف العجيب إلا أنني لم أكد أصدقه - لتجاوزه حدود التصور - حتى ذهبت إلى بلدق رشيد لقضاء فترة من الصيف فيها فرأيت الإخوان يشكون من الشكوى من عدم وصول الجريدة إليهم إلا أعداداً قليلة جداً .. وكان لي على موزع الجرائد في رشيد أياذ تجعله دائماً مسارعاً فيما يرضيني، وكان يعلم أن من أوائل ما يرضيني أن يوافيني في منزلنا بالجريدة في صبيحة كل يوم طيلة فترة إقامتي برشيد فلاحظت أنه يحضرها يوماً ويتخلف عن إحضارها أياماً فشددت عليه الطلب حتى أخرجته ثم أذرتة فبكى الرجل وأخذ يفضي إلى بما هو واقع تحت طائلته من أسلوب التهديد والإغراء من شركة التوزيع ، واعترف لي بأنه يحاول أن يحبس النسخ كلها عن التوزيع لولا خوفه من بطش بعض الإخوان فيكتفى بتوزيع بعض النسخ ويرد إلى الشركة الباقي وهو معظم ما يرد إليه كل يوم ، وأنه يستفيد مادياً من جريدة الإخوان بهذه الطريقة بأكثر مما يستفيدة من توزيع الجرائد الأخرى مجتمعة .

لم يقف الإخوان أمام هذه المؤامرة مكتوفي الأيدي ، وإنما حاولت كل شعبة بجميع الوسائل انتزاع نسبة لا بأس بها من نسخ الجريدة من الموزعين بحيث يحصل معظم الإخوان على نسخ منها . لكن هذا الأسلوب وإن كان قد أَرْضَى شوق الإخوان إلى مطالعة حريتهم إلا أنه لم يحقق الأمل الذي كان يرتقبه الإخوان من إصدار جريدة يومية تصل إلى أيدي غيرهم من الشعب قبل أن تصل إلى أيديهم ، لأنها عن هذا الطريق وحده كانت ستغزو بأفكارهم - غزواً يومياً - ميادين فسيحة شعبية ضخمة ليس من اليسير غزوها بطريقة أخرى .

النتيجة :

بهذه الحرب الضروس الثلاثية الشعب استطاع التحالف الإجراءي أن يقضي على جريدة الإخوان اليومية ... نعم إن الجريدة لم تحتجب ولم تتوقف عن الصدور ، إلا أنها فقدت قيمتها التي أنشئت

من أجلها ، وأصبحت أشبه بنشرة خاصة تصدرها مجموعة من الناس لنفسها .. وقد أدى هذا إلى التوقف عن المضي في مشروع بناء دار المطبعة والجريدة الذي أشرنا إليه ... فقد برزت بظهور الجريدة في ثوبها المؤقت عوامل لم تكن في حساب الإخوان وهي المؤامرات الثلاث التي أومأنا إلى طرف يسير منها .. وكان التعقل والروية يقضيان بإعادة النظر في هذه المشاريع وإعادة صياغتها من جديد على ضوء هذه العوامل .

وكانت النية متجهة إلى التخطيط الذي أساسه عدم الاعتماد على الغير في أية جزئية تتصل بالجريدة من قريب أو من بعيد ، فبدأ أولاً بغزو إخواني مكتب ميدان الإعلان بإنشاء شركة له ثم اقتحام ميدان التوزيع بإنشاء شركة أخرى له . وعندما يتمكن الإخوان من هذين الميدانين يبدأون في مشروع المطبعة والجريدة ... وقد بدأ الإخوان فعلاً اقتحام ميدان الإعلان فأنشأوا مكتباً للإعلان في الإسكندرية في ميدان المنشية ، وخطا هذا المكتب خطوات موفقة كانت مبشرة بنجاح كبير .

ولم يكن الإخوان عاجزين عن دخول هذه الميادين بل والسيطرة عليها فلديهم كل مقومات النجاح ولقد بدأوا قبل ذلك بقليل مشروعاً لا يقل أهمية عن هذه المشاريع وهو إنشاء المدارس الخاصة وبدأوه في الإسكندرية أيضاً ونجح نجاحاً باهراً ... ولكن هذا النجاح وما يعرفه المستعمرون من مقدرة الإخوان على إحراز النجاح في الميادين الأخرى التي أشرنا إليها والتي احتكروها لأنفسهم باعتبارها المؤننة لقبضتهم على عنق البلاد ، كل ذلك جعلهم يمحكون خيوط مؤامرة جديدة حاكها أيديهم الخفية ونفذتها العقول الغبية والأيدي الملوثة حتى يوقفوا المد الإخواني المكتسح قبل أن يصل إلى هذه الميادين .

(٤) الفتنة الثالثة

أو الاقتحام إلى البناء الداخلي للدعوة

عانيت الكتابة في هذه المذكرات حتى الآن عن فتنتين ، وهأنذا أبدأ المعاناة في الكتابة عن فتنة ثالثة . ولقد عبرت عن الكتابة في هذه الفتن بالمعاناة لأن الكتابة فيها تمضن النفس وتجرح القلب وتكاد تقطع نياط الفؤاد ، فكل ما ينال الدعوات من أذى خارجي لا ينفذ إلى داخلها هو أذى تتحمله نفوس المؤمنين لأنه سحابة صيف عن قريب تقشع ، والعزاء فيه للمؤمنين أن بناءهم الداخلي رصين متماسك ، أما إذا كانت المصيبة في البناء الداخلي نفسه فهي المصيبة التي لا عزاء فيها ، ولا

أمل في إجتيازها أو الخروج منها إلا أن تمتد إلى البناء يد القدرة الإلهية فتحفظه من الانهيار .

وإذا كانت عوامل الفتن تنشأ في الدعوات بنشوتها ، فإن هذه العوامل تكبر وتستعمل بنمو الدعوات واتساع نطاقها ، وإذا كانت محاصرة الفتن - والدعوات لا تزال محدودة الانتشار - أمراً سهلاً وميسوراً فإن محاصرتها والإحاطة بها إذا اتسع نطاق الدعوات ليس بالأمر السهل ولا الميسور لأن الفتن تكون في هذه الحالة متشعبة ضاربة بشعبها وشطائياها في كل اتجاه .

وقد وصلت دعوة الإخوان المسلمين في الزمن الذي نحن بصدد الحديث عنه من سعة الانتشار واتساع النطاق إلى الحد الذي أشرنا إليه آنفاً ، والذي صارت بسببه هدفاً تراش السهام له من كل جانب وتوجه نحوه من كل اتجاه ، وصارت وقايتها هذه السهام أمراً متعذراً أشد التعذر .

ومعالجة الحديث عن هذه الفتنة تتطلب الإلمام بطرف مما يتصل بالشخصيات التي كانت محور رحاها . وفيما يلي سنحاول بإذن الله إلقاء شعاع من الضوء على هذه الشخصيات :

الدكتور إبراهيم حسن : طبيب نابه ، من أسرة تنسب إلى الصولية في الشرقية . اتخذ له عيادة في حي السيدة زينب قبالة المدرسة السنية على مقربة من دار المركز العام في شارع الناصرية ... اتصل بالدعوة في القاهرة في وقت مبكر ، وعقدت في عيادته اجتماعات هامة . وقد عينه الأستاذ المرشد وكيلاً للدعوة ، وهو رجل هادئ الطبع ، ولا أذكر الآن كيف تعرف على الدعوة ولكن يتخيل إلى أنه تعرف عليها عن طريق عبد الحكيم عابدين الذي كان إذ ذاك حديث التخرج في كلية الآداب - والذي رجح عندي أن يكون تعرفه عن طريق عبد الحكيم أن عبد الحكيم كان أكثر الإخوان اختلاطاً به حتى إن أكثر وقته كان يقضيه في عيادته .. ومجال نشاط الدكتور إبراهيم في الدعوة كان محدوداً حيث تغلب عليه النزعة الصولية كما أن عمله الخاص كان يشغل أكثر وقته وقد ظل يشغل منصب الوكيل العام في الدعوة حتى نزع إلى القاهرة الأستاذ أحمد السكري فقلده هذا المنصب وصار الدكتور إبراهيم الوكيل الثاني .

الأستاذ أحمد السكري : شامت الألقاب أن أتعرف على الأستاذ أحمد السكري في منزلنا برشد .. فبعد أن اتصلت بالدعوة في القاهرة في سنة ١٩٣٦ ذهبت إلى رشيد لألقى رداً من الإجازة الصيفية بها .. وفي خلال هذه الفترة زارنا بالمنزل زائر كريم - وكان منزلنا في ذلك الوقت مثابة الطارئين على رشيد من كرام رجال العلم والدين من الموظفين - وكان هذا الزائر موضع

تكريم وإعزاز من والدي وعمي . وقد كان والدي حريصاً على تعريفني به ... وكان هذا الزائر الكريم هو الأستاذ أحمد السكري .

وقد قص على الأستاذ أحمد القصة التي بسببها وجد في رشيد ، وهي تتلخص في أنه - وهو من كرام أهل المحمودية - أنشأ جمعية دينية في المحمودية أحست الأسرة التي كانت تهيم على البلد بأن وجود هذه الجمعية ينتقص من هيمنتها ، فأخذت هذه الأسرة في العمل على إحباط هذه الجمعية وفرض الناس عنها فلما لم تجد لجهودها في هذا السبيل أثراً عملت على حرمان الجمعية من منشئها ومحور الحركة والنشاط فيها ببذل الجهد في نقله من المحمودية .. ولما كان الأستاذ أحمد في ذلك الوقت يعمل سكرتيراً للمدرسة الابتدائية بالمحمودية فقد أسفرت جهود هذه الأسرة مع جهود مضادة من قبل الأستاذ أحمد عن نقله إلى رشيد سكرتيراً لمدرستها الابتدائية ... وفهمت من الأستاذ أحمد أنه مع هذا النقل لم يلق السلاح فصلته بالمحمودية لم تنقطع وإشرافه على الجمعية مستمر ولا ينقضي أسبوع حتى يكون بالمحمودية .

وحتى تلك اللحظة التي أتم فيها سرد قصته هذه على لم أكن أعلم عن صلته بالأستاذ حسن البنا كما أنه أيضاً لم يكن يعلم عن صلتني به .. وباعتباري من دعاة الإخوان المسلمين رأيت من الواجب على أن أقدم إلى الأستاذ أحمد دعوة الإخوان المسلمين لا سيما وقد لمحت فيه غيرة إسلامية جارية وهمة عالية فأخذت أتحدث إليه عن الدعوة وأشرح له جهودنا الإسلامية في الجامعة .. وقد لاحظت في أسرار والدي وعمي في أثناء حديثي إعجاباً بهذه الدعوة - ولم يكونا قد سمعا عنها من قبل - وكنت أتوقع أن أرى وأسمع من الأستاذ أحمد مثل هذا الإعجاب ولكنني سمعت منه غير ما كنت أتوقع ... سمعت منه تهوينا من شأن الدعوة وقائلها بأسلوب يشعر بالسخرية والاستعلاء ، فيقول وهو يبتسم «مش الشيخ حسن . ؟ دا كان عندنا في المحمودية ولما عملت الجمعية عملته سكرتير لها وكنت أنا رئيسها» وأخذ يتحدث عن الشيخ حسن» وعن نفسه بهذا الأسلوب مما أثارني فبدرت مني - مع حرصي الشديد على إحاطته بكل مظاهر الحفاوة والإكرام - عبارات عاتبتني عليها والدي بعهد انصراف الأستاذ أحمد .. ولكن هذه العبارات كشفت للأستاذ أحمد عن حقائق كان يجهلها هي أن «الشيخ حسن» هذا مهما قال فيه ومهما سخر منه ومهما استعلى عليه فإنه أسس في القاهرة دعوة برز بها على مسرح الحياة المصرية وأنه استطاع أن يوجد لدعوته هذه مكاناً في الجامعة المصرية التي كانت تتقطع الأعناق دون اقتراب بدعوة للإسلام من أبوابها ، وأنه صار يعالج قضايا خارج حدود مصر لبلاد عربية هوت إليه وإلى دعوته أفئدة قادتها وزعمائها كقضية فلسطين وقضية المنزلة وأنه يصدر مجله أسبوعية أصبح لها قراء في الجامعة المصرية وفي الأزهر وفي أنحاء مصر وخارج

حدود مصر .. كشفت عباراتي للأستاذ أحمد عن ذلك كله وعن أكثر منه ... فأخذ يقارن هذا الانطلاق وهذا الأفق الفسيح بالنظرة الضيقة والموضعي المحدود الذي يمشي فيه والذي ظن أنه هو الحياة كلها .

وقد تحدثت بعد رجوعي إلى القاهرة إلى الأستاذ المرشد فيما كان من تعرفي على الأستاذ أحمد وفيما قصه علي من أمر نضاله ضد هذه الأسرة - ولكنني لم أذكر له ما كان من حديث فيما يتصل بشخصه - فوجدت أن الأستاذ المرشد كان على علم بهذا النضال وأنه كثيراً ما أخذ على الأستاذ أحمد قصر جهوده على هذا الأسلوب .

ويبدو أن عباراتي قد عملت عملها في خاطر الأستاذ أحمد فقرر في نفسه قراراً باتجاه جديد - ولم تطل إقامته برشيد فقد بذل جهوداً رجع بها إلى مكانه بالمحمودية - وكان قراره الجديد أن يعمل على الخروج من حدود الدائرة التي يعيش فيها فأخذ يكثر من زيارته للأستاذ المرشد بالقاهرة ويصل حبله بحبال الدعوة بها وصار يحضر جلسات مكتب الإرشاد حتى تهيأت الظروف لانتقاله في وظيفة بوزارة المعارف إلى القاهرة فأسند إليه الأستاذ المرشد منصب الوكيل العام للدعوة وهو المنصب الذي كان يشغله - كما قدمنا - الدكتور إبراهيم حسن .

وهنا رأيت من حق الدعوة على أن أفصح إلى الأستاذ المرشد بالذي دار بيني وبين الأستاذ أحمد فيما يتصل بشخصه والذي كنته عنه حيث لم يكن هناك داع لإثارته ما دام الأستاذ أحمد بعيداً عن القاهرة .

ولم يكن الاحتكاك بيني وبين الأستاذ أحمد قد اقتصر على ما حدث بيني وبينه في منزلنا برشيد ، بل جدت أمور أخرى تكرر معها الاحتكاك فقد كنت - كما قدمت - أقضي فترة من إجازة الصيف في المرور ببلاد محافظة البحيرة التي كنت أعتبرها من مسئوليتي كما كان الأستاذ المرشد يعتبرها كذلك ... ولما كانت المحمودية إحدى مراكز البحيرة فكنت أمر على دار الإخوان بها . ونشأ الاحتكاك من مروري بهذه الدار ... فهذه الدار كانت تعتبر نفسها يدعاً من دور الإخوان المسلمين ، فدور الإخوان في أنحاء القطر كله إذا دخلت أيا منها تشعر بأنك في فرع من فروع الدعوة يدين بالولاء للمركز العام ولقائد الدعوة ولكن دار الإخوان في المحمودية إذا دخلتها لم تشعر فيها بهذه المعاني وإنما تحس منها معنى الاستقلال والولاء لقيادة أخرى وقد آتني ذلك وصارحت إخوان الدار بشعوري ولفت نظرهم إلى مظاهري الدار كالصور المعلقة لا تشعر من أراها بأن هذه الدار شعبة من شعب الإخوان المسلمين كما أن من استمع

إلى حديثهم لم يشعر بولاء لقيادة الدعوة . وقد طلبت إلى إخوان الدار أن يبلغوا الأستاذ أحمد بملاحظاتي ... وكررت الزيارة لهذه الدار فلم أجد تغيراً قد طرأ عليها مما يتصل بملاحظاتي ، فأحسست في هذا الإصرار دلالات خطيرة لاسيما والمستول عنه قد أصبح في أبرز مكان في الدعوة بعد المرشد العام . ولا أحد غيري يعرف عنه ما أعرف ولا يحس الذي أحس ، فاستقر رأيي على مفاتيحه الأستاذ المرشد في هذا الموضوع الخطير الذي يوشك إذا لم يعالج ويوضع له حد أن تنهار به الدعوة .

وكان ذلك في عام ١٩٣٨ على ما أتذكر أو قبل ذلك وكنا في سفر باقطار إلى الإسماعيلية وكنت أحد رفقاء الأستاذ المرشد في هذا السفر ' انتهزت هذه الفرصة - وكان من عادة الأستاذ في السفر أن يحاول الانفراد بنفسه ليستعيد مع نفسه قراءة أكبر قدر من القرآن مغمضاً عليه - فانتقلت إلى جانبه وطلبت إليه أن يستمع إلى حديث محاص يخرج صدري فأقبل على وأخذت أقص عليه موضوع الأستاذ أحمد السكري منذ التقيت به في منزلنا برشيد حتى آخر مرة زرت فيها دار الإخوان بالمحمودية ... فحاول الأستاذ أن يهون الأمر ويشعري بعدم أهميته في أول الأمر ، ولكنه رأى مني جداً لم يكن يتوقعه حيث قلت له : إن هذه الدعوة لم تعد دعوتك وحدك ، ويخيل لي أنك حملت حديثي إليك على محمل أنني أحدثك في أمر شخصي يخصك وحدك تنهون فيه إن شئت ... إن هذا الأمر هو من أخطر ما يتصل بكيان الدعوة ، ومن حق كل فرد انتسب إلى هذه الدعوة وبايع عليها أن يعرف هل هذه الدعوة قيادة واحدة أم أكثر من قيادة ، وقد رأيت أن أفضي إليك بما يحتبس في صدري باعتبارك أحق الناس بالإلمام به وأقدرهم على معالجته فإن أصرت على الاستهانة به فسيكون من حقى أن أكاشف به جميع الإخوان ليتولوا هم علاجه .

لما رأى الأستاذ مني هذا الأسلوب الجاد البالغ الجد تفرقت عيناه بالدموع ووجه إلى عبارات كأنما يسرها في أذني وقال : « والله يا محمود إنني كنت أعرف كل الذي قلته من قبل أن تقوله وأعرف أكثر منه وقلبي يتقطع ألماً لهذا الذي أعرفه ، ولكنني كنت حريصاً على أن لا يعرف ذلك أحد غيري ... أما وقد عرفته فأستحلفك بالله أن لا تنفضي لأحد به وتجعل ذلك سراً بيني وبينك وأن تدع لي معالجته في الوقت المناسب فإن مصلحة الدعوة تقتضي إرجاء هذا الأمر الآن » . فقلت له : أعطيك العهد والميثاق على ذلك ، ولكن موضوع دار الإخوان بالمحمودية لن أسكت عليها فلقد هددتهم في آخر زيارة لها إذا لم تزل مظاهر التمرد والنشوز التي بها أن أتقدم بمذكرة إلى مكتب الإرشاد أطلب فصلها من الإخوان المسلمين .. فقال الأستاذ سأبلغ الأستاذ أحمد ملاحظاتك عن المحمودية وسأحاول التقريب بينك وبينه .

وأبلغ الأستاذ المرشد الأستاذ أحمد بملاحظاتى عن شعبة المحمودية وبعزى على التقدم إلى مكتب الإرشاد طالباً فصلها .. ولما كان الأستاذ أحمد حريصاً على أن لا يذيع أمر المحمودية وما فيه من دلالات على الاستعلاء على قيادة الدعوة فقد جلس إلى واعد بإزالة ما طلبت إزالته من دار الشعبة وقد فعل .

وكان الأستاذ الأستاذ المرشد حريصاً في كل مناسبة على التقريب ما بينى وبين الأستاذ أحمد كما كان الأستاذ أحمد حريصاً على تذكيرى بالعلاقة الشخصية التى بينه وبين والدى وكنت من جانبى حريصاً على تأكيد احترامى الشخصى له ولكننى أرى حقوق الدعوة فوق هذا المستوى الشخصى ، كما أن الأستاذ المرشد كان حريصاً ما استطاع على الإشادة بالأستاذ أحمد وتقديمه فى المواقف التى يعلم أنه يجب أن يقدم فيها ؛ لعل ذلك يمحى من نفسه الشعور الذى يعرف الأستاذ أنه قد يمتلئ فى نفسه .

والأستاذ أحمد السكرى كفاءة لا شك فيها ورجل نشأ فى أحضان التصوف وتربى فى البيئة التى تربى فيها الأستاذ المرشد فى المحمودية على يد الأستاذ الشيخ محمد زهران وترأى والأستاذ المرشد فى كل محل دينى واجتماعى قاما به فى المحمودية ، ولما كان الأستاذ أحمد يكبر حسن البناء سناً وكان حسن البناء لا يزال طالباً صغيراً فى الوقت الذى كان يعمل فيه الأستاذ أحمد بالتجارة فكان طبيعياً أن يكون الأستاذ أحمد فى التكوينات الإدارية لهذه الأعمال الديلية والاجتماعية رئيساً فى حين كان الطالب الصغير سكرتيراً .. والأستاذ أحمد ذو مواهب يغبط عليها فهو خطيب مطبوع ذو حنجرة ذهبية يخرج الكلام منها كأنه موسيقى . وذو قوام فارغ وسمت بحيل وهندام جذاب—إذا رأيت سمته واستمعت إلى حديثه أحسست أنك أمام رجل من أبناء الطبقة الأرستقراطية فى ذلك العهد . ومع أن دراسته الرسمية لم تعد الثانوية فإن ثقافته واسعة ، وعقليته ناعجة وأفقه فسيح ولسانه لقيم ، وغيرته على الإسلام نابعة من قلب عامر ، وكان جديراً بالمنصب الذى أسنده الأستاذ المرشد إليه فى الدعوة .

وقد قدمت أن الأستاذ المرشد كان يقدمه فى المواطن التى يعلم أنه يتطلع إلى التقدم فيها . فكان يختاره سفيراً له فى مقابلة العظماء من المسئولين من رجال الدولة ورؤساء الدول العربية ورجال القصر وساسة البلاد ، ولكنه كان كثيراً ما يحذره من الانزلاق فى هاوية الالتئان بمظاهر حياتهم وما يتقلبون فيه من بذخ ورفاهية ، ويذكره بأننا لسنا إلا دعاة إلى الله وحمله لشعلة الإيمان به والرجوع إليه والعمل بدينه .

والواقع أن هذا التحذير وهذا التذكير كان لابد منهما لأن كثيرين منا لا سيما المحدثين منا بالبيئات الأرستقراطية المتعالية الفارقة في الترف والمظاهر الأخاذة الداعية ، كانوا ينسون حقيقة مهمتهم وجوهر دعوتهم في غمرة هذه المظاهر ؛ فلتقد كان البون شاسعاً بين حياتنا التي نعيشها وحيات هذه البيئات ، ولولا هذا التذكير والتحذير لفقدنا أنفسنا في تيارهم .

وقبل أن أنهي تقديمي لشخصية الأستاذ أحمد السكري للقارئ أنقل من «مذكرات الدعوة والداعية» الذي كتبه الأستاذ المرشد بقلمه ولم أطلع عليه إلا هذا العام (١٩٧٧) فقرتين متصلتين بما جاء في هذا التقديم ويلقيان بعض الضوء على ما عالجناه من نقاط في هذا الموضوع :

جاء في صفحتي ١٣٥ ، ١٣٦ من «مذكرات الدعوة والداعية» التي سجل فيها الأستاذ بعض أحداث الدعوة حتى سنة ١٩٣٩ ما يلي :

خواطر :

حضر إلى اليوم و ... من المحمودية . وتكلمنا كثيراً عن جمعيات الإخوان المسلمين . أريد أن أكتب عنه فلا يتسع لي مجال الكتابة فأكل أمره إلى الله ، وأسأل الله أن يوضح لي الطريق الذي أسير فيه .

على أن ملخص خطراتي أن فرعى جمعية الإخوان بالمحمودية وشبراخيت سوف لا تنفع كثيراً لأنها أنشئت بغير أسلوب ، ولا ينفع في بناء الدعوة إلا ما بنيت بنفسى وبمجهود الإخوان الحقيقيين الذين يرون لي معهم شركة في التهذيب والتعليم وهم قليل . ونفس فرع الإسماعيلية ستحدث فيه تعديلات كثيرة ولكنه سيسير سيراً نافعاً إن شاء الله .. إنه لله ...

إنه قائد موهوب ولكنه منصرف بهذه القيادة وهذه المواهب إلى السفساف ، سرف في وقته لا يقدر له قيمة ، قلبه مملوء بأوهام لا حقيقة لها ومنصرف إلى تاحة لا ثمر إلا العناء ، فالاعتماد عليه ضرب من المخاطرة العقيمة .

والأخ الشيخ ... له أساليبه الخاصة به ، وهو ينظر إلى كأخ زميل فلا يصغى لأرائي إلا قليلاً ومن هذه الناحية يكون توحيد الفكرة ضرباً من التعسر ، فالاعتماد عليه مخاطرة كذلك .

نفسك يا هذا وإياك والخلق

ربك ونفسك وحسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين

من الطريف أن الأخ الزائر من المحمودية رأى هذه الكتابة في حينها فكتب بخطه في الصفحة المقابلة هذه العبارة : « ساعحك الله أيها الأخ الكريم » لقد تغاليت في ظنك هذا ، وكل ما أرجوه أن تبدى لك الأيام غير ما ظننت . ولست أذكرى نفسي فإله أعلم غير أنك لابد راجع إلى صوابك في ، عالم أن النفس التي أحملها بين جبينى هي نفس علم الله فيها بعلمه السابق الأزلى أنها تضطرم غيرة وتفتت حسرة وأسى على أما أصحاب الإسلام وأهله .

وجاء في صفحتى ٢٥٢ ، ٢٥٣ ما يلى :

« الحفلة الكبرى للإخوان المسلمين »

« سرأى آل لطف الله »

« الإخوان المسلمون صرحاء في دعوتهم لا ينون عن بذل أوقاتهم ومهجهم في سبيلها ، ولا تفوتهم الفرص والمناسبات لتدعيم الحق وإزهاق الباطل ونشر لواء الإسلام . فهم قد رأوا في مجلس النواب والشيوخ معركة كلامية طالما أذكروها ومهدوا لها ، وهم الآن يريدون تدعيمها ، وسيجمعون النواب والشيوخ المحترمين في صعيد واحد بغض النظر عن حزبيتهم وألوانهم السياسية . وسيكون منهم روح القوة والعمل على نصر دين الله ، وسيكون ذلك فتحاً مبيناً له مابعد إن شاء الله . وسيكون هذا الحفل الجامع في سرأى آل لطف الله بالزمانك ...

لهذا سيكون حفلاً رائعاً تتجلى فيه دعوة الإخوان المسلمين بأجل مظاهرها إن شاء الله . وسيكون من بين حضرات الخطباء الأفاضل : سمو الأمير شكيب أرسلان ، وسعادة علوبة باشا ، والأستاذ الكبير محمود بسيوني والنائب المحترم سعد اللبان وفصيحة الأستاذ الشيخ عبد اللطيف دراز والدكتور عبد الحميد سعيد ومدكور بك والدكتور عبد الوهاب عزام .. الخ . وستولى فصيحة المرشد العام شرح وجهة نظر الإخوان المسلمين من روح الإسلام . وسيؤمها كبراء المملكة المصرية ورجال الأحزاب السياسية وقادة الرأي ليمسوا كلمة الإخوان المسلمين والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

« من آثار حفل تكريم النواب بسراى آل لطف الله » .

« انتهى حفل النواب بسراى آل لطف الله وكان ملحوظاً فيه حضور ثلثين للأحزاب المصرية المختلفة والطبقات المختلفة كذلك . وقد كان لهذا الحفل آثار بدت طفيفة ولكنها تحولت إلى عزيمة عنيفة بعد فترة قصيرة من الزمن . فقد اعتقد فريق من الإخوان أن الأستاذ أحمد السكري الذي

كان يشرف على نظام الحفل ويقوم بتقديم الخطباء . كان يتلقى بعضهم والملق بكرهه الإخوان ، وكان يحاول أن يظهر بمظهر المنتصر الأمر الناهى وليس ذلك من خلق الإخوان . وكان يؤثر بعض الناس بالتقديم ويحول بين غيرهم وبين المنصة ، ويوجه الأمور توجيهاً يظهر فيه النقص الخاص . والإخوان لا يفهمون إلا لغة الوضوح والاستقامة التامة . وفي أول اجتماع بعد الحفل ظهرت هذه الملاحظات وأخذت أدافع عنها وأفسر مظاهرها هؤلاء الإخوان تفسيراً أحسن وأكملها على أفضل المحامل وهم غير مقتنعين . وكان هذا الشعور نواة لتفسيرات لاحقة لتصرفات كثيرة مشابهة ، وما زال يتضخم حتى صار أساس لثنية ذهبت بمجموعة من سيار الإخوان وحالت بينهم وبين العمل في هذا الميدان . وسيربنا تفصيل ذلك في حينه والله في خلقه شئون . »

الأستاذ عبد الحكيم عابدين مرة أخرى :

تناولنا شخصية عبد الحكيم عابدين من قبل أكثر من مرة كان عبد الحكيم في سلاها لا يزال الطالب الياق أو المتخرج الناضج الذى لم يتمرس بعد بمسئوليات الدعوة وتبعاتها الثقيلة ، ولكن السنوات التى مرت عليه بعد ذلك وأثقلت كاهله بتبعاتها وأحداثها قد جلت مواهبه وصقلت قريحته وكشفت عن قدراته مما جعله أهلاً لأن يشركه الأستاذ المرشد معه في التصدي لأعقد المشاكل وأخطر الأمور . وهى المشاكل والأمور التى كانت من قبل وفقاً على الأستاذ أحمد السكرى ... ولا أقصد بهذه العبارة أن أقول إن الأستاذ المرشد قد أعفى الأستاذ أحمد ما كان يكله اليه من خطير الأمور وإنما قصدت أن أقول إن الأستاذ المرشد أراد أن يستفيد للدعوة من مواهب عبد الحكيم وقدراته فأشركه مع الأستاذ أحمد في النهوض بالأمور الجسام التى تضاعفت مشاكلها وثقلت تبعاتها بتشعب الدعوة واتساع رقعتها واقتحامها ميادين جديدة بحيث أصبحت هذه الأمور الجسام ينوء بحملها رجل واحد .

ولم تكن هذه المواهب وهذه القدرات جديدة على عبد الحكيم عابدين فقد أشرت إلى طرف منها منذ كان طالباً ، وكل ما حدث أن مرور الأيام جلى هذه المواهب وأبرز هذه القدرات . فع أن عبد الحكيم لم يكن حسن الهندام ولا المتأنق في ملبسه بل كان في هذه الناحية أقرب إلى عكس ذلك فإنه كان بحدة ذكائه واتقاد قريحته وسرعة بديته ورشاقة لفظية وسعة حفظه للقرآن وللشعر وسجيته الأدبية وغامر روحانيته وحسن بداوته (التي أشار إليها المنبئ في قوله : (والبداوة حسن غير مجلوب) . فإنه كان مقبولا ومحبا إلى نفوس طبقة من الناس لم تكن لتعرف عن الدعوة

شيئاً لولا تسلل عبد الحكيم إلى قلوبها وامتزاجه بنفوسها . لكل كبار أطباء القاهرة ، وكل أساتذة الجامعة وعلية القوم من أعرق الأسر وأكرم العناصر لم يعرفوا الدعوة إلا عن طريق عبد الحكيم . وليس معنى معرفة هؤلاء بالدعوة واقتناعهم بأفكارها أنهم انتظموا جميعاً في تشكيلاتها أو احتلوا مناصبها وإنما قد صار للدعوة باقتناعهم بها صف له صداه في أوساطهم وفي الرأي العام بعد ذلك ، وهذا كسبه له قيمته وله وزنه . وما كان لدعوة كدعوة الإخوان المسلمين تريد أن تؤخذ بفكرتها لتكون أساساً لحكم البلاد أن تجد لفكرتها سبيلاً إلى واقع الحياة دون أن تقتنع بها هذه الطبقة التي مهمتها التثقيف والتوجيه .

وقد نهض عبد الحكيم بما ألقى على كاهله من جسام أمور الدعوة نهوضاً كريماً وأظهر مقدرة جعلت اسمه يلمع بجانب اسم الأستاذ أحمد ، ومروءة الأستاذ المرشد لذلك كما مروءة الإخوان جميعاً أن وجدت الدعوة وقد تضاعفت مسؤولياتها من أبنائها من يشارك في حل العبد وهذا دليل على خصوبة الدعوة وحسن استجاباتها ونجاح أساليبها كما أنه يشير بتعقيد آمالها ووصولها إلى غايتها .

ولكن هل هم هذا السرور جميع الإخوان ؟

الأستاذ حسين عبد الرازق :

يقتضينا الحديث عن حسين عبد الرازق أن نتحدث عن أسرة عبد الرازق التي ينسب إليها والتي هو أحد أفرادها وإن لم يكن من الشخصيات البارزة فيها .. وربما كان انتسابه إلى دعوة الإخوان هو الذي أبرزه وجعل لا سمح ذكراً بين أفراد هذه الأسرة . وهذه الأسرة من الأسر الشهيرة المرموقة في الصعيد وموطنها قرية إلى جرج إحدى قرى مركز بني مزار بمحافظة المنيا . وهي وإن كانت أسرة ميسورة الحال إلا أن شهرتها لا ترجع إلى يمرحها فهناك أسر أخرى أيسر حالاً وأوسع ثروة ولكنها لا تحظى بمثل شهرة آل عبد الرازق الذين امتازوا على غيرهم بكثرة المتعلمين وذوى المناصب الكبيرة من أبنائهم .

وكان أبرز أبناء هذه الأسرة في المجتمع المصري أثنان هما الشيخ مصطفى عبد الرازق الذي كان استاذاً للفلسفة الإسلامية بكلية الآداب حين كنا طلبة بالجامعة والشيخ علي عبد الرازق الذي كان مدرساً بأحد المعاهد الأزهرية والذي وضع كتاباً سماه «الاسلام وأصول الحكم» حاول فيه نفى أن يكون للإسلام صيغة بالحكم من قريب أو من بعيد ، وقد ثار الأثر في ذلك الوقت على هذا التهميم على الإسلام وعلى محاولة تجريده من أصل من أصوله المقررة وحاكم المؤلف

محاكمة علمية انتهت بإصدار قرار بسحب شهادة العالمية منه ... وكان لوضع هذا الكتاب في لك
الوقت دوافع سياسية كما كان لوضعه طموح سياسي فقد استطاع بوضعه هذا الكتاب أن يصيب
عدة أهداف ، فقد أثار ضجة كبيرة وجدلاً حاداً في المجتمعات وفي الصحف لفت النظر إلى
وضعه وأكسبه بروزاً في المجتمع كما أنه أَرْضَى المستعمر - وقد أشرنا في فصول سابقة إلى
محاولات الانجليز تجريد الإسلام من هذه الناحية بالذات . - وإن كان في نفس الوقت قد أغضب
الملك الذي كان يريد الاستزادة من السلطة عن طريق الأزهر مما كان يراه الإنجليز خطراً عليهم..
وكان للماسونية في تحقيق أغراض الانجليز باصدار هذا الكتاب اليد الطولى فقد كانت هي اليد
الخفية التي تتحسس في المجتمع المصري الأشخاص الطموحين الذين يصلحون لاداء أدوار معينة
على المسرح المصري .

الأستاذ كمال عبد النبي :

عندما كان يذكر الأستاذ حسين عبد الرازق كان يذكر دائماً الأستاذ كمال عبد النبي،
ولست أعرف السبب في ذلك فلعلهما كانا صديقين التحقا بالدعوة معاً وربما كان التحاقهما
بالدعوة عن طريق الأستاذ عبد الحكيم عابدين وإن كان الذي أقطع به هو أن الأستاذ حسين عبد
الرازق قد تعرف على الدعوة عن طريق الأستاذ عبد الحكيم .

نشوء الفتنة وتطورها :

١ - قد يكون نشوء الفتنة قد بدأ بترسيات في أعماق نفس الدكتور إبراهيم حسن حين
انتقل الأستاذ أحمد السكري إلى القاهرة وأسند إليه الأستاذ المرشد منصب الوكيل العام الذي
كان يشغله الدكتور إبراهيم ، فاعتبر الدكتور ذلك إهانة له موجهة من الأستاذ المرشد شخصياً ،
ولكنه أسر ذلك الشموخ في نفسه لأن الظروف في ذلك الوقت لم تتح له أن يفعل أكثر من ذلك.

٢ - يتبين للقارئ من تحليل الشخصيات الذي أثبتناه آنفاً أن الأستاذ أحمد السكري قد
رضى بمنصب الوكيل العام وبإسناد المرشد كل خطير الأمور إليه رضى بذلك كحد أدنى لأنه
كان يرى نفسه أكبر من هذا وأحق بما هو أعظم . أما وقد قصت الظروف بهذا القدر فقط فلا بأس
بذلك مؤقتاً واحتكار البروز في الأوساط الراقية والمجتمعات ذات الشأن كفيل بتوسيع نطاق
هذا القدر شيئاً فشيئاً مما يقرب الأمل المنشود ، وإذا لم يتحقق الأمل فإن استمرار احتكار البروز
في هذه الأوساط سيجعل منصب الوكيل العام هو المنصب الذي يدير دفة الدعوة والذي يرجع
إليه في كل شئونها .

٣ - لم يكن إصهار عبد الحكيم إلى الأستاذ المرشد موضع ارتياح من الأستاذ أحمد السكري خشية أن يكون في هذا الإصهار تقريب لعبد الحكيم من نفس الأستاذ المرشد لا سيما الأستاذ أحمد يعرف عن مواهب عبد الحكيم ... وإن كان الأستاذ أحمد يثق في قراره نفسه أن الأستاذ المرشد لا يعدل بالصلة الروحية أية صلات أخرى من قرابة أو صداقة أو نسب ... وقد تم الإصهار بعد أن اقترن بمؤامرة حيكت له ومخرج منها عبد الحكيم سليماً معافى بعد تجربة قاسية .

٤ - ما كانت مؤهلات عبد الحكيم الخلقية من هيئة وملبس ومنشأ في أسرة فقيرة لتؤهله أن يجد لنفسه طريقاً إلى الأوساط الراقية والمجتمعات ذات الشأن ، ولكن فوجيء الجميع وأولم الأستاذ أحمد بأن مواهب عبد الحكيم وميزاته التي أشرنا إليها أهله للسبق إلى هذه الأوساط حتى أصبح اسمه ألع من اسم الأستاذ أحمد فيها ، أضف إلى ذلك أن طبيعته غير الاستقرارية قربته إلى نفوس عامة "إخوان الذين لم يكونوا يأنسون إلى الطبيعة الاستقرارية .

هـ - كان الأستاذ المرشد - كدأب أصحاب الدعوات - يلتمس التأييد لدعوته من جميع الأوساط البيئات . وإذا كانت الدعوة قد قامت على أكتاف عامة الناس وضعفائهم ، فإنه كان يتوق ويتمنى لو أن الله تعالى هدى إلى دعوته الأغنياء وذوى الأبهة والسلطان . وهذه طبيعة لم يخل منها بشر حتى رسول الله صل الله عليه وسلم «أما من استغنى فأتت له تصدى وماعليك أن لا يزكى» .

واستجاب للدعوة بضعة أفراد من هذه البيئات المتعالية ... ومع أن الأستاذ المرشد كان يوسع لهم في مجلسه ويفقد عليهم من بشره ، فيرحب بمقدمهم ، ويخصهم بتكرمه إلا أن هؤلاء لم يستطيعوا أن يمتزجوا بالإخوان ولا أن يزيلوا حجاب الكلفة بينهم وبينهم ، فكان لابد لوجودهم في مجتمع إخوان من وجود الأستاذ المرشد فيه ، كأنما هو المادة الموصلة بين الفريقين ، فإذا لم توجد المادة الموصلة انقطع التيار .. وما أكثر ما عانى الأستاذ المرشد في سبيل مزج هذه الفئة بسائر الإخوان ، ولكنه لم يحقق الكثير مما كان يأمل في هذه الناحية .

هناك أفراد من هذه الطبقة كان امتزاجها بسائر الإخوان امتزاجاً كاملاً من أول يوم غشوا فيه مجتمعات الإخوان من أمثال حسن العشماوى ومنير الدلة وهرون المجددى ... لكن أفراداً آخرين لم يمتزجوا مما يدل حقاً على أن الأرواح جنود مجنونة ، ما تعارف منها اتلف وما تناكر منها اختلف . وصدق الله العظيم «لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم» .

وكان هؤلاء الأفراد هم الهدف السهل لمحاوّل النيل من الدعوة ، وكان الأستاذ حسين عبد الرزاق والأستاذ كمال عبد النبي بالتبعية من هؤلاء الأفراد .

٦ - بعد التحاق الأستاذ حسين بالدعوة بفترة غير قصيرة أخذت السراى الملكية فى انتهاج سياسة جديدة تستهدف احتواء أسرة عبد الرزاق التى اعتبرت السراى انضمام فرد منها إلى الإخوان وانتظامه عضواً فى الهيئة التأسيسية تطوراً خطيراً يخشى معه أن يستفحل أمرها باستيعابها العنصر الوحيد الذى ينقصها وهو عنصر الأسر الكبيرة ذات النفوذ والثراء ... وبدأت خطوات هذه السياسة متتابعة فيما يلى :-

(أ) اختيار الشيخ مصطفى عبد الرزاق فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ وزيراً للأوقاف فى وزارة أحمد ماهر .

(ب) وبعد ذلك ينحى عام عينه الملك شيخاً للأزهر وهو شرف ماكانت تحلم به الأسرة طوق الملك به جيدها .

(ج) وفى ١٤-٢-١٩٤٦ أنعم الملك على الشيخ مصطفى عبدالرازق شيخ الأزهر بوسام كبير (د) فى ١٦-٢-١٩٤٧ توفى الشيخ مصطفى عبد الرزاق وهو شيخ للأزهر ، وفى ٢٢ من نفس الشهر تقدمت هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف بالتماس إلى الملك تطلب إصدار عفو عن الشيخ على عبد الرزاق بعد عشرين سنة من القرار الذى يحرمه من تولى أى منصب حكومى ... حتى يتولى فضيلته وزارة الأوقاف وقد كان وتولى هذه الوزارة .. وماكان لهيئة كبار العلماء أن تتقدم إلى السدة الملكية بطلب العفو عن الرجل الذى طرده الملك منذ عشرين سنة إلا أن يكون ذلك بإيعاز من الملك نفسه .. وبعد أن صدر العفو وتولى الشيخ على عبد الرزاق وزارة الأوقاف قامت الهيئة بمقابلة رئيس الديوان الملكى لإبلاغ جلالة الملك شكرها على هذا التفضل .

(هـ) فى ١-٣-١٩٤٧ كانت خطة التردد التى أعلنها الأستاذ حسين عبد الرزاق قد بلغت أوجها فصدر قرار بإيقافه وإيقاف الأستاذ أحمد السكرى والدكتور إبراهيم حسن والأستاذ كمال عبد النبي باعتبارهم خارجين عن الجماعة .

وقد رأيت أن أضيق بين يدي القارئ الوقائع بتسلسلها وتواريخها حتى يلمح فى هذا التسلسل كيف تطورت الأمور بمندوب هذه الأسرة فى الإخوان المسلمين هذا التطور الفجائى

المريب ؛ فلقد التحق حسين عبد الرازق بالدعوة عن طريق عبد الحكيم عابدين كما قدمت ، وكانا لا يكادان يفترقان ، وكان عبد الحكيم جرياً على طبيعته البدوية يقضى مع حسين في بيته الوقت الطويل ويعتبر بيت حسين بيته فيطلب الطعام بنفسه ويشيع السرور في البيت بأسلوبه الأدبي المحبب ، وبنفسه الصافية الشفافة ، فإذا حبست الشواغل عبد الحكيم عن زيارة حسين طلبه حسين في كل مكان حتى يعثر عليه ... وظلت هذه العلاقة على هذا الحال دون فتور نحو عامين كانا خلالها مثلاً كريماً للصديقين الحميمين .

٧ - كانت أقرب شعب القاهرة إلى المركز العام شعبة حى عابدين وكانت تضم مجموعة أكثرها من الطلبة والشباب الصغير من صغار الموظفين ، ويقدر ما كان حى عبد الرازق على صلة وثيقة بعدد الحكيم عابدين فإنه كان هو وأترابه من كبار القر لا يختلطون بعامة الإخوان حتى إن هؤلاء الإخوان كانوا يعيرون عليهم هذا المسلك ويعدونهم - كما قدمت - ترفعاً لا تقره دعوة الإخوان المسلمين . . ويبدو أن وحياً من الأستاذ حسين أخذ يصل إلى إخوان شعبة عابدين كان من نتيجته أن رأينا هذا شباب فجأة يشيع قاله سوء عن عبد الحكيم عابدين ورأينا الأستاذ حسين عبد الرازق أول من يتلقفها ويسارع إليها ويتبناها ، ورأينا مجموعة من هذا الشباب تمشى في ركابه وصارت بطانة له.

وشباب شعبة عابدين بحكم قربهم من المركز العام كانوا فعلاً أكثر إخوان الشعب اتصالاً بالأستاذ عبد الحكيم عابدين ، وكانوا يلوذون به حين يبحث الواحد منهم عن زوجة يطمئن إليها ، وهو يعتبر نفسه والد هؤلاء الشباب ، وقد دخل بيوت أهلهم - كطبيعته البدوية - - وألم بما في كل بيت من فتيان وفتيات فيتم الزواج على يديه ؛ وباعتبار الزوج والزوجة من أبنائه يزورها في بيتهما الجديد ، ويطلب الطعام ، ويمزح ، مهماً المزح الذى يزيدهما امتزاجاً وألفة .

وهذه بلا شك صورة في ذاتها وهدفها كريمة تستحق الثناء ولكن الذين في قلوبهم مرض قد يجدون فيها مرتعاً خصيباً لتحقيق أغراضهم وإرضاء نفوسهم .

لقد دخل عبد الحكيم بيت حسين عبد الرازق أكثر مما دخل أى بيت من بيوت إخوان شعبة عابدين فلماذا لم يأت حسين في يوم من الأيام شاكياً عبد الحكيم دخول بيته ؟ ..

٨ - تقدمت فجأة مجموعة من شباب شعبة حى عابدين إلى المركز العام بمذكرة تهم فيها الأستاذ عبد الحكيم عابدين بالتحام بيت زميلهم الأخ على عبد المعطى ونرى وسط أسماء الشاكين

اسم شقيق الزوجة . فذهب زوجة يثيرها أفراد من الماشين في ركاب الأستاذ حسين عبد الرازق فيترك الأستاذ المرشد كل ما بين يديه من أمور جهام ويتفرغ مهموماً لتحقيق هذه التهمة الخطيرة ويصدر قرارات حاسمة :

الأول : بإيقاف عبد الحكيم عابدين وإبعاده عن المركز العام حتى يصدر قرار بإنهاء هذا الإيقاف أو يجعله دائماً

الثاني : بتكوين لجنة تحقيق لا يحضر في الآن من أساء أعضائها إلا الأستاذ حسين عبد الرازق والأستاذ كمال عبد النبي ، وقد بقي في خاطري هذا الاسان لأننا يوم صدر قرار نكوين هذه اللجنة تعجبنا وذهب بنا العجب كل مذهب أن يكون هذان هما مثيري هذه الفتنة - والأستاذ المرشد يعرف ذلك - ومع ذلك يجعلها من أعضاء اللجنة ، وقد ثبت لنا أخيراً أنه كان أبعد نظراً .

وتقوم لجنة التحقيق بالتحقيق في التهمة فتحدث المفاجأة التي أحبطت تدبيرهم وفصح مؤامرتهم حين سئل الزوج وهو الاخ على عبد المعطي الذي نوهنا عنه آنفاً فكذب كل ما قيل واستنكر ما أثير وأثنى على الأستاذ عبد الحكيم عابدين أحسن ثناء وقال : إن الأستاذ عبد الحكيم عابدين ما قام بيني وبين زوجتي إلا بما يقوم به الوالد للتوفيق بين أبنائه - ولم يكتف الاخ على عبد المعطي بما قرره أمام اللجنة بل ذهب إلى الأستاذ المرشد وأعاد امامه ما قرره أمام اللجنة ، فلم يسمع الأستاذ المرشد بذلك إلا أن يصدر قراراً بإنهاء فترة إيقاف عبد الحكيم عابدين وإعلان برأته .

ولا يفوتني أن أذكر أنني مع كل ما بيني وبين عبد الحكيم عابدين من صداقة وطيدة وثقة تامة متبادلة فإنني باعتباري بشراً وجدت نفسي أمام الحملة المسعورة التي أثارها هؤلاء المرجعون وقد اهتزت هذه الثقة في نفسي ، ووجدتني ألقى عبد الحكيم في المركز العام وأعرض عنه ، وقد لاحظ عبد الحكيم ذلك أكثر من مرة فانتقم على والدموع نترق في عينيه ووجهه إلى عتاباً باكياً أن تؤثر المؤامرة حتى تهز ثقة محمود عبد الحليم في أخيه عبد الحكيم . . وقد أجبت وأنا أغالب الدموع في عيني بقول : معذرة يا عبد الحكيم إنك عزيز على نفسي وحبيب إلى قلبي ولكن الدعوة أعز علي وأحب إلي ، ويجب أن تلزم بيتك حتى يتم التحقيق .

وقد تصدت من ذكر ما كان من لقاء مع عبد الحكيم في غمار هذه الفتنة أن أبين إلى أي مدى وصل تأثير الدعاية الأثيمة التي أثارها هذه الفتنة والتي سهروا على تفجيرها تفجيراً يهز القلوب ويقتلع الثقة من النفوس .

وقد فقدنا في غمار هذه الفتنة أحماً كان أثيراً لدينا هو الاخ الدكتور إبراهيم حسن الوكيل

الثاني للاخوان. ولست أدري حتى اليوم هل كان اعتزاله لمجرد تأثره بهذه الدعاية التي ثبت زيفها أم كان لشعوره بأن منصبه في الدعوة لم يعد يحظى من اهتمام الإخوان بمثل ما كان يحظى به من قبل، فرأى التعلل بالتأثر بهذه الدعاية فرصة يخفى وراءها السبب الاصيل .

ولما ظهرت براءة الاستاذ عبد الحكيم عابدين وأعلنت هذه البراءة ، اعتقد الإخوان أن الامر قد انتهى عند هذا الحد ، وأن كل أخ ممن رتعوا في الفتنة سيستغفر الله ورجع إلى مكانه في الدعوة ولكن الغريب في الامر أن حسين عبد الرازق وكال عبد النبي وهما كانا من أعضاء لجنة التحقيق وكانا أولى الناس بالرجوع إلى الحق قد ركبا رأسهما وأصررا على رأيها دون مبرر وأعلنا اعتزالهما محتويين الدكتور إبراهيم حسن والعدد الذي كان مفتونا بهما من أعضاء شعبة حتى عابدين على أن من هذا العدد من فاء إلى الحق ورجعوا بعد ذلك نائبين .

وهكذا فعل التأثير العائلي في رجل آمن بفكرة وبائع عليها ثم رأى أنها صارت تتعارض مع مصالح أسرته فصحى بفكرته في سبيل هذه الأسرة . وصدق الله العظيم حيث يقول « قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين».

٩ - في ذلك الوقت نفسه وفي غمار هذه الاحداث الخطيرة ووسط تلك الضربات المذهلة المفاجئة وعلى أثر عدد من أوجه النشاط الاجتماعي والسياسي برز فيها دور عبد الحكيم عابدين ممثلاً للدعوة في مصر وخارج مصر ؛ فاض الكيل بالاستاذ أحمد السكري الذي كان يعاني من قديم شعوراً خاصاً أشربنا إليه . . ويبدو أنه رأى هذه الظروف القاسية فرصة سانحة فبدأ بإثارة أن الاستاذ المرشد قد هضم حقه وسلبه اختصاصه وتحطاه بما خص به عبد الحكيم عابدين من اتصالات وتمثيل للاخوان في مواقف هامة ، وبدأت من الاستاذ أحمد بوادر فيها رائحة التمرد لأول مرة وحاول الاستاذ المرشد رده إلى الصواب فقابلته بالإصرار فرأى الاستاذ المرشد أن يرجع في هذا الأمر إلى الهيئة التأسيسية فدعاها إلى الاجتماع وأذكر أن هذا الاجتماع ظل ثلاث ليال متتالية كل ليلة تبدأ من صلاة المغرب وتستمر حتى صلاة الفجر فطلوع الشمس .

وقد بدأ الاستاذ المرشد الحديث في الليلة الأولى فسرده المواقف التي دعت إلى تكليف الاستاذ عبد الحكيم عابدين بما عهد إليه به وأوضح الاستاذ أن ذلك لا يمس كرامة وكيل الإخوان ولا

ينقص من قدره في الليل ولا كثير إلا أن تكون هناك حساسية ، وأن هذه الحساسية لا يلغى أن يكون لها وجود في مجتمع قائم على الإيمان والأخوة ثم تطرق من ذلك إلى أن لقائد الدعوة أن يعهد بما يشاء لمن يشاء لأنه أدري بالأصلح للأداء وله على الجميع حق الطاعة . . ثم طلب إلى الأستاذ أحمد أن يقول ما عنده فشرح وجهة نظره ثم دارت بينه وبين بعض الأعضاء مناقشات تدخل في بعضها الأستاذ المرشد ، واستمرت المناقشات طيلة الليلتين الأولى والثانية .

وفي الليلة الثالثة فاجأ الأستاذ المرشد الجلسة بإثارة الموضوع الذي كنت تكلمت معه فيه في أوائل أيام اتصال بالدعوة في خلال عامي ١٩٣٦ ، ١٩٣٧ والذي أشرت إلى طرف منه في بدء الحديث عن هذه الفتنة . وقد طلب إلى الأستاذ المرشد أن أفرح للهيئة الموضوع بالتفصيل ففعلت . . ودارت مناقشات طويلة حول الموضوع استغرقت الليل كله . . ويبدو أن حديثي إلى الهيئة كان له وقع عميق في نفوس الأعضاء بدا أثره في مناقشاتهم حتى أيقن الأستاذ أحمد أن الاتجاه الإجماعي للهيئة ينذر بفصله مع أنه كان يطمح أن يجد من الأعضاء من يسند ظهره ويلأزر موقفه على أن الأستاذ المرشد لن يثير إلا موضوعه مع الأستاذ عبد الحكيم عابدين .

وأذن للفجر وأقيمت الصلاة وصلينا خلف الأستاذ المرشد ، ثم استؤنفت الجلسة ، وكان مفروضاً أنها تستأنف لأخذ الاصوات على قرار . . ولكن الذي حدث أن الأستاذ أحمد طلب الكلمة ، فوقف وتحدث حديثاً حلواً كأنما غسلت الصلاة قلبه ، وكان حديثه اعترافاً بأخطائه وتوبة إلى الله منها ورجوعاً إلى الحق وقد طلب في آخر كلمته الصلح مني نحوه فقممت من مكاني وتوجهت إليه وعانقته وتبادلنا القبلات وكلانا تنهمر دموعه مروعاً وفرحاً . . . وكانت ساعة من أجمل ما مر علينا من ساعات الحياة فاضت فيها عيون الجميع وتعانقت قلوبهم وصفت نفوسهم ووقف الأستاذ المرشد لحمد الله تعالى وأثنى عليه إذ وفق إلى هذه النهاية الطيبة وقابل اعتذار الأستاذ أحمد إليه بالإشادة بفضلته .

وانقضى الاجتماع وطلعت الشمس وانصرف أعضاء الهيئة كل إلى بلده مسروراً ليحمل إلى إخوانه هذه البشري المأمولة والنتيجة الطيبة .

ارتداد : ما كاد أعضاء الهيئة التأسيسية يصلون إلى بلادهم حتى فوجئوا بموقف أذهلهم وخلف أبايهم ، ذلك أن صحف حزب الوفد - التي كانت في ذلك الوقت تبش حملة على الإخوان - صدرت بنبا عجيب أن الأستاذ أحمد السكري الوكيل العام للإخوان المسلمين استقال من الإخوان المسلمين ثم إن صحيفة استقالته لم تكن مجرد صحيفة استقالة بل كانت تهجماً على الدعوة وعلى مرشدها .

كان اللفز المخير هو أنه لو كان في نية الأستاذ أحمد الاستقالة فلم لم يستقل في جلسة الهيئة التأسيسية التي امتدت ثلاث ليال متتالية قبل أن يواجه بالنقد ؟ ولم أعلن اعترافه بأخطائه لبكى وأبكى وأحس لأول مرة أن قلوب مثل الدعوة في كل مكان قد انفتحت له وبعد أن عانقه عناق حبيب وصفاء من واجهوه بالنقد ؟ . .

لو كان في نيته الاستقالة لما انتظر حتى يرشق بالسهام من كل جانب . . بل لما حضر هذا الاجتماع الذي كان يعرف أنه سينعقد لمحاكمته . . . ولا ستقال احتجاجاً على مجرد الدعوة لاجتماع يعقد لمحاكمته . . . ولكان بهذه الاستقالة قد تفادى موقف الاتهام .

استعرضنا الموضوع من جميع نواحيه وعلنا من مختلف احتمالاته فلم نجد هذه الاستقالة المفاجئة مع الظروف التي سبقتها معنى ولا مبرراً ولا يمكن أن تتسق مع مقدماتها . . فلا بد أن يكون عامل خارج عن الموضوع قد تدخل ، وأخذنا نستعرض ما عطر على بالنا من عوامل حتى اهتدينا إلى العامل الأقرب احتمالاً .

كانت قد توطدت صداقة بين الأستاذ أحمد وبين الأستاذ حسين عبد الرازق منذ انصوى الأخير تحت لواء الدعوة ، ولكنها صداقة من نوع آخر غير النوع الذي يربط بين حسين عبد الرازق وعبد الحكيم عابدين أنها صداقة استقرارية لم يتعودها الإخوان في مجتمعاتهم . . وكان الأستاذ حسين يعرف مآخذ الإخوان على الأستاذ أحمد وأن الإخوان لا يتفاضون عنها ، كما كان يعلم أنه ليس من السهل قبول الأستاذ أحمد توجيه اللوم اليه من أجل هذه المآخذ . . وكان مولئاً بأن جلسة المحاكمة إذا لم تنته بانفصال الأستاذ أحمد فلا أقل من أن تنتهي بتوسيع شقة الخلاف بينه وبين الإخوان . . أما وقد انتهت الجلسة بما لم يكونوا يحتسبون . . بالمصافاة والوثام . . إذن فلا بد من التدخل .

لقد كان الأستاذ أحمد السكري صيداً سميناً هواة الصيد في الماء العكر وما كان أكثرهم في ذلك الوقت . . إن الجميع في ذلك الوقت كانوا يتربصون بالإخوان شراً ، القصر وأحزابه والوند الذي خلج العذار في إعلان حرب دنيئة على الإخوان . . ومن وراء هؤلاء جميعاً الإنجليز الذين هم العدو الاصيل الذي استطاع بمكره أن يحد في هؤلاء المصريين ما يغنيه عن أن يضرب بيده . . .

ولا شك في أن حسين عبد الرازق كانت تنطوى جوانحه على عناصر من الخير ، لكن يبدو أن هذه العناصر لم تكن من القوة بحيث تثبت أمام عناصر أخرى تكالبت عليه من أسرته فانهار بين يديها وصارت تهركه بعد ذلك حيث تشاء . . . وكان أسرته رأت أن تثبت « لسيد البلاد » الذي

بواً عييدها منصب مشيخة الأزهر والذي احتضن ابنها بعد أن أصدر ضده قانون الحرمان لمدة عشرين عاماً وبوأنه منصب وزارة الأوقاف أن تثبت له ولادها وتغانيها في خدمته ، ولم يكن في يديها ورقة تلعب بها في هذا المضمار أريج من ابنها الذي كان من الإخوان المسلمين فسلطته على أحمد السكري بحكم الصداقة بينها .

ولم يكن حسين عبد الرازق أبله حتى يوجه صديقه بعد أن يشحنه إلى الارتقاء على أعتاب القصر فإنه يعلم أن أحمد السكري مهما شحن ضد إخوانه فهو يربأ بنفسه أن يكون في هذا الموضع . . وإذن فليكن التوجيه إلى الوفد الذي كان فاتحاً ذراعيه لأصغر صغير من الإخوان لما بالك بالوكيل العام للإخوان .

ونجح التدبير الأثيم ، وصارت « صوت الأمة » لسان حال الوفد تطالعنا كل صباح في صدرها بكلمات للأستاذ أحمد السكري . . وكان حزننا شديداً وأسفنا عميقاً لا لهجات الأستاذ أحمد على الإخوان فإن ذلك لم يضر الإخوان في قليل ولا كثير ، ولكن كان أسفنا أن يقع مثل الأستاذ أحمد في الفخ ، وأن يتمكن الأعداء لامن الإيقاع به فحسب بل ومن إحراجة في كتابة يعلمون أنها تقطع عليه سخط الرجعة .

كان الأستاذ أحمد السكري أعز على نفس الأستاذ المرشد من أن يراه مخطئاً فلا يقبل عثرته ، وأكرم عليه من أن يتركه مهما كثرت المآخذ عليه دون أن يأخذ بيده . . ولكن الشحنة التي شحنها الأستاذ أحمد أذهلته عن نفسه وغشت على بصيرته حتى لم يعد يرى أبعد من موطن قدمه مع أنه ممن لا يغيب عن مثله أن هؤلاء الذين تلقوه في أحضانهم بضما عثم الكذب وهدفهم الاستغلال ولا مكان في صفوفهم لرجل لم يمش منذ حدوثه إلا في رحاب الدين والأخلاق.. فإذا استقبلوا مثله لا يلبثون بعد أن يستعملوه في أغراضهم أن ينبذوه نيز النواة .

ولكن الأستاذ أحمد لم يدع للأستاذ المرشد فرصة يقيله فيها من عثرته بعد أن كتب ما كتب أو بالآخرى والأدق بعد أن استكتبوه ما أرادوا فأوغر بذلك صدور الإخوان نحوه في كل مكان . وجديري أن أقرر أن الأستاذ المرشد كان شديد الحرص على أن يحمي عرض الأستاذ أحمد فلم يكن حتى جلسة الهيئة التأسيسية التي أشرت إليها والتي عقدت خصيصاً لمحاكمته يسمح بأن يعلم بالمآخذ التي أخذت عليه إلا أعضاء الهيئة ليس غير ، وكان الاتجاه المقرر أن لا يثير الأعضاء في بلادهم ما دار في الجلسة حول هذه المآخذ حتى تظل صدور الإخوان بعيدة عن الحرج نحو الأستاذ أحمد..

أما وقد أوغر الأستاذ أحمد بنفسه صدور الإخوان نحوه فلم يعد للأستاذ المرشد سبيل لإقالة من عثرة ولا لأخذ بيد . . ومن هنا كان حزن الأستاذ المرشد وأسفنا . . وكان ما توقعناه فقد استفل اسمه فترة ثم اختفى ، بدأوا بإبراز كلمته في صدر الجريدة ثم تقهقروا بها إلى داخلها ثم ألقوا بها في زاوية منها ثم لما رأوا أن لا أثر لها ولا نتيجة قد تحققت منها عدلوا عنها .

(٥) مع الوفد وجها لوجه

ألمنا في صفحات سابقة بمناسبات قليلة ألفت بعض الضوء على تصور كل من الهيئتين الوفد والإخوان كل منهما للأخرى ، ويتلخص هذا التصور في الصورتين الآتيتين :

الوفد يتصور الإخوان جماعة دينية بالمعنى المبتور للدين الذى استقر فى أذهان الناس من أنه « دروشة » وعلى رأس هذه الجماعة شاب طموح يريد أن يستغل هذه الجماعة ليبرز حتى يصل إلى كرسى البرلمان ، وأن هذا الشاب من السهل على الوفد احتواؤه وإرضاء طموحه بصورة أو بأخرى والإخوان يتصورون الوفد ثروة شعبية ضخمة اختلسها مؤسسه سعد زغلول وورثها من بعده مصطفى النحاس ، وكان ذلك كله قد تم فى غفلة من صاحب هذه الثروة الأصيل وهو الدعوة الإسلامية . . وأنه ما دام صاحب الثروة الأصيل قد استيقظ من غفلته وثاب إلى رشده فقد وجب أن يسترد ثروته . . والإخوان لا يرون اللجوء إلى القوة وسيلة هذا الاسترداد بل يرون اتباع وسيلة سلمية ملخصها أن نعلن الدعوة الإسلامية عن نفسها ، ونثبت للشعب أصالتها ، وفى هذا الإعلان وحده ما يكفى لإثارة الحنين فى قلوب الأبناء الذين اغتصبوا والذين طالت غربتهم للالتقاء بأبيهم والرجوع فى حضن أمهم .

وعلى هذين التصورين سارت الهيئتان كل فى سبيلها ، فالوفد لا يريد أن يرى الإخوان أكبر من الصورة التى رسمنا إطارها ، والإخوان يعلمون الإطار الذى وضع الوفد صورتهم فيه ، وقد أسعدهم هذا التصور لأنه أناح لهم فرصة العمل الدائب للانصال بالجاهير وعرض دعوتهم عليها دون أن يتعرض لهم الوفد بالمعاكسة أو التعويق . . وظل ذلك سنوات اكتسبوا خلالها مكانة مكنية فى قلوب كثرة غالبية من الشعب .

واستيقظ الوفد أخيراً من غروره ، فرأى ثروته المدعاة التى كان يتباهى بها فخاراً قد نسرب أكثرها ، والتفت فوجد هذه الثروة المتسربة وقد اجتمعت عند الإخوان المسلمين . . . فجن جنون الوفد لأنه قد أتى من مأمنه ، فهو لم يكن يتحذر هذه الناحية التى كان يراها أهون من أن يعيرها

اهتماماً أو يوليها حذراً . فكيف استطاعت هذه الجماعة أن تسحب الأرض من تحت قدميه ؟ !
الوفد يعلن الحرب على الإخوان :

لقد عاصرت الوفد منذ نشأتى وكنت على مقربة من كبار رجاله، ورأيت بنفسى كيف كان القصر وكيف كانت الأحزاب الأخرى تكيد للوفد وتفعل به وبأتباعه الأفاعيل فكانت تنكل بتابعيه كباراً وصغاراً بل إنها حاولت اغتيال رئيسه . . ورأيت كيف كان الوفد يهاجم القصر ويهاجم الأحزاب فى صحفه وفى خطب رئيسه وفى مجتمعاته ونواديه ... ولكنى لم أر هجوماً للوفد كهجومه على الإخوان المسلمين .

لقد كان هجوم الوفد على القصر وعلى الأحزاب ردأً لهجومهم عليه . . هم بدأوه بالاعتداء فهو يرد اعتداءهم ، أما الإخوان فإنهم لم يهاجموا الوفد ولم يتعرضوا له بأذى إهانة أو اعتداء فلم إذن هجومه الضارى عليهم هجوماً لم يسبق له مثيل .

لقد خلع الوفد العذار فى هجومه على الإخوان وتخلّى عن الأخلاق والآداب والمثل واندفع كالمجنون الذى فقد عقله.. ونسى أن له أعداء إذا قوه ألوان الهوان والإذلال ولازالوا يذيقونه.. ترك هؤلاء جانباً وتفرغ للإخوان يهاجمهم بكل ما يملك من وسائل ، فسخر لمهاجمتهم صحفه الجاد منها والهازل وألسته سواء السنة الزعماء والسنة الأتباع ، واستباح فى ذلك الكذب والتمويه والزور والاختلاق . . . ولم يقابل الإخوان هذا الهجوم الغادر بمثله بل تذرعوا بالصبر وواصلوا مسيرتهم فى هدوء وكان الأستاذ المرشد يتمثل بقول الشاعر

من كان يخلق ما يقول فحياتى فيه قليلة

وقد سبق لى أن ذكرت أن بدء شعور الوفد بخطورة الإخوان عليه كان فى تجربة حكومة إسمايل صدق حين قرر الوفد إسقاط هذه الحكومة إبان بوليها الحكم وحشد كل قواته الشعبية ووسائله الإعلامية لذلك ولكنه عجز عن إسقاطها حين أعلن الإخوان تأييدهم لها . . وقد تولت هذه الوزارة الحكم فى فبراير سنة ١٩٤٦ . . ويعتبر هذا التاريخ هو الوقت الذى أخذ الوفد يراجع فيه خططه ويعدّلها على ضوء هذه المفاجأة التى أذهلتها وطارت بصوابه وقد اتخذ تعديلها الأسلوب الآتى :

أثمت زعامة الوفد أعضائه بأن خطورة الإخوان المسلمين عليه تفوق خطورة كل أعدائه لأنها تنازعه الزعامة الشعبية نفسها التى هى رأس ماله . . وإذن فلا بد من حشد كل الوسائل المتاحة للوفد ضد الإخوان المسلمين . . وهذه الوسائل نوعان :

نوع تقوم به فروع الوفد في أنحاء البلاد ضد شعب الإخوان بها من التعرض لهذه الشعب وتوجيه السبب والألفاظ الذميمة إلى أعضائها وإثارتهم بمختلف وسائل الإثارة ومحاولة جرهم إلى معارك وقد قامت فروع كثيرة من فروع الوفد بهذه المهمة في مختلف البلاد ولكن تعليمات الأستاذ المرشد كانت عاصمة لهذه الشعب من الاستجابة لهذه المحاولات حيث اعتصموا بالصبر - وهم قادرون على المواجهة والتأديب - ففوتوا على هذه الفروع تحقيق ما كانوا يأملون . . ولم تنجح هذه المحاولات إلا في جهة واحدة هي بور سعيد حيث دبر فرع الوفد بها هجوماً مباغتاً على الإخوان في دارهم فكانوا لزماً على الإخوان أن يدافعوا عن أنفسهم فأدى ذلك إلى إصابات في الجانبين تولت النيابة تحقيقها وقدمتها إلى القضاء . . ومع ذلك فقد ذهب الأستاذ المرشد بنفسه إلى بور سعيد واجتمع بأهل بور سعيد من الجانبين وشرح لهم موقف الإخوان وأن دعوتهم تجمع ولا يفرق وأنهم وقد اعتدى عليهم لهم في سبيل جمع القلوب وتصفية النفوس وتوحيد كلمة الأمة قد تسامحوا في حقهم . . أما في الجامعة فقد حاول الطلبة الوفديون التحرش بالطلبة الإخوان فقمعهم الإخوان بوسيلة ألحقتهم حين احتكم الطرفان إلى عامة الطلبة إذ دعا مثلوا الوفد إلى الإضراب ثلاثة أيام ودعا مثلوا الإخوان إلى الإضراب يوماً واحداً فاستجاب الطلبة إلى رأى الإخوان ورفضوا الرأى الآخر ، كما قام الوفديون بمحاولات أخرى في الجامعة بامت كلها بالفشل .

والنوع الآخر من الوسائل تقوم به الصحافة الوفدية التي كانت تمثلها في ذلك الوفد صحيفة « المصري » التي كان يصدرها الأستاذ محمود أبو الفتوح وأخوه الأستاذان حسين أبو الفتوح وأحمد أبو الفتوح ومع أن هذه الجريدة كانت جريدة حزبية تمثل حزب الوفد وتطلع كل يوم على الناس بأرائه المعارضة للحكومات المختلفة ومع أنها كانت تفيض أنهارها في كل عدد منها بالمقالات الضافية المؤيدة للوفد فإنها كانت تفيض أيضاً بروح الجد ونزاهة القلم وعفة اللسان . . ولذا فإنها كانت أوسع الصحف اليومية انتشاراً وأكثرها قراء وأقواها تحريراً وأغزرها مادة وحيوية . . وأرادت زعامة الوفد بصحيفتها هذه المعبرة عن آرائها أن تفسح من صفحاتها للحملة التي يهدها الوفد على الإخوان المسلمين ولكن الأستاذ محمود أبو الفتوح وأخوه عارضوا ذلك ورأوا إنجريدتهم أن تلتطخ صفحاتها بالبذاءة والكذب والاختلاق . . فعدت زعامة الوفد ذلك تمرداً من آل أبي الفتوح وقررت أن تصدر صحفاً أخرى يكون أصحابها الممثلين الرسميين للوفد حتى لا تتمرد على نشر ما يقرر الوفد نشره فأصدرت صحيفتين يوميتين هما « الوفد المصري » و « صوت الأمة » وقد تقدم بطلب الترخيص بإصدار الجريدة الأخيرة (صوت الأمة) إلى وزارة الداخلية الأستاذ محمد صوى أبو علم باشا السكرتير العام للوفد شخصياً لما يعقده الوفد على هذه الجريدة من آمال

كبار وحشد لتحريرها مجموعة من أعظم الكتاب وأشهرهم منهم الدكتور طه حسين والدكتور محمود عزمي والدكتور عزيز فهمي والاستاذ محمد عبد التادر حمزة ، وصدر العدد الأول منها في أول أغسطس سنة ١٩٤٦ . وقد يكون من الأحداث الهامة ذات الدلالة في هذا الصدد أن العدد الأول من جريدة الإخوان اليومية قد صدر في ٥ مايو سنة ١٩٤٦

وقامت جريدة « صوت الأمة » بالمهمة الملقاة على عاتقها نحو الإخوان في أول الأمر بحذر ودون إسفاف ، ولعل الوفد كان يتربص بالإخوان موقفاً حرجاً مما يعترى الدعوات فيكون هجومه المركز في هذه الحالة لإجهازاً على الإخوان كما يجهز العدو الضعيف الفادر على جريح . فلما اعترى « الإخوان » هذا الموقف الذي كان يترقبه وكان من صنع القصر وأحزابه رآها الوفد الفرصة السانحة لتوجيه هجومه إذ يكون الإخوان قد حصروا بين نارين .

لما بدأ الوفد يشم رائحة الفتنة الثالثة بين صفوف الإخوان أخذ يعد العدة لإذكاء نار حملته على الإخوان وإمدادها بوقود جديد من البذاءات والسفاهات وهجر القول وراح ينحط بها في هذا الخضيض مستنداً من خيوط الفتنة وقائع اختناقها احتلاقاً . . وأخذت « صوت الأمة » تخرج علينا كل صباح بسيل من الشتائم والسياب وألفاظ يعاف القلم أن يشير إليها تحت عنوان أوحى إليهم به ما يمتثل في صدورهم من حقد هو « هذه الجماعة تهوى » ويبدلونه في بعض الأيام بالعنوان « هذه الجماعة تسقط » .

وقد استخدمت « صوت الأمة » إخواننا الذين أشرنا إليهم قبلاً والذين صنعوا الفتنة الثالثة ورتعوا فيها، استخدمتهم بعض الوقت حتى إذا استفدوا أغراضهم ألغواهم في سلة المهملات وبدأوا في أسلوب جديد من أساليب الافتراء بنشر قوائم طويلة بأسماء أعضاء من مختلف البلاد استقالوا من الإخوان وكان هذا برهاناً جديداً على كذب ما تنشر هذه الجريدة فكل بلد من هذه البلاد التي نشرت أسماء المستقلين منه يعرف أن هذه الأسماء لم تكن في يوم من الأيام أعضاء في الإخوان وإنما هم من الولدين .

وقد يظن القارئ في تعبيراتي عن بذاءة ما كانت تنشره « صوت الأمة » بعض المبالغة، ولكن أعداد هذه الجريدة مازالت تحتفظ بها المكتبات العامة في القاهرة والإسكندرية وبعض العواصم فليرجع إليها من شاء . . وأنا ذا شخصياً - وقد كنت ملاسماً للأحداث وأعرف الناس بكذب ما تنشره الجريدة - قرأت ما نشرته « صوت الأمة » في صبيحة أحد الأيام وكان بأسلوب تعف العاهرات عن النطق به فأثارتني حتى إنني ذهبت إلى الاستاذ المرشد وسألته منفعلًا : هل قرأت ما كتبته

« صوت الأمة » اليوم ؟ فأجابني مبتسماً : نعم قرأته إنها ليست « صوت الأمة » إنها « صوت آلامه » و كان الاستاذ المرشد يشير بذلك إلى ما يشتعل في صدور هؤلاء الناس من الحقد و' يتميز به جميع حقدهم من الغيظ لعداوة ما ألحقه الإخوان بهم من خسائر شعبية لا يسهل تعويضها . على أن سغه هذه الجريدة وإسفافها لم تسلم منه جريدة « المصرى » وهى لسان حال الوفد والى لولاها لما وصلت آراء الوفد وتوجيهاته إلى الشعب فهى وحدها من جرائده التى تصل كل صباح إلى كل بيت وإلى كل يد أما جرائده الأخرى فهى محدودة الانتشار ، ومع ذلك فإن « صوت الأمة » فى نفس الوقت الذى كانت تهاجم فيه الإخوان كانت تهاجم « جريدة المصرى » فنقول فى عددها الصادر فى ١٢ - ٥ - ١٩٤٧ تحت عنوان « جريدة المصرى وأخبار اليوم إخوان » : ليس عجيباً أن تمضى جريدة « المصرى » مع سنن «أخبار اليوم » فى محاولة إلصاق كل اتهام إلى الوفديين خدمة للحكومة وللعهد الحاضر ، لأن الجريدتين شركة واحدة وأغراض واحدة . . ولا يغرن القارئ محاولة هذه الجريدة الإيهام بأنها وفدية « معتدلة » فذلك زعم واضح الكذب ومنهار من تلقاء نفسه وإن كان أصحابه يتعلقون بأهدابه لأن لهم فيه مآرب أخرى .

نماذج من عفة الإخوان فى الرد على الحملة :

ما كان لنا حين نعرض نماذج من رد الإخوان على هذه الحملة أن نسبح لأنفسنا بأن نورد نصوصاً من فحش القول الذى لطخوا به صحيفتهم . . على أن ما كتبه الإخوان فى هذا الصدد لم يكن رداً على سفهمهم وإنما هى كتابة موضوعية بعيدة كل البعد عن أساليبهم . (١) بعد عدة أشهر من بدء الحملة الوفدية الأثيمة وفى أوائل شهر مايو سنة ١٩٤٧ كتب الاستاذ المرشد خطاباً إلى النحاس باشا رئيس حزب الوفد سلمه إليه الاستاذ عبده قاسم السكرتير العام للإخوان فى ذلك الوقت جاءت فيه الفقرات الآتية :

«إن الوفد يمثل خصومه للإخوان ويحاربهم بأسلحة وأساليب غريبة عجيبة لا تتفق مع خلق أو دين أو مصنعة . . . وصحفه تفيض أنهارها بالفاظ جافية تشتمز لها كل نفس مهذبة» . «إن الوفديين لا يزالون يفكرون بمقلية سنة ١٩٢٠ فيقولون : إن الأمة هى الوفد والوفد هو الأمة وإن الشعب قد منحه توكيلاً لا نقض فيه ولا إبرام . ويسقطون من حسابهم ربع قرن فى حياة هذا الوطن ، تبدلت فيه الأرض غير الأرض وتغيرت النفوس . . وانتقل إلى الدار الآخرة أكثر الوكلاء والموكلين على السواء . . وهذا التفكير تخلف عن ركب الحياة . . وعلى هذا الأساس يحارب الوفد الإخوان كما حارب الشبان وكثيراً من الجماعات» .

« إن الوفد في أمانة الأخيرة قد تخللت صفوفه طوائف وأفواج من ذوي والآراء الخطرة والمبادئ الهدامة الذين لا يدينون بغير الشيوعية » .

« وهل ترون أن الوفد قد أدى واجبه بهذا الموقف السلبي الذي يلقفه في هذه الساعات العصيبة في تاريخ الوطن مع أنه كان ولا يزال في وسعه أن يعمل الكثير لو أراد . وأية فائدة تعود على الشعب من مهاجمة صدق باشا في سهوم جيا توتي وشغل الناس بهذا الهراء أو من مهاجمة حافظ ومهسان باشا بغير الحق وهو الرجل العف اليد واللسان ... إنه في استطاعته أن يرسل الوفود إلى عواصم الدول الأجنبية وإلى مقر هيئة الأمم المتحدة تناضل عن حق مصر » .

٢ - وعقب هذا الخطاب أخذت جريدة الإخوان اليومية تنشر سلسلة من المقالات تحت عنوان « بطلان التوكيل » تأتي فيها بحجج كثيرة تثبت أن التوكيل الذي منحه الأمة المصرية للوفد المصري سنة ١٩١٨ قد أصبح باطلاً بطلانا أكيداً .

٣ - وفي أواخر شهر يونية سنة ١٩٤٧ نشرت جريدة الإخوان اليومية مقالا للأستاذ المرشد جاء فيه : « والخصومة بيننا وبين القوم أي الوفدين ليست خصومة شخصية أبداً ، ولكنها خصومة فكرة ونظام . هم يريدون لهذه الأمة نظاماً اجتماعياً مسوخاً من تقليد الغرب في الحكم والسياسة ونحن نريد لها وضعاً ربانياً سليماً من تعاليم الإسلام » .

من آثار هاتين الفتنتين :

لم تكن خسائر الإخوان في هاتين الفتنتين ذات بال ، فإن فقد الأستاذ حسين عبد الرازق واثنتين أو ثلاثة من أمثاله ومخرج الأستاذ أحمد السكري لم ينل من بناء الإخوان أي منال ، بل أستطيع أن أقرر أن خروج هؤلاء وحملة الوفد بعد تأمر الأحزاب الأخرى قد أبرز الإخوان أمام الرأي العام الداخلي والخارجي لأول مرة بناءً شاعراً له معنى الاستقلال فلا هو شرقي ولا هو غربي .. وكل الذين كانوا يتهمون الإخوان بأنهم يعملون لحساب أحزاب القصر ، وكل الذين كانوا يتهمونهم بأنهم يعملون لحساب الوفد أسقط في أيديهم وأروا أنهم قد ضلوا ، واعترف الأعداء قبل الأحياء بأن الإخوان المسلمين دعوة مستقلة .

كما أن الجميع بعد أن رأوا ثبات الإخوان في مواقعهم دون أن تؤثر فيهم حرب الوفد المستعرة المسعورة ... مع أن في يد الوفد أسلحة ماضية يستطيع القضاء بها على خصومه حين يوجه إليهم بعضها وأن يقضى عليهم بين عشية وضحاها .. ولكنه مع الإخوان لم يدخر سلاحاً إلا شهره

أقر الجميع بعد ذلك أن الإخوان بناء منيع لا ينال بل إنهم القوة العظمى على أرض مصر والبلاد العربية .

أما الإخوان أنفسهم فإنهم قد ازدادوا إيماناً مع إيمانهم بأن الاعتصام بحبل الله هو السلاح الذي لا يفشل ، فازدادوا استمساكاً بدعوتهم ، وثقة في قيادتهم ومحبة فيما بينهم .. وأيقنوا أن هذه الدعوة حقاً على معتنقها أن يهبها كل نفسه ويحصر فيها كل آماله ويؤثرها على أهله وماله وعشيرته وإلا كان ممن يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، فوهبوا دعوتهم كل نفوسهم وآثروها على أهلهم ومالهم وذريعتهم .. وقد انضح صدق إيمانهم يوم دعاهم داعي الجهاد إلى فلسطين .

مدى كراهية الملك للإخوان :

أثبتت هاتان الفتتان بما لا يدع مجالاً للشك أن جوانح الملك فاروق تطوى على كراهية عميقة وحقد دفين على الإخوان المسلمين . وأن كراهيته لهم فالت كل تصور ، فهو يكره الوفد كراهية ورثها عن أبيه ، وكان المعتقد أن كراهيته للوفد تفوق كل كراهية ، فلما وقعت هذه الفتنة تبين أن كراهيته للإخوان تفوق كراهيته للوفد ، فلعله كان الموعز إلى آل عبد الرازق بسحب ابنهم من الإخوان ولعله كان الموعز إليهم بالوسوسة إلى أحمد السكري لينقلب على الإخوان .. ومع ذلك فقد رضى عن التجائه إلى الوفد مع أن التجائه إلى الوفد فيه تعزيز للوفد .. وقد طابت نفسه أن يعزز الوفد ما دام هذا التعزيز يرجى أن ينال من قوة الإخوان .

(٦) الشيوعية

لم أكن أجهل وجود تيار شيوعي في مصر . وباعتباري من دعاة الفكرة الإسلامية ، كنت أدرس الشيوعية باعتبارها فكرة اقتصادية واجتماعية وسياسية وأدرس أهدافها ووسائلها ومراميها وكانت لي تجربة قديمة في أوائل الأربعينيات مع شابين جمعي بها قطار الدلتا وسط مجاهل محافظة البحيرة ، وكانا فيما يبدو لي من مظهرهما أنها موظفان صغيران في وزارة الزراعة أو في دائرة زراعية . وكان بادياً في بريق أعينها حينما جمعتهما ديوان القطار بي أنها سعيذان إذ أناحت الظروف لها فرصة الحصول على صيد سمين .. وأخذتا ينصبان شباكهما حول وأنا أتفائل حتى ينكشف لي ما يهدفان إليه فلما تكشف لي أنها شيوعيان - وكنت مخبراً بأسلوب الشيوعيين في المناقشة - التفت إليهما وطلبت إليهما أن يشرحا لي كل ما يعرفان عن الشيوعية من مزايا وتمهيدات

لها بأن لا أقاطعها طالما كانا يعرضان على ما عندهما .. على أن لا يعترضانى بأى مقاطعة طالما جاء دورى فى عرض ما عندى عنها - وهذا الأسلوب الذى أشرت عليه لإجراء المناقشة هو الأسلوب الوحيد الذى لا يدع للشيوخ مجالاً لتميع المناقشة وتشجيعها إذا ما وجد أن من يناقشه أقوى منه حجة - وبعد أن فرغنا من عرض ما عندهما أخذت فى شرح الفكرة الإسلامية لها بطريقة التقسيم إلى بنود يتناول كل بند منها ناحية من نواحي الحياة وطريقة معالجة الشيوعية لها ثم طريقة معالجة الإسلام لها ثم أوازن بين العلاجين مثبتاً نواحي النقص فى العلاج الشيوعى وكيف تلافى العلاج الإسلامى هذا النقص فإذا أنهيت البند أخذت إقراراً منها بتفوق العلاج الإسلامى .

حتى أنهيت البنود كلها وأخذت إقراراً منها بتفوق العلاج الإسلامى عليها جميعاً ، طلبت منها إقراراً بتفوق الفكرة الإسلامية على الفكرة الشيوعية فى إصلاح المجتمع فأقرت بذلك

فلما طلبت إليها بمقتضى هذا الإقرار أن يتركها الشيوعية إلى الإسلام رفضت ، فتمعجت لهذا الرفض الذى يناق العقل والمنطق وسألتهما عن سبب الرفض مع أنها سلمت بتفوق الفكرة الإسلامية فردا على رداً كأنما أنفذاً مخنجرأ فى صدرى قالا :

إن الفكرة الإسلامية أكل وأتم فكرة للإصلاح وليس لها دولة تحميها ، ولكن الفكرة الشيوعية على نقصها لها دولة تحميها .

كانت هذه إحدى تجاربى مع الشيوعيين رأيت إثباتها لما فيها من دلالات ، كما كان للإخوان تجارب كثيرة فى هذا الميدان بل وضع الإخوان مؤلفات تناولوا فيها الشيوعية من مختلف وجوها وقابلوها بالفكرة الإسلامية الرصينة .

كنت أعرف كل هذا عن الشيوعية وأعرف أكثر منه ، وكنت أرى فى معاناة الطبقات الفقيرة فى بلادنا مراً عظيماً للشيوعية ، ولذا كانت دعوة الإخوان تحتضن كل تجمع عمال صناعى أو زراعى ضد مستغلبهم من أصحاب المصانع وملاك الأراضى ، وكانت شعب الإخوان فى المناطق الصناعية كمشرا الخيمة والإسكندرية . وفى المناطق الزراعية ككفر الشيخ مؤنلا لتقابات العمال والعمال الزراعيين فى الوسايا ، وكان محامو الإخوان سندا دائماً لهذه التجمعات العمالية ضد أصحاب العمل وملاك الأراضى وكان فى المركز العام قسم خاص للعمال لرعاية مصالحهم وحل مشاكلهم ونشر الوعى الإسلامى فى أوساطهم .

ولم يكن الإخوان غافلين عن الشيوعية باعتبارها فكرة تريد أن تغزو بلادنا - والفكرة لا يقهرها إلا فكرة - فلم تكن وسيلة الإخوان إلى قهر الشيوعية أن يتصرفوا لها بالنيل منها

وتسفيه أهدافها بل كانت وسيلتهم التي رسمها الأستاذ المرشد هي توضيح الفكرة الإسلامية ونشرها على أوسع نطاق ، ففي نشر الفكرة الإسلامية في مجموعة من الناس في مكان ما تحصين هذه المجموعة ولهذا المكان ضد أي غزو يراد سواء أكان الغزو المراد شيوعياً أو غير شيوعى .

كان الأستاذ المرشد يرى أن الولت الذى نصيحه في مهاجمة فكرة كالشيوعية نحن أخرج إليه لنشر فكرتنا وتوضيح معالمها وأهدافها .. حتى الكتب التي ألفها بعض الإخوان عن الشيوعية لم يكن المقصود منها أكثر من تفقيه الإخوان في الأفكار التي يضطرب بها العالم من حولهم .

ومع أن الإخوان لم يتعرضوا للشيوعية تعرضاً مباشراً مما يعده الناس مقاومة إيجابية ، فإن الشيوعية العالمية كانت تعد الإخوان المسلمين ألد أعدائها وأكبر عائق في طريقها ، في حين كان حکامنا البلهاء يعتقدون أنهم بقوانينهم التي اعتبرت الشيوعية جريمة يعاقب مرتكبها بالسجن والذى هم العائق الأكبر أمام الشيوعية ، ولکم استغلت الشيوعية بلاهة هؤلاء الحكام واتخذت من هذه القوانين التي سنوها والقضايا التي نشأت عنها أسلوباً قوياً من أساليب ترويح فكرتها والدعاية لها ولغت النظر إليها واستجلاب العطف عليها باعتبارها فكرة مضطهدة ومجنيا عليها . وكم كسبت الشيوعية أنصاراً عن هذا الطريق ، وهؤلاء الذين عطفوا على الشيوعية واستجابوا لها يلتبس لهم العذر لأنهم رأوا فكرة تضطهد دون يروا فكرة بديلة يعرضها عليهم هؤلاء الحكام .. وهكذا لقد الشعب نفسه بين دعاة يحملون فكرة - أيا كانت هذه الفكرة - وبين حکام يعيشون دون أن يكون لهم مبدأ محدد ولا فكرة في الحياة وكل بضاعتهم البطش والتنكيل .

ولقد كنت من أشد الناس اقتناعاً بخطة الأستاذ المرشد في مقاومة الفكر الهدامة بإغفال ذكرها وعدم التعرض لها أو الهجوم عليها ، واستغلال كل الوقت والجهد في توضيح فكرتنا ونشرها على أوسع نطاق ، كما كنت أعرف أن الشيوعية العالمية تتميز غيظاً من هذا السلاح الإخواني الرهيب ، وأعرف أننا بهذا السلاح - الذى يبدو للبلهاء سلبياً - قد أغلقنا أمامها مئات البلاد وآلاف المجتمعات في مصر وفي غيرها من البلاد العربية .

ومن المعروف أن الولايات المتحدة الأمريكية التي تولت زمام العالم الغربى بعد الحرب العالمية الثانية قد رصدت آلاف الملايين من الدولارات لمقاومة الشيوعية في أوروبا وفي أنحاء العالم ، واتضح بذلك أن الشيوعية قد صارت منذ وضعت الحرب أوزارها أعدى أعداء أمريكا وإنجلترا والعالم الغرب كله ... وتمشيا مع هذه الحقيقة كان يجب أن تبارك هذه الدول جهود الإخوان المسلمين التي قصمت على آمال الشيوعيين في أن يجدوا لهم موطن قدم في مصر .

ولكن يبهو أن هناك عدواً تعتبره هذه الدول أحق بمعاداتها من الشيوعية ، وأن هذا العدو هو الإسلام والدعوة الإسلامية .. ولا أدري لم تقف هذه الدول من الإسلام هذا المولف مع أهدافها أنها تعمل من أجل خير البشرية جميعاً ومن أجل المحافظة على حقوق الإنسان .. وهذه هي نفسها الأهداف التي يعمل الإسلام لتحقيقها .. فلم إذن العداء إلا أن تكون هذه الدول تفرر بالمشعوب حين تدعى لأهدافاً تعمل في حقيقة الأمر على عكسها .

والجدير الذي لم أكن أعرفه عن الشيوعية والذي كان مفاجأة لي هو أن الشيوعية تستعجّل نفسها أن تستغل الناس ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، وأنها تستغل جهلهم بممارجات الأحداث استقلالاً لئلا وأنها في سبيل ذلك تستعين بالكذب وتلجأ إلى الاختلاق .. إنني ألهم أن تلجأ الشيوعية إلى الكذب لتدعي وتعلن أنها ليست ضد أمان الشعوب في الحرية والاستقلال وإدارة شئونها بنفسها في الوقت الذي تسلب شعبها نفسه في روسيا حريته وتحرمه أدنى حقوق الإنسان في اختيار عقيدته ودينه ، فإنها أي الشيوعية تستطيع أن تموه على هذا الاعتداء على الحرية بألوان سخادة من المظاهر الدعائية التي قد تخدع بعض الناس .. ولكن الكذب على الإطلاق المسجلة في الأوراق الرسمية والأرقام المعلنة فإنه كذب قد تغطي حدود الكذب إلى ما يسمى بالعجز .

تأسست شركتا الجريدة والطباعة للإخوان المسلمين وسجلتا في الإدارة المختصة بالحكومة المصرية باعتبارهما شركتين مساهمتين ، ولم يتعد مجموع رأس مالهما مائة ألف جنيه .. وقررت الهيئة التأسيسية - كما لدمنا - أن يستقبل الأستاذ المرشد من وظيفته في وزارة المعارف العمومية ليتفرغ لإدارة الشركتين وتحرير الجريدة اليومية ، لقاء مرتب شهري قدره مائة جنيه ، ومنحته الهيئة التأسيسية أسهماً في حدود مائة سهم قيمتها أربعمائة جنيه ليكون ضمن هيئة المؤسسين . كما يطلب القانون .

ولم يكن للأستاذ المرشد إيراد قط غير مرتبه من الوزارة من قبل ثم مرتبه من الشركتين من بعد وهذه الأسهم المائة الاسمية .. ورجل مثله له بيت وأسرّة وأولاد وظل ينفق على دعوته من مرتبه. منذ أول يوم قام بالدعوة فهل يبقى له مدخرات يدخرها ؟

لقد كان بيته حتى آخر لحظة في حياته شقة في الدور الأرضي من أربع حجرات في بيت قديم في شارع خلف المركز العام القديم في الخلية الجديدة ، ولم يكن به من الأثاث إلا ما أبقت عليه يد البلى بعد عشرين عاماً من أثاث مدرس في مستوى زملائه .. فإذا علمت أنه كان من أبر الناس بأهله وأنه كان ير أبوبه الشيخين فأى مدخر من مال يدخره مثله ؟

في أواخر الأربعينيات - بعد أن أصدرت حكومة السعديين قرار حل الإخوان بأيام - كنت أؤدي عملي في أحد محاليج القطن في دمنهور ، وكانت لي صلات طيبة بكل العاملين في المحلج ، وكان لأحد العاملين بالمحلج من أهل دمنهور ولد فيه كثير من السداجة وكان يعمل بالمحلج أيضا .. وكذاب كثير من العاملين في استشارتي فيما يمن لهم جامتي هذا الشاب الساذج وقال لي : يا فلان .. لقد انضمت إلى الشيوعيين فقلت له متى ؟ قال : منذ أسبوعين في خلية - سمي لي زملاء فيها كما سمي لي رئيسها ولم أكن أعرفهم - وقال لي : لقد وزعوا على كل منا في الاجتماع الأخير ورقة مكتوب فيها معلومات وأرقام وطلبوا منا حفظ - استظهار - هذه المعلومات والأرقام وأنا غير قادر على حفظها وسيقومون بتسميعها لنا في الاجتماع القادم فما رأيك هل أتركهم لأنني لم أكن أتوقع أن يمتحنونا وقد تركت المدرسة كما تعلم لأنني أكره الامتحانات .. فطلبت منه الورقة فأعطانيها فقرأت فيها ما أذهلني :

قرأت فيها أن حسن البنا هو أكبر رأسمالي في مصر وأنه يملك أسهما ليمتها ربع مليون جنيه (بالأرقام والحروف) في شركة الجريدة ، وربع مليون جنيه في شركة الطباعة ونصف مليون جنيه في شركة المناجم والمهاجر (وهي شركة إخوانية رأسمالها لم يصل إلى عشرة آلاف جنيه) ونصف مليون في شركة كتبوا اسمها ولكنني لم أسمع عنها من قبل .. وهكذا أنصاف ملايين وأرباع ملايين في شركات لا وجود لها حتى صار مجموع ما يملكه أكثر من مليونين ونصف مليون جنيه وأذكر حينذاك أنني أطلعت صديقاً لي بالمحلج كان يحسن الظن بالشيوعية على هذه الورقة فتعجب من جرأة هؤلاء الناس الذين اقترضوا الجبل والغباء في غيرهم فذهبوا في الاختلاق إلى هذا الحد ، وقال : إنني كنت أعتقد قبل قراءة هذه الأرقام وهذه الأسماء للشركات الوهمية أن الشيوعيين قوم جادون ولكنني الآن أصبحت أراهم قوما هازلين .

وقد أيقنت بعد قراءة هذه الورقة أن هناك تواطؤاً بين الغرب والشرق أي بين الرأسمالية والشيوعية على إبادة هذه الدعوة الإسلامية من الوجود .. أما الغرب فأدواته هم حكامنا وأما الشيوعية فإنها تفترس الشباب الغافلين خالي الذهن في غيبة الحقائق عنه وفي ظل حكم إرهابي كمن أفواه البرءاء ليطلق رعاغ الشيوعيين عليهم السنة حداداً والسنة كذاباً آمنين من أن يعترض طريقهم من يستطيعون أن يفضحوا كذبهم ويدحضوا افتراءاتهم .

(٧) المحاكمات والتعذيب

في الوقت الذي كانت قيادات المصريين المتمثلة في الأحزاب السياسية لا هية في لعبة

الفسق إلى دست الحكم من طريق التقرب إلى المستعمر. كان شباب الإخوان المسلمين ساهراً أرقاً
تتمزق نفسه ألماً وحسرة على ما آلت إليه حال البلاد من فوضى يلقية والتفراق اجتماعي وذلك
سياسي. يتلمسون طريقاً لإنقاذ البلاد وتخليصها من هذا الدمار الحائق بها، ولما استندوا إلى
طريق وجدوه بعد قليل مسدوداً، والذي يسده هو تضامن من الملك ويحترق السياسة مع المستعمر
تضامن انقاد المظيع نسيده، كل هم أن يرى سيده راضياً عنه، فهو لا يبالي ما يفعل، مادام ذلك
يرضى السيد.

وإذا سدت الطرق المعدة للوصول وأغلقت الأبواب فللمناصر من الناس منافذ أخرى مهما
أحاط بها الخطر.. لقد كان هذا الشباب الطاهر - الذي وهب نفسه لبلاده - يرى بلاده بيتاً
تشتعل النار داخله وهذه أغلقت أبوابه ووقف على كل باب حراس يدودون الناس عنها، كلما
حاولت مجموعة منهم دخول البيت من باب من أبوابه لإطفاء الحريق وإنقاذ سكان البيت حال
هؤلاء الحراس بينهم وبين الدخول.. فهل أمام هذه المجموعات من ذوي المروءة والتجدة إلا
التحام البيت بأية وسيلة يستطيعونها؟...

كان هذا شعور شباب الإخوان وكان هذا حالهم؛ وجدوا أنفسهم أمام أمرين أحلاهما مر؛
إما أن يسلموا بالأمر الواقع وقد يتسوا من دخول البيت من أبوابه فيسكتوا مع الساكنين
وهم يرون النار تلتهم البيت من داخله مؤثرين السلامة غير عابئين بأهليهم الذين في داخل البيت،
وإما أن يخاطروا باتحام البيت من منافذ الأخرى.

كانت الفكرة المسيطرة على هذا الشباب هي أنهم لا بد من أن يقوموا بعمل ما مهما كانت
خطورة عواقبه لفهم عرى التضامن الأثيم بين حكام مصر وبين المستعمر، لأن كل الشرور التي
تحيق بالبلاد لا تأتي إلا من هذا التضامن... فالمستعمر أجبن من أن يواجه البلاد سافراً وجهاً
لوجه؛ أما بتضامن هؤلاء الحكام معه فإنه يستطيع أن يفعل بأيديهم ما يشاء.. وإذن فإن فصم
هذه العرى بينهم وبينه هو وسيلة التخلص منه.. ولكي يشعروا هذا التحالف الأثيم أن هذا
هذا الشعب لم يعد لقمة سائغة في حلقهم، لا بد من أن يقضوا مضاجعهم ويبثوا الفرع في
نفوسهم ويشيروا الجوى من حولهم.

أعد الشباب الإخواني هذه الخطة المجازفة وهو يعلم ما ينتظره من جرائها من مطاردة
وتنكيل ولكن لا بد من تنقيص الحياة على هؤلاء المتواطئين... وإذا كان الشعب المسكين لا يزال
يفط في نومه فليتقدموا هم لإيقاظه... والشعوب المغلوبة على أمرها لا تستيقظ ولا تنتفض إلا إذا
تقدمت فئة من أبنائها لمواجهة الظالمين حتى ولو راحت هذه الفئة ضحية مواجهتهم.

وإذا كنا قد تكلمنا في الفصول السابقة عن قضية فلسطين باعتبارها النكبة الثانية في التاريخ الإسلامي بعد نكبة الأندلس فإن العنصر الذي اعتمد عليه الاستعمار العالمي في تأجيج نار هذه النكبة حتى أرسيت على ما أرسيت عليه من تدمير أهل هذه البلاد هذا العنصر هو نفسه الذي كان حليف الإنجليز في مصر وعقلهم المدبر للمؤامرات ضد أهلها ، ولذا ملكه الإنجليز مرافق البلاد وأعصاب اقتصادها ، كان هذا العنصر اليهودي اليد اليمنى للمستعمر في مصر فإنا من مؤسسة تجارية ذات شأن إلا وهي ملك لليهود وما من مرفق من المرافق في أبرز موقع في القاهرة إلا وهو ملك لليهود . وكان أكثر هؤلاء اليهود من ذوى جنسية مصرية يحسبهم الجاهل مصريين بالتجنس ، وكانت هذه إحدى الخيل التي لجأ إليها اليهود لتسهيل مهمة المستعمرين في استغلال الشعب المصري ونهبه وإذلاله .

ورأى شباب الإخوان أن تقلب أظافر المستعمر الغاصب ، إنما يتم بتأديب أذنا به وبث الذعر في نفوسهم سواء في مصر وفي فلسطين .

ومن هذا المنطلق الوطني النبيل كانت أعمال بطولية رائعة - فخر المستعمرون أفواههم لجراتها وشجاعتها - قوضت صرح الأمن الذي أقامه حكام مصر للمستعمر ينعم فيه ويستمتع ؛ وبدأ لأول مرة يحس بحرج موقفه وبمخاطر تكتنفه من كل جانب ، وبأن هؤلاء الحكام لم يعودوا الجدار المتين الذي يستند إليه .

ومهما قيل ومهما حدث بعد ذلك ، فإن أحدا لا يستطيع أن ينكر أو يمارى في أن العالم العربي قد استيقظ من سباته على دوى هذه الضربات ، وأن كل ما تذرعه به المستعمرون بعد ذلك من وسائل الضغط والتآمر والإرهاب لم تستطع أن تعيده إلى الزنزانة التي كانوا يسجنونه فيها .. وبدأ عهد جديد من المواجهة بين هذا العالم العربي المنهوب غيره المسلوبة حريته وبين غاصبيه حتى تخلص منهم سواء منهم الغرباء ومن كانوا من بني جلدته .

أما ما يستحق التسجيل بالخزى والعار فهو موقف الحكومة المصرية ، حكومة الأحزاب المصطنعة من خدام القصر وسدنة نزواته ، فإنها قد اتخذت من هذه الأحداث البطولية الرائعة وسيلة للتشهير بالإخوان .. ولا أقول إنها جندت الصحف ؛ فإن الصحف كانت مجنونة نفسها لخدمة المستعمر الذي كانت تنعم في فيض من إغداقه .. وحسبك أن تعلم أن أكثر الصحف المصرية إن لم تكن كلها كانت واقعة في مجال النفوذ المسيطر لشركة الإعلانات الشرقية التي سبق أن كشفنا الستار المزيف الذي كانت تستتر خلفه من اسمها الخداع .

وقد شهدت الحكومة الصينية من وراء هذا التشهير أن تهوى نفوس الرأى العام لتقبل ما سوف يتخذ به بعد ذلك ضد هذا الشباب من اعتقال وتنكيل وتعذيب ... وقد فعلت هذه الحكومة ذلك كله ، ثم قدمت عدداً كبيراً منهم آخر الأمر إلى القضاء ... فلم يجد هذا الشباب الإنصاف إلا فى آخر المطاف حين قدم إلى القضاء الذى كان لا يزال بخير .

وإحقاقاً للحق ، ووفاء بحق التاريخ ، واستجابة لقول الله عز وجل «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » تقرر أن هذا الشباب الذى أنجز هذه الأعمال البطولية الرائعة كانت منه سقطة انحرفت ببعض أفرادها عن الطريق وعرجت بهم عن الجادة التى حددتها قيادة الدعوة فاتخذوا من تلقاء أنفسهم عملاً ضد أحد رجال القضاء ، فأعلنت قيادة الدعوة تبرئها منهم ... وسنفرد إن شاء الله صفحات قادمة للحديث بإفاضة عن هذا العمل وما أحاط به من ملايسات وظروف وما تمخض عنه من نتائج .. كما تتناول الأعمال البطولية التى أشرنا إليها هنا بإفاضة مكتفين فى هذا الفصل بهذه الإشارة العابرة .

وكل ما استطاعت الحكومة أن تتقرب به إلى المستعمر زلفى فى صدد هذه الأحداث أنها سخرت جهاز إعلامها المتمثل فى الإذاعة والصحف التى كانت تحت طائلة الرقابة والأحكام العرفية فقلبت الحقائق ووصمت الإخوان بالوحشية والاعتداء على المسالمين الأمنيين ، وادعت عليهم أنهم قد أعدوا العدة لقلب نظام الحكم ثم انتهزت فرصة القبض على بعض الإخوان والتحقيق معهم فسلطت عليهم سفهاءها وجلاذيتها فأذاقوهم ألواناً من التعذيب وصنوفاً من التنكيل .. محاولة بذلك الفت فى عضد هذه الدعوة ، وتحطيم محتوياتها أملاً فى أحد أمرين: إما أن تزول من الوجود وتخفى من المسرح ليخلو الجو لهم مع سادتهم المستعمرين ، وإما أن تغير من خط سيرها على الأقل وتنتهج نهجاً آخر تعفى نفسها فيه من أخطار مواجهة المستعمر ... لكن شيئاً من ذلك لم يتحقق لهم وظلت الدعوة ثابتة على مبادئها أرسخ من الجبال الشم .. ولنا عودة إلى هذه المحاكمات فى الجزء القادم إن شاء الله من هذه المذكرات .

(٨) استغلال حرب فلسطين للقضاء على الدعوة

نعود فى هذا الفصل أيضاً إلى حرب فلسطين التى كانت فى فصل سابق أحد المظاهر التى تبطلت فيها قوة الإخوان تجلياً أخفت كل صوت شعبى فى مصر وفى العالم العربى كله .. وأعود

إلى ذكرها في هذا الفصل لأنني أعتبر هذه الحرب كما أنها كانت مظهراً لقوة الإخوان فأنها أيضاً كانت مصيدة أعدت لاصطيادهم وقد أستطيع إبراز هذا المعنى في الصور الآتية التي أعرضها بين يدي القارئ :

أولاً : إظهار قوة الإخوان :

لم يكن نهوض الإخوان بأعباء القتال في فلسطين وسيلة انتهزوها لإظهار قوتهم كما قد يتبادر إلى بعض مخلاة الأذهان عن حقيقة الإخوان وطبيعة دعوتهم وطريقة تربيتهم فإن نكران الذات هو الصفة المميزة لشخصية الأخ المسلم ؛ وكيف لا وهو يفقه أمر الرجل الذي أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل ليذكر والرجل يقاتل شهادة ويقاتل حية أيهم في سبيل الله ، ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » ، كما أنهم يعرفون أن هذا القتال ليس إلا نوعاً من العبادة ويقرأون قول الله تعالى « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » ولقد حاولت في الفصل السابق إيراد نكت من وصف بعض المواقع في هذه الحرب ليتبين للقارئ أن هذا الشباب الذي ترك أهله وعمله وماله ونجارتهم وانخلع من كل متاع الحياة ، لم يذهب إلى فلسطين إلا لسحق أمل واحد هو أن يحظى بالشهادة في سبيل الله ؛ وإلا لو كان يطلب متاع الدنيا لما تحرك إلى قتال لا يجد فيه مؤازرة من حكومة ولا تشجيعاً من أحد يرجى عنده أجر أو تؤمل لديه منزلة ... فإياك وهو يذهب إلى قتال يجد كل الجهات التي يتجه إليها طلاب الدنيا تعاديه وتترص به وتضع العرائيل في سبيله .

ومنذ أول يوم في هذه الحرب رأى متطوعو الإخوان بأعينهم أن إخوانهم الذين استشهدوا لم تقرر الحكومة لأهلهم معاشاً ولم ترصد لأبنائهم وزوجاتهم تعويضاً وحتى الصحف والإذاعة لم تعلن أسماءهم ولا حتى أشارت إليهم ... فكيف يبقى هؤلاء المتطوعون في صفوف القتال - وهم يخبرون وقد علموا هذه المواقف - إلا إذا كان هدفهم أسمى من ذلك وأكرم وهو ما وعدهم الله به في قوله «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن هم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بمعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم» .. كما أنهم يعلمون علم اليقين أن الهيئة التي ينتسبون إليها لا تملك أن تعطى وإنما هي تنفق على الضروريات التي لا غنى عنها من جيوب أعضائها الذين هم عادة من طبقة الفقراء وأشباه الفقراء .

وقد أوضحت من قبل أن اتصال الإخوان بقضية فلسطين اتصال قديم يوم كان الشعب المصري عامته وخاصته يجهلون كل شيء عن هذه القضية .. والذين يريدون أن يظهروا على مسرح حياة الشعب لا يربطون أنفسهم بقضية مجهولة وإنما يربطون أنفسهم بما يشغل بال الناس ويستولى على ألبابهم .. وقد واصل الإخوان العمل لهذه القضية التي كان هدفهم أن يشهروها بأنفسهم لا أن يشهروا أنفسهم بها .

أما أن هذه الحرب قد أظهرت للعالم قوة الإخوان ، فهذه حقيقة لا مرأ فيها ، ولكن هذه الحقيقة لم تكن هدف الإخوان ولا مما سعى الإخوان له .. وليس ذلك بغريب في تاريخ الدعوة الإسلامية فالرعي الأول من المجاهدين سجل التاريخ لهم بمداد الفخر مواقف في حروبهم لازال العالم يتفنى بها ومع ذلك فقد كانوا أئمة المخلصين .

وما كان للإخوان أمام تطور الأحداث في قضية فلسطين من خيار في موقف يتخذونه ، لما كان لقوم نذروا أنفسهم لهذه القضية منذ أول أيامها أن يتخلوا عن إجابة نداءها في الدور الخامس من أدوارها ، وهو اليوم الذي كانوا يترقبونه من قديم ، ولم يكن ليطي بهم عن الاستجابة لهذا النداء أن يعرفوا ما وراء هذه الاستجابة من إظهار العدو - الحكومة المصرية العميلة والمستعمر - على مدى قوتهم ، فإن هذه الاستجابة كانت أشبه برد الفعل الذي لا يمكن التحكم فيه أو كانت بمثابة الدفاع عن النفس وهو مالا مجال معه للاختيار .

ثانيا : استعداد اليهود حلفاءهم ضد الإخوان :

لم يكن اليهود يجهلون حقيقة الإخوان المسلمين بل كانوا يعرفونهم من قديم منذ أوائل الثلاثينات وكانوا أشد الناس حذراً منهم وكراهية لهم وحقداً عليهم .. وكانوا موقنين منذ قرار هيئة الأمم في نوفمبر سنة ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين من أن الإخوان لن يقفوا مكتوف الأيدي أمام هذا القرار .. ولهذا أخذ اليهود في كل مكان في العالم يعدون حملة استعداد لحلفائهم ضد الإخوان لأنهم يعلمون أن لا طاقة لهم يقوم يشتبون الموت ولا يهابون شيئاً ..

ونسوق هنا جزءاً من مقال كتبتة لثاة صهيونية تدعى «روث كاريك» ونشرته لها جريدة «الصنداي ميرور» في مطلع ١٩٤٨ ونقلته جريدة «المصري» لقراءتها في حينه . قالت فيه الكاتبة :

«إن الإخوان المسلمين يحاولون إقناع العرب بأنهم أسمى الشعوب على وجه البسيطة ، وأن الإسلام هو خير الأديان جميعاً وأنفسل قانون تحميها عليه شعوب الأرض كلها . ثم استطردت

تصف بشرة حركة الإخوان إلى أن قالت : والآن وقد أصبح الإخوان المسلمون ينادون بالمعركة الفاصلة التي توجه ضد التدخل المادي للولايات المتحدة في شئون الشرق الأوسط وأصبحوا يطلبون من كل مسلم أن لا يتعاون مع هيئة الأمم المتحدة ، فقد حان للشعب الأمريكي أن يعرف أى حركة هذه . وأى رجال يتسترون وراء هذا الاسم الرومانتيكى الجذاب اسم «الإخوان المسلمون» وقالت - وهذا هو بيت القصيد - : إن اليهود في فلسطين الآن ، هم أعنف خصوم الإخوان المسلمين ، ولذلك كان اليهود هم الهدف الأساسى لعدوان الإخوان وقد قام أتباعهم بهدم أملاك اليهود ونهب أموالهم في كثير من مدن الشرق الأوسط ، وهم يعدون الآن العسنة للاعتداء الدموى على اليهود في عدن والبحرين وقد هاجموا دور المفوضيات والقنصليات الأمريكية وطالبوا علنا بانسحاب الدول العربية من هيئة الأمم المتحدة .

«وبعد هجوم عنيف على سماحة المفتى الأكبر السيد أمين الحسيني وعلى المرشد العام للإخوان المسلمين الأستاذ حسن البنا ختمت مقالا قائل : وإذا كان المدافعون عن فلسطين - أى اليهود - يطالبون الآن مجلس الأمن بإرسال قوة دولية لتنفيذ مشروع التقسيم الذى أقرته هيئة الأمم المتحدة ، فإنهم لا يطالبون بذلك لأن الدولة اليهودية في حاجة إلى الدفاع عن نفسها ، ولكنهم يريدون إرسال هذه القوة الدولية إلى فلسطين ، لتواجه رجال الإخوان المسلمين وجها لوجه ، وبذلك يدرك العالم كله الخطر الحقيقى الذى تمثله هذه الحركة .

وإذا لم يدرك العالم هذه الحقيقة في وقت قريب ، فإن أوروبا ستشهد ما شهدته في العقد الماضى من القرن الحالى إذ واجهتها حركة فاشية نازية ، فقد تواجهها في العقد الحالى إمبراطورية إسلامية فاشية تمتد من شمال أفريقيا إلى الباكستان ومن تركيا إلى المحيط الهندى .»

ولم يكن هذا المثال هو الأول من نوعه ولا الأخير فقد دأبت الصحف الأوروبية والأمريكية على نشر مقالات طويلة من هذا النوع كلها استمراء لهذه الدول على الإخوان المسلمين .

ومن العبارات ذات الدلالة الخطيرة ما نشرته إحدى الصحف الأمريكية في تلك الفترة وسبق أن أشرت إليه في فصل سابق حين وصلت الأستاذ حسن البنا وصفاً دقيقاً استعرضت فيه سماته البدنية وسماته الفكرية والنفسية ثم قالت : إنه صار أقوى شخصية في الشرق العربى ، وإن هذه الشخصية لن تهزم إلا أن تصير الأحداث أقوى منها .

والدلالة التي تطل من وراء هذه العبارات هي أن الجريدة - الواسعة الانتشار - تسوق هذا

الوصف الدقيق لشخصية المرشد العام للإخوان المسلمين في أسلوب تحذيري فيه معنى استعداد الشعب الأمريكي وحلفائه وحُثم على تدبير مؤامرات لخلق أحداث جسام تقهر هذه الشخصية ، وتقضى على عظمتها وتسلبها المقدرة على بسط سلطانها على الشرق العربي الذي تعتبره حكومات هذه الدول الكبرى مجال نفوذها .

وما تجدر الإشارة إليه أن العالم العربي في ذلك الوقت كان يعج بالأحزاب والهيئات السياسية والاجتماعية ، ففي مصر كانت الأحزاب والزعامات التي طالما أشرنا إليها كما كان في سورية ولبنان والعراق حزب البعث السوري الذي يدعى أنه قام لبعث العرب من سباتهم ضد المستعمر ، كما كان بسورية الحزب القوي السوري .. إلا أن المستعمرين حين جد الجد لم يوجهوا حملتهم إلى حزب من هذه الأحزاب ولا إلى هيئة من هذه الهيئات التي تنادى بأنها ضد الاستعمار والمستعمرين وإنما وجهوا حملتهم إلى الإخوان المسلمين وألقوا بثقلهم كله عليهم وحدهم ، ذلك أنهم كانوا يعلمون أن جهود هذه الأحزاب والهيئات لن تتعدى خطباً تلقى ومقالات تنمق وشعارات يهتف بها ومظاهرات إن قامت فهي مزايدات للتنافس على الحكم في ظل سلطة الاستعمار .. أما الإخوان المسلمون فقد جرب المستعمر معهم وسائله فلم تفلح واحدة منها لأنهم أصحاب فكرة يؤمنون بها ولا يقبلون المساومة عليها .

ثالثاً : استفاد جهود الإخوان :

وما لا شك فيه أنه كان لنداءات اليهود واستعداداتهم صدى في نفوس حلفائهم في أنحاء العالم ، ولا بد أن هؤلاء الحلفاء قد دبروا أمراً ووضعوا خطة وشرعوا في تنفيذها لا سيما والوقوف في وجه الدعوة الإسلامية الزاحفة أمر طالما شغلهم من قبل أن يظهر اليهود على مسرح الأحداث .. فإذا كان القدر قد وضع اليهود في مواجهة الإخوان المسلمين .. إذن فلتكن الخطة هي الوقوف وراء اليهود يمدونهم بالمال والأسلحة الحديثة والتدريب ثم استفلال إخلاص الإخوان لدعوتهم وبنائهم على القتال ، لتلقى هذه الدعوة بفولاذات كبدها في المعركة فتستنفد قوتهم أولاً حيث تطحنهم الحرب طحناً ثم تبدأ مباشرة المؤامرة العالمية للاجهاز عليهم .

رابعاً : الحاقدون بين عاملين :

كان الإنجليز والمستعمرون عموماً قد حددوا اليد التي سيضربون بها الإخوان المسلمين ، واطمأنوا إليها ، وعلموا أن هذه اليد تتحرق شوقاً إلى أن تستخدم في ضرب الإخوان لأن قلوبها

ممتلئة حقداً عليهم ، ولولا أنها لا ترى في نفسها القوة الكافية لضربهم من زمن بصره ، وهي لذلك تنتظر في شوق وتشوق إلى قوى خارجية تستند لها وتشد من أزرها .. ولم تكن هذه اليد إلا الملك السادر في غيه وعصابته من المستوزرين من السعديين ..

فلما صدر قرار تقسيم فلسطين وقابله العرب والمسلمون في كل بقاع الأرض بقضب جارف ، وكان اتجاه الجميع في العالم العربي أن لا يد من عمل إيجابي ، وأعلن الإخوان عزمهم على التصام مساحة القتال ، وجد الحاقدون أنفسهم أمام أمرين أحلاهما مر : هل يفسحون المجال للإخوان ليرسلوا متطوعين إلى فلسطين ؟ وإذا دخل هؤلاء المتطوعون المعركة - مع ما يتصفون به من فدائية وبسالة - فإنهم سيعرفون من ذكر الإخوان في مصر وفي العالم كله .. وهم - أي الحاقدون - يرون في ذلك القضاء المبرم على نفوذهم بل على وجودهم ... أم يحولون - بمأثم من سلطات حكومية - بين متطوعي الإخوان وبين الخروج إلى ميدان المعركة فيضمنوا بذلك أحد من ازدياد قدور الإخوان في نفوس الشعب ؟

وفي هذا الصدد نقل من كتاب الاستاذ كامل الشريف «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين» ما يلي :

«جاء شهر مايو من عام ١٩٤٨ وكان بداية تحول كبير في مجرى الحوادث إذ انتهى له الإنجليز انتدابهم وعثموا آخر صفحة لسياستهم في فلسطين .. وظن الإخوان أن عهد التصفيق والإرهاب قد انتهى بانسحاب الإنجليز ، وأنهم يستطيعون الآن إدخال قواتهم دون خوف أو وجل وأن الوقت قد آن لينى مرشدهم العظيم بوعده ليدخل إلى فلسطين عشرة آلاف مقاتل كدفعه أولى كمد سبق له أن تورق في برقيته المشهورة التي بعث بها إلى زعماء الدول العربية في اجتماعهم «بعلية» .. ظن الإخوان ذلك ولكن جاءت الحوادث لتخلف ظنهم وتقنعهم أن سياسة الإنجليز باقية وإن انسحبت جنودهم من الميدان ..

طلب الإخوان من حكومة الدتراشي باشا السماح بإدخال فوج من مجاهديهم ليرابط في الجوة الشبلى من صحراء النقب فرفضت الحكومة هذا الطلب وأصررت على عدم السماح لهم بذلك ، مما اضطر بعضهم إلى طلب السماح لهم بالقيام في رحلة علمية إلى «سيناء» فوافقت حكومة الدتراشي بعد إلحاح شديد ، وحضرت تلك المجموعة إلى «سيناء» وتسالت منها إلى فلسطين سرّاً حيث خلقت بها دفعات أخرى تسالت بطرق مختلفة ، وكانت حيلة دخلوا بها إلى فلسطين . وبدخول هذا الفوج بدأ القتال الفعلي في صحراء النقب ، فأخذ يهاجم المستعمرات اليهودية بصلابة وعناد رغم قلة عدده وضعف أسلحته ، وتجمع حوله المجاهدون من أهل فلسطين وبدأت حرب عصابات منظمة

كانت تبشر بنجاح رائع .. ومر شهران وعلمت الحكومة لطلبت إلى المركز العام بحسب تواتره من النقب ، وكان طبيعياً أن يرفض الإخوان ، المجأت الحكومة إلى قطع الإمدادات والتموين ومراقبة الحدود بشدة لتضمن عدم وصول شيء منها إلى المجاهدين حتى تضطرهم للعودة إلى مصر ، ورأى المجاهدون أنفسهم خلال قتالهم الرائع يعيشون أياماً طويلاً على التمر والماء وعلى الخبز اليسير الذى يشترونه من نقود قليلة يرسلها أهلهم بين حين وآخر

بقى المجاهدون في ميدانهم يعملون ، ووجدوا من إخوانهم العرب كل معونة ورعاية حتى دخل الجيش المصرى وأخذ يهاجم المستعمرات اليهودية في النقب ، واشترك الإخوان في معظم العمليات الحربية التي قام بها . وكان طبيعياً أن ينقص عددهم بفعل المعارك الطاحنة وما سقط منهم فيها من الجرحى والشهداء .. وحتى في تلك الأوقات الخرجة لم تحاول الحكومة أن تراجع موقفها وأن تسمح للإخوان بدخول الميدان ولا لتعويض هذه الخسائر الكبيرة في الأفراد بل شددت رقابتها أكثر من ذي قبل . وكان الإخوان يعلمون حقيقة الموقف في فلسطين ويتشوقون للحاق بإخوانهم ، ولكن قيود الحكومة كانت تقف حاجلاً دون التنفيذ مما اضطر كثيرين منهم إلى الهجر سيراً على الأقدام .

ولا زلت أذكر ذلك اليوم الذى حضرت فيه جماعة من الإخوان قوامها خمسة عشر شاباً لم تكن تزيد أعمارهم عن السادسة عشرة وكانوا كلهم طلاباً في المدارس الثانوية . وسألتهم عن سبب مجيئهم فقالوا إنهم يرغبون في تأدية فريضة الجهاد بعد أن نجحوا في امتحاناتهم لهذا العام . ثم أخذوا يقضون على أنباء رحلتهم الشاقة وكيف غافلوا رجال البوليس وقفزوا إلى عربات البضائع في قطارات السكك الحديدية ، وكيف ساروا مسافات شاسعة في صحراء سيناء الموحشة بمعونة دليل من البدو . ثم لجأت الحكومة السعودية إلى حملة أخرى فأمرت بوليسها أن يمنع عودة المجاهدين الذين يغادرون الميدان لزيارة أهلهم في إجازات قصيرة ، حتى ينقص عددهم وينتهى أمرهم ، وقد فطنا إلى الحملة بعد مدة فألغينا الإجازات وقررنا نسيان الأهل والولد حتى نصبح على الحكومة فرصتها ونستمر في جهادنا» .

ويقول الأستاذ كامل الشريف : «طالب اللواء الموادى بك قائد الجيش المصرى في فلسطين بإحضار عدد كبير من شباب الإخوان وإرسالهم فوراً إلى الميدان ، وسافر لهذه الغاية إلى القاهرة الأستاذ الشيخ محمد فرغل رئيس الإخوان في فلسطين . ولقد حدثني الصاغ محمود لبيب

وكيل الإخوان للشئون العسكرية أن عبد الرحمن عزام باشا أمين الجامعة العربية قد استدعاه في ذلك التاريخ ورجاه أن يعمل على تجنب هذا العدد لأن خطورة الموقف العسكرى تتطلب إرسائهم على وجه السرعة ، ومضى الصاغ لبيب فاتصل بشعب الإخوان في القطر وأمر كل شعبة بتجهيز فرد واحد من أعضائها وإبقائه مستعداً للسفر في مدة معينة .

ولكن ما إن تناهى النبأ إلى مسامع النقراش باشا حتى هاج وماج ورفض قبول الفكرة من أساسها ولم يستطيع الإخوان تعليل ذلك الرفض حتى جاءت الحوادث القريبة بعد ذلك لتعلن الحقيقة المرة ، وهى أن النقراش كان مشغولاً في ذلك الوقت بتنظيم خطة للقضاء على الإخوان ومحوهم من الوجود .

ولقد رأيت أن أنقل هذه الفقرات لأكشف لأبناء هذا الجيل المضلل عن صفحة من صفحات الخفى والمار عمل الساسة المتواطئون مع العدو على طمسها وحجبها عنهم تزويراً للتاريخ وستراً على جرائمهم التى تتضال أمامها الخيانات العظمى .

ولكن هل استكان الإخوان وبنسوا ورضوا من الغنيمة بالإياب ؟ لا بل إنهم لجأوا إلى حيلة أخرى هى أنهم قدموا شبابهم للعمل تحت قيادة الجامعة العربية .

ويتضح من ذلك أن الحاقدين قد استقر رأيهم على أن يحولوا بين الإخوان وبين الوصول إلى أرض المعركة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .. ولكن لأن هذه الحرب لم يكونوا هم الطرف الوحيد فيها بل كانت الدول العربية أطرافاً فيها أيضاً فانهم لم يستطيعوا الحلولة الكاملة التى أرادوها بل كل ما استطاعوه هو الحد من عدد الإخوان ، وحرمانهم من الأسلحة الكافية والخبرة اللازمة .
خامساً : الانقضااص من الخلف على المجاهدين :

لما خرج الأمر من يد الحاقدين ورأوا أنفسهم أمام أمر واقع من تدفق المتطوعين من الإخوان على الميدان في فلسطين . لا سيما بعد أن ساءت حال القواط المصرية في الميدان نتيجة سوء تصرف الحكومة السعدية وخضوعها للسياسى بل تواطئها مع المستعمر فقد حاصرت قوات اليهود الجيش المصرى وطلب قائد الجيش المصرى أن يمد بقوة من الإخوان المسلمين لإنقاذ الموقف وأنقذ الإخوان الموقف فعلا وفكوا الحصار عن الجيش المصرى وأشادت قيادة الجيش بالإخوان المسلمين كما أشادت صحف العالم بهم .. حينئذ أكل الحقد للوب السعديين كما أكل قلب معبودهم فاروق .
وقد أعياهم الحقد الأسود فسلخوا طريقاً ظنوا أن فيه نجاتهم وتدمير الإخوان ، فكان فيه

دمارهم. ودمار البلاد . وكان فيه التمكين لليهود .

أما الطريق الذي سلكوه والذي وجههم إليه الاضطبوط العالمى للتآمر الأمريكى الأوروبى فى خدمة اليهودية العالمية والذي اکتتمات بسلوكه سلسلة الموارمات للقضاء عل الإخسوان المسلمين ، فسورجى تناوله بالحديث إلى الجزء الثانى من هذه المذكرات إن شاء الله وهو يتضمن الحلقتين-التاسعة والعاشرة الباقيتين من مخطط التآمراتى عاجلنا منها ثمانى حلقات حتى الآن . وهاتان الحلقتان هما قرار الحل واغتتيال المرشد العام .

المفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٣
تقديم الكتاب الأستاذ مصطفى مشهور	٥
المقدمة	٩
المدخل	
أولا - العقيدة	١٩
ثانياً - العبادة	٢٢
ثالثاً - المعاملة	٢٥
النساء	٢٧
من آثار البيئة	٢٨
التعلق بالقرآن - أول فراق لرشد	٣١
في إجازات الصيف	٣٤
جمعية الشبان المسلمين برشد	٣٥
انتقاد الضالة المنشودة	٣٦
إلى الجامعة في القاهرة	٣٧
أول لقاء عابر مع الأستاذ حسن البنا	
كيف تعرفت على الإخوان المسلمين	٣٨
عقيدتنا	٤٤
مظاهرة كوبرى عباس عام ١٩٣٦	٤٢
في الطريق إلى المركز العام	٤٤
إلى دار المركز العام	٤٥
نظام الدار	٤٦
مجلة الإخوان وشعبهم	٤٨
من هم أعضاء المركز العام ؟	٤٩
الزعاية - شخصيات أخرى	٥٠

الصفحة	الموضوع
٥٣	المهام المنوطة بالمرشد العام
٥٧	لفتة إلى وراء : المرشد قبل القاهرة
٥٨	من جهود الطالب حسن البنا
	الحملة الصليبية الجديدة أو الغارة التبشيرية
٦٣	إنشاء جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة
	كتاب «الغارة على العالم الإسلامى»
٦٤	ليقضى الله أمراً كان مفعولاً
٦٥	فى الإسماعيلية
٦٦	من آثار الدعوة فى الإسماعيلية
٦٧	شركة جباسات اليلاح - جنرال لا إمام
٦٨	زواج المرشد العام - انتشار الدعوة فى المنطقة

الباب الأول

فى شارع الناصرية

٧١	مقدمة
٧٢	تركيز الجهود على الطلاب - تكوين لجنة الطلبة

الفصل الأول

العمل الطلابى المنظم

٧٥	أولاً - توزيع مجلة الإخوان
٧٦	ثانياً - نشر الدعوة داخل الكليات
٧٨	حرم الجامعة
٧٩	الثالث - نشر الدعوة فى الأقاليم
٨٠	رابعاً - عام المءارك
٨٠	أ - معركة المساجد
٨١	فى كلية الزراعة
٨٢	فى كلية الآداب

الموضوع	الصفحة
ب - معركة مع المخابرات البريطانية	٨٤
ج - مع المعركة في فلسطين	٨٨

الفصل الثاني

الدعوة على مفترق طريقين

هل نهاجر؟....

ترجمة القرآن الكريم ومعركتها	٩٩
الحج - الرجوع من الحج بمفاجآت ومفاهيم جديدة	١٠١

الباب الثاني

في ميدان العتبة الخضراء

الفصل الأول

إبراز الإخوان باعتبارهم فئة متميزة من الفئات الأساسية في المجتمع المصري

الأسلوب الأول	١١١
الشارة والمجلة	١١١
أسباب اختيار هذا الوضع لشارة الأصم	١١١
أ - الوصايا العشر	١١٢
ب - الدرجات العشر	١١٢
ج - في صفات المؤمنين	١١٣
د - مقومات البر	١١٣
هـ - الأوامر العشر	١١٣
و - صفات المتذكرين	١١٣
المجلة	١١٤
الأسلوب الثاني	١١٥
الاتصال بالتجمعات في مصر	١١٥
الانصال بنقابة معلمى التعليم الإلزامى	١١٦
الأسلوب الثالث	١١٧
عقد المؤتمرات الإخوانية	١١٧
١ - مؤتمر المنصورة	١١٧
٢ - مؤتمر أسبوط - صلاة العيد في الإسماعيلية	١١٩

الموضوع	الصفحة
٣ - المؤتمر الخامس	١٢٠
الأسلوب الرابع	١٢٣
الاحتكاك بالأحزاب والهيئات	١٢٤
أما الأحزاب الناشئة أو الفتية	١٢٤
تحطيم الخوارج	١٢٦
نحن والأحزاب التقليدية	١٢٨
محاولتهم الإيقاع بين الإخوان والحكومة	١٣٠
مؤامرة لاغتيال المرشد العام	١٣١
نحن والهيئات الدينية	١٣٥
أولا - الصوفية	١٣٦
ثانيا - السنية - الجمعية الشرعية	١٤٠
جمعية أنصار السنة	١٤١
الأسلوب الخامس	١٤٢
الاتصال بزعماء المسلمين في مصر والخارج	١٤٢
مقابلة المرشد محمد محمود باشا	١٤٥
قال لي هؤلاء الشيوخ	١٤٦
لقاء المرشد العام بالملك فاروق	١٤٦

الفصل الثاني

الأخذ بأساليب عملية في التكوين والتربية ونشر الدعوة

الأسلوب الأول	١٥٠
نظام الكتاب	١٥٠
١ - ورد المعرفة	١٥٣
٢ - ورد الوفاء	١٥٤
٣ - ورد التفكير	١٥٥
٤ - ورد المراقبة	١٥٧

الموضوع	الصفحة
٥ - ورد الإخلاص	١٥٨
٦ - ورد الإيمان	١٥٩
الأسلوب الثاني	١٦١
نظام الجلالة	١٦١
مشكلة الملابس	١٦٢
المسكرات	١٦٢
الأسلوب الثالث	١٦٨
لجنة الأربعة والعشرين	١٦٨

الفصل الثالث

مهاجمة الانجليز واليهود والانطلاق بقضية فلسطين

كتاب «الذار والدمار في فلسطين»	١٧٤
دوسيه حسن البنا في السفارة البريطانية	١٧٦
- مظاهرات لأول مرة في جميع أنحاء القطر	١٧٧
من مواهب هذا الشعب	١٧٨
- أول مؤتمر عربي من أجل فلسطين	١٧٩
- المؤتمر البرلماني العالمي	١٨١

الفصل الرابع

الفتنة الأولى

أولا - أضواء على نواح من شخصية حسن البنا	١٨٣
١ - رأى الشيخ طنطاوى جوهرى	١٨٣
٢ - قوة روحية حارقة	١٨٧
٣ - بصيرة نافذة ورأى ملهم : حول سيد قطب	١٩٠
ثانيا - ضوء على بعض شخصيات الدعوة	١٩٢

الصفحة	الموضوع
١٩٢	أحمد رفعت - صديق أمين
١٩٣	عزت حسن - حسن السيد عثمان
١٩٤	عيسى عبده - أحمد حسن الباقوري
١٩٧	عبد الحكيم عابدين
٢٠٠	ثالثا - خيوط الفتنة
٢٠٥	توقف كل شيء في المركز العام
٢٠٥	هل هو تسام أم انحدار إلى الخضيض؟
٢٠٦	تنفيذ خطة المقاومة
٢١٠	خاتمة
٢١١	خسائرنا في هذه الفتنة

الباب الثالث

في ميدان الحلمية الجديدة في المبنى القديم

٢١٧	مقدمة - الانتقال إلى الحلمية الجديدة
٢١٨	مرحلة جديدة
٢١٩	سمات هذه المرحلة وخصائصها

الفصل الأول

في البناء الداخلي

التركيب البنائي للدعوة في هذه المرحلة

٢٢١	أولا - المكاتب الإدارية
٢٢٢	ثانياً - مجالس إدارات الشعب
٢٢٢	ثالثا - المركز العام
	قيادة الدعوة :
٢٢٢	أولا - الهيئة التأسيسية
٢٢٣	ثانياً - مكتب الإرشاد العام

الموضوع	الصفحة
ثالثا - لجنة العضوية	٢٢٣
استطراد	٢٢٤
بعد التخرج - مشروع الألبان	٢٢٥
مفاجأة	٢٢٦
وامعتصماه	٢٢٧
إنشاء المدرسة أو تحقيق المحال	٢٢٩
مظاهرات من نوع جديد	٢٣٠
تقييم هذه التجربة	٢٣٢
إلى مشروع الألبان	٢٣٣
رأى عظيم لرجل عظيم	٢٣٤
الشأى فى الصعيد	٢٣٦
مواجهة بين المرشد العام وطه حسين	٢٣٨
عودة إلى البناء الداخلى للدعوة	٢٤٣
١ - صحافة الدعوة : مجلة التعارف	٢٤٣
مجلة المنار	٢٤٥
مجلة الشهاب	٢٤٧
٢ - الطلبة - ندوة الخميس	٢٤٧
من آثار النظام الإدارى التربوى الإخوانى -	٢٤٨
هل تقلد هذا النظام كاف لإثماره نفس الثمر ؟	٢٥١
قسم الأخوات المسلمات - لائحة فرق الأخوات المسلمات	٢٥٢
وسائل الفرق - نظام الفرق	٢٥٣
علاقة قسم الأخوات بالنظام الإدارى للإخوان	٢٥٤
نظام الأسر	٢٥٦
النظام الخاص أو الجهاز السرى	٢٥٦
الابتعاد عن القاهرة	٢٦٠
عبد الرحمن السندى	٢٦١
أول عمل للنظام الخاص	٢٦٣

الصفحة	الموضوع
٢٦٤	أول محاكمة في تاريخ الدعوة
٢٦٤	اتهام بمحاولة قلب نظام الحكم
٢٦٩	محنة أولى القربى أو الفتنة الثانية
٢٧٦	المؤتمر السادس
٢٧٧	الموضوع الأول : الشركات الأجنبية في مصر
٢٧٨	الموضوع الآخر هو الملك
٢٨٠	إلى دمنهور - في دمنهور
٢٨١	اضطهاد حكوى
٢٨٢	رب ضارة نافعة
٢٨٣	نشر الدعوة بالبحيرة - مناقشة حول الربا
٢٨٤	في فوة - تجربة ناجحة للدعوة
٢٨٦	الإقلاع عن الكيف لا يحتاج إلا إلى عزيمة
٢٨٨	الدعوة في فوة - تجديد في أساليب الدعوة
٢٨٩	بين حب الناس وحقد الرؤساء
٢٩٠	عرض من الأستاذ المرشد - في ديروط
٢٩١	كيف كانت تدار شئون الدولة
٢٩٣	عرف الإنجليز عن ديننا ما لم نعرف
٢٩٣	النقل إلى دمنهور ثانية
٢٩٤	ترشيح المرشد العام لمجلس النواب سنة ١٩٤٢
٢٩٨	كتاب قيم من المرشد العام للرئيس الجليل
٣٠١	نقل المرشد العام إلى قنا
٣٠٢	موقف المرشد العام في مؤتمر مكة
٣٠٢	موقفه من كتاب «حياة محمد» للدكتور هيكل
٣٠٥	مبررات قبول المرشد العام النقل إلى قنا

الفصل الثاني

في العمل الوطني في ظل الحرب العالمية الثانية

٣١٠	جبهة لإنقاذ البلاد
٣١١	وزارة على ماهر سنة ١٩٣٩
٣١٢	محاولة الإخوان لإنقاذ هذه الوزارة
٣١٤	وزارة الوفد في ١ فبراير سنة ١٩٤٢
٣١٧	نظرة محدودة إلى حادث في فبراير سنة ١٩٤٢
٣١٨	إنشاء الجامعة العربية
٣١٩	وضع ميثاقها
٣٢٠	السيد رياض الصلح
٣٢١	مكاسب عن طريق رياض الصلح
٣٢٣	عروض من الملك عبد الله
٣٢٤	محاولة أخرى لدخول مجلس النواب
٣٢٦	موقعة الإعادة - تدخل الجيش البريطاني
٣٢٩	موقف مسرحي للإنجليز
٣٣٠	انكشاف المؤامرة بين الإنجليز والسعديين
٣٣٢	أحمد ماهر
٣٣٤	الماسونية
٣٣٦	الطريقة العملية للماسونية
٣٣٨	القطب الأعظم
٣٣٩	على هامش قضية اغتيال أحمد ماهر
٣٤٠	من دفع على بك بدوى ضد القضاء العسكري

الباب الرابع

في ميدان الحلمية الجديدة

في الدار الجديدة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية

الفصل الأول

وصول الدعوة إلى قمة النفوذ الشعبي

٣٤٥	مقدمة
٣٤٦	حديث الثلاثاء
٣٤٧	الجولة
٣٤٨	أثر الجولة في نفوس الشعب
٣٤٩	مقياس في الزعامة الدينية
٣٥٠	الأستاذ أحمد حسين
٣٥١	إحساس الوفد بخطورة الإخوان عليه
٣٥٢	خطوات عملية لاستخلاص حقوق البلاد
٣٥٣	وزارة النقراشي الأولى - حتمد موروث دفين
٣٥٤	من آثار هذا الاجتماع
٣٥٥	في سبيل تحرير البلاد
٣٥٦	مظاهرة كوبرى عباس الثانية في ٩ فبراير سنة ١٩٤٦
٣٥٧	موقف شائن لهذه الحكرمة إزاء إندونيسيا
٣٥٨	وزارة إسماعيل صدق
٣٥٩	اتصال صدق بالأستاذ المرشد
٣٦٠	اجتماع الهيئة التأسيسية - الاتفاق مع صدق على أسس المفاوضات -
٣٦١	اجتماع ثمان للهيئة التأسيسية
٣٦٢	بيان واضح عن موقف الإخوان من هذه الوزارة
٣٦٣	نظرة الإخوان إلى الأحزاب
٣٦٤	موقف الإخوان إزاء الأحداث في خلال هذه الفترة الهامة من تاريخ مصر

الصفحة	الموضوع
٣٧٠	خطاب من الإخوان إلى صدق باشا بالحد الأدنى لمطالب الإخوان
٣٧٧	تأليف اللجنة القومية لتقوية موقف الحكومة أمام بريطانيا
٣٧٣	تجاوب الحكومة مبدئياً مع هذه المطالب
٣٧٤	تكوين هيئة للمفاوضات يغلب عليها العنصر الوطني
٣٧٤	موقف الإخوان من انتخابات لمجلس الشيوخ في هذه الفترة
٣٧٥	تبادل المذكرات بين الوفد البريطاني وهيئة المفاوضات
٣٧٥	توقف هيئة المفاوضات عن إجراء تعديل اقترحه الحكومة فيه تساهل في حقوق البلاد
	خطابان من الإخوان إلى الملك وإلى رئيس الوزراء يعلنون فيه تخليهم عن
٣٧٦	تأييد الوزارة والمطالبة باستقلالها لإخلاها بما تعهدت به
٣٧٩	إجراءات عنيفة اتخذتها حكومة صدق ضد الإخوان
	سفر صدق ووزير خارجيته عبد الهادي إلى لندن ورجوعها بمشروع (صدق - بيفن)
	- هيئة المفاوضات ترفض المشروع بأغلبية الأعضاء المستقلين
٣٨٠	الذين أصدروا بياناً بأن المشروع لا يحقق أهداف البلاد
	إصرار صدق على البقاء في الحكم وحصوله على أصوات الأغلبية في
٣٨٠	مجلس النواب بالموافقة على مشروعه وحل هيئة المفاوضات
٣٨١	أحداث شعبية عنيفة ضد هذه الحكومة حتى استقالت
	تقيب على الأحداث في خلال السنتين الماضيتين وإبرازها القوة
٣٨٢	الحقيقية للإخوان
	مقال جريدة «التيبس» عن الروح الوطنية في مصر ، ونظرتهم إلى
٣٨٤	الإخوان المسلمين
٣٨٦	وزارة النقراشي الثانية - خطاب إليه من الإخوان فيه ماضيه
٣٨٩	مواليف متناقضة هذه الحكومة
	تمسك النقراشي بأن يعرض قضية مصر على مجلس الأمن بنفسه مع
٣٩٢	أن موافقته السابقة على مشروع صدق بيفن تضعف حجته
	جهود شعبية لتأييد القضية والدعاية لها - أحمد حسين وأحمد كامل قطب
٣٩٣	ومصطفى مؤمن في أمريكا ومجلس الأمن

الموضوع	الصفحة
مظاهرة ضخمة في القاهرة في نفس اليوم لتأييد القضية ٣٩٤	
محاولة الحكومة قتل المرشد العام وسط المظاهرة ٣٩٤	
تصرف النقراشي إزاء احد كامل قصب وإزاء مصطفى مؤمن ٣٩٦	
رجوع النقراشي فاشلا وتمسكه بالاستمرار في الحكم دون أن	
يعمل أى عمل مما أسام جميع الهيئات في مصر ٣٩٧	
وقوع كارثتين في العالم الاسلامي شغلنا الإخوان عن التفرغ لهذه الوزارة ... ٣٩٨	
ثورة اليمن ٣٩٩	
اتصال الإخوان باليمن ٤٠١	
دوافع القيام بالثورة - الفضيل الورتلافي وعبد الحكيم عابدين ٤٠٢	
تطور الأمور في هذه الثورة ٤٠٣	
تعليق على هذه الأحداث ٤٠٦	
آثار هذه الثورة ٤٠٧	

الفصل الثاني

في قضية فلسطين

كلمة المرشد العام أمام لجنة التحقيق البريطانية الأمريكية ٤٠٩	
إصدار اللجنة قرارات أذهلت العالم الإسلامى متحدة شعوره ٤١٠	
مظاهرة مصر الكبرى لتأييد فلسطين في ١٥-١٢-١٩٤٧ ٤١٢	
خطاب المرشد العام في المظاهرة ويرقيته إلى مؤتمر الزعماء العرب في «عالية» بلبنان ٤١٢	
دور الإخوان في حرب فلسطين ٤١٣	
ندخل الجيوش العربية ٤١٤	
هل كان دخول الجيوش العربية صواباً أم خطأ ؟ ٤١٥	
الإخوان يتطوعون من جميع الأنحاء ٤١٦	
أول معركة للإخوان بفلسطين ٤١٧	
من بطولات هذه المعركة ٤١٨	
ما استفاد الإخوان من هذه المعركة - أسلوب جديد في مهاجمة اليهود ... ٤١٩	
حقارة اليهود ٤٢٠	

الموضوع	الصفحة
من البطولات الخارقة	٤٢١
الهدنة الأولى أو الكارثة المظلمة	٤٢١
موقف الإسخوان من الهدنة الأولى	٤٢٢
الموقف بعد الهدنة الأولى	٤٢٥
الهدنة الثانية أو ثلاثة الأثافي - بطولات محاربة لحماية انسحاب الجيش	
المصري - استرداد العسلوج	٤٢٦
استرداد تبة اليمن	٤٢٧
حماية الجيش المصري في مرحلة الانسحاب	٤٢٨
معركة التبة ٨٦	٤٣٠
مظاهر متناقضة	٤٣٤

الفصل الثالث

خطط التآمر العالمي للقضاء على الدعوة

تهديد أمريكي مقنع	٤٣٦
١ - البوليس السياسي	٤٣٧
٢ - جمعية إسخوان الحرية	٤٣٨
خطة الجمعية وأهدافها	٤٤٠
مثال لمحاولات سابقة	٤٤٢
وسائل الإسخوان في مكافحة جمعية إسخوان الحرية	٤٤٤
أثر خطة الإسخوان	٤٤٦
٣ - إعلان الحرب على الجريدة اليومية	٤٤٦
وسائلهم في محاربة الجريدة اليومية -	
أولا - حرب التحرير	٤٤٨
ثانيا - حرب الإعلان	٤٥٠
شركة الإعلانات الشرقية	٤٥٢
ثالثا - حرب التوزيع	٤٥٤
٤ - الفتنة الثالثة : أو الانتقام إلى البناء الداخلي للدعوة	٤٥٦

الموضوع	الصفحة
— الدكتور إبراهيم حسن — الأستاذ أحمد السكري	٤٥٧
— بنواطر	٤٦٢
— الحفلة الكبرى للإخوان المسلمين بسرأى آل لطف الله	٤٦٣
— الأستاذ عبد الحكيم عابدين مرة أخرى	٤٦٤
— الأستاذ حسين عبد الرازق	٤٦٥
— نشوء الفتنة وتطورها	٤٦٦
— ارتداد	٤٧٢
٥ — مع الولد وجهها لوجه	٤٧٥
نماذج من عفة الإخوان في الرد على الحملة	٤٧٩
من آثار هاتين الفتنتين	٤٨٠
مدى كراهية الملك للإخوان	٤٨١
٦ — الشيوعية	٤٨١
٧ — المحاكمات والتعذيب	٤٨٥
٨ — استغلال حرب فلسطين للقضاء على الدعوة	٤٨٨
أولا — إظهار قوة الإخوان	٤٨٩
ثانيا — استعداد اليهود وحلفاءهم ضد الإخوان	٤٩٠
ثالثا — استفاد جهود الإخوان	٤٩٢
رابعا — الحاقدون بين عاملين	٤٩٢
خامسا — الانقضاء من الخلف على المجاهدين .	٤٩٥
الفهرس	٤٩٧

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق الرسمية

٧٩/٤٧٦٤



